الباب الثالث

أحسن القصص

١ ـ آدم عليه السلام
٢ ـ إدريس عليه السلام
٣ ـ نوح عليه السلام
٤ ـ هود عليه السلام
٥ ـ صالح عليه السلام
٦ ـ إبراهيم عليه السلام
٧ ـ إسماعيل عليه السلام
٨ ـ إسحاق ويعقوب عليهما السلام
٩ ـ يوسف عليه السلام
١٠ ـ أيوب عليه السلام
١١ ـ شعيب عليه السلام
١٢ ـ موسى عليه السلام
١٣ ـ طالوت عليه السلام
١٤ ـ داود عليه السلام
١٥ ـ سليمان عليه السلام
١٦ ـ قصّة العزير
١٧ ـ قصّة ذي القرنين
١٨ ـ يونس عليه السلام
١٩ ـ زكريّا عليه السلام
٢٠ ـ يحيى عليه السلام
٢١ ـ عيسى ـ عليه السلام

obeikandi.com

obeikandl.com

الفصل الأول
آدَم عليه السلام

السلام عليك يا أبي...

السلام عليك أيها الطين الذي نفخ فيه الله الحقّ من روحه فكان إنسانًا، وعلّمه الأسماء كلّها فكان نبيًّا، وأدخل الكلام إلى عالم البشر، فكان المجتمع، وكان الإنسان.

السلام عليك أيها الآدم، الموصول بالأرض بما أكلت من الشجرة، والموصول بالمطلق بنفخة الله فيك، فأنت بالوصلين معًا خليفة الله في الأرض.

* * *

قصّة آدم عليه السلام من أكثر القصص القرآنيّ إثارة للجدل بين الواقفين عند حرفيّة النصّ، والقائلين بإعمال العقل في تأويله، وبين من قبلوا تأويل الأوّلين، وأوصدوا الباب دون الآخرين، وكأنّهم لم يفطنوا إلى أن هذا القرآن لا تنقضي عجائبه.

ومن المؤكّد أنّنا نوقع أنفسنا في شراك لا مخلص منها إلاّ بتجاوزات نحن في غنًى عنها إذا ما اعتبرنا قصّة آدم، في الذكر الحكيم، حكاية عن واقع مادّيّ، كما نعرف الواقع، ورحنا نقسر الرمز بكلّ إشعاعه على الاستكانة في قوالبنا. فليس لنا إلاّ أن نمضي في القصّة مع آي الذكر الحكيم متلمّسين واقعها الخاصّ، الذي هو غيب لا سبيل لنا إليه، وراء الرمز الذي يخاطب به الله الحقّ العقل البشريّ بما يصلح له ويُفلَح فيه.

obeikandl.com

كانت الأرض بعضًا من كرة هائلة ملتهبة، ثم استقلّت ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ ٣٠: الأنبياء[١]، فلم يكن إذ ذاك خلقٌ غير النار، و كانت قدرة الحقّ المطلقة تصرّف الأمر. والنار في العقل الإنسانيّ هي ذلك الخَلق الشرير الذي يدمّر ويمحق، أمّا النور، وهو نسبة منها، فهو الخَلق الكريم الذي سوف يصنع الحياة في قابل. ويقابل النارَ والنورَ الجنُّ والملائكةُ، وهما خَلقان هائلان، لا يعنيهما ما يعني الإنسان من شروط الحياة. وقد أُطلق عليهما معًا "الجنّ" باعتبارهما مجنونَين عن حواسّ الإنسان. ومُيِّز بينهما بالوصف، فكان هنالك الجنّ الناريّ، وهو خلاف الإنس، والجنّ النوريّ، وهو الملائكة.

و "الجَنّ" الاستتار والاختفاء، فجَنّ الليلُ: سَتر المرئيّات وأخفاها، وجُنّ فلان: حُجِب عقله، والجنين: الولد مستترًا ومختفيًا في بطن أمّه، والجِنّ الذي هو خلاف الإنس مستتر لا يُرى إلاّ بشكل معيّن مخصوص. وهذا ينطبق على الجنّ الناريّ كما ينطبق على الجنّ النُوريّ.

كانت الخليقة إذًا جنسين اثنين: الملائكة المنسوبون إلى النور، وجاء عنهم في الذكر الحكيم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ٦: التحريم، فهم خاضعون للحقّ جلّ وعلا خضوعًا جبريًّا مطلقًا[٢]. والجنّ المنسوبون إلى النار، وهم مخلوقات قادرة على الاختيار، أي أنّها تملك النجدين الخير والشرّ، وقد اختارت الكفر والفسوق والعصيان والتمرّد، فغلب عليها الشرّ، حتى برئ منها الملائكة.

وقضى الحقّ جلّ وعلا أن يكون ثمّة خلق آخر يستخلفه في الأرض، ليقوم على الحقّ الذي جعله في فطرته وفطرتها، فأعلم الملائكة أنّه سيجعل في الأرض خليفة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٣٠: البقرة[٣].

---

(١) وهذا ما توصل إليه العلم التجريبيّ مؤخرًا.

(٢) وفي لغة العصر مبرمجون على هذا الوضع.

(٣) وتقديم كلمة الأرض في العبارة يعني تركيز استخلاف الإنسان على ما يرتبط بوجوده مباشرة، وهو حفظ الحياة في كل أشكالها.

خليفة في الأرض! ومَن أجدر بذلك ممّن لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؟ ولعلّهم أرادوها قُربى فعرضوا أنفسهم للقيام بما أراد، وزكّوها بإشارة لطيفة خفيّة إلى أنّهم خير من يصلح لهذه الخلافة، وهم يعرفون أنّه أعلم بمن اتّقى. ولكنّ للحقّ تدبيرًا لا يحيطون به ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ٣٠: البقرة.

❋

ولا ينبغي أن تذهب عقولنا إلى أنّ الخطاب بين الله وملائكته قد وقع كالذي يقع في دنيا البشر، وأن نتصوّر أن الله جلّ وعلا قد جمع الملائكة، وشافههم بالأمر. واستمع إلى قولهم، ثم ردّ عليهم. فالكيفيّة فيما يخُصّ الذات الإلهيّة، ممّا لا يُجدي في التوصُّل إليه تفكُّر ولا تدبُّر، ولا يُسعف في تصوّره قياس ولا خيال، ذلك أنّه لا تدركه الأبصار، وما لا تدركه الأبصار، ولا غيرها من الحواسّ فلا كيفيّة له.

والقول قد يكون أمرًا، أو إيحاءً، وقد يكون إعلانًا أو إعلامًا، كما أنّه قد يكون سرًّا أو إسرارًا، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ ١٠: الرعد، وقوله: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ ١٣: الملك. يؤيّد هذا إسناد اللفظ إلى القول ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾ ١٨: ق. فاللفظ والقول إذًا ليسا واحدًا، إذ يختصّ القول بالكلام المقيّد المفهوم، سواء أكان سرًّا أو جهرًا، فإذا لفظته، أي دفعته من داخلك بآليّة التصويت، كان لفظًا.

يعتمد الخطاب القرآنيّ على الرمز الموحي لخلق مناخ يخدم الفكرة، وتعتبر القصّة، بما تملك من عناصر الجذب والتأثير، الوعاءَ الأمثل للإيحاء في القرآن الكريم. وقد شاء الحقّ جلّ وعلا أن تتبوّأ الشورى مكانتها في المعاملات على كلّ الصعُد، من الشؤون الخاصّة في محيط الأسرة والصحبة والعمل، إلى الشؤون العامّة في إدارة الدولة وتصريف أمورها، فساق خبر الاستخلاف في الأرض على الصورة التمثيليّة لترسيخ تلك القاعدة الحيويّة في أسس الفكر الإسلاميّ ومنطلقاته، ليُصار إلى اعتمادها تلقائيًّا، وجعلها صبغةً للمجتمع الإسلاميّ.

والشورى من روح الإسلام التي تعتمد النظر إلى الفرد في سياق الجماعة. فقد جاء في الذكر الحكيم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ١٥٩: آل عمران، وجاء أيضًا ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ٣٨: الشورى. وقد أُمر بها محمّد ﷺ، وجميعُ الأنبياء. وتحتمل صيغة الخطاب في آية الاستخلاف هذا المفهوم، فيكون في ذلك درس للناس، وإرساء لقواعد الشورى في المجتمع.

ومن اللافت أن الأمر بالشورى تنزّل به الروح الأمين بعد غزوة أُحُد التي أخفقت فيها الشورى... فكأنّه تبرئة لها من تبِعة ما جرى، ونفي لما قد يدور حولها من شبهة المسؤوليّة عنه. ممّا يشي بالحرص عليها، واعتبارها أوليّة في الأمر.

وفي ضوء القول بأن آدم أوّل مخلوق بشريّ على وجه الأرض، كان التساؤل: كيف علم الملائكة أن ذلك الخليفة سوف يفسد في الأرض، ويسفك الدماء قبل أن يكون؟ وكان الجواب الأكثر تداولاً أن الملائكة كانوا يعرفون ذلك بما أوتوا من قوّى. ومن الإجابات ما ذكره ابن كَثير في قصص الأنبياء «علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممّن كان قبل آدم من الجنّ والبنّ. قاله قتادة»[1].

بشر من طين

وُجد الإنسان إذًا من منشأ طينيّ وجوديّ، وجعله الله تعالى بشرًا، لا شيطانًا ولا ملاكًا. ونحن إذا استطعنا أن نتحرّر من جمهور التأويلات، وندخل النصّ القرآنيّ لنقف على شأن هذا الخلق، وجدنا أنفسنا أمام المعطيات التالية، وترتّب علينا أن ننطلق باستنتاجاتنا منها:

أ ـ ليس لدينا دليل حقيقيّ على أنّ آدم النبيّ الذي علّمه الله الأسماء، وأسكنه وزوجه الجنّة هو المخلوق الأوّل الذي انحدر منه الجنس البشريّ كلّه، وكلّ ما ذُكر من الأدلّة على ذلك لا يثبت للتحقيق.

---

(١) قصص الأنبياء ١: ٢٥.

ويحتجّ القائلون بكون آدم النبيّ أوّل مخلوق بشريّ، بما جاء في القرآن الكريم من أنّه خلق من طين وتراب وصلصال وحمأ مسنون، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ ٧١: ص، وقوله على لسان إبليس: ﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ ١٢: الأعراف، وقوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ ٦١: الإسراء، وقوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ٥٩: آل عمران، وغيرها من الآيات. ولكنّ ذلك لا يخصّ آدم النبيّ، بل يخصّ جنس الإنسان، يتّضح ذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ ٢: الأنعام، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ١٢: المؤمنون، وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ ٧: السجدة، وإسناده إلى آدم إنّما هو إشارة إلى نشأته الأولى وجوديًا، وهو قول ينطبق على أيّ كان من الناس، فكلّنا خلقنا الله في هذا الوجود المادّيّ، من ترابه ومن طينه، شأننا في ذلك شأن كل المخلوقات على هذا الكوكب، حيث يؤول إلى تراب كلّ ما يمكث في الأرض من مكوّناتها.

ثم إنّه لا يسعنا استبعاد احتمال كون الدلالتين تتقارضان كلمة آدم، التي تخصّ النبيّ الأوّل تشبيهًا له بالإنسان الأوّل، وتكون القرينة أو القرائن الحكَم في ترجيح إحدى الدلالتين حيث ذُكرت الكلمة[١].

وعلى رأس ما يحتجّ به القائلون بأن آدم النبيّ أوّل مخلوق بشريّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ٥٩: آل عمران، ويرى المحتجّون بالآية أن آدم كان طينة ثم نهض، بكيفيّة لعلّها كتلك التي وصفوا لنهوض حمار العُزير[٢]. ولكن واجههم إشكال في مجيء " كن فيكون "، بعد الخلق، في حين يقضي المنطق أن يأتي الخلق بعد الإذن بالكينونة، كما اضطربت أقوالهم في التراخي الذي أفادته «ثم» في الآية. وقد أورد الرازي في تفسيره طائفة من أقوالهم في ذلك[٣].

---

(١) كبعض روايات حديث الذرّ، حيث الآية تخصّ بني آدم، ولا علاقة لها بآدم النبيّ.

(٢) انظر قصة العزير.

(٣) انظر "التفسير الكبير" تفسير الآية ٥٩ من سورة آل عمران.

وإذا انطلقنا من أن الغاية في الآية نفي الألوهيّة عن عيسى رغم أنّه ليس كسائر البشر[1]، كان المعنى: إن أمر عيسى، أي مَثْله، عند الله كأمر آدم، كلاهما بشر من تراب، لكنّه ليس كسائر البشر، من حيث أنّه أُعطي، بـ «كن»، كينونة لم يُسبَق إليها. فآدم بشر من تراب كا ن أوّلَ إنسان بـ «كن»، وعيسى بشر من تراب كان أوّلَ مولود من دون أب بـ «كن».

ولعلّ بمكنتنا أن نوسّع نطاق المثليّة بين عيسى وآدم عليهما السلام، فنجعلها، إضافة إلى الخلق من تراب، الكينونة الخاصّة المميَّزة لكلّ منهما، وهي في آدم عليه السلام كونه النبيَّ الأوّل، صاحب الأسماء، وأوّل إنسان بلغ عقله نصاب الكمال المقرّر لبني البشر[2]، وهي في عيسى عليه السلام كونه ذلك الإنسانَ الفريد بنسبة ما فيه من روح الله، إذ اقتصرت بشريّته على ما يمكّنه من تبليغ الدعوة[3].

أمّا التراخي الذي أفادته «ثم» في الآية، فسوف يجد له تفسيرًا لدى كلامنا عن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ ٧٢: ص، إن شاء الله.

ومن الجدير بالذكر هنا أن قول إبليس لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ ١٢٠: طه؟ يفيد أن آدم يعرف الموت، ويعرف أنّه سوف يصيبه، بما رأى وخبر من سَرَيان هذه السُنّة المرادفة للحياة على مخلوقات مثله[4]، ولولا ذلك ما كان لإغرائه بالخلد من معنى. وكذلك الحال بالنسبة إلى المُلك، فالمُلك والتملّك ظاهرة اجتماعيّة حتى في أكثر صورها بدائيّةً. وهذا يعني أن آدم لم يكن قطّ وحيدًا كما صوّره خيال أصحاب الروايات والقصّاصين، وكما نسبوا إلى ابن عبّاس وصفه.

وممّا يحتجّون به أيضًا قوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا

---

(١) إذ أن زعمهم أنّه إله أو ابن الله كان بسبب هذا التميّز.

(٢) وقال القاضي: "آدم ليس عبارة عن مجرد الأجسام المشكّلة بالشكل المخصوص، بل عبارة عن هويّة أخرى مخصوصة وهي: إمّا المزاج المعتدل، أو النفس" (الرازي: التفسير الكبير ٣: ٢٤٤). فلعلّه يرضيه، رحمه الله، أن تكون تلك الهويّة ما ذكرنا.

(٣) حيث اقتصرت ترابيته على أمّه وحدها، فكان ذلك الكيان المنقطع النظير الملآن بروح الله الحقّ.

(٤) ولا ينفع هنا أن نعتبر أن آدم قد رأى الموت يصيب مخلوقات أخرى، ذلك أنّه كما يزعمون حالة فريدة، وما من دليل على أنّه سوف يصيبه ما يصيب مخلوقات ليس منها وليست منه.

﴿زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ١٨٩: الأعراف، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ ١: النساء. فقد اعتبروا النفس الواحدة آدمَ الذي هو الإنسان الأوّل، وهو ما فرغنا من نفيه، واعتبروا الغاية من العبارتين: «وجعل منها زوجها»، و«وخلق منها زوجها» أن أحد الزوجين قد جُعل أو خُلق من الآخر جسديًا، وبما أن آدم هو المخلوق الذي انتفض من الطين وكان أوّل بشر، فزوجه هي التي خُلقت منه.

ثم استعاروا قصّة الضِلَع التوراتيّة، ولفّقوا بينها وبين ما جاء في بعض حديث رسول الله من أن المرأة خُلقت من ضِلَع، ومن ذلك قوله ﷺ: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلقت من ضِلَع، وإن أعوجَ شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»[1]. وليس فيما جاء عنه ﷺ أن زوج آدم خُلقت من ضلعه، وإنّما ذُكر ذلك في قول للشافعيّ رضي الله عنه، جاء في سياق حديث بينه وبين أبي اليمان المصريّ[2].

والمراد بالآيتين الإشارة إلى إعجاز تدبير الخالق، في جعله الجنس البشريّ أزواجًا، لتوفير السكن، والتوازن النفسيّ والمادّي اللازمين لاستمرار الإنسان على هذه الأرض. ومن هنا كان الحرص على ذكر عبارة «نفس واحدة»، وكلمة «زوجها». فليس المراد إذًا القول بخلق البشر من رجل واحد.

ب ـ كما أنّه ليس لدينا دليل معتبَر على أن آدم أوّل مخلوق بشريّ، فإنّه ليس لدينا دليل حقيقيّ على أنة أوّل مخلوق تمتّع بالعقل، أي أن من كان قبله ومن حوله لم يكونوا عاقلين، ذلك أن هذا من البديهيّات التي لا تحتاج إلى أدلّة عليها إذا احتكمنا إلى ما جرى عليه أمر الله في هذا الوجود، وسننه الثابتة فيه التي لن تجد لها تبديلاً أو تحويلاً. ونحن واجدون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ٣٣: آل عمران، جمعًا بين آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران في الاصطفاء، وهذا، وإن كان لا يحتّم، فهو يمكن أن يعني، أن اصطفاءه كان لما

---

(١) صحيح البخاري: ٣١٥٣.

(٢) سنن ابن ماجه: ٥٢٥.

اصطُفي له هؤلاء، وهو التميّز البالغ حدّ النبوّة، كما يعني أنّه اصطفاه من مجموعة كما اصطفاهم، فهو يتميّز عمّن حوله تميّزًا، ولا يختلف عنهم اختلاف ذي العقل عمّن لا عقل له.

ويلاحظ أنّ أوّل إشارة إلى آدم كانت ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ٣١: البقرة، فهذا إذًا مركز شخصه، وأوّل ما أراد الله أن نعرفه عنه. ولو أنّ آدم كان أوّل بشر أو أوّل إنسان لكان ذلك أوّل ما يُعرَّف به، وهويّةً تُغني عن كلّ هويّة(١).

فقعوا له ساجدين

ثم سوّى الله الحقّ البشر الطينيّ الأصل، أي أعدّه ليكون مؤتمنًا على الحقّ في الأرض بنفخه فيه من روحه. ذلك أنّه بتلك النفخة أبلغه القدرة على الاستنباط، فطفق يتوصّل إلى العلم عن طريق عمليّات عقليّة معقّدة(٢)، عبر أحقاب طويلة. ثم كان آدم النبيّ، الذي علّمه الله الأسماء كلّها(٣)، أي ابتكر اللغة المنطوقة كوسيلة للتعبير والتفاهم، فكان أوّل مخلوق بشريّ طينيّ بلغ الكمال العقليّ الذي أذن الله به للبشر، وحقّق بذلك الشرطين اللذين أوجبا على الملائكة السجود له، والاعتراف بأهليّته للاستخلاف في الأرض دونهم.

فلمّا رأى الملائكة ذلك، كان برهانًا لهم على أن هذا المخلوق أصلح منهم لخلافة الأرض، لما فيه من روح الله المبدع، بينما هم لا علم لهم إلاّ ما عُلِّموا. ولأنّه مختار وهم يفعلون ما يؤمرون.

إن كلّ ما يتفتّق عنه عقل الإنسان، من الإبداع والأفكار المتميّزة، إنّما هو من روح الله التي نفخها فيه، فصار بها مكرّمًا على الخلق كلّه. ولئن اعتبر كثيرون أن آدم بطل الخطيئة والتوبة، فهو قبل ذلك بطل تعلُّم الأسماء كلّها.

---

(١) فأنت تعرّف موضوعًا ما، ولاسيما أول مرة بأبرز خصائصه، أو بما يتضمن تلك الخصيصة حكمًا. فتقول: الماء مادة... ثم تتوالى الصفات، أو تقول: الماء سائل، لأن كلمة سائل تعني المادة حكمًا.

(٢) وصاحب هذا أعلى مرتبة من الملقَّن الذي لا يعلم إلا ما عُلّم.

(٣) عندما أنبأ آدم الملائكة بالأسماء، قالوا بأسف وخضوع: "سبحانك، لا علم لنا إلاّ ما علمتنا" ٣٢: البقرة، وهو اعتذار عن موقفهم من الاستخلاف، واعتراف بالعجز عن أن يأتوا بمثل ما أتى به آدم بعقله المستنبط. وهذا معنى التعبير الحديث في وصف الملائكة بالمبرمجين.

تحفّظ بعض المفسّرين على القول بأن سجود الملائكة لآدم كان لتفوّقه عليهم بعلمه ما لا يعلمون. فهم لم يسيغوا إثبات تفوّق الإنسان على الملائكة، ولكنّ المتأمّل لا يجد ما يُلزمه باعتبار كلّ الملائكة قد أُمروا بالسجود لآدم. فالملائكة كثير ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ ٥: الشورى، لكثرة ما فيهنّ من الملائكة. ونستطيع، انسجامًا والتحفُّظَ المذكور، القول: إنّ الذين أُمِروا بذلك مجموعة من الملائكة كانوا حاضرين لدى تمام مُعجزة آدم تلك. وممّا يدعم هذا أن هؤلاء لم يفلحوا في القيام بعمليّة التسمية، ولا يجوز لنا أن نفترض خلاف ذلك، بسبب قوله تعالى ...﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ٣١: البقرة. وهكذا فلا مشكلة في اعتبار سجود الملائكة يعني أنّ آدم يعلم ما لا يعلمون، ولا سيّما إذا اعتبرنا أن الملائكة الذين أُمروا بالسجود هم فريق من الملائكة حضروا الإنباء بالأسماء.

ولكنّ النصّ القرآنيّ صريح ومباشر، ولا يحتمل في حدّ ذاته إلاّ القول إن الملائكة جميعًا قد سجدوا، ولا لزوم للقول إنهّم الذين كانوا حاضرين وقت الخطاب، ذلك أن هؤلاء أيضًا لا دليل من النصّ على أنّهم فريق من الملائكة، بل جنس الملائكة.

فضلاً عن أنّه لا مشكلة في اعتبار أن الملائكة «كلّهم أجمعين» قد سجدوا لآدم لكونه تفوّق عليهم[1]. وكيف لا يتفوّق، وهو دون الخلق، بما فيهم الملائكة، قد نفخ فيه الله من روحه؟! ثم إن السجود المعنيّ هو الإقرار بالتفوّق، ولم يكن، كما سبق القول، لآدم الطين، بل لنفخة الله فيه. وقد رأينا ما حاق بإبليس لأنّه أبى السجود لها. والتوكيدان «كلّهم أجمعين» جديران بإسقاط تلك التبريرات، فلا بلاغة في ذكر توكيدين في مثل هذا المقام إذا كانا يخصّان مجموعة الملائكة الحاضرين، فهؤلاء ساجدون كلّهم لأمر الله حكمًا، ولا حاجة إلى التوكيد. وليس هذان التوكيدان بالقليل، ولاسيّما إذا أضيف إليهما افتقارنا إلى دليل من أيّ نوع كان نقليّ أو عقليّ، خلا كون الملائكة أنواعًا، وهو لا يرقى إلى مرتبة الدليل في حالتنا هذه.

(١) وممن قال بهذا ابن كثير. قصص الأنبياء ١: ٢٩.

ممّا يقوّي القول إن الله لم يأمر الملائكة بالسجود لآدم، بل لما نفخه فيه من روحه، التراخي الزمنيّ بين القضاء بالاستخلاف، وبين عرض الأسماء على الملائكة، فسجودِهم. فنحن نستشفّ، من ردّه تعالى على موقف الملائكة المتحفّظ من الاستخلاف، روح الاستمهال، والحرص على الإيماء من بعيد إلى أنّ ما قالوه ليس الصواب، وأنّ تدبيرًا ما يتمّ في ظهر الغيب، يعلمه هو ولا يعلمونه، وليس الحين حين إعلانه ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ٣٠: البقرة.

[أمّا النقلة المباشرة إلى تعليم آدم الأسماء كلّها فهي نقلة لفظيّة تختصر سرد الأحداث، وتطلق للمخيِّلة العنان لتتصوّر الزمن الفاصل بين الحدَثين[١]: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ ٣٠: البقرة، و﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ٣١: البقرة. وهو زمن طويل استغرقه تعليم آدم الأسماء كلّها ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ ٣١: البقرة، ويقتضي قوله «عَلَّمَ» وجود زمن يستوعب عمليّة التعليم، حيث التعليم ترسيخ للمعرفة، عن طريق إدامة التأثير، وتكرار المؤثّر، وعمليّة التعليم هذه تغطّي ذلك الزمن مهما أسعفنا خيالنا بإطالته، ويؤنسنا في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ * فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ ٧١ و٧٢: ص.

فلنتصوّر الزمن الذي أراد الله لذي اللبّ أن يتصوّره بين قرار الاستخلاف في الأرض والسجود لآدم. ونحن لا نملك إلاّ أن نسمّيه زمنًا، لأنّه يخصّ هذا الوجود الماديّ، ولكنّه في المطلق إرادة ناجزة، وأمرٌ عَبر «كُن»][٢].

وتستوقفنا في السياق نفسه ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ٣٣: البقرة، ممّا يشي بأن تدبيرًا حكيمًا قد تمّ للوصول إلى مرحلةٍ تتيح مثل هذه المقولة، وهذا التدبير هو مسيرة الإنسان إلى مرحلة الآدميّة أو النفخة أو تمام العقل، وهو ما عبَّر عنه الحقّ بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾ ٢٩: الحجر. ثم هناك دلالات ما سوف يأتي عن موقف إبليس العجيب من تكريم آدم.

---

(١) وقد اعتبرها كثيرون دالة على تواليهما، ولكن صيغة الفعل " علّم " تقتضي وجود الزمن، كما سوف نبين، مما يضعف ذلك الاعتبار.

(٢) من بحث «الحق المطلق» للكاتبة.

وعلَّم آدم الأسماء كلّها

والقول الأكثر شهرة وتداولاً في تعلّم الأسماء أن الله علّم آدم الأسماء كلّها، حتى علّمه القصعة والقصيعة، وهو قول يوحي أن تعلّم الأسماء كلّها يعني وضع أسماء لها. وهذا لا يعدو القشرة الخارجيّة للكلام.

وقد ذهب بعضهم إلى أن تعلّم الأسماء يعني امتلاك آدم عليه السلام القدرة على التعبير باللغة المنطوقة عن الأشياء مادّيّة ومعنويّة، وهو الصواب. ولكنّ أكثرهم على أن آدم عليه السلام، في الحالتين، قد أوتي ذلك دفعة واحدة، رغم «تعلّم»، بينما يقولون بتسويته خَلقًا، رغم النصّ صراحة على أن ذلك تمّ بـ «كن»[1].

ولعلّ الذهاب إلى أن تعليم آدم الأسماء كلّها هو بعض من تسويته ككلّ أكثر إحكامًا، فهو قد سوّي، أي جرت عليه سنّة الله الحقّ بما نفخ فيه من روحه، فتطوّر وارتقى وتعلّم حتى وصل إلى ابتكار اللغة المنطوقة، أو التعبير الكامل بالصوت. وهذا سبق نبويّ، أي على مستوى الإنسانيّة، لآدم عليه السلام[2].

لقد كان تعلّم الأسماء كلّها معجزة آدم عليه السلام، وقيل إن كتابه عليه السلام كان المعجم «في حديث أبي ذرّ أنّه قال: يا رسول الله أيّ كتاب أنزل على آدم عليه السلام؟

قال: كتاب المُعجم.

قلت: أيّ كتاب المُعجم؟

قال: ا ب ت ث ج.

قلت: يا رسول الله كم حرفًا؟

قال: تسعة وعشرون حرفًا»[3].

وهذا الحديث، كائنة درجة الثقة فيه ما كانت، يعكس فهمًا للآية يقوّي القول بأن تعلّم الأسماء كان مُعجزة آدم، والبطولة الخاصّة به، لا بين الأنبياء فحسب، بل بين بني الإنسان مذ كان وإلى أن ينتهي دوره على هذه الأرض. ومِثل ذلك رواية تقول:

---

(١) علمًا أن "كن" هذه لا تعني بالضرورة ما توحي به من لفظها، أي لا تعني كلمة "كن" يلفظها الحقّ جلّ وعلا، فيكون ما أراد، ولكنّها تهيئة الحال لوجود ما يريد وفق أمره.

(٢) انظر الباب الأول: في النبوّة والأنبياء.

(٣) ذكره حاجي خليفة: مقدمة كشف الظنون ص ٢٥.

«إن آدم عليه السلام كان يرسم الخطوط بالبنان، وكان أولاده تتلقّاها بوصيّة منه، وبعضهم بالقوّة القدسيّة، القابليّة القلبيّة»[١].

[وقد رفض بعضهم الاستدلال بطفولة الإنسان على طفولة الإنسانيّة، ولاسيّما في اكتساب اللغة، ولهذا وجاهته، من حيث أن عمليّة التلقين بالنسبة إلى الطفل تطغى على محاولاته الفطريّة الأولى للتعبير عن حاجاته، فهو سَرعان ما يكتشف دور الصوت في التعبير لدى سماعه الناس يتكلّمون ويكلّمونه، وسَرعان ما يكيّف أصواته وفقًا لما تواضعوا عليه، وينتهي الأمر بالعمليّة إلى التلقين الكامل.

بيد أن علينا أن ننظر إلى الأمر من زاوية أخرى، فتسمية الأشياء في الأصل تقوم على عدّة عمليّات عقليّة سابقة على صورة التسمية، ذلك أنّها تعني إعطاء الشيء هويّة واصفة، يُتواطأ على اختصاصه بها. والطفل يكتشف الأشياء ثم يربط بها الأسماء التي يلقّنها، أو تتداخل العمليّتان، ولكنّهما لا تنفصلان، فلا يتعلّم الطفل الاسم مجرّدًا، بل يتعرّفه حصرًا عن طريق ربطه بمُسمّاه، وتلك هي عمليّة التسمية.

والتسمية باللغة المنطوقة[٢]، أي التواصل والتفاهم بواسطة أصوات متواطأ عليها، واحدة من صور التسمية، هي الأكثر انتشارًا في بني الإنسان، ونقطة التحوّل من البشريّة إلى الإنسانيّة العاقلة، وبداية تاريخ الإنسان في هذا الوجود. وهي معجزة آدم عليه السلام][٣].

والمسمّيات كلّها ماديّة كانت أو معنويّة خزائن أو مخزونات أو مكنونات في علم الله، ينزّل منها لوقته ما شاء أن يبديه ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) هناك تسمية باللغة المشاهَدة أي لغة الإشارة، وتسمية بالرمز المحسوس بالسمع أو بالبصر، ومنها إشارات المورس.

(٣) من بحث "الحق المطلق" للكاتبة.

﴿مَّعْلُومٍ﴾ ٢١: الحجر[١]. وعلى هذا يكون قولنا: «إن الله قد علّم آدم الأسماء بنظرة جعله ينظرها في خزائنه» يعني أنه علّمه الأسماء بإبلاغه القدرة العقليّة على صنع هُوّيّات صوتيّة لكلّ ما في محيطه، ممّا تُوصِل إليه حواسّه مؤشّراتٍ عليه. وما تلك القدرة إلاّ من نفخة روح الله فيه.

وقيل إن آدم لم يكن رسولاً... ولكنّ كونه أوّل مخلوق عُلّم الأسماء، أي استعمل اللغة الكاملة يعني أنّه يحمل رسالة[٢]. ذلك أن الكلمة عبر تاريخها صلة بين المطلق وبين الإنسان، ولا يعقل أن تشذّ الكلمة التي أرّخت لوجود الإنسان على الأرض عن هذه القاعدة.

أأسجد لمن خلقت طينًا!

أمر الله الملائكة كلّهم أجمعين أي "بما فيهم إبليس" أن يسجدوا إقرارًا بحكمته في جعل خليفة الأرض من طينها، واعترافًا بتفوّق ذلك الخليفة بما فيه من روح الله، وذلك توكيدًا لعبوديّتهم لله الحقّ، ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ ٧٣ و٧٤: ص.

وفي موقف إبليس موعظة لكلّ صاحب كفاءة ... فإبليس عبَد الله عبادة عظيمة، حتى قيل إنّه ما من موضع شبر في السماء إلاّ سجد لله فيه. وبهذه العبادة بلغ إبليس مرتبة الملائكة، بل غدا رئيسهم، وطاووسهم. وهو لقب يشي بالإعجاب بالذات التي هي مُعجِبة حقًّا... وقد أدّى هذا بإبليس إلى أن أمِن مكر الله، أي غفل عن سرَيان سُننه الحتميّة في خلقه، وزيّنت له نفسه أنّه يمكنه التهاون، أو أنّه مستحقّ للاستثناء، فأتاه الله من حيث لا يحتسب، وما كان له ألاّ يحتسب، ولكن غرّته أناه فأهلكته.

وأنت مهما بلغت من العبادة، وتولّي الله، فلست بمأمن أن يجد إبليس طريقه إليك عبر هذه الأنا، حتى إن من أولياء الله من يتساهلون غفلة أو طمعًا أو دلالاً على الله فيهوون. وإذا هوى

(١) وخزائن جمع خزينة، بمعنى مخزونة. أي أن كل ما كان، وما هو كائن من شيء من الأمر والخلق مخزون في علم الله المطلق، وكونه كذلك يعني قصر علمه والتصرف به لوقته على الله وحده. يدل على ذلك تمام الآية.

(٢) انظر الفصل الأول: في النبوّة والأنبياء.

الوليّ فقد انتهى... كأنّ عقوبة الكبير للكبير كبيرة كما يقول ابن تيميّة.

لقد أهلكَت " أنا " فِرعَون، ووصلت به إلى الدمار عندما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ٢٤: النازعات، وأعنتت موسى عندما قيل له: من أعلم الناس يا موسى؟

فلبَست عليه بشريتُه استشعار نعمة الله[1]، والتلهّف على الشكر بالذكر، فقال: أنا.

فانتهى به قوله هذا إلى سلسلة من الدروس القاسية على يد العبد الصالح، حصد منها البراءة الكاملة من كلّ أثر للعُجب قد توسوس به النفس، والصممَ عن صوت الأنا مهما توارى وتخفّى، وخلص منها إلى أن علمه لا شيء إلى جانب علم الله[2].

لقد أخرجت الأنا الشاغبة إبليس من الجنّة ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ١٢: الأعراف، وعلِق في شراكها فأعمته، فأخطأ مرّتين، الأولى حين لم يدرك أنّه لن يسجد حين يسجد لآدم، طينًا كان آدم أم نارًا، وإنّما يسجد امتثالاً لأمر الله، والثانية أنّه لا يسجد حين يسجد للطين، وإنّما يسجد لما في هذا الطين من روح الله، فقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ ٢٩: الحجر. ولو أنّها «سوّيته» فقط لاختلف الأمر، وإن وجب السجود.

تمرّدت «أنا» إبليس فأعمته، فلم يرَ في آدم إلاّ جسدًا من طين مَهين، ولذلك أبى أن يعترف بتفوّقه عليه، ويوثّق ذلك الاعتراف بالسجود، بل راح يبرّر ويجادل ويحاجّ، وانتهى به الأمر إلى التحدّي والتمرّد، فطُرد ولُعن. وهكذا حبط كلّ عمل إبليس السابق، وجعله الكبر والتعالي هباءً منثورا.

ولم تكن خطيئة إبليس هفوة عارضة، ولكنّها كانت خليقة أصيلة موهّها الرياء، حتى إن الملائكة لم يتبيّنوها ـ كما في قول من قال: إن إبليس كان من الملائكة، وهو مختلف فيه ـ ولبثوا يعدّون إبليس منهم حتى فضحه الله. وهو لا شكّ فاضحه، لأنّه

---

(١) وهو لا يعدو كونه بشرًا رسولاً.

(٢) انظر قصة موسى عليه السلام.

قضى أن خليقة المرء لا تخفى. ومن عيون الحكمة قول زُهير بن أبي سُلمى:

ومهما تكنْ عند امرئٍ مِن خليقةٍ وإن خالَها تَخفى على الناس، تُعلَمِ

والخليقة كالمرض، تظهر أعراضه بعد أن يستنفد الجسم قدرته على دفعه. وفطرة الحقّ في الذات تقاوم الكِبْر، وتحبسه، ولكنّها تعجز عن دحره إن لم يتعهّدها صاحبها.

اسكن أنت وزوجك الجنّة

كثر الكلام في جنّة آدم، فقيل هي جنّة المأوى، وقيل جنّة أرضيّة، فآدم لم يكن في السماء قطّ، بل خُلق من طين الأرض، ليكون خليفة فيها. وأغلبهم على أنّها في نِينَوى في شمال العراق. وقيل في نِينَوى إنّها أوّل مدينة قامت في الأرض، وكانت وطن آدم وشيث وإدريس ونوح ﷺ، ومنها تفرّق الناس في الأرض. أمّا الآخذون بنظريّة انطلاق الهجرات من جزيرة العرب، فيقولون: إن موطن آدم كان في جزيرة العرب، حيث كانت الأرض هناك جنات وأنهارًا.

كانت جنّة آدم غابات هائلة، وقد أطلق الله تعالى يده ويد زوجه فيها: ...﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ ٣٥: البقرة، وكانت توفّر أوّليّات العيش، من غذاء وكساء وماء ومأوًى آمن ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ ١١٨ و١١٩: طه. ولكنّ الله الحقّ، وقد نفخ فيه من روحه، ففعّل إرادته، وقضى أن تتدخّل في مجريات الأمور من حوله، حذّره وزوجه، أمرًا واحدًا: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ ٣٥: البقرة[١].

النهي بـ «لا تقربوا» ضرب من النهي عمّا يغلب أن تؤدّي مقدّماته إلى معصية، والمقصود منه القضاء على فرص الوقوع في المعصية لضمان تجنُّبها. وقد اطّرد ذلك الضرب من النهي في القرآن الكريم عن أمور حيويّة كالصلاة في حالة السكْر، ومقارفة الفواحش، وأكل مال اليتيم، وارتكاب الزنى، ومن ذلك الأكل من الشجرة المحرّمة في قصّة آدم ﷺ.

---

(١) كامتحان أول، أو إجراء أول لفعالية تلك الإرادة الناجمة عن نفخة الحق.

obeikandl.com

ومن الأمثلة النموذجيّة على ذلك الضرب من النهي: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ ٣٢: الإسراء، فالزنى فاحشة لا تكتمل إلاّ بمقدِّماتها، وكلّ مقدِّمات الزنى قُربات إليه، ومنها النظرة والكلمة و...وهي خطوات ثابتة باتّجاه الفاحشة المبيِّنة، التي يصدّق وقوعَها الفرج أو يكذِّبه. وقد كان النهي عن الزنى بـ «ولا تقربوا» لشدّة وعسر الامتناع عنه بعد الاقتراب منه بمقارفة مقدِّماته.

والمرء قد يملك القرار قبل أن يوغل في مقدّمات هذه المعصية، ولكنّه متى أوغل فيها جازف بسلطته على نفسه، وغدا شيئًا فشيئًا أسيرًا مغلولاً، فإذا شارف القمّة كان ضربًا من المعجزات أن يتراجع، وتصدّت له نفسه بضراوة ووحشيّة، فغدا جهاده إيّاها صراعًا دمويًّا، فإذا تمَّ له النصر، دلّ ذلك على عظم خوفه من الله وصلابة إيمانه، وحصد مغفرة الحكيم الرحيم لكلّ ما اجترح في مقدّماته، تصديقًا لقوله، ومن أصدق منه قيلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ٣١: النساء.

لكنّ السؤال الذي يفرض نفسه: من ذا الذي يملك هذا النصر؟ وكم هم أولئك الذين يستطيعون التوقّف، بعد أن يبلغوا القمّة التي يستجلب التوقف دونها المغفرة؟

إن المؤمن كيّس فطن، يعرف أنّ مُقاربة الفواحش مدعاة لارتكابها، وأنّ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه. ومن هنا كانت الحكمة في "ولا تقربوا"، ومن هنا كان على المسلم ألاّ يعصي الله ما أمره، وأن يفعل ما يؤمر ما وسعه ذلك.

أراد الله تعالى الشجرة في قصّة سيّدنا آدم رمزًا، فكانت موضوع المهمّة الأولى لإبليس، وبطلة الدرس الأوّل في عُقبى الاستجابة له، وعِبرة حيّة حاضرة في كلّ جزئيّة من جزئيّات الحياة، لمن يلغي رقابة العقل على رغائبه. ولقد أدّت الشجرة دورها، فقالت دون أن تقول: أيّها المؤمن لا تتهاون فيما نهاك الله عنه، فتفتح الباب للشيطان، فيوسّع الخرقَ، ويوردك الهلاك.

وذاق آدم وزوجه الشجرة التي نهاهما ربّهما أن يقرباها، وهو أبلغ في النهي من القول: لا تأكلا منها، فحاما حول الحمى الذي حذّرهما الله أن يحوما حوله أو يقرباه. ولم يكن آدم وزوجه بغافلَين عن ذلك التشديد في النهي، عندما ضعُفا أمام

غواية الشيطان، يدلّ على ذلك أنّهما لم يزيدا على أن ذاقاها، ولم يأكلا منها رغدًا كما كانا يأكلان من الجنّة...

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ ٢٢: الأعراف، ووجب أن يهبطا من الجنّة. فإنّ الجنّة للذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ ٦: التحريم، وقد طرد منها إبليس لتكبّره ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ ١٣: الأعراف.

اهبطوا منها جميعًا

إنّها المعصية، لقد عصى إبليس ربّه، وأبى أن يمتثل لأمره بالسجود لآدم، وعصى آدم ربّه وأطاع إبليس... وكان سؤال الحَكَم العدل إبليسَ ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ١٢: الأعراف؟ وكان سؤاله آدمَ وزوجه ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ ٢٢: الأعراف؟

واختلف الردّان، فاختلف المصيران: أمّا إبليس فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ١٢: الأعراف، وأمّا آدم وزوجه فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ٢٣: الأعراف. فطُرد إبليس ولُعن ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ٣٤ و٣٥: الحجر، وأُمر آدم بالخروج من الجنّة، ووُعد بالهدى، وأُنيط مصيره باختياره ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ٣٨: البقرة.

عِظة وعِبرة أرادهما الله لنا من خطيئتي كلٍّ من آدم وإبليس... ونخلص من كلتيهما إلى أنّ ردّ الفعل بعد الذنب يحدّد استجابة الله الحقّ، فيستمطر رحمته، أو يستجلب نقمته.

هكذا طرد الله تعالى آدم وإبليس من الجنّة، أمّا آدم فلأنّه استجاب لإبليس فغوى، وأمّا إبليس فلأنّه عصى واستكبر وجحد الحقّ... ولكن شتّان ما بين مصيريهما. فآدم وزوجه هالتهما أولى نتائج المعصية، واكتشفا أنّهما قد ارتكبا خطأً، فراحا يعملان، جهد المفلس المتورّط، على إصلاحه، وسارعا إلى الاعتراف بالخطيئة، والتماس المغفرة. فغفر لهما، فجمعا التوبة إلى الطرد. وأمّا إبليس فقد لجّ في طغيانه، وأصرّ على عصيانه، وراح يجادل ويحاجّ ويهدّد ويتوعّد. فلعنه الله، فجمع اللعن إلى الطرد.

لقد اعترف آدم بذنبه وتقصيره، وأبدى ندمه، و«من أصاب ذنباً فندم غفر الله عزّ وجلّ له ذلك الذنب من قبل أن يستغفره»[1]. وقد علم ربّ العالمين من آدم هذه الرقّة وهذا الندم، وهذا الاعتراف بالذنب الذي ارتكبه وزوجه، فهداه إلى أن يصوغ أحاسيسه تلك في ذلك الابتهال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ ٢٣: الأعراف. فغفر لهما. وفي هذا يقول القرآن العظيم: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ٣٧: البقرة.

والمغفرة حقّ لأنّ الإنسان خطّاء بحكم كونه عاقلاً، وهو ما لا يد له فيه. ولكنّها منوطة بالتوبة، لأنّه قادر على اختيار التوبة، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1]، ومن هنا فإنّ المنكسرة قلوبُهم لِما فرّطوا في جنب الله يغفر الله لهم بهذا الانكسار، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ٥٣: الزمر، ومغفرة الله عزّ وجلّ بلا حدود لتناهي عظمته في ذاته، ولكن عليك أن تستمطره إيّاها بالندم، والندم توبة، وعودة إلى الهدى ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ٣٨: البقرة.

إنّه الاختيار بين الإقرار بحاكميّة الحقّ، والتسليم إليه، وبين الضلال ـ ذلك الاختيار الذي مُلّكه الإنسان عندما نفخ الله فيه من روحه فأدرك حاكميّة الحقّ وحده لكلّ شيء، ولكلّ شأن ـ فإن أقرّ بذلك وصدّقه قولاً وفعلاً، ودان به، أي خضع إليه، وسلّم لما يقتضيه من أمر، فقد اختار مسار الحقّ، فأمن الضلال، فلا خوف عليه ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ٣٨: البقرة.

و «تَبِع» هنا تعني التوحيد، لأنّها تعني التزام طريق " لا إله إلا الله ". والتوحيد، كما سبق القول، هو القضيّة المركزيّة التي جاء بها الرسل جميعًا، وجاؤوا من أجلها ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ١٤: فصلت، وهو منطلَق مشترَك، أو قاسم مشترَك بين المؤمنين جميعًا وبين النبيّ والملائكة، لا يستطيع أحد أن يزيد على غيره فيه شيئًا. وإنّما

---

(١) مجمع الزوائد ١٠: ١٩٩ .

التفاضل بكيفيّة سلوك الطريق أي بالاتّباع. وهذا فرق ما بين قوله تعالى ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ٣٨: البقرة، **أي فهولاء لا خوف عليهم أن يضلّوا عن الحقّ لأنّهم عرفوه، فكانوا من الموحّدين، وبين قوله ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾** ١٢٣: طه، **فهو لا يضلّ عن الحقّ، ولا يشقى بسلوك طريق الباطل، أي أنّه موافق للحقّ في السلوك والعمل. فـ "اتّبع" تخصّ العمل، لأنّها تعني العمل بما تقتضيه «لا إله إلاّ الله».**

وأنت قد تقع على الذنب مرّة، ولكن إيّاك أن تعود، لأنّ العود يعني الإصرار، ويشجّع على الاستمرار في المعصية واستمراء الغفلة، الأمر الذي قد يقود إلى أمن مكر الله، فتقع الواقعة. ومعاودة الذنب وتكراره يقلّل فرص التوبة، و يُخرج المذنب عن استحقاق رحمة الله، فيكِله إلى نفسه، فيُفتضح أو يقع في شرّ عمله. وقد سرق رجل في عهد سيّدنا عُمر، فلمّا أُخذ بما فعل قال: هذه أوّل مرّة.

فقال له عُمر: لا والله... ما كان الله ليفضح عبده من أوّل مرّة.

لأغوينّهم أجمعين

ردّ إبليس الأمر على آمره، بل لم يعترف بالأمر نفسه، ورفض الطاعة، وأبى واستكبر، وخاطب المولى جلّ وعلا باستنكار: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ ٦١: الإسراء! وتطاول: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٦٢: الإسراء. فهو يتوعّد بالانتقام من ذريّة آدم، نِقمةً عليهم أن جعلهم الله خلفاء في الأرض، وسخّر لهم كلّ شيء، وأقسم بعزّة الله ليغوينّهم أجمعين ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٨٢: ص. والغواية لازمة للإنسان العاقل لأنّها لازمة لوجود العقل المختار، ولا غواية لمن لا عقل له، ولا يجوز عليه قَسَم إبليس.

لقد كرّم الله تعالى الإنسان بالعقل، وهداه النجدين، فكان عليه أن يختار بين الشكر والكفر. وهبّ إبليس ينتصر لنجده، وبلغ به الأمر أن عصى ربّه، فلم يسجد لمن خلق بيديه. فطرده الله ولعنه، فأُسقط في يده، وشغبت شيطانيّته، فأقسم على إغواء ذريّة آدم أجمعين، وازداد جرأة على الحقّ: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ ٦٢: الإسراء.

وبرّ إبليس بقسمه، فأغوى آدم فأخرجه من الجنّة، واحتنك ذريّته، بدءًا بأوّل ولدين له، فنزغ بينهما، فاختلفا، وملأ قلبَ قابيل غلاً ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ ٣٠: المائدة، فكان أوّل قتل في تاريخ الإنسانيّة.

وتستوقفنا كلمة «نفسه» في الآية، فإذا كانت نفس قابيل قد سوّلت له قتل أخيه فما دور الشيطان إذًا؟

لقد أغرى الشيطان قابيل بالشرّ، وزيّن له الباطل، حتى إذا ما استسلم إليه اتّخذ من رغبات نفسه مطيّةً له، وترك لها أن تقوده، فطوّعت له قتل أخيه، فقتله.

وبمزيد من التأمّل في دور إبليس نجد أن ديدنه أن يُخرج الإنسان من سبل الحقّ إلى متاهات الضلال. وأداته إلى ذلك الوسوسة وتزيين المعصية، ولولا تلك الأداة ما انقاد إلى الشيطان ذو عقل. ذلك أن للمعصية ظلمة، ووجهًا قبيحًا تنفر منه الفطرة[1]. وقد أدرك الشيطان ذلك، فجعل شغله الشاغل تزيين المعاصي، وحشد اللذّات من حولها، وإضفاء بريق خادع عليها، واكتناف الإنسان بها عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، فإذا ما فطن المرء إلى الجهة الوحيدة التي لا يمكن أن يسلكها الشيطان، وهي الجهة العليا، ففرّ إلى ربّه، فقد أعاذه الله منه، وإلاّ فهو واقع في شراك الشيطان لا محالة.

إن إبليس المغوي امتحان يفرضه كونُك ذا عقل، والامتحان، كما هو معروف، ضرورة لتحديد ذوي الكفاءة، فإنّه ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ ١٧٩: آل عمران. **وأنت، لكي تنال شهادة تؤهّلك لوظيفة توفّر لك عيشًا معقولاً، تسلخ أعوامًا وأعوامًا في الكدّ والتحصيل العلميّ أو المهاريّ، فما بالك بجنّة عرضها السماوات والأرض، فيها نعيم مقيم لا يدركه عقل بشر! وإذا تصوّر الإنسان درجات الآخرة، علم أن**

(١) إنّ الإنسان قادر بعقله على تعرُّف الحقّ، ومهتدٍ بفطرته إليه، فإذا برزَت له المعصية بوجهها الحقيقيّ، دون أن يزيّنها له الشيطان نفر منها، والتزم الهدى، وبطل دور الاختيار في تحديد مصيره، وسقط بذلك الفرق بين الإنسان والملاك. ومن هنا فإبليس المغوي من لوازم العقل، يكون متى كان العقل قادرًا على الاختيار.

الامتحان بإبليس ضرورة منطقيّة، ونظام حقّ أقرّه الله في الأرض، بكافّة أشكاله، لوضع الأمور في أنصبتها.

ومتى تمّ للشيطان إغواءك، وأحكم حولك أحابيله ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾ ١٦: الحشر، وانصرف إلى آخر يغويه... إنّه خُلق الشيطان، ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ ٢٩: الفرقان، فهو يتنصّل ممّن أغواه، ولا يتورّع عن تبرير نذالته تلك ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ ٢٢: إبراهيم... ويمعن في التنكيل بذريّة عدوّه الألدّ ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ ٢٢: إبراهيم.

وقد بيّن لنا الكتاب المبين خُلق الشيطان هذا في أكثر من عِظة عبر أكثر من قصّة، وأكثر من مَثَل، وأكثر من توجيه... ورغم ذلك نرى للشيطان أولياء ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ ٧٦: النساء، وحزبًا ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ ١٩: المجادلة، وقبيلاً ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ ٢٧: الأعراف، ونرى له إخوانًا ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ ٢٧: الإسراء، ونرى له جنودًا ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾ ٩٥: الشعراء ... أولئك هم شياطين الإنس ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ ١١٢: الأنعام. وشياطين الإنس هؤلاء يقومون بدور الشيطان نفسه، فيوسوسون للناس، ويوحون إليهم بالمعصية والكفر ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ ١٢١: الأنعام، فيُضلّون من يضلّون، ثم يتبرّؤون ممّن أضلّوا كما يتبرّأ الشيطان ممّن اتّبعه ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ ٦٣: القصص.

ومن هنا فإن الله يقيّض للكافر شيطانًا قرينا يلازمه، ذلك أنّه ملازم للضلال، أعمى عن هدى الله واستحضار الحقّ. وهذا للكافر حكمًا ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ ٣٦: الزخرف، أمّا المؤمن الغافل، فإن انتبه وذكر قبل الله منه وهداه.

ذلك هو ديدن شياطين الإنس من المفسدين في الأرض، أفرادًا وجماعات وأحزابًا ودولاً... فأنت ما إن تَبع نفسك، وتتّبع خطاهم حتى يتبرّؤوا منك ويتركوك لمصيرك. ويطّرد هذا في دنيا السياسة على مدار التاريخ، حيث تتّخذ الدول عملاء وصنائع من أعدائها، ثم تتخلّى عنهم، وتتبرّأ منهم بعد أن تنتهي أدوارهم.

ظلّ إبليس مصرًّا على الذنب حتى بعد الطرد واللعن، بل زاد عليه، كما رأينا، التهديد والتوعّد، وسأل الله إمهاله إلى يوم يبعثون. ولم ينتبه إلى أنّه يهوي، وأنّه هالك بإصراره واستكباره.

وكان موقفه هذا تحدّيًا أخرق لكرم الله، أخسَره وأربَح غريمه من حيث لا يحتسب كلاهما. فأنت إذا تحدّيت الكريم تضاعف كرمه بلا حدود، ولذلك قال ربّ العالمين ردًّا على قولة إبليس: «وعزّتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»[1].

وكانت تلك من أعظم نعم الله على آدم وذريّته إلى يوم الدين.

توالت حماقات إبليس بعد أن تنكّب الحقّ، واستسلم إلى عشوائيّة الضلال والباطل، فكانت عاقبة أمره خسرًا، وانعكس هذا على عدوّه الأبديّ خيراتٍ من كرم الله اللاّمتناهي، راح ينعم بها في الدنيا والآخرة، وعلى رأسها هبة الاستغفار.

لقد قضى الله الحقّ أنّه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ١١٠: النساء. فالاستغفار من أعظم العبادات، وما من عبادة تشبهه من حيث تجلّي أثره في الدنيا قبل الآخرة، وفي الذكر الحكيم ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ ١٠ - ١٢: نوح، وفي حديث رسول الله ﷺ «من لزم الاستغفار جعل له من كلّ همّ فرجًا، ومن كلّ ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب»[2]. فالاستغفار لا يُبقي للعبد ذنبا، وتتدفّق خيراته فلا تحصى عددا، هذا في الدنيا... فما بالك بجزائه في الآخرة!!!

والاستغفار ديدن المسلم الحقّ، لأنّه يمحو الذنب كما تمحو الحسنة السيّئة عندما تتبعها، فالمسلم يستغفر على كلّ حال، يستغفر بعد الطاعات والعبادات كما يستغفر بعد المعاصي والذنوب، وذلك لما يداخل العبادات والطاعات من دخَن، إذ قلّما يأتي المرء بالعبادة على وجهها الصحيح، وإذ أنّ للعبادة آفات عظيمة تحبطها كالرياء والعُجب والمفاخرة، فمصائد

(١) مسند أحمد: ١١٢٥٥.

(٢) سنن ابن ماجه: ٣٨١٩.

إبليس في الطاعات لا في المعاصي. ولهذا كلّه كان البلاء على أهل الطاعات عظيم. فإذا أنت بادرت بالاستغفار، بعد عبادة أو طاعة، فأنت تصحّح عبادتك من جهة، وتحميها من إبليس الذي يحاصرك بأحابيله من جهة أخرى، فترجو بذلك ألاّ يَحبط عملك.

يقول الرحمن الرحيم ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ٥٣: الزمر. ولأنّه القائل ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ٤٩: الحجر، ولأنّه ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ٥٤: البقرة، ولأنّه قال عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ١٥٥: آل عمران، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ٩٩: النساء، فإنّ أسباب التوبة والمغفرة والرحمة بلا حصر... دعاء وصيام في أشهر وأيّام ومواسم، وأفعال وأعمال على مدار الساعة واليوم والسنة والعمر...

أفلا تعجب بعد هذا كيف يدخل مؤمن النار، وهو بأيّ عمل، بل بأدنى عمل، مع إيمانه الصحيح، يمكن أن يدخل الجنّة!!! لقد صدق رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلاّ شقيّ»[1]. ومن أشقى ممّن يسلخ عمره يسعى ويحفد إلى الجحيم المقيم!

والاستغفار مفتاحٌ وضَعه مدبّر الأمر بين أيدي من يريدون وجهه: استغفر الله صادقًا من قلبك، ولا تعُد إلى ذنبك، يغفرْ الله لك. فعن رسول الله ﷺ «إنّ عبدًا أذنب ذنبًا، فقال: ربّ أذنبت، فاغفر لي.

فقال ربّه: أعلِم عبدي أنّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي.

ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا، فقال: ربّ أذنبت ذنباً، فاغفره لي.

فقال: أعلِمَ عبدي أنّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي.

ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا، فقال: ربّ أذنبت آخر، فاغفره لي.

فقال: أعلم عبدي أنّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثلاثًا، فليعمل ما شاء»[2]. إنّه باب التوبة المفتوح للمؤمن، وكلّ ما عليك أن تعقد العزم على الإقلاع عن الذنب صادقًا، وتعمل ما وسعك العمل على تكريس ذلك العزم والقيام بحقّ عهدك لله.

وأنت إذا أذنبت فندمت وتُبت واستغفرت، فإنّما أنت ابن آدم، أذنبت كما أذنب، وندمت

---

(١) سنن ابن ماجه: ٤٢٩٨.

(٢) صحيح البخاري: ٧٠٦٨.

كما ندم، وتبت كما تاب، واستغفرت كما استغفر، فالله يغفر لك كما غفر له، ويرحمك كما رحمه. وإذا أذنبت فأصررت على ذنبك، وجاهرت به، وحاججت فيه، فأنت ابن إبليس ومن قبيله، أذنبت كما أذنب، وأصررت على ذنبك كما أصرّ، وجاهرت به كما جاهر، وحاججت فيه كما حاجّ، فحكمت على نفسك بمثل مصيره.

وينبّئنا القرآن الكريم أن إبليس راح يمعن في التحدّي والاستكبار، ويطلق الوعيد: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ١٦: الأعراف، أي لأتربصنّ بهم عندما يستقيمون، ولدى الطاعات والعبادات.

لعلّ السرّ في أن القلوب المؤمنة أكثر القلوب معاناة من همَزات الشياطين، أن العقل كلّما ازداد قدرة على تعرّف الحقّ واتّباعه، ازداد سعة ومعرفةً، وازدادت الطرقات أمامه تشعُّبًا، فكان منها الواضح اللاحب، والمغمور الوعر، ودرجات بينهما، فتعاظمت بذلك فرص الشيطان للنفوذ إليه عبر أقلّ تلك الطرق والمسارب وضوحًا. ومن هنا كانت الوسوسة في الصلاة أعظم من الوسوسة في أماكن اللهو ومظانّ المعاصي، حتى قيل إنّ الصلاة وقتُ الدوام الرسميّ لإبليس. فأنت ما إن تُكبّر للصلاة حتى يتحفّز كلّ الأبالسة، ويُجلِبون عليك بخيلهم ورَجِلهم...

ولم يكتف إبليس بأن يقعد لآدم وذريّته في دروب الطاعات يفتنهم عنها ويحبطها لهم، بل تعهّد بإحكام الحصار عليهم إلى درجة التطويق، والأخذ بالخناق ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ ١٧: الأعراف ... وهكذا ما بقيت جهة لم يسلكها إبليس إلاّ الجهة العليا، وهي صلة العبد بربّه.

فلا سلطان لإبليس على من اهتدى إلى طريق النجاة الوحيدة وهي الفرار إلى الله، أمّا أولئك الذين لم يهتدوا إلى هذه الطريق فقد صدّق عليهم ظنّه فاتّبعوه، وأولئك الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٢٠: سبأ، وهذا الفريق المستثنى هم عباد الله الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ ٤٢: الحجر، لأنّهم يستعيذون بي ويلجؤون إليّ.

أولئك الذين يئس منهم إبليس، فاستثناهم ممّن يغوي صاغرًا، بعد أن أقسم ليغوينّ الجميع، ذلك أن الله نسبهم إليه، وأرشدهم إلى طريق النجاة ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ٢٠٠: الأعراف، وثمّة لا يصل إليهم سوء، ولا يبلغهم أذى.

أمّا الذين اتّبعوا إبليس فقد باؤوا بغضب من الله، واستحقّوا الجحيم ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ١٨: الأعراف، وقد أطلق الله الحقّ يد إبليس فيهم استهانة بهم، وتوكيدًا لبطلان ما يعدهم به إبليس وسرابيّته الخادعة ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ٦٤: الإسراء.

فإذا أنت ارتكبت ذنبًا فلا تنتصر لخطئك، ولا تجادل دون ذنبك، بل اقطع الطريق على إبليس، وبادر إلى التوبة كما فعل آدم... وممّا يطّرد في الناس تبريره، والمراء فيه، قضايا استقرّ الحكم عليها بالتحليل أو بالتحريم، كبعض المعاملات والتصرّفات، وبعض الأمور كالتصوير والتمثيل والنحت، وما إلى ذلك. والأمثل لمن يأتي شيئًا من ذلك أن يعترف بأنّه مخطئ، وأن يسأل الله تعالى التوبة، فيستمطره بذلك الرحمة والمغفرة.

* * *

كلّ نبيّ كان بطل قيمة من القيم التي يتمحور حولها الوجود الإنسانيّ، وآدم عليه السلام كان بطل الخطيئة والتوبة. وتوبة آدم تدلّ على أنّ عظمة عفو الله ومغفرته، وتوبته على التائبين من عباده، هي بعض من عظمته جلّ وعلا ... وإنّها لحكمة وعِظة وعِبرة أن

يكون أبو البشر بطل الخطيئة والتوبة. وإنّه لتجسيد معجز لمعنى الإنسان في أوّل مخلوق كرّمته روح الله بإبلاغه تمام العقل ...

[لقد آتت روحُ الله الإنسانَ ما لم يؤتَه مخلوق في مُلك الله ولا في ملكوته، إذ أعطته مساحة فيما بين المطلق ووجوده المادّي، ومنحته حريّة اختيار موضعه من تلك المساحة، فإمّا أن يُخلد إلى الأرض فيقبع في أدناها، ويكون من قبيل الشيطان، وإمّا أن يجتهد فيشارف أقصاها، فيكون ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ ٦٩: النساء[(١)]].

ولا يبلغ أقصى هذه المساحة إلاّ الأنبياء والرسل، أمّا محمّد ﷺ، فقد تجاوزها عند سدرة المنتهى، حين توقّف الملاكُ المثال، وتقدم الإنسان النبيّ الرسول ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ ٨ و٩: النجم. ومع هذا القرب من الحقّ المطلق، ومع كونه قد ﴿رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ ١٨: النجم... فإنّها «مِن» وليست «كلّ»، وإنّها «آيات ربّه» وليست حقيقته التي هي المطلق الفوقيّ، لأنّه النبيّ الإنسان، المحكوم بذلك الحاجز المقدور بين المطلق والمادّة.

هكذا قُضي الأمر، وخرج آدم من الجنّة. وفي الروايات أنّه ناداه ربّه: " يا آدم، أربع احفظهنّ: واحدة لي عندك، وأخرى لك عندي، وأخرى بيني وبينك، وأخرى بينك وبين الناس.

فأمّا التي لي عندك، فتعبدني لا تشرك بي شيئًا، وأمّا التي لك عندي، فأوفّيك عملك، لا أظلمك شيئًا، وأمّا التي بيني وبينك، فتدعوني فأستجيب لك، وأمّا التي بينك وبين الناس، فترضى للناس أن تأتي إليهم بما ترضى أن يؤتوا إليك بمثله»[(٢)].

وهذا جماع الأمر كلّه...

*

إن ما نزل على آدم هو الدين، أي هو العقيدة الأساس التي فطر الله الناس عليها، وإن سائر الأنبياء كانوا على هذا ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ

---

(١) من بحث «الحق المطلق» للكاتبة.

(٢) أخرجه ابن عساكر عن الحسن.

إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ ٢٥: الأنبياء، فلم يزيدوا على من إعادة إحياء تلك العقيدة كلّما ضعفت فعاليتها في صنع الحياة كما أرادها مبدعها. حتى إذا ما امتلكت الإنسانيّة أدواتها كلّها، وباتت قادرة على الاحتفاظ بـ «لا إلٰه إلا الله»، وحمايتها، انقطعت الرسالات[1].

* * *

وفي الروايات أنّه كانت تولد لآدم توائم ذكر وأنثى، إلّا شيثًا فقد ولد وحده. وكان أبناء آدم يتزاوجون، على ألاّ يجتمع ذكر وأنثى وُلدا معًا، وقد اختلف أوّل توءمين لآدم في تلك القسمة، فعدا قابيل على هابيل، وأراد آدم أن يردّا الأمر إلى الله، فقرّب كلّ منهما قربانًا، فتقبّل الله قربان صاحب الحقّ، ولم يتقبّل قربان المعتدي، فحسد قابيل أخاه، وحقد عليه، واستسلم إلى الشيطان، فأجّج الحسدَ والحقد على أخيه في صدره، فقتله.

صَعق قابيل لمّا رأى أخاه بين يديه جثّة هامدة، فما كان يتوقّع أن يؤدّي حقده على أخيه، وعنفه في مواجهته إلى هذه النتيجة. وانبعث في نفسه الجانب الطيّب الذي حجبه الحسد والحقد، فجعل الندم والألم يأكلان قلبه، وكانت عاقبة أمره خسرًا.

ظلّ الندم يعذّب قابيل ويشقيه، فلبث حاملاً أخاه على ظهره أيّامًا، يتنقّل به من مكان إلى آخر في حيرة مضنية، وربّما في رجاء مبهم، حتى بدأت الجثّة تتغيّر، وتضيف الرعب القاتل إلى ما جرّه الشيطان على قابيل من ويلات.

وكان من تدبير الحكيم العليم أن لفته إلى غراب يبحث في الأرض، فكان النار التي استجار بها من الرمضاء، حيث أضاف إلى ما اصطلح عليه من مآسٍ الشعورَ المرّ بالعجز والصغار ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ ٣١: المائدة.

---

(١) انظر الباب الأول: النبوة والرسالة.

ودَفن القاتل الأوّل في تاريخ الإنسانيّة، مع جثّة ضحيّته، أمن نفسه وسلامها، وكلّ إحساس بالاستقرار والطمأنينة والانتماء. ولم يعد له مقام في أرض شهدت دناءته، فارتحل بالمرأة التي لا تحقّ له عن نِينَوى إلى جنوبيّ الجزيرة العربيّة كما تقول الروايات.

❋

توفّي سيّدنا آدم، بعد أن عهد إلى آخر أولاده شِيث بأن يخلفه في مقامه، ويسير على نهجه. ويقول بعض المفسرين إنّ جسده بقي مدفونًا في نِينَوى إلى أن كان الطوفان، في زمان نوح عليه السلام، وفي الروايات أنّه حمل تابوت جدّه آدم معه إلى القدس. ولما توفّى الله شيثًا دُفن في الموصل، الأرض التي تضمّ رفاة أوائل الأنبياء.

ثم بعث في الناس سيّدنا إدريس عليه السلام.

❋ ❋ ❋

opelkandl.com

الفصل الثاني

إدريس

عَلَيْهِ السَّلَام

عليك السلام يا نبيّ القلب والفكر واليد والخُطا... أيّها المبدع بكلّ كيانك... أيّها الرائد الملهَم حيثما رمى طرفه... يا آلاف العقول في عقل رجل واحد.

عليك السلام أيّها النافذ البصر المعجز البصيرة، الذي أَلِف الطريق إلى الله حتى قيل: رُفِع إليه، وركب إليه القصدَ والصفاء والإخلاص، فخلدت بصماته في سفر تاريخ الإنسان.

* * *

لم يكن شيث على أكثر الأقوال رسولاً، ولكنّه ورث الحكمة والنبوّة عن أبيه آدم كما ورث صحفه. وفي الحديث أنّه: «أُنزل على شِيث خمسون صحيفة»[١]. وينتمي شِيث إلى المنطقة الواقعة فيما بين نِينوى وإربِل في شمال العراق، وهي المنطقة التي ينتمي إليها الأنبياء من آدم حتى يُونُس عَلَيْهِ السَّلَام في معظم الروايات. فمنهم من مات فيها، ومنهم من هاجر إلى جزيرة العرب، ثم إلى الشام، ثم إلى فِلَسطين، ثم إلى مِصر، كسيّدنا إدريس وسيّدنا إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَام.

وفي المصادر أن الناس قد تكاثروا وانتشروا في كلّ اتّجاه، وانتهت الجماعات المتوسّعة إلى جنوب العراق وشماله ووسطه. وبعد فتنة قابيل وهابيل، تنافرت تلك الجماعات وتفرّقت، فاستقرّ قابيل ومن معه في أقصى جنوب جزيرة العرب، كما في روايات أهل الكتاب. وتطاول عليهم العهد، فساد فيهم التفلُّت، وغلب عليهم اللهو،

---

(١) صحيح ابن حبان ٢: ٧٧.

obeikandl.com

واستهتروا بتعاليم آدم ﷺ، فلم تلبث أن شاعت فيهم الفواحش، واتّخذوا الأصنام، بعد التوحيد الذي واثقت البشريّة الله عليه. أمّا في الوطن الأمّ فتوارث شِيث، الأخ الأصغر لقابيل وهابيل، وذرّيته من بعده العلم والحكمة، وجهدوا في الدعوة إلى الله الحقّ مخاصين لتعاليم أبيهم آدم ﷺ، ولكنهم لم يفلحوا في التغلّب على الضلال والفساد، حيث كانت أوضار القابيليّين تطوي المسافات من أقصى جنوب الجزيرة العربيّة، إلى حوض دجلة والفرات الجنوبيّ، وتغوي الناس، فلا تكاد دعوة الحقّ، التي يضطلع بها شِيث وذريّته، تلقى منهم أذنًا صاغية.

وقد تصدّى بعض خلائف شِيث لأولئك المُغوين، ولكنّ أثرهم جميعًا كان محدودًا. وظلّ اللهو والاستهتار يسجّلان المزيد من الانتصارات في أرض الأنبياء، التي شهدت أوّل إنسانيّة مكتملة مؤهّلة للتكليف بخلافة الله الحقّ في الأرض. وهكذا ظلّت النبوّة في ذرّية شِيث بين مدّ وجزر حتى بُعث إدريس ﷺ. ولا يزال قبره في المَوصل، وسط مسجد عظيم يدعى «مسجد النبيْ شِيت».

* * *

جاء ذكر إدريس ﷺ مرّتين في القرآن الكريم، إحداهما في سورة مريم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۞ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ٥٦ و٥٧: مريم، والأخرى في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ٨٥: الأنبياء.

وذكر بعض المفسّرين كالرازيّ والقُرطبيّ أن إلياس في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٢٣ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ ١٢٣-١٢٥: الصافات، هو إدريس نفسه[١]. وعلى هذا يكون إدريس ﷺ قد ذكر في كتاب الله ثلاث مرّات.

وقيل إنّه سمي بإدريس لأنّه توصّل بمداومة الدرس إلى علم غزير بما نزل من الوحي قبله[٢]. وإدريس أوّل مرسل بعد آدم ﷺ، «بعثه الله إلى قومه فأمرهم أن

---

(١) والبعل الصنم. واعتبرها بعض المفسرين علمًا على صنم كان يعبده قوم إلياس ﷺ. وجاء في أخبار إدريس أنه مرّ بهؤلاء في سياق هجرته إلى بلاد الشام فمصر. ومن هنا ربط الرواة، ومن ورائهم المفسرون بين الشخصيتين.

(٢) نفى كثيرون صحة اشتقاق إدريس من الدرس، وأكثرهم على أنه أعجمي.

يقولوا: لا إله إلاّ الله، ويعملوا بما شاء، فأبوا، فأهلكهم الله»[1]، وفي رواية أخرى: «ويعملوا ما شاؤوا فأبوا»[2]. وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن جلّ ما نعرفه عن إدريس عليه السلام روايات تاريخيّة متباينة، لا نملك أدلّة ذات قيمة على صحّتها. ومن الملاحظ أن شخصيّة إدريس عليه السلام تتداخل وأكثر من شخصيّة معروفة، في أكثر من حضارة قديمة. ومن هذه الشخصيّات هِرمِس اليونانيّ، وأوزوريس المِصريّ[3]، وأَخنوخ التوراتيّ، كما سوف يأتي في مكانه من البحث، إن شاء الله.

وإدريس كما جاء في المصادر هو ابن آزَر بن مَهلائيل بن قَينان بن أنوش بن شِيث ابن آدَم. فبين آدم وإدريس خمسة أجداد ... وهو زمان لا يُستهان به في ضوء ما يقال عن طول الأعمار في ذلك الزمان.

مادام الجنس البشريّ قد استطاع البقاء فإن طول الأعمار مقبول منطقيًّا كواحد من أسباب زيادة عدد الناس... لقد كان على الحياة أن تتفوّق على الموت، فكان لزامًا أن يفوق عدد الأحياء عدد الأموات، وطول الأعمار يضمن بقاء الجنس البشريّ رغم اغتيال الموت معظم الأحياء، ولاسيّما المواليد والصغار. وبتقدّم أنماط العيش ونظم الحماية تقلّصت سطوة الموت على الجنس البشريّ، فأخذت أعداد البشر تتزايد وتنمو، ولزم عن ذلك بدء هبوط معدّل الأعمار، ليُبقي مجمل الأمر على النسبة المقضيّ بها للزيادة البشريّة بما يناسب ما يتعلّق بذلك من أحوال.

ولعلّ بإمكاننا القول بأن طول الأعمار كان، في الأحقاب الأولى من عمر الجنس البشريّ، يتناسب عكسًا ونضج العقل، وذلك بنسب مقدّرةٍ التفاوت في علم الله الحقّ. وقد يجعلنا هذا نستدعي موضوع كبر الأجسام وضخامتها، فلعلّ ثمّة علاقة بينهما .

---

(١) السيوطي: الدر المنثور تفسير الآية ٥٦ من سورة مريم.

(٢) الآلوسي: روح المعاني تفسير الآية ٥٦ من سورة مريم.

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن تفسير الآية ٥٦ من سورة مريم.

ولا شك في أن ما تُنوفل من ذلك لحقه كثير من المبالغة، ولاسيّما عندما بات المعمَّرون نُدرة مفرّقين، وارتبط طول الأعمار وضخامة الأجسام بالماضي الذي كان، ولا يزال، يتمتّع بظلّ من القداسة، فكان كلّ ذي صيت يوصف بطول العمر، كنوع من الوجاهة. وبقي طول الأعمار معروفًا على نطاقات مختلفة، ومن ذلك ما نجده في بعض قصص الأنبياء.

ولعلّ تمسّك أصحاب السير والروايات بالأعمار الطويلة، بعد أن تجاوزها الواقع، من مستلزمات الحرص على نسبة إنجازات الفكر الإنسانيّ إلى شخصيّات بأعيانها هي، في الغالب، شخصيّات الأنبياء، حيث أن العمر المعروف للإنسان لا يتّسع لذلك كلّه. ولمّا تداخلت إنجازات الفكر الإنسانيّ تداخلت الشخصيّات المنجِزة، أي البارزة التي حُفظ ذكرها. يعضد هذا أن الأعمار الطويلة تكاد لا تُذكر لغير الأنبياء. وكلّ عظام البشريّة تقارضوا هذا اللقب في مساحة معيّنة من ذاكرة التاريخ[1].

الدعوة في العراق

كان ظلّ التوحيد يتقلّص في الأرض، والدعوة إلى الرُشد تُنقَص من أطرافها، حتى عادت الأصنام تغزو بيوت بابل. وفي إحدى الروايات أن إدريس عليه السلام اضطلع بالدعوة إلى التوحيد متابعًا مسيرة المستخلَفين في الأرض من آبائه. وقاتل المفسدين والمشركين من ذريّة قابيل[2]، وبيّن للناس فسادهم، ودعاهم إلى عدم ملابستهم.

لكنّ الاستجابة إلى دعوة إدريس لم تسجّل تقدّمًا ظاهرًا، وظلّت بطيئة ومحدودة، فما آمن معه إلاّ قليل. ورأى إدريس عقم الدعوة في بابل، وأن مدّ الضلال قد بدأ يستنفد قواه، ويُسئم من معه من المؤمنين، في تلك المرحلة المبكّرة من عمر الدعوة، ورأى أنّه لن يؤمن معه بعدُ إلاّ من قد آمن، فقرّر الهجرة بهم.

(١) انظر قصة نوح عليه السلام.

(٢) قيل: إنّه أوّل من ركب الخيل، وحمل السلاح في سبيل الله.

اطّردت ظاهرة ضعف الاستجابة إلى دعوات الأنبياء في العراق، فقد عانى ذلك إدريس، ومن بعده إبراهيم، الذي كانت الاستجابة إلى دعوته في بلده أُور شبه معدومة.

إن إنسان تلك المنطقة، لأسباب ما يزال على العلم أن يكتشفها، إنسان أوّل في كلّ شيء. فهو كسمة عامّة مبدع، ولا يحسن ممارسة دور المتّبع، ولا يستمرئه حين تفرضه عليه ظروف قاهرة. ومن هنا يلاحَظ بطء استجابة أهل تلك المنطقة لدعوات الأنبياء والمصلحين عبر التاريخ فإذا استجابوا فقد والوا أثبت الولاء وأعظمه، ويتجلّى ذلك في دورهم البدع في الإسلام، حيث خرجوا به إلى الدنيا وجلبوا الدنيا به إلى بغداد. ولعلّ هذا سرّ هجرة الأنبياء من تلك المنطقة... إنّه تدبير الحكيم الخبير... يبعثهم فيها ليحملوا إرثها، ثم يخرجهم إلى بقاع الأرض بدعوة الحقّ، ليتكرّس النموذج الإنسانيّ القادر على الإبداع، والترقّي إلى مرتبة الاستخلاف في الأرض، كما يقتضي الله الحقّ.

اتّجه إدريس بالعصبة المؤمنة إلى الجنوب[1]، وكانت الجزيرة العربيّة محطّتهم الأولى، ويبدو أنّهم لم يجدوا فيها مناخًا صالحًا للدعوة، ولا خفضًا كالذي كان في العراق، فلم يلبثوا أن رحلوا عنها، يقودهم الشوق إلى بديل للفُرات العظيم، الذي خلّفوه في الوطن الأمّ.

تحوّل إدريس بالمؤمنين إلى الشام، ولكنّهم لم يمكثوا فيها مكثًا يُذكر، بل تابعوا المسير إلى فلسطين، حيث كانت الوثنيّة عقبة كأداء أمام الدعوة التي يحملها إدريس على عاتقه. فلم يلبثوا أن غادروها متّجهين إلى وادي النيل.

(١) وقد اطّرد النزوح من تلك المنطقة إلى الجنوب. ولعلّ انفتاح الأفق الجنوبيّ، وسلاسة الانحدار إلى السهول، في مقابل غموض وكزازة الجبال، وتجهّم المياه التي تنتهي عندها الآفاق الأخرى، كانت تغري المترحّلين بالاتّجاه جنوبًا.

openkanadi.com

وفي الروايات أنّه عزّ على إدريس والمؤمنين هجر العيش الرغد في بابل، ذات الجنّات والأنهار، فدعا إدريس ربّه أن ينقله إلى أرض ذات نهر مثل بابل، فأُري الانتقال إلى أرض مِصر. وكانت هجرته إليها منطلقًا إلى واقع جديد، برزت فيه السمة الحضاريّة لدعوته.

الهجرة إلى مصر

كانت المنطقة التي عُرفت فيما بعد بمصر أرضًا بِكرًا قليلة السكان، وعندما رأى إدريس والمؤمنون النيل العظيم، وما يحيط به من خِصب وخضرة أدركوا أنّه العوَض الذي أنعم الله به عليهم بعد هجر بابل، وسنوات التشرّد والتقلّب في البلاد، فأطلقوا عليها اسم بابِليون، ولعلّها تعني بابل العظمى أو الفضلى[1]. وقد استقرّ إدريس في صعيد مصر الأعلى، ويبدو أنّ هذا الاستقرار منحه الفرصة لتفعيل قدرات عقله الموسوعيّ الفذّ، فوضع أسس حضارة هائلة لم تزل تثير التساؤلات، لما تنطوي عليه آثار تلك الأرض من الأسرار.

المُلهَم: إدريس عليه السلام

وإدريس ، في ذاكرة التاريخ الموغل في أصول الزمان شخصيّة رائدة، ترمز إلى العلم والحكمة، ويُنسب إليها وضع الأسس الأولى للحضارة الإنسانيّة قبل الطوفان. وممّا يقال عنه إنّه امتلك مفاتيح العلوم، ونقرأ في «كشف الظنون»: ... «واشتُهر عنه من العلوم ما لم يشتهر عن غيره»...[2]. وفي الروايات أنّه كان طلاّب العلم يأتونه من كلّ مكان في الأرض المعمورة يأخذون عنه العلوم[3].

وتتداخل شخصيّة إدريس عليه السلام في كتب المؤرّخين بشخصيّة هِرمِس اليونانيّ ففي «كشف الظنون»: «ولقّب بهِرمِس الهرامِسة، والمثلّث بالنعمة، لأنّه كان نبيًّا ملكًا حكيمًا. وجميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنّما صدرت عنه في قول كثير من العلماء»[4]، كما أشار كثيرون إلى أنّه أخنوخ، الذي جاء ذكره في التوراة، وأخنوخ

---

(١) وتحتفظ كتب التاريخ القديم لمصر باسم بابليون، وقيل إنها سميت مصر بمصرايم بن حام بن نوح عليه السلام.

(٢) حاجي خليفة: مقدمة كشف الظنون ص ٢٥.

(٣) انظر الباب الأوّل: في النبوّة والأنبياء.

(٤) المرجع السابق ص٢٦.

بالعبريّة تعني المُلهَم. وفي المصادر الإسلاميّة أنّ إدريس مُلهَم بالعلوم والفنون[1]، ومن هنا جاء زعم بعضهم أنّ اسمه مشتقّ من الدرس.

ويذكر سيّد قُطب أنّ بعض الباحثين في الآثار المصريّة يقول إنّ إدريس تعريب لكلمة أُوزُوريس المصريّة القديمة. وقد صيغت حول أُوزورِيس أساطير كثيرة، منها أنّه إله، وأنّه صعد إلى السماء، وصار له فيها عرش عظيم، فكلّ من وُزنت أعماله بعد الموت فوُجدت حسناته ترجح سيّئاته يلحق بأُوزورِيس. وقد علّم أُوزورِيس الناس العلوم والمعارف قبل صعوده إلى السماء[2].

يضاف إلى ذلك ما ذكره أكثر من واحد من المفسّرين في تفسير الآية ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ١٢٣: الصافات، من أن إلياس هو إدريس عليه السلام. ويلاحظ أن الروايات تكاد تربط الأسماء المشار إليها بكلّ ما قامت عليه الحضارة الإنسانيّة على الأرض من علوم وفنون وصنائع[3].

اتّسم عصر إدريس بظهور بواكير فعاليّات العقل الإنسانيّ الناضجة، التي شكّلت بدايات الحضارة الإنسانيّة بشقيها المادّيّ والمعنويّ. ولعلّ هذا كان وراء نسبة كثير من أوّليّات الحضارة إلى إدريس عليه السلام. وليس في هذا ما يخرج عن نطاق المعقول، فالآثار القليلة التي تشير إليه تقول إنّه كان عقلاً فذًا في أفق بِكر مُواتٍ، فاستطاع أن ينفذ من أقطار العقل في زمانه بسلطان من الفكر الصافي، والفطرة الحيّة النقيّة، وتوصّل إلى هذه العلوم العظيمة بالإيحاء والوحي والتجربة، وبما فتح الله عليه من أبواب الحكمة[4].

وما من سبب معقول لرفضنا ما ينسب إلى إدريس عليه السلام من منجزات الحضارة، إلاّ أن يثبت لنا خلافه بدليل قاطع، على أن نعتبره واضع أسسها، منفِّذًا ما تيسّر منها. لأنّ التنفيذ في الشروط المعروفة عقلاً لا يستقيم أن يُنسب إلى فرد كائنًا من كان،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) انظر سيد قطب: في ظلال القرآن: تفسيره الآيتين ٥٦ و٥٧ من سورة مريم.

(٣) انظر الباب الأول: في النبوة والأنبياء.

(٤) انظر الباب الأول: الوحي.

وكائنة ما كانت الظروف التي تكتنفه. وممّا تنسبه الروايات إلى إدريس أنّه:

أوّل من خطّ بالقلم

جاء في «كشف الظنون»: «وفي رواية: أنّ آدم عليه السلام كان يرسم الخطوط بالبنان... وكان أقرب عهد إليه إدريس عليه السلام، فكتب بالقلم»[1]. وبالقلم دوّن إدريس كلّ معارفه، وجعلها في أسفار آلت إلى حفيده نُوح عليه السلام، فحملها من نِينوى في العراق إلى فلسطين.

والحديث عن أسفار إدريس ومدوّناته يتّسم بالغموض، وتصبغه الأسطورة. ذلك أن ما ينسب إليه منها، في المصادر، هو مجموع ما نسب إلى شخصيّات أربع هي: إدريس وإلياس النبيَّين في القرآن الكريم، وأخنوخ في التوراة، وهِرمِس الحكيم في تراث اليونانيّين، وأُوزورِيس الملك المصريّ. وأقلّ ما يمكن قوله إنّ ما ينسب إلى تلك الشخصيّة يحتاج إلى تحقيق علميّ، لا تتوفّر أدواته.

وقد جاء في كتاب «من أنباء الرسل» للدكتور عبد السلام محمّد بدويّ أنّ بحّارًا اسكتلنديًّا عثر في الحبشة على أسفار سيّدنا إدريس في عام ١٧٧٦م. وبعد مائة سنة من هذا التاريخ، عُثر في يوغوسلافيا على نسخة أخرى من تلك الأسفار، مترجمة إلى العبريّة واليونانيّة والحبشيّة، وتقع في مائة وثمانية فصول، تتحدّث عن الجنّة والنار، وعن يوم القيامة، وعن أنّه سوف يكون على الأرض طوفان يهلك الناس، إلاّ من رحم ربّك وهم قليلون.

ولا يعني هذا أنّ تلك الأسفار قد كتبت في عهده عليه السلام، بل الأغلب أنّها دوِّنت وتداولها الناس بعد ذلك بمئات السنين، كما هي الحال بالنسبة إلى الأناجيل.

أوّل من بنى هرمًا

قيل إنّه عُثر على أسفار إدريس عليه السلام في بعض الأهرام. والأهرام من عجائب الدنيا التي لا يزال الغموض يحيط بها حتى يومنا هذا. يقول صاحب «تاج العروس»:

---

(١) حاجي خليفة: مقدمة كشف الظنون ص ٢٥.

«والهرَمان... اختُلف فيهما اختلافًا جمًّا، يكاد أن تكون حقيقةٌ فيهما كالمنام، فقيل بناهما هِرمِس الأوّل المدعوّ بالمثلّث الحكمة، وهو الذي يسمّيه العبرانيّون أخنوخ... وهو إدريس ﷺ لما استدلّ من أحوال الكواكب على كون الطائف، لحفظ صحائف العلوم والأموال فيهما من الطوفان، إشفاقًا عليها من الذهاب والدروس، واحتياطًا»(١). ولا يخفى أنّ النصّ يعتبر الأمر رواية لا يمكن الركون إليها.

أوّل من نظر في الطبّ

وفي مقدّمة كشف الظنون أن إدريس «أوّل من نظر في الطبّ، وألّف لأهل زمانه قصائد في البسائط والمركّبات»(٢). فإذا كانت البسائط والمركّبات تعني العناصر الطبيعيّة، فالقصائد المذكورة منظومات علميّة في الطبّ.

أوّل من خاط الثياب

وقيل إنّهم كانوا قبل ذلك يلبسون الجلود. ولكنّ لبس الجلود مستبعد حين يقترن بما يشير إليه بناء الأهرام، وحفظ نتائج العلوم، من تقدُّم يصعب أن يكون عليه لابسو الجلود، ولا سيّما أن مصر القديمة قد اشتهرت منذ أن بدأ الاستقرار فيها بصناعة القماش من موادّ البيئة النباتيّة كالقطن.

ولعلّ هذا القول يعني بَدء عمليّة صنع الثياب المعروفة، والتي تعني تفصيل النسيج، وضمّ الأجزاء بعضها إلى بعض، للحصول على قطعة من الملابس بالشكل المطلوب، بعد أن كان السائد أن يُشتمل بالنسيج اشتمالاً. وتلك نقلة حضاريّة عظيمة في هذا المجال، كان إدريس ﷺ رائدها، ويؤيّد هذا ما جاء في أخبار إدريس من أنّه كان خيّاطًا، وأنّه أوّل من استعمل الإبرة.

أول من نظر في النجوم

وقد قيل إنّه أوّل من اكتشف المجرّات والمدارات والنجوم، ونقاط التقائها، وما

---

(١) والطائف الطوفان. ويوافق ذكر الصحائف المجموعة في الهرم أن استخدام البردي كصحائف معروف في وادي النيل.

(٢) حاجي خليفة: مقدمة كشف الظنون ص٢٦.

بها من أسرار. وقد كتب كلّ ذلك العلم في أسفاره. والأرجح أن ما نُسب إليه من التنبّؤ بالطوفان كان بسبب اشتغاله بتلك العلوم[1]. ولعلّ اهتمام إدريس بعلم الفلك قد بدأ في بابل، ولكنّ أموره لم تلبث أن اضطربت فيها، فهاجر إلى مصر حيث استقرّ، ونمّى هذا العلم وطوّره فيها.

ونقرأ في أسفار إدريس عن الكون كلامًا عجبًا، لم يأتِ العلم حتى اليوم بما يخالفه. ومن ذلك ذكر دوَران الشمس، الذي لم يتوصّل العلم المادّيّ إلى إثباته إلاّ مؤخّرًا[2]، والكلام عن المدارات غير الدائريّة، ودرجات الحرارة، وتتابع الألوان... ولئن صحّت نسبة تلك الأسفار إلى إدريس، لكان عليه السلام أوّل من تكلّم فى علوم الفلك.

أوّل من خطّط المدن وبناها ومصّر الأمصار

وفي الروايات أنّه بُني فى زمانه مئات المدن. وأن قصر " أُنس الوجود "، وهو أقدم أثر تاريخيّ فى صعيد مصر، ومن أقدم آثار العالم، كان مسكنًا له عليه السلام.

أوّل من بنى الهياكل، وعبد الله تعالى فيها

وكثير من المصادر على أن إبراهيم عليه السلام أوّل من أقام بناءً مخصّصًا للصلاة في الأرض، في إشارة إلى إقامته المحاريب في أرض كنعان[3]. ولعلّ كلمة الأرض في إبراهيم تشير إلى بلاد الشام.

ترك جملة من الشرائع

منها إقامة العدل، وإقامة صلاة، وصيام أيّام معيّنة، وأداء زكاة على الأموال، والتطهّر من الجنابة، وتحريم لحم الحمار والكلب، وتحريم المُسكر، وتقديم القرابين، وتسمية أعياد في أوقات معروفة. أي إنّه أتى بمناسك وشريعة شبه كاملة، وفي تفسير النسفيّ أنّه أوّل من اتّخذ الموازين والمكاييل، وأوّل من استعمل الأسلحة، في قتاله بني قابيل.

---

(١) حاجي خليفة: مقدمة كشف الظنون ص٢٦.

(٢) حيث كان المعروف إلى عهد قريب أن الشمس ثابتة.

(٣) انظر قصة إبراهيم عليه السلام.

وتنقل إلينا الروايات من صفات إدريس عليه السلام أنّه كان متأنّيًا في كلامه، كثير الصمت، ساكن الأعضاء، وقورًا، إذا مشى نظر إلى الأرض، كثير الفكرة، كثير التأمّل، به عبسة، إذا اغتاظ احتدّ، وإذا تكلّم حرّك سبّابته.

وتُنسب إلى إدريس عليه السلام أقوال تُبرز جانب الحكمة الملهَمة في شخصيّته، ولعلّ هذا بعض من آثار تداخل شخصيّته بشخصيّة هِرمِس الحكيم اليونانيّ، وليس ثمّة ما يمنع افتراض العكس. فالحكمة لغة عالميّة، لأنّها تنهل من الجذور الأكثر عمقًا في العقل البشريّ، وبذلك تخاطب القواسم المشتركة بين بني البشر جميعًا، وهي فتح بين الإنسان وخالقه الحقّ، يبصر بها الإنسان جواهر الأشياء، ويدرك بواطن الأمور. ولا تكون الحكمة إلاّ لمن صفا حتى أمكنه أن يتذوّق صفاء الحقّ، ويغتني به، ولذلك كانت الحكمة خبز الأنبياء والصدّيقين. وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ٢٦٩: البقرة، فكلّ ذي بصيرة على جانب من الحكمة.

وممّا تزعم المصادر أنّه من حِكم إدريس عليه السلام:

- لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه.
- خير الناس من نفع الناس.
- من لا يشكر الناس لا يشكر الله.
- الحكمة حياة النفس.
- لا تحسدوا الناس على ماوافاهم من الحظ فإن استمتاعهم به قليل.

ورفعناه مكانًا عليًّا

من أخبار إدريس عليه السلام أنّه كان يُرفع له كلّ يوم عمل يساوى عمل أهل الأرض جميعًا، لأنّه كان كثير الذكر، كثير الصلاة، كثير العبادة. وفي الروايات أنّه كان خيّاطًا، وأنّه كان يقول مع كلّ غرزة يغرزها: سبحان الله(١).

وفي رواية أن الملائكة كانت تشتاق إليه لكثرة ذكره، وأنّ ملك الموت أتاه ضيفًا،

---

(١) وفي الصحيح: «من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» [صحيح البخاري: ٦٠٤٢].

فأحسن ﷺ محاورته واستدراجه حتى دخل معه الجنّة، فقبضه فيها. وقال الله تعالى لملك الموت: اتركه فإنّه دخلها بإذني.

وفي كلّ المصادر التي تُحدّثنا عن سيّدنا إدريس ذكر لرفعه إلى السماء. ولكن جاء في التاج «... الهرمان... في أحدهما قبر هِرمِس وهو إدريس ﷺ، وفي الآخر قبر تلميذه أَغاثيمون، وإليهما تحجّ الصابئة». وهذا يعني أن لإدريس ﷺ قبرًا في مصر، ولعلّ هذا القبر مجرّد رمز، بل لعلّه من الوهم الذي يُطيف بذلك الخبر، حيث جاء فيه أنّ أغاثيمون، وهو يقابل شِيثًا، تلميذ لإدريس ﷺ. وهذا وهم بيّن، إذ أن أكثرهم على أن شيثًا سابق لإدريس ﷺ.

وقد جاء في القرآن الكريم ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ٥٧: مريم، واختلف المفسّرون في الرفع فكانوا معسكرين، اعتبر أحدهما الرفع معنويًّا كما في قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ٤: الشرح، و﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ ١١: المجادلة. واعتبره الآخر حقيقيًّا، وقالوا: إنّه كرفع سيّدنا عيسى، ومعراج سيّدنا محمّد ﷺ[1].

ويمثّل البيضاويّ المعسكر الأوّل، ويرى أن الرفع الواقع على إدريس ﷺ «يعني شرف النبوّة والزُلفى عند الله»، ويشير إلى الأقوال الأخرى إشارة مؤرّخ موضوعيّ: «... وقيل الجنّة، وقيل السماء السادسة والرابعة»[2].

ويمثّل المعسكر الثاني القُرطُبيّ، الذي قال: «قطع الله على إلياس وهو إدريس لذّة المطعم والمشرب وكساه الريش، وألبسه النور، فطار مع الملائكة. فكان إنسيًّا ملَكيًّا أرضيًّا سماويًّا»[3]. ومنه ما حكاه ابن قتيبة: وذلك أن الله قال لإلياس: سَلني أُعطك.

قال: ترفعني إليك، وتؤخّر عنّي مذاقة الموت.

فصار يطير مع الملائكة.

ويحتجّ أصحاب هذا المعسكر بما جاء في الصحيحين في حديث الإسراء

---

(١) لكثير من المؤرخين والمفسّرين أقوال في الرفع نقلوها عن الرواة بدقة وتجرد، فهي صحيحة كروايات، ولكنها تتجاوز حدود المعقول، وقد يكون لبعضها مبرراته في نطاق فلسفة المعقول واللامعقول.

(٢) البيضاوي: أنوار التنزيل تفسير الآية ٥٧ من سورة مريم.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تفسير الآية ١٢٣ من سورةا لصافات.

والمعراج من أن سيّدنا محمّدًا ﷺ، التقى بسيدنا إدريس في السماء الرابعة. وفي حديث لأنَس بن مالك قيل إنّه موضوع يقول في آخره: «وجاءت سحابة فاحتملت إدريس، فإذا أنا أنظر إلى بياض ثيابه في السحابة»[١].

وذهب بعضهم إلى أن المكان العليّ هو الجنّة، فليس هناك ما هو أعلى منها. وتؤيّد التوراة الرفع الماديّ، ففي الإصحاح الخامس في سفر التكوين: "وسلك أخنوخ مع الله، ثم توارى، لأن الله أخذه». وممّا يلفت النظر الشبه بين صفة البُراق في حديث المِعراج، وصفة المركبة التي صعد بها إدريس إلى السماء في الأسفار المنسوبة إليه. وفي تلك الأسفار أنّه دخل جسمًا هائلاً لمّاعًا، ارتفع به. وفي حديث الإسراء والمعراج أتيت بالبُراق، وهو دابّة، أبيض، طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه»[٢]. فهو مركبة حيّة، كما هي المادّة في العالم الآخر. وقيل فيه: ليس بحمار ولا بحصان ولا بدابّة ممّا نعرف. وهذا الوصف يذكّرنا بالكونكورد التي لها شكل أشبه بشكل النسر.

وتُنسب إلى إدريس عليه السلام أسفار فيها وصف دقيق للنبيّ ﷺ، وفيها يُسمّيه، ويصفه بأنّه بريء من المذمّات والآفات، كامل الفضائل، لا يقصّر عن مسألة يُسأل عنها في الأرض أو في السماء، ممّا فيه دواء وشفاء من كلّ إثم. وأنّه يَصلُح العالم بدعوته. ونحن، رغم يقيننا أن إدريس لا بدّ أن يكون قد ترك مدوّنات وأسفارًا، لا نملك دليلاً على نسبة هذه النصوص إليه، ذلك أن تلك الأسفار لم يبق منها أثر.

وفي أسفار إدريس أنّه لم يمت، بل صعد إلى السماء ولم يعد. وقبل أن يختفى فى الملكوت الأعلى قال لابنه مَتوشالِح: ياولدى فى هذه الأسفار أُطلعك على كلّ أسرار الدنيا، وأكشف لك عن كلّ شيء. فاحفظها عنّى، وعلّمها أولادك من بعدك.

وهكذا تُجمِع التوراة وكثير من الروايات، ومجموعة الأسفار أو الصحف المنسوبة إلى إدريس، على أنّه قد صُعد به إلى السماء، كما صعِد عيسى عليه السلام عندما أراد اليهود أن يصلبوه، وكما صعِد محمّد ﷺ في الإسراء والمعراج. ولعلّ الأمر نفسه يفسّر ما

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم الآية ١٢٣ من سورة الصافات.

(٢) صحيح مسلم: ٢٥٩.

قيل من اختفاء جسد زكريّا، ورأس يَحيى ﷺ تحت أسماع قَتَلَتِهم وأبصارهم.

ونحن كمسلمين آمنّا برفع سيّدنا عيسى، والإسراء بسيّدنا محمّد ﷺ، وتكليم موسى، وغير ذلك من الغيبيّات، نقرأ في كتاب الله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ٥٧: مريم، فنؤمن أنّه رُفع، ولا تؤثّر كيفيّه هذا الرفع في إيماننا بوقوعه.

لقد رُفع سيّدنا إدريس في أغلب الأقوال، أمّا الكيفيّة فلا نعرفها. ولا مشكلة في ذلك إذا تذكّرنا أنّنا قبل خمسين عامًا من اليوم، كنّا نعتبر الحديث عن الصعود في مركبة إلى القمر من اللاّمعقول، بل كان الكلام عن التلفاز من ذلك اللاّمعقول الذي لا يتّصف موضوعه بالثبات، ذلك أنّه منوط بقدرة العاقل على العقل، فكلّما ازدادت تلك القدرة لدى الإنسان انتقلت كميّات من اللاّمعقولات إلى خانة المعقولات. ولكنّ ذلك يبقى محكومًا بعجز الإنسان عن بلوغ الكمال، ومن هنا فلا بدّ أن يبقى ثمّة ما هو غيبيّ بالنسبة إليه.

* * *

obeikandl.com

الفصل الثالث

نـوح

عليه السلام

سلام عليك ياسيّد الثبات والدأب، أيها الباقي على عهد ربّه رغم طول الرحلة، وضعف الجنى، وإصفار الوطاب...

سلام عليك يا صاحب الفُلك... يا من آمنت أن ربّك الحقّ سوف يحملك ومن معك فوق الماء، فأسلمت إليه عقلك ويديك وعينيك وقلبك، فعلّمك كيف تصنع الفلك بأعينه ووحيه.

سلام عليك أيها العبد الشكور ما ركب الماء راكب إلى أن تسجّر البحار وتفجّر.

***

ما نزال في أرض الأنبياء، فيما بين نِينوى وإرْبِل. ولا تختصّ هذه المنطقة بالأنبياء، بل هي مهد الإنسان المكتمل العاقل، الذي انطلق منها إلى كلّ الدنيا، ومن هنا فأوائل الأنبياء، وأوائل المتميّزين من البشر كانوا من ذلك المثلَّث الجغرافيّ الذي تشغل المَوصل اليوم معظم مساحته. وبما أن الأخبار التي تثبت للتناقل هي الأخبار غير العاديّة، فلم تحفظ لنا ذاكرة التاريخ الإنسانيّ سوى قصص هؤلاء النخبة المتميِّزة من البشر، وهم الأنبياء. وقد رأينا كيف ترك إدريس المنطقة مهاجرًا بمن استطاع من الذين آمنوا معه، بعد أن أخفقوا في التصدّي لفساد القابيليّين الزاحف من الجنوب. ولم يلبث الأثر الذي تركته دعوته فيها أن انبهم، ثم أصبح أثرًا بعد عين.

وبدا الميدان في بلاد ما بين النهرين خاليًا للقابيليّين، وراحوا يمارسون نفوذهم على ساكني المرتفعات الشماليّة من ذريّة شِيث عليه السلام، حتى تمّت لهم الغلبة عليهم،

فشاع الفساد وعمّ. وكانت حقبة، من التفلّت وهجعة القيَم، أفرزتها هجعة الرُشد، والفراغ الناجم عن خفض العيش المفترض(١). وتولّى كبر هذا، كما هي الحال دائمًا، مترَفو القوم وعِليتهم، فأضفَوا على ذلك المجتمع طابعهم الفاسد المفسد.

ولكنّ سنّة الله في خلقه ألاّ يطمس الباطل وجه الحقّ مهما ظهر، فكان ثمّة حكماء صالحون، يرجح أنّهم بعض الكهنة المرتبطين ببقايا العبادات المتوارَثة، والطقوس التابعة لها، أخلصوا لتعاليم إدريس، وما تبقّى من تعاليم آدم من قبله، وظلّوا قائمين على الحقّ. وقد جمع هؤلاء الرجال حولهم أمّة من الناس، هي تلك التي وعد الحقّ أن يظلّ بها ظاهرا في كلّ زمان وفي كلّ مكان.

وتوارثت الأجيال التعلُّق بأولئك المصلحين، وأرادوهم بينهم بعد أن غيّبهم عنهم الموت، فصنعوا لهم تماثيل يستحضرونهم فيها، أو جسّدوهم في أوثان ليكون في النظر إليها ذكر وتجديد للصلة. ولم يلبث هذا أن تحوّل إلى تقديس، فعبادة لهؤلاء، ثم للأوثان التي تمثّلهم كنوع من التقرّب إلى أصحابها، الذين يستطيعون أن يتّصلوا بالله، كما لا يستطيع الناس العاديّون أن يفعلوا.

والتمثال في الأصل لا يُعبد، ولكن يُعبد الإله الذي وراءه، أو الذي يمثّله. وقد كان العرب يعبدون الأصنام، فلمّا نوقشوا في ذلك قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ ٣: الزمر. ومعروفة مقالة ابن عربيّ الملهَمة: «ما عُبد إلاّ الله في معبود قطّ».

لقد كان اقتناء التماثيل أشبه باحتفاظ أحدنا اليوم بصورة عزيز لا تتاح له رؤيته. ثم تقادم العهد على أصل الفكرة، وانتقل الأمر من الخاصّة الواعين لأبعاده إلى سواد الناس، وأكثرهم لا يملكون القدرة الكافية على التجريد الذي قامت عليه الفكرة أصلاً. وهكذا نُحّيت الآلهة، وبقيت تماثيلها، فانتقلت العبادة إليها، ونُسي الأصل. وقد مثلت الشعوب آلهتها، كلّ شعب بطريقته، ولكن من منطلَق واحد هو اتّخاذها وسيلة إلى الإله الّذي تستحيل الصلة المباشرة به، لما يعتقدونه من سموّه عنهم.

---

(١) وفي كتب اليهود تفاصيل عجائبية عن عيشَ القوم، هي أقرب إلى ما ندعوه اليوم بالخيال العلمي.

obeikandi.com

ولكنّ للأمر بعدًا آخر، فإن هذا الأصل لعبادة التماثيل اضمحلّ مع الزمن، ومع الجنوح الفطريّ إلى تناول الأقرب. ولم يكن التمثال الوسيلة الوحيدة إلى الله الحقّ الذي تبحث عنه الفطرة السليمة، فقد اتّخذت كثير من الأمم وسائط أخرى، كقوى الطبيعة والكواكب والنجوم، كما في بلاد ما بين النهرين[١]، وجعلت أمم أكثر تقدّمًا كالإغريق لكلّ ظاهرة، ممّا يثير التساؤل وينطوي على الغموض، قوّة مدبّرة، وخلعوا على تلك القوّة سمات الألوهيّة، فهناك إله البحر وإله الحب وإله الأنعام وإله الخمر. ولـمّا كانت تلك الوسائط، بدورها، لا تُطال، تكرّست الحاجة إلى التمثال السهل المنال.

ومعظم الآلهة المعروفة تمثّل قوى غيبيّة، اكتسبت الكثير من صفاتها وخصائصها من صورة الإله الواحد، الذي اتّجهت إليه الفطرة السليمة، مع بداية فعاليّات العقل الإنسانيّ، التي تمثّلها نبوّة آدم عليه السلام. ثم راحت هذه الصورة تتآكل حتى التشوّه، حتى إذا ما بلغ العقل الإنسانيّ عتبة مميّزة في سياق تطوّره، بعث الله في الناس رسولاً يذكّر بالحقّ، ويدعو إلى التزامه، ويضيف إلى تطبيقاته ما يسعه العقلُ البشريّ في زمانها. وكان العدّ التنازليّ يبدأ بموت حامل الرسالة، ولا يتوقّف إلاّ لدى ولادة رسالة جديدة على يدي نبيّ جديد.

وتعطينا المصادر، على اختلافها، وعلى رأسها القرآن الكريم، بعضًا من أسماء هؤلاء الرجال، ففي سورة نوح: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ٢٣: نوح[٢].

إن من طبائع الأمور أن يعبث تطاوُل الزمان بأصول العقائد، فيشوبها ما يشوبها من أوهام وانحرافات بقصد أو بغير قصد، حتى تكاد بقاياها تفقد الصلة بأصولها. وعندئذ يبعث الله بمن

(١) انظر قصة إبراهيم عليه السلام.

(٢) وتعرف تلك الأسماء في جزيرة العرب بأنها أسماء أوثان، يخص كل منها قبيلة بعينها، وقد ظلت تعبد حتى ظهور الإسلام.

obeikandl.com

ينفض الغبار عن الجوهر الدفين، ويجلو من جديد وجه الحقيقة المطموس. وقد كان الأنبياء يقومون بهذا الدور، فيتعاقبون على وجه الحقّ يجلونه، كلّما حال بينه وبين الإنسانيّة الركام.

حتى إذا ما امتلك الجنس البشريّ أدواته، وتمّت للناس القدرة على التواصل، وتكفّل هذا بنشر فكرة التوحيد بصورة لا تسمح باندثارها عن وجه الأرض، وأصبح العقل مهيّأ لاتّخاذ منهج للحياة منطلق منه، كانت رسالة محمّد عليه الصلاة والسلام، وبها أكمل الله دينه الذي ارتضاه للناس. وأُلقيت تبعة الحفاظ على ذلك المنهج على الناس كافّة، بتجديده لكلّ جيل ولكلّ عصر. ومن ذلك أن الله يبعث على رأس كلّ مائة عام من يجدّد للناس دينهم.

في هذه الظروف ظهر نوح النبيّ ﷺ، مرسَلاً إلى قومه من الله الحقّ. ونوح، في المصادر التي بين أيدينا، هو نوح بن لامَك بن مَتوشالَح بن إدريس، من نسل شِيث بن آدم ﷺ. وقيل إنّه سُمّي نوحًا لكثرة نواحه في تضرّعه إلى الله، حرصًا منه على الهدى، وفرَقًا من الضلال.

وبسيّدنا نوح ظهر الوحي عن طريق ملك موكّل بذلك الأمر، وهو جبريل ﷺ، وكان يوحى إلى من قبله عن طريق رجل يكلّم النبيّ مباشرة، ينقل إليه رسالات السماء[1]. وقد بُعث نوح بعد إدريس ﷺ، وجاء بشريعة متكاملة، فكان أوّل رسولٍ في تاريخ البشريّة، وهو من الرسل الذين قصّهم الله على نبيّه[2]، وذلك في أغلب الأقوال. وقد أُرسل نوح إلى قومه خاصّة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ ١: نوح، شأن معظم الرسل قبل خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ. ودعاه الذكر الحكيم أخاهم ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ١٠٦: الشعراء؟.

ولكلمة «أخوهم» تاريخ في قصص الأنبياء في كتاب الله العظيم، فشعيب أخو مدين، وهود أخو عاد، وصالح أخو ثمود، وتوحي بأن نوحًا ليس غريبًا عن الذين

(١) انظر الباب الأول: الوحي.

(٢) فالرسل كثير، وقد قال تعالى: «وَرسلًا قد قصصناهم عليك من قبل * ورسلًا لم نقصصهم عليك» ١٦٤: النساء.

يدعوهم، فهم لا ينكرون منه تاريخًا ولا نسبًا. وهذه المعرفة كفّت ألسنتهم في هذه الأبواب، وكانت ذريعة له لا ينكرونها في التوجّه إليهم، فهو ينصحهم لأنّهم قومه، وهذا أدعى إلى أن يخاف عليهم عذاب يوم عظيم. و يدعم هذا مصداقيّة نوح لدى قومه، فوجاهة الزعيم في قومه تُعزّز سلطته، وتضمن التفاف الناس حوله. وشفاعة الوجيه في قومه معروفة في الدنيا والآخرة، على أن يكون معيار الوجاهة أخلاقيًّا، فلا تفاضل إلاّ بالتقوى والعمل الصالح.

ألف سنة من المعاناة

وكان نوح أطول الأنبياء عمرًا، فهو، بغضّ النظر عمّا اختُلف فيه من عمره حين أوحي إليه، يقول عنه الذكر الحكيم: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ١٤: العنكبوت. وهو النبيّ الوحيد الذي نصّ القرآن الكريم على أنّه معمَّر، وقال غير واحد منهم الرازيّ وابن كثير: إنّه كان الرجل من قوم نوح ينطلق بابنه إليه ويقول: احذر هذا فإنّه كذّاب، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصيّة، فيموت الكبير، وينشأ الصغير على ذلك. يريد أن قومه كانوا يتوارثون تكذيبه والإساءة إليه، ممّا يعني أنّه قد عاصر أكثر من جيل منهم. وهذا واضح في نصّ القرآن الكريم من تَطاول الزمن وكثافة الأحداث وطبيعتها.

ويستوقفنا أن ذلك العمر الطويل الذي قال عنه الرازي: إنّه غير طبيعيّ(١)، لم يسجَّل لنوح كمعجزة، ولم يُفد منه في التميّز الذي كان قومه يطلبونه في النبيّ ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ ٢٧: هود، ولعلّنا نستطيع القول: إن أعمار الناس في زمان نوح كانت في حدود المعدّل المعروف اليوم في الجنس البشريّ، ولكنّ وجود المعمَّرين كان مألوفًا(٢)، ولعلّ نوحًا كان من أولئك المعمَّرين، ولكنّه فاقهم.

وكان طول عمر نوح أحد أسباب عِظم معاناته، إذ كانت حياته قرونًا ملأى بالمجاهدة المريرة الموصولة أجيالاً وأجيالاً، حيث تتناقل الروايات أنّه تلقّى أسوأ معاملة تلقّاها نبيّ من قومه، خلا عيسى بن مريم عليه السلام.

وتلفتنا الوقفات الطويلة المتبتّلة لنوح بين يدي ربّه، يبسط بمرارة وابتئاس تفاصيل

(١) التفسير الكبير الآية ١٤ من سورة العنكبوت.

(٢) ولعلّ هؤلاء كانوا بقايا سلالات تأخذ طريقها إلى الانقراض.

الجدال العقيم اللاّمُجدي، لأولئك الذين دعاهم على مدى قرون طويلة، بكلّ أساليب الترغيب والترهيب، وفي كلّ الأوقات، وبشتّى الطرق، فوضعوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وأصرّوا، واستكبروا استكبارا. بل كذّبوه، ورمَوه بالجنون، وازدجروه بشراسة، وكانوا يضربونه حتى يغمى عليه، بل كان له من زوجه وأولاده عدوّ لدود...

وكان نوح من الثبات بحيث صُنِّف في زمرة أولي العزم من الرسل، لعظم صبره وشكره، رغم عظم معاناته وطولها. والصبر في الذكر الحكيم ميزان العزم، جاء ذلك في أكثر من آية ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ١٨٦ : آل عمران، ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ١٧ : لقمان، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ٤٣ : الشورى، وقد وجّه الله نبيّه إليه ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ ٣٥ : الأحقاف.

لم تزحزح المعاناة نوحًا عن موقفه، ولم تحرفه عن طريقه في أداء رسالته، والاضطلاع بالدعوة إلى الحقّ، بل زادته صبرًا حتى بلغ بالصبر مرحلة الشكر، وهي معجزة في هذا الباب، وقد قال البلخيّ في الشكر: الشكر عندنا أنّنا إذا مُنعنا شكرنا. وشهد الله لنوح في كتابه الخالد العظيم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ٣: الإسراء[1].

ولئن كان أيّوب بطل الصبر، فإن نوحًا بطل الصبر المقرون بالشكر، المشفوع بالاستغفار، جابه بالصبر معاناته الطويلة، ورقى به عندما أضاف إليه الشكر، ثم رقى بهما معًا عندما أضاف إليهما الاستغفار. وذلك إبحار بعكس تيّار الضعف الإنسانيّ، ومرتبة تخصّ النبوّة، ولا يبلغها بشر غيرهم.

ويكرم الله ذرّيّة نوح بصبر نوح وشكره، فالأبناء يُكرَمون بصلاح آبائهم، وسوف نرى في قصّة موسى أن الله قد بعثه والعبد الصالح ليقيما جدارًا متداعيًا، كان قد أقامه أب

(١) يرى بعض المفسّرين أن قوله تعالى «ذرية من حملنا مع نوح» ٣: الإسراء، خطاب لبني إسرائيل، باعتبارهم بعض ذرّيّته، وتذكير لهم بأبيهم نوح العبد الشكور، ويرى آخرون أنّه خطاب للناس جميعًا. وما أحوج الناس في كلّ زمان ومكان إلى تذكّر نوح عليه السلام، أمثولة الولاء المطلق، والصبر المعجز، والشكر الذي شهد له به الله الحقّ!

صالح، ليحفظ في أصله ما كنزه لولديه. ومات الأب عن الولدين وهما غلامان، فأراد الله أن يبقى مالهما محفوظًا في مخبئه إلى أن يبلغا الرشد، ليستفيدا منه ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ٨٢: الكهف.

والشكر خلق رفيع راقٍ، وفلسفة فكريّة وسلوكيّة، تبدأ بالكلمة، ولا تتمّ إلاّ بالفعل، ويقابله الكفر، وهو خلق دنيء، مناف للمروءة، ويبلغ قمّته في كفران الحقّ وجحوده، وهو نقيض الإيمان بالله. والإنسان السويّ يجنح فطريًّا إلى الشكر، وذلك بحفظ ما أنعم الله عليه به، وتنميته بالوسيلة المثلى لذلك، وقد تأذّن الله الحقّ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ٧: إبراهيم، **فالشكر في النهاية نفع للشكور** ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ ١٢: لقمان.

والشاكرون قمّة كرام الجنس الإنسانيّ، والشكورون صفوتهم، فهم قليل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ ١٣: سبأ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ٢٤٣: البقرة. **والكُفران في جبلّة البشر إلاّ من رحم ربّك** ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ ٦٧: الإسراء. **وكثيرًا ما يخذل الشُكر من عاهدوا الله عليه، لاستعصائه على النفس الإنسانيّة** ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ٦٣ و٦٤: الأنعام، ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ ١٨٩ و١٩٠: الأعراف...

والشكر إقرار بفضل الله على الإنسان، فهو اعتراف ضمنيّ حقيقيّ بالضعف الإنسانيّ، وإعلان للولاء المستمرّ، وتزكية للنفس بدوام استشعارها نعم الله، ونزوعها إلى طاعته، فإذا ساد حتى غدا خُلقًا، فهو عبادة من أنفس العبادات، وأثقلها في ميزان العمل. وقد يلفتنا التلازم بين صيغتي المبالغة " صبّار " و " شكور"، إذ وردتا متلازمتين أربع مرّات، في مواضع متفرّقة من الذكر الحكيم، وهو ما حقّقه نوح بشكل مثاليّ، وأضاف إليه إضافة خارقة هي دوام الاستغفار.

وممّا هو جدير بالاهتمام تلازم ذكر نوح وذكر رسول الله ﷺ في القرآن الكريم على نحو واضح، وذلك في أكثر من صورة، وفي مواضع عدّة. فقد جاء ذكره قبل ذكر

obeikandl.com

رسول الله مباشرة في قوله تعالى في تعداد الرسل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ١٣: الشورى، وبعده مباشرة في قوله في الوحي: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ ١٦٣: النساء، وكذلك في قوله في أخذ الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ ٧: الأحزاب. وهذا يحتاج إلى تمحيص لكشف ما وراءه، ولعلّ ممّا وراءه أنّهما قطبا الدعوة إلى الله، فنوح أوّل الرسل، ومحمّد آخرهم.

ولعلّ قوم نوح، وبعد عشرات القرون من الدعوة المضنية، يقفون بين يدي الله الحقّ يحلفون: ما جاءنا من نذير، فمن يشهد لنوح بأنّهم كاذبون، وبأنّه قد أدّى الأمانة، وبلّغ رسالة ربّه؟ إنّها الأمّة التي جعلها الله أمّة وسطًا، ليكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليهم شهيدًا.

ذلك أن من يؤمن بنبوّة محمّد ورسالته فهو حُكمًا مؤمن بكتب الله ورسله، وما كان هذا لغير أمّة الإسلام، وما كان لقوم غير العرب أن يكونوا أولئك الشهداء، فإن العربيّ في جبلّته التسامح وسطحيّة الحقد، وهو لا ينسى المعروف تُسديه إليه، ورغم أنّه لا يقبل الإهانة، ولا يتسامح فيما ينال من الشرف والأمانة والمروءة، فهو في الوقت نفسه يقول:

*** محا الذنبَ كلَّ الذنبِ من جاء تائبا ***

ولقد اقتتل الأوس والخَزرَج أكثر من مائة عام، فلمّا وحّدهم الإسلام وقفوا تحت رايته كأنّهم لم يقتتلوا يومًا.

إن العرب بفطرتهم مُعَدّون للشهادة النزيهة على الأمم، لا يجرمنّهم شنآن قوم على ألاّ يعدلوا حتى قبل أن يأتيهم الإسلام.

قوم نوح

كانت صرخة حقّ لابدّ من أن تنطلق، فقد جاء أشراطها، وكان نوح صاحبها. لقد أدرك نوح أن القوم يهوُون، فقد أوغلوا في الانحراف عن جادّة الحقّ، وبعدت بينهم

وبين الرشاد الشقّة، ولبثوا سادرين في غيّهم، متّكئين على ما فتح الله عليهم من أبواب، مستسلمين إلى غواية كبرائهم يأخذون بأزمّتهم في دروب الضلال، مكرّسين ما يخدم مصالحهم ونفوذهم، ويهدهد اغترارهم بذواتهم، ويحفظ ما توارثوه من مكاسب تسخّر لهم الأرض بمن عليها، متصامّين ومتعامين عن الحقّ الذي يحيط بهم من ورائهم، والذي هو غالب على أمره، لا يضرّه أن يحفلوا به أو يتجاهلوه. ومن هنا كان لابدّ من نذير... سنّة الله في الأمم ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ٢٤: فاطر.

وانطلقت دعوة نوح: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ ٢ و٣: نوح، وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ٥٠: الذاريات. وضاعت الصرخة، فلم تجد لها في عالمهم الصاخب مكانًا. ولكنّ حامل الرسالة منذور لها، والصوت الذي يصدع بالحقّ يملك قوّته في ذاته... وهكذا استمرّ النذير الرحيم رغم الصمم والإعراض، وعمى القلوب التي في الصدور. وكانت تلك بدايات رحلة المعاناة الفريدة الطويلة، والصبر المعجز، الذي وضع نوحًا في زمرة أولي العزم من الرسل، وذلك بما صبر على ما أصابه في سبيل رسالة الحقّ التي يحمل.

*

انقضّ قوم نوح على النبيّ النذير بشراسة، ذكرها تاريخ الدعوات إلى الله على أنّها من أسوأ ما قوبل به نبيّ. وممّا يشي بسوء ما قوبل به نوح من سفَه قومه وبذاءتهم، ما سجّله القرآن الكريم من دهشته وتساؤله المستنكر: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ١٣: نوح!

فما سرّ تلك الشراسة المنقطعة النظير في مواجهة نوح ودعوته؟

إنّه منطق الطغاة، يحقرون من تسلّطوا عليهم، وينأون بأنفسهم عن مَنازلهم، ويسلقونهم بألسنة حداد متسلّطة من موقع القوّة المجّانيّ الذي اغتصبوه بقبضاتهم. ونحن نستطيع تتبّع هذا الخطّ المتّصل منذ نشوء التجمّعات البشريّة إلى اليوم، حيث يتبدّى لنا كيف يتطفّل طغاة الأرض على العاملين الحقيقيّين، ويمارسون عليهم فوقيّتهم الأثيمة، ويتسلّطون على حقوقهم، فيسلبونهم حتى أقدارهم.

وقد تزعّمت الأديان السماويّة نصرة هؤلاء، فكانت تعاليم الأنبياء تزخر بالأمثولات، الواقعيّة والنظريّة، الهادفة إلى حطم خلق الشيطان هذا. وكان أوائل المستجيبين لدعوات الأنبياء من تلك الفئة، التي لم تَطمس مصالحُها الآنيّة صلتَها بالحقّ وتحرّيها إيّاه، والتي تشكّل جسد المجتمع الإنسانيّ، الذي لا يقوم إلاّ بالجهد البشريّ العمليّ على أرض الواقع.

وما الدعوات التي يزخر بها تاريخ الفكر الإنسانيّ إلى إنصاف هذه الفئة، وإعادة الاعتبار إلى دورها، إلاّ ومضات من روح الحقّ، لم تؤخذ من مصدرها الحقّ، فكان فيها ثغرات دمّرت بعضها، وما تزال تنخر في أجساد البعض الآخر، إلى أن تُذعن البشريّة للحقّ، وتُقرّ بأن الإسلام وحده يحلّ المعضلات، ويضع الأمور في أنصبتها.

ونحن إذا تحرّينا الحكمة في هذا الشأن، وجدناها في الخطوط العريضة لرؤية الإسلام لكلّ من هاتين الفئتين ولدورها، فهو يعتبر العلاقة بينهما اختبارًا لإيمان الفئة التي تملك القوّة، والتزامها حدود الحقّ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ٥٣: الأنعام!، واختبارًا لصبر الفئة الأولى وثباتها.

ومن نصرة الإسلام المدعوّين بأراذل القوم، الذين ينبذهم الكبراء ويطالبون الرسل بطردهم، ما جاء على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ﴾ ٢٩: هود، و﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٣١: هود. ومنها ما أخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقّاص قال: «كنّا مع النبيّ ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبيّ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا... فوقع في نفس رسول الله ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٥٢: الأنعام»[1]. ومنها ما يعدهم إيّاه من عوض: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ ٢٤: الحاقة، وما يحقر من متاع الدنيا، الذي قد يكون وبالاً على صاحبه في دار القرار: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ ٢٠: الأحقاف. ومثله قول الذي لا ينطق عن الهوى: «فإن أكثرهم شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة»[2].

وفي كتب التاريخ الإسلاميّ نقرأ أن أبا سُفيان دخل في نفر من وجهاء قُريش على أمير

---

(١) صحيح مسلم: ٢٤١٣.

(٢) سنن الترمذي: ٢٤٧٨.

المؤمنين عُمرَ بن الخطّاب، وكان في شأن مع بعض بسطاء الصحابة، فكان عليهم الانتظار حتى يفرغ، فغضبوا، فقال عُمر: ماذا تقولون إذا دخلوا الجنّة قبلكم؟

وقد ذهب الإسلام إلى أكثر من هذا، فربط هلاك المجتمعات بإفساد مترفيها ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ ١٦: الإسراء. ذلك أنّهم القوّة المتحكّمة الفعّالة في اتّجاه المجتمع بشكل عام. وبإجراء مسح مبدئيّ على الفئات المتنفّذة، في مجمل المجتمعات عبر التاريخ المعروف، نخرج بانطباع مفاده أن التنفُّذ والترف يكادان يكونان رديفين للفساد، حتى ليصحّ الذهاب إلى أنّهما السبب في إفساد المتمتِّعين بهما.

وقد اطّرد عبر التاريخ ارتباط الترف والتنفُّذ والسيطرة بالبطش والظلم[1]. فبنو أميّة، ولا يختلف اثنان فيما قدّموه للدولة الإسلاميّة، كانوا الفئة المترفة التي نال الإسلامَ على يديها من الأذى ما ناله، ومن ذلك أنّهم أتوا بالملك العضوض، وقتلوا أهل بيت النبيّ. وفي صحيح مسلم عن ابن عبّاس ﷺ: «كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه»[2] وذلك بعد أن أسلم، كان منه في جاهليّته.

ويتعذّر أن يدفع المرء هنا عن خاطره مواقف المسلمين الأوائل، في التملُّص من الاضطلاع بعبء السلطة والنفوذ، ممثّلاً في مقولة عُمر بن الخطّاب الخالدة، عندما طُلب منه أن يوصي بالخلافة لابنه: يكفي آل الخطّاب أن يحمل وزر الأمّة واحد منهم.

أولئك هم المترفون، وذلك هو شأنهم في مختلف البيئات والظروف والعصور، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ ٥٣: يوسف.

ويلاحظ أن الفترة التي انكبّ فيها نوح ومن معه على صنع الفلك، وهي المرحلة الأخيرة من الدعوة قد شهدت تطاوُل قوم نوح، واجتراءهم عليه، وتوقّفه عن

---

(١) فإذا ما تصدرت فئة مصلحة رحيمة، فإنها سرعان ما تعدو عليها العوادي، فتخلي مكانها لمن يملكون القدر الكافي من البطش للاحتفاظ به... إنها القاعدة في غياب الهدى.

(٢) صحيح مسلم ٢٥٠١. ومعروف أن أبا سفيان وابنه معاوية قد دخلا الإسلام في الطلقاء يوم فتح مكة، ويأخذ المسلمون على أبي سفيان أكثر من موقف، منها موقفه المتشفي حين لاحت معالم الهزيمة في حنين.

مجابهتهم، ذلك أنّه كان قد أنذرهم طوفانًا يبلغ دمارُه ما بلغ فسادُهم، ولعلّ هذا التهديد آتى شيئًا من ثمر في بادئ الأمر، ولكنّ تطاوُل الأمد أدّى إلى المزيد من صلف القوم وتمسّكهم بموقفهم. كما أدّى إلى سآمة وملل الكثيرين ممّن وقفوا مع نوح، أولئك الذين كانوا يتطلّعون إلى دليل ينتصرون به. بل إنّ امرأة نوح، وكانت أقرب المقرّبين إليه[1]، ضاق صدرها بما يحمّلها إيّاه، حيث استمرأ الناس أن يسوموها الأذى وإيّاه، فانقلبت عليه، وراحت تسلقه بلسان حادّ، فهو مجنون وأحمق وسفيه، ومن هنا نسبت إليها الخيانة.

*

لقد كان على رأس ما حاجّ القومُ به نوحًا قولهم: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ ١١١: الشعراء! وقوله: «الأرذلون» قد توحي بأن للمقصودين بها ماضيًا يلوّح به المماحكون، ولكنّ ذلك يتهاوى لدى معرفتنا أن قوم نوح لا يتحرّون الحقّ فيما يقولون، وأنّه ليس ثمّة ما يُلجئهم إلى التلويح والتلميح في كلامهم عن هؤلاء أمام نوح، وقد رموه نفسه بالجنون والكذب وهدّدوه بالرجم.

أمّا قول نوح: ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ١١٢: الشعراء؟ فالقصد منه: ولا يعنيني أن أعلم ما كانوا عليه من شأن، فما أنا إلاّ نذير، يبيّن الحقّ ويدعو إليه، وقد آمنوا بذلك، فليس لي أن أحاسبهم على ما كان قبله، وأطردهم من حولي بسببه ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ ١١٣: الشعراء.

وترسم محاجّة الملأ من قوم نوح في هذه الآية ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ ٢٧: الشعراء، صورة أزليّة أبديّة لنظرة هذه الفئة إلى ما هو خارج عن محيط مظلّتها، فهي لا تقيم وزنًا إلاّ لمن يستطيع قهرها، ونوح، في أحسن ما وصفته، بشر مثلها، أمّا أتباعه فهم الأراذل، وهم الحمقى، الذين اتّبعوه دون أن يُعملوا عقولهم في الأمر.

---

(١) وكانت تنصره وتعضده، وإن لم تؤمن بدعوته.

ومن يدعونهم بالأرذلين إنّما هم تلك الفئة التي تشكّل سواد المجتمعات، ولا ينبغي أن يتبادر إلى أذهاننا أنّهم حثالة الناس وضعاف العقول والبسطاء، كما يصوّر الفكر الشعبيّ أتباع الرسل، وإنّما جاءت كلمة " الأرذلون " من واقع تحكّم المتنفّذين في كلّ أمّة وتسلّطهم على شؤون الناس يصرّفونها، وهؤلاء يعتبرون الآخرين دونهم، ولا يرون لهم حقًّا ولا لرأيهم مكانًا ولا مكانة، بل يسفّهونهم ويطمسونهم ويحقرونهم.

وتلك الفئة المستضعَفة هي التي قامت عليها الدعوات إلى الحقّ عبر تاريخ الإنسانيّة على وجه الأرض، ذلك أن الحقّ ذو قوّة ذاتيّة قاهرة، تصنع انتصارها بأيدي أوليائها، ولا تعتمد في قواعدها الأولى على ذوي القوّة أيًّا كانوا. وعلى المؤمنين بها أن يُعدّوا ما استطاعوا من قوّة لحماية أنفسهم، كحمَلة لهذه الدعوة في الأرض. وعندما يفتقر أولياء الحقّ فعلاً إلى القوّة المادّيّة للدفاع عن أنفسهم في مواجهة أعداء دينهم الحقّ، فإن الحقّ ينتصر بقوّته الذاتيّة، ذلك أن الله هو ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ ٥٨ : الذاريات!

وبلفتة تكرُّم وموضوعيّة، قسرهم عليها تفاني نوح واستماتته في دعوتهم، يرمون في وجهه آخر ما لديهم: لا فضل لكم علينا يدعونا لترك ما نحن فيه واتّباعكم. والأكثر من هذا أنّنا نراكم كاذبين فيما تدعوننا إليه.

وكان لابدّ أن يبلغ المطاف غايته، وأن تسقط بقايا الأقنعة الصفيقة الرثّة، ويسفر النزق الأرعن عن وجهه ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ ١١٦ : الشعراء. وهكذا انهار تمامًا تجمُّل العِليّة الزائف، عندما بلغ الأمر حدّ التهديد الجِدّي لمصالح أصحابه... وكان ذلك آخر المطاف.

من أبرز سمات الطغاة أنّهم ينتحلون سَمت المتفضّلين على الخلق، المستحقّين لكلّ امتياز، ويفرضون، بمنطق القوّة، إرادتهم على العامّة، ثم يدعمهم القانون الاجتماعيّ، فيفرض على

السواد الأعظم رؤاهم تلك، حتى تغدو مسلّمات لا تُناقش. وفي ذلك النوع من المجتمعات المستَلَبة فكريًّا كثيرًا ما يغلب على الناس عمى القلوب التي في الصدور، فإذا هم يتبنّون أفكار جلاّديهم، وقد يدافعون عنها، فكأنّها القاعدة ومخالفتها الشذوذ.

ومن أمثلة الاستلاب الفكريّ في المجتمع المكيّ خاصّة، ومجتمع جزيرة العرب عامّة، موقفه ممّا جاء به محمّد ﷺ. فعندما استقرّ في عقول هؤلاء وقلوبهم إعجاز القرآن، وعجزُ البشر عن الإتيان بمثله، وأنّه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، وأنّهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، برزت لهم تلك المعضلة المستعصية على التفسير: كيف يتنزّل هذا الكتاب العظيم على رجل منهم!!!

فلو أنّه تنزّل على أميّة بن خلف، أو الوليد بن المُغيرة، أو أبي سُفيان بن حَرب، لكانت الأمور في نطاق ما اعتادوا وألِفوا، ولما دعاهم ذلك إلى الشكّ في مصدره.

ويسجّل القرآن الحكيم هذا الموقف الأخطل، ويرصد الظاهرة الكامنة فيه ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ٣١: الزخرف!!!

الجدال المرير

لم يعد السكوت على ذلك الصوت المؤرّق ممكنًا، فقد بدأ بعض من أولئك الذين لا يهدّد الحقّ مصالحهم، ومن المنكوبين بالرشد، ومن المسحوقين تحت الأقدام الظالمة المتسلّطة يَفيئون إلى نوح الرسول، وبدا للملأ من قوم نوح أن النداء الذي يطرق أسماعهم منذ حين صار أقوى من أن يتجاهلوه، وكان لابدّ من أن يتصدَّوا لذلك الذي ما فتئ يردّد: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ٥٩: الأعراف. فقالوا بفوقيّة كذّابة: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ٦٠: الأعراف.

فردّ نوح بأدب النبيّ، ورحمة الرسول: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ ٦١ و٦٢: الأعراف، ﴿وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ٦٣: الأعراف.

فكذّبوه، وقالوا: إنّها فِرية يفتريها.

فأقرّ ضمنًا أن من حقّهم أن يَعجبوا ممّا جاء به، وسألهم متلطّفًا: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ ٦٣: الأعراف!

ثم راح يبيّن لهم ألاّ غرض له يدعوه إلى الكذب والافتراء ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ ٢٩: هود. وتطّرد عبارة ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ﴾ ١٠٩: الشعراء، في خطاب الأنبياء والمرسَلين لأقوامهم، باستثناء إبراهيم وموسى، أمّا إبراهيم، فمعروفة صلته بعمّه آزَر، الذي ربّاه في حجره، وكان صاحب الفضل الأوّل عليه، فكان من أدب النبوّة ألاّ يقولها في قومٍ أبوه آزرُ واحدٌ منهم[١]. وأمّا موسى فأنّى يقولها، وقد رُبّي في آل فرعون وليدًا، ومكث فيهم من عمره سنين[٢].

*

وهناك إشارات لافتة إلى رحمة نوح وبرّه بقومه، وهي تفرض نفسها عندما نتصدّى للبحث في دعائه عليهم، ومن تلك الإشارات نهي الله نوحًا عن الشفاعة لديه بقومه، وذلك عندما أمره أن يصنع الفلك بأعينه ووحيه، قال: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ٣٧: هود[٣]، وفي تلك الآية دليل على أن نوحًا لم يكن يريد لهم أن يقضوا في الطوفان، وقد علم الله هذا منه، وأنّه سيخاطبه فيهم متشفّعًا فنهاه عن ذلك، وبيّن له أنّه قضى بهلاكهم قضاء حقّ سبق به القول ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ ٤٠: هود، أي قول الله الحقّ ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ٣٧: هود. وقول الله الحقّ قضاء ناجز، فلا اعتراض.

---

(١) كان آزر صانع التماثيل التي انصبت دعوة إبراهيم على النيل منها وانتهت بتحطيمها، فكانت مجابهاته الأولى بكل زخمها لعمه صاحب الفضل الأكبر عليه.

(٢) قيل إن موسى كان يدعى بابن فرعون، وقد من عليه فرعون بهذا "قال: ألم نربك فينا وليدًا، ولبثت فينا من عمرك سنين" ١٨: الشعراء؟

(٣) أشار بعض المفسرين إلى أن المقصود بالذين ظلموا أهلُ نوح، ولا دليل على ذلك، بل الأفضل اعتبارهم قومه جميعًا، حيث هو خُلق الأنبياء من ناحيتين، الأولى، الرحمة بالناس عامة وبأقوامهم خاصة. والثانية، أنه لا يستقيم أن نتصور أن نوحًا، النبي المرسل، سوف يلتمس عند الله الحق نجاة من لم يؤمن من أهله، وقد حق الهلاك على جنس الكافرين. وأما موقفه من مهلك ابنه لاحقًا فهو وليد لحظته، وبرهان على أنه بشر، لا بد أن تهزه عاطفة الأبوة في لحظة كهذه، ثم يفيء إلى الحق لدى إشارة من الله فيستغفره، ويعوذ به.

يستمرّ الجدال، ويظلّ نوح، أكثر الأنبياء معاناة من شقشقة لسان قومه، يجاريهم، يستنزف آخر قطرة في كأس الأمل مرغّبًا ومرهّبًا، فيتململون، ويُلقون بآخر شروطهم التعجيزيّة: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ ٣٢: هود... وهنا أيضًا يتألّق الصبر المعجز ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ٣٣: هود. وقد يغلب اليأس أمله عندما لا يترك الظلَمة موضعًا للأمل.

فعلى الله توكّلت

يحكم العلاقة بين البشر وخالقهم كلّ ما يترتّب على الولاء الكامل من الخضوع والعبوديّة، التي تبلغ بمن يهتدون إليها غايةَ الحريّة، وتعتقهم من كلّ قيد، وتجوز بهم كلّ عائق دون الحقّ الذي يتغيّونه... ذلك أن الله مولاهم الحقّ.

ولكنّ هناك آفة تترصّد أولياء الله من الصالحين، وتلك الآفة هي الأمل الأرعن، الذي ينحرف عن حقيقته المشروعة، إلى الاغترار والعُجب بما يكرّمهم به الله من أنعمه. ومتى راود الرجل أن شيئًا ممّا ناله إنّما هو بعض من فضله وقدرته، ولم يسلِّم تسليمًا أنّه، وكلّ فعالياتّه، لا يعدو أن يكون فضلاً من الله الحقّ ومنّة[1]، هوى، وتعذّر عليه أن يرتفع من جديد.

ذلك أن للأولياء في قربهم من الله مكانا حسّاسًا، قلّما تسعف القدرة البشريّة على التوازن فيه، فهو أشبه بالصراط، متى اهتزّ توازنك الداخليّ تخرّب المبدأ الذي يحفظ ثباتك عليه، ورحت تترنّح، وقد تسقط ما لم تتداركك رحمة الله الحقّ بمعجزة.

ومن هنا اتّسم الأنبياء بمتانة الاعتصام بحبل الله، ودوام التوكُّل عليه، واللجوء الصادق الدائم إليه في كلّ شأن، كما اتَّسموا بعدم الاغترار والعُجب، بما وهبهم الله من توفيقات وكرامات ومعجزات.

(١) وكلّ مولود هبة لوالديه «يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور» ٤٩: الشورى.

ويبلغ نوح غاية الموضوعيّة والإبلاغ في النصح، وينتزع نفسه من الأمر ليخلّي بينهم وبين ربّهم، عسى أن يفهم هؤلاء أنّه لا غاية له، وإن هو إلاّ ناصح لهم حريص عليهم، وأن الله ربّهم، وأنّهم إليه يرجعون .﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٣٤: هود.

يشير قوله عزّ وجلّ على لسان نوح: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٣٤: هود. السؤال التالي: هل يُغوي الله الناس؟!

لو تتبّعنا كلمة الغواية في آي الذكر الحكيم لوجدناها من المشترك، ففي قوله عزّ وجلّ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ ١٢١: طه، نجد الغواية بمعنى الانحراف عن جادّة الحقّ. أمّا في قوله في الآية السابقة، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ٥٩: مريم، وقوله على لسان إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ١٦: الأعراف، فلا يستقيم أن تكون بهذا المعنى بالنظر إلى إسناد الفعل إلى الله تعالى في الآيات الثلاث، وقيل إنّها بمعنى العذاب.

لكنّ التساؤل ما يزال قائمًا: هل يريد الله أن يعذّب الناس؟

ولكي نجد مخرجًا لأمثال هذه الآية ممّا يتمسّك بها القائلون بالجبر، أو من يدّعون أن ثمّة تعارضًا بين الآيات التي تسند مصير الإنسان إلى عمله، وتلك التي تسلبه أيّ دور في ذلك المصير، علينا أن نشير إلى أن «يريد» بمعنى «يَقضي»، وما يقضي الله الحقّ بإغواء أحد إلاّ أن يكون قد سلك سبيل الغواية، أي اتّخذ إليها الأسباب، وكان ممّن قال فيهم: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ﴾ ١٤٦: الأعراف، وأولئك الذين يصرفهم الله الحقّ عن آياته.

يريد: لا ينفعكم نصحي إن كان ما فعلتموه يفضي إلى الضلال في ظلّ قوانين الحقّ التي تحكم الأمور، ومن تلك القوانين ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ ٣٨: المدثر. أي إن كنتم قد فعلتم ما استوجب الضلال، فلن ينفعكم نصحي، وإن أردته .

ونوح يعلم أنّهم قد فعلوا ولكنّه يتلطّف بهم.

ولم يكن المنطق والتلطّف يشفعان لنوح عندما لا تُسعف قومَه الحُجّة، بل كانوا يلجؤون إلى رميه بالجنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ ٢٥: المؤمنون. ثم يزدجرونه وينتهرونه بتعالٍ أحمق، حيث يقولون في أكثر مواقفهم اعتدالاً: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ ٢٧: هود، ويقولون فيما بينهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ ٢٤: المؤمنون. ومن عجب أن أسلوبهم التهجميّ لم يُعدِ نوحًا، بل كان يقول مقرًّا بدعواهم: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ ٣١: هود.

ويوغل قوم نوح في النَيل منه بالالتفات إلى من آمنوا معه ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ ٢٧: هود.

وهكذا يعودون من حيث بدؤوا إلى التكذيب، ذلك أنّه ما يهمّهم من الجدال كلّه. ولم يقفوا عند هذا الحدّ، بل اتّخذوا ذلك عتبة، يقفزون منها إلى حيث لا يتوقّع المُحاوِر ذو المنطق، فأضافوا مغتبطين بما ظنّوا أنّهم قد وقعوا عليه من الحُجّة: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ ١١١: الشعراء!

وعلى الرغم من تهافت مقالتهم تلك، يهتمّ بها الرسول الصبور، الحريص على كسب ودّ قومه، فيطيل الكلام بما يستميلهم، دون أن ينال من أتباعه المؤمنين، مبيّنًا أن علمه بما كانوا عليه قبل إيمانهم معه لا دور له في موقفه منهم، ونظرته إليهم. فالناس في دين الحقّ يُقيَّمون بما هم عليه من الهدى، ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ١١٢ و١١٣: الشعراء، و﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ﴾ ٣١: هود.

كان واضحًا أنّهم يساومون الرسول النبيّ على ربط الدعوة برمّتها بعجلة تركيبتهم الفكريّة... فليَطرد أولئك الأرذلين، بزعمهم، ليكون لائقًا أن يؤمنوا له. ولكنّ نوحًا أدرى ببطلان ما يطلبون، فلو كان فيهم خير لما ساوموا على ما ساوموا عليه. ومع ذلك تكتنف الرحمة وسعة الصدر ذلك الصدّ الرفيق الذي بدا منه: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ٣٠: هود؟!

وهنا يثور ثائرهم، ويرمون كلّ أقنعتهم، فما كان جدالهم بهدف الاقتناع والوصول إلى الحقيقة، بل كان مماحكة، ومحاولات دائبة لإسكات صوت الحقّ، ووأد

الدعوة. وهاهم أولاء، وقد تثبّتوا من إصرار نوح على موقفه، ينفجرون بما كان يعتمل في قلوبهم منذ اللحظة الأولى للجدال: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ ١١٩: الشعراء... هكذا هشمت العصا جُمجمة المنطق، وقضي الأمر وفقَ شريعة الغاب الأزليّة الأبديّة.

وعندما كان اليأس ينال من قوم نوح كانوا ينكفئون على أنفسهم[1]، و يتناجون فيما بينهم: أن لا تستمعوا إليه وتمسّكوا بآلهتكم ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ٢٣: نوح.

يأس وابتهال

حزب الأمر نوحًا، وناءت بما تحمله بشريّته، فلجأ إلى ربّه متبتّلاً، يعرض ما آلت إليه حاله على الخبير البصير، الذي لا تخفى عليه خافية... يعرضه لا إعلامًا ولا شكوى، ولكن اعتذارًا آسيًا، أن هذا كلّه لم يأت بما كان يرجوه من مرضاة ربّه... يعرضه عسى أن يفتح ربّه بينه وبين الذين كذّبوه، وهدّدوه بالرجم فتحًا من عنده، وينجّيه منهم بقدرته، ذلك أنّه لا يملك وسيلة للنجاة بنفسه وبمن معه من المؤمنين ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ١١٧ و١١٨: الشعراء.

إن القرب من الله، والإحساس بقبوله، نعمة نفيسة، تورث غبطة خطرة، ذلك أنّها تجعل المساحة المتاحة لحركة العبد غاية في الضيق، فالبرزخ الذي بين محدوديّة كيانه المادّيّ، وبين المطلق، يبدو له في لحظات الصفاء شفّافًا إلى درجة الافتتان، ولا ينجّيه من الكارثة العظمى إلاّ الاحتفاظ بحالة التوكّل على الله الحقّ، حيّة في قلبه، وفي أنشطة جوارحه، وتنبيه إحساسه بفضل الله الحقّ عليه، فهذا وحده يمنحه التوازن، ويعطي خطواته رشدها، فلا تنحرف به، ولا تتخاذل.

(١) الأمر الذي يشي بعجزهم عن إسكاته.

وفي سورة نوح تتجلّى عظمة النصّ القرآنيّ، في مناجاة حارّة يبثّها نوح ربّه، تُظهر معاناته الفريدة في الدعوة... لم يكن نوح يعتذر إلى الله ربّه، بل كان يزفر زفرات العاجز الذي يمزّقه أنّه لم يُصب الهدف بعد عظيم العناء. ونتتبّع التجاءه إلى الله مبتئسًا مفلسًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ ٥ - ٢٤: نوح.

ومن ألمع النقاط في هذه المناجاة الفريدة ما جاء على لسان نوح من الاستغفار ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ ١٠ - ١٢: نوح.

تؤيّد التجارب نوحاً فيما أخبر به عن الاستغفار، يعرف هذا كلّ مؤمن يوقن أن هذا الكتاب منزّل من لدن حكيم عليم، فهويستغفر عند احتباس المطر، وعند الافتقار والعوز، وعندما يكون محرومًا من البنين، وعندما يقع المحل وتشحّ المياه...

تجارب ميدانيّة تطمئنّ بها القلوب إلى أن هذاالكتاب الذي ينطق بالحقّ عندما تعيه صدور المؤمنين. فقد احتبس المطر، فاستسقى الناس، وجلس عمر يستغفر، فقيل له: مالك لا تستسقي؟ قال: لقد استسقيت بمفاتيح السماء. مشيرًا إلى الآية[1].

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم الآيتين ١٠ و ١١ من سورة نوح.

وأنت لا تستمطر بالاستغفار الماءَ فحسب، بل كلّ خير ترجوه، ففي الحديث «من لزم الاستغفار جعل الله له من كلّ همّ فرجا، ومن كلّ ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب»[1].

والاستغفار دواء لكلّ داء، وفي حديث لرسول الله ﷺ: «ألا أدلّكم على دائكم ودوائكم؟ داؤكم الذنب، ودواؤكم الاستغفار»[2].

وذلك من حيث كون الاستغفار تجديدًا لإسلام المسلم، فإذا أتى المسلم الذنب ثم تاب صادقًا، واستغفر الله، تقبّل الله توبته، وغفر ذنبه، فكأنّه أسلم للتوّ، فجبّ إسلامه ما قبله، وفتح له صفحة بيضاء، يمكنه عبرها أن يدخل الجنّة من أوسع الأبواب.

لقد بسط نوح مأساة عمر طويل في معاناة عقيم، وانتهى به الأمر إلى الالتجاء إلى ربّه يسأله أن يذرهم في طغيانهم يعمهون: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ ٢٤: نوح.

*

وعندما أذن الله أنّه لن يؤمن من القوم إلاّ من قد آمن، وقال لنوح: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ٣٧: هود، امتثل نوح لأمر ربّه، ولعلّه شغله ذلك، أو أقعده اليأس عن الدعوة، فهدأت حدّة الجدال بينه وبين قومه، فأخذتهم نشوة النصر وأمنوا مكر الله، واتّخذت حربهم طابع السخريّة والتهكّم، احتقارًا لشأن نوح ومن معه، واعتدادًا بثباتهم وإصرارهم على ما هم عليه. وكانوا كلّما مرّوا به سخروا منه، فكان يقول: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ٣٨ و٣٩: هود.

ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارًا

شاع بين المفسّرين أن الطوفان كان بدعاء نوح على قومه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ ٢٦ و٢٧: نوح. لكنّ

(١) سنن ابن ماجه: ٣٨١٩.

(٢) رواه البيهقي عن أنس.

دراسة متأنّية لمسار الأحداث في قصّة نوح عليه السلام تضع بين أيدينا نتيجة مخالفة لذلك.

فنحن إذا ما تتبّعنا دعاء نوح في خضمّ محنته، بل مِحَنه الموصولة، وجدنا أنّه لا يعدو الابتهال إلى الله أن ينتصر له وينجيه، ويجنبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام. وعندما كانت مواقف قومه القاهرة تسدّ عليه الأبواب كان يلتجئ إلى الباب الذي لا يُسدّ ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ١١٦ ـ ١١٨: الشعراء، وتمّت إجابة شطر الدعاء الثاني، فأنجاه ربّه ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ ١١٩: الشعراء، أمّا الأول، وقد تركه نوح إلى الله، فقد قضى الله فيه قضاء نفذ بعد حين ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ ١٢٠: الشعراء[1].

وفي موقف آخر ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ ٩ - ١٣: القمر. لقد نادى نوح ربّه من عمق معاناته مبديًا عجزه، وتاركًا الأمر له أن ينصر دينه، فكانت النصرة... كانت كما أرادها وقدرها ربّ العالمين، لا كما أرادها نوح. وقد صوّر الذكر الحكيم هذا الموقف أكثر من مرّة، فقال في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٧٥ - ٨١: الصافات. لقد استجاب ربّ العالمين لنوح المغلوب فنجّاه وأهله، وجعل له عقبًا، وترك عليه في الآخرين سلامًا... ذكر ذلك بإطناب يوحي بتراخي الزمن وانقطاع الكلام. ثم بعد هذا كلّه قال جلّ وعلا: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ ٨٢: الصافات. وهنا أيضًا نلاحظ أن الإغراق لم يكن بطلب من نوح، بل كان، بتقدير العزيز الحكيم، النصرةَ المناسبةَ.

وفي سورة الأنبياء نقع على تصوير آخر للموقف نفسه ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ ٧٦ و٧٧: الأنبياء، وكانت استجابة الله كذلك شطرين، فقد أجاب نوحًا إلى

---

(١) يكاد يصرّح بذلك الحينِ التطاولُ الذي فرضته "ثم"، ووكدته "بعدُ".

ما سأل، فنجّاه وأهله، وانتصر له. وأضاف: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٧٧: الأنبياء. وتتكرّر الملاحظة مرّة ثالثة، لقد قدّر الله أنّ الإغراق هو النصر المناسب للمقام، فهو ليس اختيار نوح، بل مشيئة ربّ نوح.

ونرى نوحًا في سورة المؤمنون يواجه تولّي قومه، وخلوصهم إلى أنّه يريد أن يتفضّل عليهم، أو أنّه عجوز مجنون، فيلجأ إلى ربّه ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ٢٦: المؤمنون، وتكون الاستجابة: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ٢٧: المؤمنون.

وفي هذه السورة نقف على ختام تلك الفصول من الدعاء والاستجابة، ثم نفاذ أمر الله الحقّ، لا بدعاء نوح، ولكن لأنّه ما قضى به الله الحقّ فكان. ثم يبسط نوح بين يدي ربّه ما آلت إليه حاله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ ٢١ - ٢٤: نوح.

ويقف كلام نوح، فالله الحقّ سينزل بهم حكمه لِما خطئوا: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ ٢٥: نوح... هكذا قُضي الأمر، لقد أغرقهم الله بخطاياهم، وسوف يُتبع ذلك سريعًا بإدخالهم النار، وما لهم من ناصرين.

وعاد نوح يخاطب ربّه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ ٢٦ و٢٧: نوح.

ولكن... ألم يأمر الله نوحًا أمرًا لا معقّب له: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ٣٧: هود؟!

يرى سيّد قطب أن الله ينهى نوحًا عن مخاطبته بشأن قومه، كائنًا ما كان الخطاب: دعاءً بهدايتهم، أو دعاءً عليهم[1]... لقد انتهى دور نوح إذًا، وكفّه الله، ذلك أنّه قضى بهلاكم، فأُغرقوا بخطيئاتهم، وحقّ عليهم دخول النار في الآخرة، بعد عذاب الغرق

---

(١) في ظلال القرآن تفسير الآية.

في الدنيا. وقد كان ذلك واضحًا في خلَد نوح الرسول النبيّ، حتى في أكثر المواقف إذهالاً لذي اللبّ، فهو يقدّم لمخاطبة ربّه بابنه، بعد أن حال بينهما الموج، بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ ٤٥: هود، فهو خارج نطاق ما نهيتني عنه من خطابك في قومي.

وبعد أن قُضي الأمر يعقّب نوح الرسول النبيّ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ ٢٨: هود، وفي هذا الدعاء العظيم إشعار بخاتمة المطاف، ممّا يؤكد أنّه إنّما تمّ بعد أن قُضي الأمر، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٤٤: هود، وبعد أن أغرقهم الله فأدخلهم نارًا «بخطيئاتهم» هم، لا بدعاء نوح عليهم.

ثم إن قوله ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ ٢٨: نوح، ليس خاصًّا بقوم نوح، ولكنّه تعقيب عامّ على الأمر، يشمل الظالمين كلّهم. وكذلك الحال عندما دعا عليهم بالضلال ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ ٢٤: نوح.

بل إن ثمة أدلّة على رأفة نوح بقومه، ورقّته لهم، ومن ذلك ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ٥٩: الأعراف، وذلك التلطّف المسترضي ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ ٢٨: هود، حيث تُشتمّ رائحة الاعتذار عن كثرة جداله إيّاهم، حين يبيّن لهم أن دافعه إلى ذلك أن يجعلهم على بيّنة ممّا يصدّع رؤوسهم به، فهو فعلاً قد أنعم الله عليه بتلك الرسالة، فهل يفرض التعاليم عليهم قسرًا دون أن يبيّن لهم الوجوه التي تحبّبها إليهم؟! أم يلحّ عليهم ليتبيّنوا تلك الوجوه بأنفسهم، وهو أفضل طبعًا بالنسبة إليهم؟
ومثله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ ٢٩: هود.

يتوقّف كثير من المفسّرين والباحثين عند هذه النقطة، ليخوضوا في معترضة يرونها وجيهة، وكان الشيخ عبد الوهاب النجّار واحدًا ممّن تصدّوا لتبرير ذلك حيث قال: " ما ذنب الأطفال من قوم نوح حتى هلكوا مع الآثمين من آبائهم وأمهاتهم؟ والجواب: أن الله سبحانه وتعالى جرت عادته بأن النقمة لا تصيب الذين ظلموا خاصّة، وفي علم الظالمين بهلاك أولادهم معهم

زيادة تعذيب ونكال لهم، على أنّنا في كلّ يوم نرى الأطفال يهلكون بمختلف الأمراض، وليس ذلك عقابًا للأطفال على ذنوب ارتكبوها، أو آثام اقترفوها. ولكنّ ذلك من باب وجود المسبَّب عند وجود سببه". ويضيف: "وبهذا لا نحتاج إلى ما تكلّفه بعض العلماء والمفسّرين من أن الله تعالى أعقم أرحام نساء قوم نوح قبل الطوفان بأربعين سنة، فلم يولد لهم في تلك المدّة مولود، وبذلك اشترك جميع قومه في الإثم وهم مكلّفون، فحقّ عليهم العذاب، وحاق بهم الهلاك"[1].

إنّه كشكول الخرافة الإسرائيليّ، فيه لكلّ داء دواء، وما دام الأمر ليس مقيَّدًا بقاعدة من العلم أو المنطق، فإن عشرات الإجابات يمكن طرحها على كلّ سؤال يرِد أو يُعتسَف. ولعلّني لا أُضيف إلى إجابة الشيخ النجّار، بل أفصّلها، أو أشرحها، إذ أقول: إن هناك محورين في إجابة هذا السؤال:

المحور الأوّل: أن هذا الوجود الماديّ قائم على قوانين حقّ، وهي أمر الله الذي أوحاه فيه ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ ١٢: فصلت، وعلى رأس هذه القوانين قانون الأسباب، وهو قانون سارٍ فيما نعلمه، وفيما لا نعلمه[2]. وكون البلاء يعمّ يمكن أن ينظر إليه في ظلّ مفهوم دفع الله الناس بعضهم ببعض، فكما أن هذا الدفع يكون سببًا في منع صوامع وبيع وصلوات أن تهدم، فعموم البلاء فئةً من الناس يمنع أن يعمّ الجميع، أو أن يعمّ فئة أكبر. فهو بهذا الاعتبار خير.

المحور الثاني: هذا الوجود الماديّ ليس كلّ شيء، ولكنّه بعض من الكينونة الإنسانيّة الكليّة، أو مرحلة من مراحلها، وما يكون فيه ليس مبتوت الصلة بمُجمل ما يكون في مجمل كينونة الإنسان، فالفعل تفعله في الدنيا قد تلقى جزاءه فيها أو في الآخرة. فإذا أُخذ بريء بقانون ممّا سبقت به كلمة الله فليس هذا آخر المطاف، بل هناك النصَفة والعِوض في مرحلة لاحقة، ذلك أن الله عدل وأنّه يجزي الجزاء الأوفى.

فلا تبتئس بما كانوا يفعلون

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ٣٦: هود. هكذا وضعت تلك الكلمات حدًّا لعمر فريد من المعاناة الفريدة... لقد كانت قمّة اليأس، ولكنّها كانت الفرج الذي طال تواريه حتى كاد يُنسى؟

(١) قصص الأنبياء ص ٦٣.

(٢) انظر الباب الأول: المعجزة.

ها قد بلغ الكتاب أجله، وهاهو ذا حصاد عشرات القرون الناصبة يُجمع في بيدر واحد... ولا حصاد بعد... ولكنّ يد الحقّ الرحيمة عِوض أيّ عِوض، وإذا قال الرحمن الرحيم: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ٣٦: هود، فإنّهم وكلَّ ما فعلوا، وكلَّ المعاناة القاصمة، والعمرَ الذي تبدّد، هباءٌ منثور... وتبقى بركات ذلك الخطاب غنًى ورضا يُعفّي على كلّ عذابات الدنيا.

وفي الدين الخاتم يتّضح لنا كيف تتدارك رحمة الله الأنبياء، ولا سيّما سيّد الأنبياء والمرسلين في كلّ مرّة يحزن فيها قلبه، فيأسو جراحه، ويشعره أنّه معه، يكلأه برحمته ورعايته: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ٦: الكهف، و﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ ٨: فاطر، و﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ ٢٣: لقمان.

إنّها رحمة الله أسبغها على المصطفَين من عباده، ودرس ومثال لكلّ صاحب دعوة حقّ، وكلّ ذي مبدأ يتفانى في تكريسه، وجمع الناس حوله. فدعاة الحقّ يتقطّعون بين غيرتهم عليه، وحرصهم على الدعوة إليه، وحملهم عبء من يتنكّرون له، وقد كفاهم الله الحقّ ذلك النصَب بما أوحاه إلى رسله ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ١٨: العنكبوت، و﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ٣٥: الأنعام. **بل زوّدهم بالحُجّة المنطقيّة المفحمة يواجهون بها المنافقين** ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ١٧: الحجرات.

ومن روح الآيات السابقة يمكننا الوصول إلى القاعدة العامّة التي تنتظم كلّ أشكال الدعوة إلى الله الحقّ، وتوجزها الآية الكريمة: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ ...٢٧٢: البقرة. **والذي يشاء الله أن يهديه هو مَن شاء الهداية لنفسه، واتّخذ أسبابها، أي استقام كما أُمر** ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ ٢٧و٢٨: التكوير، **فمَن استقام فقد شاء لنفسه الهداية، فالله ييسّره لها، وييسّرها له.**

ومن روح الآيات نفسها، يمكننا الوقوف على خطوط عريضة في منهج الدعوة، تتجلّى فيها حكمة الحكيم الخبير في مداخل النفوس، وما تُفلَح فيه في كلّ ميدان. ومن نافلة القول أن الإخلاص والتفاني هما الموجبان لتسمية فلان من الناس بالداعية، ويأتي من بعد ذلك أن الداعية الحكيم لا يهلك نفسه فيما ليس مكلّفًا به، ذلك أن عدم تكليفه به تدبير حقّ من لدن

obeikandi.com

لطيف خبير، يدبّر الأمر، يفصّل الآيات. وصرفُ الجهد في تحسين الأداء على الصعيد الشخصيّ والميدانيّ أجدى على الأطراف كلّها.

ولكلّ ميدان من ميادين الدعوة خصوصيّته في معاملة المدعوّين، فأنت عندما تدعو بين الكافرين فإن تقنيّات الدعوة هي المطلوبة منك بالدرجة الأولى، وليس مطلوبًا منك أن تبخع نفسك على آثارهم أسفًا أن لم يؤمنوا لك. أمّا إن كنت تدعو في قوم مسلمين، فأنت لا تستطيع عدم الاهتمام لشأنهم لأنّك منهم، ولكن عليك الاعتدال، وصرف قدراتك للعمل ما استطعت، ومحاربة اليأس، وعدم السماح له بالتسرّب إلى نفسك، ولك عذرك إن غلبك، فهؤلاء هم الرسل يستيئسون فيتداركهم الله برحمته.

وهنا يتجلّى لذي اللبّ قول الله الحقّ جلّ وعلا: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ ١٢: الليل، **ثم يتجلّى إطلاق قدرته، وإحاطتها بكلّ ما قد يخطر على قلب بشر ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾** ١٣: الليل.

واصنع الفلك

يذكر القرآن الكريم سفينة نوح باسم الفُلك غالبًا، والفُلك السفينة، مذكّر، ويؤنّث، وجمعه كواحده، كما أطلق عليها اسم السفينة ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ١٥: العنكبوت. وقال عنها إنّها ذات ألواح ودُسُر، وإنّها تجري بأعين الله.

وممّا يمكن أن يُستنتج، من مُجمل ما جاء عن سفينة نوح في الكتاب المبين، أنّها كانت كبيرة الحجم، وذلك لقوله فيما حُمل فيها ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ ٤٠: هود، وأنّها مصنوعة من ألواح الخشب الخفيف، المشدودة بعضها إلى بعض، وذلك لقوله فيها ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ ١٣: القمر، وأنّها متينة، قاومت الموج العاتي ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ ٤٢: هود، وأنّها كانت مغلقة إلّا فتحة المدخَل لقوله: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ ٢٧: المؤمنون. ذلك أن ممّا يعنيه السَلك الإدخال من مولَج ضيق، وهذا زيادة على الحمل الذي سبق أن ذكره.

وتسعفنا نصوص قديمة من بلاد ما بين النهرين، وأخصّ بالذكر منها ما جاء في ملحمة جِلجامِش، ذات الأصول السُّومريّة، بوصف تفصيليّ لسفينة نجا بها الجنس البشريّ من الانقراض في الطوفان الكبير، ويشمل ذلك وصف عمليّة بناء السفينة، وبعض الموادّ المستخدمة في ذلك، والظروف التي اكتنفت عمليّة البناء.

وإذا كنّا لا نستطيع الجزم بأن ذلك يخصّ سفينة نوح نفسها، فهو وصف لسفينة فائقة في قصّة هي نسخة من قصة نوح ﷺ، ولعلّها من وحي واحد من الطوفانات المدمّرة، التي شهدت المنطقة أكثر من واحد منها، في تلك الأحقاب.

إنّ نصًّا من هذا النوع يُعتبر وثيقة ذات مصداقيّة خاصّة، ذلك أن الأدب، مع عدم إغفال أثر الصياغة الفنيّة في دقّة الدلالات، مصدر حياديّ نسبيًّا قياسًا على المصادر الدينيّة، وعلى رأسها التوراة. فإذا ثبت أن النسخة التي وصلتنا من ذلك الأثر ترجع إلى ما قبل انتشار الفكر التوراتيّ، فهي وثيقة ذات قيمة كبيرة.

وممّا وُصفت به السفينة تلك: أن مساحة كلّ سطح فيها فدّان، وأن سطحها العلويّ مقبّب، أو محدّب، وأنّها سبع طبقات، وأن أرضها تسعة أقسام. وفي بعض الترجمات أنّها مزوّدة بما دُعي بمصدّات المياه، ويغلب أنّها المجاديف، وأن فيها عنابر للمؤن، وما يمكن تسميته بخزّانات للزيت والقار. كما ذكر أن لها ملاّحًا، دون أن يُسنَد إليه دور في القيادة أو التوجيه[1].

إن ما وصل إلينا من تفاصيل في صفة سفينة نوح في أدبيّات ما بين النهرين وفي توراة اليهود، ما هو إلاّ إضافات من كتّاب تلك النصوص تراكمت على مرّ العصور، أملاها عليهم عفويًّا مدلول الكلمة في حضاراتهم، ثم تداخلت في الأصل الذي آض إلى تراث إنسانيّ مع الزمن[2].

---

(١) فراس السواح: جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة ص٢٢٢.

(٢) لا تخرج قصّة الطوفان التوراتيّة عمومًا، ووصف السفينة منها، عن كونها بعضًا من ذلك التراث المتأخّر، وإن دراسة مقارنة، بين المتوفّر والموثوق بهويّته وتاريخه من تلك النصوص، يمكن أن تساعد في تحديد زمن تدوين توراة اليهود. وقد قام الباحث فراس السواح بإجراء مقارنة بين النصوص التي تتناول الطوفان عمومًا، بما في ذلك صفة السفينة في توراة اليهود، وبين طائفة من النصوص السومريّة والبابليّة لغير الهدف الذي ذكرته. [فراس السواح: مغامرة العقل الأولى ١٨١ - ١٩٥].

وقد دعاني إلى هذا الاستنتاج أن نوحًا، ومِن ورائه إرادة الحكيم الخبير، إنّما كان يريد من السفينة أن تكون أداة للنجاة، وهذا على رأس كلّ دعاء لنوح. فالمطلوب من السفينة التي صنعها نوح والمؤمنون أن تحمي مَن على متنها، أو في جوفها من الغرق، وأن تتّسع لمخلوقات تساعد في إعادة الحياة الطبيعيّة إلى الأرض، ولمؤن تكفي ليتمّ لهم ذلك.

ومن هنا فالسفينة ليست أكثر من هيكل متين كتيم، لا ينفذ منه الماء، ضخم واسع السطح[١]، لا يحتفظ سطحه العلويّ بالماء المنهمر. وغنيّ عن الذكر أنّها ينبغي أن تحمي مستقلّيها من التدحرج، وارتطام بعضهم ببعض لدى ترجّحها العنيف. ولا حاجة إلى ما زاد على ذلك من مجاديف أو أشرعة أو وقود، ممّا للسفن. فهي، بناء على المعطَيات التي ذكرت، ليست أكثر من طوّافة مغلقة، تقوم بوظيفة طوق النجاة[٢].

وتظلّ سفينة نوح تثير التساؤل...

كيف خاضت هذا الامتحان القاسي، ونجحت هذا النجاح الباهر، وهل كان نوح صاحب أوّل سفينة، حقيقيّة في التاريخ؟!

أمّا عن السؤال الأوّل، فقد كان ذلك موضع الإعجاز الذي لم يدركه من ركبوا في سفينة نوح فنجَوا، ومن رفضوا ركوبها فهلَكوا، وكثير ممّن سمعوا بها، أو كتبوا عنها إلى يومنا هذا، فهي بصمودها الهائل، وفعاليّتها الفائقة من اللاّمعقول، وما زالت كذلك، شأن كثير من أمور اللاّمعقول، التي لم تجد لها العقول في حينها تفسيرًا، ثم طُويت في تضاعيف الزمان، فلم يتسنّ لها تدبّرها عندما امتلكت أدوات ذلك بعد عشرات القرون.

لقد صنع نوح سفينة جرت بأعين الله، أي برعايته وتوفيقه وهداه ووحيه، وهذا يعني أنّها أداة غاية في الإحكام، أو فائقة الفعاليّة، ولعلّها أكثر إحكامًا، من حيث تقنيّات الطفو والاستقرار والتحمُّل وتأمين الحماية لمن فيها، ممّا تنتجه أرقى مصانع السفن اليوم في العالم.

---

(١) بالنسبة إلى ما كان معروفًا مما يُقل الناس فوق الماء.

(٢) خرجت علينا وكالات الأنباء بخبر يقول إنه تم اكتشاف بقايا سفينة نوح في شمال تركيّة، وقد وصل أصحاب ذلك الاكتشاف، بوسائل علميّة تقوم على تقنيات متطورة، إلى أن تلك السفينة عبارة عن قارب هائل الحجم قياسًا بأقدم ما عرف من السفن، وأنّه مدعّم بالحديد والخشب بصورة موافقة لما جاء عن سفينة نوح في التواراة... ولكن الأهمّ في الأمر أن يصلوا إلى إثبات أنها سفينة نوح، وهو ما لم يتوصلوا إليه.

obeikandl.com

فمن الإعجاز في سفينة نوح أنّها مكثت أربعين سنة، وقيل أربعمائة سنة، جاثمة حيث صُنعت، وهذا يعني أنّها صمدت في العراء، عرضة للعوامل الجويّة وعبث العابثين، صمودًا غير عاديّ، قلّما تصمده السفن الحديثة، رغم تطوّر الموادّ المستخدمة في صناعتها، ووسائل وتقنيّات تلك الصناعة.

واليوم يتوصّل العلم إلى صنع مركبات تصمد في الفضاء الخارجيّ أكثر ممّا صمدت سفينة نوح في الماء، ولكن بطُرق ملتوية على الطريقة البسيطة المعجِزة التي صُنعت بها سفينة نوح. وليس ببعيد ذلك اليوم الذي يهتدي فيه العقل البشريّ إلى تسخير طاقات الكون، ببساطة متناهية، تغنيه عن كثير من التقنيّات المعقّدة المكلفة. وعندئذ سيكون العلم التطبيقيّ قد اهتدى، دون أن يدري، إلى الأسرار المقدّسة لسفينة نوح، وعصا موسى، وملائكة بدر، وبركات يدي رسول الله وهو يطعم العشرات طعام الرجل الواحد. وعندئذ يكون العقل قد اهتدى إلى السلطان الذي أجاز له الله أن ينفذ به من أقطار السماوات والأرض[(١)].

وأمّا عن السؤال الثاني، فلعلّ بالإمكان النظر فيه في ضوء القول بأن كلّ نبيّ صاحب بطولة، في ميدان ممّا يفرضه استخلاف الإنسان في الأرض، بل رائد قفزة من قفزات الإنسان الحضاريّة البالغة السعة في تاريخ الوجود الإنساني. ففي قوله جلّ وعلا: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ ٣٧: هود، يشير إلى أن الفلك الذي سيُصنع إنّما هو جنس الفلك، أو الفلك الأمّ، المخترَع بما يقتضيه الحقّ من قوانين هذه الآلة، التي كان لها شأن عظيم في التواصل البشريّ عبر تاريخ الإنسان على الأرض. وهذا أقوى من اعتبار التعريف في كلمة الفلك للعهد الذهنيّ، حيث لا دليل على أن الفلك كان معروفًا لدى نوح أو قومه. ويؤكّد ما أذهب إليه استعمال الكلمة بنفس الحضور في الآية التالية: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ ٣٨: هود، حيث يُشير الموقف إلى قفزة في المعارف الإنسانيّة تقابَل بالسخريّة، شأن جميع القفزات المعرفيّة عندما يقف عليها الرعاع.

ويضع النقاط على الحروف، بلا أدنى قلق، ما نقله أبو حيّان عن ابن عبّاس: «لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر»[(٢)]، وفي هذا إشارة واضحة إلى مبدأ صنع الآلات المعتمَد حتى يومنا هذا، حيث لا تزال التقنيّات، ولن تبرح، محاكاة للطبيعة، على أن تحقّق التفوّق بشكل واضح في الكفاءة، ويظهر ذلك جليًّا في صناعة الطائرات الحديثة. ولا تزال

---

(١) انظر الباب الأول: المعجزة.

(٢) البحر المحيط تفسير الآية ٣٨ من سورة هود.

السفن التي تعمل اليوم بالوقود النوويّ كالسفن التي تعمل بقوّة الذراعين تأخذ هذا الشكل.

ويضيف أبو حيّان: «وسخريّتهم منه لكونهم رأوه يبني السفينة، ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت. قالوا: يا نوح ما تصنع؟ قال: أبني بيتًا يمشي على الماء. فعجبوا من قوله، وسخروا منه» ويضيف: «فإن كان الأمر كما رُوي: أنّهم لم يكونوا رأوا سفينة قطّ، ولا كانت، فوجه الاستجهان واضح، وبذلك تظاهرت التفاسير. وإن كانت السفائن حينئذ معروفة، فاستجهلوه في أن صنعها في قرية لا قرب لها من البحر»[1]. ولا علينا ألاّ نأخذ بالاحتمال الأخير، ذلك أنّه لا يملك سندًا من نصّ، ولا يقرّه الواقع، فالمناطق المأهولة من العراق، في ذلك الزمان وحتى يومنا هذا، إنّما تقوم على دجلة والفرات. والبحر يشمل الأنهار والبحيرات، والمسطّحات المائيّة الصالحة للملاحة.

وفي بعض الروايات اليهوديّة أن نوحًا كان قد تعلّم بناء الفلك عن طريق كتاب مقدّس كان الملاك رزائيل قد سلّمه إلى آدم عليه السلام، وكان يحتوي بين ثناياه على العلم الدينيّ والدنيويّ معًا، وقد أخذه معه نوح في الفلك[1]، ويدل هذا على الصفة القدسيّة للعلم، وعلى صلته بالنبوّة.

ولكنّ القول بأن السفن لم تكن قد عرفت قبل نوح لا ينفي أن يكون ثمّة أطواف أو عبّارات بدائيّة الصنع، تطفو في الأنهار والمستنقعات التي تكثر في المنطقة. لقد كان الناس يطفون فُرادى، على جذوع أو سطوح يهيّئونها لتلك المهمّة، وذلك للضرورات كالصيد، واجتياز المجاري المائيّة، التي يتعذّر عبورها سباحة، أو خوضًا، أو على جسور، هي غالبًا جذوع أشجار تعترض المجاري، ولمّا رأى القوم نوحًا يصنع ما يصنع سخروا منه وممّن معه.

الطوفان

حتى إذا جاء أمرنا وفار التنّور

كثير من المفسّرين على أن التنّور بركان، وفوَرانه ثورته. ولا وجه لذلك إلاّ أن يكون قد حملهم عليه قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ ٢٥: نوح، وسوف

(١) محمد بيومي مهران. دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٤: ٦٠.

يأتي أن هذا تكلّف بلا مبرّر. واللغة على أن التنّور الكانون الذي يُخبَز فيه، وقيل: محفل ماء الوادي، ولا وجه للأخذ بالأوّل إلاّ أن يكون التنّور حفرة في الأرض[1]، فتكون له بذلك صفة محفل ماء الوادي. ذلك أن الماء الذي بدأ يتحلّب من شقوق الأرض يتجمّع أوّلاً في النقاط المنخفضة، ثم يفور منها، أي يفيض وينداح وينتشر. والأخذ بكون التنور محفل ماء الوادي يُخرجنا من التأويل، ولكنّه ليس في مثل قوّة ما ذهبت إليه من حيث بلاغة التعبير عن المراد، وانسجامه وصورة الطوفان ككلّ.

وتبقى جملة «فار التنّور»، تعبيرًا عن المرحلة الأولى، من الطوفان، وهي التي أمر الله فيها نوحًا أن يحمل المؤمنين في السفينة، أمّا المرحلة التالية، والتي رافقت المطر الغزير، فكانت تصدُّع سطح الأرض، وتفجُّر الماء عيونًا ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ ١٢ و١٣: القمر. وفي كتاب الشيخ النجار «قصص الأنبياء» إشارة تشاكل هذا، وذلك حيث يذكر أن ارتفاع منسوب المياه الجوفيّة قد يكون وراء تفجّر الأرض عيونًا، وهو أمر الله الذي جاء، إذ بلغت نسبة الارتفاع أن تندفع المياه من كلّ منفذ، أو تخرق سطح الأرض متفجّرة. ولمياه الأعماق حضور مشهود في أدبيّات المنطقة، ولا سيّما في الفكر الدينيّ، حيث كان لها إله خاصّ بها.

احملْ فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلكَ

لم يكن نوح على موعد محدّد... لقد صنع الفلك كما أُمر، ولبث ينتظر الوعد الحقّ: إنّهم مغرقون. وتشير الدلائل إلى أنّه قد لبث طويلاً ينتظر. حتى إذا حقّ أمر الله، وتهيّأت الأسباب لوعده ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ ٤٠: هود.

وتقف الإسرائيليّات بكلّ زخمها وراء نظر معظم المفسّرين إلى هذه الآية، فنراهم يستقصون الروايات، فما فات الواحد تلقّفه الآخر، حتى خرجوا بالأمر إلى حيّز الخرافة، فالخرافةِ المضاعفة، بما بنوه على تزيّداتهم من ضرورات. وفي هذا عدم التزام بحدود النصّ القرآنيّ، وإقامة نسب بينه وبين توراة اليهود المصنوعة.

---

(١) وهذا النوع من التنانير عبارة عن قبّة فوق حفرة يوضع فيها الوقود.

يقول سيّد قطب في تفسير ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ٤٠: هود: «ممّا يملك نوح أن يمسك، وأن يستصحب من الأحياء. وما وراء ذلك خبط عشواء»[1]. ولعلّ المراد أن يكون ذلك في الحيوانات التي يؤكل لحمها، للمحافظة على مصدر الغذاء الأكثر أهميّة للناجين عندما يهبطون على الأرض الخاوية بعد الطوفان.

فالتقىٰ الماء على أمرٍ قد قُدر

فما من ذِكر في النصّ القرآنيّ ولا في نصّ التوراة للرعد ولا للبرق ولا للعاصف كما في حكايات الطوفان البابليّة الزاخرة بذكر العواصف والرياح والبروق والرعود. وليس الموج الضخم كالجبال بدليل على شيء من ذلك، فلا بدّ لسيل مصحوب بالمطر في وادي الرافدين من أن يموج، لطبيعة الأرض ووجود النهرين الضخمين بروافدهما وفروعهما.

اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها

لقد أوكل نوح أمر السفينة إلى الله، أي تحرّى ما أمره الله به بشأنها، فتعهّد ما أوحى به إليه من الأفكار بالتقليب والتدبّر، لضمان الاستيعاب وحسن الفهم، واجتهد في اتّخاذ ما يحتاج إليه التنفيذ من أدوات على أكمل وجه وأتمّه، وحرص على الاحتياط لعمله، وعمل من معه، أن ينال منه زيغ النيّة، أو التواني أو الكسل، وراقب كلّ ما له علاقة بعمله وعملهم، ليكون مرضيًا لله الحقّ خالصًا لوجهه... قام من كلّ ذلك بكلّ ما وسِعه على الوجه الذي استفرغ طاقته بإخلاص كامل. فكلأ الله السفينة برعايته، وكان باسم الله مجراها ومرساها.

سنّة أن تبدأ كلّ عمل ذي بال بالبسملة، وفي تعوّد ذلك نفع عميم يعود عليك في دنياك وآخرتك، على ألاّ تُفقدك العادة فضيلة إعمال الفكر فيما تقول، وهذا من المساوئ الكبرى

---

(١) في ظلال القرآن تفسير الآية ٤٠ من سورة هود.

للعادة عمومًا، حيث يغدو جانب كبير من النشاط ميكانيكيًا يتمّ في غياب الفكر. ولئن كانت هنالك أعمال لا تتأثّر جدواها بآليّة العادة تلك، فإن البسملة لا ينطبق عليها ذلك، بل تفقد الكثير من جدواها، وتغدو نوعًا من الذكر الذي يزحزحك عن موقع الغفلة لا أكثر.

وللبسملة في مستهلّ كلّ عمل تقوم به قدرة هائلة على شحذ طاقاتك، وتجديد فعاليّاتها، بل إن البسملة تضاعف قدرتك على الأداء، بقدر ما تستطيع استحضاره في ذاتك من قدرة الله المطلقة، ومن الثقة في أن الله في عونك ما دمت تقصد وجهه، وهذا يفسّر لنا كون الدعاء بأسماء الله الحسنى مستجابًا. فأنت عندما تبدأ عملك باسم الله، مستحضرًا من أسمائه الحسنى ما يقابل حاجتك، تشحن ذاتك بالتطلّع إلى قوّة الله المطلقة واستلهامها، فتُجمع لك قوّة النفس والروح إلى قوّة الجسد، وتؤدّي عملك بكفاءة تدهش لها.

وهي تجري بهم في موج كالجبال

يعرض الكتاب المبين الطوفان في ثلاثة مشاهد، أوّلها سفينة في موج كالجبال، وثانيها موج يحول بين نوح وابنه الذي كان في معزل، وثالثها الماء المنهمر من أبواب السماء، وهو يلتقي بالماء المتفجّر من عيون الأرض. ويعرض ما بعد هدوء ثورة الماء في ثلاثة مشاهد: الأوّل الأرض تبلع ماءها، والثاني السماء ينقشع غيمها، والثالث السفينة ترسو على الجوديّ.

والمطّلع على هذه الصور في نصوص الطوفان البابليّة، ولا سيّما في ملحمة جِلجامِش يكاد يجزم بأن الطوفان الذي تصفه تلك النصوص هو نفسه الطوفان الذي جاء ذكره في القرآن العظيم، مجرّدًا من الأسطورة التي تلبّسته، ومن خرافات الطوفان التوراتيّ التي لحقت بتفاسيره بسبب التلوّث بالإسرائيليّات. والأرجح على أن هذه النصوص هي الأصول التي أخذ عنها

كتّاب التوراة، فكان النصّ التوراتيّ جامعًا لخياليّة التناول الأدبيّ وخرافيّة الفكر التوراتيّ[١]. وكانت التوراة المرجع الوحيد للرواة، ولكثير من المفسّرين فيما يخصّ الطوفان، ولم يتمّ الاستئناس بالنصوص البابليّة، وهي نصوص تنتمي إلى منطقة الحدَث بسبب تأخّر اكتشافها، وحلّ رموزها، ممّا جعل كتب التفسير تغصّ بالإسرائيليّات في هذا الموضوع.

أيّ خيال يقوى على تصوّر حال من كانوا في هذه السفينة، تتقاذفهم المياه الهادرة في ظلمات ثلاث: ظلمة الرعب، وظلمة المجهول، وظلمة جوف السفينة المغلقة!

لقد كان جهادًا مضنيًا، فهو مخاطرة من ذلك النوع المطهِّر الذي يخوضه أتباع كلّ نبيّ، فتكون معاناته ورَهَقه كفّارةً لذنوبهم، وجلاءً لقلوبهم، وتجديدًا لإيمانهم. كما كانت الحال مع أهل بدر، ومع أولئك المخلصين من قوم موسى الذين استجابوا لله فقتلوا أنفسهم ليغفر لهم[٢].

من التجوّز بمكان، والحال كما رأينا، أن ندعو ما قام به نوح والذين آمنوا معه رحلة. فهم في واقع الأمر لم يزيدوا على أن دخلوا السفينة، وأغلقوها عليهم، فطغى الماء حتى حملهم، وراح الموج يتقاذفهم بجنون، ولكنّ كون السفينة قد صنعت بأعين الله ووحيه حفظهم، فلم تنقلب مركبتهم، ولم يتسرّب الماء إلى جوفها فتغرق بمن تحمل.

---

(١) نقرأ في الإصحاح السابع من سفر التكوين: "وكان الطوفان أربعين يومًا على الأرض. وتكاثرت المياه ورفعت الفلك، فارتفع عن الأرض، وتعاظمت المياه وتكاثرت جدًا على الأرض، فكان الفلك يسير على وجه الماء. وتعاظمت المياه كثيرًا جدًا على الأرض، فتغطت الجبال الشامخة التي تحت كل السماء. خمس عشرة ذراعًا في الارتفاع، تعاظمت المياه فتغطت الجبال، فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم، فانمحت من الأرض، وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط. وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يومًا" [سفر التكوين: ٧].

(٢) كائنًا ما كان قتل النفس.

obeikandl.com

وحال بينهما الموج فكان من المغرقين

إنّه أعظم المشاهد إثارة، وأكثرها شموخًا، وأليقها بنوح الرسول النبيّ، وأجدرها بالعَجب والإعجاب بعدالة الحقّ، وإحكام ما يقتضيه ويقضي به: فأيّ إصرار، وأي استكبار هذا الذي واجه به ذلك الولد أباه النبيّ! ولا عجب، فهو من أولئك الذين شكا نوح أمره إلى الله في الحكم فيهم: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ ٧: نوح. ولذلك قال الله جلّ جلاله: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ٤٦: هود.

وجدير بالنبيّ الأب وهو يرى ولده يلقي بيده إلى التهلكة أن يطلق هذه الصرخة الناصحة الأخيرة: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ٤٢: هود، وحريّ بالوجه المنافق أن يُسفر: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ ٤٣: هود، ويأبى النبيّ الأب حتى في هذه اللحظات القاصمة إلاّ أن يباشر الدعوة، ويصدع بكلمة الحقّ: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ ٤٣: هود.

ربِّ، إن ابني من أهلي

رأى نوح ابنه يعتصم بعناده وضلاله، وبالجبل، فلا يعصمه من أمر الله شيء. . . ويختطف الماء الهائج الشابّ على مشهد من الإنسان النبيّ الأب، فيثب القلب متخطّيًا العقل، ويرتفع الصوت وقد استبدّ، فلا مكان لسواه، ويستنجد بوعد الله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ ٤٥: هود، وسرعان ما يطفو النبيّ في تلك الموجة المزلزلة... فلا بدّ أن ثمّة حكمة يجهلها هو ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ٤٥: هود . ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ٤٦: هود.

لقد أجاب الله الحقّ النداء، أجابه بكلّ ودّ الحقّ ورحمته: «يا نوح» يناديه الودود، ويفسّر له ما قضى به ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ٤٦: هود، فما أخلفت وعدي لك، ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ ٤٦: هود، فلا بدّ أن يكون ما كان.

لقد جُبر صدع القلب الطارئ، وها هي ذي يد الرحمن الرحيم الحكيم تعود بالنبيّ إلى قواعده بالتدريج، فتبدأ بالنهي المشفوع بالإعذار ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ٤٦: هود، فأنت لا تعلم أسرار تصريفي للأمور، ولا ينبغي لك.

وتبلغ الأمور غاياتها الحقّ، فيأتي التوجيه الحكيم الذي هجس في رُوع نوح وهو ينادي ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ ٤٥: هود، ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ ٤٦: هود.

واتّعظ نوح ليتّعظ كلّ من يقرأ آي الذكر إلى يوم الحقّ: إن آصرة العقيدة هي القربى والنسب، فليس الإنسان ذلك الكيان المادّيّ المرتبط بهذه المرحلة من كينونته، بل هو تلك الوجهة التي اختارها لنفخة الله فيه. والأنبياء رسل الله الحقّ إلى الناس، وليس منهم من يحيد عنه مهما كانت الأواصر بينهم وبينه.

هكذا تتساوى وحيدة رسول الله ﷺ، والباقية له من ولده، وأمّ سِبطَيه، وزوج ابن عمّه وربيبِه الأحبّ إلى قلبه، فاطمة ﵂، وكلّ امرأة في الأرض: «والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها»(١).

وأسدل الستار على الفصل الأخير من دعوة نوح ﵇... نهاية معجزة في بيانها، كما هي معجزة في الحكمة التي وراءها... قول فصل، ومشهد فصل... عبارة قاطعة لا تعقيب عليها، ونتيجة حاسمة ذات وجه واحد وحيد باتّ: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ ٤٣: هود... قفلة المقدّمة، إرهاص بقفلة القصّة: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ٤٤: هود.

وقيل: يا أرض ابلعي ماءكِ

فالحياة بكلّ أشكالها هبة الماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ ٣٠: الأنبياء، ومن هنا كانت للماء قدسيّته، ووجبت المحافظة عليه وترشيد الاستفادة منه، ولئن غدا احترام الماء اليوم والحرص عليه سمة للفرد المتحضّر والأمّة المتحضّرة، فقد كانت تلك دعوة الإسلام منذ عشرات القرون.

وجّه الإسلام إلى الاقتصاد في استعمال الماء، وعدم هدره، واعتبر ذلك سرَفًا منهيًّا عنه، حتى في أضيق حدوده ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ١٤١: الأنعام. وفي الأثر «أن رسول الله ﷺ مرّ بسعد وهو يتوضّأ، فقال: ما هذا السرف يا سعد؟

(١) سنن النسائي: ٤٩٠٠.

قال: يا رسول الله، أفي الوضوء سرف؟!

قال: نعم، وإن كنت على نهر جار»[1].

ومن الإشارات الموحية في ذلك ما رتّبه الله من ثواب لمن سقى حيوانًا أونباتًا. وفيه ما فيه من إعظام لدور الماء، وإبراز واضح لأهميّته من حيث كونه سبب الحياة المباشر.

ونلمس اليوم الدور الذي يلعبه الماء في السياسة العالميّة باعتباره ثروة قوميّة، تتقاسمها شعوب الأرض، وتقوم بسببها الحروب. ولا يخفى الدور الاستراتيجيّ العظيم الذي لعبه تعوير المسلمين للآبار في معركة بَدر.

وقد لا ينتبه الكثيرون في زحمة المؤامرات التي تُحدِق بالأمّة إلى المؤامرة المائيّة، إن صحّ التعبير، فإسرائيل تسطو على المياه السطحيّة والجوفيّة في الأراضي الفلسطينيّة واللبنانيّة، وتركيّا تحتجز المياه عن سوريّة والعراق. وتعاني دول الخليج صعوبات جمّة للتغلّب على مشكلة المياه، حيث تنفق على ذلك ما تنوء به ميزانيّاتها لولا نعمة البترول.

واستوت على الجوديّ

لقد شارفت الرحلة نهايتها، فتوقّف المطر، وأقلعت السماء، ثم راحت المياه تغيض شيئًا فشيئًا، ولم تعد الأمواج المتلاطمة تتقاذف السفينة، بل جعلت الريح تدفعها هونًا على سطح الماء، حتى أمسكت بها قمّة، تكاد الروايات تتّفق على أنّها قمّة الجبل المعروف بالجوديّ، في أقصى شمال عِراق اليوم، على الشاطئ الشرقيّ لدِجلة، فاستوت عليه ناجية، وقد أُغرق القوم الظالمون.

وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا

عندما يُستلَب الضعفاء، ويستمرئون إلغاء عقولهم، يغدو منطقهم مرآة لمنطق السلطة الفوقيّة المُذِلّة، فهم يهرولون وراء سادتهم صمًّا وعميانًا. وقد عالج القرآن العظيم هذه الظاهرة، فوجدناه يخاطب النفس الإنسانيّة، ويربط الفلاح بتزكيتها، والخيبة بتدسيتها، ويراها صانعة للمجتمع، لا صنيعة له.

---

(١) مسند أحمد: ٧٠٦٥.

من هنا فرّق القرآن الكريم بين عمَيين: عمى الأبصار، وعمى القلوب التي في الصدور. ذلك أن البصيرة عين العقل، والبصر عين الجسد، فإذا سلِمت عين الجسد كانت معطَياتها سليمة، ولكن دون تفسير، وضاعت في فراغ، وإذا سلِمت عين العقل فُسّرت معطَيات عين الجسد، وكان لها جدواها. فإذا افتقرت عين العقل إلى عين الجسد، فإنّها تستمدّ من سائر الجوارح معطَيات تسمح لها بأن تكون فعّالة، وذات جدوى، بل معوِّضة ما فاتها من معطَيات عن طريق عين الجسد.

وقد عبّر الكتاب المبين عن ذلك بكلمات معجزات بما تختزنه من طاقة الإيحاء ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ٤٦: الحج... فاعتبر العمى الحقيقيّ عمى القلوب التي في الصدور، ونفاه عن الأبصار، ذلك أن ذا البصيرة مبصر وإن كُفّ بصره، وذا البصر أعمى إن لم يكن ذا بصيرة.

ويفرّق القرآن العظيم بين العَمَيين، فقد قال في الأوّل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ٧٣: الفرقان. وقال في الثاني: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ ٦٦: النمل. و﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ ٦٤: الأعراف.

ويذهب الكتاب الحكيم إلى اعتبار الجوارح أدواتٍ عُطلاً ما لم تقُدها البصيرة، فيقول عمّن لا بصيرة لهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ ١٧٩: الأعراف. وينصّ على أن عُمي البصيرة يُحشرون عُميانا، أي فاقدي البصر، فيقول قائلهم: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ ١٢٥: طه؟

ويأتيه الجواب ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ ١٢٦: طه.

أمّا السبب فقد سبق ذكره: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ ١٢٤: طه ... إنّه قضاء حقّ أن من تنكّر للحقّ وأعرض عنه، ولم يستخدم بصيرته في التدبّر والتفكّر، فهو في يوم الحقّ يلقى المعاملة نفسها، فيُسلب تلك الجارحة التي لم يستخدمها في الحياة الدنيا لما خُلقت له.

وتلفتنا آيات تذكر الجارحة لتشير إلى فعاليّتها، فتجرّدها بذلك لهذا المعنى، وتفرغها من مدلولها المادّيّ، وهذا من القمم البلاغيّة التي لم يُسبق إليها النصّ القرآنيّ. ومن ذلك الآية ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ٤٥: ص، **ومنه في الكلام عن عاد** ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ٢٦: الأحقاف[١].

وعندما أغرق الله قوم نوح بنى الفعل للمجهول، ولعلّ ذلك من قبيل رفع المسؤوليّة عن دعاء نوح، وإيحاء بأن تلك سنّة الله في خلقه، وكلمته التي سبقت، فخطيئات قوم نوح كانت السبب في عذابهم في الدنيا، وسوف تودي بهم إلى نار جهنّم في الآخرة ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ ٢٥: نوح. وعلى رأس خطيئاتهم أنّهم كذّبوا نوحًا، فكذّبوا بذلك المرسَلين جميعًا ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ١٠٥: الشعراء[٢].

قيل إن النار المذكورة في هذه الآية ليست نار الآخرة، بل نار البركان الذي رأى كثير من المفسّرين أنّه التنوّر. بدليل أن إدخالهم النار كان عقب إغراقهم، حيث عطف بالفاء. وقيل إن ابتلاع الأرض الماء وغيْضانَه فيها كان على صورة دوامات في عيون الأرض التي كانت قد فجّرت، وقد يكون بعضها يفضي إلى براكين تضطرم في أجوافها النار. ولا طائل وراء ذلك[٣]، إذ أن ما أُحرق في هذه الحالة يكون جثثا ليس إلاّ، والأخذ بالخطيئة لا يقع على الجثة، ومن هنا فلا معنى لإدخالهم النار بعد إغراقهم. أمّا الاحتجاج بالفاء العاقبة، فضلاً عن أنّه ليس بالدليل الكافي، فيمكن حمله على أن نار الآخرة التي سوف يدخلونها قريبة، ولاسيّما بالنسبة

---

(١) أي هم مزودون فيزيولوجيًا بآلة العقل، وهي الحواس، وقادرون على استعمالها.

(٢) يقول سيد قطب: "فالرسالة في أصلها واحدة... فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين" [في ظلال القرآن ٦: ٢٢٤].

(٣) انظر الكلام في ذلك تحت عنوان «حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور».

إلى من مات فانقطعت صلته بالزمن الوجوديّ، وقد وصف الذكر الحكيم عذاب الآخرة بأنّه قريب ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ ٤٠ : النبأ. ثم إن النار لا تنتظر الكافر إلى يوم القيامة، فللقبر ناره كما هو معروف.

وكأنّ هذه الآية جاءت لتبرئة نوح ممّا جرى لقومه، فهم بخطيئاتهم لا بدعائه أُغرقوا، وبها أدخلوا نارًا، ولاسيّما أن دعاءه كان بعد أن وَضع النصُّ اللمسة الأخيرة على الحدث، ثم أتبعها بالتعقيب ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ ٢٥ : نوح.

وماذا بعد الطوفان؟

لقد قُضي الأمر، فأُغرق الذين ظلموا بخطيئاتهم، وانتهت معاناة نوح الفريدة التي استمرّت ما لم تستمرّ معاناة بشر، وفرغ لداخله، فأوى إلى ملجئه... إلى حيث اعتاد أن يُفضي بخطرات قلبه المسلم، ليضع خاتمة تمثّل الولاء للحقّ، والحرص على إحقاقه، كغاية نهائيّة وحيدة، لكلّ فعاليّات الروح والقلب والجسد. ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ ٢٦ و٢٧ : نوح.

أغرق الله بالطوفان الكافرين من قوم نوح بما فيهم ابنه، فهو، وقد رأى ما جرّه كفّار قومه على ما حوله من دمار، يسأل ربّه أن يقطع دابر الكافرين في الأرض، ويستأصل شأفتهم، لئلّا يكون منهم وممّن يخلفهم من يُضلّ عبدًا مؤمنًا.

وهكذا نرى أن الرسالة وحدها هاجس نوح النبيّ دون المال والأهل والولد، بل دون العمر كلّه، فلا يبالي بما أُنفق، ولا يبقى في وجدانه إلاّ أن تثبت دعائم الحقّ، التي يحمل على كاهله عبء إرسائها في أرض الله.

وفي المشاهد الأخيرة من الطوفان، تتراجع الأحداث إلى أقصى الوراء، وينفرد نوح النبيّ الرسول وحده بفضاء القصّة، لنراه، ورسالةُ الحقّ كلّ شيء في عالمه... نرصد ذلك في دعائه الأخير، حيث يجمع إلى ذاته ووالديه كلّ من دخل بيته مؤمنًا، بل كلّ مؤمن على وجه الأرض، و كلّ مؤمنة استقصاء وتوكيدًا: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي

﴿وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ ٢٨: نوح.

براءة من كلّ أمر الدنيا، وإعلان للغاية القصوى: أن يكون الله راضيًا، وأن يجبر بسعته ما قد يكسره القصور الإنسانيّ... وذلك هو السلام الأبديّ، الذي لا مطمع في شيء بعده. ومن هنا كان الاستغفار آخر الدعاء، وبه وضع نوح خاتمة لواحد من أبرز الأحداث في تاريخ البشريّة.

ولنوح مع الاستغفار شأن، فهو طابع عليه وعلى دعوته، يواجه به كلّ موقف، وكأنّه النبع الطهور، يرتمي فيه كلّما أحسّ أن أدران الحياة تهمّ بلألاء روحه وتألّقها... السحر الذي علّمه الله أبوينا عند الخطيئة الأولى ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ٢٣: الأعراف. وقد رأيناه بعد زلزلة غرق ابنه يثوب إلى رشده، ويلتجئ بكلّ إخلاص قلبه للحقّ، وولائه له، إلى ربّه، فيتقرّب إليه لائذًا به، متهافتًا على عونه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ٤٧: هود، فتجاوز عن زلّتي وضعفي بغفرانك ورحمتك، وقِني عقابك، وإلاّ تفعل أكن من الخاسرين.

هكذا يجبر الإيمان بالله الحقّ ضعف القلب الإنسانيّ... فطرة الله الذي جعل الإنسان خطّاءً، وجبَر خطأه بتوبته، وبغفرانه له. لقد لجأ نوح النبيّ إلى الاستغفار... قوّم الخطوة التي مالت عن جادّة الحقّ بالعودة إليها، فألغت الاستقامةُ العوج ...

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ٤٨: هود.

لقد أبلغ الله نوحًا مأمنه من الطوفان الذي أتى على الحياة في المنطقة، وأفرغ على قلبه السلام من عناء الرحلة وخوفها، وممّا قد اعتراه من حزن على ولده، وآمنه ممّا كان يناله من القوم الظالمين، الذين قالوا: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ ١١٦: الشعراء ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٤٤: هود.

وقدّم له بركاته، التي استمطرها نوح ومن معه بالتقوى والاستغفار والصبر والعمل الصالح: كلٌ ممّن نجوا معك سيكون أمّة، ولكلٍّ كِفل ممّا كسبوا، فالسلام والبركات عليك، وعلى من اتّبع الهدى منهم، وأمّا من اعتصم بالضلال، فإنّنا نملي له، ونمتّعه، فإن لم يَتُب إلى رشده مسّه منّا عذاب أليم.

عموم الطوفان

تنقل إلينا معظم المصادر، وهي في جمهورها من الإسرائيليّات، أن الطوفان قد عمّ الأرض، وأفنى البشر جميعًا، ونقرأ في التوراة: «كل من في أنفه نسمة حياة على الأرض اليابسة مات. ومحا الله كلّ حيّ كان على وجه الأرض من الناس والبهائم والدوابّ وطيور السماء امّحت من الأرض وبقي نوح والذين معه في السفينة وحدهم»[١].

وإذا كنّا نستطيع بشيء من التجوّز اعتبار كلمة الأرض في هذا النصّ تعني منطقة بعينها، فإن الدلالة على عموم الطوفان قطعيّة في نصوص أخرى، ومنها: «ورأى الربّ أن مساوئ الناس كثرت على الأرض... فندم الرب أنه صنع الإنسان على الأرض، وتأسّف في قلبه. فقال الرب: أمحو الإنسان الذي خلقت عن وجه الأرض، هو والبهائم والدوابّ وطيور السماء»[٢]. ولا يخفى أن تلك النصوص تندرج في سياق تكريس الاعتبار القائل إن قوم نوح كانوا أهل الأرض جميعًا[٣]. وقد رأينا سيرورة فكرة عموم الطوفان، وإسهامها في توجيه النصّ القرآنيّ، دون أن يجرؤ على مسّها أحد إلاّ على استحياء، رغم أنّها لا تثبت لأدنى تحقيق.

وممّا يتواتر بشكل يوفّر نسبة معقولة من الإقناع أن مسرح الأحداث، بدءًا من مبعث نوح وانتهاء بنجاته ومن معه في الفلك كان، باعتبار الخرائط المعاصرة، في تلك المنطقة التي تشكّل لُبّ عِراق اليوم، وقد يُضاف إلى ذلك جانب من أراضي إيران المتاخمة للحدود الجنوبيّة الشرقيّة للعراق. فمسرح الأحداث إذًا كان حضن الأرض التي يعتقد أكثر الباحثين أنّها موطن التجمّع البشريّ الأوّل، وهو مكان تشكّله المنخفضات الخصبة، التي تكتنف مسارَي دجلة

(١) سفر التكوين: ٧.

(٢) سفر التكوين: ٦.

(٣) وهذا لا يعدو كونه تأسيسًا للفكرة القائلة نَ أهل الأرض جميعًا ينحدرون من أولاد نوح الثلاثة حام وسام ويافث، وأن اليهود ذريّة سام، وكل ذلك لدعم الهدف التوراتيّ الأول، وهو اختراع أصل أمميّ لليهود.

obeikandl.com

والفرات، من وديان وأهوار، وجزر نهريّة تشكلها روافد النهرين وفروعهما، وتحفّ هذه المنخفضات من الشرق منطقة جبليّة، بينما تُفضي من الغرب إلى السهول، فشواطئِ المتوسّط، التي انطلق منها إنسان تلك المنطقة، عبر الماء، إلى سائر الأرضين.

وثمّة محاولات، كانت، وما زالت، متنحّية من حيث الاعتبار، تُدخل أقاصيَ الهند في ذلك، ولعلّها ممّا أفرزته الفتوح الإسلاميّة في آسيا الوسطى، حيث كانت الثقافة الهنديّة، بأساطيرها العريقة، موردًا لكثير من هواة القصص والروايات الخياليّة المثيرة، وإن ظلّت الصدارة في هذا للإسرائيليّات، لمرافقتها بدايات الدعوة الإسلاميّة، ولكونها مطعّمة بنكهة بيئتها.

وممّا لا خلاف فيه تقريبًا أن الرحلة انتهت على جبل الجوديّ، وهو في أقصى شمال عراق اليوم، أمّا بدايتها فقد تفاوتت المصادر في تحديدها بين جبل نَوْذ في الهند، وعين وردة على الفرات الشماليّ، و بابل في النصف الجنوبيّ من أراضي العراق على شاطئ الفُرات[1].

فإذا نحن استبعدنا الهند لأكثر من سبب، وأغفلنا الروايات القائلة إن السفينة دارت في الأرض، حتى وصلت إلى مكّة، فطافت بالبيت، ثم استأنفت دورانها حتى استقرّت على الجوديّ، فإن المسافة بين المنطلَق والرسوّ، باعتبار عين وردة المنطلق، حوالي ١٥٠ كم، وباعتبار بابل المنطلَق، ٥٠٠ ـ ٦٠٠ كم تقريبًا. ولكلّ من الاحتمالين ما يرجّحه بالنسبة نفسها.

وهذه المسافة ـ حتى على اعتبار أدناها ـ معجزة أن تُقطع طفوًا في حالة الطوفان، ذلك أن كثرة المنخفضات، التي تشكّلها فروع النهرين العظيمين وروافدهما، تودّي إلى عدم استقرار سطح الماء، ووجود مهابط تشكّل أشباه شلاّلات متعاقبة، يصعب على السفن أن تنجو منها. فأنّى كان لنوح أن ينجو بمن معه، لولا أن سفينته قد صنعت بأعين الله ووحيه!

إن قصّة نوح في الذكر الحكيم مثل قصّة كلّ نبيّ مع قومه، ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾ ١: نوح، بدأت بدعوته إيّاهم إلى الله، وصوّرت معاناته

(١) يقصر كثير من الدارسين والباحثين الطوفان السومريّ، وهو أقدم الطوفانات، على الحوض الأسفل لنهري دجلة والفرات جنوبيّ العراق. ويرى بعض الباحثين أن المساحة التي شملها الطوفان قد تكون ٤٠٠ ميل طولاً، في ١٠٠ ميل عرضًا.

المأساويّة، التي استغرقت قرونًا من الجدال والتكذيب والتعذيب والتهديد، وانتهت إلى درجة اليأس أن يؤمن منهم إلاّ من قد آمن، فأُغرقوا، وقيل بعدًا للقوم الظالمين. ورغم كلّ ذلك الوضوح في تسمية القوم، وذكر تفاصيل محليّة، خاصّة ببيئة واضحة المعالم، لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون الأرض جميعًا، نجد أن القول بعالميّة الطوفان يسري في كتب التفسير سريان النار في الهشيم.

وقد زاد فكرةَ عموم الطوفان حظوةً ما فيها من دراميّة في العرض أوّلاً، وما اعتدنا أن نمنحه ما صدر عن الأسماء الأولى من القدسيّة ثانيًا. ولكن ماذا عمّن ذُكر من أهل الأرض في فلسطين ومصر واليمن. وقد ورد ذكر تلك المناطق وأهلها، وزيد عليها في كثير من المصادر ذكر الهند وبلاد فارس اليوم؟!

وهل كان هؤلاء جميعًا قوم نوح، الذين جادلوه وقاوموا دعوته بعنف، وسخروا منه ومن المؤمنين وهم يصنعون السفينة؟

وماذا عن المسافات التي تفصل بين تلك المناطق جغرافيًا؟

ثم إن الطوفان أتى على قوم نوح جميعًا، وعلى آثارهم، في حين ما يزال بعض آثار هؤلاء قائمًا حتى اليوم. ينطبق هذا على الأقلّ على الهرمين، اللذَين تقول المصادر نفسها إنّهما يرجعان إلى سيّدنا إدريس عليه السلام، كما أن ما عُثر عليه، من آثار الحضارات التي تلت هذه الحقبة، لا يستقيم معه القول: إنّها ترجع إلى شعوب ذات أصل واحد.

ومن جهة أخرى تشير قراءة طبقات الأرض في المنطقة إلى أن هناك عددًا من الطوفانات الكبرى، وقعت في مناطق متفرّقة، ولكنّ الآثار المعروفة لأيّ واحد منها لا تنتظم سطح الأرض، فضلاً عن كونها لا تنتمي إلى حقبة واحدة من التاريخ، بما في ذلك سلسلة من الطوفانات في بلاد ما بين النهرين نفسها. وليس في كلّ ذلك طوفان يمكن القول إنّه قد وضع نهاية للجنس البشري كلّه في وقت من الأوقات.

ولعلّ ما ضلّل القائلين بعالميّة الطوفان، أو عمومه، من المسلمين هو استعمال كلمة الأرض للتعبير عن الموضع المتناوَل بالطوفان، حيث فهم منها أنّها تعني عموم الأرض، وليس هذا بشيء. فمعروف أن كلمة الأرض مُعرّفةً تُطلَق على كلِّ أرض معهودة. وعندما جاء في النصّ القرآنيّ أن فرعون علا في الأرض، لم يقل أحد بأنّه قد علا في سائر الأرَضين، بل في الأرض التي يدور فيها الحدث، وهي أرض مصر.

وأمّا ما جاء في الحديث من أنّه يقال لنوح في الموقف العظيم: «يا نوح، أنت أوّل الرسل إلى أهل الأرض»[1]، فالمقصود به كونه أوّل الرسُل، لا كونه رسولاً إلى كلّ أهل الأرض.

وكلّ هذا يفضي إلى نتيجة تقول: إن أحداث طوفان نوح كانت في بقعة محدودة، وهي، على ما أجمعت عليه المصادر أو كادت، المنطقة التي أُشيرَ إليها آنفًا. ولكنّ هذا لا يمنع من التنويه بكون تلك المنطقة المركز الحضاريّ الأقدم والأعرق على الأرض، والذي تفرّق الناس منه في سائرها[2]، وعلى هذا الاعتبار يكون الطوفان قد عفّى، أو كاد، على ما أبدعه الإنسان الأوّل وجعل تاريخ الإنسان المعروف يبدأ من بعده[3].

من بلاغة القرآن المعجزة أن الله جلّ وعلا عندما يتكلّم عن ذاته تأتي العبارة بصيغة المفرد ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ ١٤: طه، **أمّا في الكلام عن أفعاله، فما كان ممّا يقوم بنظائره العباد فهو بصيغة المفرد، فالله يرزق ويحبّ ويغضب، وما كان خاصًّا بالذات الإلهيّة المطلقة القدرة، أي ما كان خارجًا عن حدود القدرة البشريّة، فهو بصيغة الجمع** ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ٩: الحجر ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ ٢٣: الحجر، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ ٢٤: يوسف، ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ ٧١: الأنبياء، و﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ ١١٩: الشعراء.

وعندما يقول الله الحقّ: «فأنجيناه» ندرك أن تلك التنجية كانت من أمر الله، أي كانت بما يعجز عن مثله البشر[4]. فقد أتت ثورة الماء على كلّ ما طالته من الحرث والنسل، إلاّ تلك السفينة التي صنعت بأعين الله ووحيه، أي بتسديده وتوفيقه، وهدايته صانعيها إلى القوانين

---

(١) صحيح البخاري: ٣١٦٢.

(٢) وذلك ما تشير إليه حتى الآن أغلب الدراسات والآثار وأكثرها مصداقية.

(٣) كشفت دراسة حديثة لطبقات الأرض في حوضي دجلة والفرات عن بعض الآثار الحضارية تحت طبقة الطمي الناتجة عن أقدم الطوفانات في المنطقة.

(٤) انظر الباب الأول: المعجزة.

الفعّالة في صنعها على الصورة التي أدّت إلى نجاحها في مهمّتها، وهي من أمر الله الذي أقام عليه هذا الوجود، وسننه فيه وفي تصريف أمره.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ٧٤: يونس.

لقد كان نوح الرسول الأوّل إلى أهل الأرض، ثم تتالى الأنبياء والرسل من بعده، فما من أمّة إلاّ خلا فيها نذير. وما كان لسنّة الله أن تتغيّر، فقد كذّب المعتدون من هذه الأمم، كما كذّب المعتدون من قوم نوح من قبل، ذلك أن الله يطبع على قلوب المعتدين.

* * *

الفصل الرابع

هـود

عليه السلام

السلام عليك أيها النبيّ بلا معجزة...

السـلام عليك وأنت تدافع بصدر عارٍ أوّل أمواج الضـلال بعد أن غسل الطوفان خبث الأرض.

السلام عليك وأنت تخاطب عقولاً لا يعجزها غير العزم على الهدى، وتجاهد لزحزحة أطباق الكبر والعناد عن وجه الحقّ التي دفنته في أعمق أعماقها...

* * *

عاد قوم هود

نقرأ في الذكر الحكيم ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ٥٠: هود، وتنسب المصادر الإسلاميّة، وجلّها يعوّل على الروايات التوراتيّة، عادًا إلى الساميّين. حيث تزعم توراة اليهود أن أبناء نوح الثلاثة تقاسموا الأرض، فانتشرت ذرّيّة سام في منطقة الشرق الأوسط، وارتحل حام، أو ذرّيّته من بعده إلى إفريقيّة، وانتهى المطاف بأبناء يافث إلى الشمال، بقدر ما منحتهم الريح الباردة والثلوج من فرص. ومن ذرّيّة يافث كان الترك، وهم الأوروبيّون والأميركيّون الحاليّون[١]. وقد كُتب لهذه المزاعم الشيوع في المصادر الإسلاميّة بسبب التلوّث التوراتيّ الذي ابتلي به الفكر الإسلاميّ[٢].

---

(١) والتركي في عرف العرب الرجل الأبيض ذو العينين الزرقاوين، فهو خارج عن سمت العرب وسمرتهم.

(٢) انظر الباب الأول: في الإسرائيليات.

obeikandl.com

ولا نجد لعاد ولا لثمود ذكرًا لدى أهل الكتاب، ولكنّ القرآن العظيم نصّ على أن موسى حذّر قومه مثل مصيرهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ٩: إبراهيم[(١)]. ذكر ذلك ابن كثير، وعلّق عليه بقوله: «لمّا كانت هاتان الأمّتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيّدًا، ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما كان مشهورًا في زمان موسى ﷺ»[(٢)]. ويندرج هذا في سياق طمس توراة اليهود لكلّ ما يتعلّق بالعرب، للتعمية على حقيقة الصلة بينهم وبين إبراهيم وإسماعيل[(٣)].

و كتب التاريخ كذلك غفل من أيّ ذكر لعاد وثمود، ولعلّهم ذكروا فيها باسم آخر، ذلك أنّه عُثر على آثار في المنطقة التي أشار الذكر الحكيم إلى أنّها مساكنهم تكشف عمّا يؤكّد وجودهم بصفاتهم. واعتبر بعضهم «الأحقاف» في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ ٢١: الأحقاف اسمًا لموطنهم، ولكنّ أكثرهم على أنّها وديان أو رمال في جنوب الجزيرة العربيّة، فيما بين الشريط الساحليّ والربع الخالي. وقد مضت بعض أمّهات المصادر في التعميم فقالت: إنّها ما اعوجّ وتقعّر من رمل أو جبل، ولم تحمّلها دلالة على مكان بعينه، ولعلّه الأرجح. وقد تكون العلَميّة لحقت بالكلمة لارتباطها بعاد في الذكر الحكيم[(٤)]. ويطّرد ذكر الهضاب لدى ذكر ما قيل إنّه قبر هود، وقبور أخرى للقوم، ولعلهمّ كانوا يقيمون بيوتهم وينشؤون إبداعاتهم المعماريّة على تلك المرتفعات، لِما جاء في الكتاب ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ ١٢٨: الشعراء.

وممّا يؤيّد ذلك أنّه قد ذُكرت آثار لعاد في مناطق بعيدة عن السواحل الجنوبيّة للجزيرة، كنَجد في وسطها، و«بَتَعة» أو «تَبَعة» قرب الطائف، وهي «هضبة سوداء، وفيها نُقُب، كلّ نَقب قدر ساعة، كان يُلتقط فيها السيوف العاديّة، والخَرَز، ويزعمون أن فيها قبورًا لعاد»[(٥)]. ويمكن التوفيق بين هذا وبين القول بأنّهم كانوا في جنوب

---

(١) وقيل إن ذلك ليس استمرارًا لكلام موسى في الآية السابقة.

(٢) قصص الأنبياء ١: ١٠١.

(٣) انظر معالجة هذا الموضوع في قصص إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﷺ.

(٤) يدعم هذا قول الواقدي: "... وقبر هود، فإنه في حقف من الرمل، تحت جبل من جبال اليمن" [نهاية الأرب ١٣: ٦٠].

(٥) معجم البلدان. وفي حاشية لحمد الجاسر في كتاب "بلاد العرب" للأصفهاني: وقد تكون "الخُوَذَ".

obeikandi.com

الجزيرة العربيّة، ذلك أن التنقّل كان متواصلاً في نطاق جزيرة العرب، قبل انطلاق الهجرات منها[١].

وممّا قيل إن رمال عالِج من الأحقاف، وعالِج منطقة معروفة، تتأثّر بالأعاصير التي تثير العواصف الرمليّة، ولاسيّما في الربع الخالي. وقد أهلك الله عادًا بالعواصف، ومنها ما نراه اليوم من الأعاصير، التي تأتي على المدينة فتنسفها نسفًا كأن لم تكن.

*

وتندر أخبار هود عليه السلام قياسًا بأخبار غيره من الأنبياء، ولم يفلح أصحاب الأخبار في الاتّفاق على نسبه، فاكتفوا بالقول إنّه كان تاجرًا من عاد وصف بالجميل، وإن قبره في الأحقاف. وممّا يروى في ذلك، «أن عليّ بن أبي طالب سأل رجلاً من حَضرَموت عن قبر هود عليه السلام، فقال: خرجت وأنا في عنفوان شبيبتي، في أُغَيلمة من الحيّ، ونحن نريد أن نأتي قبره لبُعد صيته فينا، وكثرة من يذكره منّا. فسرنا في بلاد الأحقاف أيّامًا، ومعنا رجل قد عرف الموضع، فانتهينا إلى كثيب أحمر فيه كهوف كثيرة[٢]. فمضى بنا الرجل إلى كهف منها، فدخلناه، فأمعنّا فيه طويلاً، فانتهينا إلى حجَرين، قد أُطبق أحدهما دون الآخر، وفيه خلل يدخل منه الرجل النحيف متجانفًا، فدخلته. فرأيت رجلاً على سرير شديد الأُدمة، طويل الوجه، كثّ اللحية، وقد يبس على سريره، فإذ مسست شيئًا من بدنه أصبته صليبًا، لم يتغيّر، ورأيت عند رأسه كتابًا بالعربية: «أنا هود النبيّ الذي أسِفتُ على عاد بكفرها، وما كان لأمر الله من مردّ». ويعلق صاحب الرواية بما يلي: فقال لنا عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه: كذلك سمعته من

---

(١) وذهب بعضهم إلى أنهم كانوا، شأن سبأ، في شمال غرب الجزيرة العربية. وقد دعا بعض الباحثين تنقلات البدو بالجَوَلان [انظر محمد بهجت قبيسي: ملامح في فقه اللهجات العربيّات ص ٩٧]. ولعله لم يقتصر على البدو غير المستقرين، بل كان يمارَس من قبل بعض التجمّعات المستقرة نسبيًا كالعاديين.

(٢) هذا الوصف بالكلام عن النقُب التي كانت تلتقط منها السيوف العاديّة، ويزعمون أن فيها قبورًا لعاد. مما يشي باحتمال تداخل الخبرين.

أبي القاسم رسول الله، ﷺ[1].

عاد في الكتاب المبين

لو أنّنا اتّبعنا ما حضّنا عليه العليم الحكيم ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ٤٢: الروم، لكشفنا عمّا تخفيه الرمال من آثار العاديّين، فنظرنا كيف كان عاقبتهم[2]، ولكان لنا حُجّة على الذين يجحدون بآيات الله وكتابه. لا سيما ما يرجع إلى عاد التي كانت أميركا زمانها، فأُخذت بما كذّبت وظلمت وعتت، فكان في ذلك عبرة. وما أحوج العالم اليوم إلى الاعتبار!

وتوحي كلمة الأولى في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ ٥٠: النجم، أن هناك عادًا ثانية، لها مثل قدرات الأولى ونفوذها وسيرتها في علاقاتها بغيرها من الأمم. وفي الرازيّ: وقيل: الأولى لبيان تقدُّمهم لا لتمييزهم، وهو الأرجح. وقيل: إن عادًا الثانية، أو الآخرة، بقيّة بقيت بعد عاد الأولى التي هلكت.

إن كلّ أوصاف حاضرةِ عاد في القرآن الكريم، وفي المصادر التاريخيّة تدلّ على أنّها كانت الحاضرة العظمى، والمدنيّة الأولى في زمانها، كما هي أميركا اليوم... فهل تكون أميركا عادًا الثانية... عاد هذا الزمان؟

لقد جعل الله العاديّين خلفاء من بعد قوم نوح، ومكّنهم فيما لم يمكّن فيه غيرهم، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ ٢٦: الأحقاف[3]، فإلى ما جعل لهم من الأسماع والأبصار والأفئدة، زادهم في الخلق بسطة، فكانوا ضخامًا أشدّاء، حتى ذهب بعض أصحاب الروايات إلى أن أحدهم كان يحملُ الصخرة، يقذف بها حيًّا كاملاً فتقضي عليه، ولا يجد في نفسه حرجًا من ذلك[4]. وفي هذا يقول الذكر الحكيم على لسان

---

(١) معجم البلدان: الأحقاف. ولا سبيل إلى توكيد ذلك الخبر، ولكنّه يُستعان به في الحصول على بعض المعلومات.

(٢) ولا يتعارض هذا وقول الذين يردّون النكبات التي حلت بالقرون الأولى إلى عوامل طبيعية كالبراكين والزلازل. ذلك أن العوامل الطبيعية لا تخرج عن كونها خاضعة إلى قوانين حق ركبها فيها الله الحقّ، وفعّلها بأمره فيها، ولوقتها. انظر الباب الأول: المعجزة.

(٣) ولئن كان الخطاب لأمة محمد فهو كذلك خطاب للناس أجمعين.

(٤) ولعلّه واجد من المبررات ما وجده الأميركيون لإلقائهم قنبلتيهم الذريتين على هيروشيما وناجازاكي.=

هود يخاطبهم: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ ١٣٠: الشعراء. وقد حقّق البطش الشديد لعاد الغلبةَ على من اصطدم بهم من الأقوام، والسيادة عليهم، ففرضوا هيبتهم وكلمتهم وإرادتهم على من حولهم، معتمدين على ما أوتوا من أسباب القوّة، حتى اتّسموا بالجَبَروت.

ومن نعم الله الظاهرة على عاد ما ذكره كتاب الله ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ١٣٣ و١٣٤: الشعراء، فهم إلى ما سبق يمتلكون الثروتين الحيوانيّة التي توفّر الأمن الغذائيّ، والبشريّة التي تتربّع على قمة ثروات الأمم في كلّ العصور[(١)]، والثروة الزراعيّة التي تقوم على وفرة المياه.

ومن النعم الظاهرة ما متّعهم به من روائع يبنونها لعلّها ملاهٍ، أو نوادٍ للترفيه، أو منتجَعات باذخة في المرتفعات والهضاب ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ ١٢٨: الشعراء، وما يتّخذون من مصانع لتحفظ الماء الذي به تستمرّ الحياة في حاضرتهم لأجيال قادمة، فكأنّهم يرجون بذلك الخلود ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ١٢٩: الشعراء.

وإضافة إلى هذه النعم المادية الظاهرة جعل الله للعاديّين سمْعًا وأبصارًا وأفئدة. ولا يخفى أن المقصود بهذه الكلمات معانيها الحقيقيّة، لا صورها الماديّة القاصرة عن التعبير الكامل عن المراد بها. فليس من التميُّز أن كان لهؤلاء جوارح هي الأسماع والأبصار والأفئدة، بل أنّها أسماع وأبصار وأفئدة يستخدمونها بحقّها، ويسخّرونها لما خُلقت له. والاستخدام العالي المستوى للحواسّ يعني استنفاد قدراتها، ممّا يعطي نتائج باهرة، يمكن التمثيل لها بما تقدّمه حواسّ العلماء من منجزات.

إن طبيعة الجدال، والسويّة العالية للأفكار التي يطرحها هود ﷺ في دعوته قومه، والأمثلة التي ترِد في كلامه، تقف بنا على الكثير من مظاهر التقدّم العقليّ للعاديّين. فهم قوم ذوو تركيبة عقليّة قائمة على المنطق، يظهر ذلك في قولهم ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا

= وكأن في كل الأسباب التي خلقها الله ما يبرر هذا البطش الجبار، الذي لا يكافئه سوى ما فعل ربك بعاد.

(١) وينطبق ذلك التميّز بصورة خاصة على علماء أميركا، الذين بلغوا بالعلوم خلال نصف قرن من الزمان ما لم تبلغه البشريّة منذ بداياتها حتى عصرهم، فهل تكون أميركا اليوم عادًا الثانية؟

جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ ٥٣: هود، فهم لن يرتّبوا أمرًا لمجرّد دعوى، ولا بدّ لهم من بيّنة. كما أنّهم يتمتّعون بسويّة فكريّة متميّزة، يظهر ذلك في قول هود لهم: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ٥٦: هود. وهو تعبير غير مباشر، لا يخاطَب به إلاّ من يملك قدرة واضحة على التجريد. وفي قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ١٣٢: الشعراء، أي بما تدرك عقولكم قيمته.

ونلاحظ أنّهم يصفون ما يدعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر بخلُق الأوّلين، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ١٣٧: الشعراء، ولعلّهم يريدون ما عنته عبارة «أساطير الأوّلين» التي اطّرد ذكرها كمقولة يجابَه بها صاحب الرسالة الخاتَم محمّد ﷺ، والتي مفادها أنّهم تجاوزوا ذلك التفكير البدائيّ بزعمهم.

ثم هم لا يجزمون بما فيه احتمالات، بل ينوطون ذلك بالرؤية والظنّ، وهو من التفكير العلميّ ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ٦٦: الأعراف. أمّا قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ٧٠: الأعراف، فيجسّد العقليّة الماديّة التي تمثّلها حضارتهم.

وممّا يمكن قراءته فيما بين سطور هذا الجدل، نمط من الحياة الفكريّة المتطوّرة، يسمح للرأي الفرديّ بأن يأخذ مكانه، ويُناقَش، وإن كانت الغلَبة محسومة للفكر الحاكم، حيث المجتمع لا يقوم على الحقّ. ولا يقدح في ذلك ما رمى به المجادلون في الله هودًا من السفاهة والكذب ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ٦٦: الأعراف، فهي العبارة الأكثر تهذيبًا لقول ما أرادوا قوله.

وهم حتى عندما طفح الكيل بهم، وقالوا كلمتهم النهائيّة: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ ٥٣ و٥٤: هود، لم يفرّطوا كلّ التفريط بهذا التهذيب الاجتماعيّ، بل احتفظوا بقدر معقول جدًّا منه.

وتلفتنا هنا ظاهرة اختفاء تلك المواقف العنيفة الفجّة، التي يُجابَه بها الأنبياء والرسل عادة: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ ١١٦: الشعراء، و﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ

ءَالِهَتَكُمْ﴾ ٦٨ : الأنبياء، و﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ ٤٩ : النمل، و﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ ١٦٧ : الشعراء... ونجد بدلاً من ذلك هودًا يعنُف على القوم، ويخاطبهم باستخفافِ مَن شارف على اليأس ممّن يخاطبه، فهو ينأى بجانبه عنه، ويكِله إلى نفسه غير مبالٍ به ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ﴾ ٥٧ : هود. وهو خطاب يخالف المعهود من خطاب الأنبياء، الذي ينضح حِلمًا وأناة، حيث يتوجّهون إلى المستضعَفين والمسحوقين من الناس. كما نجده يهدّدهم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ﴾ ٥٧ : هود، ويعلن براءته الكاملة من معتقدهم بازدراء: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ﴾ ٥٤ و٥٥ : هود، بل يتحدّاهم ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ ٥٥ : هود، ويُمعن في التحدّي والاستخفاف ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ٥٥ : هود، ويمزج ذلك بالسخريّة ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ٧١: الأعراف.

ويكفي أن نقارن بين قول هود: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ ٥٠ : هود، وقول موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ ١ : طه، حيث يظهر في كلام هود الجزم والحصر، وتبنّي الكلام بإسناده إلى المتكلم نفسه، ممّا يوحي باللامبالاة بردّ فعل المخاطَب. في مقابل الصيغة التي بدأها موسى بكلمة حادة، وبفعل أمر، ثم مرّضها بالاختباء وراء فعل الله، حتى بدا ناصحًا للقوم، مشفقًا عليهم من عاقبة الافتراء، وقد زادت المقولة المنطقيّة المجردة ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ ٦١ : طه، قول موسى لينًا، ذلك أنّه أتى بها كشاهد آخر على أنّه لا يتكلّم بوحي من رغبته، ولا يريد أن يحلّ بهم السحت والعذاب. ولكنّها مشيئة الله، وقوانينه التي يقوم عليها الوجود، أن من يفتري يُمنى بالخيبة.

جحود عاد

ثروة بشريّة وحيوانيّة وزراعيّة، وتقدّم علميّ هائل، وتمكين في الأرض لم يؤتاه غير عاد من الأمم... أولئك هم العاديّون الذين أشار إليهم الكتاب العزيز في الآية ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٤٨ : هود، إنّهم رغم فيض الأنعم التي تقلّبوا فيها، جحدوا بآيات ربّهم، وتنكّروا للحقّ الذي جاء به الرسل، واتّبعوا أمر كلّ جبار عنيد من متنفّذيهم. وسخّروا قدراتهم في البناء للعبث، وفي العلم لأغراض

رخيصة باطلة لا تليق بنعمة العلم، ولا تدلّ على شكرها، وفي شؤون الحرب لاتّخاذ أنجع وسائل البطش، وأكثرها تدميرًا حتى خاطبهم الله الحقّ بقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ ١٣٠: الشعراء[1]. وإذا كان لا يؤخذ على المقاتل بطشه بعدوّه الذي يقاتله، فثمّة فرق بين أن تبطش بعدوّك وأنت رحيم، وأن تبطش بعدوّك وأنت جبّار عات، تستبدّ بك القسوة والحقد اللئيم.

فها هو ذا سيّدنا موسى، وقد وكز عدوًّا له، فقضى عليه، يلوذ بربّه، ويعوذ به نادمًا متأسّفًا، يلتمس الرحمة لما في قلبه من رحمة... وهاهو رسول الرحمة يمكّنه الله من رقاب أعداء الأمس الذين ساموه والمسلمين سوء العذاب، فيخاطبهم من موقع العزيز المنتصر: ماذا تظنّون أنّي فاعل بكم؟

فيقولون برجاء منكسر: خيرًا... أخ كريم، وابن أخ كريم...

فيقول المبعوث رحمة للعالمين: اذهبوا فأنتم الطلقاء...

❋

فرح العاديّون بما جاءهم من العلم، وما واتاهم من الريح، ولكنّ التقدّم العلميّ، والتطوّر الاجتماعيّ، الذي أفضى إلى نضجهم في ذينك الجانبين، لم يستطع أن يبلغهم برّ الأمان، ذلك أن مِلاك الأمر كلّه أن يُقرّوا بالحقّ، ويستجيبوا لرسله، ويخضعوا إليه وحده... وما كان قوم هود يفعلون. وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ٥٩: هود.

إنّها الخطوة الأخيرة على الحافّة... فمتى بلغت قوّة في الأرض أن تجحد الحقّ، فهي سائرة إلى حيث سارت عاد. ومتى فرحت أمّة بما جاءها من العلم، واستخدمته في تحدّي الحقّ ومغالبته، وجعلت ذلك سياستها في علاقتها بالآخرين، فهي سائرة إلى حيث سارت عاد، ولا جدوى لكلّ ما تتمتّع به من عناصر القوّة مهما كان نوعها، ولا غناء فيه ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ٢٦: الأحقاف.

---

(١) ومن أمثلة ذلك في العصر الحديث استعمال الأسلحة الفتاكة ولاسيما الذرية، والاعتداء على الأمم الأقل قوة، وقمع الحركات المناهضة لأصحاب النفوذ في كل أنحاء العالم، وكله من البطش الجبار.

إنّه الحقّ... والحقّ ينتصر لنفسه كقدَر لا يُدافَع، وهو يقضي بأن يُملي لمن يجحدونه، فيحصدوا أوفى ثمار عملهم، ويتمتّعوا بخيرات ما صنعوا، حتى إذا بلغت فرحتهم بما أوتوا أقصاها كان الجزاء ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ ٤٤: الأنعام. وكانت عاد الأمّة الأولى التي تبلور فيها الانحراف عن الخطّ الإيمانيّ الذي اختطّه نوح عليه السلام، وبها بدأ العدّ التنازليّ في التاريخ الإنسانيّ، وإليها بعث الله هودًا ينذرها عاقبة أمرها، قبل أن يأخذها أخذ عزيز مقتدر.

دعوة هود

هود النبيّ المرسل... أخا عاد الذي يتمتّع إلى هذا بكلّ ما يتمتّع به العاديّ من أنعم الله وهباته، كان خطابه أمثولة للدعوة إلى الله الحقّ، في مجتمع متميّز، أوتي من مؤهّلات الاستقامة والقصد السليم ما لم يؤت كثير من المجتمعات، ولكنّه انحرف، ولم يَقُم بالدور الذي أهّله الله الحقّ للقيام به ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ٢٦: الأحقاف.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ٦٥: الأعراف، أرسله إلى قومه، شأن كلّ نبيّ. وكان قومه خضمًّا هائلاً متلاطم الأمواج، من الترف والضلال، وجنون العظمة، وحماقة الاستكبار، وهتف بهم هود: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ٦٥: الأعراف... دعوة الأنبياء والمرسلين جميعًا، على اختلاف العصور والأرضين والشعوب.

ثم راح يضع أصابعه على الأخطاء والعيوب: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ ١٢٨ - ١٣٠: الشعراء. ويستعرض الميزات والقدرات التي حباهم بها ربّهم الحقّ أهل التقوى وأهل المغفرة: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ ٦٩: الأعراف، و﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ١٣٢- ١٣٤: الشعراء.

ويُجمل الكتاب العزيز ردّ العاديّين على دعوة هود عليه السلام ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٢٣: الشعراء، وما كذّبت عاد إلاّ نبيّها، ولكنّها بتكذيبه كذّبت جميع الأنبياء والرسل، ذلك أن الدعوة إلى الله واحدة. وقد جادلت عاد هودًا في الله الحقّ، وتهجّمت عليه،

واتّهمته بالسفاهة والكذب: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ٦٦: الأعراف، واستنكروا عليه أن يدعوهم إلى الخضوع لله وحده، ونبذ ما اعتادوه من العبادة، وتحدَّوه أن يثبت لهم صدق دعواه ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ٧٠: الأعراف؟ إنّه الكبر والعناد، وعُنجُهيّة الضلال التي تُعمي وتُصمّ حتى المستبصرين ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ٣٨: العنكبوت.

وعنّف هود على قومه لِما جابهوه به من جحود وإصرار على الباطل، وأنذرهم عاقبة أمرهم، وتوعّدهم عذابًا غليظًا وشيكًا: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ٧١: الأعراف. وتبرّأ ممّا اختاروه لأنفسهم من الضلال، وتحدّاهم أن يستطيعوا مسّه بسوء: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ٥٤ و٥٥: هود.

ويأخذنا العجب، وقد عرفنا من منطقهم، وقدرات عقولهم ما عرفنا، أن نراهم يقولون لنبيّهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ١٣٧ و١٣٨: الشعراء، أو يقولون: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ ٥٤: هود. وقد أدرك هود أنها المُماحكة، فهم يهربون من ضريبة الإذعان إلى الحقّ، فيصرّون على مواقفهم، ويتنكّرون لعقولهم عمًى واستكبارًا، ذلك أنّهم أعرف الناس بآلهتهم، وبأنّها لا تملك لأحد ضرًّا ولا نفعًا، ولو أنّهم أعملوا عقولهم فيما يدعوهم إليه، كما يعملونها فيما يهمّهم من مال ومتاع ونفوذ، لما قالوا ما قالوه.

من أجل هذا أجابهم هود عليه السلام تلك الإجابة الكابحة، التي تقول من وراء الكلمات ما يُعرض ذو العقل الكريم عن قوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ﴾ ٥٤ و٥٥: هود، ولعلّه نهض مغادرًا المجلس، قائلاً بتحدٍّ من موضع القوّة التي يحسّ بها المتوكّلون: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ٥٥: هود، معتصمًا بقدرة ربّه وربّهم الحقّ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ ٥٦: هود. ثم أعلن تنصُّله من مسؤوليّته تجاههم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ ٥٧: هود. والملاحظ أن هودًا كان

يتحدّى المكذّبين من قومه، ولا يخشاهم، ولا يجاملهم، بل كانت لهجته في منتهى القوّة وهو يثنيهم عمّا هم فيه.

وممّا يلاحظ أيضًا في خطاب هود أنّه كان يقول: «ربي وربكم». فلما يئس منهم، وأدرك أنّهم لن يؤمنوا له، خلا بربّه، واطّرد قوله: «ربّي» وهو يخاطبهم ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ٦: هـود، و﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ ٥٧: هود.

ولكنّ العاديّين اعتصموا بضلالهم، ولم يراجعوا حساباتهم... وقالوا بلهجة من قرّر أن يغمض عينيه عن السبب الحقيقيّ، ثم راح يبحث بكلّ ما لديه من منطق عن الأسباب، ويفنّد الأمور.

ما جئتنا ببيّنة

وسيّدنا هود النبيّ الوحيد الذي لم يؤيَّد بمعجزة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ١٥: الإسراء، والمعجزة كما هو مطّرد جزء من الرسالة، والسبب الأوفر حظًا من أسباب الإيمان. فكيف عذّب الله عادًا وهو لم يزوّد من أرسله إليهم بأبرز دواعي تصديقه؟

قيل في هذا إن عادًا كانت ظالمة، وقد قضى الله أن من الذنوب ما يذوق مرتكبه عذابه في الدنيا، وقد جاء في الكتاب العزيز عن عذاب الذين فسقوا عن أمر ربهم ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ ٢١: السجدة. وممّن يذوق من العذاب الأدنى قبل العذاب الأكبر الظَلَمة العاتون، ومن عقّوا والديهم، وهو أمر مطّرد ملاحظ ممّن له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولأن الظالم يعذَّب في الدنيا قبل الآخرة، فقد صعّب الله العدلُ على عاد الأمر، فلم يزوّد رسوله إليهم بما يعينهم على اتباع الحقّ،فلم يؤمن منهم إلاّ من كان فيه من الخير ما أغناه عن المُعجزة، ولم يزد هؤلاء على أربعة آلاف من القوم. وهكذا جعل الله هذا التدبير سببًا في عدم إيمانهم: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٣: هود. وهذا مكر مكره الله بهم، والله خير الماكرين.

obeikandl.com

والفطرة السليمة تهتدي إلى أن الظالم لا بدّ أن يدرَكه جزاؤه. ويروى أن ملكًا شديد الظلم كان يسوم الناس الخسف، وكان فيهم حكيم يعزّيهم بقوله: إن لكلّ ظالم يومًا. فلمّا مات الملك دون أن يبدو للناس من أمره ما يدلّ على أنّه قد نال جزاء ظلمه، قال الحكيم: أشهد أن لله يومًا آخر.

ولعلّ السبب في أن الله لم يُجرِ على يدي هود معجزة، كما أجراها على أيدي غيره من الأنبياء، أن هودًا كان نبيًّا في قوم راقين عقليًا، أبلغهم الله من الرشد ما يمكّنهم من اجتلاء قوانين الحقّ في الآفاق وفي أنفسهم، فكانوا سبّاقين إلى ذلك، بينما لم تبلغ البشريّة هذا كمجتمعات إلاّ في عصر الرسالة الإسلاميّة(١)، ومن هنا كان محمّد ﷺ نبيًّا ورسولاً بلا معجزة مادّية(٢).

ونحن في حين نرى أنبياء الأمم يتلطّفون بالناس، حتى ليقول قائلهم: اللّهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون، نرى هودًا يُقرّع قومه، ويَعنُف عليهم.

عندما بدأ الصراع بين سيدنا هود وبين قومه فتح الله على عاد فتحًا عظيمًا، وإذا ما فتح الله على ظالم جاحد فذلك إيذان بالزوال. وقد حذّرهم هود: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ ١٣٢ - ١٣٤: الشعراء، ولكنّهم استمرّوا في عنادهم، ولعلّهم فعلوا ما فعل قوم نوح ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ ٧: نوح، فبدأت النذر.

احتبس المطر طويلاً، وبدا واضحًا أن الأمر خطير، فقد كان المطر عصب الحياة في عاد. واستيقظت في قلب هود بقايا الأمل، فعسى أن ينفع النذير، وعاد يذكّرهم أن في الرجوع إلى الحقّ معتصَما ومنجاة: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ ٥٢: هود.

ونصحهم بالتوبة، وأن يقدّموا الاستغفار عليها، وهو أمر جدير بالملاحظة ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ٥٢: هود، فمن المنطقيّ أن يقول: توبوا إلى ربّكم ثم استغفروه، لأن الاستغفار يلي التوبة. ولكنّه كان يقرّعهم، فذهب إلى أن ما

(١) هناك أفراد نوابغ في أقدم التجمعات البشرية، والمقصود هنا ظهور ذلك على نطاق المجتمع، أي ظاهرة المجتمعات المتقدمة فكريًا.

(٢) انظر الباب الأول: النبوة.

ارتكبوه يوجب أن يستغفروا الله قبل التوبة، ليُعَفُّوا بالاستغفار على ما فعلوه، **ويبدؤوا** عهدًا جديدًا مع الله سبحانه وتعالى.

والاستغفار عبادة الصالحين. وهو أقرب الطرق إلى النجاة من لدن آدم إلى محمّد ﷺ. فقد قال تعالى عن آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ ٣٧: البقرة، **وقيل: هي الاستغفار من الذنب الذي فعل. وقال عن أصحاب النبيّ:** ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ ١٣٥: آل عمران[١].

وللاستغفار، إضافة إلى توبة الله على العبد، وغفرانه له، آثاره الدنيويّة. فبه يُزاد في الرزق، ويهب الله البنين، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ ١٢: نوح[٢]، **وبه يُمطر الناس ...** ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ ١١: نوح[٣]، **ويبارَك الزرع فينمو ويزداد،** ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ ١٢: نوح. **وفي قول هود لقومه** ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ ٥٢: هود؟ **إضافةٌ على ذلك، وهي زيادة القوّة.**

فللاستغفار عند الأنبياء، وفي كتب السماء مكانة عظيمة، لا يذهل عنها إلاّ خاسر. ومن لزمه «جعل الله له من كلّ ضيق مخرجا، ومن كلّ همّ فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب»[٤]. وقد يكون الرزق مالاً، وقد يكون بنين، وقد يكون علمًا، وقد يكون عافية.

---

(١) عن ابن عبّاس أنها نزلت في رجلين أنصاريّ وثقفيّ آخى بينهما رسول الله ﷺ. رواه الكلبي.

(٢) وقد جاء رجل إلى الحسن بن عليّ، وقال له: يا ابن بنت رسول الله إنّي رجل... وغنيّ **جدًّا، ولم** يرزقني الله بولد يرثني. فماذا أفعل؟

قال: أكثر من الاستغفار.

(٣) روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنّه" صعد المنبر ليستسقي، فلم يزد على **الاستغفار وقراءة** الآيات في الاستغفار، ومنها هذه الآية... ثم قال: لقد طلبت الغيث بمخارج السماء التي **يستنزل بها** المطر " تفسير ابن كثير تفسير الآية ١١ من سورة نوح.

(٤) سنن ابن ماجه: ٣٨١٩.

وفي الروايات أن قوم هود لم يستغفروا ولم يتوبوا، بل انطلق وفد من عِليتهم إلى مكّة يستسقون بآلهتهم المنصوبة في البيت[1]، فأُمطروا ما استعجلوا به ﴿ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ ٢٤ و٢٥: الأحقاف. ﴿وَمَكَرُوا۟ ۚ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ ٥٤: آل عمران[2].

فأخذتهم الصيحة بالحقّ

امتلأت سماء ذات العماد بالغيم الأسود، بعد سنوات لم ير الناس فيها السحاب، فاستبشروا، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ ٢٤: الأحقاف. وخرجوا عن بكرة أبيهم يستقبلون الغيث، ولكنّه لم يكن ما أمّلوا ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٢٤: الأحقاف.

ونقرأ في كتاب الله عمّا حلّ بقوم هود، فقد حاربتهم الريح بكلّ ويلاتها، فكانت تحمل العذاب الأليم ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٢٤: الأحقاف، وكانت من المُرسَلات للقتل والتدمير، لا من المُرسَلات لواقح[3]، وكانت عقيمًا تحطّم كلّ ما تصادفه ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۞ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ ٤١ و٤٢: الذاريات، وكانت صرصرًا عاتية استمرّت أيّامًا: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ ٦ و٧: الحاقة، وكانت ريحًا صرصرًا في يوم نحس مستمرّ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ ١٩: القمر، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ ١٦: فصلت، والريح الصرصر هي الباردة، وقيل المصوّتة. وتصويت الريح شدّة عصفها، وتدميرها، وعنهما يصدر الصوت المحكيّ[4].

---

(١) كان القائمون على شأن البيت ينصبون فيه معبودات القبائل والأقوام المحيطة بهم ليجذبوهم إلى مكة، ولاسيما في موسم الحج، فتنتعش تجارتهم. وقصة وفد عاد هذا معروفة في كتب الأخبار والتاريخ.

(٢) والمكر منهم تدبير سيّئ، ومن الله تقدير عليم حكيم. وقد قرن النصّ القرآنيّ المَكرَين لغاية بلاغيّة تُعرف بالمشاكلة. وهي كثيرة في الكتاب المبين. ومن أمثلتها في شعر العرب:

قالوا: اقترحْ شيئًا نُجِدْ لك طبخَهُ   قلتُ: اطبُخوا لي جُبةً وقَميصًا

(٣) كما في قوله تعالى: «وأرسلنا الريح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه» ٢٢: الحجر.

(٤) وجاء في كتاب الله: «كمثل ريح فيها صر» ١١٧: آل عمران. وفي الصرصر زيادة على الصِرّ، ومبالغة فيه، فإذا بلغ التدمير في الريح أن اقتلعت الأشجار بجذورها، وأحرقت الثمر، كما في قوله تعالى: «فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت» ٢٦٦: البقرة، فهي الصرصر. وإن اقتصرت على أحد الأمرين فهي الصِرّ.

ونقرأ في الكتاب الحقّ عن فعل تلك الريح الجبّارة في القوم الظالمين: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ ٢٠: القمر... فهي قد انتزعتهم من حقولهم، ومن بيوتهم المنيعة، المنحوتة في الجبال كالقلاع، ومن قصورهم المحصّنة، وراحت تتقاذفهم، حتى تقطّعوا وتناثروا أشلاء، ولم يبق من أجسادهم الضخمة الجبّارة سوى كتل معفّرة مشوّهة، كأعجاز نخل زلزلته الريح المُريعة، فانقلع من مَغارسه بجذوره الضاربة في الأرض، وراحت تتقاذفه العواصف، تضرب به كلّ شاخص، حتى تناثرت الأغصان، وتشظّت السوق، وتكسّرت الجذور المتشعّبة، فلم يبق منها إلاّ أعجاز منقعرة متناثرة، تشهد على أقصى حالات الدمار.

لقد قبلت الريح التحدّي، وكانت الأشدّ والأقوى، فما بالهم بمُرسِلها الذي خلقهم! ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ﴾ ١٥: فصلت!! وفي تفسير ابن كثير: «إن الله لم يرسل عليهم من الريح إلاّ مقدار أنف الثور، عتت على الخَزَنة فأذن الله لها في ذلك، فسلكت فحصبت بلادهم، فحصبت كلّ شيء لهم»[1]. لقد انفلت الماء والريح، بإذن من الله، فبلغا في عتوّهما مبلغًا خرق ما هو معروف للبشر. ولكنّهما قطعًا لم يخرجا عن نطاق القوانين الناظمة لحركة الوجود، والتي قدّرها فيه العليم الحكيم.

أهلك الله عادًا الأولى، ووضع نهاية كارثيّة لقرية جبّارة في قدراتها، جبّارة في قوّتها، جبّارة في بطشها بغير الحقّ. وكانت عبرة للمُعرضين عن أمر الله[2]. وقد تعدّدت وسائل إهلاكهم، ففي سورة المؤمنون ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٤١: المؤمنون. والصيحة، كما يُستفاد من مجمل الأمكنة التي وردت فيها، تعبير عن العذاب الناتج عن العوامل الطبيعيّة، والمترافق بأصوات هائلة، بسبب تحطيم النبات والأحياء والبناء، كما في الزلازل، والبراكين،

---

(١) ابن كثير تفسير سورة هود.

(٢) بعثت قريش عتبة بن ربيعة وكان أحسنها حديثًا ليكلم رسول الله وينظر ما يريد، فلم يسأله عن شيء إلاّ أجابه، ثم قرأ رسول الله السورة إلى قوله تعالى: «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» ١٣: فصلت. فوثب عتبة، وأمسك على فم النبي، وقال: ناشدتك بالرحم إلاّ أمسكت. لقد أيقن عتبة أن النبي لو أكملها للقيت قريش المصير نفسه. [ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١: ٨٥].

والعواصف والأعاصير والأمطار[1].

هكذا انتهت عاد الأولى التي لا مثيل لها، ولقي العاديّون، الذين أوتوا بسطة في العلم والجسم والنفوذ، مصارعهم خلال سبع ليال وثمانية أيّام من العصف الوحشيّ المتتابع، المكرّس لإهلاكهم، وغدَوا بقايا جثث مهشّمة، مُلقاة فوق الرمال كالجذوع الضخام الجُوف ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ٧: الحاقة.

أمّا هود والذين آمنوا معه فقال تعالى فيهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ٥٨: هود... عذاب شديد الوطأة، شديد الوقاحة. وقيل في هذا العذاب إنّه عاقل بدليل الخطاب، كما قيل في النار في قوله جلّ وعلا: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ ١٢: الفرقان، وفي طوفان نوح، وريح عاد، وحجارة لوط، فقد قيل إن حجارة لوط كانت تلحق بالراعي فتقتله، كما كانت تفعل الطير الأبابيل بجنود أبرهة[2].

وكانت عاد عبرة، وأنموذجًا لعاقبة كفران النعمة، والفرح بها... وإنّه لقانون حقّ ممّا يقوم عليه الوجود أن استبقاء النعمة يكون بشكرها، وشكرها يعني القيام بحقّها. وعلينا اليوم كمسلمين ألاّ نتجاهل النذير، الذي يتعاظم حضوره، فيما نراه من تكالب العواصف على الأرض، وبوادر الصيحات التي توفرت أشراطها في مواضع تكثر وتكثر باستمرار، وذلك في ظلّ ما نقرأه في كتاب الله عن مهلك عاد الأولى.

*

قد نعجب ممّا بين قصتي هود ونوح عليهما السلام من تشابه رغم تباين العهدين والقومين، وما ذلك إلاّ لأن نقاط التشابه ترتكز في أصلها على الأوليّة التي احتاجت البريّة إلى سلسلة الأنبياء والرسل، ومن بعدهم من المهتدين، لكي تفهمها، وتأخذ بها، وهي

(١) وقد ذكرت الصيحة كذلك في مصارع قوم لوط وقوم شعيب وقوم صالح عليهم السلام.

(٢) لعلنا نستطيع القول: إن في هذا نوعًا من الإيغال إلى أقصى عمق في المعنى، فكل من العذاب والنار والطوفان والريح والحجارة والطير الأبابيل، لا يخرج عن كونه من الأدوات الخاصة بهذا الوجود الماديّ، وليس له من الأمر شيء، وإنما هو مسخر لأمر الله فيه. وما يتوهَّم منه من الفعل الإرادي ناجم عن خضوعه الجبريّ إلى قوانين الحق التي شاء الله أن تحكم خلقه.

أن الحاكميّة لله الحقّ وحده. ومع ذلك فإن بلاغة النصّ القرآنيّ المعجزة راعت، بلفتات شبه خفيّة، خصوصيّة كلّ من الموضوعين. وأوقفتنا على فروق دقيقة يؤدّي كل منها معنىً خاصًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ٦٥: الأعراف، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ٥٩: الأعراف، حيث أضفت الفاء ظلاً يُشعر بطول مكث سيّدنا نوح بين قومه. ممّا جعل العبارة مرافقة له، دائمة التردّد على لسانه.

ثم إن قوم سيّدنا نوح قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ٦٠: الأعراف، بينما قالت عاد لسيّدنا هود: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ٦٦: الأعراف. لقد اعتبر قوم نوح الإنذار بالعذاب ضلالاً، ذلك أن العذاب لم يكن قد وقع على أحد من قبلهم، فبدا لهم نوح مخطئًا ضالاً لإنذاره إيّاهم أمرًا غير واقع في عرفهم، أما قوم هود فلم يكن خبر الطوفان عنهم ببعيد، ولعلّه قد بلغهم عذاب أمم أخرى لم يذكرها الكتاب، فأوجعهم الإنذار، ولاسيّما أن نبيّهم ساقه بصيغة الماضي توكيدًا لوقوعه الوشيك، ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ ٧١: الأعراف، ثم أتبعه بذلك التوعّد الحازم ﴿فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ٧١: الأعراف. ومن هنا تفاوتت حدّة ردّي الفريقين على الإنذار نفسه.

وهناك قول سيّدنا نوح: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ ٦٢: الأعراف، وقول سيّدنا هود ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ٦٨: الأعراف، فنُصح نوح اتّخذ صفة الاستمرار، لطول مكثه في قومه، ولكونه أوّل رسول إلى بني البشر، فكان يكرّر النصح في كلّ مناسبة، حتى صار ملازمًا له. أمّا هود، فهو يُبلغ قومه أنّه بدعوته إيّاهم إلى الله ناصح أمين، ولعلّه لم يقلها لهم مرّة أخرى.

* * *

الفصل الخامس

صالح

عليه السلام

السلام عليك يا من حملت رسالة الله الحقّ إلى قوم مستبصرين، فكانت آيتك الناقةَ مبصرةً... آية تروضهم على الوقوف عند حدود الحقّ، والانضباط في مساراته... آية احتملوها وتحمّلوها، ثم خرقها أشقاهم.

السلام عليك، والعالم اليوم صورة عن قومك، وأحوج ما يكون إلى ناقتك.

* * *

من سنن الله في الأمور أن كلّ حقيقة تزحف عليها الخرافات، وتعتريها الانحرافات بمرور الزمن، ثم يبعث الله من يجدّدها، ويمزّق عن وجهها الحجب، ويعيدها حيّة فاعلة مؤثّرة في الوجود. وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه»[1]. فالقسط كالماء والثروة والخِصب يكون في مكان من أرض الله، ثم تُمحل الأرض، فينتقل إلى مكان آخر. وكذلك هي الحضارة والمدنيّة والعلم في شتّى الميادين...

ثمود قوم صالح

تطاولت السنون، وانحرف الناس عن التوحيد الذي اعتنقه الناجون من عاد، وعاد القوم سيرتهم الأولى، فبعث الله في ثَمود صالحًا يجدّد الدعوة. ومن هنا كان التشابه واضحًا بين دعوتي هود وصالح عليهما السلام.

(١) صحيح مسلم: ١٧٩.

obeikandl.com

وكانت الحِجر، ديار ثَمود، بالقرب من وادي القُرى، وهو واد خَصب معمور منذ القدم بين المدينة والشام، حيث ما يسمّى اليوم بمدائن صالح. وكانت آثارهم معروضة ظاهرة في زمن التنزيل ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ ٣٨: العنكبوت، ويزعم أبناء المنطقة أن ثمّة بقايا من ديار ثَمود يعرفون أماكنها[١].

وثَمود عرب متمدّنون، خلفوا عادًا، وكان لهم ما كان لها من التمكين في الأرض، والبناء في سهولها وجبالها. وكانت لهم زراعة ناجحة قامت عليها بعض الصناعات، وثروة حيوانيّة كبيرة، وتجارة وصيد بحريّ، وعمران متطوّر. وقد اتّصف الثموديّون بالقوّة والمنَعة، وبجانب كبير من التقدّم الفكريّ، وتشير النقوش إلى أن القراءة والكتابة كانت منتشرة بين جميع شرائح المجتمع، وجميع الأعمار من الجنسين[٢]، ممّا يلقي مزيدًا من الضوء على فهمنا لوصفهم بالمستبصرين في الذكر الحكيم. ولكنّهم كانوا أقلّ شأنًا من عاد، ويمكن القول إنّهم يمثلون بقايا المدنيّة العاديّة.

لقد أوتي الثموديّون عقولاً باصرة، أقامت عمرانًا متطوّرًا، ومجتمعًا مدنيًا مرموقًا، وكانوا بذلك مؤهَّلين من حيث القدرات للاستخلاف على الحقّ في الأرض، ولكنّهم استحبّوا العمى على الهدى، ولم يوجّهوا قدراتهم في المجالات المادّيّة للتوصّل إلى التوحيد، واعتماد الحقّ منهجًا.

ومن استحبّ العمى على الهدى فقد كفر نعمة العقل، وكانت وبالاً عليه. ومن هنا عقاب العاقل أشدّ من عقاب الجاهل أو الأحمق. وفي حديث سيّد الخلق: «الزبانية أسرع إلى فسَقة القُرّاء منهم إلى عبَدة الأوثان. فيقولون: يُبدأ بنا قبل عبَدة الأوثان! فيُقال لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم»[٣].

لقد كان الثموديّون جديرين أن يؤمنوا، ولاسيّما بعد ما رأوا الآيات، لكنّهم غفلوا، وهم ذوو العقول، فلم يتدبّروا ولم يتفكّروا، ولم يبحثوا عمّا يساعدهم على

---

(١) انظر قصة هود عليه السلام.

(٢) استُدل على أنواع من مزروعاتهم، وعلى الصناعات التي قامت عليها، من النقوش الثمودية التي اكتشفت مؤخرًا. انظر محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١: ٢٨٢ ـ ٢٨٦ .

(٣) رواه الطبراني.

الوصول إلى الصراط المستقيم، وفضّلوا الضلال على الهدى، فعاجلهم الجزاءُ الحقّ... إنّه مكر الله بهم، وجهد إبليس الذي غلبهم على عقولهم.

ثمود في الذكر الحكيم

وفي الذكر الحكيم أن الثموديّين كانوا أهل مدنيّة هائلة، وكانوا غانين في ديارهم[1]، فقد عمَروا السهول بالقصور، ونحتوا الجبال بيوتًا هائلة أشبه بالعمارات ذات الأدوار ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ ٧٤: الأعراف، وجعلوها غرُفات يؤدّي بعضها إلى بعض ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ ١٤٩: الشعراء، كلّ ذلك بصنعة فائقة باهرة، والفاره البارع الحاذِق الذي لا نظير له في صنعته.

وكانت ديارهم خَصبة كثيرة الجنّات والعيون، ولهم ثروة زراعيّة هائلة، ولاسيّما النخيل الممتاز، ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ ١٤٧ و١٤٨: الشعراء، ومجتمع عريق متعدّد الطبقات، بلغ أن تُحاكَ فيه المؤامرات من أجل الثروة، ويفرزَ حثالة مفسدة تُستأجر من قبل الطبقات الأعلى لتحقيق مآربها، وأن تقوم حوارات ومماحكات بين فئاته تختلف نوعيًا عن تلك التي كانت في مجتمع نوح عليه السلام.

ونستشفّ من قوله جلّ وعلا: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ ١٤٨: الشعراء، أنّه كان لثمودَ باع في الزراعة، وأن على رأس زروعهم النخل، الذي أفرده القرآن المبين بالذكر.

وللنخلة في ذاكرة التاريخ حضور متميّز، ذلك أنّها من أقدم وأعرق مصادر الغذاء في تاريخ البشر، فالمَواطن الأقدم للإنسان أكثرُ بقاع الأرض نخيلاً[2]. ومعروف عن النخلة أنّها تُرمى بالحجارة وتَرمي بالثمار، وثمارها شريفة ثمينة، تثبت للزمن، وتتحدّى الفساد، مثل الزيت والعسل، فهي تُدَّخر وتُحفظ لفترات طويلة، ولا تحتاج إلى شروط حفظ صعبة، وتغني من الجوع، ويمكن الاقتصار عليها كطعام في الظروف الصعبة، ولذلك كانت الغذاء الرئيسيّ في البيئات الفقيرة، فما جاع بيت فيه تمر، وما جاع بلد فيه تمر.

---

(١) قال تعالى عندما هلكوا: "كأن لم يغنوا فيها" ٩٢: الأعراف.

(٢) حسب أواخر الدراسات.

وقد كانت النخلة رفيقة الأنبياء، ولها ذكر واضح في سيرة رسول الله، ﷺ، وفي حديثه أنّها «شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم»[1]، أي أن لها مثله طبع الصبور الصائم، إذ تحتمل العطش والجفاف والحرّ والبرد والزوابع والأعاصير. كما نرى لها ذلك الحضور، وبالروح نفسه، في آي الذكر الحكيم. ومن ذلك قوله جلّ وعلا لمريم: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ ٢٥: مريم.

ولعلّ من المدهش أن يطّرد تعايُش النخلة والمسلمين عبر التاريخ والأصقاع، فليس هناك حضور يذكر للنخيل إلاّ في بلاد المسلمين[2].

دعوة صالح عليه السلام

بعث الله صالحًا إلى ثمود ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ ٣: الأعراف، واصطفاه من أعقلهم وأكرمهم ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ ٦٢: هود. والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، والاصطفاء هو اختيار الصفوة. ومن هنا فالرسل صفوة الخلق، من حيث كونهم قممًا متفرّدة بسويّة لا تُدانى من القدرات الرفيعة.

ومن لوازم الاصطفاء أن يكون الرسول من وجهاء الناس وعقلائهم، ذلك أن من يتصدّى لهداية الناس لابدَّ أن يكون مقبولاً عند مجملهم. وهذا واضح في التصوّر الإسلاميّ، ففي الإسلام لا يكون مجهول النسب إمامًا ولو كان عالمًا[3].

وصحّة نسب الإمام في الإسلام أمر لا وجه لعرضه على الأوليّة الإسلاميّة المعروفة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ١٦٤: الأنعام، ذلك أن نظام الأسرة في الإسلام، وهو مرتبط بقضية

(١) صحيح البخاري: ١٣١.

(٢) باستثناء ولاية في أمريكا اليوم.

(٣) ولهذا تجرأ الناس على زياد ابن أبيه، وغلب عليه لقب ابن سمية، مع أنه أمير وشاعر وأديب وبطل.

obeikandl.com

النسب، أساس من أسس المجتمع المسلم. وأوّل ما يُفترض في الإمام أن يكون مقبولاً من مجتمعه، ولا يتحقّق هذا بكونه خارجًا عن واحد من أهمّ أسسه، فالإمامة في الإسلام إذًا ليست شأنًا فرديًا. ولا حرج على من ابتُلي بشيء في نسبه في أن يبلغ في المجتمع الإسلاميّ ما تؤهّله له قدراته، باستثناء الإمامة.

وبلّغ صالح قومه رسالة ربّه ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ٧٣: الأعراف، وطالبوه ببرهان على صدقه وصحّة رسالته، فزوّده الله بآية معجزة، فانطلق يقول لهم: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٣: الأعراف(1). فهو يذكّرهم بتلك البيّنة، ويلفتهم إلى الاعتبار بها، من حيث أن الله الحقّ قد سخّرها لهم، وكفاهم مؤونتها. ويرمي صالح عليه السلام، من وراء وصف الناقة، إلى الاستدلال على عظمة الخلق، ومن ورائها عظمة الخالق، الذي لا يستحقّ غيره أن يكون إلهًا يُخضع له ويؤتَمر بأمره، ويحذّرهم أن يمسّوا الناقة بسوء، فتكون عاقبة أمرهم خُسرًا.

ويذكّر صالح قومه بأنعُم أخرى لله عليهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ٦١: هود. ولعمارة الأرض وإصلاحها جعل الله الإنسان خليفة فيها، ومن هنا وجدنا الذكر الحكيم يحفِل بذكر جنّات الأرض، وعيونها، ومياهها، ونباتها، وثمراتها، وحدائقها ذات البهجة، وجبالها، وجُدَدها، ودوابّها، ويدعو إلى صونها وإصلاحها، وعدم الإفساد فيها. وقد شنّع الذكر الحكيم على المفسدين في الأرض، في مواضع كثيرة، وبصيغ منوّعة.

وممّا خاطب به صالح عليه السلام ثمودًا: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ١٥١ و١٥٢: الشعراء.

---

(1) والإضافة في "ناقة الله" للتعظيم من شأنها. وكل ما يضاف إلى الله مقدس وعظيم... رسول الله... سنة الله... صبغة الله... كتاب الله... بيت الله الحرام، وكل مسجد بيت الله، وإنما كانت الكعبة البيت الحرام لكونها وضعت بأمر الله في هذا المكان، أما سائر بيوت الله فكل منها وضع بأمر صاحبه الذي بناه واختاره.

والمفسدون في الأرض أشكال، منهم تلك الفئة الناشزة عن قالب المجتمع، والمتنكّرة لأعرافه وقوانينه التي تضبطه[1]، وتتّصف تصرّفاتهم باللاّمسؤوليّة والعنف، وغالبًا ما يتعاطون المخدّرات والمسكرات.

وتشهد المجتمعات العربيّة اليوم استفحال آفة الفساد، في ظلّ الظروف السيّئة الضاغطة من جهة، والمواتية من جهة أخرى. وتتّخذ هذه الآفة قوالب وصورًا من مفرزات العصر، تتبدّى في القفز على القوانين والتلاعب بها، وتستبدل بالقبضة التي كانت مصدر قوّتها بالأمس أسلحة العصر من المال والنفوذ. فهي طريفة القالَب تليدة القلب.

ويلاحَظ في تناول الكتاب المبين لقصة صالح تكرار تلك العبارة المثيرة للجدل «يفسدون ولا يصلحون»، فقد جاءت نفسها في آية أخرى ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ٤٨: النمل. وتبدو جملة «لا يصلحون» للوهلة الأولى مرادفة لسابقتها «يفسدون». ولكننا فرغنا من القول بعدم الترادف في الكتاب المبين[2]، وبديهيّ أن للتكرار في أيّ نصّ كان، وفي الكتاب المبين بصورة خاصّة، مهمّة لها شأنها في البلاغ. فما وراء هذا الذي دعاه بعضهم في كتاب الله تكرارًا؟

إن تقليب النظر في هاتين الآيتين يُفضي إلى أن الناس بالنسبة إلى الإفساد في الأرض أصناف أو درجات. فهناك من يُفسد، ولا يُصلح أبدًا، وهناك من يُصلح، ولا يُفسد أبدًا، وهناك من يُفسد تارة، ويُصلح أخرى. والمسرفون الذين يحذّر صالح منهم قومه هم أولئك الذين يُفسدون، ولا يُصلحون أبدًا. فقوله تعالى: «يفسدون ولا يصلحون» ضرورة وليس زيادة، إذ لا زيادة في القرآن.

---

(١) ويدعَون بالعربية الدارجة في العراق بالشقاوات، وفي مصر بالفتوّات أو البلطجيّة، وفي الشام بالقبضايات.

(٢) وهذا القول أساس بحث «الكلمة وأخواتها في القرآن الكريم» لصاحب القصص.

ونحن إذا ما تأملّنا في درجات الإفساد على نطاق الحكومات رأينا نماذج تمثّل الفئات الثلاث. فهناك حكومات تُفسد على الإطلاق، ولا تُصلح أبدًا كحكومة فِرعَون موسى الذي قال عنه القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ٨٣: يونس. فقد مارس هذا الفرعون، ولـمّا يزل مجهول الهويّة، التعالي والعسْف على أوسع النطق، فأرهق الناس، وجعلهم فئات وطبقات لغاياته وخدمة مصالحه ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ ٤: القصص. ولا يشفع لأمثال فِرعَون موسى ما تركوه من آثار عمرانيّة أقاموها لمجدهم الشخصيّ، وسخّروا لها قدرات البلاد والعباد. فما هي إلاّ آثار الظلم والاستعلاء والعسْف والتسلُّط وقهر الإنسان، وكلّه من الإفساد في الأرض. وقد جعل الله التنكّر للحقّ، والإفساد في الأرض سببًا لهلاك فِرعَون هذا ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٩١: يونس.

ومن الحكومات التي تصلح ولا تفسد، وهي نادرة في تاريخ الحكومات، حكومة الخلفاء الراشدين، التي قامت على الإصلاح المطلق للبلاد والعباد وفق شرعة الله الحقّ. وفي الغرب اليوم حكومات قائمة على الإصلاح في شعوبها، ممّا يحفظها من الهلاك وفقًا لقانون الله الحقّ في الوجود ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ١١٧: هود.

ومن الحكومات التي تُفسد وتُصلح، وأولئك ممّن قال الله عزّ وجلّ فيهم ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ ١٠٢: التوبة، الأمويّون والعباسيّون... وهؤلاء حملوا منهج الحقّ إلى معظم بقاع الأرض الآهلة في زمانهم، وصنعوا مدنيّة وحضارة عاشت عليها الإنسانيّة قرونًا، وما تزال. ولكنّهم ظلموا في مجالات أخرى، وعلى رأس ذلك إساءتهم إلى آل بيت النبيّ. فهؤلاء وأمثالهم ممّن يُفسدون ويُصلحون.

ويشاكل ذلك قوله تعالى عن الملائكة: ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ٦: التحريم، حيث يبدو المعنى واحدًا في الحالتين، ولكنّنا، لدى التدبّر، نرى أن قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ٦: التحريم، يضيف إلى امتثالهم لأمر الله، قدرتهم على فعل ما يؤمَرون بفعله. فهاتان صفتان: الأولى الامتثال لأمر الله جلّ وعلا في كلّ ما يأمرهم به، والثانية القدرة على القيام بما يأمرهم به. فما في القرآن من زائد مطلقًا[1].

(١) وهذا من أركان بحث «الكلمة وأخواتها في القرآن الكريم» لصاحب القصص.

وقد وسّع كتاب الله مفهوم الإفساد، فجعله إهلاكًا للحرث والنسل، واعتبر الإساءة إلى البيئة الطبيعيّة ممّا يهدّد الجنس البشريّ ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ ٢٠٥: البقرة، أمّا الحديث النبويّ، فيكاد يغطّي جميع أشكال الإفساد في الأرض، بزجر من يمارسها، وتوجيهه، وبيان ما ينال المصلحينَ من أجر في الدنيا وفي الآخرة.

لقد استخلف الله الإنسان في الأرض، واستعمره فيها، فإعمارها بالحقّ هو غاية وجوده، والإفساد فيها إنّما هو خروج عن تلك الغاية إلى نقيضها. ويُقاس الإصلاح والإفساد في الإسلام بآثاره في الإنسان، ودعمه لفعاليّاته كلّها ماديًّا ومعنويًّا، وتوجيه تلك الفعاليّات إلى القيام بدورها في هذا الوجود.

وتعيش الإنسانيّة اليوم ذلك الواقع الفاسد، الذي يوشك أن يعمّ أصقاع المعمورة، والذي يتجلّى في احتضار القيم أمام تحكُّم المصالح، وفي سيادة قانون القوّة بكلّ أشكالها على قانون الحقّ. فقد آتى الفساد والانحراف عن جادّة الحقّ أُكُله في كلّ ميدان، وأفرز سمومه في البيئة الطبيعيّة، فتلوّثت المياه والأجواء، وتدهورت الخضرة، وتضرّر الغلاف الجوّيّ الذي يحمي الأرض، وكلّ ذلك بما كسبت أيدي الناس، ممّا أفرز، ويُفرز أضرارًا متنامية، وفسادًا متزايدًا. ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟﴾ ٤١: الروم والبيئة الطبيعيّة هي أساس الحضارة والمدنيّة، وإذا فسدت عاد الناس إلى عصر الهمجيّة.

وممّا يؤسَف له أنّه يمكن القول اليوم إن العدّ التنازليّ للوجود البشريّ قد بدأ فعلاً. فإذا قرأنا تتمّة الآية .﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ٤١: الروم، أدركنا أنّه الإنذار بين يدي العذاب الشديد. ومن سنن الله في خلقه أن من يتولّى كبر الإفساد في الأرض، فيهلك الحرث والنسل بقدراته، تنقلب عليه نتائج عمله قبل غيره، فتُهلكه وتُبيده. فهل من مُدَّكر!

كذّبت ثمود المرسلين

دعا صالح ثمودًا إلى التوحيد، فردّوا دعوته، وكذّبوا بنبوّته ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ٨٠: الحجر(١). وكما كذّبت عاد المرسلين جميعًا بتكذيبهم هودًا،

(١) وهم ما كذّبوا إلاّ صالحًا، ولكن من يكذب أيًا من الأنبياء فقد كذب الأنبياء جميعًا، لأن ما جاؤوا به واحد.

فكذلك فعلت ثمود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ١٤١: الشعراء. ذلك أن الأنبياء جميعًا قد جاؤوا بدين واحد، فمن كذّب واحدًا فقد كذّبهم جميعًا. ومن هنا جاء الإسلام بما ينبغي أن يأتي به الدين الخاتم: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ ٨٥: البقرة، فلا يكون مسلمًا من لا يؤمن بالأنبياء جميعًا، وهذه فضيلة ما كانت إلاّ للمسلمين. وعدم الاعتراف بالآخر، الذي يُتّهم به الإسلام، إنّما هو فِرية، ما كان لها أن تجد أذنًا لو أن في هذا العالم رشَد، أو لو أنّنا كنّا أمناء على ما نحمله من الإسلام، فكشفنا الحقائق المطموسة(١)، وقدّمناه إلى العالم كما هو، لا كما قدّمه أعداؤه.

وكان ممّا جابهت به ثمود صالحا ﷺ: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ٦٢: هود، فهم يعرفون أن صالحًا صادق، وأنّه على علم وعقل، ولكنّهم يستكبرون أن يُقِرّوا لغيرهم بمعرفة الحقّ من دونهم، وقد أمسكهم الاستكبار عن الإقرار، فجحدوا بما استيقنته أنفسهم ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ١٧: فصلت، فهم ضالّون باختيارهم استكبارًا وجبَروتًا، وليس قصورًا عن إدراك الحقّ. شأنهم في ذلك شأن عاد، الذين جعل لهم الله أسماعًا وأبصارًا وأفئدة، فما أغنت عنهم شيئًا.

وكان ممّا جابهت به ثمود صالحًا ﷺ ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ ٤٧: النمل، ثم راحوا يتصدّون للمؤمنين ويخاصمونهم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ٤٥: النمل، ثم راحوا يناكفونهم بوقاحة ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ ٧٥ و٧٦: الأعراف.

لقد وصف الذكر الحكيم قوم صالح، كما وصف قوم هود، بأنّهم كانوا مُستبصِرين. وكانت لهم عيون وآذان وقلوب، ولكنّهم لم يجتهدوا ليجعلوها بصائر. وهكذا شاع فيهم الظلم والمجاهرة بالمعاصي والموبقات، كالخمر والرِبا والزنى.

---

(١) انظر الباب الأول: في الإسرائيليّات.

وإذا كان ذلك رفع الله يديه عن الخلق، فلا يبالي في أيّ وادٍ هلكوا، وممّا يهلكون به القحط والأوبئة والأمراض النفسيّة التي تفرز الانحرافات.

إن التوصّل إلى الهدى مشروط بأن يُستحبّ على العمى، وهذا مفهوم الاختيار. فاستحباب الهدى يعني اختياره. واستحباب الهدى على العمى أصل في التوجّه الإنسانيّ، فهو متحقّق في كلّ ذي عقل، مركوز في أساس فطرته، ولا يخرج عن وسع النفس السويّة المكلَّفة، حيث لا تكلَّف نفس إلاّ وسعها.

ولا يطمس الجنوحَ الفطريّ إلى الهدى، وأُنسَ النفس البشريّة بالاستقامة، إلاّ الاستكبارُ والهوى والإخلاد إلى الأرض. ومن هنا فالآيات للمُتوسِّمين وللمُتفكِّرين ولأولي الألباب، أي لأصحاب التوجُّه السليم، الذين يسوسون أنفسهم، ويُخلصون لما تُرشدهم إليه فطرتهم التي فطر الله الناس عليها، فيستحبّون الهدى، وتأنس نفوسهم بالاستقامة. فإذا وُجد المتوسِّمون، والمتفكِّرون، وأولو الألباب نفعت الآية، وأفلحت المعجزة. ويصدق هذا على الجماعات والأمم كما يصدق على الأفراد.

ومن هذا المنطلق ما رُوي عن خبّاب بن الأرتّ من أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اللهمّ أيّد الإسلام بأبي الحَكَم بن هشام، أو بعمر بن الخطّاب»[1]، ذلك أن عُمر بن الخطّاب كان كما قال عنه ابن عبّاس ﵄: «وقّافًا عند كتاب الله»[2]، ممّا يعني أن الوقوف على ما يتبيّن له أنّه الحقّ طبع ظاهر فيه، وبه هداه الله إلى الإسلام. والناس، كما علّمنا معلِّم البشريّة، معادن، «خيارهم في الجاهليّة خيارهم في الإسلام، إذا فقُهوا»[3].

إن الدلائل العلميّة والحضاريّة عامّة اليوم حُجّة على الإنسان، ولا عذر له في استفراغ قدرات عقله التي ذُلّلت لها الصعاب، وفُتّحت أمامها مغاليق كثير ممّا كان غيبًا. فمنجزات العلم اليوم آيات بينات على حاكميّة الله الحقّ لكلّ شيء، وكلّ شأن. ولا ينكر هذا إلاّ جاحد يَعسفه

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ٣٤٥.

(٢) صحيح البخاري: ٦٨٥٦.

(٣) صحيح البخاري: ٣٢٠٣.

العناد ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ١٣ و١٤: النمل.

لقد أُرسلت إلى ثمود الناقةُ آية بيّنة، ورأى فِرعَون ومَلؤه الآيات التي جاء بها موسى، ووقف العزيز ومن حوله على دلائل براءة يوسُف، ولكنّ أحدًا من هؤلاء لم يُخلص لما أدركه وعقله، بل اتّبع هواه، واعتصم بكِبره، واستحبّ العمى على الهدى.

وفي الحديث أنّ أوّل من تُسعّر بهم النار يوم القيامة عالم وعابد وشهيد[1]، ذلك أنّهم، من جهة، كثيرًا ما يَدخل عملَهم الرياءُ، ومن جهة أخرى، وهي الأهمّ، أنّ كثيرًا منهم لا يستفرغون قدرات عقولهم للوصول إلى الحقّ المبين، وتحقيق الاستخلاف الأمثل عليه في الأرض، طبعًا في حدود قدرتهم كبشر، فهم بذلك لم يشكروا على ما أُعطوا حقّ الشكر. وفرّطوا في ما أُنيط بهم من دور في إحقاق الحقّ. ومن هنا جاء الحساب على قدر العطاء.

إن العقل البشريّ ليرقى حتى يصل بصاحبه إلى الإيمان الكامل، وينتهي به إلى حقّ اليقين، حيث يدرك هيمنة الله الحقّ على كلّ شيء، وفي كلّ شأن، فيملك بذلك الدنيا والآخرة، وهذا العقل نفسه يتدنّى حتى يتعبّد صاحبه لحجر أو لشخص أو لقمر أو لشمس. والله تعالى كرّم بني آدم بالعقل، وفضّلهم به على جميع مخلوقاته، وسخّر لهم بسببه ما في الأرض جميعًا ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ ٧٠: الإسراء، **وشبّه الغافلين، الذين لا يُعملون عقولهم فيما خلقها الله له، بالأنعام، واستدرك: بل هم أضلّ**﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ ١٧٩: الأعراف، **ذلك أن الأنعام رهن بما فطرها الله عليه من قوانين، بينما الإنسان الضالّ قد تنكّر لفطرته مختارًا، فتدنّى عنها.**

لم يكن الثموديّون إذًا قاصري العقول عن استيعاب ما جاء به صالح، ولكنّهم كما قال فيهم ربّهم: ﴿فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ ١٧: فصلت، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ

(١) من حديث طويل عن أبي هريرة. سنن الترمذي: ٢٣٨٢.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ٣٨: العنكبوت.

وكان ممّا قالته ثمود لصالح عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ ١٥٣: الشعراء، ومن يُسحر مرّة فهو مسحور، ومن يُسحر كثيرًا فهو مُسَحَّر. فهذا الذي يدعوهم إلى الهدى ليس أهلاً لثقتهم، إذ أنّه وقع عليه سحر بعد سحر، فجعل يهرف بما لا يعرف، حتى يئسوا منه آسفين: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ٦٢: هود.

وفي الآيتين يُبدي قوم صالح شيئًا من التلطُّف واللين والتماس العذر، ولكنّنا لا نلبث أن نرى كلّ ذلك يتكسّر على صخرة «اعبدوا الله» ولتوبوا إليه»، بل ينقلب سبابًا وشتائم: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ ٢٥: القمر، وتحدّيات وقحة: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ٧٧: الأعراف، ولَمزًا ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ ٤٧: النمل، وعزمًا على الاغتيال ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ ٤٩: النمل... إنّه منطق التعالي، وقد يغلّفه شيء من التهذيب والكياسة قبل أن يبلغ الأمر نقطة الخطر، فمتى بلغها سقطت الأقنعة الزائفة، واستنفرت الذئاب والضباع، وعاد الغاب فزحف حثيثًا على كلّ مظاهر المدنيّة، وطغى على كلّ قشور الحضارة الآيلة أصلاً إلى القبور. وهذا ما تُعاقره البشريّة منذ بداية عهدها بالإنسانيّة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومثل ذلك شأن فِرعَون مع موسى، فقد كان فِرعَون يحبّ موسى، نلمس ذلك في كلامه معه قبل احتدام المواجهة بينهما، فهو يترفّق به: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ١٠١: الشعراء، بل يقيمه مقامه، ويساويه بنفسه، وييسّر له سبل التفاهم بعد ذلك: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ ٥٨: طه، وهذا تنازل من فِرعَون الذي يَعتبر أنّه لا ندّ له. أمّا عندما وقفت «لا إله إلاّ الله» بينهما، لا يتنازل عنها موسى، ولا يُقرُّ بها فِرعَون، فانقلبت الموازين، وتبدّل الترفُّق، كما تبدّل ترفُّق ثمود بصالح. فالترفُّق ممكن، وكلّ شيء يمكن الإقرار به على أمل الالتفاف عليه فيما بعد، أمّا «لا إله إلاّ الله» فهي تأخذ على الكافرين الطرق.

ويُعطينا صالح عليه السلام في محاورته قومه درسًا... إذا ناقشت مُغاليًا فأعطه الجواب المُسكت بأكثر الأساليب بساطةً، وإحكامًا... وهاك المثال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن

كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ ٦٣: هود. والرحمة التي يعنيها صالح هي النبوّة والرسالة. لقد جاء سيّدنا صالح بالقول الفصل، القول الأكثر بساطة ووضوحًا. ذلك أنّه من الحكمة في محاجّة المعاند المكابر ألاّ نطيل النقاش ونفرّعه، بل نلقي في وجهه بما يُفحمه ويُسكته. وذلك امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ١٩٩: الأعراف.

* * *

عصى قوم صالح وكفروا، وأمعنوا في الفساد والطغيان بعد أن رأوا الآيات، وجعل هذا الانحراف عن الفطرة السليمة يتسلّل إلى كلّ جوانب الحياة والأنفس، وراحت مدنيّة ثمود العظيمة تنهار، فنضبت المياه، وتقلّصت الخضرة التي كانت تصبغ الوادي، وتضرّرت الزروع، وعلى رأسها النخيل مفخرة ثمود. وكلح وجه الحياة الناعمة المترفة. وتلك سنّة الله التي يدعوها من لايؤمنون به بطبائع الأشياء. وما طبائعها إلاّ ما ركّبه فيها مُوجدها من قوانين. ومن تلك القوانين أنّه إذا فسد الإنسان أفسد كلّ ما حوله من حيث يدري ولا يدري.

وعندما ينظر من لا يؤمنون بحاكميّة الله الحقّ إلى مثل هذه الظواهر تطمس الماديّة أبصارهم وبصائرهم، فتقف عند مظاهر الأمور، ولا تتعدّاها إلى الحقائق الأوليّة التي وراءها، فتكرّس بذلك الانحرافَ عن طريق الحقّ، وتضلّ ولا تهتدي... ذلك أن العلم والفهم لا يكفيان للهدى. ولا بدّ من الأساس الذي يقوم عليه كلّ بناء، وهو أن يُستحَبَّ الهدى على العمى. وهذه ترجمة عمليّة للإيمان الحقّ بالله الحقّ.

والباحث عن الهدى يجده [لأن هذا البحث مِلاك الأمر، بل كلّ الأمر، فمن تلمّس الطريق مخلصًا صادقًا إلى الهدى فقد اهتدى إلى ما تؤهّله له قدرته ووسعه، وهو المطلوب منه، واستوجب ما كتب ربّنا على نفسه من الرحمة، لأنّه عرف الحقّ واتّجه إليه. ومن أسماء الله المجيب، وممّا

قضاه أن من تقرّب منه شبرًا تقرّب منه ذراعًا][1]... ضمانة أعطاها العليم المجيب لكلّ من يقصد وجهه، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ٥٢: طه.

تبلبلت عقول ثمود أمام التدهور الذي أصاب معظم جوانب الحياة، وعجزت عن تفسيره، فراحوا يُلقون اللوم على صالح، ويتبرّمون به وبمن معه، ويعتبرونهم شؤمًا عليهم، وسببًا فيما يحلّ بهم ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ ٤٧: النمل. ولكنّ النبيّ الرسول كان يملك الجواب ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ ٧: النمل[2]، فأحالهم على الله الحقّ الذي أعدّ لهم جزاء استكبارهم، وجحدهم بآياته، وتشاؤمهم برسوله وبمن معه من المؤمنين، وبرسالة الحقّ التي يحملونها.

وانتهى بهم الأمر إلى أن رمَوه بالمقولة الأزليّة الأبديّة للذين تَحسم الحواسّ أمورهم، وتفرض مُعطَياتها على عقولهم، قالوا: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٧٧: الأعراف، بل كانوا أوقح من ذلك، فقالوا: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ١٥٤: الشعراء، فآتاهم الله الناقة مبصرةً، وما يرسل بالآيات إلاّ تخويفًا. فلما رأَوا الناقة انبرى كهنتهم وأصحاب أوثانهم، وكانوا ذوي نفوذ، فقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ١٥٣: الشعراء[3].

ومن المطّرد في تاريخ البشريّة أن التيّارات الفكريّة والسلوكيّة، وإن كانت تتبلور على نطاق الجماعات، فهي تبدأ بشخص واحد، ويضيع هذا الشخص في العادة من ذاكرة التاريخ، ولكنّه

(١) من بحث «الحق المطلق» للكاتبة.

(٢) "اطيرنا بك" تعبير يعني اعتبار المخاطَب جالبًا للنحس والشؤم. ولما جاء الإسلام ألغى ذلك، واعتبر الطيرة سبيلاً إلى الشرك، وذلك في سياق تكريمه العقل.

(٣) وما زال العقل البشري، في بعض مستوياته، إلى يومنا هذا يتخلص من مآزقه بإلقاء اللوم على ما يدعوه بالسحر.

لا يضيع لدى من ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ٣: سبأ. **فإن كان الأمر أمر باطل، أو سنّة سيّئة كما قال سيّد الخلق، فصاحبها أشقى القوم، بل الأشقى مطلقًا، ويغلب أن يكون هذا الأشقى من ذوي النفوذ.**

ومن هنا كان ذوو النفوذ في وضع شديد الحساسيّة والخطورة، ولاسيّما ذوو النفوذ الدينيّ، حيث يتّبعهم الناس غالبًا، ويعتبرون أن الدين ما جاؤوا به، وبذلك يجرّونهم إلى الضلال ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ٣٤: التوبة، **وقد يجرّون جهلتهم إلى الشرك إذا اعتبروهم مصدر الأحكام** ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ٣١: التوبة. **وهذا قائم إلى اليوم.**

إنّا مرسلو الناقة فتنة

وصف الكتاب الحكيم الناقة بأنّها آية من الله إلى ثمود ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ ٦٤: هود، كما وصفها بأنّها آية مبصرة ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ ٥٩: الإسراء، وأنّها فتنة ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً﴾ ٢٧: القمر، وأنّها بيّنة من ربّهم ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ٧٣: الأعراف.

وأكثرهم على أن الناقة معجزة صالح، وممّا يحتجّ به القائلون بذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ ٧٣: الأعراف، حيث يرون أن البيّنة في الآية تعني المعجزة، وممّا يحتجّون به أيضًا قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ١٥٤ و١٥٥: الشعراء، حيث يرون أن القوم يريدون بالآية المعجزة[1]، وتكون الناقة على هذا قد ذُكرت في موضع التحدّي، وهذا من خصائص المعجزات. ويذهب بعضهم إلى أن الناقة أتت القوم بوصفها الذي طلبوا، ومن ذلك خروجها من الصخرة على النحو العجائبيّ الذي ألّفوا، وشربها من الماء ما ذكروا، ودرّها من اللبن ما وصفوا.

---

(١) والآية أعمّ من المعجزة فهي قد تكون معجزة للعقل أو تكون ممّا يدركه. وهذا انطلاقًا من مفهوم المعجزة الذي اعتمدنا. وانظر الباب الأول: المعجزة.

ناقة الله آية وليست معجزة

لم يكن الكلام مجّانيًّا في معجزة كما كان في ناقة صالح ﷺ. وليس في الكتاب الكريم ما يُلزم بمعظم ما قيل فيها، سواء في ذلك خروجها من الصخرة، وقصّة فصيلها، وما قيل عن لبنها، وشربها، وضخامتها، وإخافتها أنعام القوم، كلّ ذلك زيادات على ما جاء في النصّ، وربّما ممقوت.. وقد قال بهذا فريق من كبار المفسرين من القدماء والمحدثين.

وهناك فريق من المفسّرين أعرض عن هذه التفاصيل، واكتفى بالقول إن في ناقة الله شيئًا غير عاديّ، أو إن المعجزة في شُربها وحلبها[١]، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ ٢٧ و٢٨: القمر[٢]. والشطر الأوّل من هذه المقولة يختصر ما سوف نذهب إليه ويؤيّده، على ألاّ يُذهَب في الشرب والحلب إلى أنّهما من الخوارق.

ولا ينبغي لنا أن ننسى في هذا المقام أن عادًا، وهم أسلاف ثمود الأدنون، لم يأتهم نبيّهم هود بمعجزة، بل كان خطابه لهم حوارًا عقليّاً يوائم ما نذهب إليه من اعتبار الناقة تذكرة وموضوعًا للتفكّر والتدبّر بالنسبة إلى ثمود، ومعروف أن القومين في مرتبة واحدة من حيث التقدّم الفكريّ والحضاريّ، وأن ما يرجّح العلماء أنّه أخبارهما يتداخل، بل إن بعضهم يذهب إلى أن ثمود أكثر تقدّمًا ورُقيًّا.

وهناك أمران لعلّهما ممّا يؤنس في نفي المعجزة، أحدهما أن طلب المعجزة ذُكر مرّة واحدة في قصّة صالح مع قومه[٣]، فيما ذُكرت الناقة ستّ مرّات دون أن يُذكر طلبهم معها ظاهرًا أو مستترًا، والآخر ما جاء في الذكر الحكيم عن سبب إرسالها، حيث جاء مع ذكرها أن الآيات ترسل للتخويف حصرًا، كما نصّ صراحة على أنها فتنة للقوم. ولم يطّرد هذا في المعجزات.

---

(١) انظر الباب الأول: المعجزة.

(٢) يبدو المعنى للوهلة الأولى واحدًا في شطري الآية، بيد أن الشطر الأوّل يفيد أن الماء لهم وللناقة يتقاسمه الفريقان، فيما يفيد الشطر الثاني أنهما لا يجتمعان على الشرب.

(٣) واكتنف ذكر الناقة معه ما تقدّم من ملاحظات.

obeikandi.com

وتعليقًا على قول بعضهم إن الناقة أتت القوم بوصفها الذي طلبوا، وهو ما سبق ذكره، يُلاحظ أن ردّ صالح لا يفيد ذلك، فقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ١٥٥: الشعراء، بل يوحي أن القوم قد سألوه معجزة، فأشار إلى ناقة، وجعل لها وضعًا خاصًّا جعلهم في موضع الاختبار، وهو ألاّ يؤذوها، وألاّ يشربوا معها هم وأنعامهم يوم تشرب.

كما أن وصف الناقة بعبارة «ناقة الله»، وإن كان يفيد التعظيم، فلا يفيد أنّها معجزة، بل هو توكيد لحرمتها، وتخويف لهم من مسّها بسوء، ولعلّه إشارة إلى كونها دليلاً على ربوبيّة خالقها وكالئها، الذي يدعو صالح ثمودَ إلى عبادته ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ٧٣: الأعراف، وذلك من حيث أنّها تتعهّدها عنايته في كلّ شأنها، فلا تكلّفهم شيئًا قياسًا على أنعامهم التي يُعنَون بها ويقومون على رعيها وشربها وحمايتها، وتلك الناقة أضخم وأعظم وأكثر نفعًا لهم. وقريب من هذا قول أبي حيّان: «وفي هذا الكلام إشارة إلى أن هذه الناقة نعمة من الله، يُنال خيرها من غير مشقّةِ تكلُّفِ علف ولا طعمة. وهو شأن الإبل»[1].

وعدم ذكر الآية، التي طلبها قوم صالح في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ ١٥٤: الشعراء[2]، لا يصلح سببًا لوضع الناقة هذا الموضع، فما هي إلاّ واحدة من آيات أتتهم، ولم يُذكر تفصيل لها ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ٨١: الحجر. ثم إنّنا بعد هذا وذاك ليس علينا أن نبحث عن الآية التي طلبوا، إذ ليس حتمًا أن يكونوا قد أُجيبوا إلى طلبهم، فها هي ذي آية يرونها بينهم ويظلمون بها ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ ٥٩: الإسراء.

وجدير بالذكر أن صالحًا عليه السلام لم يذكر الناقة كدليل على كونه مرسَلاً من الله، رغم كلامه الطويل عنها، بل ذكرها على أنّها وسيلة للذكرى التي تحول بين المرء وبين الإفساد في الأرض. ناهيك بأن عقرها لم يُذكر في النصّ العظيم على أنّه تكذيب لصالح، بل على أنّه عُتوّ عن أمر الله، وظلم وتحدّ. وقد يبدو قوله تعالى ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ ١٤: الشمس، مخالفًا لهذا، ولكنّ النظر فيما قبله يدلّ على أن التكذيب هنا

---

(١) البحر المحيط تفسير الآية ٧٣ من سورة الأعراف.

(٢) وهي بهذا الطلب تأخذ صفة المعجزة.

إنّما يعني المخالفة.

وليس ثمّة ما يُلزم باعتبار الآية في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ ٦٤: هود، معجزة، وما كلّ آية معجزة، بل الأصل في الآية ألاّ تكون معجزة بالمفهوم السائد للمعجزة، وذلك لأن الآية علامة وأمارة أو دليل على أمر يستنتجه العقل بالتفكّر، ولا يتمّ للعقل هذا إذا كان أمام ما يُعجزه. ثم إن وصفها بالمبصرة، وبالبيّنة، والحثّ على المحافظة عليها ليتسنّى دوام النظر إليها، والتفكّر في شأنها[1] تكريس للتذكرة النافعة التي تدرأ الغفلة، وهذا يؤكّد معنى العلامة والأمارة والدليل في كلمة «آية»، وينأى بها عن المعجزة.

إن الناقة واحدة من آيات الله الناطقة بمطلق قدرته، وقد رأينا القرآن الكريم يلفت الأنظار إلى خلق الإبل في أكثر من موضع: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ١٧: الغاشية، ويذكر عظمة خلقها إلى جانب عظمة رفع السماء، ونصب الجبال، وسطح الأرض ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ١٨ - ٢٠: الغاشية. وقد أرسل الله الناقة إلى قوم لهم عقول قادرة على التمثّل والاعتبار ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ ٢٧: القمر.

وهناك احتمال يصعب التخلّص من إلحاحه، وهو أن تكون النوق غير مألوفة لورَثة عاد المترَفين، الذين لم يسكنوا الصحراء، ولم يحتكّوا بسفينتها، بل عُرف عنهم أنّهم كانوا يشتغلون بالنخيل[2]، والثموديّون من اليمن، وقد أجلاهم الحميَريّون إلى الشمال، فاستوطنوا الحِجر بين الحجاز والشام، وقيل على تخوم فلسطين، واطّرد ذكر المرتفعات والجبال والوديان في مواطنهم، وكلّ هذه الأمكنة لا حظّ للإبل كبيرًا فيه، حيث يرتبط وجودها واعتمادها بالصحراء وساكنيها من البدو.

ولا يعني هذا أن الثموديّين لا يعرفون الإبل، بل أنّها لم تكن من حيواناتهم المعتمدة، ولذلك لم تكن خصائصها وصفاتها مألوفة لديهم، وكان وجود ناقة غير مدجَّنة، على أفضل حالات النوق وأكملها، في منطقتهم ممّا هو جدير بإثارة

---

(١) من حيث كونها آية على عظيم قدرة الخالق والمدبّر.

(٢) جاء ذلك في نقش سبئيّ يعود إلى القرن الخامس ق. م نقلاً عن دراسات تاريخية من القرآن الكريم لمحمد بيومي مهران ١: ٢٧٠.

فضولهم، ولفت أنظارهم إلى عظيم قدرة الله في خلقه، من حيث القصد والإحكام والعناية والحفظ، وتؤنس في هذا الروايات التي تذكر أن مواشيهم كانت تنفر منها، ولا تجاورها. ومن هنا كانت تلك الناقة ممّا يجذب الأنظار، وتبرز لدى معاينته وتعرّفه قدرة الله التي تدعو إلى الإيمان به.

* * *

يئس الثموديّون من إقناع صالح بشيءٍ من أفكارهم، ووقفوا عاجزين أمام الناقة التي أنذرهم غضب الله إن مسوها بسوء، وقد قوّى هذا صالحًا، فبدا أكثر طلاقة وبيانًا، وراح يُطنب في الكلام ويشقّقه، ويحصد مزيدًا من الأدلّة من واقع الحال الذي لا يملكون إنكاره. فلم يكن منهم إلاّ أن تحوّلوا عنه بوجوههم مفلِسين، باحثين عن ميدان آخر لقِراعه. وألقوا بآخر ما عندهم ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ ٧٥ و٧٦: الأعراف. وهذا نسق ينضح بالإفلاس والعناد والعبث، ويفضي إلى خبط عشواء مُحمِقة.

فكذّبوه فعقروها

ولبثت الناقة في ثمود على ما قال لهم نبيّهم تأكل في أرض الله... لها شرب، ولهم شرب يوم معلوم، فكانت تشاطرهم الماء، وتشاطر أنعامهم المرعى. ولكنّهم لم يلبثوا أن برِموا بها، وأرادوا التخلّص منها، وما كان يمنعها منهم إلاّ خوفهم عاقبة قتلها. وظلّت الحال على هذا إلى أن انبعث أشقاهم فعقرها.

وتعدّدت الروايات حول عقر الناقة، ولا يثبت شيء منها للتحقيق، ومن ذلك قصّة قُدار، وقصّة عن امرأتين متنفّذتين في القوم لهما مصلحة في التخلّص من الناقة والنبيّ معًا. أمّا ما جاء في الكتاب العزيز فقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ ١٤: الشمس، وقوله: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ ٢٩: القمر، وقوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾ ١٥٧: الشعراء وفي كلّ ذلك يُضرِب النصّ القرآنيّ، شأنه دائمًا، عن التفاصيل التي لا تشكّل

obeikandl.com

عصب الفكرة، ويُجمِل الكلام عن القاتل وقومه، ويُلقي المسؤوليّة على المجتمع كلّه، ولا يذكر القاتل إلاّ كأداة تنفيذ. فالقوم نادوا عاقر الناقة داعين إيّاه إلى ارتكابِ فعلته، وهو صاحبهم. وهذا طبعًا ليس على الحقيقة، إذ لا يمكن أن يكون هذا الفاتك صاحب الجميع، ولكنّ التعبير بهذا الشكل يشي بأنّهم كلّهم، أو سوادهم الأعظم، قد وافقوه على فَعلته، وباركوها، كما يبارك الصاحبُ فعلَ صاحبه الذي كان قد دعاه إليه. وكما كان الوزر وزر الجميع، فكذلك كان العقاب عقابًا للجميع: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ ١٤: الشمس. والمشارِك في الجريمة كالقائم بها، ذلك أن المشاركة من أسباب تغليظ الجريمة.

وتستوقفنا كلمة «تعاطى» في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ ٢٩: القمر، ويلفتنا أن كثيرًا من المفسّرين لم يقِفوا عندها الوقفة التي تستحقّ، فهي من الكلمات القرآنيّة المشحونة بالدلالات بحيث تكون فريدة في صلاحيتها لمكانها من السياق. وممّا عُبِّئت به كلمة «تعاطى» ما أفادته صيغة «تفاعَل» من أن القاتل كان في جماعة من الرعاع يتساقَون الخمر في مجلس، وأنّه عقر الناقة إثر مغادرته مجلس الشراب، أي وهو في سُكره، يقوي ذلك العطفُ بالفاء، ومثل هذه الواقعة تلقي ضوءًا على شريحة اجتماعيّة دنيئة، يستخدمها من يريدون القيام بأعمال خسيسة. فقد فعل عاقر الناقة ما فعل بمباركة قومه، أو تواطئهم، أو تشجيعهم[(١)].

وكما لم يقصّر الرواة في وصف الناقة، وتصوير خروجها من الصخرة، وشربها، وحلبها، لم يقصّروا كذلك في وصف عمليّة العقر، فجاؤوا بتفاصيل تنطق بالوضع الساذج، ويدعو تداولها وإثباتها، ولاسيّما في كتب التفسير، إلى الدهشة.

المؤامرة

عقرت ثمود الناقة، وأنذرهم صالح عذابًا يحلّ بهم بعد ثلاثة أيّام، فائتمر به القوم، وخصّ منهم الذكر الحكيم تسعة رهط من المفسدين، ليقتلوه ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ

(١) من بحث «الكلمة وأخواتها في القرآن الكريم» لصاحب القصص.

لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ ٤٨ و٤٩: النمل. وفي رواية أنّهم قالوا: «إن كان صادقًا كنّا قد عاجلناه قبل أن يعاجلنا، وإن كان كاذبًا كنّا قد ألحقناه بناقته»[١]. لقد قرّر هؤلاء أن يحسموا الأمر، وأن يقطعوا دابره بقتل صالح غِيلةً، ثم التنصُّل من ذلك بالكذب.

ينهى الإسلام عن الاغتيال، ويعتبره خلقًا لا يليق بالكريم. بل إن الحرب الإسلاميّة لا تقرّ مبدأ المباغتة في الإغارة على العدوّ في داره. وهذا يختلف عن الأحداث التي تقع في أثناء المعركة، كأن يفاجئ الجيش عدوًّا يكمن له في مكان ما، أو يفاجئه في إحدى جولات المعركة، فذلك مشروع، ويدخل في نطاق كون الحرب خدعة.

ومن الخُدع الخاصّة بالحرب أن يتمّ اغتيال بعض رجالات العدوّ، الذين يشكّلون قوّة له، أو خطرًا معيّنًا ينبغي إزاحته، وذلك كما اغتال المسلمون ابن الأشرف وابن أبي الحُقيق بعد أن خرق بنو النضير الهُدنة، وراح هذان يديران حربًا ضدّ المسلمين على أكثر من صعيد.

وهناك أكثر من رواية تنطق بأنّها موضوعة لتفسير الآية، ومن ذلك ما أورده الرازيّ في تفسيرها: «روي أنّه كان لصالح ﷺ مسجد في الحِجر، في شِعب، يصلّي فيه. فقالوا: زعم صالح أنّه يفرغ منّا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه، ومن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشِعب. وقالوا: إذا جاء يصلّي قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم. فبعث الله تعالى صخرة، فطبقت الصخرة عليهم فم الشِعب فهلكوا، وهلك الباقون بالصيحة»[٢].

---

(١) مروج الذهب ٢: ١٧.

(٢) التفسير الكبير ٨: ٥٦١.

ومن الروايات أنّه كانت في ثمود امرأتان ذواتا نفوذ ومال تُناصبان صالحًا العداء، وقد قيل إنّهما ممّن كانوا وراء عقر الناقة. وليس ببعيد أن تكون إحدى هاتين المرأتين، أو كلتاهما، قد شجّعت على قتله. فقد كان صالح عليه السلام جميلاً حسيبًا وجيهًا، ولعلّهما حاولتا استمالته، فصدّهما، فكادتا له[1]، واستخدمتا لقتله تلك الشرذِمة المفسدة، التي تتربّص في قاع كلّ مجتمع لتكون وسيلة ذوي النفوس المريضة، إلى تحقيق غاياتهم.

ونجّى الله صالحًا، وخرج فيمن معه، من بين ظهرانيهم، إلى فلسطين[2]. وأبطل الله مكر المسرفين المفسدين في الأرض: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٥٠: النمل ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٥: الأنعام.

العذاب القريب

كذّبت ثمود صالحًا، وعقروا الناقة التي أرسلها الله الحقّ آية مبيّنة، فأنذرهم عذابًا محقّقًا يحلّ بهم بعد ثلاثة أيّام، فما زادهم ذلك إلاّ إصررًا على نكران الحقّ وجحوده، حتى إن بعضهم أمعنوا في السخريّة، فحملوا سلاحهم وخرجوا إلى الطريق كي يقاوموا العذاب. فسلّط الله عليهم حرًّا شوى جلودهم.

وتواترت نذُر العذاب في الأنفس والأرض، وسيطر الهلع على الناس. ولكنّهم رغم ذلك لم يكفُّوا عن الكفر والعصيان، كما فعلت عاد من قبل، وكانت الأمّتان شديدتي التشابه، وكذلك كان مصيراهما ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ٥ و٦: الحاقّة، ومن هنا اقترن اسماهما، فلا تكاد تُذكر إحداهما حتّى تُذكر الأخرى.

ونقرأ في الكتاب المبين عن عذاب ثمود، فقد عُذّبوا بالصيحة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ

---

(١) وهذا يستدعي إلى الأذهان موقف زليخة وسالومي من يوسف ويحيى عليهما السلام. فكلتا المرأتين راودت النبي عن نفسه، فأبى، فكادت له، فأما زليخة فأودعت يوسف السجن سنين، وأما سالومي، فانتهى بها الأمر إلى قتل يحيى عليه السلام.

(٢) في تاريخ الملك الآشوري سرجون الثاني أنه نفاهم فيمن نفى إلى السامرة.

مُصۡبِحِينَ﴾ ٨٣: الحجر، وأُخذ بها من كانوا في الغرَف المنحوتة في الجبال، وبالصواعق ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ ١٣: فصلت، وأُخذ بها من كانوا في العَراء، وبالزلازل ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ ٧٨: الأعراف، وأُخذ بها من في القصور التي في السهول، وكان قبل ذلك عذاب عظيم استمرّ ثلاثة أيام. فهي عذابات مختلفة، ذكر كلّ عذاب منها في مكان، فكان جزءًا من الصورة الكليّة لمجمل ما لاقوا، بسبب تنكُّرهم للحقّ، وتحدّيهم إيّاه، وتصدّيهم لمخالفته ومعاندته.

*

وهناك من ربط عذاب الثموديّين بكونهم قد نحتوا الجبال بيوتًا، ونحتوا من الجبال بيوتًا. وفيه تمحّل غير مسؤول، ذلك أنّه يعني الإخلال بالتوازن بين الذنب والعقاب، وهذا يخالف ما تقوم عليه الأمور من القصد والإحكام والعدل.

ينهى الإسلام عن التطاول في البناء والمغالاة فيه، وقد ذهب بعضهم إلى أن تطاول العاديّين في البناء كان السبب في تدميرهم، ويحتجّون لرأيهم بأحاديث لرسول الله ﷺ منها: «إذا بنى الرجل المسلم سبعة أو تسعة أذرع ناداه مناد من السماء: أين تذهب يا أفسق الفاسقين». ومنها: «من بنى فوق ما يكفيه كلِّف يوم القيامة بحمله على عاتقه»[1]، وتلك شؤون غير ثابتة ولا محدَّدة، ولا بدّ فيها من إعمال النظر. فمفهوم الكفاية مفهوم متغيّر تبعًا للشأن العام.

وتتّضح السمة المرحليّة في مثل هذه الأمور لدى النظر في ارتباط تلك الأحاديث بالبيئة، فقد كانت عامّة بيوت مدينة رسول الله ﷺ عُرُشًا من جريد، وهو ما فرضته البيئة الطبيعيّة والوضعيّة الاقتصاديّة، وتعارفه الناس. وكان رسول الله مراعيًا لهذا في حديثه، كما كان مراعيًا له عندما أقام المسلمون مسجد المدينة، وأرادوا سقفه فقال: الشأن أعجل من ذلك، وأمرهم أن يسقفوه بالجريد، فإذا تغيّر الظرف بقي من الحديثين روح الفكرة، وهو الاعتدال، وعدم اتّخاذ البناء وسيلة للتفاخر والتميّز، وبرز ذكر الآطام والحصون[2]، وفضلاً عن هذا فالحديثان ضعيفان.

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة تخريج الألباني الحديثان ١٧٤ و١٧٥.

(٢) معروف ما كان من دور للآطام والحصون في غزوة الأحزاب.

وفي المقابل هناك من اعتبر التطاول بالبناء من الزينة المباحة لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ ٣٢: الأعراف، والبيت الفخم والملابس الجميلة والمركب الهانئ من الزينة، لما جاء في الحديث: «من سعادة المرء الجار الصالح والمركب الهنيء والمسكن الواسع»[1].

ولا يمنع الإسلامُ أن يكون عندنا، كدولة إسلاميّة، بناء لائق في العرف العالميّ العامّ، ذلك أن قنوات الاتّصال بين الدول والشعوب أصبحت مفتوحةً، ممّا يتطلّب أن تكون لدينا، بما لا يمسّ الأصول، لغة مفهومة نعبّر بها عن أنفسنا للآخرين، واللغة القابلة لذلك هي لغة تفرضها دائمًا الأمّة أو الأمم الأقوى، وهو قانون حقّ ممّا يحكم شؤون هذا الوجود.

أمّا القول بأنّنا قوم أعزّهم الله بالإسلام، وأن علينا أن نفرض سَمتنا على العالم، لا أن نستعير سَمت الآخرين، فهو قول لا يخصّنا اليوم كأمّة. ذلك أنّنا بُعدنا عن العزّة والإسلام معًا، وبعدنا بالتالي عن موضع القيادة. وعلينا أن ندرك هذا الواقع، على أن نحتفظ في داخلنا بالإيمان بهوّيّتنا الإسلاميّة، ونُذكي العزم على إغنائها وصقلها على علم وهدًى، لكي يتسنّى لنا أن نصبح من جديد الأمّة التي تفرض مفردات حضارتها على غيرها. أمّا التشنج، ورفض الواقع، فهو قطع للأمّة عن ينابيع التقدّم، وعزل لها عن بؤر الحضارة، وتكريس لواقعها الذي لا بدّ من تغييره.

ومن ثم فإن حمل الناس على هذا الرأي أو ذاك في أمر البنيان قد لا يكون من الصواب، ذلك أن لكلّ فرد في المجتمع مقامه وحاجته ومهمّته وحُجّته، وأنّهم أولى وأدرى بشؤون دنياهم. والله أعلم.

تابت ثمود في نهاية المطاف... تابت وهي تهلك... تابت بين يدي الصاعقة والصيحة والزلزلة، كما سوف يتوب فِرعَون وهو يغرق...

---

(١) مسند أحمد: ١٥٤٠٩.

آلآن وقد عصوا من قبل!!!

لقد استؤصلوا جميعًا، فكانت الصاعقة تلاحق أهل القصور الفخمة، والصيحة تصرع من في الكهوف، والزلازل تخسف الأرض بمن في السهول والحقول.

وقبل أن تقوم قيامتهم، وكان صالح قد استيأس فتولّى عنهم، وناداهم كمن يضع خاتمة لجهاده المرير في دعوتهم إلى الله: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ٧٩: الأعراف. ومضى صالح ومن معه، فقد شاء الله ألاّ يشهدوا مهلك قومهم، وأن يكونوا من الناجين.

* * *

obeikandl.com

الفصل السادس

إبراهيم

عليه السلام

عليك السلام يا خليل الحقّ...

شهادة ما أُعطيت حقّها من النظر... شهادة استحقاق لصاحب أعظم المقولات أثرًا في تاريخ اللسان البشريّ: بلى. ولكن ليطمئنّ قلبي...

السلام عليك يا صاحب التساؤلات والمغامرات والتجارب...

السلام عليك يامن جبت المعمور ممّا حولك تبحث عن الوادي غير ذي الزرع الذي ينتظر زرعك ليُخرج للإنسانيّة محمّدًا والإسلام.

* * *

لبثت الرسالات من آدم إلى نوح في العراق، ثم كانت رسالة صالح في شمال شبه الجزيرة العربيّة، ورسالة هود في جنوبها. ثم عادت الرسالات إلى العراق برسالة إبراهيم عليه السلام.

وللعراق خصوصيّة عجيبة في تاريخ الحضارات، فأرض العراق مهد كلّ حضارات الأرض وعلومها. والعقل العراقيّ الحيّ كان وعاء لجلّ الرسالات السماويّة، تنشأ فيه، ثم تنطلق لتترعرع في الآهل من المعمورة، كالشام ووادي النيل. وفي العصر العباسيّ استقطبت بغداد والكوفة والبَصرة العلوم والفنون والمعارف التي توصّل إليها العقل الإنسانيّ، تحت مظلّة الإسلام، وأطلقتها في كلّ اتّجاه، إلى سائر أرجاء الأرض، فقامت على أسسها الحضارة المهيمنة على العالم اليوم.

obeikandl.com

وقد جعلت تلك الحيويّة الشعب العراقيّ صعب الانقياد والانضباط، نادر الولاء، ومن هنا كثر فيه الشغب والقلاقل. وما يزال العراق، رغم الظروف القاهرة التي تعاقبت عليه، يمدّ العالم بالمبدعين في كلّ مجالات العلوم والفنون والمهارات. وقد فطن إلى ذلك الكثير من قادة الأمم، التي تتطلّع إلى السيطرة على الأرض، حتى قيل: إن على من أراد أن يحكم العالم أن يملك الشرق الأوسط، وعلى من أراد أن يملك الشرق الأوسط أن يملك العراق.

ويُرجع أكثر المصادر مصداقيّةً نسب إبراهيم إلى العرب العاربة، وتقول الروايات إنّه، عليه السلام، ولد في مدينة أُور في منطقة بابِل[١]. ومنها هاجر إلى حَرّان في الشمال، ثم أمضى عمره متنقّلاً بين بلاد الشام ومصر ومكّة. وقد تواضع أكثر الباحثين على أن عصره كان في مُحيط القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

وممّا يطّرد في أكثر من واحدة من قصص الأنبياء، ولاسيّما قصتا موسى وعيسى، عليهما السلام، أن ملكًا ظالمًا يرى رؤيا ترعبه، فيفسّرها له كهنته بأنّه سيولد في مملكته مولود يقضي عليه، أو يقضي على نفوذه. فيأخذ الملك في تحرّي المواليد في شعبه، ليقتل غريمه في مهده، ولكنّ الغريم النبيّ، أو الصدّيق، يُفلت منه رَغم أنفه، ليَتمّ أمر الله[٢].

وفي نسخة سيّدنا إبراهيم من تلك الرواية، أنّه كان يحكم مدينة أُور ملك ظالم متألّه يُدعى النمرود[٣]، وأنّه رأى في منامه طائرًا قد حجب الشمس، فقال له كهنته: سيولد في مملكتك طفل تكون على يديه نهاية ملكك. فطفق يتعقّب كلّ حامل في شعبه، ليتخلّص من غريمه في الوقت المناسب. ولكنّ زبانية النمرود يعجِزون عن

(١) وهذا يعني أن أور في جنوب عراق اليوم، ومنهم من يجعلها من مجاورات حَرّان في إقليم العراق الأعلى. [محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١ : ١٢٣].

(٢) تتكرر الحكاية في قصتي موسى وعيسى، عليهما السلام، مع بعض الخلاف في التفاصيل.

(٣) ولم يعرف حاكم في المنطقة بهذا الاسم، وإنما هو اسم توراتيّ يرتبط بالبطش والظلم والجبروت [سفر التكوين: ١٠]، ألصق بتلك الشخصية التي ابتدعها الرواة للملك المفترض. ولعل كلمة نمرود ليست علَمًا، بل لقبًا قصد منه دلالته، كما يلمح من الخبر التوراتي، ولم يلبث أن اكتسب حضورًا واضحًا في الروايات، ومن ثم في التفاسير فاعتُبر علَمًا.

اكتشاف حمل أمّ إبراهيم، كما تنجح هي في التخفّي والتمويه، إلى أن تضع وليدها، وتخفيه في مغارة في ظاهر المدينة. وتزعم الروايات أنّه قد مضى عام، بدا الطفل إبراهيم في نهايته كما لو كان في الثالثة من عمره، ممّا جعله يخدع عيون الملك التي تتحرّى أترابه. وهنا أظهره أبواه، واستأنف حياته بينهما. وتُفيض الروايات، على نحو بدائيّ وساذج، في تصوير تلك الأحداث.

وتغيم الرؤية أمام الباحث فيما يتعلّق بنشأة أبي الأنبياء الأسريّة، ولعلّ العقّاد كان مصيبًا في استنتاجه أنه قد نشأ في أسرة ذات دين، فاسمه يعني حبيب الربّ، وله عمّ، دعاه الذكر الحكيم بأبيه آزر[١]، كان يمتهن صناعة التماثيل لمعبودات القوم، وقد عاش إبراهيم في كنفه بعد موت أبيه[٢]، أو لعلّ آزر قد اتّخذ من الصبيّ معاونًا له في حياة أبيه[٣]، فكان يعهد إليه بتسويق بضاعته، وإيصالها إلى مشتريها.

وقد وصلت تلك الأجواء إبراهيمَ منذ نعومة أظفاره بالكلام في معتقدات قومه ومعبوداتهم، وما إلى ذلك من موضوعات، فيها الكثير من الرياضة الفكريّة، الأمر الذي زوّده بمادة للتفكير عالجها برشده المبكّر، وبنى عليها مواقف عمليّة، فكانت ذات أثر واضح فيما تلا من أحداث حياته كلّها.

هكذا أعدّ الله الحقّ إبراهيم، ليستخلص الروح الحقيقيّ لحضارة رشيدة، تقوم في أعماقها على بقايا من رسالات السماء المُضاعة، تلك الحضارة التي نمته فتًى، ونمت به عندما اضطلع بالتبليغ من لدُن حكيم عليم، فكانت قِبلة وأسًّا لكلّ حضارة على هذه الأرض. كما كان إبراهيم للناس إمامًا.

---

(١) وظاهر النص القرآني على أن آزر أبوه، وقد أخذ بهذا كثير من المفسرين، وأتوا عليه بحججهم، وأخذ آخرون بالرواية التوراتية القائلة إن أبا إبراهيم هو تارح، وقالوا إن آزر المذكور عم له، ذلك أن كلمة الأب في كلام العرب تشمل الأب الوالد وإخوته ومن فوقهم.

(٢) على رواية من قال إن أبا إبراهيم قد مات قبل أن يبلغ أشده، وأنه هو الذي استغفر له بعد بناء البيت بقوله: "ربنا اغفر لي ولوالدي" ٤١: إبراهيم. أما آزر المذكور، فقد وعده بالاستغفار" قال: "سلام عليك سأستغفر لك ربي" ٤٧: مريم، ولعله استغفر له برًا بوعده، ثم لم يلبث أن تبرأ منه لمّا تبين له أنه عدو لله. ذلك أنه: "ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبيّن لهم أنهم أصحاب النار" ١١٣: التوبة.

(٣) على رواية من قال إن أبا إبراهيم قد هاجر معه إلى حَرّان بعد المحرقة.

obeikandi.com

إني جاعلك للنّاس إمامًا

جعل الله إبراهيم للناس إمامًا، وهيّأ له حياة غنيّة بالتجارب الإنسانيّة، لتكون نماذج حيّة، يحتذيها كلّ من يوجّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا مسلمًا، وهذا معنى عالميّة دعوته عليه السلام. لقد كان إبراهيم إمامًا في كلّ دقيقة من دقائق حياته، يسجّل للناس قواعد خالدة في معاشهم ومعادهم، يفيئون إليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأتمّ إبراهيم كلمات ربّه ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ١٢٤: البقرة... وكان ابتلاءً، ونجح إبراهيم في الابتلاء أيّما نجاح، إذ اعتنق من أعماقه ما قدّره الله الحقّ، حتى غدا غاية رغبته وموضوع دعائه ورجائه ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ١٢٦: البقرة. لقد سبقت كلمة الله، فعهدُ الله لمن هو جدير به من المؤمنين، ولا اعتبار في ذلك لنسب أو لغيره، ولذلك استثنى إبراهيم من دعائه أولئك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، بما فيهم ذريّته، في إشارة إلى أن فيهم الظالمين الذين قضى الله ألاّ ينالهم عهدُه بالإمامة.

والآن نرى أن الله الحقّ هو الذي يُتمّ كلمات خليله إبراهيم الذي وفّى، في تصديق ورضًا ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ ١٢٦: البقرة، وبمقتضى هذا الوعد فإنّه ما من كافر في هذا البلد إلاّ يمتّع، في حين أن الكافر في سائر الأرض يمتّع أو لا يمتّع تبعًا لما كسب.

هبة إلهيّة من الله الحقّ لأبي الأنبياء، فكأنّها المكافأة أو الترضية، تمامًا كما كانت النجاة من النار، وكما كان الفداء بالذبح العظيم. حتى إنّه ليقع في رُوعي أن ما يتمتّع به الظلَمة من هذه الأمّة إنّما هو لذلك الوعد الحقّ. وقد زاد الله أبا الأنبياء فجعل من ذرّيّته سيّد خلقه وخاتم أنبيائه ورسله، وجعله للعالمين رسولاً... عالميّة ما كانت بهذا الزخم إلاّ لإبراهيم ومحمّد من دون المصطفَين من الأنبياء والمرسلين.

ولأن رسالة إبراهيم عالميّة كانت قاعدةً وأصلاً للرسالة الكاملة، رسالة محمّد ﷺ، وقد احتفى بها القرآن العظيم كما لم يحتف برسالة أخرى، وحكم على من

رغب عن ملّة صاحبها بالسفَه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ ١٣٠: البقرة[١]، ذلك أن ما جاء به إبراهيم، هو ما شرعه الله من الدين للبشر، فمن رغب عنه فقد رغب عن شرع الله الحقّ، فسفِه نفسه.

ولقد اصطفيناه في الدنيا

والاصطفاء هو اختيار الأفضل في شأن معيّن، وتكريسه له، فهو أشبه بإعلان التفوّق والاستحقاق المحض. وأن يُسنَد الاصطفاء إلى الله فمعناه أن المصطفى فريد في بابه، فقد يصطفي الله إنسانًا في الدنيا لأمر ما، بمعنى يختاره له، فيُبلي فيه بلاء منقطع النظير، كأن يصطفي ملكًا ليقوم بدور إصلاحيّ، في نقطة ما من الزمان والمكان في هذا الوجود، فيكون بعضًا من نظامه المُحكَم المتكامل حيث ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ ٤٩: القمر، أو يصطفي مخترعًا، فيكون بدعًا في بابه، أو تاجرًا، فيكون غاية تتقطّع دونها الهمم في كلّ ما يتعلّق بالتجارة.

ونقرأ عن هذا الاصطفاء في صحف إبراهيم ﷺ، وهي التي وصفها الكتاب الحكيم بالأولى[٢]: «أيّها الملك المُسلَّط... إنّي لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكنّي بعثتك لتردّ عنّي دعوة المظلوم...»[٣]. وهذا ممّا يصطفي الله له الملوك، يصدق على المؤمن كما يصدق على الكافر، فالدنيا ملأى بالمصلحين والمتفوّقين، الذين يقتصر صلاحهم على هذا الوجود الماديّ، وليسوا بالضرورة من أهل الفوز المطلق، أي من أهل الجنّة، أي ليس صلاحهم من النوع الكامل الممتدّ على مُجمل كينونتهم.

أمّا إبراهيم ﷺ، فقد اصطفاه الله الحقّ في الدنيا، دون تحديد لموضوع الاصطفاء، فهو يشمل كلّ ما يتعلّق بوجوده الدنيويّ، ومن هنا كان إبراهيم للناس إمامًا. وإضافة إلى اصطفائه في الدنيا فإنّه . ﴿فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ١٣٠: البقرة[٤]،

---

(١) الدين التوحيد: لا إله إلا الله، وهو الإسلام. والشريعة الأحكام، افعل ولا تفعل. فإذا اجتمع الدين والشريعة فهما الملة.

(٢) في قوله عز وجل: "إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى" ١٨ و١٩: الغاشية.

(٣) صحيح ابن حبان ٢: ٧٨ .

(٤) والصالحون مصطفون حكمًا.

وهذا اصطفاء آخر، يشمل كلّ ما يتعلّق بوجوده الأخرويّ. فإبراهيم إذًا مصطفًى لما يخصّ مجمل كينونته، أي أنّه مصطفًى اصطفاءً مطلقًا، أو كاملاً. وهذا الاصطفاء هو الذي يؤدّي إلى الاصطناع، كما في قوله تعالى ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ ٤١: طه.

واتخذ الله إبراهيم خليلاً

وإبراهيم في التوراة حبيب الربّ، وهو في القرآن خليل الله، خالّ الحقَّ فاتخذه الله الحقُّ خليلاً... شهادة ما أُعطيت حقّها من النظر، ذلك أنّها شهادة استحقاق من الله لإبراهيم الذي وفّى... الذات الرفيعة القدرات صاحبة أعظم المقولات أثرًا في تاريخ اللسان البشريّ: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ ٢٦٠: البقرة... ولقد اطمأنّ قلب إبراهيم عن علم، واهتدى عن يقين، وصدّق بذلك وعمل به، فلم يَكذب فعلُه قلبَه أبدًا، كائنة ما كانت المرامي التي رمى به إليها هذا اليقين...

فلم يكذب إبراهيمُ قلبَه المطمئنّ عندما يئس من أبيه وقومه أن يؤمنوا، فترك أرض أجداده، ومستقَرّه بين أهله وعشيرته، ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ ٩٩: الصافات، وارتحل يبتغي قلوبًا يعنيها الحقّ، وينشد آذانًا واعية. وكانت بداية ترحُّل دام العمر كلّه، جاب فيه بلاد الشام شبرًا شبرًا، وشدّ الرحال إلى وادي النيل، عسى أن يجد فيه ما لم يجده فيما جاب من أرضين، وعبر الصحارى، وسكن وشطر أهله وولده في وادٍ غير زرع خلال جبال الحجاز حيث دعا إلى الحنيفيّة السمحة، ورفع قواعد أوّل بيت وضع للناس، وأذّن في الناس... كلّ الناس بالحجّ. ومن يدري ما جابه من الأرضين التي محاها كتبة التوراة من سيرته لغايات في نفوسهم؟

ولم يكذب إبراهيمُ قلبَه المطمئنّ عندما هتف به هاتف الحقّ أن يتوجّه بدعوته إلى ذلك المتسلّط المتألّه ذي البطش الأعمى، فراح يحاجّه، ويحارب نظامه العَقَديّ الفاسد، الذي تفرضه أجهزة دولته على الناس، حتى انتهى به الأمر إلى المحرقة.

ولم يكذب إبراهيمُ قلبَه المطمئنّ عندما ركب الصعب، وأبى الرخصة، ليكون موقفه أقوى وأجدى أمام كيد زبانية الفساد وحاملي رايته، فرفض، والنار تُسعّر به على أعين الناس، أن يتراجع ويخضع ويذلّ لحزب الباطل[1].

---

(١) ففي الروايات أنه جاءه جبريل فقال: يا إبراهيم هل لك حاجة؟ قال: أما إليك فلا؟ قال: فاسأل ربك. قال: حسبي عن سؤالي علمه بحالي. انظر التفسير الكبير. تفسير الآية ٦٨ من سورة الأنبياء.

ولم يكذب النبيُّ العجوز قلبَه المطمئنّ عندما أجلبت عليه رؤاه المُلهِمة بخيلها ورجِلها، ورؤى الأنبياء وحيٌ، تختبر مكانة الله الحقّ منه. وكان في الكفّة الثانية من الميزان بكره ووحيده، الذي وهبه الله إيّاه على الكبَر، الفتى إسماعيل، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ ١٠٢: الصافات.

ولم يكذب إبراهيمُ قلبَه المطمئنّ عندما كان إمامًا للناس في الضيافة، فأرهقته وأجهدته وأفقرته، وهو الواسع الثراء، الذي لم تتّسع الأرض لأملاكه وأملاك ابن أخيه لوط[١].

إن إبراهيم لحليم أواهٌ منيب

عُرف إبراهيم بكثرة تأوّهه روعةً وإخباتًا لله، ورقّةً وإشفاقًا على عباد الله... يتأوّه ألمًا لخَطْرة تُجاوِز الحقّ، أو فرَقًا من الوقوع في إثم، أو إشفاقًا من موقف، أو إجلالاً لعظمة الله في خلقه. والوقوف أمام جلال الحقّ وعظمته موجع مجهد، ينتزع التأوّه والأنين مهما حاول المؤمن الاستمساك. ولا يكون التأوّه الإبراهيميّ هذا إلاّ من قلب يرزح تحت وطأة اليقين، وينوء بجلاله، حتى يُسحق لولا أن تداركه رحمة من ربّه.

ولكن كان حنيفًا مسلمًا

والحنَف ميل القدمين إلى الداخل، ونقل أبو حيّان عن الزجّاج «الحنيف المائل عمّا عليه العامّة»[٢]. فالحنيف ينصرف إلى ما في داخله من الحقّ، فكأنّه يغلق ذاته عليه في مواجهة ما يحيط به من الباطل. وللحنيف حدّان تقتصر حركته على ما بينهما: حدّ أعلى لا يتجاوزه ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ ٢٢٩: البقرة، وحدّ أدنى لا يقربه ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ ١٨٧: البقرة. وهما حدّان واضحان بيّنان، لم يدَع الله ذا عقل سليم في لَبْس منهما: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ ٢٣٠: البقرة. والمؤمن حرّ فيما بين هذين الحدّين، يصيب ويخطئ.

---

(١) قدم إبراهيم من حَرّان إلى الشام بالكثير الكثير من الأنعام والخيل والأنفس، ونما ذلك وعظم حتى ضاقت به الأرض، وفي التوراة: "وكان أبرام غنيًا جدًا في المواشي والفضة والذهب" [سفر التكوين: ١٣].

(٢) البحر المحيط تفسير الآية ١٣٥ من سورة البقرة.

والأمّة الحنيفة هي المستقيمة فيما بين حدّي شرعها الأعلى والأدنى. ومن هنا كان في الأحكام الشرعيّة في الإسلام بدائل، كلّها فيما بين هذين الحدّين. فمن طبيعة هذا الدين أن فيه سعة، والثابت الوحيد فيه «لا إله إلا الله». وأن تفرض على الآخرين رأيًا معيّنًا ممّا بين الحدّين فهو العنَت، والإصْر الذي رفعه الله عن هذه الأمّة.

لقد جاء إبراهيم بالحنيفيّة السمحة التي تصلح للناس كافّة، والتي تلخّص ما جاء به الرسل بالاستقامة والوسطيّة، التي لا تتعدّى حدود الله الحقّ بإفراط أو تفريط. ومن هنا كان إبراهيم حنيفًا. والحنيف مسلم إلى الله الحقّ حكمًا، ولذلك تلازمت الصفتان في إبراهيم، وفي دين محمّد ﷺ.

*

ومن الملاحظ أن ذكر إبراهيم في الكتاب العظيم يرتبط بذكر نوح عليه السلام، في أكثر من آية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ٢٦: الحديد، ومنها كذلك ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ ٨٤: الأنعام.

* * *

الدعوة الإبراهيميّة في العراق

يتّسم القَصص القرآنيّ بأنّه لا يراعي التسلسل الزمنيّ للأحداث، إلاّ أن يخدم ذلك الغرضَ الذي سيقت له القصّة، فهو يأتي بالأحداث بغضّ النظر عن زمان وقوعها، وذلك لمصلحة الفكرة التي يريد إبرازها[1]. ومن هنا تتداخل مراحل الدعوة الإبراهيميّة في نصوص الكتاب العظيم، ونقع على كثير من الخلاف بين المفسّرين في تحديد مرحلة كلّ واحد من المواقف، التي وثّقها الكتاب العزيز من حياة أبي

---

(١) انظر الباب الأول: طبيعة القصص القرآني وأبرز أشكاله.

الأنبياء، فقد نجد خطابين متجاورين، يرجع أحدهما إلى فتوّة إبراهيم، في حين يبدو بوضوح أن الآخر خطاب نبيّ موحًى إليه.

ولكنّ بعض الأحداث تحمل هوّيّاتها، فهي واضحة النسبة إلى مراحل معيّنة، ومن ذلك بعض خطاب إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر، فإن منه ما كان قبل أن يغادره، وقبل أن يبلِّغ رسالة ربّه، ومنه كذلك حادثة تكسير الأصنام، حيث يصوِّر الجوُّ العامّ اندفاع الفتوّة، وتوهّج القلب الشابّ المتحرّق إلى الصدع بما عرف من الحقّ. ولعلّ ممّا يرجع إلى مرحلة الشباب حواريّة الكواكب والنجوم، تلك التمثيليّة المحبوكة، التي كان يستخدمها عليه السلام في الدعوة.

ونحن قد نستطيع تلمُّس مرحلتين مَرنَتَي الحدود في مسار الدعوة الإبراهيميّة في العراق، هما مرحلة التجارب الأولى، أو مرحلة ما قبل التبليغ، ومرحلة النضج، أو مرحلة ما بعد التبليغ.

مرحلة التجارب الأولى

يقف بنا الذكر الحكيم في محطّات تنتمي إلى هذه المرحلة من دعوة أبي الأنبياء في أرض آبائه وأجداده، وهي:

ـ محاجّته قومه

اختُلف في مواقع كثير من مواقف إبراهيم عليه السلام من مسيرة دعوته، فهناك من رأى أنّه بدأ الدعوة إلى الله بين قومه قبل أن يبلّغ، ومنهم من رأى عكس ذلك، وليس وراء البحث في ذلك ما يفيد، فالنبيّ داعية إلى الله حُكمًا، ذلك أن النبوّة تتضمّن الدعوة، وما من رجل رشيد إلاّ تضمّن رشده أن يدعو الناس إلى ما هداه الله إليه من الحقّ، فكيف بالنبيّ؟ أمّا الرسالة فتكون في مرحلة متقدّمة من الدعوة، بل تكون قمّتها[1].

جهد إبراهيم في دعوة أهله وقومه إلى ما هداه الله إليه من الحقّ، ويقصّ علينا الذكر الحكيم من دعوته عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ٧٠: الشعراء؟ و: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ٨٥: الصافات؟ أي: ما معبوداتكم؟ ويلاحظ أنّه قد استفهم

(١) انظر الباب الأول في النبوة والأنبياء.

في الآيتين بما ليس للعاقل استخفافًا بمعبودات القوم، وحطًّا من شأنها .﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ ٧١: الشعراء.

وبدأ إبراهيم حجاجه الساخر ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ ٧٢ و٧٣: الشعراء؟

ولم يملكوا له جوابا، ولكنّهم قالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ٧٥ - ٧٧: الشعراء.

وتكرّر الحجاج على هذا المنوال في كلّ مناسبة، وفي كلّ فرصة، وكان الأمر أحيانًا يثير دهشة القوم واستغرابهم، فيقولون: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ ٥٥: الأنبياء.

وكان جوابه الثابت: ...﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ٥٦: الأنبياء.

حتى إذا ما أعيَوه ذات يوم جدالاً، تولّى غاضبًا وهو يتوعّد ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ ٥٧: الأنبياء.

ونحن لا نملك وسيلة إلى تحديد زمان هذا الخطاب سوى حدْسنا الذي يوجّهه تنسّم المبادأة والبُكور في سؤاله: ما تعبدون؟ و: ماذا تعبدون؟ و: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ ٧٢ و٧٣: الشعراء. يضاف إلى ذلك تساؤل مخاطَبيه: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ ٥٥: الأنبياء؟ وفيه ما هو ظاهر من حَيرة من يسمع الكلام أوّل مرّة. وكلّ ذلك أسئلة وتساؤلات ومواقف تنتمي إلى أوّليّات الدعوة، ويغلب ألاّ تؤجَّل طويلاً بالنسبة إلى وضع الفتى إبراهيم.

ـ محاجّته أباه آزَر

توحي جملة الأحداث أن إبراهيم كان دائب التبرّم بمنحوتات أبيه آزر، والاستخفاف بها مذ وعى، ويبدو أن ذلك قد شاع عن إبراهيم، الأمر الذي أثار أكثر من مشكلة بينهما، فقد كان نحت التماثيل ونجرها مصدر رزق آزر، والإساءة إليها تعني إضعاف الإقبال على بضاعته، فضلاً عن أن ذلك يصطدم بما اعتاده وأقام عليه

openkandil.com

حياته وشؤونه من قواعد. يضاف إلى ذلك تواتر شكاوى القوم من إساءة إبراهيم إلى آلهتهم.

وتشكّل الروايات التي تُبرز جوانب من ذلك، على الرغم من ضعف الثقة بها، مؤشّرًا على معاناة آزر من تهديد ذلك الشابّ المتمرّد لتجارته، ولعلاقته بعملائه، وبمن حوله من الناس. ومن هنا نستنتج أن العلاقة بين إبراهيم وأبيه آزر كانت تسوء باطّراد، مع تقدّم إبراهيم في العمر والتجارب العقليّة.

لقد حذّر آزر مرارًا الفتى المارق، ذا اللسان الجريء، والحُجّة البالغة، مَغبّة مواقفه من معبودات قومه، وتسفيهه لأحلامهم، لكنّه، فيما يبدو، لم يرعَوِ، ولعلّه كان يناقش عمّه الرأي، ويحاجّه، أو ينصح له. وانتهى آزر أخيرًا إلى تهديد إبراهيم بالرجم، ثم طرده من بيته حفاظًا على مورد رزقه، وانتصارًا لآلهته، وربّما تبرئة لساحته أمام قومه ممّا يقوله إبراهيم ويفعله.

ويقصّ علينا الكتاب المبين بعضًا من كلام إبراهيم في نصح أبيه آزر، ودعوته إلى الحقّ. وتحمل عباراته مؤشّرات إلى أن إبراهيم قد اضطلع بتبليغ رسالة ربّه، ومن ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ ٤٣: مريم، وهو خطاب من نبيّ يحمل رسالة، يَنمّ على ذلك الفعلان: «جاءني» و«يأتك»، فأن يجيئه العلم أدنى إلى أن يكون وحيًا، ذلك أن العلم في الأحوال العاديّة يُجاء، ولا يجيء. ويدلّ عليه قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ٤٧: مريم[1]. ونحن لا سند لنا في زعمنا أن هذا كان قبل أن يخرج إبراهيم من بيت آزر، أو بعد خروجه منه، فضلاً عن أن نملك تحديد سِنّه يوم قاله. أو يوم خرج من بيت آزر. وقد سبقت الإشارة إلى أن توظيف المعاني والأحداث في القَصص القرآنيّ، له آليّة خاصّة من حيث علاقتها بالزمن.

وفي الخطاب نفسه عبارات أشبه بمناظرة لمُحاوِر محترف، أضاف الحنكة في الخطاب إلى مَحبّة المخاطَب، والحرص عليه، وقبل هذا وذاك التفاني في عشق

(١) ولا يتألّى إبراهيم بذلك على الله، بل هو شكر القلب النبيّ الذي يرى فيما آتاه الله من النبوّة، وما كرمه به من الرسالة حفاوة ما بعدها حفاوة.

الحقّ والدعوة إليه. ويوحي هذا الخطاب بأن جولات كثيرة من المناقشات قد سبقته، وربّما تلته، وقد بدأ إبراهيم خطابه متودّدًا أوّلاً: يا أبت... فأضاف تاء التأنيث تحبّبًا، ممّا يشي بأنّه أراد خطابه كأب وأمّ معًا. ثم اتّجه إلى عقل مخاطَبه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ ٤٢: مريم؟

ثم جعل يبرّر دعوته إيّاه إلى ما يخالف معتقده، فقد جاءه من العلم ما يهدي إلى الخير، فهو يُتحفه به، وما ذلك إلاّ لأنّه يحبّه، ويريد له الهدى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ ٤٣: مريم.

ثم يبيّن له خطل ما هو عليه، فلعلّه لم ينتبه إلى أنّه يعبد الشيطان: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ ٤٤: مريم.

ثم يبدي حرصه عليه، وإشفاقه من أن يناله غضب الله وعقابه، فيتولّى الشيطان، فيهلك: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ ٤٥: مريم.

ثم يأتي الفصل الأخير في دعوة إبراهيم لأبيه آزر، فيضع خاتمة لهذه المناظرات، حيث نرى آزر يقف على الحقيقة التي اتّضحت له بعد مناقشات طويلة. فإبراهيم قد خلع ربقة آلهة القوم ومعبوداتهم من عنقه، وإن لم يقل ذلك صراحة بعد. وهاهو ذا آزر، وقد ضاق ذرعًا بمواقفه، وجداله له وللناس، يصرخ في وجهه مستنكرًا مؤنّبًا: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ ٤٦: مريم؟!

ويعبر في خاطر آزر أمل يُحتضَر... لعلّ التهديد ينفع: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ ٤٦: مريم.

ويختصر الحوارُ الداخليّ الزمن والكلمات، فآزر على يقين أن إبراهيم لن ينتهي أبدًا: ...﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ ٤٦: مريم.

هكذا قطع آزر قول كلّ خطيب، ولم يكن أمام الفتى الأوّاه الحليم البرّ إلاّ الانسحاب، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ٤٧: مريم. وكانت موعدة أقرّها الكتاب الذي أنزل بالحقّ ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ١١٤: التوبة، فإذا ما تابعنا السياق في السورة تبيّن لنا أنّها اللحظات الأخيرة لإبراهيم مع آزر: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ٤٨: مريم.

وهنا أيضًا لا نملك أيّة مُعطَيات ذات قيمة في تحديد سنّ إبراهيم، إلاّ ما يمكننا الاستهداء به، ممّا في توراة اليهود، من أنّه دخل أرض كنعان وهو في الخامسة والسبعين من عمره. لكنّ نتيجة ذلك الاستهداء تبدو محدودةً جدًّا، عندما نقف على غموض الفترة مابين دعوة إبراهيم في العراق، ودخوله أرض كَنعان، وهي فترة قيل إنّه أمضاها في حَرّان، وتتباين الآراء في مدّتها، ونشاطه الدعويّ والمعاشيّ فيها.

أُخرج إبراهيم من بيته وأهله، كما أُخرج سيّد خلق الله من الطائف مطرودًا، يملؤه الأسى، ويُطبِق عليه الإحساس بالضياع والوحشة، وتسوقه اشواق القلب المغترِب إلى الملاذ، ونزوعُ الروح المتوحّد إلى الأُنس... ويجد إبراهيم الله هناك، ويرى عقلُه الرشيد في الترحّل فسحة للخلوة والتأمّل والتفكّر، كما كان رسول الله يجد في حِراء جنّة للقلب، وفضاءً لسياحة الروح على مدار ثلاثين عامًا قبل أن يوحى إليه.

والتأمّل فرار من يوميّات الحياة، بقصد إتاحة الفرصة لصوت الفطرة المدفون تحت ركام متطلّبات هذا الوجود الماديّ. والإصاخةُ إلى ذلك الصوت، وتدبّره، والاستهداء بحكمته، والتأمّل انطلاقًا منه عبادة عظيمة، وهو من أسس الاهتداء إلى الإيمان بوحدانيّة الله الحقّ والإسلام إليه. وربّ العالمين يُهيب بنا أن ننظر في ملكوت السموات والأرض ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ ١٨٥ : الأعراف، **وفي آية أخرى:** ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ١٠٥ : يوسف.

والتّأمّل عتبة للتفكّر في آيات الله في الآفاق وفي النفس الإنسانيّة، وتلك عبادة هائلة، تجلو وجهَ الحقّ، وتبيّنه، وتصل بالإنسان في نهاية المطاف إلى الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ١٩١ : آل عمران، **قال رسول الله ﷺ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكّر فيها»**(١).

ويكتسح الساحة الفكريّة اليوم اتّجاه عالميّ للبحث عن الخلاص من سلبيّات وإخفاقات إنسان هذا العصر على كلّ الصعد، يتمثّل في الاهتمام بما دعي بالتنمية البشرية(٢)**. ويقوم هذا**

---

(١) صحيح ابن حبان: ٦٢٠.

(٢) وقد بدأت هذه الموجة بهدف اقتصادي، ولكن الجوانب الإنسانيّة فيها تفرّدت بالاهتمام أو كادت،=

الاتّجاه على الإصلاح عن طريق التغيير من داخل الإنسان، ولم يعد خافيًا أنّه، دون قصد، يعتمد تقنيّات سبقت إليها الأديان السماويّة وعلى رأسها الإسلام، مع ميزة الإسلام الخالدة التي تتمثّل في كونه من لدن عليم حكيم، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وتعجّ منشورات هؤلاء بأمثال تلك العبارات: الذكاء الروحيّ، عمالقة التأمّل، المدارس الروحانيّة الحديثة، التواصل بعمق مع العالم، الأثر الإيجابيّ للطقوس في الروح والعقل، السلام والتأمّل، النيرفانا[1]، القوّة والطاقة الكامنتين في الصمت والتأمّل...

إن كلّ ذلك بعض قاصر ممّا جاء به الإسلام، ولكنّه في صيغة موجّهة إلى إنسان هذا العصر. وكان علينا، مسلمي اليوم، أن نكون أصحاب هذا، فنعرف كيف نخاطب عالم اليوم. ولا يعني هذا فوات الأوان، فمهما قدّم الإنسان يبقى ما لدينا الخير والأبقى، ويبقى بانتظار أن نعرف كيف نقدّمه... بانتظار أن نتقن الدعوة إلى الله.

ـ حواريّة الكواكب والنجوم

صاغ الله إبراهيم عليه السلام صياغة عقليّة فائقة[2]، ولا بدّ أنّه قد اتّسم منذ نعومة أظفاره بالذكاء والفطنة، وتمتّع بنُضج عقليّ مبكّر، فأدّى ذلك إلى اكتسابه الحكمة وسَداد الرؤية والرأي. وفي هذا يقول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ ٥١: الأنبياء.

لقد بدأت المواجهة بين إبراهيم وبين قومه المشركين في وقت مبكّر من عمره، ونحن إذا ما استنطقنا النصّ القرآنيّ فيما يخصّ هذه المرحلة، بمعزل عن ركام الروايات المربكة، وجدنا فيه ما يتّفق ومنطق الأمور، ويجري وفق سنن الحقّ الذي

= لأنّها تفتح كوّة على الأداء الإنسانيّ الذي يحترم الفطرة، ويستلهمها في زيادة فعاليّاته للوصول إلى أقصى درجات النجاح.

(١) وهي "حالة من السلام المقيم، والقداسة الكاملة، والتجرد من الأماني والرغبات" [الشهرستاني: ذيل الملل والنحل ص١٨].

(٢) عقل الإنسان وازع بما فطره الله عليه من الحق، ثم إنه يمكن أن يترقى فيصبح متدبرًا، ثم مفكرًا، ثم رشيدًا. والعقل الرشيد أرقى العقول درجة.

يقوم عليه هذا الوجود. فالنصّ القرآنيّ يزوّدنا بنقاط مفصليّة من تلك الفترة، منها حواريّة الكواكب والنجوم الشهيرة.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ ٧٥: الأنعام. لقد أرى الله إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين. واستعمال المضارع هنا يفيد استمرار الإراءة، فالله الحقّ يُري إبراهيم آيات وشواهد من ملكوت السماوات والأرض ليصل به إلى اليقين، ذلك أن لإبراهيم قلبًا رشيدًا ينشد اليقين الكامل على أرضيّة من الطمأنينة الراسخة. وكثيرون أن العطف في أوّل الآية على مستتر تقديره ليحاجّ أباه وقومه بما رأى، ولعلّ المقام يتّسع لتقدير آخر هو «ليطمئنّ قلبه، وليكون من الموقنين».

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ٧٤ - ٧٨: الأنعام.

ويمثّل إبراهيم هنا دور من يهتدي إلى نتيجة معيّنة عبر خطوات منطقيّة، فيقف متأمّلاً أحد الكواكب متسائلاً: أيصلح هذا ليكون ربًّا أعبده؟... إنّه كبير مهيب منير عالٍ... فهل يمكنني أن أتّخذه ملجأً، فيبارك عبادتي، ويسمع شكاتي، ويرزقني، ويدفع عنّي الخطر؟ وتظلّ هذه الصفات قائمةً في هذا الربّ المفترَض حتى ينقضي الليل، فإذا هو يختفي، وإذا بصلاحيّته للربوبيّة تختفي هي الأخرى، ذلك أن الربّ حاضر دائمًا، ولا يجوز عليه الأُفول.

ويبحث إبراهيم له عن ربّ أكثر نورًا وأقرب وأكثر وضوحًا، ويظهر القمر فيكرّر تساؤله، ولكنّه يأفل بدوره، ويمثّل إبراهيم دور الخائب الأسِف، ويسأل الربّ الذي يبحث عنه أن يهديه إليه لينقذه من الضلال. ثم يبحث إبراهيم مرّة ثالثة عن ربّ له، ويختار الشمس هذه المرّة، فهي كبيرة بحيث ينبغي ألاّ تتوارى عن الأنظار، ولكنّها، كسابقَيها، تختفي، وبالطريقة نفسها...

ويكتفي إبراهيم بالتجارب الثلاث، ويعلن لعبَدة الكواكب والنجوم براءته منها جميعًا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ٧٨: الأنعام، ويَصدع بتوجّهه إلى ربّه الذي

Obeikandi.com

فطر السماوات والأرض معرِضًا عن باطلهم، مسلِمًا لله الحقّ،متبرئاً من المشركين ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٧٩: الأنعام.

وإبراهيم في هذه الحواريّة يشكّك عبَدة الكواكب بمعبوداتهم، ويضعهم في حالة بحث عن الحقيقة، ثم يقدّمها إليهم يقينيّة لا تقبل الشكّ. وهذا منهج في التفكير معروف، يقوم على الوصول إلى اليقين عن طريق الشكّ. وهو يضع للوصول إلى النتيجة أكثر من فرضيّة، ثم يبرهن على بطلانها واحدة تلو الأخرى، حتى يصل بمُحاوره إلى الفرضيّة التي لا يمكن إبطالها، فيضمن بذلك ثقته وقناعته.

وقد ذهب بعضهم إلى أن الحواريّة حكاية عن الواقع، وأن إبراهيم كان قد عبد معبودات قومه تلك الواحد تلو الآخر، ثم انصرف عنها عندما اكتشف أنّها ليست دائمة البقاء، وسأل الله الهداية فهداه. وفي تلمود نداريم «وهدته تجربة في صباه إلى معرفة الله»[1]. ولا اعتبار لهذا المذهب لأسباب على رأسها أن سيّدنا إبراهيم الذي قال فيه الله الحقّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ٥١: الأنبياء، والذي ﴿جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ٨٤: الصافات، أي لم ينل الباطل من فطرته، لا يستقيم أن ننسب إليه عبادة كوكب أو شمس أو قمر في أيّة مرحلة كانت من مراحل حياته.

والأقرب إلى طبيعة إبراهيم في نصوص الكتاب المبين أن حواريّة الكواكب والنجوم من تجاربه الروحيّة والفكريّة الأولى، صنعها في زمن مبكّر من الدعوة نتيجة محاكمة عقليّة أدّى إليها التفكّر في الآفاق. ووظّفها للدعوة في أُور، وفي حَرّان، وفي بلاد الشام[2]، يعرضها على عبدة الكواكب والنجوم، يسفّه فيها معبوداتهم، في محاورة مُفحِمة، قائمة على النظر والاستدلال والاستنتاج المنطقيّ.

لقد كان إبراهيم الذي أوتي رشده من قبل يمارس فعاليّات ذاته النبيّة... كان يتأمّل فيما حوله، فيُفضي به التأمُّل إلى المحاكمة فالاستنتاج، فهو فوق إيمانه القلبيّ بأنّه لا إله إلاّ الله إيمانًا مطلقًا لا قول فيه، كانت محاكماته العقليّة الرشيدة تنتهي به إلى

(١) عن دائرة المعارف الإسلامية: مادة إبراهيم.

(٢) قيل إن تلك المحاورة كانت في حَرّان لأنهم يعبدون الكواكب والنجوم.

النتيجة نفسها، وذلك عن طريق التدرّج من علم اليقين، إلى عين اليقين، إلى حقّ اليقين. وقد زادته هذه إيمانًا، وبلغت به كمال اليقين ومطلقَه... والحقّ غاية اليقين ومنتهاه المطمئنّ. ومن أجل هذا اليقين الحقّ، وليطمئنّ قلبه، أرى اللهُ إبراهيم ملكوت السماوات والأرض.

ـ تحطيم الأصنام

لعلّ قصّة تكسير الأصنام المثال الأوفى لمحاجّة الأنبياء أقوامهم فيما ساقه لنا الذكر الحكيم من قصص الأنبياء. وقد وقفنا في قصّة نوح على محاجّة طويلة محكيّة على لسان نوح عليه السلام، أمّا هذه فمحاجّة تمثيليّة مكتملة.

وتصرّ الروايات على تزويد القصّة بمقدّمة تقول: كان القوم يحتفلون بواحد من أعيادهم خارج المدينة، فلمّا خوت الشوارع أو كادت، تسلّل إبراهيم إلى قاعة المعبد المحاطة بالأصنام، وقد نُصبت أمامها موائد عامرة بألوان الطعام، جريًا على عادة القوم في أعيادهم، فخاطبها في إطار ساخر، يقوم على المفارقة الحادّة، التي تسطع فيما بين حال الواقع وحال الخطاب، حيث استخدم خطاب العاقل القادر لما لا يمتّ بصلة إلى أيّ من العقل والقدرة. وتزداد هذه المفارقة تأثيرًا إذا تذكّرنا أن إبراهيم كان يفعل عكس ذلك في خطابه لعبَدة هذه الحجارة، فيعامِلها معاملة غير العاقل ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ ٤٢: مريم.

قال إبراهيم: ألا تأكلون؟ ...

ولم ينتظر طبعًا أن تجيبه الحجارة المؤلَّهة، بل راغ عليها ضربًا باليمين، فجعلها جذاذًا إلاّ كبيرًا لها، لغاية في نفس إبراهيم قضاها...

ولما انفضّ الحفل، ورجع القوم إلى المعبد، هالهم ما رأوا، وانطلقت التساؤلات: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٥٩: الأنبياء؟

وقال بعضهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ ٦٠: الأنبياء.

وأقبل الناس إلى الفتى إبراهيم يَزِفّون[1]. وانطلق سؤال يتضمّن الاتّهام: ﴿ءَأَنتَ

---

(١) والزفيف السرعة في المشي إلى حد الركض لدى تلقي نبأ ما، وسُمِي حفل الزواج زفافًا لأن الناس يسرعون إليه.

فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ ٦٢: الأنبياء؟

﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ ٦٣: الأنبياء.

وبلبلت الكلمات المستجوِبين، وكان فيهم من تحرّك رشده، فقال للآخرين: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ٦٤: الأنبياء.

وارتدّت الموجة فطغت من جديد، وعلت صوتَ الرشد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ ٦٥: الأنبياء. فهم يتقبّلون آلهتهم كما هي... حجارة لا تنطق.

وسَرعان ما شاع الأمر، وتداوله الناس على كلّ المستويات، حتى وصل إلى السلطات، واعتُبر إهانة لمقدّسات الدولة. وقال أصحاب الشأن: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ٦١: الأنبياء.

وجيء بإبراهيم، وعُقدت محكمة علنيّة على أعلى مستوًى في الدولة، ولعلّها كانت أوّل محاكمة من نوعها في التاريخ، وأسفرت عن الحكم على المتّهم بالإعدام حرقًا.

*

ظلّ إبراهيم يتفكّر في الآفاق، وفي الناس، وفي نفسه حتى عرف من سلطان الله في أمره وخلقه ما عرف... هكذا أرى الله إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، ممّا وراء المشاهدة، ومن العالم المشاهَد، الذي يريه الناس كلّهم. وما وراء المشاهدة من الغيب لا يظهره الله إلاّ لمن ارتضى من رسول ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ٢٦ و٢٧: الجن. ويدرك الأنبياء ما وراء المشاهدة، بما يريهم الله، وقد أرى ربّ العالمين إبراهيم من ذلك ما أراه، كما أرى النبيّ ﷺ في الإسراء والمعراج ما أراه ممّا ذَكر، وممّا لم يَذكر.

هكذا وجد إبراهيم نفسه مكلّفًا بالدعوة إلى الله الحقّ ابتداءً بذلك الحاكم المستكبر المتسلّط، وكان من الصحف التي أنزلت عليه: «أيها الملك المُسلَّط المبتلى المغرور، إنّي لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكنّي بعثتك لتردّ دعوة المظلوم، فإنّي لا أردّها ولو كانت من كافر»[1].

---

(١) صحيح ابن حبّان ٢: ٧٨.

مرحلة النضج

وفي هذه المرحلة يعرض القرآن الكريم عددًا من التجارب الوجدانيّة التي تبلورت في المرحلة السابقة، ووظّفها خليل الرحمن في دعوته إلى الله. ومنها:

ـ محاجّات وجدال

كان إبراهيم قد أوتي رشده "من قبل"، فأنكر ما عليه أهله وقومه من الضلال، وحاجّهم في الله الذي هداه. ثم أوتي حُجّة النبيّ المرسل، فكان بالغ القدرة على الإقناع والإفحام، يأتي المماحكين من موقع القويّ المتمكّن، بحُجج ساطعة من مَعين هائل من العقل والحكمة، من ورائه عالَم من الثقة بالله، والثبات على صراطه المستقيم.

وبداية نرى إبراهيم يجرّد محاجّيه من كلّ أسلحتهم، ويسدّ عليهم طريق الجدال إلاّ أن يماحكوا: ﴿قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ ٨٠: الأنعام!

وكلّ ما يملكونه الآن أن يخوّفوه بطش أصنامهم به، وقد ردّ عليهم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ ٨٠: الأنعام؟ فهو يستبق برهانهم الواهي: إن آلهتكم التي تخوّفونني بطشها لا تملك من أمري شيئًا، ولا تستطيع حتى الدفاع عن نفسها إزاء ما أرميها به. ولْأجارِكم، فأفرض جدلاً أنّني قد أُصبت بسوء، ممّا تخوّفونني به، فهو بمشيئة ربّي لا بفعل أصنامكم هذه[١].

وابل من الحجج قال فيها الحكيم العليم: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ٨٣: الأنعام. والأغلب أن مُحاجّة إبراهيم هذه تالية لحواريّة الكواكب والنجوم، التي كانت قبل أن يبدأ الدعوة كنبيّ رسول. وأرى أن هذا يؤيّد زعمي أنّه يوظّف نتائج تجاربه العقليّة الإيمانيّة السابقة في محاجّته الناس، وهذا واحد من توظيفات هذه الحواريّة الملهَمة.

وفي سورة العنكبوت خطاب طويل يمثّل كذلك المحاكمة العقليّة المنطقيّة، ويعجّ بالشواهد والأمثلة والأدلّة والقياسات والاستنتاجات، وذلك بعد أن أوتي عليه السلام الرسالة.

---

(١) وهذا من مشكاة قوله تعالى: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" ١٧: الأنفال.

ولم يأل إبراهيم الرسول جهدًا في محاجّة قومه، رغم إدراكه ضحالة تفكيرهم، وسطحيّة عقولهم، أمام ما زوّده به الله من الحُجّة عندما أراه ما أراه من ملكوته. وكان إبراهيم، رغم ذلك، يلتزم أخلاقيّات الجدال والمحاجّة، فيستخدم ما يناسب المخاطَبين من ألف باء المنطق: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨١: الأنعام؟ ويتمسّك بأرفع سلوكيّات الداعية، حيث يُلزم نفسه بمهمّة الطبيب، فلا يعنف على الناس، ولا يمارس عليهم فوقيّة من أيّ نوع كان. وتلك لغة النبيّ الرسول، لغة الحوار الأخلاقيّ العلميّ، تكتنفها الرحمة بالجهلاء، والاستغفار لهم، لأنّهم لا يعلمون، ومن فوقها رحمة ربّ العالمين التي وسعت كلّ شيء.

وهكذا ما كان إبراهيم يخاطب القوم من موقعه، الذي يعرف أنّه رفيع مادام قد باركه الله بالنبوّة، بل كان يُشعرهم بالاحترام والندّيّة، ولا يضرب وجوههم بتلك الصيغة الرهيبة التي مزّقت المسلمين مزَقًا، وأسالت دماءهم أنهارًا: أنا على صواب وأنتم على خطأ... لقد كان إبراهيم يحاجّ كفّارًا عندما قال عن نفسه وعنهم: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ ٨١: الأنعام؟ وكذلك كان النبيّ ﷺ يحاجّ مشركي قُرَيش عندما قال: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ٢٤: سبأ.

وأنت عندما يمنّ الله عليك بشيء من العلم، يفتح به بينك وبين الحقّ فتحًا، ثم يترتّب عليك أن تنقل هذا إلى من تُقصّر عن إدراكه قدراتُه ومقاصده، تستطيع أن تدرك شيئًا من احتراق الأنبياء، وهم يواجهون بكلّ سطوع يقينهم، تلك العقول الضيّقة الغريبة، وتلمَس شيئًا من معاناتهم في طيّ تلك آفاقهم، وضغطها وتبسيطها، لتجد إلى هذه المغارات والسراديب منفذًا...

من هنا نستطيع أن ندرك البعد الآخر لتلك الرعاية الربانيّة المطلقة في خطاب خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ٦: الكهف، **وتتمكّن من تلمُّس ما وراء ذلك الأمر المباشر من الرحمن الرحيم** ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ ٨: فاطر، **ولسائر خطاب الأنبياء الذي يخفّف على القلوب البشريّة اضطلاعها**

بما هو فوق طاقة البشر. إنّه فضل النبيّ الرسول، وعظمة الدعوة إلى الله الحقّ التي يقوم عليها الأمر كلّه.

ـ محاورة الملك

أشار الذكر الحكيم إلى هذه الشخصيّة بالذي آتاه الله الملك، وتبارى أصحاب الروايات في الكلام عنه، فدعوه بالنمرود، وجعلوه أحد أربعة ملكوا الدنيا. ويرى صاحب القصص أن عدم ذكر القرآن لاسمه، بل عدم نعته بالملِك، يهبط به كثيرًا عن مثل هذا المقام، ويقارن بين هذا وبين ذكر فرعون باسمه أكثر من سبعين مرّة، كما يقارن بين نهايته المهينة، كما جاءت في الروايات[1]، وبين نهاية فرعون المجلجلة، كما جاءت في الذكر الحكيم، ويرى في ذلك دليلاً على احتقار الله له، وتقليله من شأنه.

ومن المنطقيّ أن إبراهيم لم يتصدّ لدعوة السلطة الحاكمة إلاّ بعد أن بُلّغ رسالة ربّه، ولكنّ التماسّ بينه وبينها يرجع إلى ما قبل ذلك، فقد ضجّ الناس بنشاط الشابّ المارق الذي يتنقّل بين المجالِس يدير النقاشات والحوارات، وتناقلوا أخبار ربيب صانع التماثيل الذي طُرد لأنّه يزدري الآلهة، ويحقِرها. أمّا واقعة تكسير الأصنام المشهودة، فقد شغلت الناس والسلطة الحاكمة، وقد رأينا كيف أدّت إلى عقد جلسة استجواب علنيّة، انتهت بالحكم على إبراهيم بالإعدام حرقًا. ولئن لم نكن نملك الجزم بالتسلسل التاريخيّ لهذه الأحداث، فليس ثمّة كبير ضرر في ذلك، فهي من التداخل بحيث تتبادل التأثر والتأثير دون أن يمسّ ذلك الناتج النهائيّ مسًّا يُذكر.

ويسوق لنا الذكر الحكيم المحاجّة الشهيرة، بين إبراهيم والملك المتألّه، بآيات موجَزات غاية في الإشعاع، حتى لتصلح أن تُكسى من اللحم ما يجعل منها قصّة كاملة:

---

(١) قيل إنه هلك وجيشه بالبعوض.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ؟!
قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ .
قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ .
قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ .
فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ٢٥٨: البقرة.

تداخلت مفاهيم الألوهية والحكم والمُلك في الحضارات الإنسانيّة الأقدم، ولم يتمّ تجاوز هذا التداخل إلاّ بعد عصور طويلة، وظهور عدد من الأنبياء بدعوات التوحيد. وقد رأينا تأثير ذلك في مفهوم الشرك، حيث كان من معانيه في الإسلام الائتمار بغير أمر الله، فقد جاء في الذكر الحكيم عن اليهود والنصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ﴾ ٣١: التوبة.

لقد كان الملِك الذي حاجّ إبراهيم في ربّه متألّهًا، وقد أثار حفيظته أن يدعو أحد إلى عبادة غيره. وقيل إن إبراهيم لم يجد ردًّا مقنعًا على دعوى الملِك أنّه يحيي ويميت، فعدل عن الحِجاج فيها إلى مقولة أخرى أفحمته[١]. وليس ثمّة كبير غَناء في القول إن حُجّة الملك داحضة، فإبراهيم يعلم، والملك يعلم، ومتدبّر النصّ القرآنيّ كذلك يعلم، أن السلطة التي يمارسها الملك على رقاب الناس لا تقابل خلق الموت والحياة، الذي عناه إبراهيم، وأثبته لله جلّ وعلا، وبالتالي فلا تستحقّ دعواه تلك الالتفاتَ إليها. ومن هنا لم يردّ إبراهيم على الملك مقاله[٢]، بل عاجله بما كشف

(١) ولكننا سوف نرى أن إبراهيم النبي المرسل، قد اختزن المقولة في ذهنه، وسأل ربه ما يعينه على التصدّي لمثلها، مما يتوقع أن يواجهه في دعوته الناس، فكان مثال الطيور.

(٢) وهذا أقوى لموقف إبراهيم، ذلك أنه يظهر موضوعيته، ومن ثم يدعم الثقة بنتائجه.

obeikandl.com

زيفَه، ففوجئ، وبُهت[1]، ولم يتمسّك بكلامه الأوّل، ذلك أن الإله من يفعلهما، لا من يفعل إحداهما، ويعجز عن الأخرى.

وهذه الحواريّة القصيرة من أبرز الأمثلة على حضور بديهة إبراهيم، وسطوع حُجّته التي قال فيها الله الحقّ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ٨٣: الأنعام.

ـ مثال الطيور

تقول بعض الروايات إن ما كان من أمر الطيور هو مُعجزة جعلها الله لإبراهيم ليثبّت بها فؤاده عندما أرسله إلى الملك الذي دعته الروايات بالنمرود. وممّا قيل في ذلك أن إبراهيم ﷺ لمّا بُلّغ رسالة ربّه قال له جبريل: اذهب إلى النمرود فادعه.

فقال إبراهيم: لسوف يقتلني..

قال: إذا قتلك فالله يُحييك.

قال: كيف يُحييني؟

قال: اسأل ربّك كيف يُحيي الموتى؟

وهي حكاية بدائيّة، واضحة الفقر والتكلّف[2]، رغم أن الربط بينها وبين قصّة الطيور يبدو منطقيًّا، ولاسيّما إذا تذكّرنا أن مناقشة إبراهيم للنمرود قد بدأت بهذه الحقيقة ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ٢٥٨: البقرة. يضاف إلى هذا كونها تفتقر إلى السند الملزِم، فهي واحدة من المقدّمات المصنوعة، التي يتبرّع بها الرواة بين يدي النصّ القصصيّ في الكتاب العظيم.

ومن الكلام المجانيّ اتّهام إبراهيم، في مسألة الطيور، بالشكّ في قدرة الله على إحياء الموتى. وقد قيل في الردّ على هذه المقولة إن إبراهيم لم يشكَّ في قدرة الله على إحياء الموتى، ولكنّه، من منطلقه المعروف: «ليطمئنّ قلبي»، يرجو ربّه أن يريه كيف يفعل ذلك. فأوحى إليه ربّه أن خذ أربعة طيور، فصُرْهُنّ إليك، ثم اجعل على كلّ جبل جزءًا منهنّ، ثم ادعهنّ يأتينك ساعيات .

---

(١) بهت: استولت عليه الحجّة، وذهل أمامها.

(٢) إذ تقصر الغاية من ذلك الأمر على طمأنة إبراهيم على حياته.

وقد رأى جمهور المفسّرين أن هذا يعني أن يقطّع الطيور، ويخلط القطع بعضها ببعض، ثم يفرّقها على عدد من الجبال، ثم يستدعيها، فتأتيه تسعى[1]. ورأوا أن إبراهيم عليه السلام قام بهذا، فرأى كيف يحيي الله الموتى، وعلم أن الله على كلّ شيء قدير.

ويرى كثير من المفسّرين أن الله قد أبطل قانون الموت في الطيور لتحقيق هذه المعجزة، كما أبطل قانون الإحراق في نار إبراهيم، وقانون الضبط في طوفان نوح. ورغم أن القائلين بذلك يرون أن كلّ ما يجري في هذا الوجود إنّما يجري بإذن الله، أي بما قضاه فيه من أمر، وما جعله فيه من قوانين، فهم يرون أن المعجزة تتمّ بإذن من الله بإبطال شيء من ذلك، أو تعطيله، فهي على هذا استثناء من القاعدة الأمّ[2].

وجه لمثال الطيور

لقد حظي المذهب السابق في قصّة الطيور بإجماع المفسّرين أو كاد، وذلك على الرغم ممّا وُجّه إليه من النقد، فظلّ متداوَلاً أثيرًا حتى يومنا هذا، لم يستطع أن يزحزحه عن عرشه من ذهبوا في القصّة مذهبًا آخر كأبي مُسلِم الأصفهانيّ من القدماء، والشيخ محمد رشيد رضا، والأستاذ أحمد حسن الباقوري من المحدثين، وكلاهما يؤيّدان أبا مسلم، ويحتجّان له.

أما أبو مُسلم، فقد نقل عنه الرازيّ قوله: «إن إبراهيم عليه السلام لمّا طلب إحياء الميت من الله تعالى أراه الله تعالى مثالاً قرّب به الأمر عليه، والمراد بـ «صرهنّ إليك» الإمالة والتمرين على الإجابة. أي فعوّد الطيور الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأتتك، فإذا صارت كذلك، فاجعل على كلّ جبل واحدًا حالَ حياته، ثم ادعهنّ يأتينك سعيًا. والغرض منه ذكر مثال محسوس في عَود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة. وأنكر القول بأن المراد منه: فقطّعهنّ. واحتجّ عليه بوجوه. الأوّل: أن المشهور في اللغة في قوله «فصِرهنّ» أمِلهنّ. وأمّا التقطيع والذبح فليس في الآية ما يدلّ عليه، فكان إدراجه في الآية إلحاقًا لزيادة بالآية لم يدلّ الدليل عليها، وأنّه لا يجوز. والثاني: أنّه لو كان المراد بصِرهنّ قطّعهنّ، لم يقلْ إليك، فإن

---

(١) السعي يعني المشي السريع، وقالوا إن الطيور لا تسعى، فينبغي أن تأتيه طيرانًا. ولكن الله تعالى آتاهنّ القدرة على السعي، وهذا من تمام المُعجزة.

(٢) انظر الباب الأول: المُعجزة.

ذلك لا يتعدّى بـ «إلى». وإنّما يتعدّى بهذا الحرف إذا كان بمعنى الإمالة»[1].

وقيل إنّ أبا مسلم تفرّد بهذا القول، وكنت قد أثبتّه، على خلاف في التفاصيل، قبل أن أطّلع عليه، كما أن للرازيّ بعض نصيب في جزئيّة من هذا الرأي. ولا يثبت النقد الذي وُجّه إلى ما تَوافَقا فيه للتحقيق. وقد وفّقني الله فزدت فيه خصوصًا، وفي واقعة الطيور عمومًا، ما يقويّه ويثبّته ممّا ينكشف بالمقارنة.

*

أمّا القول بتقطيع الطيور، للوقوف على كيفية الإحياء بعد الموت، فإنّه يترتّب عليه جملة أمور يصعب تجاوزها، وهي:

- لا وجه لتقطيع الطيور إذا كان القصد إثبات الإحياء بعد الموت، فأيّة ميتة كانت تؤدّي الغرض. وما كان التقطيع إلاّ لتفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ٢٦٠: البقرة.
- لا وجه لكون الطير دون غيره من الأحياء موضوعًا لهذه التجربة.
- لا وجه لكون الطير أربعة. وقد رأينا كيف حمل هذا التحديد على اختراع عدد من التوليفات الرباعيّة من الطيور، بلا ضابط ولا دليل.
- لا معنى لجعل أشلاء الطيور على الجبال، ويكفي أن يعود الطير المقطّع حيًّا يسعى أو يتحرّك، بعد ذبحه وسكونه، ولْنقل فصل رأسه عن جسده.
- لا حُجّة للقائلين بالتقطيع في قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ٢٦٠: البقرة، إذ الجزء المقصود جزء من المجموعة، لا من كلّ واحد من أفرادها، فهو إذًا بمعنى بعض، أي اجعل على كلّ جبل بعضًا منهنّ، ولا يعني تجزئة كلّ واحد من الطيور. وقد كان اعتبار «صُرهنّ» بمعنى قطّعهنّ وراء اعتبار الجزء من الطير لا «منهنّ» أي من المجموعة.

والراجح أن الأمر كما يلي: فخذ أربعة من الطير، فعلّمهن أن يصِرن إليك، لكي يعتدن ذلك، فيعُدن عندما تدعوهنّ، وهو ممّا يقوم به مربّو الطيور، ثم ضع على كلّ جبل جزءًا من تلك المجموعة[2]، أي ضع على كلّ جبل واحدًا من الطيور، أي فرّقهن في الجهات الأربع من

(١) انظر التفسير الكبير. تفسير الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

(٢) يقول أبو مسلم الأصفهاني " إنه أضاف الجزء إلى الأربعة، فيجب أن يكون المراد بالجزء هو الواحد من تلك الأربعة ". نقلاً عن التفسير الكبير. تفسير الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

الأرض[1]، وهذا ما يبرّر كون الطيور أربعة، وإلاّ فلا معنى لهذا العدد.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ﴾ ٢٦٠: البقرة، وقوله «سعيًا» كناية عن سرعة أتَيانها، فالطير في هذه الحالة تأتي سراعًا، ساعية إلى حيث اعتادت أن تصير، فلا تنحرف عن السبيل، ولا تتخلّف، ولا تضلّ.

ويختم النصّ القرآنيّ بكلّ العظمة التي تنطوي عليها تسبيحات خواتيم الآيات، وكلّ الروعة التي تكتنف اكتشاف روابطها بمضمون آياتها... تلك الروابط تُسعد من يلمس بعضها، وتوشك أن تصعق من يلمس أكثر من ذلك: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ٢٦٠: البقرة.

ـ قد يجبهنا المولعون بمَعجَزة كلّ آية، وكلّ دليل، وكلّ برهان بالسؤال التالي: فأين المُعجزة إذًا؟

ذلك أن هؤلاء لا يشفيهم إلاّ الإغراق في المعجزات والخوارق، ماداموا يستطيعون من خلاله إلقاء الكلام على عواهنه، ثم الاعتصام براية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٢٠: البقرة.

أمّا الردّ فبالقول: لقد أعطى الله إبراهيم مثالاً، أو ضرب له مثلاً، وهو مثال أو مثَل تذكيريّ، ساقه له في صورة تجربة معروفة النتيجة[2]، من النوع الذي تحصل الغاية منه بمجرّد تذكّره وتمثّله. ويتضمّن المثال عناصر تُقابل عناصر الموضوع المسؤول عنه، في ظروف تقابل ظروفه، بحيث يُتاح للسائل القياس. ويؤدّي المثل إلى تقريب الفكرة، وإيضاح الأمر ليس إلاّ. وهذا كاف لإبراهيم الذي يؤمن أن الله قادر على إحياء الموتى، والذي أوتي رشده من قبل، وكان الله به عالمًا، والذي يقول بكلّ تلك الثقة الإعجازيّة: أتحاجونّي في الله وقد هداني!

فالله الحقّ لم يقدّم إلى إبراهيم مُعجزة، فإنّما المعجزات، والماديّة منها بصورة خاصّة، للذين لا يؤمنون بالدليل العقليّ، وبالتفكّر في خلق السماوات والأرض، يقفهم الله الحقّ عليها ليؤمنوا. وليست المعجزات للأنبياء الذين هم على أعلى درجات الإيمان، وإنّما هو البرهان الحقّ، الكافي في تقدير العزيز الحكيم ليطمئنّ به القلب النبيّ الرشيد.

---

(١) ولا وجه لذلك إلاّ أن نعتبر الجبال الأربعة كلاّ في واحدة من الجهات الأربع.

(٢) كأن تقول في سياق كلام عن الماء الصالح للري: اسكب ماء مالحًا في أصيص فيه نبتة، وانتظر يومًا أو يومين، ثم تفقد الأصيص تجد النبات قد ذبل.

ـ لم يُجرِ إبراهيم التجربة التي جاءت في مثال الطيور واقعيًا، وليس في نصّ القرآن ما يحملنا على القول بأنّه قد فعل. ولعلّه لم يزد على أن تصوّر كيف يضمّ الطيور إليه حيث يكون، حتى تتآلف فيما بينها، وتألفه وتألف المكان، ثم تصوّر كيف يفرّقها في الجهات الأربع، كلاًّ على جبل، ثم تصوّر كيف يستدعيها، وأيقن، بما هو على علم به، وبما يَعلمه الناس من عادة الطير، أنّها سوف تأتيه سراعًا، مهما تفرّقت وبعدت، عنه من جهة، وبعضُها عن بعض من جهة أخرى.

*

لقد أراد إبراهيم أن يرى كيف يُحيي الله الموتى ليطمئنّ قلبه، فبماذا يريد إبراهيم عليه السلام أن يطمئن قلبه؟

قال بعض ذوي النظر: إنّه يريد أن يطمئنّ قلبه بالخلّة، أو بأن الله تعالى يحبّه، ودليل ذلك أن يريه ما لا يُري أحدًا من العالمين. وقال آخرون: ليزداد إيمانًا مع إيمانه.

ونحن إذا ما تأمّلنا السياق القرآنيّ وجدنا أن مثال الطيور سُبق مباشرة بحواريّة الملك، التي موضوعها خلق الحياة والموت، ثم بقصّة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وموضوعها الإحياء بعد الموت. ومن دون إضافات على النصّ، يحتمل تساؤل الرجل استبعاده عودة القرية إلى الحياة، ولكنّ مبادرة المفسّرين إلى اعتباره مؤمنًا تسدّ الطريق على هذا الاحتمال، وتفرض علينا القول إنّه لم يستطع تصوّر عودة الحياة، واستعظم الأمر، وإن استيقنه قلبه. ومن هنا كانت الإجابة لترسيخ فكرة إمكانيّة الحياة بعد الموت، عبر البرهنة له على أنّه لبث مائة عام ميتًا ثم حيي[1].

أمّا في مثال الطيور فمدار الأمر على كيفيّة البعث والحشر ليوم الدين، ونحن في هذا المثال مع إبراهيم الذي أوتي رشده من قبل، فهو يملك القناعة العقليّة الراسخة، إلى درجة السجود دينونةً وعبوديّةً لله، بأن الأمر كائن لا محالة. وعلى هذا فسؤاله كان تعجّبًا من ذلك الأمر المذهل، واستعظامًا له، وإقرارًا بعجز قلبه عن موافقة عقله فيه، وعن تمثّل كيفيّة وقوعه، فهو يسأل ربّه ما يسكّن جيّشان قلبه، وتساؤلاته حوله، تدلّ على هذا إجابة الله جلّ وعلا خليله ذا

---

(١) وهذا لا يخدم القول بأنّه رأى حماره يعود إلى الحياة بالطريقة التي صوّرها بعض أصحاب القصص. انظر قصة العزير.

الرشد، حيث لبِث يقول له: افعل، وافعل، وافعل، إلى أن قال كنتيجة نهائيّة: ﴿ ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ ٢٦٠: البقرة.

فهذا المجيء للبعث قرّبه الله الحقّ إلى تصوّر إبراهيم ومخيّلته بمثال حسّيّ يعضد الفكرة المجرّدة عنه في عقله، وكأنّه تعالى جدّه يقول: ما لك يا إبراهيم تدهش؟ تأمّل فيما يحدث إذا أتيت بطير، وفعلت بها كذا وكذا، ثم دعوتها، هكذا تمامًا أحيي الموتى، وأحشرهم للحساب.

وقد سأل إبراهيم بكيف اختصاراً وإجمالاً، وهو يريد أن ينشئ تصوّرًا يستطيع استيعابه لجمع الناس للحشر، بعد أن يصبحوا رفاة، تتفرّق جزيئاتها في جميع الجهات، ولذلك تركّزت الإجابة على عمليّة تفريق الطيور وتشتيتها، ثم عودتها لنداء من فرّقها، وذلك لما ركّبه فيها العزيز الخلاّق العظيم من طبع العودة إلى مستقرّها. وهكذا تمثّل إبراهيم، أي استوعب من خلال المثال، كيف يحيي الله الموتى، ويحشرهم ليوم الحساب.

ولو كان إبراهيم يريد حقًّا معرفة كيفيّة عمليّة البعث[1]، كما فَهم الكثيرون من ظاهر سؤاله، لما أجزأه إلاّ رؤية جثّة هامدة تدبّ فيها الحياة، بل الوقوف على آليّة العمليّة، ولمَا كان ثمّة معنًى وراء كون الميت طيورًا، ولا إلى كون الطيور أربعًا، ولا إلى تفريقها، ولا إلى إبعاد كلّ واحد منها عن الآخر أكبر بعد ممكن، ولا إلى دعوتها بعد ذلك، ولا إلى أن تأتيه، ولا إلى أن تأتيه سعيًا. ولو كان إبراهيم يريد ذلك حقًّا لاحتجنا إلى تبرير لما أجابه به الله، وهو جواب سوف يبدو على ضوء هذا التوجُّه مداورة لا جوابًا، حاشا لله، وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وإحياء الموتى، أو البعث ليوم الدين، ركن من أركان الإيمان[2]، وهذا ما يريد إبراهيم أن يطمئنّ به قلبه. وقد اطمأنّ إذ تمثّل كيف يتفرّقون في كلّ أرجاء الأرض، ثم يُنادَون، فيقومون من مراقدهم أينما كانوا، ومهما تفرّقوا في الأرض، وطال على ذلك الزمن، ويأتون ربّهم سعيًا. وهذا هو الجواب الذي يعلم الله الحقّ أن إبراهيم يحتاج إليه، ويصلح له كبشر نبيّ، تمامًا كذلك القدر من الإجابة الذي شاءه الله لموسى عندما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ١٤٣: الأعراف.

---

(١) واللطيف الخبير أعلم بما يريد إبراهيم.

(٢) وليس الإحياء في الدنيا، وهو حالات استثنائية من قبيل المعجزات.

obeikandi.com

إن قلب إبراهيم سؤول جوّاب متشظّ. وعليه كمؤمن أن يجيب تساؤلات هذا القلب ليُعدّه للفتوى التي ناطها به رسول الله ﷺ عندما قال: «البرّ ما اطمأنّت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردّد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[1]. ونحن، كمؤمنين، نعلم أن الله على كلّ شيء قدير، ولا نناقش في ذلك، ولكنّنا مأمورون بطلب العلم، لنجيب أسئلة عقولنا، وهذا معنى التأمّل والتفكّر والتدبّر.

وتعهّد القلب من لُباب الإيمان، فهو بين إصبعين من أصابع الرحمان، فإذا غفل المؤمن عن هذه المهمّة وجد الشيطان إلى قلبه سبيلاً. فإن كان المؤمن إبراهيميّ القلب شغله قلبه الحيّ الفائر المتسائل الباحث وأضناه، فإذا صبر عليه، وتعهّده كان في ركاب عقله، وكان صاحبهما على علم وهدًى.

*

إن ما كان من أمر إبراهيم مع الطيور تجربة فذّة، عضدت اعتقادًا ثابتًا لديه، فواجه الملك الضالّ بكلّ اليقين الذي تمخّضت عنه تلك التجربة، وحاوره انطلاقًا من زخْمها، فأفحمه بأوجز العبارات، وكان سلاحه من الفعاليّة بحيث صار آية في أعظم كتاب.

ولعلّ تلك المواجهة بين إبراهيم والملك كانت اختصارًا لمواجهات كثيرة، يضاف إليها ما ملأ أوساط الناس، وبطانة الملك من أخبار عنه وعن دعوته، الأمر الذي أدّى إلى أن يحكم الملك على إبراهيم بالموت حرقًا، فينجّيه الله، لتكون تلك إجابة أخرى من الله الحقّ لطلب إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ ٢٦٠: البقرة.

هكذا بلغت الطمأنينة بقلب إبراهيم غايتها قبل أن ينطلق بدعوته ليجوب الأرض، متّجهًا إلى حَرّان شمالاً[2]، فإلى سواحل المتوسّط غربًا، وإلى مِصر جنوبًا، وإلى الحجاز شرقًا. وقد رأينا في الذكر الحكيم كيف قال الله لخليله ذي القلب المتقصّي متلطفًا: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ ٢٦٠: البقرة.

*

---

(١) مسند أحمد: ١٨٠٣٥.

(٢) على اعتبار أور من مجاورات بابل في جنوبي العراق. وهو قول أكثرهم.

كان سيّدنا إبراهيم يعلم يقينًا أن الله يحيي الموتى، وأنّه على كلّ شيء قدير. كما علم الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها[1]، وأن أمره بين الكاف والنون[2]. ولكنّ التفاعل العقليّ الفذّ، الذي ينبض في مسارب اليقين، ظلّ دأبَ إبراهيم، حتى وصل به الأمر إلى القول: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ ٢٦٠: البقرة... كان يريد، شأنَه دائمًا، أن يجري تلك المحاكمة التي تقوده إلى قواعده فتزيدها رسوخًا، وتزيده طمأنينة وإسلامًا وتسليمًا. إنّه القلب الحيّ المتقصّي... نفخة الروح النازعة إلى مولاها الحقّ أبدًا، القلب الرشيد الذي باركه الله، وجعل من صاحبه للناس إمامًا ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ١٢٤: البقرة.

إضافة رأيت أن أختم بها الكلام عن مثال الطيور، فمن المنطقيّ أن يتصوّر المرء أن ما جاء به المفسّرون يرجع إلى الإسرائيليّات. وهو ظنّ مشروع، وإن لم تصدّقه توراة اليهود، وما أحسب ذلك إلاّ لأنّهم مسحوا تمامًا تاريخ إبراهيم في وطنه الأوّل. وما جاءت به الروايات الإسلاميّة، على الوجه الذي رأينا، دليل على غزو الروح التوراتيّ للفكر الإسلاميّ، ونسجه على سننه فيما لا يجده في توراة اليهود.

وفي يقيني أن النفَس التوراتيّ في قصّة الطيور المقطّعة هو ما حمل الدكتور عبد الوهاب النّجار على هذه الإحالة غير الموفّقة على سفر التكوين: «أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين لأعطيك هذه الأرض ميراثًا لك. فقال أبرام: يا سيدي الرب، كيف أعلم أني أرثها؟ فقال له: خذ لي عجلة عمرها ثلاث سنوات، وعنزة عمرها ثلاث سنوات، وكبشًا عمره ثلاث سنوات، ويمامة وحمامة. فأخذ هذه كلها وشطرها أنصافًا، وجعل كل شطر مقابل الشطر الآخر، وأما الطائر فلم يشطره. وانقضّت الطيور الكاسرة على الجثث، فأخذ أبرام يزجرها»[3]. ولم أجد وجه شبه بين مثال الطيور في الذكر الحكيم وبين هذا، ولا بين مناسبتيهما، إلا أن يكون الروح التوراتيّ الذي ينضح به مثال الطيور.

---

(١) "قال أعلمُ أن الله على كل شيء قدير".

(٢) وهو تعبير قرآني عن انعدام الزمن، فلو أنه قال: أمره كاف ونون. لظهر الزمن بين المتعاطفين، فلما جعل القول بينهما أحلّه محلّ الزمن نفسه.. ومن التعبير عن انعدام الزمن في كتاب الله قوله عزّ وجلّ: "قبل أن يرتد إليك طرْفُك" ٤٠: النمل، ومنه كذلك "وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر" ٥٠: القمر، ومنه "وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب" ٧٧: النحل. وتمثُّل ذلك المفهوم في سياق تمثُّل معنى الزمن من لوازم فقه معظم أمور العقيدة.

(٣) سفر التكوين: ١٥.

ـ المحرقة

غدا إبراهيم بعد مثال الطيور أصلب إيمانًا وأكثر قوّةً واطمئنانًا. وصار يُعامل المتطاولين المتمسّكين بجهلهم بالاستخفاف الذي يستحقّونه، حتى إنّه ذهب إلى محرقتهم المشهودة غير هيّاب، ولم يكترث لما ينتظره من نارها، ذلك أنّه كان مطمئنًّا إلى أن ما يقضيه الطاغية إنّما هو الحياة الزائلة، وأن الآخرة بعد البعث من الموت هي الأبقى.

وبذلك اليقين الباهر، نستطيع تفسير الحوار، الذي تزعم الروايات أنّه دار بين إبراهيم وبين جبريل ﷺ، حينما جاءه وهو يُلقى في النار، وقال له: ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك... فلا، وأمّا إليه، فهو أعلم بحالي...

لقد أوغر نشاط إبراهيم الدعويّ الساطع الصدور، وأثار الحفائظ، بدءًا بأبيه آزر، وانتهاءً بالسلطة المتألّهة، ومرورًا بسواد الناس، ثم تَوّجت ذلك حادثة تحطيم الأصنام المشهورة، وقد أسفر كلّ ذلك عن محاكمة سريعة، أعدّها الحاكم لإبراهيم باسم الشعب، وأدّت إلى تنفيذ حكم الإعدام به حرقًا، وتنجية الله له.

وكان إبراهيم قد نفّذ وعيده لورثة قوم نوح، الذين أصرّوا واستكبروا استكبارا، فكاد أصنامهم في غيابهم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ ٥٨: الأنبياء. ولم يكن ثمّة حاجة إلى دليل لإدانة إبراهيم، بعد الضجّة التي أثارها قسَمه العلنيّ على الكيد لأصنام القوم، وما عُرف عنه من عدائه لتلك الأصنام منذ يُفوعه[1]، فضلاً عن الشهود الذين سمعوه مرارًا يذكر الآلهة بسوء.

وقرّرت السلطة الحاكمة، التي تلعب في مثل هذه الظروف دور النزيه المتقيّد بالحقّ، القيِّم على العدل، أن يكون حساب إبراهيم وعقابه على أعين الناس، ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ٦١: الأنبياء. وفي الروايات أنّه كان على إبراهيم سكينة ملأتهم غيظًا، وكان كلّ ما فيه ينطق بالاستخفاف بهم، والسخريّة منهم.

وُوجِه إبراهيم بالتهمة: ...﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ ٦٢: الأنبياء ؟

---

(١) والأرجح أن هذا قد عرف عنه في أثناء عمله مع أبيه آزر الذي كان يصنعها.

سؤال متودّد مخادع، يحاول إظهار المحكمة بمظهر النزيه، غير المتحامل على المتّهم قبل ظهور الحقيقة. واغتنم إبراهيم ذلك المنبر الاستراتيجيّ الذي وجد نفسه على صهوته فجأة، فانبرى يطلق من فوقه حُجّته بثقة واستخفاف استفزّا الحضور: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْئَلُوهُمْ﴾ ٦٣: الأنبياء.

ولم يستطع أن يقف عند هذا، وقد كان فيه من الحُجّة ما يكفي، فأضاف ليحقّق مزيدًا من الاستفزاز: ﴿إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ ٦٣: الأنبياء.

وأحدثت القنبلة الصدمة التي أراد، فقد كانت الحُجّة أكبر من أن يتجاهلها الحضور، ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ ٦٤: الأنبياء، ثم سرت فيهم همهمة: ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ٦٤: الأنبياء.

ولكنّ الأمر لم يستقرّ على هذا، فقد ارتدّ مدّ الإصرار والاستكبار والجحود، فاجتاح حصحصة الحقّ العارضة ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ ٦٥: الأنبياء، وعاد المِراء إلى عرشه منتصرًا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ ٦٥: الأنبياء.

وكانت حُجّة أقبح من ذنب، ومحاولة للتخلّص من الشرك الذي أوقعهم إبراهيم فيه، وإذ ذاك ارتفعت حدّة لهجة أبي الأنبياء، فصاح بهم مستنكرًا: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ٦٦: الأنبياء؟!

وانتهرهم باستخفاف: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٦٧: الأنبياء.

وانتهى به الأمر إلى توبيخ علنيّ جماعيّ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٦٧: الأنبياء!

وعندما تنقطع حُجّة صاحب القبضة يلجأ إلى قبضته، وعلى مرّ التاريخ يطّرد أن استعمال القبضة دليل على الضعف. إن القاتل أضعف من المقتول، ولو كان قويًّا ما قتل صاحبه، فهو ما قتله إلاّ لخوفه منه، ولو كان قادرًا لقال كما قال سيّد الخلق لأهل مكّة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1]. وككلّ الحكّام المتسلّطين الذين ليس لهم حُجّة، يُهرع الملك المتألّه، وأجهزة حكمه إلى قتل خصومهم ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ ٩٧: الصافات.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٤١٢.

هكذا استغلّ الحاكم حالة الاستفزاز التي خلّفها تحطيم الأصنام في انتقامه من إبراهيم، وراح يستعدي الرأي العامّ عليه، الأمر الذي مكّنه من إيقاع أقصى عقوبة به، بمباركتهم ومشاركتهم[١]. ونلمس ذلك في النصّ القرآنيّ، حيث يبدأ إسناد الأفعال إلى الجماعة[٢] ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ٦٨: الأنبياء. وهكذا طالب الملأُ ممّن حول الملك باسم الشعب بأقصى عقوبة للمتّهم.

وكما كانت الروايات الإسرائيليّة الروح والنهج وراء تفسير مثال الطيور، نجدها هنا مصدر المعلومات الوحيد، فتزوّدنا بتفصيلات تُدخل على النصّ ما ليس فيه، وتغرف من الخرافة بدون حساب[٣]. ومن ذلك أنّهم صنعوا لإبراهيم منجنيقًا ليتمكّنوا من قذفه إلى جوف النار، فعرض له جبريل في المسافة بين المنجنيق والنار، وقال له: يا إبراهيم ألك حاجة؟

قال إبراهيم: أمّا إليك فلا، وأمّا إليه فهو أعلم بحالي... وقيل إنّه قال: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ٦٩: الأنبياء.

وسواء أصحّت الرواية أم لم تصحّ، وكائنة الصيغة ما كانت، فممّا لا شكّ فيه أن إبراهيم النبيّ الذي أوتي رشده من قبل، والذي جاء الله بقلب سليم سوف يلجأ في مثل هذا الظرف القاهر إلى الاحتساب، لأنّه موقن أن الاحتساب طوق النجاة للخائفين، وأن الله قضى أنّه حسب من يحتسب، والله غالب على أمره، وهو فعّال لما يريد.

وتستدعي العبارة المباركة إلى الذاكرة أهل أُحُد، الذين قال فيهم الله الحقّ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ١٧٣: آل عمران... **لقد كان إبراهيم وحده في مواجهة عدوٍّ ملك أمره، ونار سُعّرت له، وكان أهل أحد ثُلّة**

(١) ويطرد مثل هذا في تصرفات الحكام الذين لا يحظون بتأييد شعوبهم، حيث يستغلون تلك التوافقات النادرة ليزعموا أنهم والشعب في خندق واحد، وأنهم يحكمون باسمه.

(٢) يَرجح هذا الافتراض على ما قيل من أن ضمير الجماعة يخص الحاكم وزبانيته.

(٣) انظر الباب الأول: في الإسرائيليات.

openkanal.com

من جيش يجرجر وجع الجراح، ومرارة الهزيمة، وروع المفاجأة. واجتمع الطرفان على مفتاح الفرج والفوز، الدعاء والثناء: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ١٧٣ : آل عمران ...

إن أعظم الدعاء ما كان ثناءً، وأعظم الثواب ما كان على ذلك ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ ١٧٤ : آل عمران. **وفي الحديث: «إذا وقعتم في الهمّ العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»[1]. وفي إشارة إلى هذا يُروى أن جَعفَر الصادق ﷺ قال: عجبت لمن يخشى ظالمًا، كيف يغفل عن حسبنا الله ونعم الوكيل؟! لقد وقف الصادق على السرّ... إنّه الإخلاص لمدلول هذه العبارة، والاعتصام الكامل الواثق بالله، بحيث تجنّد كلّ قوى المرء، وتُدفع في مسالكها الحقّ، فتستقرّ أموره في أنصبتها، وتكون مقدّماته سليمة ومَهديّة، تصل به مباشرة إلى نتائجه.**

كان يمكن لإبراهيم أن يهرب كما هرب موسى، ولكنّه أُلقي في النار، ولم يُنجه منها ريح ولا مطر ولا صديق ولا صُدفة، لم يُنجه منها إلاّ أن الله وحده كان حسبَه ونعمَ الوكيل، فقضى أن تكون النار بردًا وسلامًا عليه، فكانت كما قضى الله الحقّ...

أمّا كيف حدث ذلك؟ فهي المُعجزة. والمُعجزة، كما سبق القول، ليست خرقًا لقوانين الوجود، ولكنّها التوظيف الأوّل المُلهَم والرائد لِما يكتشفه العقل البشريّ منها. واليوم لم يعد أحد يجهل أن هنالك موادَّ لا تؤثّر فيها النار، اكتشفها الإنسان واستعملها للعزل بطرق معروفة، ومنها تُصنع ملابس رجال المطافئ، كما أن هناك ظروفًا يعرفها المشتغلون بالفيزياء، يمكن أن تلعب دورها في تخفيف حدّة النار، أو تؤدّي إلى تشكّل جيوب في محيط الحريق.

وقد ذكر الرازي بعض ما قيل في الآية الكريمة ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ٦٩: الأنبياء، ومنه قول أبي مسلم الأصفهانيّ: «المعنى أنّه سبحانه جعل النار بردًا وسلامًا، لا أن هناك كلامًا كقوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾» ١١٧: البقرة[2]،

---

(١) أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة.

(٢) التفسير الكبير. تفسير الآية ٦٩ من سورة الأنبياء.

وهو يعني أن النار صارت بردًا وسلامًا بما قضاه الله فيها من أسباب أدّت إلى ذلك، أي أن «قلنا»: بمعنى «قضينا».

وقد أورد الرازي بعض الأسباب التي قضاها الله في النار فأدّت إلى عدم نيلها من إبراهيم، ومنها: «أن الله خلق في جسم إبراهيم كيفيّة مانعة من وصول أذى النار إليه... أو أنّه سبحانه وتعالى خلق بينه وبين النار حائلاً يمنع وصول أثر النار إليه»[1]، ولعلّ شيئًا أشبه بما ذكرت يُستشَفّ كذلك من تعليق لكعب الأحبار يقول: «لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار، ولم تُحرق منه سوى وثاقه»[2]، فكأن أمرًا طبيعيًا وقع في تلك اللحظات الرهيبة، كأن تحترق كامل كميّة الأوكسجين في الجوّ لثوان ممّا يخمد النار. وذلك بتقدير العزيز الحكيم وتدبيره. فتلك قوانين الله الحقّ فيما خلق، يفعّلها لوقتها، في توافُقات لا يُحيط بها إلاّ الواسع العليم. ولا يمكن أن يُدرك سرّ ذلك عقل البشر، فإذا أدرك بعضًا منه فبالسلطان الذي وهبه الله جلّ وعلا لقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ ٣٣: الرحمن[3]. وما دام النصّ القرآنيّ قد اقتصر على إخبارنا أن إبراهيم نجا من كيد النمرود وزبانيته، ولم يزوّدنا بتفصيلات عن كيفيّة ذلك، فليس لنا أن نبتكر الطرق، ونخترع الآليّات التي تمّت بها نجاته، فهو قد نجا كما ينجو بعض الناس من بيوت احترقت، أو سيّارات أو طائرات تفجّرت. ولطالما طرقت أسماعنا عبارة: نجا بمُعجزة.

ونحن نرى النصوص القرآنيّة تُبدي حرصًا واضحًا على تجاوز تفاصيل المحرقة. ففي النصّ التالي يُقطع المشهد بصورة مفاجئة، لينقلنا إلى النهاية، فيما يبدو دعوة خفيّة إلى عدم الخوض فيما سبقها من أحداث: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ ٦٩ - ٧١: الأنبياء.

وفي تناول آخر لهذا الموقف يؤكّد النصّ القرآنيّ مرّة أخرى حرصه على تجاوز الأحداث المثيرة المفترَضة السابقة للمحرقة، فنراه يسوق الخبر كما يلي: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ

(١) التفسير الكبير. تفسير الآية. وهذا من إشراقات العقول الرائدة، التي ترهص بما يحققه العلم بعد قرون وقرون.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير. تفسير الآية، والأرض هنا بمعنى المكان.

(٣) انظر الباب الأول: المعجزة.

بُنْيَنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ﴾ ٩٧: الصافات، ثم يسكت تمامًا عن تفاصيل ذلك البنيان، ودوره في تنفيذ الحكم بالحرق، ويعلّق تعليقًا عامًّا على الهامش البعيد للخبر كما في المرّة السابقة: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ٩٧ - ٩٩: الصافات.

وفي تناول ثالث في سورة العنكبوت تَبرز الظاهرة نفسها ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ٢٤: العنكبوت. أليس عجيبًا، بعد هذا، أن نخوض فيما حرص الكتاب المبين على عدم الإبانة عنه؟!

ورغم ما تقدّم، يُصرّ الأخباريّون والقصّاصون على حشد الروايات المختلفة الأصول والمشارب عن كلّ ما يتعلّق بتلك النار، فيغَطّون كلّ جزئيّة وكلّ تفصيل بالعشرات منها، ذلك أن التحريق، بالنسبة إليهم حدث دراميّ يشكل قمّة في الإثارة والجذب، وهو حدث نموذجيّ من حيث قبوله الكثير من التهويل والمبالغة. ومن هنا تعدّدت الروايات، فكان منها ما ينتهي إلى ابن إسحاق، أو ابن عبّاس، أو كعب الأحبار، ومنها ما نقل عن السيّدة عائشة عن رسول الله ﷺ، كما يزعمون، وكلّ ذلك لا يثبت للتمحيص[(١)].

لقد نجّى الله إبراهيم من القوم الظالمين، وكانت نجاته مُعجزة، من حيث حصولها رغم حرصهم الشديد على موته، ولكنّها لم تكن بتلك الطريقة البدائيّة الحبكة، التي فرضتها الروايات على المفسّرين، وفرضها المفسّرون على مَن جاء بعدهم. ولو كان إبراهيم قد نجا بواحدة من الطرق التي أتحفتنا بها الروايات، لكانت نجاته سببًا في إيمان معظم قومه، إن لم يكن كلّهم، ولكان ذلك انعطافًا واضحًا في خطّ سير الدعوة. ولم تذكر لنا المصادر الموثوق بها، ولا غير الموثوق بها شيئًا من ذلك، بينما ذُكر عكسه، وهو أن إبراهيم غادر أُور بطريقة أقرب إلى الفرار، ولم يكن معه في أغلب الروايات سوى بعض خاصّته، بل لم يذكروا إلاّ أباه[(٢)]، وزوجته سارة، وابن أخيه لوط.

---

(١) انظر الباب الأول: في الإسرائيليات.

(٢) وهو غير المدعو: "آزر"، والذي جاء في الذكر الحكيم أنه عدو لله، وأن إبراهيم تبرأ منه، والذي كان قد طرد إبراهيم من بيته، وناصبه العداء، مما لا يتفق وهجرته معه.

ولا يسَعنا أن نزيد على أن القوم قد أعَدُّوا لتنفيذ الحكم إعدادًا مشهودًا، ولكنّ الله الحقّ أحبط ما دبّروه، فلم تنل نارهم من إبراهيم، بل كانت راحة وطمأنينة، وكان الخسران والذلّ حظّهم من سعيهم للكيد له.

* * *

ونظلّ في نطاق معطَيات الروايات، حيث يذكر بعضهم أنّه كانت لإبراهيم بنت عمّ جميلة تدعى سارة، كانت تشاركه مَقت معبودات قومها، وقد فخرت بما فعل بأصنامهم. فلمّا صدر حكم الملك، بتحريق إبراهيم، دفعت أباها إلى الملك يشفع له عنده، فرفض الملك شفاعته، فراح يحثّ إبراهيم على التخلّي عن دعوته، لينجو من المصير الذي ينتظره، فلم يستجب له إبراهيم[1].

* * *

الدعوة الإبراهيميّة في أرض الهجرة

الهجرة من العبادات الجليلة، العظيمة المنزلة والثواب في الإسلام، لما يكتنفها من شدّة ومشقّة، ومعاناة ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِى ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ ٤١: النحل.

ويلاحظ أن مركز الثقل في قصّة أبي الأنبياء يختلف بين القرآن الكريم وتوراة اليهود، ففي النصوص القرآنيّة يتوزّع ثقل القصّة فيما بين الوطن الأمّ ووادي مكّة، ويبلغ أدناه في أرض كنعان، كما تدعوها توراة اليهود، ولا نجد لمصر ولا لحرّان في الذكر الحكيم ذكرًا. أمّا في التوراة، فتتمركز الأحداث في بلاد الشام وفلسطين، ويُمحى بعناية وحرص تامّين كلّ ذكر لما كان في الوطن الأمّ وفي الحجاز، وتبدو كلّ من حرّان ومصر محطّتين فارغتين مفتعلتين.

وقد كان لكلّ واحدة من هجرات أبي الأنبياء أسبابها، ولكنّها جميعًا تشترك في

---

(١) يذكرنا هذا بموقف أبي طالب من رسول الله ﷺ، حين عرض عليه التخلي عن الدعوة إلى الله.

السبب الأوّل والرئيس، الذي أعلنه بكلّ وضوح قبل أوّل خطوة تولّى فيها عن مهد الأنبياء ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ ٩٩: الصافات، و﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ ٢٦: العنكبوت، فهو مهاجر بهدف الدعوة إلى الله. أمّا ما تذكره الروايات الإسرائيليّة الأصل أو المنهج من أسباب لهجراته كالقحط، وما زُعم من تصرّفات ملك مِصر، والنزاع بين زوجتيه، فإن ما صحّ منه متنحّ، ولا يمكن أن يكون المحرّك الأوّل لخُطا أبي الأنبياء الذي أوتي رشده من قبل.

*

تغيم الرؤية على الباحث لدى محاولته التأريخ المكانيّ والزمانيّ، لما ذكره القرآن الكريم من نشاطات أبي الأنبياء الدعويّة. وفي معزل عمّا تقدّمه لنا الروايات، يُلمِح السياق، في سورة الأنبياء، إلى أن خروجه ﷺ من موطنه الأمّ[١]، كان ملازمًا لنجاته من المحرقة: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ ٧١: الأنبياء، وفي آية أخرى نتبيّن ما يُعين على تصوّر عزمه ﷺ على الهجرة بدعوته، إذ يئس من جدواها في أرضه، وبين قومه، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ٩٩: الصافات.

وقد نستطيع لدى متابعة السياق، في سورة العنكبوت، أن نستشفّ أن إبراهيم لبث في قومه مدّة بعد واقعة التحريق، حيث تظهر في خطابه لهجة من يُنهي جدالات وحوارات طويلة مرهِقة: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ ٢٥: العنكبوت. وقد يعضد هذا أن بعض الروايات التاريخيّة تجعل محاورته الملك بعد واقعة التحريق، وكذلك حواريّة الكواكب والنجوم.

فهل انطلق إبراهيم مهاجرًا يائسًا قبل أن يستفيق أعداؤه على الحقيقة؟ أم خَزي هؤلاء، وتركوه وشأنه لأمر ما[٢]؟ وإذا كان إبراهيم قد بقي في أرضه وبين قومه، فهل أقام يدعو إلى الله حتى يئس من الناس؟ أم مرّت دعوته بفترة من السرّيّة، أو من الجمود قبل أولى هجراته؟

(١) الذي ترجّح الروايات أنه أُور.

(٢) كأن تكون أعرافهم تقضي بإطلاق من ينجو بعد توقيع العقوبة عليه.

في حَرّان

تبدو حَرّان في الروايات الإسلاميّة مطموسة الملامح، بل قد لا تُذكر مطلقًا، وذلك تبعًا لصورتها الشاحبة الهزيلة في التوراة، بل إن معظم الروايات الإسلاميّة تتجاهلها، فقد خرج إبراهيم من أرض أهله وعشيرته، دون أن يحدّد وجهته، معتمدًا على الله الذي يعرف سبب خروجه، فيهديه السبيل المناسبة ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ٩٩: الصافات. وتربط مباشرة بين ما تدعوه التوراة بأرض كَنعان، وبين قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ ٧١: الأنبياء، فتجعل مُهاجَره الأوّل بلاد الشام.

وهناك من هذه الروايات ما يجعل مولد إبراهيم في حَرّان، وهجرته الأولى منها إلى بلاد الشام. في حين يرى آخرون أن حَرّان من بلاد الشام، فتكون من الأرض التي هاجر إليها.

أمّا في توراة اليهود، فقد بدأ سفر التكوين كلامه عن إبراهيم بقوله: إن تارحًا «أخذ أبرام ابنه، ولوطًا بن هاران حفيده، وساراي كنته فخرج معهم من أُور الكلدانيّين ليذهبوا إلى أرض كَنعان، فجاؤوا إلى حاران، وأقاموا هناك»[١].

ولم تحدّد توراة اليهود مدّة إقامة أبي الأنبياء في حَرّان، وكأنّي بها، وقد أكّدت في أكثر من موضع أنّه دخل أرض كَنعان في الخامسة والسبعين من عمره، تريد القول: إن إبراهيم أمضى أربعين سنة من شرخ شبابه في حَرّان، وأن نشاطه فيها اقتصر على تكثير ثروته، ولم يَقم هناك بأيّ نشاط دعويّ. بل يوحي النصّ التوراتيّ أن صلة إبراهيم بالربّ، لم تبدأ إلاّ بعد أن غادر حرّان، بأفراد أسرته وخدمه ورعاته، وأنّه كان قد قضى فيها ما شاء الله له من أيّام، وأصاب فيها ما أصاب من نعمة، وسوف يأتي تفصيل ذلك.

وفي هذه المرحلة، من حياة إبراهيم عليه السلام، تظهر سارة، أو ساراي كما تدعوها المصادر التوراتيّة، في مسرح الأحداث بشكل محوريّ ومؤثّر. وكثيرون

---

(١) سفر التكوين: ١١. ظل إبراهيم في التوراة يدعى بأبرام وسارة بساراي حتى بشرا بإسحاق، فصارا إبراهيم وسارة.

على أن إبراهيم قد تزوّج بها قبيل مغادرته العِراق مهاجرًا، فكانت رفيقته في معظم هجراته.

في بلاد الشام

في الروايات الإسلاميّة أن إبراهيم يئس من جدوى الدعوة في أرض آبائه، فقرّر أن يضرب في الأرض مستهديًا ربّه في وجهته، فهداه إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ ٧١: الأنبياء. وهناك شبه إجماع بين المفسّرين على أنّها بلاد الشام[1]، وما ذلك إلاّ متابعة للتوراة.

وتتحدّث الروايات، وكلّها تستقي من توراة اليهود، عن فترة طويلة من التَجوال والترحُّل لأبي الأنبياء في بلاد الشام، وتذكر أنّه انتهى بمن معه من أهله وأنعامه ورعاته، بمقاليعهم وأقواسهم إلى شكيم، ولم يلبث لوط أن استقرّ في المؤتفِكة وهي سَدوم وعمورة. وقد أصاب كلاهما يسارًا، وتكاثرت أنعامهما وأموالهما، وراح كلّ منهما يمارس الدعوة إلى التوحيد في منطقته.

وتتواتر الأخبار بأن إبراهيم كان يقيم بيوتًا للعبادة، حيث أمكنه ذلك من الأرض التي كان يجوبها، وقد دُعيت تلك البيوت بالمحاريب، بينما عُرفت في توراة اليهود بمذابح الربّ.

واستطاع إبراهيم أن يتجنّب الصدام مع الكَنعانيين المحارِبين، ولكنّه لم يستطع، ومن معه، الاستقرار، فتنقّلوا بين منازل عديدة، واتّخذت ترحّلاتهم خطًّا عامًّا باتّجاه الجنوب. وقد ذكرت بعض المصادر صلة لإبراهيم بمدينة دمشق.

في مِصر

تبدو هجرة إبراهيم إلى مِصر في التوراة عديمة الأهميّة والأثر، ممسوحة الوجه، مفتعلة الأحداث، وكأنّ كتبة التوراة ما أتَوا على ذكرها إلاّ لأمرين: الأوّل أن يُثبتوا لهم قِدَمًا في سيناء، كتوطئة وتأصيل لالتحاق إخوة يوسُف به، وتُكأة للزعم أنّهم عندما خرج بهم موسى من مِصر كانوا ذلك العدد الضخم الذي يصلح لأن يكون نواة

---

(١) مما يذكر من بركات الشام أن فيها بيت المقدس، ومن بركاتها طيب هوائها، واعتدال مناخها، وغلبة الإخلاص والجد والنظافة والذوق على أهلها.

أمّة، والثاني أن يختلقوا الفِرية القائلة إن أمّ إسماعيل جارية أهديت إلى سارة. وذلك في سياق إعلاء نسل إسحاق على نسل إسماعيل.

وما من مصدر مستقلّ يذكر تلك الرحلة، إن هي إلاّ توراة اليهود، وكفى بها مصدرًا حيث عزّت المصادر على ناشدي الأخبار، فملؤوا المجالس والمنابر والصحائف بما أفاضته عليهم، وكان تاريخٌ توراتيّ ما يزال العالم يعاني من أضاليله، رغم كلّ محاولات العلم لتجاوزها. وهناك من المصادر الإسلاميّة ما يضرب الذكر صفحًا عن تلك الرحلة، ومن ذلك ما نقله أبو حيّان عن السدّي: «فهاجر إلى الشام قيل أو إلى حرّان، وكانوا بأرض كوثاء، وفي هجرته هذه تزوّج سارة، ولقي الجبّار الذي أخدم سارةَ هاجرَ»(١)، وهذا يعني نقل قصّة هاجر التي تنسبها التوراة لمصر إلى الشام أو حرّان. وليس ما اشتهر من كون هاجر مصريّة(٢) دليلاً كافياً على هجرة إبراهيم إلى مصر، فقد أُهديت ماريّة المصريّة إلى رسول الله، وكانت أمّ ولده إبراهيم، وهو لم يطأ أرض مصر، بل لعلّ ما نقل عن رسول الله ﷺ من القول: «الله الله في أهل الذمّة... فإن لهم نسباً وصهراً»(٣)، إن صحّ، يخصّ أمّ المؤمنين ماريّة القبطيّة، رغم ما هو شائع من أنّه يخصّ هاجر.

*

يروي كتّاب التوراة أن مجاعة قد حلّت بفِلسطين، وكان البدو الكنعانيّون جنوبيّ بلاد الشام عمومًا قد اعتادوا أن يقصدوا مصر في مثل تلك الظروف، ولكنّهم سَرعان ما كانوا يعودون، أو يعود معظمهم، متى تحسّنت الأوضاع في بلادهم. فهي أقرب إلى النُّجَع منها إلى الهجرات(٤)، ولا يترتّب عليها أيّ حقّ للمهاجرين في الأرض(٥)، وقد

---

(١) البحر المحيط. تفسير الآية ٤٧ من سورة مريم.

(٢) وقيل غير ذلك.

(٣) سيرة ابن هشام ١: ٦.

(٤) النُّجَع جمع مفرده نُجعة. وهي طلب الكلأ في موضعه.

(٥) والشاهد على ذلك ما نراه في التوراة من أن إبراهيم رغم ما سلخ من السنين مقيمًا في أرض كنعان ظل يعتبر نفسه، وتعتبره التوراة، متغربًا، ولم يجد له حقًا في مدفن لزوجته حتى اشتراه بماله وبرضا أصحاب الأرض. [سفر التكوين: ٢٣].

ارتحل إبراهيم بأهله إلى مِصر فيمن ارتحل. وهذا الغرض المعاشيّ للهجرة مشروع، ولكنّه لا ينفي أن هدف إبراهيم وهاجسه، في كلّ تحرّكاته، إنّما هو نشر الحنيفيّة التي بُعث بها للناس في كلّ أرض يستطيع الوصول إليها.

ومن البديهيّ أن إبراهيم كان يبحث في أنحاء الأرض عن أناس لديهم مثل ما لديه من عقيدة التوحيد. ويرى العقّاد أن من أسباب نزوله مصر قصده أن يسمع ما يقوله أحبارها في أمر الله[1]. ولعلّ من آثار تلك الرحلة نقلَ إبراهيم عادة الختان التي اشتُهر بها المصريّون، وجعلها في أهله وقومه، ذلك أنّه رأى فيها، بما آتاه الله من الرشد، حكمة هو أحقّ بها[2].

وهذا لا يقدح في ثقة إبراهيم بما عنده، فمن بلغ مرتبة النبوّة يعلم يقينًا أن ما عنده هو الحقّ. ولكنّنا من جديد، وكما نحن دائمًا مع إبراهيم، الذي أوتي رُشده من قبل، نقف أمام ثابتِه العظيم ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ٢٦٠: البقرة. فبحثُ إبراهيم عن المزيد من الطمأنينة القلبيّة جزء من فعاليّات عقله الحيّ الجوّاب.

ومصر بلد يتميّز بدماثة أهله ورقّتهم، والبلدان كالعوائل لكلّ عائلة سَمتها. وقد جَعل سَمتُ المصريّين لبلدهم جاذبيّة خاصّة، فما زارها أحد إلاّ حنّ إليها، وما سلّط الله عليها ظالمًا إلاّ كانت نهايته عِبرة[3]. كما كانت نهاية فِرعَون موسى، علمًا أن فِرعَون موسى يفضل كثيرًا من فراعين الأرض[4].

وتُحدّثنا رواية إسرائيليّة، يثير أكثر من العجب أن تشيع في الكتب الإسلاميّة، ولاسيّما كتب التفسير، عن إقامة سارة زوج إبراهيم في قصر من تدعوه بفِرعَون مصر، بكلّ الأطياف المنكَرة لهذا الحديث، ممّا لا يليق بالرجل العاديّ، ناهيك بأبي

---

(١) عن كتاب "دراسات تاريخية من القرآن الكريم" لمحمد بيومي مهران ١ : ١٣٥.

(٢) وقد لا يقر اليهود بذلك، لأن التوراة تجعل الختان فرضًا من الله على بني إسرائيل، وشرطًا للانتساب إلى الأمّة [سفر التكوين: ١٢]، بل تقيم له من الوزن ما يقابل ما يقيمه الإسلام للصلاة باعتبارها عماد الدين. أمّا في الإسلام فالختان واجب، ممّا يجعل الفكرة مقبولة.

(٣) والقسوة غير الحزم، والحكم حزم، فالحاكم اللين يعلم الناس الفوضى والانفلات.

(٤) انظر قصة موسى عليه السلام.

obeikandl.com

الأنبياء، ثم نجاتِها من بين براثنه بمُعجزة أكرم بها الله خليله. وهو حديث لا يثبت للبحث، ومنه: «وشاهدها بعض حاشية فرعون، فمدحوها عند فرعون، وأخذوها إلى بيته. وأحسن فرعون إلى أبرام بسببها، فصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال. أما الرب فضرب فرعون وأهل بيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام...»(١).

ولئن كان كثير من المصادر التاريخيّة العربيّة ينسب ذلك إلى جبّار، هو تارة عمرو بن امرئ القيس بن سبأ(٢)، وكان على مصر، وأخرى صادوق وكان على الأردن(٣)، وثالثة سِنان بن عُلوان(٤). فإن جمهور المؤرّخين، ومن ورائهم معظم المفسّرين يأخذون بالرواية التوراتيّة بأمانة تامّة، أو مع بعض التبريرات والتحفّظات، فيحدّثوننا عن فِرعَون، الذي يبثّ عيونه في مملكته، يتصيّدون له النساء، فإذا أعجبته ذات زوج قتل زوجها، واستخلصها لنفسه، فلمّا مثل إبراهيم وسارة أمامه، وسأله عنها، ادّعى أنّها أخته، فطلب الملك أن يزوّجه بها، فوافق!

وهنا يحاول البعض التوفيق بين هذه الرواية التوراتيّة، وبين صورة إبراهيم في القرآن الكريم، فيُضيفون تفصيلات، منها أن جبريل كان يوجّه إبراهيم، في كلّ هذا. وأن الله منع سارة من الملك، فكان كلّما همّ بها يبست يده. فيئس منها وخافها، وأطلقها.

ولا يكتفي أصحاب الروايات بهذا، بل يُضيفون أن إبراهيم، من موقعه خارج القصر، كان يرى ما يجرى بين سارة وبين الملك، ويعُدُّون هذا من معجزاته ﵇، على الرغم من أن الرواية ليس لها مايؤكّد صحّتها من جهة، وأن مُعجزة الرؤية عبر

---

(١) سفر التكوين: ١٢. ويدعو كتبة التوراة هذا الملك، وكل ملك مصري، من أيام إبراهيم إلى أيام المسيح ﵇، بفرعون، بما في ذلك حاكم مصر في زمان يوسف، رغم أن أغلب المؤرخين على أنه من الهكسوس. وكأني بهم، وقد كتبوا التوراة بعد موسى بما نعرف من قرون، يتصيدون المثالب ليلصقوها بكل حاكم مصريّ، فيفرعنوه انتقامًا من فرعون موسى. وأغلب المؤرخين على أن السلالة الحاكمة التي أُطلق على ملوكها لقب فرعون اعتلت عرش مصر بعد رحيل الهكسوس.

(٢) وهو قول ابن هشام.

(٣) وحكاه ابن قتيبة.

(٤) حكاه الطبري.

الأجسام لم تُنسب إلى سيّدنا إبراهيم من جهة أخرى. وتجعل الروايات هذا الحدث السبب المباشر لمغادرة إبراهيم مصر، والعودة بمن معه إلى أرض فلسطين.

ويتمخّض خيال أصحاب الروايات، الذين ينقل عنهم كثير من المؤرّخين والمفسّرين المسلمين، كما لو كانوا مصدرًا غير مكذوب، عن أن هاجر زوج إبراهيم، وأمّ ابنه إسماعيل، وجدّة العرب، إنّما هي جارية مصرية، قدّمها فِرعَون مصر، أو ملكها إلى سارة زوج إبراهيم، وأمِّ إسحاق. وتلك رواية إسرائيليّة أخرى، الغاية منها تكريس القول إن العرب أبناء أَمة، وبني إسرائيل أبناء حرّة، وإن كانوا، في سبيل غاياتهم الأهمّ، قد ارتضَوا أن يُلصقوا بتلك الحرّة، وبزوجها جدّهم، ما سبق ذكره من شبهة غير لائقة.

ورغم أن أقدار الناس في الإسلام لا تتأثّر بهذه الاعتبارات، فإنّ رائحة المؤامرة والكيد تحفز على محاولة وضع النّقاط على الحروف. فمن الجدير بالذكر أن شيئاً من هذا لم يرِد في خبر الرحلة إلى مصر في سِفر التكوين، حيث ينتهي الخبر بما يلي: «فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيّعوه وامرأته، وكل ما كان له»[1]، رغم أنّه قد جاء في أكثر من موضع، من هذا السفر، أنّ هاجر جارية لسارة.

وفي المصادر الإسلاميّة، تجد الرواية المشهورة المنسوبة إلى ابن عبّاس في صحيح البخاريّ، والتي جاء فيها أن هاجر مصريّة، حظوة كبيرة، وقد نجد من يأخذ بقول أبي حيّان ينقل عن السُدّيّ: «فهاجر إلى الشام، قيل، أو إلى حرّان، وكانوا بأرض كوثاء. وفي هجرته هذه تزوج سارة، ولقي الجبّار الذي أخدم سارة هاجر»[2]، وهذا يعني أنّها من الشام، أو من حرّان.

أمّا كونها جارية أُهديت إلى سارة، فليس في الموثوق به من المصادر ما يُلزم به، رغم سيرورته وشيوعه، فقد جاء في صحيح البخاريّ عن أبي هريرة: «... وأخدم هاجر»[3]، ولكنه ليس مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ. وجاء الحديث نفسه في أربعة

(١) سفر التكوين: ١٢ .

(٢) البحر المحيط تفسير الآية ٤٧ من سورة مريم

(٣) الحديث رقم ٣١٧٩.

أبواب أخرى بلفظ: «وأخدم وليدة»، وكذلك جاء في مسند ابن حنبل. أمّا في صحيح مسلم فقد جاء الحديث مرفوعًا، وفيه: «وأخدم خادمًا»[١]. وقد قال ابن هشام: «وهاجر من أهل مصر». ونقل عن ابن لهيعة: «أم إسماعيل: هاجر، من أم العرب، قرية كانت أمام الفَرَما»[٢]. ولا يُعرف عادة مثل هذه المعلومات عن الجواري المملوكات اللائي يُتصرَّف بهن كهدايا.

والأرجح، أن هاجر حرّة، وإن لم تكن بنت ملك أو ما أشبه، ممّا زعمه البعض. والأقرب إلى روح الروايات المتداولة، أن إبراهيم قد تزوّج بها في مصر نُشدانًا للولد، بعد أن يئس أن يُرزق به من سارة، وعاد بها إلى مستقرّه في فِلسطين. ومن مجمل الروايات، على تخالُفها، تبدو هاجر ليّنة دمثة نظيفة السريرة، تنطوي على طِيبة وصفاء نفس، وقد بدت آثار ذلك في طبيعة ابنها إسماعيل وذرّيّته من بعده.

ويستفاد من الروايات التوراتيّة أن هاجر لاقت في بيت إبراهيم عنَتًا، وذلك بسبب غَيرة زوجته سارة ذات المكانة والنفوذ. ويبدو أن سارة هي التي أشاعت أن ضرّتها المصريّة جارية أُهديت إليها. وأنّها هي التي دفعت بها إلى إبراهيم لتأتيه بالولد، وليست حرّة اختارها عليها[٣]. ولا يبعد أن تكون قصّتها مع ذلك الذي دعي بفرعون من هذا الباب، فليس بالسهل أن نسيغ تهافت فرعون مصر على امرأة تجاوزت السبعين. وقد تمّ حبك القصة، والتوليف بينها وبين كون هاجر جارية أُهديت إليها.

ولدى النظر في المشهور المتداول من الأخبار في التوراة وغيرها، واحتساب نسبة التزوير والتلاعب، وما وراء ذلك من غايات، يغلب على ظنّ المتفكّر أن سارة كانت وراء اضطراب علاقة إبراهيم الزوجيّة بهاجر، ممّا كان أحد الأسباب التي جعلت إبراهيم يفكّر في اصطحابها إلى الحجاز. وقد قام كتَبة التوراة، فيما بعد، بتكريس هذا الواقع الذي أحاط بهاجر، وذلك في سياق انتقاصهم إسماعيل وذرّيّته، والسعي إلى

---

(١) صحيح مسلم: ٢٣٧١ . ولكن فيه على لسان الجبار: فأخرِجها من أرضي، وأعطها هاجر. وهي جملة لا تدلّ بالضرورة على أن هاجر جارية .

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٦.

(٣) تلجأ المرأة في مثل تلك الحالة إلى هذا النوع من المزاعم للحط من شأن غريمتها، والرفع من شأنها.

إقصائه عن إرث النبوّة لمصلحة إسحاق وذرّيّته، كما سبق القول. من هذه النافذة وحدها يمكننا أن نفهم النصوص التوراتيّة التي تصف وضع هاجر المزري في بيت إبراهيم.

العودة إلى فلسطين

من أخبار إبراهيم الأكثر تداولاً أنّه عاد إلى الشام بمن معه، واحتفر بئر سَبع، فكانت بركة عليه وعلى المنطقة كلّها، وأنّه كان مضيفًا حتى عرف بذلك. ومنها أيضًا أنه رزق بإسماعيل، فكان قرّة عين له، إذ بُشِّر به على الكبر لدعوته: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ١٠٠: الصافات. وتشير الروايات المتّكئة على توراة اليهود، وروايات أهل الكتاب، إلى أن الغيرة قد استبدّت بسارة عندما حملت هاجر بإسماعيل، ولعلّها تريد أن هاجر استطاعت أن تتودّد إلى إبراهيم بما أوتيت من لطف وتحبّب، اشتُهرت بهما المصرّيات عبر التاريخ[(١)]. وتزعم أكثر هذه الروايات أن سارة قد طَردت هاجر من بيت إبراهيم أكثر من مرّة، كانت أولاها بعد أن حملت بإسماعيل، وأخراها وهو في الرابعة عشرة من عمره، وبعد أن رزقت بإسحاق.

وبغضّ النظر عن تفاصيل هذه التوراتيّات، التي سوف نذكر تهافتها وتناقضاتها، فإنّه يبدو أن إبراهيم كان يلتزم الحياد في النزاع بين زوجتيه، الأمر الذي ساهم فيما وقع على هاجر من ظلم، لم يكن إبراهيم الحليم يستطيع دفعه[(٢)].

قوم لوط

تقتحم قصّة قوم لوط قصّة إبراهيم عليه السلام من دون أن تملك مكانًا استراتيجيًّا في الخطّ الدراميّ لأحداثها، إلاّ ما كان من بشارة الملكين بإسحاق. فقد آمن لوط بعمّه نبيًّا ورسولاً من الله الحقّ إلى قومه، وآمن بما جاء به، وسِيم ما سِيم عمّه والذين آمنوا

---

(١) ينسب إلى الإمام الشافعي، وهو عراقي، أنه قال: من لم يتزوج بمصرية فليس بمُحصن. ومصر بلد أسري متميز، تصبغ العلاقات بين الرجال والنساء فيه رقة وتسامح وتبسط لا تجدها في بلد آخر، لذلك كان للمرأة المصرية دور واضح في الشأن العام، ولم تكبلها القيود التي كبلت غيرها من النساء في المجتمعات الإسلامية. وإن كانت هذه الحرية قد أُستُغِلَت، في بعض الأحيان، من قبل المستشرقين والمستعمرين وأعمدة الغزو الفكري الغربيّ.

(٢) هكذا هم عظماء الرجال، لا جبابرتهم الأجلاف، رقيقون لينون مع أهلهم وبنيهم. وعلى رأس العظماء سيد الخلق، الذي بلغ من رقته ولينه أن أزواجه تآمرن عليه، حتى انتصر الله له، والذي نقل عنه في آخر وصاياه: استوصوا بالنساء خيرًا... والذي قال: خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي.

openkanadi.com

معه من الأذى، وهاجر معهم عندما ضاقت بالدعوة أرض العراق، فكان رفيق عمّه، يقيم ما أقام، ويرتحل ما ارتحل. وآتاه الله النبوّة، فراح هو وعمّه يحملان رسالة التوحيد الخالدة إلى كلّ بقعة يؤتيهما الله القدرة على بلوغها. وكانت أحداث، ثم انتهى المطاف بلوط ومن معه في المؤتفِكة من أرض كَنعان، وبينها وبين مستقَرّ الخليل مسيرة يومين.

لبث لوط في المؤتفِكة يدعو القوم أن يسلموا إلى الله، ولكنّهم كانوا على واقع من الفساد أعماهم عن دعوة الحقّ، فما آمن معه غير بيت واحد. وفي هذه الآية في سورة العنكبوت نقف على كلّ ما في قوم لوط من السوء والفساد ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ ٢٩: العنكبوت، فهم يسرقون مال من يظفرون به من السابلة، وينهبون متاعه، ويتسفّلون في سلوكيّاتهم، ويتصرّفون باستهتار، وبلا مبالاة بعُرف أو بذوق، وقد جاهروا بالشذوذ في العلاقة الخاصّة، حتّى شاع فيهم اللواط.

وجاهد لوط في أهل المؤتفِكة، ولكنّهم ظلّوا مُصرّين مستكبرين، ثم لم يلبثوا أن ضاقوا به وبدعوته ذرعًا، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ ٥٦: النمل... إنّه الوجه الآخر لمقولة آزر عندما أخرج إبراهيم من بيته: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ ٤٦: مريم.

ذلك دأب الباطل، حيثما شاع اعتُبرت الفضيلة عيبًا، ومن هنا قال فِرعَون عن موسى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ ٢٦: غافر... وهكذا تُقلب الموازين، فإذا التطهُّر مدعاة للطرد، والرجم جزاء للدعوة إلى الله، وإذا فِرعَون يخاف أن يُظهر موسى في الأرض الفساد...

وما أشبه الليلة بالبارحة! فها نحن أولاء نسمع العالم يرمي الإسلام بالإرهاب، ويصف المسلمين بالمجرمين القتلة... إنّه التاريخ يعيد نفسه، دأبه كلّما توفّرت الأسباب الحقّ، وإنّها لسنّة الله في كلّ ما خلق في هذا الوجود الماديّ... تتحقّق النتيجة حتمًا بتحقُّق مقدّماتها التي شاءها الله لها، ولا تجد لسنّة الله تبديلا.

ومن قوانين الله الحاقّة في هذا الوجود، أن هذه الآفات الأخلاقيّة ما شاعت في مجتمع بحيث تصبغه إلاّ حلّ به العذاب.

ضيف إبراهيم المكرمون

ولمّا أذن الله الحقّ، أن يَحيق بقوم لوط سوء العذاب بما كسبوا، أرسل إليهم ملائكته، فنزلوا في ضيافة إبراهيم قبل دخولهم المؤتفِكة. ولضيف إبراهيم حديث حدثَناه الذكر الحكيم: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ٢٤: الذاريات[١]، فقد دخلوا عليه، فاستضافهم، وأكرمهم.

لقد أمر الله إبراهيم، في سياق إمامته للناس، بإرساء قواعد الضيافة في الأرض، فكان مضيافًا حتى أملق أو كاد، بعد ثراء واسع. والضيافة في الإسلام عبادة، ومن العُرف أن الضيف يأتي برزقه ويخرج بذنوب أهل الدار، وأنّه لا خير في بيت لا يُضيف، وعنه ﷺ: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه»[٢].

والضيافة واجب، فإذا نزل بك ضيف ولم تضيّفه حقّ له أن يقاضيك، ويُحكم له بعَدل طعام ثلاثة أيام[٣]. ومن ائتمام المسلمين بأبي الأنبياء في خدمة الضيف وإكرامه، أن الخليفة هارون الرشيد، كان إذا استضاف عالمًا، يتعمّد أن يخدمه بنفسه، فيصبّ الماء على يديه.

إن قصّة ضيف إبراهيم التي ساقها لنا الذكر الحكيم درس نموذجيّ في آداب الضيافة، التي نستخلصها من دقائق تصرّفات أبي الأنبياء وأقواله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا

---

(١) والضيف هنا جمع مفرده ضائف وهو النازل بالقوم، ويطلق على المفرد كذلك. والضيف هو الذي يأتيك من مكان بعيد يقصدك، وحق له أن تضيفه إليك وإلى أهلك أيامًا، أمّا الزائر فهو الذي يأتيك من نفس مدينتك، فهو يزورّ عنك، أي يغادرك سريعًا، وهذا لا تتكلف له لكثرة وقوع ذلك.

(٢) صحيح البخاري: ٥٦٧٢.

(٣) فالضيافة ثلاثة أيام.

تَأْكُلُونَ﴾ ٢٤ - ٢٧: الذاريات؟

فمن قواعد الضيافة أن الضيف مكرَم، وأنّه يدخل البيت بيسر وسهولة، وعلى المضيف ردّ تحيّته بتبسّط وبشاشة، وعدم تأخير القِرى، وأن يُعدّ أهل البيت الطعام بأنفسهم، ويؤمَرون بذلك خِلسة لتجنّب إحراج الضيف، ومنها أن يأتي المُضيف بأجود ما عنده من الطعام، وأن يقرّبه إلى الضيف، فلا يقوم الضيف إلى طعامه بل يؤتى بالطعام إليه في مجلسه[1].

ومن تلك القواعد أيضًا الدعوة إلى الطعام بلطف، والتبسّط بالحديث، والسؤال عن الغرض من الزيارة، بعد انقضاء مدّة الضيافة، ومنها أن المرأة تشارك في إكرام ضيف زوجها من الرجال. ويؤنس في تحديد مدى تلك المشاركة ما كان من مسلك زوج إبراهيم عليه السلام، فلم يكن منها مجالسة ومحادثة مستفيضة، واكتفت بالقيام على خدمة الضيف، كتقديم الطعام والشراب، والترحيب، وشاركت بما يقع من الحديث بما يناسب محدوديّة حضورها، ولو كان مزاحًا، كما في تعقيبها على تبشير الضيف لها بإسحاق. كلّ ذلك بحشمة المرأة المسلمة واتّزانها.

وقد أضاف المسلمون، إلى سُنّة أبي الأنبياء في الضيافة، وجوب إيناس الضيف، وصار عرفًا أنّه إذا كان الضيف غريبًا دُعي معه بعض الأقارب والأصدقاء، ممّا يُضفي على الجلسة طابع الأنس، ويُشعره أنّه موضع ترحاب على نطاق واسع، فيتخفّف من عدّة سفره، ويجتمع مضيفوه حوله، ويكون أوجَهَهم الأقربُ إليه، ثم يؤتى بالطعام إلى المجلس للجميع. وهكذا يعامَل الضيف في الإسلام معاملة الملك الذي يتمحور حوله كلّ شيء.

فبشّرناها بإسحاق

ولم يلبث إبراهيم أن اكتشف أن ضيفه لا يقربون الطعام، فنكِرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ ٧٠: هود[2]، ولكنّهم أسرعوا يُطمئنونه ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾

(١) يشيع اليوم في الحياة المدنيّة، ذات الطابع الغربيّ عمومًا، أن يكون للطعام غرف خاصّة، حيث تُعَدّ المائدة إعدادًا تامًّا، ثم ينهض المضيف بمن عنده إليها، ثم يعودون إلى مجلسهم لدى الفراغ من الطعام.
وما نزال نرى قاعدة الضيافة الإبراهيميّة، القاضية بأن يُجاء بالطعام إلى الضيف حيث هو، في الأرياف وفي بعض المناطق في الخليج العربيّ، التي تتمسّك بطعامها التقليدي المكوّن في الغالب من صنف واحد.

(٢) وإذا لم يأكل الضيف فإن هذا يعني أحد احتمالين إما أن له حاجة عند أهل البيت يريد أن تقضى، أو أنه يريد بهم شرًا، فلا يأكل زادهم. فإن العرف يعيب على من أكل زاد الآخر أن يؤذيه، لما في ذلك من الغدر المعيب.

٧٠: هود. فلمّا سمع إبراهيم وزوجه ذلك زال خوفهما، وسُرّي عنهما، وأشرق وجه سارة بعد عبوس، وإذا بالضيف يزفّون إليهما بشرى غاية في الغرابة: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ ٧١: هود.

وضربت المرأة وجهها من وقع المفاجأة: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ ٧٢: هود.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ ٧٣: هود؟

وأضافوا يطمئنون مضيفيهما: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ ٧٣: هود.

وهكذا أمن إبراهيم وزوجته واستبشرا بعد خوف، وما كاد يذهب عن إبراهيم الروع، حتى استيقظ قلبه الحليم الأوّاه، وجعل يتأتّى ليجادل أضيافه في قوم لوط، لعلّ ثمّة مَنجاة لهم من الهلاك الذي يوشك أن يحلّ بهم. وقاده الجدال المفلس... جدال القلب العطوف، الذي يُحَيّد العقل، إلى الإدلاء بأسباب واهية، كانت آخر ما في جَعبته، بل كان يعرف جواب مُحاوريه عنها قبل أن يسمعه ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ ٣٢: العنكبوت.

وسَرعان ما كانت الدعوة المبطّنة إلى الكفّ عن الاسترحام وتلمّس الأعذار: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ ٣٢: العنكبوت.

ويبدو أن الجدال قد استمرّ إلى ما بعد هذا، حتى إنّه لم يُحسم إلاّ بأمر مباشر: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ ٧٦: هود. وأناب إبراهيم إلى ربّه، وما كان إبراهيم إلاّ منيبًا.

إن موعدهم الصبح

انطلق الملائكة إلى سَدوم وعَمورة، وجاؤوا لوطًا، فسيئ بهم، وضاق بهم، فقد كان الضيف في هذه القرية الظالم أهلُها مصيبة وفضيحة، إذ بلغ التدنّي بالقوم أنّه لا ينزل بأرضهم ضيف إلاّ سطوا على عرضه وماله. ونرى لوطًا في موقف عصيب بين دناءة قومه وقدرتهم عليه، وواجبه تجاه ضيفه، وفَرَقه أن يشعروا بما ينتظرهم في بيته ممّا يندى له جبينه، فهو يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ويضبط مرجل استيائه وضيقه،

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۞ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ ٦٨ و٦٩: الحجر. ولـمّا رأى إصرارهم المشين سُقط في يده، وبدا كالمستجير من الرمضاء بالنار، وهو يعرض عليهم عرضه المستميت المثير للجدل ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ ٧١: الحجر.

وقيل الكثير في محاولة تبرير هذا العرض، ولعلّ الأمر أبسط من أن يجادَل فيه، إذ لا يحمل النصّ، ولا يقبل المنطق اعتبار العرض فعليًّا، ولكنْ نفثة مصدور، وآخر سهم في الكنانة، وهو من قبيل ما فاهت به العذراء عندما أجاءها المخاض إلى جذع النخلة ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ ٢٣: مريم، والقصد منه الإعراب عن أقصى الألم، لعلّ في هذا ما يصرف الغواة عن غيّهم. ثم نرى لوطًا يزدرد الخيبة المرّة، ويسيطر على ألمه، فيعلن براءته ممّا هم فيه، وينفذ من أقطار المصيبة إلى حيث لا يُغلَق في وجه الخُطا باب ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ۞ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ ١٦٨ و١٦٩: الشعراء.

ولم يكن للوط ما يمنع به ضيفه من هؤلاء الرعاع المتسلّطين، وكان هوى زوجه مع قومها، فهُرعت تذيع الخبر، وتزفّ إلى قومها البشرى بتلك الغنيمة، فأقبلوا مسرعين نساء ورجالاً، ليعقدوا واحدًا من مجالسهم الآثمة التي يأتون فيها المنكر، وكانت النساء يحضرن تلك المجالس للتفرّج(١).

وسُقط في يد لوط، وأطبق الهمّ على صدره ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ ٨٠: هود. وجعل الله له ركنًا شديدًا على أيدي ضيفه. ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ ٨١: هود.

وعاجلوه بما عليه فعله: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ ٨١: هود.

وأخبروه أن عذاب الله واقع بهم الصبح: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ ٨١: هود. وفي إشارة مبطّنة إلى تأييد الله وتلطّفه بنبيّه الكريم قال له ضيفه المكرَمون: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ ٨١: هود؟

وفي الذكر الحكيم ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن

---

(١) جعل رب العالمين للمرأة الحياء، وأمرها بالحجاب، حتى إنه لا ينبغي لها أن تخرج بسمت خلوتها بزوجها على أولادها ولو كانوا صغارًا. فقد يكون في ذلك ما يلفتهم إلى ما وراءه.

﴿سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ ٨٢: هود... لم يمطروها حجرًا حجرًا، بل كتلاً من الحجارة المتلاصقة، ممّا هو مخصّص عند الله الحقّ لرجم الظالمين ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ٨٣: هود. وتلك الحجارة جند من جند الله المسخّرين لأمره، والذين لا يعلمهم إلاّ هو... ولكنّ الروايات تأبى إلاّ أن تحرم قارئ الآيات من رسم صورته الخاصّة، التي تحقّق الأثر المطلوب في رُوعه، فتغطيّ النصّ بصورة حسيّة مجسّمة، حين تقرّر أن القرية قد رُفعت بالقوم حتى سمع أهل السماء صياح ديكتهم.

يقول عبد الوهاب النجّار: «أعتقد أن البحر الميت ـ المعروف الآن ببحر لوط وبحيرة لوط ـ لم يكن موجودًا قبل هذا الحادث، إنّما حدث من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها، وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر، وقد جاءت الأخبار في السنتين الماضيتين بأنهم اكتشفوا آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت»[1]. وهو كلام يحتاج إلى تحقيق.

وهكذا أصابت قومَ لوط قارعة بما كسبوا، ونجّاه الله ومن آمن معه ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ ١٣٤ - ١٣٦: الصافات، فانطلق ببنتَيه وبمن آمن معه إلى الشام.

يلاحظ أن مفسدي الأرض اليوم يتّجهون إلى إشاعة اللواط والسُحاق عبر وسائل الإعلام، فقد انتهى هؤلاء من مرحلة التعريف بهذين الداءين، والتحايل لفرضهما على الساحة الفكريّة بإثارة الموضوع، والكلام فيه بين أخذ وردّ، مرّة في معرض الاستنكار، وأخرى في معرض الدراسة، وثالثة في معرض الاطّلاع. وقد انتقلوا اليوم إلى إبراز بيوت الدعارة على أنّها من المفرزات الصحيّة للحريّة، وباتت أخبار متزعّمي هذه الضلالات وصورهم تتصدّر وسائل الإعلام، ويقدَّمون على أنّهم نجوم يصفّق لهم المعجبون، ويتدلّه في حبّهم المراهقون.

أمّا قطع السبيل فقد مهّدوا له بأفلام المغامرات، والعنف حتى في أشرطة الصور المتحرّكة الموجّهة إلى الأطفال، حيث يقدّم الاحتيال والشطارة على أنّهما براعة تتوّج بالنصر، ممّا يقطع

(١) قصص الأنبياء ص ١٢٩.

كلّ صلة للوسيلة بالأخلاق. وحيث تكون الغلَبة لذي القبضة، ويُعتبر الاستيلاء على ما في أيدي الخصوم، بل الآخرين بشكل عامّ، من قبيل البراعة المحبَّذة. وفي كلّ هذا تتمّ تنحية كاملة للأخلاق وللإنسانيّة رغم الموضوع الذي يبدو أخلاقيًّا في خطوطه الخارجيّة. ومعروف أن فنّ الإعلام يعتمد على بثّ الفكرة المراد شيوعها واعتمادها من الصفوف الخلفيةّ للأحداث، لتصل إلى المتلقّي على أنّها مسلّمة ينبغي أن تكون لديه من قبل، فيضيفها إلى مخزونه الفكريّ على شكل استدراكات عاجلة، وبقناعة تامّة، فإذا تكرّرت فقد ثبتت نهائيًّا، وصار انتزاعها شبه مستحيل، لكونها خفيّة لا يفطن لها المربّي.

فلمّا وصل هؤلاء إلى أغراضهم أو معظمها، أجنى الحصاد المرّ، وانقلب السحر في كثير من الميادين على الساحر، وبدأت الأصوات الرشيدة تتمتم محتجّة. وعند ذلك حوَّرت الأيدي القذرة الصورة، ورمت المستضعفين بدائها وانسلّت، فهي اليوم في صفوف من يحاربون العنف والفساد، أمّا الرذائل وعلى رأسها العلاقات الخاصّة الشاذّة، فقد ثبّتتها نهائيًّا في خانة الحريّة الشخصيّة أو الفرديّة المقدّسة، ذلك أنّها بكلّ المقاييس تخدم الفساد وإلى الأبد.

أمّا سارة فقد تمّت أيّام حملها في بِدع من الدهشة والشكر، وتحقّقت البشارة الثانية لإبراهيم فاستقبل إسحاق، وكان بكره إسماعيل في عامه الثالث عشر في أغلب الروايات.

في الحجاز

إذا اقتصر الباحث على نصوص الكتاب العظيم وجد أن ثقل الدعوة الإبراهيميّة كان قسمة بين العراق والحجاز، حيث شهد العراق مراحل التجارب الأولى، وشهد الحجاز مرحلة الإثمار والنضج، وفيما تقصر توراة اليهود فعاليّات الدعوة الإبراهيميّة على بلاد الشام وفلسطين، وتمسخ هاتين المرحلتين من عمرها، بل تطمسهما. وكان من إفرازات ذلك أن ذهب بعض الدارسين، كالمستشرق ويليم موير، إلى أن وجود إبراهيم في الحجاز اختراع يهوديّ كان قصدهم منه التقرّب من المسلمين، وذلك

بدعوى أن بلاد العرب كانت وثنيّة وأن إبراهيم كان موحّدًا[١].

وعلى رأس ما يُقال في هذا أنّه لم يكن من الطبيعيّ أمام سمعة الحجاز المرتبطة بالحكمة والقداسة، واتّصال جزئه الشماليّ طبيعيًّا وبشريًّا ببلاد الشام وبمصر[٢]، ألاّ يفكّر أبو الأنبياء بالانطلاق برسالته إليها، وهو الذي اضطلع بتلك الرسالة، في موطنه، ثم ذرع بها الشام شبرًا شبرًا، ثم انطلق بها إلى مصر، كلّ ذلك يدعو بدعوة الحقّ.

ولكنّ الردّ المباشر على قول موير وأمثاله يكمن في حضور الحنيفيّة البيّن في المنطقة حتى ظهور الإسلام[٣]، وذلك برغم الطابع الوثنيّ الذي غلب عليها، فقد زحفت الوثنيّة على المنطقة بعد قرون طويلة من دعوة أبي الأنبياء فيها[٤]، وفي سياق هُويّ أفئدة الناس إلى وادي مكّة هوت ثقافات الجوار، فكان من ذلك أن جُلبت أصنام الأقوام والقبائل المحيطة إلى كعبتها لاجتذابهم[٥]، ثم "غلب على العرب عبادتها، وامّحت الحنيفيّة منها إلاّ لمعًا»[٦].

والرواية التوراتيّة خلو من كلّ ذكر للحجاز بله صلة إبراهيم به، وتختصر خبر إسماعيل في حكاية عن طرد هاجر ورضيعها من بيت إبراهيم، وانطلاقها به هائمة

---

(١) توفيق برو: تاريخ العرب القديم ص ٢٠٥.

(٢) يضاف إلى ذلك، حسب الأشهر من النظريات، كون الجزيرة العربية أرض الأجداد الأوّلين، التي انطلقت منها أولى الهجرات البشريّة.

(٣) وهو وقت متأخّر جدًّا.

(٤) والوثنية مظهر لتدنّي همة البشريّة وانحطاطها، وهو أمر طبيعيّ في غياب وسائل التذكير، أو تلك التي تحفظ الشرائع التي تستنهض الهمم، وتهدي الخطا.

(٥) وفي بعض المصادر التاريخية أن الأصنام قد دخلت الكعبة في وقت متأخر، وأوّل من أتى بها إليها عمرو بن لحي الخزاعي.

(٦) المسعودي: مروج الذهب ٢: ٣٠. وانظر توفيق برو: تاريخ العرب القديم ص ٢٠٢ - ٢١٠.

على وجهها، حتى انتهت إلى بريّة بئر سَبع، حيث نفد ما تحمله من الماء والزاد، وأشرفت والطفل على الهلاك، فهداها الله إلى نبع ماء قريب، فنجت وولدها. ويتابع سفر التكوين: «وكان الله مع الصبيّ حتى كبر، فأقام بالصحراء، وكان راميًا بالقوس. وحين أقام بصحراء فاران زوّجته أمّه بامرأة من أرض مصر»(١). ويلاحظ التناقض بين هذه الرواية ونصوص توراتيّة أخرى، تقول إن إسماعيل كان قد تجاوز الثالثة عشرة عندما ولد إسحاق(٢).

وأمّا الروايات الإسلاميّة فتدور في مجملها حول ما جاء في صحيح البخاريّ من حديث ابن عبّاس، وفيها اعتماد واضح على الرواية التوراتيّة مع مراعاة ما جاء في النصّ القرآنيّ. وللحديث روايتان مشهورتان، تفيدان كلاهما أن سارة دفعت بجاريتها هاجر إلى إبراهيم لتأتي له بالولد، الذي لم تستطع هي أن تأتيه به، فولدت له إسماعيل، فشغف به حبًّا. ولم تلبث سارة أن شعرت بالغيرة، فراحت تسيء معاملة هاجر، ثم انتهى بها الأمر إلى أن طلبت من إبراهيم أن يُباعد بينهما. وأوحى الله إلى إبراهيم أن يذهب بهاجر وبولدها الرضيع إلى الحجاز، ويسكنهما واديًا غير ذي زرع عند بيت الله المحرّم.

وتضيف تلك الروايات أن إبراهيم حمل هاجر ورضيعها إلى ذلك الوادي، وترك لهما شيئًا من الماء والزاد، ثم قفل عائدًا من حيث أتى، ودعا ربّه ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ ٣٧: إبراهيم.

ونفد الماء والزاد، وكاد الطفل يهلك عطشًا وجوعًا، فانطلقت هاجر تهرول في الوادي القفر ضارعة إلى الله أن ينقذها وابنها. فأتاها جبريل، ففحص الأرض، أو فحصها الطفل، فنبعت زمزم، ونجت هاجر وابنها من الموت.

ويلاحظ أن حديث ابن عبّاس المذكور يتضمّن أربعة أجزاء مرفوعة، وهي: «يرحم الله أمّ إسماعيل، لو تركت زمزمَ لكانت عينًا معينًا»، و«فذلك سعيُ الناس بينهما»، و«فألفَى ذلك أمّ إسماعيل وهي تحبّ الإنس»، و«ولم يكن لهم يومئذ حِبّ. ولو كان

(١) سفر التكوين: ٢١.

(٢) سفر التكوين: ١٦ و ١٧.

لهم دعا لهم فيه». ويلاحظ أنّه قد جُمع بين هذه الأجزاء بمِلاط ملفّق، من الرواية التوراتيّة والنصوص القرآنيّة التي نزلت في الحدَث. وهذا ما جعل الأجزاء الأربعة المرفوعة من حديث ابن عبّاس لا تصطدم بالرواية التوراتيّة، بل تضفي عليها من مصداقيّتها، رغم كلّ ما يحيط بذلك الأمر من مُلابسات جديرة بالاعتبار، وما يثيره من تساؤلات مشروعة ومنطقيّة.

وقد قال ابن كثير في هذا الحديث: «وكأن بعض هذا السياق متلقّى من الإسرائيليّات، ومطرّز بشيء من المرفوعات»[١]، وقال: «والحديث ـ والله أعلم ـ إنّما فيه مرفوع أماكن صرّح بها ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ»[٢].

*

والحقّ أن النصّ القرآنيّ العظيم، حين يُستقبل بذِهن لم تترك عليه الإسرائيليّات بصماتها، يضطلع، على ما فيه من اقتضاب، بإجابات وافية عن كلّ التساؤلات التي تُطيف بمُلابسات تلك الهجرة، إن صحّت التسمية، ويَظْهر تفوّقُه ومنطقيّة عرضه، واستغناؤه بذاته عمّا استعان به كثير من المفسّرين من الإسرائيليّات المضلّلة.

ونقرأ في الكتاب المبين ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ٣٧: إبراهيم[٣]، فقد جعل إبراهيم فرعًا من ذرّيّته حيث بوّأ الله له مكان بيته المحرّم، ليقيموا الصلاة، وهذا يعني أن إبراهيم كان يؤسّس لدعوة إلى التوحيد في المنطقة يبدؤها هو، وتتابعها ذرّيّته من بعده، كما يتّضح من تتمّة الدعاء ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ٣٧: إبراهيم[٤]. فهو يسأل الله أن يهيّئ لذرّيّته الذين أسكنهم ذلك المكان من يلتحق بهم، وأن يبارك في رزق هذا المكان ليثبتوا فيه، فتنشأ منهم الأمّة المؤمنة التي يرجو.

---

(١) قصص الأنبياء ١: ١٣٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم الآية ١٢٧ من سورة البقرة.

(٣) غير ذي زرع لا يصلح للزراعة. ونحن نرى أن تقنيات العصر التي فعلت الأفاعيل في مكة، حتى بعجت الجبال كما كان قد جاء في حديث لرسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تُبعج جبال مكة»، هذه التقنيّة المتطوّرة، لم يكن لها أثر في إيجاد زراعة فيها.

(٤) تهوِي: تهبط بقوة، وفيه رغم. والمسلمون يقودهم الشوق إلى الكعبة برغمهم فيهوون إليها هويًّا.

وجه لصلة إبراهيم بالحجاز

يسيطر على من يتتبّع أحداث قصّة إبراهيم عليه السلام في المصادر الأكثر تداولاً حدْس يصعب تجاهله، يقول بوجود صلة وطيدة لإبراهيم بالحجاز، تتجاوز ما يُستفاد من تلك المصادر. ويتراءى من وراء الروايات التوراتيّة والإسلاميّة كثير من النقاط التي تبرّر هذا المذهب، وهي ممّا لا يجوز لمتحرّي الحقيقة إغفال النظر فيه. ومن ذلك:

أ ـ أن المسلمة القائلة إن إبراهيم غادر العراق إلى بلاد الشام تبدو مزعزعة في ضوء اضطراب الروايات حول ذلك، وفي إحداها أنّها مكّة.

ب ـ أن الغموض يكتنف الفترة التالية لخروجه من العراق، والتي توهم توراة اليهود أنّه قضاها في حرّان.

ج ـ أن الفترة الحجازيّة هي مركز الثقل في دعوة إبراهيم في القرآن العظيم، وتليها فترة البدايات في موطنه العراق، ولا نقع على ذكر لما كان في بلاد الشام إلاّ في حديث ضيف إبراهيم المكرمين وما يرتبط به.

د ـ أن النصوص التوراتيّة التي تتعلّق بإسماعيل تفتقر إلى القدر الأدنى من المعقوليّة.

هـ ـ أن تسجيل الحنيفيّة ذلك الحضور المشهود في الحجاز دون غيره من مسارح دعوة أبي الأنبياء لا يسمح بقصر صلته به على الزيارات الثلاث التي تشير إليهاالروايات.

وتفصيل ذلك:

أ ـ إن شبه الإجماع على كون الأرض المعنيّة في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ ٧١: الأنبياء، هي بلاد الشام، لا يحول دون الشكّ في الأمر، ذلك أنّه اتّفاق، أو تواضُع على أمر ليس عليه أدلّة مُلزمة. وينقل ابن كثير عن ابن عبّاس: (الأرض التي باركنا فيها للعالمين) مكّة، ألم تسمع إلى قوله (إن أوّل بيت وضع للناس للذي ببكّة مباركًا وهدًى للعالمين). وزعم كعب الأحبار أنّها حرّان»[1]، ونقله كذلك أبو حيّان: «وقيل: مكّة. قاله ابن عبّاس»[2]. وقيل دمشق، قدِمها من بابل مُغيرًا، ثم هجرها وقومه إلى كنعان[3].

---

(١) قصص الأنبياء ١: ١٢٣. وهذا يواطئ ما في التوراة، وقد سبق الكلام فيه.

(٢) البحر المحيط: تفسير الآية. وانظر هجرة إبراهيم إلى بلاد الشام.

(٣) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخيّة من القرآن الكريم ١: ١٣٤. نقلاً من تاريخ نقولا الدمشقي،

ولكن تمّ العبث بالنصوص في توراة اليهود حتى غدا شبه مسلّمة أن الأرض المقصودة في الآية هي بلاد الشام، يتّضح ذلك في التحايل المُريب للتخلّص من كلمة «التَيمَن»، التي تُثبت لأبي الأنبياء صلة بالحجاز. ومن تاريخ هذه الكلمة في كتابات أهل المنطقة ما ذكره ابن كثير نقلاً عن أهل الكتاب أن إبراهيم لمّا قدم الشام «ضرب قبّته شرقيّ بيت المَقدِس، ثم انطلق مرتحلاً إلى التَيمَن»(١)، كما ذكر أن ملك مصر أخرج إبراهيم ومن معه منها، وقال: «فرجعوا إلى بلاد التَيمَن». و«التَيمَن» في المصادر في اليَمَن أو نَجد(٢)، وفي توراة اليهود نفسها أن أحد ناصحي أيّوب الثلاثة يُدعى «أليفاز التَيمانيّ»، وفيها أن أيّوب كان في «عُوص»، وفي قاموس الكتاب المقدّس أن «عُوص» في الحِجاز أو في نَجد(٣).

ولكنّنا نفتقد هذه الكلمة في النصوص التوراتيّة التي تتعلّق بتحرّكات أبي الأنبياء، حيث انتُزعت بحرص من الترجمات المتداولة(٤)، واستُعيض عنها بعبارة مثل «ثم ارتحل أبرام ارتحالاً متواليًا نحو الجنوب»(٥)، وفي ترجمة أخرى: «ثم أخذ يرتحل جنوبًا نحو صحراء النقب»(٦). وهما بديلان يتضمّنان الدلالة على «التَيمَن»، ذلك أن كلاًّ من الجنوب وصحراء النقب في الطريق إليها. وهذا يدعّم ما ذهبتُ إليه من أن كلمة «التَيمَن» قد انتُزعت من النصوص التوراتيّة، حيث أُريد طمس صلة إبراهيم بالحجاز.

ونقع على تلاعب مماثل بكلمة «فاران»، فقد فات كتبة التوراة التخلّص منها، فاختَرعت الترجمات وقاموس الكتاب المقدّس «فاران» أخرى جنوبيّ سيناء، لإبعاد الأنظار عن «فاران»

الكتاب الرابع.

(١) قصص الأنبياء ١ : ١٢٣ و١٢٤.

(٢) انظر معجم البلدان : تيمن، وسيرة ابن هشام ١ : ١٨٥و١٨٦، والكامل في التاريخ لابن الأثير ١ : ٥٩١، وبلاد العرب للأصفهاني ١٨٦ و١٨٧. ولا يُعتدّ بقول ابن كثير في تعريفها في ذيل الخبر السابق: "يعني أرض بيت المَقدِس وما والاها"، لغموض التعبير، وعدم دقّته، ولأن الانتقال من شرقيّ بيت المقدس إلى أرض بيت المقدس لا يُدعى ارتحالاً.

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١ : ٢٩٧. وتختلف المصادر في موقع عوص، ولكن قاموس الكتاب المقدس هو ما يعنينا هنا.

(٤) انظر: الباب الأول: توراة اليهود كتاب مصنوع.

(٥) سفر التكوين : ١٢. طبعة جمعية التوراة الأميركانية، بيروت ١٩٣٥.

(٦) تكوين : ١٢. طبعة جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ١٩٩٨.

الحجاز[1]. وعلى تلاعب ثالث بترجمة كلمة «فارقليط» في إنجيل يوحنّا[2]، لطمس علاقتها بمحمّد ﷺ.

وممّا يثير التساؤل أن المصادر الإسلاميّة قد كرّست مقولة التوراة تلك بإجماعها على تفسير الأرض التي باركنا فيها في الآية الكريمة ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ ٧١: الأنبياء، ببلاد الشام، كما سبق القول.

ب ـ في سياق حصر إبراهيم في نطاق بلاد الشام خرجت به توراة اليهود من أور مهاجرًا ليصل إلى بلاد الشام في الخامسة والسبعين من عمره، وكان عليها أن تبحث عمّا استنفد تلك السنين، فتوقّفت به في محطّة مبتسرة هي حَرّان، قصرت أخباره فيها على تحصيل الثروة، رغم استغراقها حوالي أربعين سنة من ذروة العمر والنشاط.

وقد دخلت الروايات الإسلاميّة وراء توراة اليهود جحر الضبّ هذا، فأغفلت كلّ ذكر لتلك الفترة، إلاّ ماكان من الاختلاف حول نسبة حرّان، فهي عند بعضهم من الشام، وعند آخرين من العراق، وما كان من قول بعضهم إن حواريّة الكواكب والنجوم كانت خطابًا لأهلها.

وتبقى تلك المحطّة موضع تساؤل، وهي المرشّحة لتكون الوعاء الزمانيّ، لما أثبته الذكر الحكيم، من صلة لإبراهيم عليه السلام بالحجاز، ونشاطه فيه.

ج ـ يُعرّفنا القرآن العظيم بأبي الأنبياء من خلال تجاربه الإيمانية والدعويّة الأولى في العراق، ويكمل الصورة بمرحلة النضج، التي تجلّت في أحداث الدعوة في الحجاز، وهي أحداث ذات وزن واضح، أبرزها السكنى عند البيت المحرّم، وهذا يعني نقل ميدان الدعوة إلى محيط آخر، في خطوة تبدو أقرب إلى اليأس من جدواها في بلاد الشام[3]، ورفع القواعد من البيت، وتطهيره للطائفين والعاكفين والركّع السجود، والأذان في الناس بالحجّ، وقصّة الذبح والفداء. أمّا ما تشير الروايات إلى أنّه كان في الشام وفلسطين، فيقتصر على حديث ضيف إبراهيم المكرمين، ويتضمّن البشارة بإسحاق ويعقوب، وجدال إبراهيم في قوم لوط[4].

---

(١) انظر قصة موسى عليه السلام.

(٢) انظر قصّة عيسى عليه السلام.

(٣) حيث بدأت ملامح الاحتكار العرقيّ، بل القبليّ تظهر في آل إبراهيم في صورة رفض الآخرين والحطّ من شأنهم، والسعي، ولو بالتآمر، لحصر إرث إبراهيم، ولا سيما في النبوة في فرع من ذريته.

(٤) وبعض هذا ثمّة أدلة معتبَرة على أنه كان في بلاد الشام، أما ولادة إسماعيل، فلا أدلة بهذا المستوى على أنها كانت هناك. وهذا عكس ما في توراة اليهود التي تلغي تمامًا كل صلة لإبراهيم بالحجاز.

وهذا يفرض وجودًا لإبراهيم في الحجاز يزيد كثيرًا على ما ذكرته المصادر الإسلاميّة، حيث نرى تلك المصادر، المصدّقة للتوراة، تقصر ذلك على ثلاث زيارات تبدو كمعترضات صغيرات في نسيج نشاطاته الشاميّة.

د ـ في سياق إخلاص إرث إبراهيم لليهود، باعتبارهم ذريّة إسحاق، عمدت التوراة إلى محاولة التخلّص من إسماعيل، وبدت في ذلك تخبط خبط عشواء، وتحشد الفِرى بصورة فجّة، فمن الإساءة إليه قبل ولادته بزعمها أن أمّه جارية، إلى جعل الربّ يتجاوزه، رغم كونه البكر، ليقيم عهده مع ابن سارة(١)، إلى إخراجه وأمّه من حياة إبراهيم، بتلك الطريقة التي لا تليق بالإنسان، ناهيك بإبراهيم النبيّ(٢)، إلى سلبه مأثرة الفداء، وإلصاقها بإسحاق، وهو، عليه السلام، أغنى الناس عن هبات اليهود المسروقة. وفي كلّ ذلك بدا إبراهيم تارة مقُودًا للأحداث وأخرى مقُودًا لزوجته، رغم ما لم تُفلح التوراة في إخفائه من ميله إلى إسماعيل(٣).

وهكذا قدّمت النصوص التوراتيّة صورة مشوّهةً لعلاقة إبراهيم بابنه، لا تتقاطع في أيّة نقطة كانت وما نلمسه في القرآن الكريم من العلاقة الحميمة التي تربط بينهما. كلّ ذلك يجعل الناظر في أخبار إسماعيل التوراتيّة على يقين بأنّها مصنوعة لا لتُصوّر حقيقة ما جرى، بل لتخدم فكرتين اثنتين، أولاهما قطع ما بين إسماعيل وأبيه إبراهيم، وبالتالي قطع العرب عن إسماعيل، ومن وراء ذلك، وهو الأهمّ، قطع الإسلام الذي جاء به محمّد عن الإسلام الذي جاء به إبراهيم عليه السلام، وثانيتهما الوضع غير الطبيعيّ لعدم وجود إسماعيل في بيت أبيه في الشام. فاليهود لا يعترفون لإبراهيم بوجود سوى وجوده الشاميّ، وهم في الوقت نفسه يريدون التخلّص من إسماعيل، وفرية طرده وأمّه على الوجه الذي زعموه تحقّق لهم الغايتين معًا.

---

(١) وحق البكوريّة مقدّس لا يحق حتى للآباء العبث به، وفي توراتهم "فيوم يورّث بنيه ما يملكه، لا يحلّ له أن يعطي حقّ البكوريّة لابن المحبوبة دون ابن المكروهة البكر... لأنه أوّل بنيه، وله حق البكوريّة" [سفر التثنية: ٢١].

(٢) جاء ذلك في الأحدث من طبعات الكتاب المقدس تحت عنوان " طرد هاجر وإسماعيل "، وهو عنوان يعبّر عن الفكر اليهوديّ أصدق تعبير.[سفر التكوين: ٢١.طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط].

(٣) تذكر التوراة قول إبراهيم عندما بشّره الربّ بإسحاق: "ليت إسماعيل يحيا أمامك" [سفر التكوين: ١٧]، كما تذكر موقفه عندما طالبته سارة بطرد إسماعيل وأمه " وساء إبراهيم هذا الكلام لأن إسماعيل كان أيضًا ابنه " [سفر التكوين: ٢١].

هـ ـ من أبرز الأدلّة على صلة إبراهيم الوطيدة بالحجاز حضور الحنيفيّة، الذي لا يمكن تجاهله في تلك الأرض دون غيرها من مسارح نشاطات أبي الأنبياء التي تُجمِع عليها المصادر. ففي الأخبار أن الجاهليّين جميعًا كانوا على دين إبراهيم عليه السلام قبل أن يأتي عَمرو بن لَحي الخُزاعيّ بالأصنام إلى جزيرة العرب. وهذا الأثر الإبراهيميّ لا يمكن أن ينتج عن تلك الزيارات الثلاث الخاطفة التي تزعمها الروايات الإسلاميّة، ويطالعنا ذكرها في معظم التفاسير.

ولا تهتمّ هذه الروايات بالإشارة إلى أيّ نشاط دعويّ لإسماعيل يمكن أن يكون وراء ذلك الأثر الذي قطعته عن صاحبه غفلةً، بل تُهمل كلّ ذكر له إلاّ لممًا متناثرة، من ذلك ما ذكره الشهرستاني، وهو كشاف هائل القوّة، واسع الطيف[1]. وهذا من الأدلّة البيّنة على التبعيّة المحرجة لمصادر أهل الكتاب. ولا يخفى أن أخبار إسماعيل جديرة بالجمع والاهتمام، ولكنّها جناية الفكر المستلَب على ذاته قبل جناية أعدائه عليه.

يُضاف إلى هذا الرابط الهائل بين الإسلام والحنيفيّة، والذي عبّر عنه الذكر الحكيم بقول الله جلّ وعلا لرسوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ١٢٣: النحل، وأكّده حديث رسول الله ﷺ «أحبّ الدين إلى الله الحنيفيّة السمحة»[2]، وتكرّسه الصلوات الإبراهيميّة التي يردّدها المسلم عقب كلّ صلاة.

*

وقد لاحظنا أن التزوير التوراتيّ قاسم مشترك بين كلّ ما سبق ذكره ممّا كان وراء طمس حقيقة علاقة أبي الأنبياء بالحجاز، وهذا التزوير ينتمي إلى موجة التلاعب الثانية بنصوص التوراة، وهي التي تلت ظهور الإسلام[3]. ولكن ما يحزن فعلاً أن الروايات والقصص الإسلاميّة، وما اعتمدها على علاّتها من كتب التفسير، لعب دور الداعم لتوراة اليهود ما لم يعتقله نصّ صريح ومباشر لا يملك عنه حولاً، فأقرّ أن «الأرض التي باركنا حولها» هي بلاد الشام، مغفلاً كلّ علامات الاستفهام حول ذلك. ولم يحاول سبر تلك الفترة الميتة من حياة أبي الأنبياء التي بادرت توراة اليهود إلى الزعم أنّه أمضاها في حرّان، وأنّها كانت مصدر ما جاء به من المال والمقتنيات. كما لم تلفته اللامعقوليّة فيما زعمته توراة اليهود من أن إبراهيم دخل

---

(١) انظر الشهرستاني: الملل والنحل ١ : ١٢١٣ .

(٢) صحيح البخاري: ٣٩.

(٣) انظر الباب الأول: في الإسرائيليات.

الشام بعد أربعين سنة من مغادرته بلد أجداده، وأنّه أُوحي إليه بعد أن دخلها. وصوّرت الفترة الحجازيّة من حياة أبي الأنبياء في لقطات مبتسرة، أشبه ما يكون بالمعترضات الخجول في سياق نشاطاته، التي كرّستها توراة اليهود في الشام وفلسطين.

كما لم يعنِ شيئًا لتلك الروايات ما تنضح به توراة اليهود من الكذب على إسماعيل وتشويه صورته، وقطعه عن والده، ثم تجاهله تمامًا، في مقابل كذب مماثل، ولكن في الاتجاه المعاكس على إسحاق عليه السلام، بل أخذت بما جاء فيها، وعلى رأسه قصّة طرد إسماعيل رضيعًا وأمّه، والزعم أن إبراهيم لم يزره إلاّ ثلاث مرّات سريعات، بدت مختلسة من رقابة سارة. وقد توّج هذا التزوير ما روي من أن من كبار الصحابة من يرى أن الذبيح لم يكن إسماعيل، بل كان إسحاق.

كما لم يعنِ شيئًا لتلك الروايات أن ما ذكرَته عن صلة إبراهيم بالحجاز يبدو غير مقنع في ظلّ انتشار حنيفيّته فيه، واستمرارها في رسالة محمّد بعد تلك القرون المتطاولات، ولا سيّما أنّها لم تذكر لإسماعيل، وهو رسول نبيّ بنصّ القرآن، أثرًا يؤهّله ليكون صاحب ذلك، ولا عجب أن تتقاعس عن تسقّط أخباره ما دامت توراة اليهود قد تجاهلته وتجاهلتها.

إن على رأس خطايا الرواة وأصحاب القصص، ومن نقل عنهم، اعتمادهم أهل الكتاب وتوراة اليهود مصدرًا لأخبار أبي الأنبياء عليه السلام، وذلك لتوفّر أعلى نسبة من دواعي التزوير فيها، بسبب ما هو معروف من الوشيجة بين دين إبراهيم والإسلام، وبسبب صلة النسب بينه وبين محمّد ﷺ، وبسبب علاقته بالبيت الحرام، وكلّ ذلك ممّا يحاربه اليهود بكلّ أسلحتهم منذ ظهور الإسلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ومن هذا الواقع كان الاختلاف الجذريّ بين صورة إبراهيم عليه السلام في توراة اليهود وبين صورته في القرآن العظيم، كما بيّنّا آنفًا، وكما هو معروف.

وإن أقلّ ما يعنيه شيوع الإسرائيليات التي تتناول أخبار إبراهيم عليه السلام في الكتابات الإسلاميّة، وفي الفكر الإسلاميّ، التأثرُ بالإسرائيليّات على حساب تدبّر النصّ القرآنيّ، ومن هنا كانت تلك الكتابات، إلاّ ما رحم ربّي، وهو قليل، عونًا لصانعي إسرائيل الحلم، وإسرائيل الهدف، وإسرائيل الواقع في مهمّتهم(1)، وسوف تبقى كذلك في ظلّ تقاعسنا عن

---

(1) لقد صنع كتبة التوراة إسرائيل الحلم فيما زوروه من تاريخ داود وسليمان عليهما السلام، وصنعوا إسرائيل الهدف في مخططهم لاحتواء المؤمنين بتعاليم المسيح وتزييف إرثه كما رأينا في مجمع نيقية، وصنعوا إسرائيل الواقع في استغلالهم للغرب المسيحيّ وصنع الدولة العبريّة المعاصرة. [انظر قصة سليمان عليه السلام، والباب الأول: في الإسرائيليات].

نفي هذا الخبث عن تراثنا الفكريّ الإسلاميّ، وتطهيره من التلوّث المزمن بالإسرائيليات.

*

من مجمل ما تقدم يرجح أن إبراهيم خرج من العراق إلى بلاد الشام، وحران، وأرجح أنها كانت من العراق، لم تكن أكثر من واحدة من المحطات، ولعلها كانت الأولى، بعد أن تجاوز منطقة الخطر واستطاع أن يحط رحاله بأمان. وفيها كان تأمله الذي هو تحقيق لقوله إني ذاهب إلى ربي سيهدين. فهو الآن وقد أمن يتوقّف ليعيد ترتيب أوراقه ويفكر فيما سوف يفعل وإلى أين يتجه، ويستهدي الله الحق في أمره وأمر دعوته، فليس إبراهيم بالذي يخبط شرقًا وغربًا دون خطّة.

ويتّجه إبراهيم بمن معه إلى الجنوب، ونراه يمخر بلاد الشام يتقلّب في جنباتها كما تصوّره توراة اليهود، وكأنّه يختبر بقاع الأرض، أيّها يصلح مركزاً ومنطلقًا لدعوة عالميّة إلى التوحيد. ولعلّه أسكن أهله في مكان ما من الشام، واستمرّ يرتحل في كلّ الاتّجاهات، أحيانًا بأهله وأحيانًا من دونهم ليعود إليهم، وأنّه لم يرزق من زوجته العراقيّة في هذه المرحلة بالولد.

ويقود الحدس المستند إلى ما يناسب من الأسباب التي سبق ذكرها، إلى القول: إن إبراهيم قد لبث سنين على تلك الحال من الترحّل، ثم جعل يبعد النجعة، فقصد مصر، ثم هداه الله الحقّ إلى الحجاز لتكون مركز دعوة التوحيد وقبلة المؤمنين على اختلاف أعراقهم. وكان إبراهيم قد تزوّج بهاجر في بعض رحلاته، ورزق منها بإسماعيل، وصحبها وإيّاه إلى الحجاز، أو رزق به أثناء إقامته وإيّاها فيه، ومنذ أن وطئت قدمه وادي مكّة وضع اللبنة الأولى في أساس بناء الأمّة الحنيفة المسلمة، فرفع قواعد البيت بما استطاع كرمز لما ندبه الله له من مهمّة.

وإذا جمعنا إلى قوله تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ ٣٩: إبراهيم، ما تذكره التوراة في ثَبَت أقرب إلى ما نراه في دوائر السجل المدني من توثيق دقيق لسن إبراهيم لدى دخوله بلاد الشام، ولتاريخ ميلادي كل من إسماعيل وإسحاق رجح أنه رزق بإسماعيل في سن متأخرة نسبيًّا، ومن هنا شمل ولادته وولادة إسحاق بالدعاء المذكور. فإذا كان إبراهيم قد لبث فيما بين حرّان وبلاد الشام ومصر والرحلة التي رفع فيها قواعد البيت حوالي خمسة عشر عامًا، فالمرجّح أنّه رزق بإسماعيل على عتبات الخمسين من عمره، وبإسحاق بعد الستين، وهي سنّ متأخّرة في تلك البيئة وذلك الزمان.

ولا يبعد أن يكون إبراهيم قد صحب إسماعيل وأمّه إلى مستقرّه الآخر في بلاد الشام عندما ولد إسحاق، لا ليقيما ثمّة، ولكن ليتعرّف إسماعيل أخاه، وأن سارة التي لم تشغب على إبراهيم عندما عرفت أنّه تزوّج، حيث أنّها لم تنجب له الولد، قد بدأت تشغب عليه عندما أنجبت، ولا سيّما وهي ترى هاجر وفتاها إسماعيل في بيتها. وقد تكون سارة خرجت عن طورها فعلاً فطردتهما، كما في الرواية التوراتيّة المشهورة. أمّا ما جاء في الكتاب العزيز، من خبر إبراهيم وإسماعيل في الحجاز، فسوف يُذكر في مواضعه إن شاء الله.

وشبّ إسماعيل، وتزوّج وأنجب، وإسماعيل بنصّ الكتاب العظيم رسول نبيّ، وإن لم يبلغنا من أخبار نشاطه الدعويّ في الحجاز ما يُذكر، فهو قد حفظ دين إبراهيم في تلك الأرض، وعهد به إلى أبنائه من بعده، وفي نصّ للشهرستانيّ نقرأ: «ومن العجب أن في التوراة: أن الأسباط من بني إسرائيل كانوا يراجعون القبائل من بني إسماعيل، ويعلمون أن في ذلك الشعب علمًا لدنيًّا لم تشتمل التوراة عليه، وورد في التواريخ أن أولاد إسماعيل ﷺ كانوا يسمَّون آل الله، وأهل الله، وأولاد إسرائيل: آل يعقوب، وآل موسى، وآل هارون. وذلك كسر عظيم»(1).

ولم تلبث أن تقدّمت السنّ بأبي الأنبياء، وقعدت به عن مواصلة رحلاته فيما بين الشام والحجاز، وكانت هاجر قد لقيت ربّها، وإسماعيل قد تزوّج وأنجب، والدعوة في الحجاز قد بدأت تعطي ثمارها، فراح ﷺ يطيل فترات إقامته في الشام، وعهد بشؤون الدعوة في الحجاز إلى إسماعيل ﷺ.

وليس ما أزعمه تأليفاً لقصّة تثبت رؤيتي لأخبار إبراهيم وإسماعيل بين القرآن العظيم ومصادر أهل الكتاب وأقاصيص الرواة، فقد ذُكر منه الكثير الكثير في مواضع متفرّقة، وعلى رأس ذلك خبر للشهرستانيّ يقول فيه: «وانتهت النبوّة إلى إبراهيم الخليل ﷺ، وحملِه هاجر أم إسماعيل ابنه إلى الموضع المبارك، وولادةِ إسماعيل ﷺ هناك، ونشوئه وتربيته ثمّة، وعودِ إبراهيم إليه، واجتماعِه به في بناء البيت...»(2). واعتماد هذا الخبر يعني انهيار أركان القصّة

---

(1) الملل والنحل ١ : ٢١٣ ١. وقد جهدت في البحث عن هذا النصّ أو ما في معناه في أكثر من طبعة من التوراة، فلم أجده، ولم يحملني هذا على الشكّ في خبر الشهرستانيّ، لما ثبت لديّ من إخفاء كلّ ما له علاقة بإسماعيل في التوراة كلما اكتشف رعاتها شيئا منه، وقد سبق ذكر أكثر من مثال على ذلك.

(2) الملل والنحل للشهرستانيّ ٢ : ٢٣٣. وقد وقعت على عبارة ذكرها الدكتور فخر الدين قباوة، في تحقيقه المفصّل لتفسير الجلالين، تفيد أن إسماعيل قد ولد في مكّة، ولم يذكر مصدرها.

obeikandi.com

التوراتيّة، وما اعتمد عليها من الروايات التي غزت معظم كتب التفسير.

ويقوّي هذا الخبر أنّه يوافق النصوص القرآنيّة والمرفوع من روايتي ابن عبّاس في البخاريّ، كما أنّه يتجاوز المآخذ على المشهور من الأخبار حول الموضوع، ويجيب عن كلّ التساؤلات حول النقاط القلقة فيها.

تاريخ البيت العتيق

وكما كانت الروايات المربِكة وراء البلبلة التي اكتنفت دعوة أبي الأنبياء في بلاد العرب، فقد كانت وراء نشوء رأيين متعاكسين في تاريخ بيت الله الحرام، أمّا الأوّل فيقول: إن البيت قديم، وقد درس أو كاد، فرفع إبراهيم وإسماعيل قواعده، وأعادا بناءه، وأمّا الثاني فيقول إن إبراهيم وإسماعيل أقاما البيت ابتداءً لأمر الله. ولكلّ من الرأيين حُججه وتوجيهه للنصوص، وليس في الكتاب والسنّة ما يدحض هذا أو ذاك.

ـ القول بأن البيت قديم

ويحتجّ أصحاب هذا الرأي بآيات أربع:

الأولى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ٩٦: آل عمران، لما فيها أوّلاً من نصّ صريح على أنّه أوّل بيت وضع للناس، وأكثرهم على أنه أوّل بيت لعبادة الله[1]. ولما فيها ثانيًا من بناء الفعل وضع للمجهول، واستدلّوا من ذلك على أنّه ليس إبراهيم وإسماعيل.

ومن أصحاب هذا القول من يذهب إلى أن بناء البيت يرجع إلى العماليق، أو إلى ما قبل الطوفان، أو إلى آدم عليه السلام، بل ثمّة روايات تردّ ذلك إلى الملائكة، فتجعله قبل خلق الإنسان واستخلافه في الأرض[2].

---

(١) وهو ما يفيده كونه مباركًا وهدًى، ذلك أن بيوت العبادة التي سبقته والتي عاصرته كانت لأقوام وثنيّين، ففي مصر أقيمت بيوت كان يُتعبَّد فيها لتماثيل تجسّد الشمس والثور والآلهة الثلاثة، وفي العراق تعبّد الآشوريّون لتمثال الشمس، والكنعانيّون لبعل.

(٢) لعلّ المقصود برد وضع البيت إلى الملائكة، أي جعله قبل خلق الإنسان واستخلافه في الأرض، وضعَه في عالم الأمر. أي القضاء بأنه سوف يكون في هذا المكان، وعلى هذه الصورة، ولتلك الغاية. وكل ما في عالم الأمر سابق لما في عالم المشاهدة، وهو العالم المادّي الذي ندركه بحواسنا.

والآية الثانية: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ ١٢٧: البقرة. حيث رأوا أن القواعد بمثابة الأسس، ورفعها يعني البناء فوق ما بقي منها، بعد أن تهدّمت الجدران الشاخصة التي كانت تقوم فوقها، وتبعتها الأجزاء العلويّة من تلك القواعد.

والآيتان الثالثة والرابعة: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ ٢٦: الحج، و﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ ١٢٥: البقرة. حيث اعتبروا التطهير إزالة لما كان قد جعله المشركون في البيت من أوثان ورجس.

ويستأنس القائلون بقدم البيت ببعض الأخبار كخبر وفد عاد الذين ذهبوا إلى الكعبة يستسقون. وببعض الأقوال كقول ابن كثير: «وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان وطلبوا من الله الفرج فيه إنّما يطلبونه بحرمته ومكان بيته، وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون»[1].

فالبيت، على هذا، كان في زمن لم يُتّفق عليه، وأتت عليه السنون، ونال منه انصراف الناس عنه سعيًا وراء الماء، وتآكُلُ الحياة الفكريّة والدينيّة التي كان ينتمي إليها أو تنتمي إليه، فتهدّم وامّحت آثاره، ولم يبق إلاّ ما يشير إلى ذلك إشارة من أقاصي الأفق، فهدى الله إبراهيم إلى مكانه ليجعله مركزًا للتوحيد في الأرض، فنقّب حتى انتهى إلى أسسه، فرفعها، أي أقام عليها الجدران. ثم أذّن في الناس بالحجّ كما أُمر.

فوثنيّة المنطقة قبل الإسلام، شأن كلّ الوثنيّات المعروفة، حلقة في سلسلة من حلقات متواليات من الإيمان فالكفر، وقد كان إبراهيم وذرّيّته واحدة من حلقات الإيمان، جاءت بالحنيفيّة السمحة، وطهّرت البيت للطائفين والعاكفين والركّع السجود من الموحّدين. ولبث البيت يُعبد فيه الله الواحد أحقابًا من الدهر، ثم نال منه ما كان ينال منه بعد كلّ دعوة إلى التوحيد، وعادت الوثنيّة تطلّ برأسها.

وعندما فتح المسلمون مكّة كانت أصنام قُريش وغيرها من القبائل تتربّع في الكعبة، وكان فيها صور لإبراهيم وإسماعيل، وأخرى للمسيح والسيّدة العذراء، وكان المشركون ينتهكون حرمتها، فحطّم المسلمون الأصنام، وطهّروا البيت من جديد، وأمر الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ ٢٨: التوبة.

---

(١) تفسير ابن كثير تفسير الآية ٧٢ من سورة الأعراف.

ويعضد هذا التوجّه ما عُرفت به المنطقة من العراقة في الروحانيّات كالحكمة والأخلاق عبر التاريخ.

- إبراهيم يقيم البيت ابتداءً

ويقول فريق آخر: إن إبراهيم عليه السلام وضع البيت ابتداءً بأمر من الله، ويستندون إلى رواية عن عليّ رضي الله عنه تقول: «إن الله عزّ وجلّ أوحى إلى إبراهيم: أن ابن لي بيتًا في الأرض، فضاق إبراهيم بذلك ذرعًا، فأرسل عزّ وجلّ السكينة... حتى انتهت إلى مكّة فتطوّت على موضع البيت كتطوّي الحيّة، وأُمر إبراهيم أن يبني حيث تستقرّ السكينة»[1]. ولا تصلح هذه الرواية لترجيح رأي على آخر، لقبولها كليهما من جهة، ولما يحتمله الرمز في كلمة السكينة من وجوه.

ويرى هذا الفريق أن من أسكن ذرّيّته عند البيت ليقيموا الصلاة، ورفع منه القواعد وطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود، وأذّن في الناس بالحجّ إليه، هو من أقامه، ولا مبرّر للقول بغير ذلك. أي أن البيت، بصفاته تلك، هو ذلك الذي وضعه إبراهيم، ولم يكن من قبل.

ويرون أن البناء للمجهول في الفعل «وُضع» لا يفيد نفي قيام إبراهيم وإسماعيل بالعمليّة، وهو ممّا تتطلّبه اللغة في السياق ليس إلاّ. كما أنّه ليس ثمّة ما يُلزم باعتبار القواعد التي رفعها إبراهيم وإسماعيل الأسسَ القديمة المطمورة[2]، فالتعبير يسمح باعتبارها مطلَق الأسس، ولا بدّ لكلّ بناء يُراد إقامته من قواعد أو أسس يرتكز عليها. فرفعُ إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت يمكن أن يعني بناءها ابتداءً كما تقول: رفعت الجدار وأنت تريد أقمته بعد أن لم يكن. والقول بأن إبراهيم قد نقّب عن قواعد البيت، وبنى عليها تأويل يجعل النصّ القرآنيّ تبعًا لنصوص أخرى غير ملزِمة.

أمّا في الآيتين اللتين تتناولان تطهير البيت فيرجح القول بإحداث البيت على القول بقدمه، حيث ينبغي أن يكون التقدير في حال اعتباره قديمًا: طهّرا بيتي ممّا كان المشركون قد جعلوه فيه من أوثان ورجس، ولكنّ كون البيت دارسًا حتى القواعد

---

(١) تاريخ الطبري ١: ٢٥١.

(٢) وهو ما يراه أغلب المفسّرين.

يعني أنّه قد تهدّم على ما فيه من أصنام فتحطّمت وتبعثرت، أو أنّها أُخرجت منه قبل أن يُهجر ويتهدّم، وعندئذ لا معنى لتطهيره. أمّا في حال كونه قد أُحدِث فالتقدير: اجعلاه مطهّرًا للطواف والعبادة والعكوف والصلاة.

أمّا ما قيل من أن البناء يرجع إلى العماليق، أو إلى آدم ﷺ، أو إلى الملائكة، وجعلُه قبل خلق الإنسان، واستخلافه في الأرض، فلا دليل عليه.

ولعلّه يمكننا القول إن فكرة بيوت العبادة وجدت منذ أن عرف الإنسان البيوت، ذلك أنّها تلبّي حاجة أوّليّة له، وهي الاختلاء والاحتجاب عن العيون كما هو الحال في كلّ الحاجات التي تتّسم بالخصوصيّة. ومن المنطقيّ أن تبدأ تلك البيوت خاصّة أو فرديّة، وأن تكون بسيطة تقام ثم تتهدّم دون أن تترك أثرًا.

ومعروف أن تلك الأرض من المواطن الأولى التي قامت فيها المجتمعات الإنسانيّة، وأن أقدم ذكر للحجاز تُطيف به سمة من القداسة والتألّه، ويرتبط بالحكمة والأخلاقيّات، ولا تنفي هذا النتائج التي قدّمها علم دراسة الآثار في بعض المناطق في الجزيرة العربيّة، ولذلك لا يجوز أن نستبعد وجود ديانة توحيديّة قبل إبراهيم في منطقة الحجاز، ولعلّها ممّا اضطلع بتبليغه رسل ممّن لم يقصصهم الذكر الحكيم، فضلاً عن أنّه ليس ثمّة ما يمنع أن نفترض تسلّل بقايا من المؤمنين بدعوتَي هود وصالح على الأقلّ[١]، وكانتا في الجزيرة العربيّة، إلى تلك المنطقة المحميّة بالجبال، وإقامتهم بيتًا أو أكثر للعبادة في الحجاز. وفي التاريخ المتأخّر لجزيرة العرب حضور واضح للصوامع[٢]، وفي الروايات أنّه كان فيها بيوت حرام غير الكعبة المعروفة، ولكنّها كانت أشهرها.

وعلى هذا تكون بنيّة إبراهيم، بغضّ النظر عن قدمها وحدثانها، قائمة على أسس قديمة من

(١) ومعروف أن الجزيرة العربية كانت، عبر العصور، مجالاً تتحرّك فيه القبائل والجماعات في كل اتجاه.

(٢) وهي غرف مفردة، قد يُرقى إليها بسُلّم، مدبّبة الرأس، كما لا تزال قباب المساجد والكنائس ودور العبادة الهندوسيّة والبوذيّة وغيرها في آسيا كلّها. ومما يدعو إلى التساؤل أن الكعبة البيت الحرام لم تأخذ هذا الشكل على امتداد تاريخها المعروف.

obeikandl.com

حيث هي فكرة، ومحدثة من حيث جعلُها بيتًا جامعًا مباركًا أقيم على التوحيد، فكان هدًى للعالمين، أي للناس أجمعين. وإلى هذا ذهب ابن كثير بقوله: «أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له»[1].

*

لقد كان إبراهيم أوّل نبيّ يضع بيتًا بهذه الصفات، فقد هداه الله إلى تأسيس أمّة، رابطتها التوحيد، لا الجنس ولا العرق ولا الدم، وأمره أن يجعل لها مركزا مباركا هاديًا، تلتقي عنده أفئدتها، كرمز مزدوج لوحدتها من جهة، ولدينونتها لله الحقّ وحده من جهة أخرى.

ولعلّ هذا البيت، الجامع للناس كافّة، كان الأوّل من نوعه في تاريخ البشر المعروف، ولعلّه كان هدف إبراهيم حين خرج من بين الكلدانيّين، كما أسلفنا، إذ عزموا الإجهاز عليه وعلى دعوته، بل لعلّه ما خرج إلاّ ليقيمه. وكان كلّما تقلّب في البلاد، وخبر بحث القلوب والعقول عن الله الذي اهتدى هو إليه، تبلورت الفكرة في ذهنه بهدي من الله، وكان ذلك الهدي يسوقه شيئًا فشيئًا، وبخطّى يرسمها العليم الحكيم، إلى الجنوب فالجنوب فالجنوب، فلمّا أذن الله الحقّ أن الوقت قد حان بوّأ له مكانه حيث قضى وأراد.

ولعلّه كانت لإبراهيم محاولات أولى لإقامة البيت الذي يريد هنا وهناك من أرض اغترابه، كما تدعوها التوراة، ومن يدري؟ فلعلّ الهيكل، الذي نُسب إلى سليمان في الذواكر مع تطاول الزمن، كان بعضًا من ذلك الحلم الذي لم يستطع إبراهيم تحقيقه في أرض كنعان، وحقّقه في الحجاز، ولعلّه أقامه في أرض كنعان، فانحرف به قومه بعصبيّتهم المشهودة لذويهم، كما انحرفوا بما أقام من المحاريب، ولكنّه بقي في الأذهان لدى فريق منهم اتّباعًا لإبراهيم، ولدى فريق آخر الرمز الذي لم يكرّسوه على أرض الواقع، فسلبتهم إيّاه كعبة مكّة.

وهذا الفريق، وإلى أن تقوم الساعة، يجهد في تصحيح ذلك الوضع، ومن وسائله إلى ذلك فكّ كلّ ارتباط للكعبة بأبيهم إبراهيم، وطمس كلّ ما يشير إلى صلته بها، ومنها إلحاق الكعبة بوثنيّة المنطقة. حتى إذا ما كان زمان مُواتٍ[2]، صنعوا تلك البنيّة التي دعَوها لسليمان، وما أحسب جمعهم لذهب الأرض، على مدار تاريخهم، إلاّ ليقيموا هيكل الربّ كما وصفته توراة

---

(١) تفسير القرآن العظيم الآية ١٢٥ من سورة البقرة.

(٢) وقد اختُلف في ذلك الزمن حتى بات عائم الوجه لا يفيد إلاّ استئناسًا.

اليهود[١]، ويستقطبوا العالم به.

ويبقى كون تلك البنيّة الحلم هيكلَ الربّ وقدس الأقداس، يشهد لها بآصرة قربى ببيت الله الحرام في مكّة ولو كره الكافرون. وإذا كانت صلة إبراهيم بالهيكل، كائنة ما كانت، قد غبرت، فإن الإسلام، بعد تلك القرون الطوال أحيا صلته ببيت مكّة العتيق ووثّقها.

ويبرز سؤال تدفع إليه الأحداث والأخبار: أيكون الواقع الفكريّ والاجتماعيّ لأسرة أبي الأنبياء ورهطه عمومًا، في أرض الكنعانيّين، وراء اختياره زوجته هاجر، ليكون له منها ذريّة تقيم الصلاة عند البيت المحرّم، الذي بوّأ الله له مكانه، وتحمل إلى الناس من بعده الحنيفيّة التي أُرسل بها[٢]؟

ورغم الخلافات بين الأخبار فإن ثمّة شبه إجماع على النهاية التالية: واستجاب الله دعاء خليله، فهوت إلى وديعته عند البيت المحرّم أفئدة من جُرهُم، جاوروا إسماعيل وأمّه على زَمزَم، وأقاموا هناك وتكاثروا، وتزوّج منهم إسماعيل، فكان من ذرّيّته خلق على ملّة إبراهيم، أقاموا الصلاة، ورعوا البيت، فحفظوه لما أقيم له، مطهَّرًا للطائفين والعاكفين والركّع السجود، وكانوا يُعنون بخدمته وترميمه كلّما عدا عليه الزمان[٣].

وتوارثوا القيام على شأن الحجيج إلى أن تحقّقت دعوة إبراهيم، فبُعث فيهم رسول منهم، يتلو عليهم آيات الله الحقّ، ويزكّيهم، ويعلّمهم الكتاب والحكمة. وكانت

---

(١) تصوّر توراة اليهود ما تسمّيه هيكل سليمان على شاكلة مباني مدن الذهب في أميركا الجنوبيّة، وتصرّ على القول، في صفة كلّ واحد من مكوّناته، إن ذلك كان من الذهب الخالص، وإن وزنه كذا وكذا. [انظر سفر الملوك الأول: ٥ - ٧، وسفر أخبار الأيام الأول: ٢٩، وسفر أخبار الأيام الثاني: ٢ - ٥].

(٢) سوف يأتي الكلام عن هذا الواقع في قصص إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

(٣) وقد وثّق الشعر الجاهلي ذلك، فقال زهير بن أبي سلمى في معلقته:

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حولَه ... رجالٌ بنَوه، من قريشٍ وجُرهُمِ

الكعبة البيت الحرام قبلة لهم، ورمزًا لوحدتهم وحنيفيّتهم، التي جاء بها إبراهيم. لقد دعا إبراهيم إلى الله في العراق، ودعا في سائر فلسطين وبلاد الشام، ودعا في مصر، ودعا في جزيرة العرب، وكان لدعوته فيها ملابسات عجيبة، وكانت آية على أن الله غالب على أمره.

وكائنة ما كانت الملابسات، فبهدي من الله الحقّ جاء إبراهيم إلى الحجاز، لينشر فيها الحنيفيّة السمحة لكلّ الناس، لا لأهله وعشيرته فقط، وما كان ذلك ليتحقّق له في بلاد الشام، ولعلّه كان، شأن زكريّا، يخاف الموالي من ورائه، أن يحتكروا إرثه ودينه، وقد فعلوا بعده.

أسكن إبراهيم من ذرّيّته ذلك الوادي القفر لأمر ربّه، لا يثنيه بُعد الشُقّة ولا شظَف العيش، فقد كان الهدف أن يكونوا نواة للأمّة الموحّدة. وأقام إبراهيم البيت المحرّم الذي أمره الله أن يرفع القواعد منه، وسأل الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إلى المكان ومن فيه، ليكونوا جميعًا نواة لأمّة تعبد الله، لا تشرك به شيئًا، تحمل لواء الحقّ إلى كلّ أنحاء الأرض.

وكان إسماعيل وأمّه الحَبّ الذي انتثر... وسقطت الطير... وبدأت الغرسة تُخرج شطأها، وعهد الله الحقّ إلى إبراهيم وإسماعيل أن يُطهّرا البيت لعبادة المؤمنين، وأذّن إبراهيم النبيّ الإمام في الناس بالحجّ، فكان منسكًا جماعيًا جسّد فكرة التقاء الأفئدة على الدينونة لله الحقّ في الأرض.

وتضحّ كلمتا الناس والعالَمين بعالميّة دين إبراهيم الحنيف المسلم، التي يرمز إليها هذا البيت، والتي بدأها إبراهيم حين أقامه في أرض غير أرضه، بل في أرض مفتوحة للجميع، ودعا ربّه ذلك الدعاء الخالد ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ ٣٧: إبراهيم... وأجاب الله الحقّ دعاء إبراهيم، وزويت الأرض للبيت فسال إليه روم الشمال ويمانيو الجنوب، وأحباش الغرب، وحاملو كنوز الشرق إلى شواطئ المتوسّط. وكانت قرون، تقلّبت فيها دعوة إمام الناس في أصلاب الرجال، ثم جمع محمّد الناس حول البيت من كلّ أقطار العالم، وكان رسول الله الحقّ إليهم أجمعين ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ ١٥٨: الأعراف، و﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا

﴿كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ ٢٨: سبأ، و﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ١٠٧: الأنبياء، و﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ ٧٩: النساء، ومن قال للمؤمنين به: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ١٤٣: البقرة. ومن هنا حملت هذه الأمّة التسمية التي اختارها إبراهيم للمؤمنين الموحّدين على هذه الأرض ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ ٧٨: الحج.

الذبح والفداء

بعد فترة من الزمان حدّدها الكتاب العزيز بقوله تعالى عن إسماعيل: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ ١٠٢: الصافات. وبقوله على لسانه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ١٠٢: الصافات، حيث يفهم من العبارتين مقترنتين أن إسماعيل قد بلغ رشده، ذلك أنّه قول لا يكون إلاّ من راشد.

في هذه المرحلة من تاريخ إبراهيم كانت أشدّ أحداث حياته قسوة، فقد كان هاجسه اليقينيّ، الحيّ أبدًا، لا يني يتوهّج في أعماقه، ويوجّه فعاليّاته على كلّ صعيد، ومنها مسؤوليّته تجاه ولده أن يعلّمه ممّا علّمه الله، وأن يهيّئه ليرى من ملكوت السماوات والأرض ما أراه الله...

إني أرى في المنام أني أذبحك

وكانت الرؤيا بالحقّ: الله يأمره أن يذبح إسماعيل، وكان لا بدّ لليقين أن ينتصر، وما كان مهر النصر ممّا يملكه غير إبراهيم وإسماعيل في تاريخ الجنس البشريّ كلّه ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ ٦٦: النساء...

لم يكن إبراهيم أنانيًّا ولا مختلّ الهواجس، ولا مبتور الأحاسيس عندما قال لابنه البكر، وهو قد بلغ من الكبر عتيًّا: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ ١٠٢: الصافات، ولكنّه كان نبيًّا، ومن هنا فقد كان موقنًا أن تصديق الرؤيا خير لابنه الذبيح قبل أن تكون خيرًا له، وأنّه إن استطاع أن يجسّد ما في قلبيهما من الإيمان اليقينيّ بتصديقها فقد ضمن السعادة الأبديّة المطلقة لكليهما... قوانين حقّ يفهمها القلّة الأكرمون، وقد كان إبراهيم أبا القلّة الأكرمين... وكان يعرف أن ابنه منهم.

وقال الشيخ الحليم الأوّاه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ ١٠٢: الصافات(١)... وقال النبيّ ابن النبيّ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ١٠٢: الصافات. فكانا في المرتبة سواء في هذه المحنة، كلّ منهما شارك في الطاعة والتسليم بشكل مطلق. وقد أدرك إسماعيل كلّ ما أراد أبوه أن يدركه من كون الأمر ابتلاءً وتوكيدًا للإيمان، بل تجديدًا له، ولذلك قال باستسلام ورضًا مدهشين: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ ١٠٢: الصافات. ولم يقل: يا أبت افعل ما تريد.

ولا يخوض النصّ القرآنيّ في تفاصيل ما كان بين إبراهيم وابنه، ولكنّ الروايات، شأنها دائمًا، تحرص على سرد تلك التفاصيل، فتنقل إلينا ما يتصوّره كتّابها، أو ما يخدم أغراضهم من مواقف وحوارات... لقد كان الموقف مهيبًا رهيبًا يجلّ عن الوصف، أمسك النصّ القرآنيّ، وسيّد خلق الله عن الكلام في تفاصيله.

ويحافظ النصّ القرآنيّ على حيويّة تلك المواقف الحميمة البالغة الخصوصيّة بإحاطتها بالسرّيّة، فيحميها من التأطير، ليطلق خيال القارئ المتدبّر، فيصنع نسخته الشخصيّة التي يحشد لها أكثر الجزئيّات فعاليّة وتأثيرًا بالنسبة إليه، بينما تقوم الروايات بملء هذه الفراغات بما ترصفه من حجارتها الجامدة.

ويتجاوز الأمر الكلام إلى الفعل حقًّا وصدقًا، ويقف الزمن دون عمل اليد، ولا يقوى على الوقوف دون عمل القلب، فقد أنجز القلب وعده، وكفّ الله الحقّ اليد، وكانت لحظات من الولاء الكامل الفريد حقّ لها الخلود. وناداه: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ ١٠٤و١٠٥: الصافات، وحوّل القصد إلى ذبح عظيم كان فداءً لإسماعيل، وصار النحر سُنّة في المؤمنين(٢)...

---

(١) واستعمال المضارع يعطي انطباعًا بتكرر الرؤيا. فقد رأى تلك الرؤيا مرة بعد مرة، وتنطق عبارته بأنه مستجيب لأمر الله خاضع إليه.

(٢) تتكلف الروايات الصلة بين تلك الأحداث وبين بعض مناسك الحج، فتقول: إن إبراهيم لما رأى الرؤيا أول مرة وتروى فيها سُمِيَ ذلك اليوم بيوم التروية، ولما عرف أن هذا وحي سُمي يوم عرفة، ولما جاءه الملك بالذبح، في اليوم الثالث، سُمي يوم النحر [انظر الكشاف: تفسير الآية ١٠٢ من سورة الصافات]. وهذا كلام منطقي، وفيه مناسبة جميلة، ولكنه لا يصمد للتحقيق، وقبل هذا وذاك فإن رائحة الإسرائيليات فيه تزكم الأنوف. فقد درجت توراة اليهود على هذا في تعليل أسماء الأماكن =

ولا بدّ من الإشارة إلى أن توراة اليهود تنسب الذبح إلى إسحاق، وتجعل مكان الذبح جبال فلسطين، وذلك في سياق ما تحاول الاستئثار به من إرث أبي الأنبياء، وقد قال بذلك طائفة من علية المسلمين، منهم عمر وعليّ والعبّاس بن عبد المطّلب وابن مسعود. ولكنّنا لا نستطيع اعتماد هذا بعد ما بسطناه من الكلام في صلة إبراهيم وإسماعيل بمكّة، يضاف إلى ذلك وجود طائفة من الأدلّة القويّة على ما يبطله، ففي سفر التكوين: «فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبّه إسحاق، واذهب إلى أرض المُرِيّا، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك»[1]. وفي موضع آخر من السفر نفسه: «فلم تمسك ابنك وحيدك عني»، وفي موضع ثالث: «إنّي من أجل أنّك فعلت هذا الأمر، ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك». وما كان إسحاق يومًا وحيد إبراهيم.

ويشي تكرار «وحيدك» دون سبب مقنع بمقصد الكاتب إلى توكيده، ذلك أنّه لا يُنكر أحد من بني إسرائيل أن إسماعيل هو بكر إبراهيم، وأنّه مولود قبل إسحاق بأربعة عشر عامًا. فمن نصوص التوراة: «وكان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام»[2]، وفيه كذلك: «وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه»[3]. فلا يستقيم، بناء على نصوص التوراة نفسها، أن يكون إسحاق وحيد إبراهيم.

وهناك أدلّة في القرآن الكريم على الأمر نفسه أشار إليها المفسّرون، ومنها البشارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، حيث كان نافلةً لأنّه من عقب إسحاق[4]. ولا

= والأشخاص بكثافة يستحضرها الذهن فور قراءته أمثال تلك الرواية [انظر سفر التكوين: ١٦ الآية ١٤ و: ١٩ الآية ٢٢، و: ٢١ الآية ٣١...].

(١) سفر التكوين: ٢٢.

(٢) سفر التكوين: ١٦.

(٣) سفر التكوين: ٢١.

(٤) والنافلة الطاعة التي تؤديها دون أن تؤمر بها، وتربطك بها علاقة محبة. والحفدة نوافل يهبها الله الناسَ، فما إن يبلغ الرجل مبلغ الشيخوخة، وينصرف أولاده كل في طريقه، حتى يأتي الأحفاد يعيدون إلى حياته الحيوية والبهجة، فمن كان له أحفاد فهم مِنّة من الله عليه.

يصحّ أن يؤمَر إبراهيم بذبح من بُشِّر بعقبه. ولا تقتصر البشارة بنسل لإسحاق على القرآن الكريم، فقد ورد في التوراة في أكثر من موضع منها: «وقال الله لإبراهيم: ساراي امرأتك... وأعطيك منها ابنًا. أباركها فتكون أممًا. وملوكُ شعوبٍ منها يكونون»[١]، وقد يستقيم إذًا أن يؤمر بذبحه.

وفي سورة الصافّات يشير السياق بوضوح إلى أن الذبح والفداء قد تمّا قبل مولد إسحاق، وأن إسحاق قد ولد بعد أن بلغ إسماعيل مع أبيه السعي ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ ١٠٠ - ١٠٢: الصافات. وبعد تسع آيات متساوقات، لا مبرّر للفصل بينها زمنيًا، يقول جلّ وعلا: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ ١١٢ و١١٣: الصافات.

نُقل عن الأصمعيّ أنّه قال: «سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعيّ أين عزب عنك عقلك، ومتى كان إسحاق بمكّة؟ وإنّما كان إسماعيل بمكّة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكّة»[٢]. فجعل كون مكان النحر في مكّة دليلاً على أن الذبيح إسماعيل. وقد أخذ كثيرون بهذا الدليل.

لم يكن الذبيح يومًا إسحاق، ولكنّه التحريف والعبث بالتوراة للاستحواذ على إرث إبراهيم ونَسْبِهِ إلى الفرع الإسحاقيّ من ذريّته، وكانت منقبة الذبح من ذلك الإرث، فطالتها ممحاة بعض المحرّفين، وأثبتها قلمه لإسحاق. ومن أكبر مؤيّدات ذلك أن المناسبة على جلالها لا تحتفل بها ذريّة إسحاق رغم أنّها كانت في الأرض التي أورثهم الله، وأنّها منقبة لأبيهم كما يزعمون.

---

(١) سفر التكوين: ١٧ .وقد يكون لقائل أن يقول: ولكن في التوراة بشارة بنسل من إسماعيل. وهذا صحيح، ولكنها توراة اليهود، فهي من عند غير الله، ومن هنا فنحن واجدون فيها اختلافًا كثيرًا. أما في القرآن الكريم فلا بشارة بنسل لإسماعيل، وذلك لكي يكون الأمر بذبحه تمحيصًا حقيقيًا لإيمان إبراهيم اليقيني الكامل.

(٢) الكشاف: تفسير الآية ١٠٧ من سورة الصافات.

ويشير الدكتور محمّد بيومي مهران إلى محاولة نصرانيّة حديثة للتوفيق بين كون إسحاق الذبيح، وبين البشارة بنسل له، وتقوم تلك المحاولة على أن إبراهيم كان مؤمنًا «أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضًا». ويعلّق على ذلك بقوله: «وحلّ المشكلة على هذا الوجه جديد في المسيحيّة، لم ينظر إليه أحبار اليهود الذين اعتبروا أن التضحية قائمة على تسليم إبراهيم بموت إسحاق، وأنّه أطاع الله ولم يطع قلبه، ولم يحفل بحنانه على ابنه الموعود. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن هذا الحلّ، الذي ارتضاه فقهاء المسيحيّة، إنّما يقلّل من قيمة تضحية إبراهيم وإذعانه لربّه، إن لم يذهب بقيمتها تمامًا»(١). ويخدم هذه الإسرائيليّة أن الكلام عن الذبح والفداء، في الروايات الإسلاميّة، لا يدخل في صلب هذه الروايات، بل يُذكر بشكل خجول في بعض الروايات المستقلّة.

*

لقد نجح إبراهيم في تصديق الرؤيا. وتصديق الرؤيا هنا إنّما هو إمضاء الأمر بإخلاص كامل، ينتهي إلى مرتبة من اليقين، فالخضوعِ الطوعيّ لله الحقّ، وذلك في سلسلة لا نهاية لحلقاتها من الشوق الإنسانيّ إلى بلوغ كمال اليقين.

وكان هذا التصديق، والمرتبة التي أدّى إليها، جزاءً من الله الحقّ لإحسان إبراهيم... ذلك الجزاء الذي كتبه للمحسنين. وكان ثَمّ جزاء آخر... كان الفداء... فقد قضى الله أن يتمّ الأمر في عالم الروح عزمًا وإمضاءً، ولم يشأ له أن يتمّ في عالم المادّة ...﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ١٠٤ و١٠٥: الصافات. أي: «قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك، ومبادرتِك إلى أمر ربّك، وبذلِك ولدك للقربان، كما سمحتَ ببدنك للنيران، كما ما لك مبذول للضيفان. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ ١٠٦: الصافات، أي الاختبار الظاهر البيّن»(٢).

---

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١: ١٦٤.

(٢) ابن كثير: قصص الأنبياء ١: ١٣٤.

وخلّد النبيّ الخاتم، حامل تمام رسالة التوحيد الأزليّة الأبديّة الفداءَ، فكان عيدًا لكلّ موحّد على ظهر هذه الأرض، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

***

إبراهيم والإسلام صلة أم وحدة؟

جاء في سفر التكوين أن مَلاك الربّ قال لهاجر: «أنت حبلى، وستلدين ابنًا فتسميه إسماعيل... ويكون رجلاً كحمار الوحش، يده مرفوعة على كل إنسان، ويد كل إنسان مرفوعة عليه، ويعيش في مواجهة جميع إخوته»[1]. ولكنّنا إذا ما نظرنا فيما لدينا من أخبار إسماعيل في المصادر على اختلاف مشاربها، وعلى رأسها القرآن الكريم، وجدنا أنفسنا أمام شخصيّة لا تمتّ إلى ذلك بصلة. بل إن إسماعيل قد ورث عن أمّه اللين والدماثة، وليس في أخباره ما يُشتَمّ منه أنّه واجه أحدًا، أو خاصم أحدًا، أو حارب أحدًا، ولم يدخل في الصراع الذي دار بين ولدي أخيه إسحاق، رغم انحياز أحدهما إليه وزواجه ببنته. ومن هنا فإن ما تذكره التوراة عن إسماعيل إنّما هو استشراف واضح، وإن كان مشوَّهًا، لسيّد الخلق الذي سوف يكون من ذرّيّته.

ويقرأ ابن كثير البشارة التوراتيّة بإسماعيل كما يلي: «... ويكون وحش الناس، يده على الكلّ، ويد الكلّ به، ويملك جميع بلاد إخوته». ويقول: «وهذه البشارة إنّما انطبقت على ولده محمّد صلوات الله وسلامه عليه، فإنّه الذي به سادت العرب، وملكت جميع البلاد غربًا وشرقًا، وآتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم يؤت أمّة من الأمم قبلهم، وما ذاك إلاّ بشرف رسولها على سائر الرسل، وبركة رسالته ويُمن بشارته وكماله فيما جاء به، وعموم بعثه لجميع أهل الأرض»[2].

---

(١) سفر التكوين: ١٦.

(٢) ابن كثير: قصص الأنبياء ١: ١٢٨.

ويزيد هذا القول كثيرًا على ما دعوتُه بالاستشراف. فإذا صحّت الترجمة التي اعتمدها ابن كثير فهو من الحقّ الذي أعمى الله المحرّفين عنه، فلم يطمسوه. وفي توراة اليهود وأناجيل النصارى أكثر من موضع ممّا أحقّه الحقّ ولو كره المحرّفون.

يئس إبراهيم من إقامة الدين الذي انتدبه الله لإقامته، بين أهله وعشيرته، فقد فشلت تجربته الأولى في العراق، وأجهزت العصبيّة على كلّ بادرة لها في الشام، وطفق عمرًا يبحث عن ضالّته... لقد جعله الله للناس، وليس لأهله وعشيرته فحسب، إمامًا، فهو واعٍ بكلّ كيانه كلّ كلمة تلقّاها من الله الحقّ عندما سأله لدى البشرى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؟

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ١٢٤: البقرة.

من أجل ذلك دعا إبراهيم ربّه: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ ١٢٨: البقرة.

ودعا لتلك الأمّة: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ١٢٩: البقرة[1].

ومن أجل ذلك قال لحفيده الذي أخرج دعوته للناس كما أرادها بعد قرون من الزمان: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ ٦٧: آل عمران.

وقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ٦٨: آل عمران.

ودعا إبراهيم لنفسه ولولده ولذريّته: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ ١٢٨: البقرة، ودعا لتلك الأمّة: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ١٢٩: البقرة.

---

(١) وتكون الطهارة من النجاسة، والنجاسة الحرام. وتكون الزكاة من الوساخة، والوساخة سوء الأدب والخُلق والجوار والرحم وما إلى ذلك.

obeikandl.com

واستجاب الله دعوة إبراهيم له ولذرّيّته، فكان المكان بلدًا آمنًا، وجنبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام، وأكرمهم بالتوحيد، وبعث في ذرّيّته رسولاً منهم، هو محمّد ﷺ الذي سُئل عن بدء أمره، فقال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمّي»[1]. وفي محكم التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ١٦٤: آل عمران...

فقد أعطى الله إبراهيم سؤله كما يليق به، وزاد ذريّته التي نالت عهده فضلاً، فقدّم لها التزكية على تعلّم الكتاب والحكمة، فما إن ينتمي المرء إلى هذا الدين، ويسلم مع محمّد حتى يزكو... وبذلك اختصّ الله الحقّ هذه الأمّة بأنّه يقبل منها القليل، ويعطي عليه الكثير؟ وأنّه مهما أجرم المسلم فما عليه إلا أن يستغفر الله، فيجد الله توّابًا رحيمًا.

يرتبط التعليم عضويًا بالتزكية في الإسلام. الأمر الذي يجعل من العلم والأخلاق معًا قاعدة متينة تضمن للأمّة التوازن والاستقرار والتقدّم على أسس سليمة. ومن أخطر ما ابتلينا به كأمّة في العصور المتأخّرة الفصل بين التعليم والتربية في المناهج المدرسيّة. وتقوم التربية بدور التزكية التي منّ الله على المؤمنين بتقديمها على التعليم في منهج رسوله إليها، ممّا جعلها خير أمّة أُخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وهو الوسط الذي يفلح فيه العلم، ويؤتي أُكله كما أراد له الله الحقّ أن يؤتيه، نفعًا للإنسان الموكّل بإقامة الحقّ في الأرض، لا عونًا للمنحرف والضالّ على الإمساك بأزمّة الأمور ولَيّ أعنّتها لتسير في طريق الباطل المدمّر.

(١) مسند أحمد: ١٧١٩٠.

ويشهد العالم كلّه اليوم إفلاس الإيديولوجيّات التي تفصل بين العلم والأخلاق، بعد أن طرحت حسكها وشوكها فمسخت الإنسان أو كادت، ووقفت بالمجتمعات على شفا جرف هارٍ يوشك أن ينهار به في الجحيم. وقد بدأت ترتفع أصوات بعض ذوي الرشد محذّرة ومنذرة، ولكنّ المدّ المعاكس اليوم في أوج إجلابه عليها بكلّ خيله ورجله... فلعلّه لم يئن للأرض أن تتخلّص من خبثها بعد.

وتعبّر عن وحدة ما جاء به أبو الأنبياء، وصاحب الرسالة الخاتم، آيات عظيمات في الذكر الحكيم تذكر أن الرسالات كمُلت توحيدًا وشريعةً بإبراهيم، وتمّت بمحمّد ﷺ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ١٢٠ - ١٢٣: النحل. فهو الاتّباع، أمر به الله خاتم أنبيائه ورسله. وفي آية أخرى نراه يأمره بإعلانه منهجًا لدعوته: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ١٦١ - ١٦٣: الأنعام... هكذا هُدي نبيّ هذه الأمّة إلى اتّباع ملّة إبراهيم الحنيف، وأُمر به.

وكان قضاء حقّ قضى به الحكيم العليم: أن المؤمنين الذين يتولاّهم الله... المؤمنين حقًّا هم أولئك الذين آمنوا بما جاء به إبرهيم، واتّبعوه، ومحمّدٌ نبيّ هذه الأمّة، وأولئك الذين آمنوا بالله الحقّ وحده لا شريك له ربًّا وظلّت أعناقهم له خاضعين أولئك أولى به من أهله وذريّته، وأولئك يتولاّهم الله، وهو نعم المولى، ونعم الوكيل: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٦٨: آل عمران. شهادة الحقّ لهذه الأمّة أنّها أولى خلق الله بإبراهيم، وأن الله بهذا وليّها ومولاها.

وقد قيل في قوله جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ٨٣ و٨٤: الصافات إن الضمير في شيعته يعود على رسول الله، رغم ما هو ظاهر من كونه عائدًا على نوح المذكور في الآية السابقة، وذلك لأن كلًّا من إبراهيم ومحمّد لم يسجد يومًا لصنم[1]، وهو ما تشايعا عليه. وقد عبّرت الآية عن ذلك بسلامة القلب.

وإذا تحرّينا صورة سيّدنا إبراهيم في كتاب الله رأيناه الحليم الأوّاه المنيب ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ ٧٥: هود، والصدّيق النبيّ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ ٤١: مريم، والذي أوتي رشده من قبل ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ ٥١: الأنبياء، وخليل الله ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ ١٢٥: النساء، والذي وفّى ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ ٣٧: النجم، وأبا الأنبياء، وإمام الناس ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ١٢٤: البقرة، والذي كان أمّة قانتًا لله حنيفًا ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ١٢٠: النحل، والمجتبى، الذي هُدي إلى صراط مستقيم ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ١٢١: النحل، وأوتي في الدنيا حسنة، وكان في الآخرة من الصالحين ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ١٢٢: النحل. وكان من أولي الأيدي والأبصار ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ٤٥: ص، ومن المصطفين الأخيار ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ ٤٧: ص، والذي جعل الله في ذريته النبوّة والكتاب ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ ٢٦: الحديد، وآتاهم الحكمة وملكًا عظيمًا ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ ٥٤: النساء.

فمن آمن بما جاء به إبراهيم فقد آمن بما جاء به الأنبياء جميعًا، وما كان ذلك إلاّ لمحمّد وأمّته، حيث أُمروا: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ ٩٥: آل عمران، فكانوا كما قال عنهم ربّهم: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ ٢٨٥: البقرة. فالإيمان بالرسل جميعًا من أركان الإيمان في هذا الدين الحنيف، ومن هنا كان الإسلام الدين الوحيد الذي حافظ على شريعة سيدنا إبراهيم، وكان المسلمون الأمّة الوحيدة غير القابلة للشرك، رغم ما نقل من أن رسول الله

---

(١) وكان ذلك من علامات رشد إبراهيم قبل النبوة.

سئل: أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم"، ولكنّه ﷺ بيّنَ المقصود بشركها «أما إنّهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً. ولكن يراؤون بأعمالهم»[1]. فهو إذاً الشرك الخفيّ، وليس الحقيقيّ.

* * *

(١) مسند أحمد: ١٧١٦١.

obeikandl.com

الفصل السابع
إسماعيل
عليه السلام

السلام عليك أيها الرسول النبيّ، يا ابن إبراهيم، وجدّ محمّد...
السلام عليك يا من أُسكنت وادي مكّة لتقيم الدين بين يدي حفيدك العظيم الآتي، فهوت إليك وإلى أمّك أفئدة من الناس، ورفعت مع أبيك القواعد من البيت، وطهّرتماه للطائفين والعاكفين والركّع السجود...

* * *

إسماعيل الرسول النبيّ

كان إسماعيل الرسول النبيّ مصريّ الأمّ، عراقيّ الأب، شاميّ المولد في المتداوَل من الروايات، مكيّه كما رجح لدينا، أقام في الحجاز، وتزوّج بمصريّة، وقيل: بيمنيّة، فاستغلظت جذوره العربيّة الأصيلة، وجمع في ذريّته أعراق المنطقة التي كانت مسرحًا لدعوة أبيه إبراهيم عليه السلام، وصبغها كلّها بعروبة جُرهُم، حتى نعته بعض المؤرّخين برمز العروبة[1]. وكان من صلبه حَمَلة رسالة إبراهيم، الذين سكنوا وادي مكّة ليقيموا الصلاة، فهوت أفئدة من الناس إليهم، ورزقهم الله من الثمرات. فمنهم من شكر فنالهم عهد الله، فكانوا للناس أئمّةً كما كان أبوهم وجدّهم، ومنهم من ظلم فسبقت كلمة الله ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ١٢٤: البقرة.

وجاء عن إسماعيل في الذكر الحكيم: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ ٥٤: مريم، ومن ذلك أنّه وعد أباه أن يُعينه على تصديق رؤياه في ذبحه، وأسلم قياده إليه

---

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخيّة من القرآن الكريم ١: ١٥٩.

obeikandi.com

طائعًا مختارًا، ولم يكن عقبة دون ذلك. وكان نبيًّا ورسولاً إلى الناس حيث أسكنه أبوه عند البيت المحرّم ليقيم الصلاة. ووجود بيت يقيم أهله الدين تأسيس لمجتمع كامل يقيمه.

وممّا جاء به الذكر عن إسماعيل: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ٨٥: الأنبياء. فقد صبر على الذبح، وصبر على بناء الكعبة وهو يافع طريّ العود، وصبر على قحط الحجاز، بعيدًا عن خفض العيش في كنف أبيه الثريّ، ولزمها ومات فيها، وصبر على الدعوة إلى الحنيفيّة السمحة في بحر من المشركين وأوثانهم، وحافظ على بيت الله، كما عهد الله إليه وإلى أبيه، مطهّرًا ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ١٢٥: البقرة.

وجاء عنه كذلك: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ ٥٥: مريم. وكلّ نبيّ يأمر أهله بالصلاة والزكاة، فللنصّ على ذلك دلالة خاصّة بإسماعيل عليه السلام، من حيث أنّه وأهله البيت المسلم الذي كان نواة للأمّة المسلمة. فإسماعيل وأهله والأفئدة التي هوت إليهم، واتّخذتهم قدوة ومرشدًا، أرسوا قواعد دين إبراهيم الذي أراد الله أن ينطلق من البيت العتيق في كلّ اتّجاه، ويجمع حوله الناس، كلّ الناس يأتونه من كلّ فجّ عميق، وبذلك كان التطبيق العمليّ لقول الله تبارك وتعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ١٢٤: البقرة، وفي ذلك أيضًا تنبيه للناس، لشدّة تفريطهم في أمر أهلهم في هذا. وفي الحديث: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصلّيا ركعتين كتبا من الذاكرين»[1].

إن من أخطر ما يهدّدنا في مَعادنا أنّنا نتساهل في تعويد أبنائنا أداء العبادات، ولاسيّما الصلاة، لشفقة خدّاعة عليهم، أو لذهول عن الأمر. ذلك أن تعويدهم العبادات في السنّ المناسبة يخفّف عنهم عناء التعوّد المتأخّر، وفيه ما هو معروف من المشقّة، بل المخاطرة.

(١) صحيح ابن حبان: ٢٥٦٩.

فكثيرًا ما لا يفلح في المواظبة على الصلاة من لم يعتدها في الصغر، ومن هنا كان من هدي رسول الله ﷺ «مروا صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعاً، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً»(١).

ويلاحظ في الآية ربط الصلاة بالزكاة، فإذا أدّاهما المسلم فقد نجا... والربط بينهما سنّة ماضية في كلّ الرسالات، فهما ركنان متلاحمان من أركان الإسلام إلى الله الحقّ من آدم إلى محمّد ﷺ.

وقد جمعت الصفحة الأولى من سورة البقرة الإسلام كلّه، ووكّدت مرتبة الصلاة بجعلها الركن التنفيذيّ الأوّل، كما وكّدت ربطها بالزكاة: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ٣: البقرة. فما عليك إلاّ أن تؤمن بالله وحده، وتكرّس صلتك به بالصلاة، وانتماءك إلى حزبه بالزكاة، وإخلاصك له بالصوم، وفهمك لرسالاته بالإيمان بها جميعها، باعتبارها دعوات إلى الالتزام بما قضى به الله من الحقّ. وأن تكون على يقين أن حياتك التي تعيشها ليست إلاّ جزءًا من كينونتك، وأن ما تفعله فيها يحدّد مقامك فيما وراءها. وقد وصف الكتاب الحكيم الذين يكونون على هذا بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٥: البقرة.

تلك هي صفحة الكرم الإلهيّ، جمع الله الحقّ فيها لعباده معالم الطريق إليه، ليطمئنّ من اهتدى بها إلى أنّه على الصراط المستقيم، وما عليه إلاّ أن يبدأ المنهج. فإذا رأيت مسلمًا على هذا فاعلم أنّه على الطريق السليم، وادفعه لكي يجدّ ويرقى، واحذر أن تشكّكه في دينه، وفي كرم الله ورحمته... فعلى هذا التشكيك اعتمد أعداء الإسلام في سعيهم إلى النَّيل من لُحمة الأمّة، وتمزيق وحدتها، والفَتّ في عضُدها.

المؤامرة على إسماعيل في توراة اليهود

كلّفت توراة اليهود نفسها مجهودًا كبيرًا في التزوير والتلفيق لتعتقل أبا الأنبياء ودعوته العالميّة في حدود بلاد الشام، وتقصر صِلاته على من فيها، وقد رأينا كيف كان إسماعيل بكر إبراهيم عقبة كأداء اعترضتهم دون ذلك، فهو بنشأته في الحجاز،

(١) مسند أحمد: ٦٦٨٩.

شاهد على أن تلك المنطقة كانت الميدان الرئيس لدعوة إبراهيم، وهو ما يحرص اليهود على التعفية عليه، ليستأثروا بإرث إبراهيم، ويُحرزوه لذرّية إسحاق، الذي يدّعون الانتساب إليه.

ويُلاحظ أن الروايات الأكثر رواجًا بشأن إسماعيل، إن هي إلاّ متابعة لما جاء في التوراة، التي استقدمت إسماعيل إلى بلاد الشام، لتنسج حوله القصّة المعروفة فتخرجه من ميراث النبوّة أوّلاً، ومن ميراث الأرض ثانيًا[١]. وقد أتمّت التوراة الجزء الأوّل من مهمّتها تلك لدى البشارة بإسحاق، أمّا الجزء الثاني، فقد سكتت عنه حتى لحق أبناء يعقوب بمصر، ثم عاد موسى بقومه إلى فلسطين، حيث وجدنا أرض الميعاد تقتصر عليهم، ولا نسمع لذرّيّة إسماعيل ذكرًا، رغم أنّهم من نسل إبراهيم[٢]، فقد أذابتهم توراة اليهود في رمال شور، وهم الأمّة العظيمة كما في نصّ التوراة نفسها[٣].

وفي سياق تبرير إقامة العهد مع إسحاق، كان الزعم بأن إسماعيل ابن جارية، وقد استفادت توراة اليهود من ذلك في إعلاء شأن نسل إسحاق على نسله، ولكنّها لم تجرؤ على القول صراحة: إن الله أقام عهده مع إسحاق لهذا السبب، بل طفقت تحوم حوله لتوحي به إيحاءً، وصوّرت الأمر كما لو كان منوطًا بمزاج الربّ، فقد رأينا إبراهيم نفسه لم يخطر بباله هذا عندما أعلمه ربّه أنّه سيرزقه من امرأته سارة بولد، وكان إسماعيل في الثالثة عشرة من عمره، فقال للربّ: «ليت إسماعيل يحيا أمامك»[٤]. ولكن الربّ يحوّل الإرث إلى إسحاق لأمر لا يفصح عنه أحد.

وهكذا تشهد توراة اليهود أنّ العهد، الذي تدّعي أن الله أقامه مع إسحاق، ما هو إلاّ دعوى لتوكيد نفي إسماعيل من حياة أبيه، واستحواذ اليهود الذين يدّعون النسب

---

(١) رغم اعترافها بأنه وارث، كما سوف يأتي.

(٢) جاء في سفر التكوين أن الربّ قال لإبراهيم: "لنسلك أهب هذه الأرض" [سفر التكوين: ١٢].

(٣) قال الله لإبراهيم عن إسماعيل: "وها أنا أباركه وأنمّيه وأكثّره جدا، ويلد اثني عشر رئيسًا وأجعل نسله أمة عظيمة". [سفر التكوين: ١٧].

(٤) سفر التكوين: ١٧.

obeikandi.com

إلى إسحاق، على إرث إبراهيم الإلهيّ. ولكنّ كلمة الله الحقّ سبقت: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ١٢٤: البقرة.

هذا العهد الذي يكاد يقتصر في توراة اليهود على الالتزام بالختان، والذي يبدو أنّه يعني ما تبلور فيما بعد في المقولة المعروفة: «شعب الله المختار»، نجده في الذكر الحكيم كلمات هنّ عين الحقّ في أصفى عبارة وأنقاها وأبرأها من العوج: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ١٢٤: البقرة. **فالذين ينالهم عهد الله هم الذين يختارون الحقّ سبيلاً فيجعلهم أئمّة، ويجعلهم الوارثين.**

وفي سبيل الاستئثار بأرض الميعاد حُوّرت النصوص، ووُجّهت بصورة ساذجة لإزاحة إسماعيل، وبتر كلّ علاقة له بأبيه وأخيه إسحاق وذرّيّته، ويبدو أن توراة اليهود لم تجد غضاضة في ذكر بعض الأحداث، التي لا تحمل هويّة دالّة على تلفيقها واختراعاتها، كحضور إسماعيل دفن أبيه مع أخيه إسحاق، وتزويجه بنتًا له لعيسو بن إسحاق.

ذلك بعض ممّا يشهد على الصورة التي أقرّها مجمع نيقية لما دُعي بالكتاب المقدّس، الذي جمع توراة اليهود وما ارتضوه من أناجيل النصارى، في جحفلة واضحة وراء الفكرتين الأهمّ، وهما تثبيت أقدام اليهود في أرض الميعاد، وتكريس فكرة الشعب المختار كذريعة للاستيلاء على ذهب الأرض، وتسخيره لخدمة أغراض اليهود.

و«ذهبُ الأرض» عبارة تعني ذهبها فعلاً، فصورة اليهود، كما كرّسها تاريخهم المعروف، تظهرهم يتوارثون المرابأة أكثر ممّا يتوارثون جلودهم وأدمغتهم، والمرابأة هي المهنة الأدنأ فيما

عرف الإنسان من المهن، والأكثر ملاءمة للطبيعة البدويّة التي تنفر من العمل اليدويّ[1]، وقد كانت، ولم تزل ثانية مهنتين اثنتين لا ثالثة لهما يمارسهما يهود العالم، وإن كانوا اليوم يُحشرون وإنسانَ الغرب، العامل بطبعه، في خانة واحدة، وأمّا المهنة الأولى فالتآمر والتجسّس وحبك الخطط لخدمة مصالحهم.

إن كلّ ما يفعله اليهود الآن كمؤسّسة رسميّة يطلقون عليها اسم دولة إسرائيل، إضافة إلى الاستيلاء على ذهب الأرض، أنّهم يخطّطون ويتجسّسون، ويضربون شرق العالم الغافل بغربه، ليكونوا هم وحدهم المستفيدين. ونقف على سياستهم في تسخير الذهب لأغراضهم في مقولة ابن أبي الحُقيق يوم طُرد بنو النضير من محيط مدينة رسول الله، وسمح لهم بحمل ذهبهم: هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها، وإن كنّا تركنا نخلاً، ففي خيبر النخل[2].

وفي سبيل تكريس فكرة أرض الميعاد، وما يلزمها من فكرة شعب الله المختار[3]، ضربت توراة اليهود عُرض الحائط حتى بما يمسّ الذات العليا، ناهيك بما يمسّ الأنبياء وأبا الأنبياء[4]. وكان على رأس قائمة المحوَّرات، بل المزوَّرات، العبث بتاريخ إسماعيل عليه السلام، حيث سلبوه كلّ مأثرة، وألحقوها بإسحاق. وقد ظلّ هؤلاء

(١) عالج الإسلام هذا بالحثّ على العمل اليدوي: "ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده" [البخاري: ١٩٦٦]، و"من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورًا له" [الترغيب والترهيب: ٢٦١٢]. و"لأن يأخذ أحدكم حبله، ثم يغدو إلى الجبل، فيحتطب، فيبيع، فيأكل ويتصدّق، خير له من أن يسأل الناس" [البخاري: ١٤١٠].

(٢) محمد أحمد باشميل: غزوة خيبر ص ٥٣.

(٣) وصفاء العرق خرافة فرغ العلماء من دحضها، وفي التاريخ التوراتي نفسه شواهد كثيرة على أنها مما يتمسك به اليهود في سعيهم إلى ارتداء لبوس الأمّة.

(٤) وكان من جراء ذلك أن زيفوا التاريخ، وخلطوا الأوراق، وشوّهوا حقائق مجريات الأمور، وأتاح لهم ذلك أن توراتهم قد اعتُمدت على رأس المصادر التاريخية في العالم، وذلك بمساعي يهود العالم المجندين لتكريس فكرة القومية والوطن اليهوديين، وبكونها، أي توراتهم، أكثر انتشارًا وتداولاً من المصادر الأخرى.

يرعَون تلك الفكرة، ويُحيونها، ويسحبونها على ذرّيّة إسماعيل من بعده، فيصمونهم بأنّهم أبناء الجارية.

ومن ذلك إطلاق ديوسقوريدس اليهوديّ التوراتيّ المعروف في القرن الأوّل للميلاد كلمة saraceni، على القبائل العربيّة في بادية الشام وسيناء وصحراء أدوم، واشتهرت ترجمتها في الكتابات اليونانيّة واللاتينيّة، بقُيون سارة، أي عبيد سارة(١)، «وشاع استعمالها في القرون الوسطى فأطلقها النصارى على جميع المسلمين. ونجد الناس يستعملونها في الإنجليزية في موضع عرب ومسلمين حتى اليوم»(٢).

ومن تلفيقهم في سبيل تحقيق ذلك الهدف ما جاء في سفر التكوين: «وولدت سارة امرأة سيدي ابنًا لسيدي بعدما شاخت، فقد أعطاه كل ماله»(٣). ورغم أن إسحاق ليس البكر الذي تورّثه شريعة بني إسرائيل، فقد استصدر كتبة التوراة إلههم تشريعًا خاصًّا بتسوية وضعه وورَّثوه. وكرّروا المؤامرة في أبنائه، فورث يعقوب أباه بدلاً من أخيه البكر عيسو، وتمّ ذلك بتدبير من رِفقة زوجة إسحاق، التي خلفت سارة على متابعة تصفية إرث إبراهيم، وحصرِه في فرع واحد من ذرّيّته، وإقصاء الفروع الأخرى، وعلى رأسها الفرع الإسماعيليّ.

وفي نصّ آخر «وأعطى إبراهيم إسحاق كل ما كان له. وأما بنو السراري اللواتي كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا، وصرفهم عن إسحاق ابنه شرقًا إلى أرض المشرق وهو بعد حيّ»(٤). وإذا كان إسماعيل كهؤلاء فما سبب تميّز ذكره، ومباركة الربّ له ووعده بتكثير ذرّيّته، وإثبات سيرته من دونهم جميعًا؟

* * *

(١) ترجمها آخرون بالسارقين لغزوهم، وبالشرقيين لجهة قدومهم.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١: ٢٧-٢٩.

(٣) سفر التكوين: ٢٤.

(٤) سفر التكوين: ٢٥.

الفصل الثامن

إسحاق ويعقوب

عليهما السلام

السلام عليكما يابشارة الملائكة، أيها المباركان في أولي الأيدي والأبصار...

السلام عليك يا أبا يعقوب غلامًا عليمًا، ونبيًّا من الصالحين...

السلام عليك يا أبا يوسف الصدّيق، أيها الحليم الصبور، الذي وصّى أبناءه بما رضيه الله لذرّية أبيه إبراهيم من الدين «فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون».

* * *

نبيّ من الصالحين

إسحاق بالعبريّة تعني «يضحك»، وفي الروايات أن إسحاق عليه السلام كان جميلاً وضيئًا، ورث جماله من أمّه سارة، التي تزعم توراة اليهود أنّها فتنت ملك مصر، وهي عجوز تجاوزت السبعين، وكانت من أسرة تأصّل فيها الحسن، وقد زوّجت إسحاق ابنها ببنت أخيها رفقة، فجمع ابنهما يعقوب حسن والديه إلى حسن جدّته، وتزوّج ببنت خاله راحيل، فتكامل هذا الحسن الموروث في يوسف عليه السلام...

وفي القرآن الكريم نرى إسحاق بشرى يتلقّاها إبراهيم بعد الفداء العظيم ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ١١٢: الصافات، وكان شيخًا ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ ٥٤: الحجر، وتتلقّاها امرأته من ضيفه المكرمين ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ ٧١: هود، وكانت عجوزًا عقيم ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ٢٩: الذاريات[١]. فقد وصفه الذكر الحكيم بأنّه نبيّ من الصالحين، وبأنّه غلام عليم: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ٥٣: الحجر، وبأنّه مبارَك: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ ١١٣: الصافات.

*

وتُخبرنا الروايات التوراتيّة أن إسحاق قد شبّ، ورأى إبراهيم عليه السلام أن يتزوّج من أهله، فأرسله إلى العراق في موكب خاطبًا، وتُصوّر الشابّ الوضيء يلتقي رفقة على ماء فيُعجب بها، ثم يكتشف أنّها بنت عمّه، ويتّصل ما كان قد انقطع بين إسحاق وأهله، منذ أن خرج إبراهيم من العراق مهاجرًا بدينه. ثم يتزوّج إسحاق برفقة، ويلبث في العراق حينًا، ثم يعود بأسرته إلى الشام، وكان فيها مجاعة أو وباء، فيغادرها إلى ساحل البحر الأبيض قرب غزّة.

وفي الروايات أن سيّدنا إسحاق لم يجد له مستقرًّا في الشام إلاّ بعد حين، ذلك أنّه كان قد أوتي فراسة في تتبّع المياه الباطنيّة، فكان كلّما أقام حيث احتفر بئرًا، نازعه أهل المنطقة إيّاه، وبقي على تلك الحال، إلى أن قيّض الله له قومًا ذوي شوكة، انتهى الأمر بينه وبينهم إلى مصالحة حول بئر له، فاستقرّ بأهله وماله. وفي الروايات التوراتيّة أن الله بارك إسحاق، وتراءى له ليأمره بعدم الهجرة إلى مصر ذاتَ مجاعة، ويؤكّد له وعده لأبيه إبراهيم أن يكثّر نسله، ويعطيه جميع هذه البلاد.

وقد رزق إسحاق عليه السلام بتوءمين هما عيسو ويعقوب، أمّا عيسو فكان مغامرًا عنيفًا، وصيّادًا بارعًا، وكان حِبّ أبيه لفتوّته، وفي الروايات أنّه أرسله إلى مكّة، خاطبًا نسيمة بنت عمّه إسماعيل عليه السلام، وأنّه تزوّجها، وكان من نسلهما الروم. وأمّا يعقوب، فقد كان وديعًا رقيقًا ليّنًا، وكان حِبّ أمّه. وفي الروايات، إنّها سعت لينال هو، دون أخيه عيسو، دعوة إبراهيم عليه السلام، وكانت: اللّهم اجعل الأنبياء والملوك من ذرّيّته.

إسحاق يستخلف يعقوب

وفي هذا تطالعنا توراة اليهود بقصّة فجّة بدائيّة تتنكّر لكلّ ما يمتّ إلى أخلاق الأنبياء وسلوك أهلهم وتصرفات بنيهم بصلة، فتزعم أن إسحاق أسنّ، وكفّ بصره، وأنّه طلب

---

(١) وفي توراة اليهود أن سارة كانت في التسعين، وأن إبراهيم كان في عامه المائة.

يومًا من ولده عيسو أن يأتيه بعجل مشويّ، فيدعو له بدعوة أبيه إبراهيم، فاحتالت رفقة ليعقوب، فسبق أخاه إلى أبيه بالطعام الذي طلب، وأوهمه أنّه عيسو. وانطلت الحيلة على إسحاق، ولم يمنعه بعض من الشكّ أن يمنح يعقوب الدعوة النفيسة.

وتُظهر تلك القصّة إسحاق كمن فقد حكمة النبيّ وهيبة الأب، وتصوّر أهله وولده يستغفلونه، ويسخرون منه، ويبدو فيها يعقوب محتالاً مخادعًا ممحوّ القرار أمام أمّه، كما نرى في قوله لها وهي تزيّن له خداع أبيه: «ماذا لو جسّني أبي فوجدني مخادعًا؟»، وفيما دار بينه وبين أبيه الذي كُفّ بصره من كلام «قال: هل أنت حقًّا ابني عيسو؟ قال: أنا هو»، وفي قول أبيه عنه لأخيه عيسو: «جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك»[1]. هكذا تصوّر توراة اليهود إسحاق ويعقوب اللذين قال فيهما كتاب المسلمين: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ ٧٢: الأنبياء، و﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ٤٥: ص.

فإذا ما تجاهلنا هذه القصّة الكذّابة، فلعلّ إسحاق عليه السلام لم يكن حريصًا على منح الدعوة لعيسو بالذات، ولعلّه كان يرى أن كلاً من ولديه يستحقّها، فمنحها من سبَق في السعي في مرضاته. وقد استُجيبت دعوة إسحاق لولده يعقوب، فكان من ذرّيّته أنبياء وملوك، ولم يكن من ذرّيّة عيسو نبيّ ولا ملك.

وللسبق في الفكر الإسلاميّ بَصمته المتميّزة، فهو من ركائز الشخصيّة المسلمة الحيّة الموكّلة بعمارة الأرض، والمستخلفة على إقامة الحقّ فيها. يتّضح ذلك في الدعوة القائمة أبدًا إلى المبادرة بالخير، والمسارعة إليه، وذكر فضل السابقين في الخيرات. فإن لله نفحات على المؤمن أن يترقّبها، ويسارع إليها، ومعروف ما للسابقين السابقين من القربى، ومن جنّات النعيم ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ١٠ - ١٢: الواقعة.

ومعروف ما لعبارة: «سبقك بها عكّاشة»[2]، فيما روي عن سيّد الخلق، من مكانة ومن

(١) سفر التكوين: ٢٧.

(٢) صحيح البخاري: ٥٤٢٠.

وزن، فقد قال ﷺ: «سبعون من أمّتي يدخلون الجنّة بغير حساب. فأسرع عكّاشة بن محصن يقول: ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله.

قال: اللّهمَّ اجعله منهم.

فقال آخر: وأنا يا رسول الله.

قال: لقد سبقك بها عكّاشة».

والمتأمّل في السبق إلى الخير، في الفكر الإسلاميّ، يدرك أن ما يناله السابق من أجر ليس مكافأة لبراعته وسرعة اقتناصه للفرص، بل لأن سبقه إلى الخيرات ضرب من المسارعة إلى الخير والبرّ عفو الخاطر، ممّا يكشف عن حضور واضح للفطرة النقيّة، التي تستجيب إلى الموقف الخيّر بشكل عفويّ، أقرب إلى الغريزة، أي من دون تقليب الأمر أو مناقشته.

فما تلك إذًا بدعوة إلى إلغاء التفكير، واقتناص الهواجس، وما أكثر ما تكون فجّة، أو قائمة على طغيان الهوى، أو عسف الغريزة، أو أصداء العقل الباطن! ولكنّها تكريم للمؤمن الطيّب، ذي الداخل النظيف النقيّ، الذي ينجذب عفويًّا إلى الخير. وهذا يعني حكمًا أنّه ذو نفس قد روّضت على الاستقامة، ومرنت عليها، فهي تهوي إليها حيث تتلمّس منها شعاعًا.

هكذا صوّرت توراة يهود يعقوب يُحرز إرث جدّه من النبوّة بالكذب والخداع، وإنّه لأمر عجيب أن يكون إرث النبوّة، الذي رأينا الأحداث كلّها تتمحور حوله، منذ البشارة بإسحاق، قد انتُزع من صاحبه الشرعيّ، بهذه الخدعة الساذجة، وبوجبة طعام أشبعت إسحاق النبيّ الصالح العليم، الذي بارك الله عليه كما بارك على أبيه إبراهيم!

وتضيف التوراة أن عيسو اكتشف المؤامرة، وكان شديدًا عنيفًا، فثار ثائره، وتوعّد أخاه بأن يقتله، فنصحت رفقة يعقوب بالفرار إلى أخواله في العراق[1]، فخرج سرًّا لئلاّ يتعرّض لبطش أخيه، وكان يسير بمن معه ليلاً، ويكمن نهارًا. وتُشبع الروايات الخيال في ذلك الفصل من القصّة، حيث تصوّر يعقوب يُمضي شهرين في سُرًى طويل مُضنٍ ليتجنّب عيون أخيه الذي يتربّص به ليقتله.

---

(١) انظر مزيدًا من التفاصيل في قصة إبراهيم عليه السلام.

ومنذ ذلك الحين وجد اسم "إسرائيل" سبيله إلى يعقوب ﷺ. ومن معانيه الساري إلى الله، أو المدلج إلى الله، أي الماضي إلى الله تحت جنح الظلام. وفيه كناية واضحة عن هربه من أخيه متسترًا بعتمة الليل. ومن معاني «إسرائيل» كذلك المصطفى أو المختار، ولعلّ فكرة شعب الله المختار، التي أُطلقت فيما بعد على من ينتسبون إلى يعقوب، بدأت من هنا، ثم ضربت فيها ريح الانحراف، وعصفت بها الأهواء، حتى انتهت إلى أن تكون مرادفة للتعصّب العرقيّ، وسلّمًا إلى الاستيلاء على ما في أيدي الناس بحجّة أنّه مال الله.

... كان ذلك في الألف الثاني قبل الميلاد... وهانحن اليوم في الألف الثاني له... والأرقام دولة... فهل هي ولادة أخرى، أم تُراه إرهاص بنهاية تاريخ من المدّ والجزر، لم تجرّ تلك الفكرة المشؤومة في كليهما على صانعيها، وعلى من كُتب عليه جوارهم من شعوب الأرض، غيرَ الويلات؟

يعقوب في العراق

وفي الروايات أن يعقوب أقام في العراق عند خاله، وعمل له سبع سنين، على أن يزوّجه بابنته الصغرى راحيل، ولكنّ الخال احتال عليه، وزوّجه بالكبرى مجاراة لما كان من عرف يبدو أنّه لم يقو على خرقه[1]. وهكذا كان على يعقوب أن يعمل سبع سنوات أخرى، في سبيل تحقيق حلمه بالزواج براحيل.

ولبث يعقوب في أرض أجداده من عمره عشرين عامًا، ورُزق بأولاده جميعًا هناك، وهم اثنا عشر ولدًا. أمّا بنيامين، الأخ الشقيق ليوسف، فقد ولد له بعد عودته إلى فلسطين. وقد سمّى القرآن الكريم حفَدة يعقوب وذراريهم بالأسباط، وهي تقابل الشعوب عند العجم، والقبائل عند العرب.

وعندما غادر يعقوب العراق هاربًا إلى فلسطين، وقد حملت زوجتاه الأختان ثروة

(١) من الثابت اجتماعيًا أن سطوة العيب والتقاليد على الناس أقوى من سطوة الشرع، ولهذا وُظف العرف توظيفًا حكيمًا في التشريع الإسلاميّ، فعهد بما يتعلق بإصلاح الأسرة إلى الحلال والحرام، وهو حكم الشرع، وعهد بما يتعلق بالأخلاق والأعراف التى تنظم علاقة الرجل بالمرأة إلى العرف.

كبيرة من أبيهما، دخلها خائفًا يترقّب، غير آمن انتقام أخيه، لكنّه فوجئ بأن أخاه قد أعدّ له استقبالاً حافلاً، وأكرمه إكرامًا هائلاً. ولم يلبث الأمر أن انتهى بالأخوين إلى الصلح، واقتسام الثروة.

وتخبرنا توراة اليهود أن إسحاق توفّي بعد الصلح الذي تمّ بين ولديه يعقوب وعيسو، وأن عيسو بعد ذلك الصلح اتّجه بأهله وأولاده شمالاً «فأقام في جبل ساعير»[1]. وفي بعض الروايات أنّهم عبروا إلى ما صار يعرف ببلاد الروم فيما بعد، وكانت منهم نواة الإمبراطوريّة الرومانيّة، التي أسقطها المسلمون في فتوحهم.

كانت قصّة التوريث التوراتيّة، كما سبق أن بينّا، قد شوّهت صورة يعقوب ﷷ، حيث أظهرته يمارس الخداع والتآمر، والاحتيال على أبيه وشقيقه، للاستيلاء على إرث النبوّة. أمّا القرآن الكريم فقد قصّ علينا من قصّة يعقوب ما يتعلّق بيوسف وإخوته، ورأيناه، في تضاعيف الأحداث، مصدّقًا لما وصفه به من النبوّة والعلم والصلاح والبركة، ولا سيّما في احتضاره ﷷ، حيث نرى النبيّ العظيم يوصي بنيه بحرص الأب على أبنائه، وحرص النبيّ على رسالة الحقّ التي يحمل: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ ١٣٣: البقرة، وسمعنا آخر ما فاه به متبّعًا في ذلك أباه إبراهيم ﷷ: ﴿يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ١٣٢: البقرة.

* * *

(١) سفر التكوين: ٣٦. وفي معجم البلدان أن ساعير من مرتفعات الناصرة فيما بين عكا وطبرية.

الفصل التاسع
يوسف
عليه السلام

سلام عليك في الآخرين أيها الشفّاف عن فطرة الحقّ المتوهّجة، حتى لتركع النوائب لروحه الصافي، وتدفع الجزية عن يد وهي صاغرة...

سلام عليك أيها المجبول بالإحسان قلبًا ويدًا... يا من رفعه إحسانه من بضاعة تُشرى بدراهم معدودات، إلى صاحب القرار في بلاط غريب وأرض غريبة...

سلام عليك أيها البرّ الكريم ما عفا ذو مقدرة، وما دفع مؤمن بالتي هي أحسن.

***

أحسن القصص

كانت حركة التاريخ من آدم إلى بعثة النبيّ، ﷺ، سجالاً بين الشرك والتوحيد، بين دولة الحقّ ودولة الباطل. ولأن الحقّ فطرة الله التي فطر الخلق عليها، فإنه يمكث منه في الأرض ما ينفع الناس، أمّا الباطل فيُقطع دابره، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ١٧: الرعد، وتلك هي سنّة الله الحقّ في الوجود.

وقد رصد القرآن الكريم من حركة التاريخ ما فيه عبرة وعظة وهداية، ليَعلمه الناس، فلا يبقوا في غفلة، وذلك بما أوحاه لنبيّه ورسوله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ ٣: يوسف.

obeikandl.com

وهكذا جعل الله التاريخ عبر القَصص القرآنيّ قوّة فعّالة في واقع الأمّة، تدفعها إلى التقدّم والرقيّ، وتحفزها بما توفّر لها من القدوة والمثل(١).

* * *

وقد استأثرت قصّة يوسف، دون سائر قصص الكتاب العظيم، بسورة كاملة واستقلّت بها، وهي المقصودة بقوله تعالى في الآية الثالثة من السورة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ ٣: يوسف، وذلك لكونها النموذج المثاليّ لقصص القرآن المبين، من حيث أنّها جمعت طائفة هائلة من شؤون الحياة وشجونها. وقصص الأنبياء إنّما هي أحكام شرعيّة في شؤون الحياة، سيقت على شكل قصص.

وقصّة يوسف، عليه السلام، مدرسة أخلاقيّة، عالجت طائفة كبيرة من شؤون الحياة من غدر وخيانة ووفاء وقوّة وعزّة وجبروت وعبادة، ومن تجارة وصناعة وعلم وإدارة وسياسة. وذلك رغم كونها تتخذ شخصيّة وحيدة، هي شخصيّة يوسف عليه السلام، محورًا لها. فالسورة سبر لكلّ تلك الجوانب في مسار حياة مثاليّة(٢)، غنيّة إلى حدّ الترف بالمواقف والأحداث وأسرار النفس الإنسانيّة، ممّا لا يتأتّى إلاّ لذلك النوع من الشخصيّات القصصيّة النموذجيّة، التي تُصنَع كمثال لتجسيد أفكار معيَّنة.

ومن العجيب أن ذلك التنوّع والغنى لم ينل من وحدة القصّة، وتساوق أحداثها، وقدرتها على الإقناع، ولم يُفقد البطل هوّيّته الشخصيّة، التي حافظت على انسجامها وتكاملها، رغم حضورها في صلب كلّ واحد من الأحداث، على كثرة الأحداث وتنوّعها.

وسوف نستعرض تلك القصّة مشهدًا مشهدًا، ونتلمّس في كلّ واحد منها العظة والعبرة.

---

(١) ومن المعروف أنه كلما كان تاريخ الأمة عظيمًا ومشرقًا كان ذلك من أسباب اندفاعها إلى الأمام. والتاريخ الإسلامي يراوح أبدًا بين التقدم والصمود. والتقدم حركة إلى الأمام، والصمود تحفز للانطلاق من جديد. وعلينا الحذر من التأثر بأراجيف أعدائنا الذين يرون الزكاة ضريبة، والفتوحات غزوًا، والغنائم نهبًا، وبدرًا قطع طريق.

(٢) من حيث كونها حياة نبيّ.

الرؤيا

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ﴾ ٤: يوسف[١]. ويلفتنا دور الرؤيا كأساس للقصّة، ومحرّك لأحداثها. فقد رأى يوسف أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر، رآهم له ساجدين، فتركّبت على رؤياه تلك طائفة من الأحداث، ثم تلتها رؤًى أخرى سارت بالقصّة إلى نهايتها، وهي رؤيَيا صاحبَي السجن، ورؤيا الملك التي أُخرج يوسف من السجن بتعبيرها. وهكذا كانت الرؤى تتولّى تحريك الأحداث دون افتعال في قصّة يوسف عليه السلام.

إن ما نراه بأعيننا من عالم المشاهدة هو رؤية، أمّا ما يرينا الله إيّاه، في يقظة أو في منام، ممّا لا يُرى بالعين، فهو رؤيا. فالإسراء والمعراج رؤيا، ذلك أنّهما ممّا لا تستطيع العين رؤيته بقوانينها، ولهذا قال تعالى فيها: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ١١: النجم، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: «رآه بفؤاده مرتين»[٢]. ورؤيا القلب صادقة، فهي لا تزيغ ولا تطغى، أمّا إبصار العين فقد يزيغ وقد يطغى. ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ١٧: النجم.

وترتبط الرؤيا بالحالات الإعجازيّة، لأنّها خارقة لما هو معتاد ومعروف من الرؤية بالعين. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ٢٤: يوسف؛ أي تمثّله، وقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ ١: الإسراء، أي ليقف على آياتنا ويفقهها. والرؤيا في الآيتين من رؤى اليقظة[٣].

---

(١) يلاحظ أنه استعمل ضمير العاقل للشمس والقمر، ومثل ذلك "أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤوا ظلاله عن اليمين والشمائل سُجّدا لله وهم داخرون" ٤٨: النحل، وكذلك "وسخرنا مع داود الجبال يُسبّحن" ٧٩: الأنبياء. وذلك لأن ظاهر السجود والتسبيح لا يكون إلا من العاقل، فإذا كان من غيره فهو في حكم العاقل، "ومن أسرار عظمة فطرة الحق في الخليقة أن الإنسان الذي فُضّل بالعقل لا يملك أن يبلغ بعقله من الإخلاص لفطرته ما يبلغه الحجر أو الشجر من ذلك". [من بحث «الحق المطلق» للكاتبة].

(٢) صحيح مسلم: ١٧٦.

(٣) ولبعض الصالحين الذين يتولون الله في كل شأنهم رؤًى في اليقظة. فقد روي أن رجلاً دخل على سيدنا عثمان، فقال له عثمان: إني أرى في وجهك الزنى.
فارتعب الرجل وقال: أوحي بعد رسول الله؟

والرؤيا، سواء أكانت في اليقظة أو في المنام، صلة بالله الحقّ دون الوحي الذي خُصّ به الأنبياء، وتخصّ أمرًا يريد الله عزّ وجلّ أن يضعه في رُوع العبد، فهي مصدر من مصادر المعرفة. وقد قيل إن «منامكم» في الآية الكريمة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ ٣: الروم، تعني ما ترونه في أثناء نومكم، أي أحلامَكم[١]. وعمليّة الحُلم آية من آيات الخلّاق، فالدماغ في اليقظة يأخذ المعلومة من الحواسّ، ويعالجها بمعطيات الواقع الذي يعيه، أمّا في النوم، فإن غياب الوعي يتيح للدماغ معالجة المعلومة المخزّنة بمعطيات أدنى إلى الفطرة[٢]. ولهذا قيل إن المعلومة التي تقدّمها الرؤيا تُضخّ في الدماغ مباشرة من مصدر علويّ، ومن هنا فالرؤيا معرفيّة.

[إن النوم سُبات للفعاليّة العقليّة الخارجيّة، أو المتعلّقة بالخارج، وليس لجميع عمليّات العقل، فلا يَعتقل الدماغ شيئًا ممّا حوله، لأنّه لا يستقبل رسائل الحواسّ، بل يجترّ ما في حوزته من الآثار، وتكون على صورة شيفرات لم تفسَّر بعد، ويعالج الدماغ هذه الشيفرات انطلاقًا من القواعد الفطريّة، وبمعزل نسبيّ عن المؤثّرات الخارجيّة[٣]. والتزام هذه المعالجة بتلك القواعد يتفاوت بين من يُبقي تلك القواعد يقظة، أي يزكّي نفسه، ومن ينحّيها ويضعفها، أي يُدسّي نفسه.

أمّا النتيجة التي تُفضي إليها المعالجة، فهي الرؤيا، وفي الأغلب ما وراء الرؤيا، لأن وضوح الرؤيا بدوره يخضع إلى عوامل متشابكة، أهمّها القدرة الذاتيّة للرائي على ربط رؤياه بواقعه[٤]،

---

(١) إضافة إلى كون عملية الحلم من آيات الله فإن عملية النوم من أعظم الآيات على عظمة الخلق في جسد الإنسان، وفي العمليات العقلية التي تتمّ فيها، وفي أسرار ارتباط نشاط الإنسان بما حوله، ابتداءً من أول دائرة تحيط به وانتهاء بحركة الفلك. وقد تكون عمليّة النوم هي الآية في قوله تعالى: "ومن آياته منامكم بالليل والنهار" ٣: الروم، بدليل المقابلة بين "منامكم بالليل والنهار" و"ابتغاؤكم من فضله".

(٢) يرى ابن خلدون النفس إذا خفّت عنها شواغل الحسّ وموانعه بالنوم تتعرض إلى معرفة ما تتشوّر إليه في عالم الحقّ، فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر المطلوب. ولذلك جعل الله الرؤيا من المبشرات. انظر مقدمة ابن خلدون ١ : ١٢٨ .

(٣) لا يمكن الزعم أن المختزَن في الدماغ كمعلومات معزول تمامًا عن المؤثّرات الخارجية، ذلك أنَّ معطيات الواقع تؤثّر في عملية انتقال المعلومة من الحواسّ إلى الدماغ، لكنّه تأثير جزئيّ، فإذا عولج بمعزل عن رقابة الوعي احتفظ بنسبة كبيرة من مطابقته للحق، وهذا ما يتم في الرؤيا.

(٤) ويضعف هذه القدرة في معظم الحالات عدم معرفة حقيقة دور الرؤيا في سلوك رائيها وفعالياته، وبالتالي عدم الاهتمام باستحضارها بعد اليقظة.

ويتطلّب هذا الربط ملكة الإحاطة بالظروف الخارجيّة التي تشكّل واقع الرائي.

ورؤى الأطفال أصدق الرؤى، وذلك ليقظة الفطرة الحقّ في فعاليّات عقولهم الباطنة. ولكنّ رؤاهم لا تأخذ طريقها إلى التفسير أو التعبير، بسبب ضعف الإحاطة والقدرة على الربط لدى الطفل، فإذا استطاع الطفل نقل رؤياه كما هي(١)، كما فعل يوسف عليه السلام، لمعبّر يملك الأمرين، كيعقوب عليه السلام، كان تعبير الرؤيا صادقًا](٢).

وللرؤيا في الإسلام شأن عظيم، وفي سيرة ابن هشام أن رسول الله ﷺ رأى قبل أُحُد أن سيفه قد كُسر، وأنّه تأوّلها بقوله: «وأمّا الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي، فهو رجل من أهل بيتي يُقتَل»(٣). فاستُشهد سيّدنا حَمزة رضي الله عنه. فهذا الدين لا تصلح له الحرفيّة، والتأويل عصب الفكر الإسلاميّ، وهو الضامن لاستمرار حيويّة الدين، وتغطيته حاجات البشر في كلّ زمان ومكان.

ولصيانة الرسالة التي يمكن أن تكون وراء الرؤيا حظّر الإسلام العبث بها، فقال رسول الله ﷺ: «إن من أفرى الفِرى أن يُريَ الرجل عينيه في المنام ما لم تريا»(٤). وخصّ بالذكر ادّعاء رؤية الرسول، ﷺ، في المنام، وهذه لو صحّت فهي رؤيا.

وتُعتبَر الرؤيا في الإسلام واحدًا من مصادر المعرفة، ولا سيّما بالنسبة إلى من يفتقرون إلى المصادر المعرفيّة لأيّ سبب كان، كأن يكونوا مستضعفين في الأرض أو معزولين عمّا يحيط بهم. فعندما يطلب المرء المعرفة جادًّا، ولا يسمح له ظرفه بالوصول إلى مصادرها المعتادة، فإنّها تأتي إليه من طرق تخرق المعتاد من الطرق. ومن تلك الطرق الرؤى، مع التوسّع في مدلول الكلمة حتى تشمل الإلهام، أو رؤى اليقظة، وهذه يفجّرها الإمعان في التدبُّر، والإصرار على معرفة وجه الحقّ في أمر من الأمور. وطلب الحقّ بحقّه من الإخلاص، وبما يتطلّبه من الاجتهاد يعني الوصول إليه، فمعرفته. وقد قال ﷺ: «لم يبق من مبشّرات النبوّة، إلاّ الرؤيا يراها العبد الصالح أو تُرى له»(٥). وممّن يُلهمهم الله بالرؤيا أولياؤه الصالحون، ومن رؤاهم ذات الشأن الأذان.

---

(١) وهذا يحتاج إلى قدرة على التعبير اللغويّ، وجو من الانفتاح بين الطفل والراشد المعبِّر.

(٢) من بحث «الحق المطلق» للكاتبة.

(٣) سيرة ابن هشام ٢: ٦٣. وفي مسند أحمد «... فأولت... وأن رجلاً من أهل بيتي يقتل» ١٣٨٥٢ .

(٤) مسند أحمد: ٥٧١١.

(٥) صحيح مسلم: ٤٧٩.

إن تعبير الرؤيا ليس عِلمًا مكتسَبًا، بل هو وهب، أو موهبة، أو ملكة بالدرجة الأولى. فكما يولد الإنسان شاعرًا، وكما يولد بطلاً... كذلك يولد وقد وهبه الله القدرة على تعبير الرؤى. وهي ملكة حباها الله يوسف وخصّه بها، إلى ما خصّه به من صرف السوء والفحشاء عنه ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ ٢٤ : يوسف، والتمكين له في الأرض ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ٥٦ : يوسف، والكيد له ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ ٧٦: يوسف.

روى عَوف بن مالك عن النبيّ، ﷺ، قال: «الرؤيا ثلاث: حديث النفس، وتخويف الشيطان، وبشرى من الله»[١]. وتتفاوت نسبة الصدق في الرؤيا، وكلّما كان الرائي صالحًا كانت رؤياه أشدّ صدقًا. فعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثًا»[٢]. وذلك لِما سبق ذكره، من أن الرؤيا ناتجة تحقيقًا، عن معالجة الدماغ لما لديه من معطَيات، وفقًا لقواعد الفطرة فيه. ونستطيع النفوذ من هنا إلى تفاوت النبوّة، حيث فضّل الله بعض النبيّين والمرسلين على بعض ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ ٢٥٣ : البقرة.

والرؤى نوعان: منها ما هو من عطاء الربوبيّة، ويشترك فيه البشر جميعًا مؤمنين وكفّارًا[٣]، ومنها ما هو من عطاء الألوهيّة، وهي للمؤمن حصرًا، ويراها الذين يتميّزون بما سبق ذكره من تزكية النفس، ورياضتها على الإخلاص لفطرة الحقّ التي فطرها الله عليها. وتلك هي البشرى، وقيل إنّها المعنيّة في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ٦٤ : يونس، وهو حقّ ويستقيم.

وتأتي الرؤيا كما عُبِّرت أوّل مرّة، ولهذا فمن هدي النبوّة أن نروي رؤيانا لمن نحبّ أو نسكت «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبّها فإنّها من الله، فليحمد الله عليها، وليحدّث بها، وإذا رأى غير ذلك ممّا يكره فإنّما هي من الشيطان. فليستعذ من شرّها، ولا يذكرها لأحد، فإنّها لن تضرّه»[٤]، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا من اللاّمعقول في عالم الرؤى، ولكنّ حديث سيّد الخلق، الذي لا ينطق

---

(١) صحيح البخاري: ٦٦١٤.

(٢) صحيح ابن حبان: ٦٠٤٠.

(٣) الملك المشرك رأى سبع البقرات السمان، والفتيان المشركان رأيا الرؤييين اللتين عبرهما يوسف. وعطاء الربوبية ينتج عن قوانين الحقّ التي ركّب عليها الوجود، ولا علاقة لها بكون الإنسان مسلمًا أو كافرًا، فالماء مثلاً من عطاء الربوبية لكل كائن حيّ، وهو مشاع بين الناس مؤمنين وكافرين.

(٤) صحيح البخاري: ٦٦٣٨.

obeikandi.com

عن الهوى، يبيّن معقوليّة الأمر. فالمعبِّر الصّديق يكتم ما يراه من سلبيّات في رؤيا صديقه التي يقصّها عليه، وبذلك لا يتمّ تفعيل تلك السلبيّات، وتظلّ الرؤيا بالنسبة إلى رائيها أضغاث أحلام.

لقد أدرك يعقوب، ﷺ، من الرؤيا التي رآها يوسف، وقصّها عليه أن ابنه هذا سيكون له شأن عظيم، ومقام كريم، يتجاوز المجد، والعلم بالصحف السابقة، ويتجاوز المال والحكم إلى النبوّة. وأدرك أن الأمر إذا شاع فسوف يوغر عليه صدور إخوته، فنصحه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ ٥: يوسف، فقد كان بين يوسف وإخوته ما هو معروف من الشوائب في العلاقة بين الإخوة من عدّة أمّهات، حيث يحتدم التنافس على حبّ الأب، ويتضخّم الحرص على نيل الحظوة لديه. وكان يوسف حِبّ أبيه، وقيل إنّه كان يتّخذه عينًا على إخوته، ممّا جعلهم مغيظين منه، حاقدين عليه.

وفي الروايات أن زوجة يعقوب سمعت يوسف يقصّ رؤياه على أبيه، فأخبرت إخوته بما دار بينهما، فازدادوا حقدًا على يوسف، وموجدة على أبيهم، وجعلوا يفكّرون في التخلّص من يوسف، وبدؤوا يكيدون له ويتآمرون عليه.

وقد جاء ذكر الكيد في سورة يوسف ستّ مرّات، وذلك في الآيات: ٥ و ٢٨ و ٣٣ و ٣٤ و ٥٠ و٧٦، وهذا من المؤشّرات على ما تزخر به السورة من المادّة الفكريّة. فقصّة يوسف سلسلة من أنواع الكيد، يضرب بعضه بعضًا، ليكون في ذلك مصداق قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ ٢١: يوسف.

والكيد والمكر والتآمر كلمات غير متشابهات وغير مترادفات، فالكيد دقّة التدبير باحتيال وخفاء. وأكثر ما يكون مذمومًا، وقد يكون محمودًا حسب موقعه وهدفه. فإن كان الهدف صالحًا فهو كيد فاضل، وإن كان طالحًا فهو كيد فاسد.

وجدير بالملاحظة أن المرأة تستطيع أن تصل إلى غاياتها بالكيد. وقد وصف ربّ العالمين كيد النساء بالعظيم، وكيد الشيطان بالضعيف، لأن تدبير الشيطان مقصور على الوسوسة، وما إن تستغفر، وتتوب حتى يذهب وكيده أدراج الرياح. بل إنّك إن

obeikandl.com

تعصه مرّة ينجحر ويخشاك، فلا يدخل إليك من تلك النافذة مرّة أخرى. بينما لا ملجأ من كيد المرأة إلاّ إلى الله، ولهذا قال يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ٣٣: يوسف.

المؤامرة

ونمضي في قصّة يوسف ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ٧: يوسف، إلى حيث تقبض على ناصية الأحداث قصّة إخوته الذين ألقوه في غَيابة الجبّ.

كانوا عشرةً من الرجال الأشدّاء، الذين رُبّوا في العراق، ويفعوا وبلغوا أشدّهم في فلسطين، فكانوا يمثّلون هذين الشعبين في البأس والعنفوان عبر التاريخ. ولعب الحسد والغيظ بقلوبهم، ونضجت فيها فكرة التخلّص من يوسف، فراحوا يراودون عنه أباه. وكان يوسف غلامًا حدَثًا[١]، وكان يعقوب شديد الحرص عليه، حتى ضيّق عليه سبل المرح واللهو، فراحوا يُغرونه بما يستعرضون أمامه من ألعابهم ومهاراتهم ورياضاتهم، كالمبارزة والرماية والجري، فتعلّق بهم، ورغب في صحبتهم، فلمّا قالوا لأبيهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ ١٢: يوسف، راح يوسف يلحّ على أبيه في السماح له بمرافقتهم.

ولم تخفَ المؤامرة على يعقوب النبيّ الذي يرى ببصيرته[٢]، ولكنّه بدا مسوقًا إلى هذا القدَر أمام إصرار بنيه، وفي مواجهة تساؤلاتهم عن موقفه الذي حاولوا أن يجعلوه غير مبرّر بادّعائهم المودّة للفتى: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ ١١: يوسف، وطلبِهم الذي أغرى يوسف، ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ ١٢: يوسف[٣]،

---

(١) كان يوسف حين ألقي في الجب غلامًا بنصّ الكتاب "قال يا بشرى هذا غلام" ١٩: يوسف، وفي بعض الروايات أنه كان في السابعة عشرة من عمره. ولا يساغ في هذه السنّ أن يجري ليوسف ما جرى له، ولا أن يتخّذه العزيز ولدًا على النحوِ الذي كان، والأجدر أن يكون في حوالي الثانية عشرة، أو الثالثة عشرة.

(٢) كان رسول الله ﷺ إذا رأى فتية من بني هاشم يتغير وجهه ويقول: «إن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريدًا وتطريدًا» [ابن ماجه: ٤٠٨٢].

(٣) والرتع أكل من ليس في ذهنه هم، واللعب من اللّعاب، لكونه مما يخص مرحلة سيلان اللعاب لدى الطفل. وهناك اللهو وهو ما ألهاك عن واجب، أما اللعب فأمر مؤنس يتطلبه الطفل خاصة. وقد عُرض=

وتعهُّدهم برعايته والحفاظ عليه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ ١٢: يوسف. ولعلّ يعقوب في قرارته كان واثقًا من حفظ الله ليوسف بعد الرؤيا التي أراه إياها. وتشي الآية بأن ثمّة محاولات سابقة من إخوة يوسف للانفراد به.

لقد كان يعقوب عليه السلام يعلم أن أبناءه سيغدرون بأخيهم، وأن الله غالب على أمره، وأراد أن يعرفوا بفطنته للأمر عسى أن يرتدعوا. ولكنّه، لشدّة حصافته، لم يُرد أن يصرّح، ليترك لهم فرصة الرجوع الطوعيّ عن الخطأ، ولو على صعيد النيّة، فقال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾ ١٣: يوسف. وذهب يوسف مع إخوته، وسرعان ما اكتشف أن هناك مؤامرة بدأت فصولها بالاتّضاح، فقد كان إخوته ذاهبين به إلى حتفه، ولكنّ ضمير أحدهم استيقظ على دموع الغلام البريء وتوسّلاته، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ ١٠: يوسف، وأجمعوا على أن يُلقوه في جبّ في المنطقة، ويتركوه رجاء أن يلتقطه بعض السيّارة، ويحملوه بعيدًا إلى حيث لا يستطيع العودة أبدًا.

وجاؤوا أباهم عشاء يبكون محتمين بغبشة الليل تخفي آيات النفاق، وتستر زور الدموع، وبدليل مزيّف هو القميص الذي لطّخوه بدم كذب. وكان الخطب يحتاج إلى قلب نبيّ وعقل نبيّ. وتجلّت له الحقيقة بثلاثة من شهودها، فقد أعمى الرجالَ الأشدّاء عن التفكير شدّةُ حرصهم على تصديق أبيهم روايتهم، ودفعوا إليه بما تصوّروا أنّه يبدّد شيئًا من فوران نفسه: فأكله الذئب... لقد كنت محقًّا عندما حذّرتنا ذلك... كنت فطنًا عارفًا، وكنّا غافلين، وكلّ ذنبنا أنّنا لم نُعِر ما حذّرتنا إيّاه الاهتمام اللازم، فذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا.

وتمسكنوا: ونحن على ثقة أنّك لست بمصدّقنا وإن كنّا صادقين.

صعق الخطب يعقوب، فأبناؤه لم يفطنوا إلى أنّهم يدفعون إليه بأدلّة كذبهم، فما كان لذئب أن يأكل غلامًا كيوسف، وما كان لدم أُريق منذ ساعات طويلة أن يكون رطبًا كذلك الذي على القميص بين يديه، وأنّى لقميص مُزّق جسد لابسه أن يبقى سليمًا كما يراه؟!

= الرتع واللعب في قصة يوسف عليه السلام في إطار إيجابي يفيد أن الإسلام يحث على أن تهيأ للطفل الألعاب والنشاطات المفيدة، لأنها مما يحتاج إليه.

وكان الحزن على فراق الصغير الحبيب، وعلى سقوط أولئك الذين كان يؤمِّل أن يعتمد عليهم، أقوى من أن يسمح باستعراض الوقائع وتنفيذها. فقد كانت الحقيقة مُصمية... لقد فقد يوسف. وصفعهم النبيّ الملهَم بالحقيقة التي نبّئ بها من قبل: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ١٨: يوسف... كلمة ما قالها صاحب شدّة إلاّ فرّج الله عليه، ولا مؤمن لشيء عزيز فقده إلا أعاده إليه. وقد قالها الأنبياء في الأزمات، ففرّج الله عنهم بها، وحفظ بها يوسف رغم كلّ ما مرّ به من أخطار هي أقرب إلى المهالك. فما استعان أحد بالله في شدّة إلاّ أعانه.

راح بعض المفسّرين، ولاسيّما المتأخّرون منهم، يُلقون على يعقوب قسطًا كبيرًا من المسؤوليّة عن مواقف أبنائه من يوسف، ويزعمون أنّه كان يؤثره وأخاه عليهم، وأن فرط حبّهم لأبيهم، واحترامهم لرغبته جعلهم يكتمون غيرتهم، حتى باتوا يعانون من الكبت، وأنّها فضيلة أنّهم لم يقتلوا يوسف، بل أخرجوه من بيت أبيه، إلى حيث قدّروا ألاّ يرجع أبدًا.

والحقّ أنّه يصعب التصوّر أن يعقوب النبيّ لا يفطن إلى ذلك، أو أنّه لا يبالي به، أو لا تهمّه عواقبه، ولاسيّما أنّه قد يأتيه أجَله في أيّة لحظة كانت، فيؤول أمر صغيريه الأثيرين إلى إخوتهما، ومن مصلحة يعقوب والصغيرين ألاّ يكون في صدور هؤلاء غلّ لهما، أو حقد عليهما. فالأمر لا يتعلّق بيعقوب، بل هو انحراف في تفكير هؤلاء الإخوة، ومرض في نفوسهم.

وقد زاد تفسير سلوك إخوة يوسف تعقيدًا ما قاله بعض المفسّرين من أنّهم أنبياء، رغم أنّه زعم لا سند له من الكتاب ولا من السنّة. كما رأى فريق من الناظرين في الأمر أن الإجرام لم يكن أصيلاً فيهم، ذلك أنّهم أبناء نبيّ. وممّا استدلّوا به قولهم أوّلاً: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ٩: يوسف.

ثم قولهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ ١٠: يوسف.

وهذا يعني أنّهم قد عدلوا عن جريمة كبيرة إلى أخرى أصغر. والمجرم عادة يفعل العكس.

وهوّن بعض الباحثين من شأن فَعلتهم تلك، حين رأوا أنّهم لم يريدوا بما فعلوا إلاّ أن يخلو

لهم وجه أبيهم، وأنّهم كانوا مدركين بشاعة ما يقومون به، ويعلمون أن الله رقيب عليهم، حتى إنّهم قرّروا أن يفعلوا فَعلتهم ثم يتوبوا ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ ٩ : يوسف[١].

لم تغيّر كلّ هذه الاعتذارات شيئًا من حقيقة ما آل إليه إخوة يوسف، فقد تحوّلوا إلى عُصبة موتورة حاسدة تمارس الأذى الذي يمليه عليها حسدها. واستعاذة بالله من شرّ الحاسد الذي ينفّذ ما يحمله عليه حسده من فعل سلبيّ تجاه المحسود[٢].

ولو كان ما فعله أبناء يعقوب بأخيهم تصرّفًا فرديًا، كما كان الأمر بين قابيل وهابيل، لكان لهذه التبريرت والاعتذارات وجاهة واعتبار، ولكنّ إجماع عشرة إخوة رجال، على التخلّص من أخيهم الغلام الحدَث لا يبرّره شيء منها. وقليل جدًّا الحكم عليهم بالقسوة والغلظة والجلافة، بل هو خلق يهود إلاّ من عصم ربّي من نبيّ.

من البئر إلى القصر

لبث يوسف الغلام ليله في غَيابة الجبّ، وكان الظلام مخيفًا، والطفولة ما تزال حديثة عهد بالمبارحة، والملائكة تقول: نسمع ربّنا بكاء طفل ودعاء نبيّ. وكانت الذات الصغيرة النقيّة الذكيّة أحوج ما تكون إلى ما تلجأ إليه، وأضاءت جنباتها كلمات الأب المحبّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ ٦: يوسف. وكبر الغلام بتلك الكلمات، وكانت كلّ منها ركنًا من أركان وجوده وحياته.

(١) وهذه آفة كثير من المؤمنين، يرتكب أحدهم الذنب وهو واع لما يفعل معتمدًا على عفو الله. وهذا وارد، ولكن على ألا يكون ديدنا. وفي البخاري «العاجز من أتبع نفسه هواها، ثم تمنى على الله» [سنن ابن ماجه: ٤٢٦٠].

(٢) الحسد طبع في الإنسان، ولكن هناك من لا يأبه لهذا الطبع فيه، وهنالك من يلتفت إليه ويتعهّده، ويرتّب عليه نوعًا من الأذى لمن يحسده. ويعبّر الفعل حسَد يحسُد عن الحالة الأولى، أما الفعل حسد يحسِد فيعبر عن الثانية، فما كل حاسد يحسد إذًا. وأول حسد في تاريخ الإنسان تعدى الشعور هو ما واجه به قابيل أخاه هابيل.

obeikandi.com

ولم يكن له منها في لحظته الراهنة إلاّ آخرها وأعظمها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ٦: يوسف، فاتّجه إلى العليم الحكيم، وعاش المعنى الخالد الذي كان ينتظر القرآنَ الكريم لينتظم حروفًا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ ٦٢: النمل.

الفرج والدعاء قرينان... والشدّة تعسف الإنسان، فيفزع جزِعًا ملهوفًا إلى حيث يترسّب في أعماق ذاكرته من مواطن الأمان... وتستيقظ فيه الفطرة الحقّ الرازحة تحت أطباق من الغفلة واللهو واللعب، فينادي في تلك الظلمات: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٨٧: الأنبياء.

فإذا كنت في شدّة، وهُديت إلى الدعاء، ووجدت في نفسك همّة على مواصلته، فاعلم أن الفرج حاصل، واجتهد. ويروى أن يوسف علّمه رسول ربّه أن يقول: اللّهمّ يا مؤنس كلّ غريب، وصاحب كلّ وحيد، ويا ملجأ كلّ خائف، وكاشف كلّ كرب، أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي حتى لا يكون لي شغل غيرك، وأن تجعل لي من كلّ أمر فرجًا ومخرجًا... إنّك على كلّ شيء قدير.

لبث يوسف ليلته في غَيابة الجبّ في رعاية ربّه، فملأ قلبه طمأنينة بأن العاقبة للمتّقين، وأنّه سوف ينجو، ويظهر على إخوته، ويفاتحهم بما فعلوه به: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٥: يوسف.

ومرّت بالبئر سيّارة، وتوقّفوا يستقون، ولمّا أدلى واردهم دلوه ليمتح الماء لمن معه تعلّق به يوسف. واستبشر الوارد بذلك الرزق الذي ساقه الله إليه، ففي مثل هذه الحالة يُباع الغلام في أقرب سوق للنخاسة. وكان على من وجدوه أن يُخفوه عن الأنظار خشية أن يتعرّفه عابر من أبناء المنطقة. وفي الروايات أن السيّارة كانت قافلة رقيق، وأنّهم أسَرّوا يوسف لمّا انتشلوه من الجبّ، وجعلوه فيما يحملون من الأرقّاء.

obeikandi.com

ويتابع الذكر الحكيم القصّة ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ ٢٠ : يوسف.

وكان هذا كلّه محاطًا به من الحكيم العليم... لا يعدو تقديرَه وتصريفه وتدبيره، فقد خرج الغلام من البئر بتلك التجربة الهاصرة التي وجّهت وجهه إلى الله الحقّ، فراح يُغذّ السير باتّجاه النبوّة. . . بدأ ذلك عندما خبر قلبُه وحي ربّه ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ ١٥: يوسف، فانفتحت له تلك الآفاق التي تهدي القلب، وتسدّد الخطى، وتهب الأمن والسلام، فاطمأنّ في شدّته المريعة، ولاذ بمن محضه ولاءه وقصْده كلّه.

وتتعدّد الحكايات المنسوجة حول ذلك الموقف، ومنها أن الفتى ألفى نفسه في أيدي تجّار رقيق غلاظ، لا يؤمنون بربّ ولا آخرة ولا بعث ولا نشور، فراح يوجّههم إلى الله، ويذكّرهم بسعادة الاستقامة على الحقّ وحلاوتها. والدعوةُ إلى الله الحقّ من الممارسات اليوميّة العفويّة للمؤمن، يباشرها في كلّ الظروف. وقد كان يوسف قويّ الحجّة، طويل النفَس، مثابرًا صبورًا، فأتعب السيّارةَ منطقه، وأرهقهم إلحاحه، وغاظهم ثباته، فزهدوا فيه، ودفعوا به إلى أوّل مشترٍ بثمن بخس، لا يزيد على عدد يسير من الدراهم[١].

ولكن هذا يبدو مثاليًّا أكثر ممّا يبدو واقعيًّا، فيوسف كان أصغر من ألاّ يَحزُنه ويَرعَبه ما كان، ولاسيّما ذلك الوقت الذي قضاه في الجبّ. ولعلّه قد استسلم مرغَمًا إلى تجّار الرقيق الذين لا أمل في النجاة من براثنهم. أمّا اتّخاذه موقف الداعية فيحمل على التساؤل: كيف ولماذا لم يوقف يوسف هؤلاء على حقيقة أمره ويدلّهم على دياره وقومه ليُعيدوه إليهم، وكان واضحًا أنّهم سوف يفعلون طمعًا في المكافأة والعطاء[٢]؟ أمّا عن شرائه بثمن بخس، فقد يكون رئيس القافلة، أو صاحب الرقيق اشتراه من الماتح أو الوارد الذي انتشله من الماء، ولأنّه واردهم كان الثمن بخسًا.

*

---

(١) يرى أصحاب هذا التفسير أن "شروه" بمعنى: "باعوه".

(٢) علل بعضهم استسلام يوسف إلى السيارة بالخوف من إخوته. ومن المنطقي أن مَن يملك القدرة العقلية على خطاب هؤلاء ودعوتهم، يملك أن يوصل إلى أبيه خَبَره بمساعدتهم دون أن يشعر إخوته بذلك.

وفي واحدة من أسواق النخاسة في مصر بيع يوسف إلى تاجر رقيق محترف يستورد الأرقّاء للعِلية، فأتحف به عزيزًا مصريًّا[1]، فاشتراه بوزنه مسكًا. وبدا الغلام للعزيز أرفع، وربّما أصغر، من أن يكون في زمرة الخدم، فأدخله بيته، وقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ ٢١: يوسف. وهكذا انتقل يوسف من البئر إلى قصر العزيز... إلى واحد من مراكز النفوذ في المملكة التي كانت مسرحًا لما تبقّى من أحداث قصّته[2].

وعاش يوسف عليه السلام في كنف العزيز وامرأته مدلّلاً مُكرَما، وكان يقال له ابن العزيز، وكان يأمر وينهى، ويتمتّع بما يتمتّع به أبناء عِلية القوم من أهل القصور، وهذا بعض من التمكين الذي جاء ذكره في كتاب الله ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ ٢١: يوسف.

* * *

في كلّ مقطع من هذه القصّة دليل وبرهان على أن يد الله تغلب على الأمر كلّه:

لقد كان الله غالبًا على أمره عندما أراد يعقوب ألاّ يقصّ يوسف رؤياه على إخوته، فقصّتها عليهم زوجه.

وكان الله غالبًا على أمره عندما أراد إخوته التخلّص منه، فنجا، ومكّن له الله في الأرض.

---

(١) تزعم التوراة أن لقب العزيز يقابل رئيس الوزراء، أي صاحب السلطة الثاني بعد الملك، ولكن يبدو أن كل وزير كان يدعى عزيزًا، يدل على هذا أن يوسف قال للملك: "اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم" ٥٥: يوسف، فجعله عزيزًا. وحفظ خزائن الأرض ليس عمل رئيس الوزراء، أو الرجل الثاني في السلطة. ومما يدل على ما ذهبت إليه أن القرآن الكريم أشار إلى العزيز بقوله: "الذي اشتراه من مصر" ٢١: يوسف، وهو تعبير لا يدل على فرود منصبه أو رفعته.

(٢) هي واحدة من الممالك الصغيرة العديدة في منطقة دلتا نهر النيل. ويطلق اسم مصر على منطقة الدلتا، كما يطلق على كل واحدة من تلك الممالك، ويسقط اسمها الخاصّ. وما نزال إلى اليوم نرى العامة تطلق على مدينة دمشق اسم الشام، وعلى القاهرة اسم مصر.

وكان الله غالبًا على أمره عندما أرادوا أن يخلو لهم وجه أبيهم، فازورّ عنهم، واعتزلهم، ولم يكفّ عن تذكّر يوسف وذكره في كلّ حين، حتى قالوا: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ ٨٥: يوسف.

وكان الله غالبًا على أمره عندما بيع في سوق النخاسة رقيقًا فصار ابنًا لعزيز مصر، ومكّن له الله في الأرض.

وكان الله غالبًا على أمره عندما ظنّت امرأة العزيز أنّها أوقعت به، فشهد شاهد من أهلها بالحقيقة، وقال لها زوجها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ ٢٨: يوسف.

وكان الله غالبًا على أمره عندما أراد أن يدبّر أمر خروجه من السجن، فاستعان بالناجي من صاحبيه ليذكره عند ربّه، فأنساه الشيطان ذلك، ولبث في السجن بضع سنين.

ومن العبر في هذا أن عليك أن تتّخذ الأسباب لما تريد، ولكن أيّاك أن تغترّ بتدبيرك، وتعتقد أنّه سوف يؤدّي حتمًا إلى النتيجة التي ترجو. فإذا اعتقدت ذلك أوكلك الله إلى نفسك، وحجب عنك توفيقه وتسديده. فعليك أن تستفرغ جهدك ثم تقول: ربّ هذا ما أملك والباقي عليك.

إن هناك قدَرًا حتميًا لا يتغيّر، وهو ما أوحاه الله في هذا الوجود من أمر، أي ما أقامه عليه من قوانين، وهناك قضاء أنت فيه مخيّر بـ «افعل» و«لا تفعل»(١) فالقضاء حركتنا نحن، نصرّفها وفق ما نختار، ونُسأل عنها. ولكنْ هنالك لطف الله، وهنالك تسديده وتوفيقه، وهي رحمة تنالك بشرط أن تهيّئ الأسباب، وتأخذ بعقلك وبما تهتدي إليه من القرائن.

ونستطيع الوصول إلى النتيجة نفسها عن الطريق التالية: [لقد أقام الله الحقّ هذا الوجود على قواعد وقوانين أساسيّة هي ما يُعرف بالفطرة، أو أمر الله في الخلق. فكلّ عمل أو أمر يتمّ في هذا الوجود مقيّد بتلك القوانين لا يخرج عنها.

---

(١) والمخلوق الوحيد المخيّر هو أنت، ولهذا أنت مكرّم على سائر المخلوقات.

وأنت عندما تباشر أيّا كان من أعمالك تعرف عفوياً أن عليك أن تحقّق مجموعة من الأسباب لتصل إلى النتيجة التي تريد ، وفيما هو بسيط مألوف من النشاطات والأعمال تستطيع، في الأغلب، الوصول إلى النتيجة التي ترجو باتّخاذك الأسباب المعتادة. ولكنّك في الكثرة الكاثرة من الأمور لا تستطيع معرفة جميع الأسباب المطلوب اتّخاذها ، كما أنّك لا تستطيع اتّخاذ كلّ ما تعرفه منها على الوجه المجدي[1] .

والنتيجة كقاعدة لا تتحصّل إلاّ بتحصُّل أسبابها كاملة، يتّضح ذلك في العلوم التطبيقية، فأنت تحصل على نتائج التجارب الكيميائيّة والفيزيائيّة بدقّة كاملة، وتتوصّل إلى الحلول الصحيحة تمامًا للمسائل الرياضيّة. ذلك لأن الأسباب التي عليك اتّخاذها للوصول إلى النتائج هنا ممّا يمكن الإحاطة به نسبيًّا[2]، ففي التجارب المخبريّة مثلاً تستطيع أن تضبط الموادّ المستخدمة بنوعيّاتها ومقاديرها وفق ما هو مطلوب، وتعرف ماذا عليك القيام به من خلط أو تسخين أوغير ذلك، وتحقّق درجة الحرارة المناسبة، وتضبط الساعة على الوقت المناسب، وغير ذلك ممّا يمكن الإحاطة به وإن كثُر. فأنت حقّقت الأسباب فأدّى ذلك إلى تحقيق النتيجة التي وضعتها كهدف لك عندما بدأت عملك.

وبما أنّك كبشر لا تملك الإحاطة بكلّ أسباب النجاح في أمورك، ولا القدرة على تحقيقها كلّها كما ينبغي، فليس أمامك إلاّ الاجتهاد في البحث والدرس والسؤال والتحرّي الجادّ المخلص، وبذل الوقت والجهد والمال لمعرفة تلك الأسباب وطرق معالجتها. وهذا ممّا يضمن لك أقصى اقتراب في طوقك من النتيجة المرجوّة. وتلك هي ترجمة الاتّكال على الله.

وهنا يأتي دور التوفيق، ويتمّ عبر قوانين حقّ تحكم الأمور، كما تحكم أنظمة الامتحانات محاسَبة الطلاّب، فتُجبَر بعض الكسور، أو يُرفع إلى درجة النجاح من قاربها دون أن يبلغها ، أو

---

(١) نحن لا ننتبه إلى ضخامة عدد الأسباب التي نحققها للقيام بنشاط يوميّ بسيط كاحتساء القهوة، فإذا أردنا أن نضيف إلى ذلك مثلاً تحقيق المتعة، أو مشاركة صديق تضاعف ما علينا القيام به أضعافًا كثيرة. وما ذلك إلاّ لتشابك تلك الأسباب، وتقاطعاتها الكثيرة فيما بينها، وفيما بينها وبين أمور كثيرة مما يشكل واقعنا الذي نعيش. وترتبط النتيجة التي نبتغي بوعينا لكل ذلك، وقدرتنا على تدبّر نتائج تقاطعاته، ثم معالجته بما يخدم هدفنا، ثم بمدى قدرتنا على القيام بكلّ ذلك. وهذا كلّه في حدود ما توصّل العقل البشريّ حتى الآن إلى معرفته، وهنالك بعد ما لا نعرف مما لم يتوصل إلى معرفته.

(٢) ما يزال العلم يكشف يومًا بعد يوم أن كثيرًا من المسلّمات التي تتوارثها الإنسانيّة ليس نهائيًّا.

تهبط معلومة أساسيّة بعلامة النجاح أو ترفعها.

فالتوفيق هو الزيادة في مقدار ما حصّلت بسعيك من الأسباب[1]، أو تزكيته ليوافق القدر اللازم منها، ويتمّ حصرًا عندما يتقارب المقداران، وتزداد حظوظ حصوله كلّما كان التقارب أكبر. وهذا قانون حقّ سارٍ في تركيبة الوجود، وقد فطن إليه البشر نتيجة لتكرار وقوعه، وطبّقوه في الكثير من الشؤون والأمور، كما ذكرت في مثال الامتحانات.

وكما أنّنا كبشر لا نملك الإحاطة بالأسباب، فنحن، للاعتبار نفسه، لا نملك الدقّة الكافية لتقدير مبلغ التقارب، ذلك لأن هناك الكثير من الأسباب التي لا نعلم بوجودها أصلاً، ومنها ما قد نحصّله ولا نعرف أنّه منها، ولا أنّنا حصّلناه. ومن هنا يبقى الأمر منوطًا بالله المطلق العلم، الذي يُحيط بالأسباب ويُحصيها، وقصدُه واستلهامُه الضمانةُ الوحيدة لبلوغنا أقصى ما يمكن بلوغه من الأسباب.

وهذا معنى كون التوفيق النهائيّ من تدبير الله، ومعنى قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ٥: السجدة، **وقوله:** .﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ ٢١: يوسف. **ولكنّه، إن لم يرتكز على فهم تامّ لما تقدَّم، كان موهمًا أن النتيجة لا يحدّدها السعي. وهذا غير صحيح]**[2].

كان يوسف طيّبًا ودودًا أمينًا يحفظ للبيت الذي أواه حرمته، ويعترف بفضل أهله عليه، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ٢٢: يوسف، ومن هنا قدّم الله الحُكم على العلم عند سيّدنا يوسف، والحُكم سَداد إعمال القلب وحُسنه، من لطف وأدب ومحبّة وعفو وصبر ومروءة، فهو ثمرة العلم. ومن الحُكم استنباط المعنى من الكلام، وقد أوتي يوسف القدرة على استبطان الكلام والنفوذ إلى خفاياه، واستنباط ما وراءه، فكان متأمّلاً فيلسوفًا حكيمًا وهو في العشرين من عمره[3].

(١) لبلوغ هدف معيّن.

(٢) من بحث "الحق المطلق" للكاتبة.

(٣) والاستنباط أن تقلب النص ظهرًا لبطن، لا كما يفعل من يقتصر العلم لديهم على تعبئة الذاكرة، وتحريك محتوياتها للحصول على توليفات لا تمسّ جواهر الأفكار ولا تستكنِه علائقها.

وكان الحُكم والعلم من عناصر جاذبيّة يوسف بالنسبة إلى امرأة العزيز، فقد بهرتها رجولة فريدة، تختلف عمّا هو مألوف في الرجال، تتكامل أمام عينيها، وفي رعايتها يومًا بعد يوم. وكان ذلك أشبه شيء بالقدَر، فلا بدّ لامرأة مثلها أن تقف من يوسف النبيّ هذا الموقف، وكان جديرًا بيوسف أن يعاني كمعاناتها لولا أنّه من المحسنين الذين تكفّل الله برعايتهم جزاء إحسانهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ٢٢: يوسف.

ويلاحظ كثرة ذكر الإحسان والمحسنين في قصّة يوسف، فإضافة إلى ما تقدّم جاء ذلك في قول الفتيين اللذين دخلا معه السجن: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ٣٦: يوسف، وفي قوله تعالى عندما جعل الملك يوسف عزيزًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ٥٦: يوسف، كما قالها له إخوته عندما أراد أن يأخذ أخاه بنيامين في دين الملك: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ٧٨: يوسف، وقالها هو: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ٩٠: يوسف.

فما هو إحسان يوسف عليه السلام؟

الإحسان عقيدة وعمل ومروءة، أمّا عن العقيدة، فيوسف عليه السلام نبيّ، وأمّا عن العمل فقد كان يوسف، على مدار أحداث القصّة، رجلاً ذا يد مُغدقة في بيت مولاه العزيز، وفي وظيفته التي كلّفه بها الملك، وفي السجن الذي حوّله إلى إصلاحيّة، وملأ سنواته بالدعوة إلى الله الحقّ. لقد كان عمل يوسف كعزيز على مستوًى دوليّ، فقد ساهمت عبقريّته الإداريّة في توفير الأمن الغذائيّ للمنطقة كلّها في فترة مجاعة طويلة، وأدّت تدابيره إلى خروج مصر من المحنة باقتصاد قويّ، وذلك بسبب فائض إنتاجها الذي بادلت به الجوار في سنوات القحط.

وأمّا المروءة فقد تجلّت في سنوات طويلة من العفّة والصمود والصبر للغواية المتاحة، بل المسلَّطة عليه مذلَّلة الركائب معبّدة الطرقات، وهو الغريب المحروم المستوحش، كما تجلّت في ولاء منقطع النظير لربّ نعمته الذي أغناه من فقر، وآمنه في بيته من خوف، واتّخذه ولدًا، ورفع مكانته حتى حمل اسمه.

وتجلّت مروءة يوسف كذلك في قوله لإخوته، بعد ما فعلوه به وبأبيه ممّا لا يستطيع تحمّله إلاّ نبيّ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ٩٢: يوسف. ولم يكن ما غفره يوسف لإخوته ذنوبًا عفّى عليها الزمان، فهم في صدر الحديث كانوا يتّهمونه بالسرقة... لقد غفر لهم وهو ممسك برقابهم، وقادر على كلّ انتقام. ولم يكتف بالصفح والتجاوز، بل زاد على ذلك أن دعا لهم: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ٩٢: يوسف. وقمّة الإحسان أن تصل من قطعك، وتعفو عمّن ظلمك.

ومن مروءته أنّه كان وفيًّا للعزيز الذي أحسن مثواه، محبًّا له، لطيفًا به، حتى إنّه أشفق أن يفاتحه بما يبدر من امرأته، ولم يَفُه بكلمة واحدة عن حقيقة الأمر إلاّ عندما قالت المرأة: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ٢٥: يوسف؟ فلم يُطق أن يظنّ العزيز أنّه أساء إليه في أهله، ولهذا بادر بالدفاع عن نفسه، فقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ ٢٦: يوسف.

وقد شهدت امرأة العزيز بمروءة يوسف عليه السلام: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ ٣٢: يوسف، كما شهدت بها النسوة اللاتي قطّعن أيديهن ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ ٥١: يوسف، والشاهد من أهلها لمّا رأى قميصه قُدّ من دُبُر، بل لقد شهد بمروءة يوسف إبليس نفسه، حيث استثنى ممّن هو قادر على إغوائهم عبادَ الله المخلَصين[1]. وكان يوسف منهم بشهادة ربّ العباد: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ٢٤: يوسف، كما أن ربّ العالمين تدخّل مباشرة لكي يصرف عنه السوء، ويحول بينه وبين الفحشاء، وهذه العصمة خاصّة بيوسف وأمثاله من الأنبياء.

امرأة العزيز

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ٢٣: يوسف.

---

(١) قال: "فبعزّتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادكَ منهم المُخلَصين" ٨٢: ص.

openkamal.com

ممّا لا يحتمل الشكّ أن هذا الموقف المتفجّر كان قمّة لمواقف سبقته، لم يستسلم فيها يوسف لتقرّب المرأة، وبوحها له بعاطفتها ممّا أثار حفيظتها، بل جنونها حتى راودته عن نفسه بهذه الطريقة اليائسة. ومن بلاغة الذكر الحكيم الكناية عن امرأة العزيز بالتي هو في بيتها بقصد الستر[١]، وهو إلى ذلك تعبير معجز البلاغة، يضجّ بالدلالات على حرج موقف يوسف عليه السلام، وصعوبة صموده أمام المرأة، ومقاومته إغراءها، وذلك لأنّه يشير إلى كونها في مرتبة وليّة نعمته، ويكرّس دالّتها عليه، ويؤكّد تلازمهما، إذ هما في بيت واحد ممّا يفسح المجال لعمل الشيطان، ويدلّ على أنّهما كانا ينفردان في البيت بحيث تسنّى للمرأة أن تراوده عن نفسه، وتغلّق الأبواب... وكلّ هذا يجعل رفض يوسف الانقياد للغواية أصعب وأعظم مشقّة. فهي محنة قاسية تقتضي صبرًا هو من العظمة بحيث كان جزاؤه الجنّة. وفي حديث رسول الله ﷺ: «سبعة يظلّهم الله تعالى في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إنّي أخاف الله»[٢].

*

انتهى الأمر بامرأة العزيز إلى حالة فقدت فيها اتزانها وإرادتها، وبلغ بها الاندفاع مراودة يوسف عن نفسه، وتغليق الأبواب لضمان الأمان، ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ٢٣: يوسف[٣]. ويشير سيّدنا يوسف بقوله هذا إلى أن زِناه بزوجة ربّ نعمته من أعظم الظلم، وأنّه لن يفلح إن فعل، والمعنى المباشر لهذا الكلام: هذا مستحيل.

---

(١) فمن المروءة ألاّ يذكر اسم المرأة صراحة إذا كان الكلام عن ريبة أو فعل مشين.

(٢) صحيح البخاري: ١٣٥٧.

(٣) تنص الآية صراحة على أن التغليق كان لأكثر من باب، وتؤكد ذلك المبالغة في "غلّقت"، وأكثر المفسرين على أنها قد غلقت أبواب المنزل بابًا وراء باب، ولكن يصعب أن يكون ذلك لأكثر من سبب. ثم إنها لو فعلت ذلك لاستطاعا أن يتّقيا، ولما رأيا العزيز فجأة لدى باب الحجرة التي هما فيها. فلعلها الأبواب والنوافذ، وقال: "الأبواب" على التغليب. ولعل الأمر لم يكن مبيّنًا من قبل. ولكن المرأة اغتنمت فرصة سنحت دخل فيها يوسف حجرتها، فأسرعت بإغلاق منافذ الحجرة: النوافذ والباب، وعرضت نفسها عليه فأبى.

ويختلف الزنى تجريمًا وعقابًا، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ سئل: «أيّ الذنب أعظم؟ فقال... أن تزاني حليلة جارك»[(١)]، فكيف يزني يوسف النبيّ الحكيم بزوجة من يقول عنه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ ٢٣: يوسف.

ولم تكن المرّة الأولى التي تقرّبت فيها امرأة العزيز من يوسف، كما أسلفنا، فهو على ما يبدو قد تعرّض إلى تحرّشاتها من قبل، ولولا ذلك لكان تغليق الأبواب جديرًا بأن يدفعه إلى مغادرة المكان، ولما انتظر حتى همّت به. ولكن يبدو أنّه ظنّ أن الأمر ككلّ مرّة لن يتعدّى كلمة عابرة، أو لمسة مختلَسة، وهو يمرق من أمامها، وأن التملّص والابتعاد يكفيانه شرّها، ويحققان الستر الذي يبتغي لها، ولكنّها كانت مصرّة، ولعلّها بلغت أن أضعفت مقاومته، ولم يلبث أن تبيّن له أنّها تريد الفاحشة المبيِّنة[(٢)].

ونقرأ في كتب التفسير كلامًا مرعبًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ ٢٤: يوسف[(٣)]. فقد صوّروا يوسف عليه السلام يقارف الفاحشة لولا أن هاتفًا يهتف به أن كفّ عن هذا. وأيّ فاسق يزني لا يولّي هاربًا إذا فاجأه هاتف كهذا! وما فضل يوسف إذًا؟

وهناك دليل بيّن على أن يوسف عليه السلام لم يهمّ بالفاحشة، وهو قول النسوة اللائي راودنه عن نفسه: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ ٥١: يوسف، وما كُنّ ليقُلن هذا لو أن امرأة العزيز ذكرت أمامهنّ أنّه همّ بمقارفة الفاحشة معها، كما زعمت لزوجها.

---

(١) صحيح البخاري: ٤٢٠٧.

(٢) وفي القرآن الكريم الفواحش ثلاثة: اللواطة، ونكاح المحارم، والزنى، وهي مما تأباه النفس السوية، ولكن الشيطان يزينها للإنسان فيأتيها في حال الغفلة.

(٣) عندنا حجة وعندنا دليل، وعندنا برهان، وعندنا آية. فالحجة ما تُفحم به المدعي، وتسقط دعواه. "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه" ٨٣: الأنعام. والدليل ما يثبت مدَّعاك لكي تصل إلى هدفك "ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً" ٤٥: الفرقان. والبرهان والآية كلاهما خارق للمعتاد، لكن الآية خارقة دائمة، مثل: الليل والنهار والشمس والقمر والبحار. أما البرهان فخارقة تنقضي، مثل آيتي اليد والعصا لموسى عليه السلام. "فذنك برهانان من ربّك إلى فرعون وملئه" ٣٢: القصص.

وفي الحديث: «ما من أحد من النّاس إلاّ وقد أخطأ، أو همّ بخطيئة ليس يحيى بن زكريا»[1]. فهو همُّ النّفس، وهو من الضعف الإنسانيّ أمام الفتنة، ولا يختصّ به الفاجر دون العفّ[2]. ولذلك حرّم الإسلام النظرة والخلوة واللمسة، وفرض أن يكون بين الرجال والنساء حجاب. وحذّر من مغبّة التبسّط في العلاقة بين الطرفين، ودعا إلى مراقبة الله فيها مع الأخ والخادم والحمو، وذلك لصعوبة تفادي الغواية وإمكانيّة الوقوع في الخطأ.

ويشير كتاب الله إلى أن يوسف، وهو النبيّ الكريم، قد احتاج إلى أن يصرف الله عنه السوء والفحشاء حين همّ الشيطان بأن يحتنكه ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ٢٤: يوسف. فالعباد المخلَصون هم وحدهم الذين يعجز الشيطان عن إغوائهم ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ٨٣: ص، وهم قلّة قليلة من الأنبياء والصالحين[3].

وممّا قيل في هذا الموقف أن الكلام في النصّ القرآنيّ ينتهي بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ ٢٤: يوسف. ثم يُستأنف بقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ٢٤: يوسف. وبما أنّه قد رأى برهان ربّه، فهو لم يهمّ بها. والحقّ أنّه ليس لنا، وقد قرن الذكر الحكيم همّ يوسف بهمّ المرأة، التي أتت ما أتت، أن نقول: إنّه لم يفعل. ولكنّ الأليق بهمّ يوسف الصدّيق أن يقتصر على همّ النفس الغريزيّ، أمّا الفاحشة فقد عصمه منها برهان ربّه. ولم ير يوسف برهان ربّه رأي العين في تلك اللحظة، بل استعاده واستحضره من أعماق الذات النبيّة المهتدية. ولو لم ير ذلك البرهان لاستوى والمرأة في الهمّ.

---

(١) مسند أحمد: ٢٧٣٦.

(٢) ومعروفة هي قصة النبي عندما كان يوصي الفضل والفضل، ينظر إلى فتاة جميلة. وقد كان ذلك في الحج، والنبي بينهم. ومن هذا القبيل قصة نصر بن حجاج، الشاب الفاتن الذي سار صيته في المدينة المنورة، حتى تغزّلت به النساء في خدورهن.

(٣) وروي أن رسول الله ﷺ أجبرته عماته على تقديم التمر إلى أحد الأصنام، وكان غلامًا حدثًا، فلما همّ بالأمر سمع صوتًا يقول: ارجع يا محمد.

فما الذي رآه قلب يوسف الصدّيق؟

لقد رأى ما ذكّره في لحظة غفلة بشريّة أن الله الحقّ أحقّ أن يطاع... تذكّر يوسف هذا فإذا هو مبصر. ولا غضاضة في قول ذلك، فلو أنّه لم يمِلْ إلى المرأة لما كان له في عفّته وامتناعه عن الهمّ بها من فضل. فإنّ العفّة تقترن بالمعاناة ومجاهدة النفس. وممّا يؤكّد أنّ الله قد عصم يوسف من الفاحشة ما ذكره الإمامان الزمخشريّ وابن تيميّة من أن جميع الأنبياء، الذين وقعت منهم هنات ما كان لها أن تقع، ذكر الله سبحانه وتعالى استغفارهم وتوبتهم، بخلاف سيّدنا يوسف، ذلك أن الهمّ مع الامتناع وكبح النفس عفّة وفضل وليس ذنبًا.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ ٢٥: يوسف... وفرّ الصدّيق الذي رأى برهان ربّه... فرّ إلى ربّه. لقد صرف الله عن قلبه السوء والفحشاء، وبقي أن يصرفهما هو عن جوارحه. البابَ البابَ... إنّه يبتغي ممّا هو فيه مخرجًا. ولكنّ المرأة التي فقدت رشدها تجري وراءه ملتاثة، وتتشبّث به، فقد كان ذلك طعنة قاتلة في صميم كبريائها وأحاسيسها.

وينتزع يوسف نفسه منها... ويقف كلّ تعبير مخذولاً مدحورًا أمام عظمة الحقّ عندما يتردّى الصوت، ويتّخذ مساره إلى العقل عبْره ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ ٢٥: يوسف. إن من يملك إحساسًا بقوّة الإيحاء في جَرْس الحرف، في هذه الجملة، لا يسعه إلاّ أن يسجد أمام عظمة بلاغة القرآن العربيّ المبين.

﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ ٢٥: يوسف[(١)]، وكلمة «وألفيا» تعني أن العزيز كان لدى الباب قبل أن يصله يوسف فامرأة العزيز. وربّما كان الرجل هناك قبل ذلك، فرأى وسمع ما كان. وهكذا وجدت المرأة نفسها في دائرة ضيّقة، فتعلّقت بأوّل سبب خطر لها أنّه ينقذها من ذلك الموقف المعيب، ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ ٢٥: يوسف؟

---

(١) كلمة سيدها تعني زوجها، وهي مقصودة هنا قصدًا، وبعض المناطق المصرية لا تزال تطلق على الزوج لقب السيد. وهناك من لا يرى أن يخاطب رسول الله بسيدي، ولا مبرر لهذا الرأي، فهي كلمة معروفة من قبيل رفع الذكر، وترى لها أساسًا في قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم»[صحيح مسلم: ٢٢٧٨].

لم تتّهم امرأة العزيز يوسف بالفحشاء، فهي في جلالة قدرها تأنف أن تقول إن فتاها يتطلّع إلى ذلك، فادّعت أنّه أراد بها سوءًا، كالمعابثة الماجنة. يؤكّد ذلك قولها: إلاّ أن يُسجن أو عذاب أليم. ولو قصدت أنّه أراد الفاحشة لكان عليها أن تقول: إلاّ أن يُقتل. فهي تعرف أن عاقبة ذلك القتل.

واضطُرّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم إلى الدفاع عن نفسه، ولم يزد على أن قال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ ٢٦: يوسف... كلمة قاطعة تجبر سامعها على تصديقها، بلبلت العزيز بين اتّهامات زوجته النبيلة، والحقّ الذي يسطع دون أن يُمكِن من نفسه في كلمات المستضعَف الغريب.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۞ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ٢٧ و٢٨: يوسف. وليس في هذا ما يضطرّنا إلى اعتبار اتّهام المرأة يوسف، ودفاعِه عن نفسه، وكلامِ الشاهد مشهدًا واحدًا، فليس من السهل أن نتصوّر أن العزيز يصحب إلى باب مخدعه رجلاً كائنًا من كان. ويسمح النصّ باتّباع ما يقتضيه المنطق من أن الموقف انتهى عندما ألفيا سيّدها لدى الباب، وأن كلام الشاهد أتى فيما بعد في سياق مناقشة الأمر بحضور حكَم من طرف المرأة.

وكلمة شاهد هنا تأخذ معنى الحكَم، بدليل أن كلامه كان حُكمًا، لا شهادة. فهو قد جمع الأدلّة والقرائن من كلام الأطراف الثلاثة، ودرسها، ثم أصدر حكمه... موقف ما كان يمكن لأحد أن يقفه، إلاّ رجل بلغ به العدل حالة مطلقة. وهذا بعض برهان ربّ يوسف ليوسف، فقد سخّر له هذا الشاهد لأنّه من عباده الصالحين.

﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ ٢٩: يوسف...(١) كان العزيز تحت سيطرة امرأته الشابّة الجميلة، التي تمارس عليه ما تمارسه سيّدات القصور من سلطان، يضاف إلى هذا ما تفرزه نقطة ضعفه، وهي عجزه عن إشباع

(١) هذا الدين المتقن الذي ألم بكل خوالج النفس وخلجاتها، وبكل طبائع الإنسان أعطاك مساحة لأخطائك، لكن عليك في النهاية أن تتوب، ومن التوبة الاستغفار. وليست المشكلة في أن تذنب بقدر ما هي في رد فعلك بعد الذنب، فرب خطيئة أورثت ندمًا خير من طاعة أورثت عُجبًا أو كبرًا.

أمومتها. لقد بدت له الحقيقة رغم النقاب، وقرأ في نبرة زوجته الغيظ ممّا حدث، لا الغضب منه، وأدرك أنّها كانت تُحمّل اتّهاماتها ليوسف دفاعًا عنه، وأنّها خائفة عليه من حكم يؤدّي إليه اتّهامها النزِق، حتى لتكاد تحدِّد لهم العقوبة التي قد يفرضونها عليه، بكلّ ما يسمح به الظرف من الإشفاق، وتحصر ذلك بالسجن المؤقّت، أو ما لا يطبّق عادة من العقوبة في مثل هذه الحالة: وهو العذاب الأليم.

من هنا وجدنا اهتمام العزيز ينصبّ على كتمان ما حدث اتّقاءً للفضيحة، فهو يرشو يوسف بما يُبديه له من تصديق غير معلن، تشفق منه كبرياؤه، وترشح به عبارته المتودّدة: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ ٢٩: يوسف، أي انسَه وتجاوزه، ولا تحدّث به أحدًا، بينما قال لامرأته كل ما يستطيع قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ ٢٩: يوسف. ولكنّهم رغم ذلك، ورغم ما رأوا من أدلّة براءة يوسف ﴿بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ٣٥: يوسف. وبهذا استطاع العزيز التعفية على الأمر وطيّ صفحته، ليحفظ ماء وجهه ومركزه في المجتمع، وكان الضحيّة يوسف الصدّيق الذي لبث في السجن بضع سنين دون ذنب ارتكبه، ولو أراد العزيز لما بلغ الظلم ما بلغه، ولكنّهم العلية يدوسون كلّ شيء في سبيل الحفاظ على واجهتهم. وهذا يجعل قبول يوسف أن يخلفه في منصبه، وهو ذو يد عليه مبرّرًا.

*

وكان للفضيحة صداها، فقد حدث ما حدث على مرأى ومسمع من خدم القصر وعمّاله وموظّفيه. وفي واحدة من أُسَر كبار الرجال المحيطين بالملك. وهكذا غدا الأمر حديث المدينة كلّها، ولا سيّما سيّدات القصور المترفات المتفرّغات لمثل تلك الأحاديث. ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ٣٠: يوسف. يقول ابن كثير: يذكر تعالى ما كان من نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز، وعيبها، والتشنيع عليها في مراودتها فتاها، وتعلّقها به، وهو واحد من خدمها، وليس مثله أهلاً لمثلها. ولهذا قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ٣٠: يوسف. أي في وضعها الشيء في غير محلّه[1].

(١) قصص الأنبياء ١ : ١٩٤.

وسرعان ما نمت الأخبار إلى امرأة العزيز بما تتهامس به سيّدات القصور في مجالسهنّ. ولكنّها كانت من القوّة والمكانة بحيث لم يجرؤ أحد على مواجهتها بشيء من ذلك. يدلّ على هذا تعدية الفعل بالباء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ ٣١: يوسف، فهي لم تسمع المكر منهنّ مباشرة، بل تسرّبت إليها الأخبار من هنا وهناك.

لم تعِب سيّدات القصور على امرأة العزيز كونَها تحبّ، أو تراود من تحبّ عن نفسه، أو فعلَها ذلك وهي امرأة ذات زوج، بل عِبن عليها أن أحبّت خادمها. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ ٣١: يوسف[١]، وكان فخًا ذكيًا، جمع التبرير المحكم، إلى إقامة الحجّة، إلى الانتقام والثأر.

وطريقتها تلك في معالجة الأمر تدلّ على نفوذها وسطوتها، فهي قد أرسلت إليهنّ من استدعاهنّ، ولم تدعهنّ بنفسها. وأعتدت لهنّ متّكأً لخدمة غرضها على أكمل وجه وأفضله[٢]، والمتّكأ يعني أنّها جلسة يُتبادل فيها الحديث، ويُتناول فيها الطعام باسترخاء. وهو وضع مثاليّ لبلوغ الغاية التي أرادت.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ٣١: يوسف، فهذا هو إذًا مراد امرأة العزيز من دعوة النسوة إلى متّكئها[٣]... وخرج يوسف عليهنّ، ولا شكّ في أنّه كان في غفلة عن مرادها، أو أن القيام على شأن روّاد القصر كان بعضًا من عمله. وفوجئت النسوة بما رأين من بهاء يوسف وجلاله خَلقًا وسمتًا، وذهلن عن السكاكين التي في أيديهنّ، فدمِيت الأيدي لانشغال العيون بيوسف،

---

(١) أي قدمت إليهن طعامًا يحتاج إلى استعمال السكاكين.

(٢) وفي القرآن الكريم "وأعتدنا لها رزقا كريما ٣١: الأحزاب و"وأعتدنا لهم عذاب السعير" ٥: الملك.

(٣) إن عقد مجلس النسوة في القصر لهذا الأمر، وتصرفهن على النحو الذي سوف نرى، وطريقة امرأة العزيز في البرهان على براءتها، تدل على أن هذه الفضائح مما هو معروف في ذلك المجتمع، الذي يتم فيه الاختلاط على أوسع النطق، وتتعاظم سلطة المرأة حتى لا يزيد زوجها الوزير، وقد رأى منها ما رأى، على القول: "يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنكِ كنتِ من الخاطئين" ٢٩: يوسف، ثم يسجن يوسف حينًا من الزمان ريثما ينسى الناس الفضيحة.

obeikandl.com

وانصراف الفكر إليه، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ٣١: يوسف[1].

وفي هذا الموقف العجيب كشفت تلك المرأة الفريدة كلّ أوراقها. ودفعها غرور النصر الذي حقّقته على عاذلاتها إلى التنكيل بهنّ: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ ٣٢: يوسف. ولم تعُد في حاجة إلى إخفاء عشقها، وهزيمتها، وعجزها أمام عاذلاتها المهزومات بدورهنّ، بل لعلّه زُيّن لها استغلال نصرها هذا، في حمل يوسف على ما لم تستطع حمله عليه وراء الأبواب المغلّقة، في محاولة للانتقام لكرامتها التي تُقامر بآخر ورقة منها الآن: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ ٣٢: يوسف، أي لاذ بما حماه ومنعه من الاستجابة إلى رغبتي ...

لقد استعصم يوسف بربّه فمنعه، فقد قضى الله الحقّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ ٢٠١: الأعراف.

وكان الشابّ العبرانيّ العنيد قويًّا صامدًا، وكانت هي غاية في الضعف، إذ استعبدها هدف واحد: أن تُخضعه... وبأيّ ثمن كان... وفي ميعة من غرور النصر، وتواري العقل والكرامة والحصافة أمام الأنوثة الطعينة، راحت تهدّد، فتهدّد الفتى بالسجن إن لم يستجب لها. ولعلّ النسوة قد اندفعن، طلبًا لتغاضي امرأة العزيز عما رأته منهنّ، يحضُضنه على موافقة سيّدته، يُغرينه بها تارة، ويُحذّرنه وعيدَها تارة، فقد قالت، وهي فاعلة ما قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ٣٢: يوسف.

لقد لبثت امرأة العزيز تكتم أمر يوسف، وتُخفيه عن الناس، كأنّما أثرة به لما رأت فيه من مخايل الحسن والنبل والعظمة. فلمّا كانت الفضيحة، اضطرّت أن تُطلع النسوة على ما ظنّت أن يعذرنها فيه. فلمّا شاركنها الافتتان بالفتى، وذَهَلهنّ عن أنفسهنّ فقطّعن أيديهنّ، سكتن عنها لتسكت عنهنّ.

---

(١) ولا يجوز القول إنه لم يخطر ببال امرأة العزيز أن النسوة سوف يدمين أيديهنّ لدى رؤيتهن يوسف، فلا معنى لقوله: "وآتت كل واحدة منهن سكينًا" ٣١: يوسف، إلاّ أن تكون قد قدرت حصول ذلك لانشغال النسوة بيوسف، وذهولهن عن السكاكين التي يستعملنها، وليس هذا ممّا يُذكر لو لم يكن وراءه ما هو جدير بالاعتبار. وإذا أراد رب العالمين أمرًا هيأ أسبابه. فكما كان تقطيع القميص دليلاً على براءة يوسف، كان تقطيع الأيدي دليلاً عليها كذلك.

obeikandi.com

لقد جعل ربّ العالمين للناس رقابات ليبقوا منضبطين: فهناك العقل، وهناك الأسرة، وهناك المجتمع. وكلّ ذلك يراقبك ويربّيك. وما فعلت امرأة العزيز بالنسوة ما فعلت إلاّ اتّقاءً لمكرهنّ، وخشية أن يسلقنها بألسنة حداد، فسعت بهن إلى موقف جعلهنّ يخشين منها ما تخشاه منهنّ، وبذلك سكت الطرفان كلّ عن الآخر حذر الفضيحة. وكثير منّا ينصلحون لا من أجل الصلاح، بل لأن المجتمع يفرض عليهم أن يستقيموا. ثم تصبح هذه الاستقامة ديدنًا وعادة.

وهكذا طُوي الأمران: فضيحة امرأة العزيز، ومثلبة النساء اللائي قطّعن أيديهنّ افتتانًا بفتاها. وسكت الطرفان كلّ عن الآخر، فلم يُعرف شيء ممّا قامت به هؤلاء النسوة طيلة بضع سنين، وهي فترة سجن يوسف.

***

لقد كانت امرأة العزيز من ربّات القصور المترَفات اللائي يتمتّعن بالحريّة والمال والنفوذ والفراغ، وهي إلى ذلك امرأة قويّة جريئة فطنة، مخلصة لدوافعها، واثقة بنفسها، صلبة واقعيّة... ولا يعني تعلّقها بيوسف أنّها ساقطة أو عاهرة، تشهد لها بذلك جرأة وخلق وقوّة قلّ نظيرها، يشفّ عن ذلك تبكيتها عاذلاتها، واعترافها العلنيّ الخطير بأنّها قد راودت يوسف عن نفسه ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ ٣٢: يوسف، وإقرارها بالحقيقة كاملة بعد أن أُودع يوسف السجن.

لقد كانت امرأة العزيز حريصة على الاعتراف بأنّها اتّهمت يوسف بالباطل، وهو اعتراف لا تجرؤ على الجهر به امرأة عاديّة: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ٥١: يوسف، بل كانت حريصة على تبرير اعترافها ذاك، وتلك قوّة نفس، ونبل رفيعان ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ٥٢ و٥٣: يوسف، فهي تأبى الخيانة في الغيب، ولا يثنيها عن الاعتراف بالحقيقة ما فيه من إساءة إلى شخصها، وتحدّ للمجتمع.

وقد كان للعزيز كِفل ممّا جرى، ذلك أن حاجة زوجته إلى الولد الذي لم يستطع أن يمنحها إيّاه جعلته يضع الغلام الرقيق المتميّز ذلك الموضع منها، ويحضّها على إكرامه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ ٢١: يوسف. وأمام قصده ذاك تجاوز العزيز ما لا بدّ أن يكون قد خطر بباله، من أن كون الغلام على عتَبات الفتوّة يحدّ كثيرًا من دور زوجته المفترَض كأمّ، وأنّها امرأة شابّة لا ينقصها الفراغ والجِدة. يضاف إلى هذا أنّه لا يمكن أن يكون غافلاً عمّا يتمتّع به يوسف من سَمت آسِر.

هكذا وجد الرجل نفسه أمام واقع فرضته مقدّمات له يد لا يمكن تجاهلها فيها، فتمالك نفسه، واستمع إلى ادّعاء زوجته، ودفاع يوسف المقتضب، وقبِل تحكيم شاهد من أهلها ينظر في الأمر لتبرئتها أو تجريمها. فلمّا ظهر خطؤها أبدى صبرًا وشجاعة وحصافة نادرة، وكان أهمّ ما يشغله ألاّ يتجاوز الأمر جدران القصر، فيغدو فضيحة، فقال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ ٢٩: يوسف. أمّا زوجته فما وجد ما يوجّهه إليها، وقد ثبت له خطؤها إلاّ أن قال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ ٢٩: يوسف. ولكنّه لم يتورّع عن التضحية بيوسف، وسومه الخسف عندما رأى أن ذلك ينقذ ما يمكن إنقاذه من ماء وجهه وسمعة امرأته.

ويصعب الإقرار بما ذهب إليه البعض من أن العزيز كان عاجزًا عن القيام بحقّ امرأته عليه، فهو أدعى إلى أن يكون شديد الحذر والحساسيّة، فلا يأتيها بمثل يوسف يلازمها. والأكثر انسجامًا، والمنطق ما سبق ذكره من أنّه كان عقيمًا، فأراد أن يعوّض امرأته النبيلة الأثيرة بيوسف. وفي الروايات أنّها كانت تعامله كأمّ إلى أن بلغ أشدّه، وكان ما كان.

من القصر إلى السجن

غادر يوسف ذلك المتّكأ الشائن، بعد تهديد سيّدته له بالسجن والتنكيل، مرهقًا متهالكًا تتوهّج في أعماقه فرحته بالنجاة من أحابيل الشيطان الجبّارة، وتقرع جدرانَ صبره واستعصامه قبضة بشريّته القاسية بلا كلل، وراح يشكو إلى ربّه ضعفه، وخوفه الغوايةَ إن لم يصرف عنه كيد هؤلاء الفارغات الشاغبات المتنفّذات ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ ٣٣: يوسف[1].

(١) والصبوة ميل القلب شيئًا فشيئًا، وأصبو أي أميل برقة ولطف. ومنه ريح الصبا لرقتها.

وهذه العبارة على لسان سيّدنا يوسف درس كامل في الابتلاء، بمقدّماته وآثاره وأسبابه، وإرشاد للمؤمن المبتلى. وتستدعي غربة يوسف ومحاصرته، وضيق الآفاق من حوله موقفَ سيّد الخلق، وقد غادر الطائفَ مطرودًا، دامي الكعبين، مصفِر الكفّين، يجترّ آلام فقْد السكَن والسنَد، وخيبة السعي الناصب، وقد وقف يناجي ربّه: «... إلى من تكلني إلى عدوّ يتجهّمني، أم إلى قريب ملّكته أمري؟ إن لم تكن غضبان عليّ فلا أبالي»[1].

لقد شكا المصطفى إلى ربّه ما يحزبه، وسرعان ما تلاشى كلّ ذلك الألم في محيط الإيمان المعجز: كلُّ ذلك ليس بشيء إن كنت عنّي راضيًا.

ولاذ برحمته من ضعفه الإنسانيّ: ولو رحمتني ومنعتني لهو أوسع لي.

فعافاه ربّه، ودخل مكّة في جوار مُطعم بن عديّ حتى بلغ مأمنه، ثم دُعي إلى السماء، وكانت نعمة الإسراء والمعراج. أمّا يوسف عليه السلام فقد قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ ٣٣: يوسف... فكان السجن. وقيل إنّه لمّا برم يوسف بالسجن أُوحي إليه أنّك أنت الذي جلبت هذا لنفسك عندما قلت: السجن أحب إليّ. ولو أنّك سألت الله العافية لعافاك.

لقد اختار يوسف الصدّيق السجن على جحيم الغواية، فقد خاف على نفسه ألاّ يصمد لها، وظنّ أنّه يصمد للسجن... فهل نسي يوسف أن عند الله سبيلاً آخر... عافيته التي تسع كلّ شيء! وأنّى ليوسف الذي وسعته عافية الله كما لم تسع أحدًا أن ينسى! ولكنّها المفاضلة التي عسفه عليها القهر والظلم، حيث وجد نفسه بين أمرين أحلاهما مرّ، فاختار ما لا يغضب ربّه.

إن على المؤمن أن يسأل الله العافية، وألاّ يعتدّ بقدرته على التحمّل فيطلب البلاء أو يتمنّاه، ولكن إذا وقع به فليصبر. وفي حديث رسول الله ﷺ: «لا تتمنّوا لقاء العدوّ، واسألوا الله

---

(١) مجمع الزوائد: ٦: ٣٥.

العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا»[1].

وقد تبيّن لرسول الله أن مريضًا من أصحابه، وكان في بلاء شديد، كان يسأل الله أن يعجّل له في الدنيا ما قد كتبه عليه من عذاب في الآخرة. فقال ﷺ: «سبحان الله لا تطيقه، أو لا تستطيعه، فهلاّ قلت: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ٢٠١: البقرة»[2]. وقد سأله العبّاس عمّه أن يعلّمه دعاءً يدعو الله به، فقال: «سل الله العافية في الدنيا والآخرة»[3]. وقد خُصّت ليلة القدر بالدعاء بالعافية لأنّها مجمع العطاءات.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ ٣٤: يوسف، كما صرف عنه كيد امرأة العزيز من قبل ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ ٢٤: يوسف... إنّها عناية الله التي تعصم الأنبياء، ولم تكن لامرأة العزيز هذه العصمة.

وإذا وقاك الله الذنب فلا تغترّ بإيمانك أو بقدرتك، وتذكّر دائمًا أن عناية الله ورحمته ورعايته وتوفيقه وراء ذلك، وأنّك إنّما تنال منه بقدر برّك والتزامك وإسلامك لله الحقّ، لا بما اتّخذت من الأسباب فحسب. ذلك أن الإحاطة بكلّ الأسباب، التي ينبغي اتّخاذها لما تأتيه من أمر كائنًا ما كان، مستحيلة، وأن المرء لا يحصّل منها إلاّ قدر وسعه، وليست الإحاطة من وسع الإنسان... وهنا تجبر رحمة الله الكسر، وتكون العوض، ويكون فيها الجزاء الأوفى. وقد يكون فيها ما لا يمكنك أن تبلغه بعمل ولا بقصد ولا بنيّة. من أجل هذا عليك أن تعتصم دائمًا بالله تعالى أمام ما تتعرّض له من المغريات والمغويات، التي يزيّنها لك الشيطان ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ ٢٠٠: الأعراف.

---

(١) صحيح البخاري: ٢٨٠٤.

(٢) مسند أحمد: ١٢٠٦٨.

(٣) مسند أحمد ١٧٨٣.

انتقل يوسف من القصر إلى السجن، فقد بدا لآل العزيز ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ ٣٥: يوسف، وهكذا سيم يوسف الخسف، وهو المحسن الكريم، الحافظ للغيب بما حفظ الله، فعوقب لتغطية جرائم الأسياد، وسُجن دون محاكمة، ودون تحديد أجل لمكثه في السجن، ولم يشفع له القميص الذي قدّ من دُبُر، ولا شهادة ذلك الشاهد من أهل امرأة العزيز، ولا غير ذلك من الآيات على براءته، فقد كان همّ العزيز إخفاء الأدلّة على فضيحة امرأته.

وكان السجن. . . ولأن أمر المؤمن كلّه له خير، فقد كان السجن فرصة ليوسف الصدّيق للفراغ إلى نفسه، والسياحة في أقاصي أعماقه، والخلوة بربّه، وتعزيز صلته به، فازداد صفاء وشفافيّة، واتّضحت رؤاه حتى بدت كرسائل تنبّئية من عالم الغيب[1]، وعلّمه ربّه تأويل الأحاديث والرؤى... لقد شاء الذي يدبّر الأمور أن يخرج يوسف من نطاق ذلك المجتمع المترَف الفاسد لئلاّ يكون أحد مكوّناته. وكم ذا تمنّى السجن نقيٌّ فرارًا من واقع يقصمه ويهدّده!

ومن الجدير بالملاحظة أن يوسف عليه السلام قد سلخ سنوات طفولته الأولى في أحضان أبيه، وكان أثيرًا لديه مدلَّلاً عليه، ثم كان عند العزيز أثيرًا مكرمًا، وكذلك كان سيّدنا موسى في بيت فِرعَون، حتى سُمّي ابن فِرعَون، وكان يتجوّل في المدينة بالعربة الملكيّة، يرافقه حرس. ولكي يكون هذان الشابّان المدلّلان نبيّين احتاج كلّ منهما إلى بضع سنين من التدريب على المشاقّ، ومعاقرة الصبر، والاكتواء بنار الظلم والغربة الروحيّة، ليستطيع بعد ذلك أن يقوم بمهام النبوّة. لقد أراد الله يوسف نبيًّا، وأراده حاكمًا، فكان كلّ ما مرّ به من المحن طريقًا إلى ذلك[2].

وهكذا لبث يوسف في السجن بضع سنين، وكان دأبه تقليب أفكار الدعوة إلى الله في ذاته، والتوجّه بها إلى من حوله من أولئك الذين يعانون، ويرزحون تحت وطأة أعباء نفوسهم ومجتمعهم.

---

(١) انظر الكلام في الرؤى في بداية قصة يوسف عليه السلام.

(٢) وعلى المرء أن يتقبّل القضاء بعد أن يستفرغ جهده في اتخاذ الأسباب، وعليه أن يبقى مستحضرًا ما يؤمن به من أن الله لا يظلم... وأن كل ما يقع فإنما يقع بحق ولحكمة. وأنه "فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا" ١٩: النساء.

ولم يلبث أن تبلورت رؤيته لما لديه، ولما عليه الناس بين هذه الجدران وخارجها، وللدور الذي ينبغي له أن يؤدّيه لإحقاق الحقّ، وإبطال الباطل، فبدأ يتشوّف إلى الخروج بدعوته من ظلمة السجن إلى الفضاء العريض، ليأخذ بأيدي من أنعم الله عليهم بقلوب تقبل الهدى ولا تصرّ على الضلال. ولم يكن يملك ذلك الأمل الذي يتعزّى به كلّ سجين سواه، وهو عدّ الأيّام بانتظار يوم الفرج، فهو مسجون بدون ذنب، وبدون أجل، وبدون أمل في مغادرة ذلك المحبس الظالم.

وقد أوتي يوسف شفافيّة الأنبياء ومقدرتهم على استشراف الأحلام وتعبيرها، وصفاء حدْس مُعجز، جعله يكتشف بعض ما سوف يقع قبل وقوعه، وكان يواسي المرضى، ويخفّف عن المساكين، فأصبح في السجن ذا شأن، وغدت له سلطة فكريّة على نزلائه، فكسب ثقتهم ومحبّتهم.

وفي الروايات التي يؤيّدها المنطق، أن خبر يوسف بلغ صاحب السجن، وأنّه تحرّى عنه فعرف قصّته، وعرف أنّه سليل أنبياء، فأطلق يده في السجن يمارس الدعوة إلى الله، ويشرف على النزلاء، حتى غدا السجن مملكة صغيرة يتولّى يوسف شؤونها كلّها، ولعلّ السجن كان إعدادًا له لما سوف يضطلع به من مهمّة لدى مغادرته.

و في السورة نموذج من دعوة يوسف في السجن. فقد كان معه خبّاز الملك وساقيه، وهما متّهمان بالتآمر على الملك ودسّ السمّ له، وتعلّق الفتَيان بيوسف لما رأياه من إحسانه وفضله، وكان من نجواهما إيّاه أن قصّا عليه رؤيَيين رأياهما: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ ٣٦: يوسف، وسألاه تعبيرهما.

ورأينا يوسف النبيّ يقدّم بين يدي تعبيره تعريفًا بنفسه، فهو قد أوتي من الله بصرًا وبصيرة وعلمًا خاصًّا، فانسلخ عن عقائد القوم، واتّبع ما عليه آباؤه إبراهيم وإسحاق ويعقوب من التوحيد الذي منّ الله عليهم به[1]. ثم دعا الفتَيين إلى اتّباع الحقّ والنهج القويم، والدينونة لله الواحد القهّار، ونبذ معبوداتهما الباطلة. ثم أجابهما إلى ما

---

(١) لا شك في أن يوسف قد قال هذا الكلام أكثر من مرة في تضاعيف دعوته السجناء.

سألاه: ﴿يَصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ٤١: يوسف.
﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ٤٢: يوسف[١].

ولم تلبث الرؤيان أن تحققتا، فأُعدم الخبّاز، وغادر الساقي السجن، ولكنّ الشيطان أنساه أن يذكر يوسف عند الملك ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ٤٢: يوسف.

لقد كان همّ يوسف محصورًا في السعي إلى ما يمكّنه من تبليغ الدعوة إلى الله، ومن هذا المنطلق سأل الساقي أن يذكره عند الملك مؤمّلاً أن يؤدّي ذلك إلى استدعائه والنظر في أمره والإفراج عنه، ومن المنطلق نفسه سوف نراه يقول للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ ٥٥: يوسف، فهو لا يريد بذلك علوًّا في الأرض ولا فسادًا، ولكن منبرًا مرموقًا، وأفقًا واسعًا، ليبلّغ ما جاءه من أمر ربّه، ويقيم الحقّ الذي يدعو إليه.

الملك في مسرح الأحداث

صار ليوسف في السجن شأن كبير، أمّا الذين في الخارج فقد نسُوا أمره، إلى أن شاء الله سبحانه وتعالى أن تعاود الملك رؤيا مؤرّقة لم يستطع الملأ من حوله تعبيرها. وبهذه الرؤيا دخل الملك مسرح الأحداث، وبدأت قصّته مع يوسف.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ ٤٣: يوسف. وتكرّرت رؤيا الملك حتى أوجس منها خيفة[٢]، فجمع ملأه، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ ٤٣: يوسف[٣].

---

(١) وقد اعتبر بعضهم هذا القول خروجًا عن التوكل، أو استعانة بغير الله. وليس هذا بشيء، بل إن في قول يوسف "مؤشّرًا على وجوب السعي في الأسباب، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب" [قصص الأنبياء لابن كثير ١ : ١٩٦]. واتخاذ الأسباب بعض من الإيمان بالله الحق والعبودية له.
وما حمل المفسرين على هذا القول إلاّ بحثهم عن سبب نسيان الساقي وصاة يوسف ﷺ، وتقليب النظر فيه. والأرجح أنّ كون الرجل ساقيًا، ووجوده الدائم في مجالس الخمر والشراب، حيث تستأثر غواية الشيطان بالألباب، هو ما جعله ينسى يوسف، ويذهل عن أمره.

(٢) وتكرار الرؤيا يعني أن وراءها شأنًا.

(٣) والفتيا استنباط الحكم من النص.

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ ٤٤: يوسف.

ووقف على خبر تلك الرؤيا الملكيّة، التي صارت حديث القصر، الساقي الذي كان في السجن مع يوسف، واستيقظت في ذاكرته صور من السجن الذي لبث فيه حينًا مع ذلك الصدّيق الذي يعبّر الرؤى، والذي بشّره بالنجاة، والعودة إلى عمله في بلاط الملك، ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ ٤٥: يوسف، فقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ ٤٥: يوسف.

وأرسلوه، فمضى إلى السجن يستفتي يوسف: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ٤٦: يوسف. وعاد الساقي إلى الملك وملئه بفُتيا الصدّيق السجين، قال: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ۞ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ ٤٧ - ٤٩: يوسف. وفي الحديث الشريف: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»[1]. وهذا من بلاغة رسول الله، وحسن تأتّيه، فهو هنا ينطق بلسان البشر، لا بلسان محمّد سيّد خلق الله، الذي تنقطع المروءات دون مروءته، والحلم دون حلمه.

ووثبت النقاط الشاغبة إلى أماكنها فوق الحروف في فكر الملك... تلك الرموز المقلقة عن ثروات البلاد الحيوانيّة والزراعيّة، هاهي ذي خبر واضح مشفوع بنصح يشفّ عن روح كريم وهوب يسوقه حبّ الخير، ويوجّهه إلى الطريق التي تتيح له فعله.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ ٥٠: يوسف. وهُرِع رسول الملك إلى السجن يزفّ ليوسف البشرى بالخلاص. ولكنّ يوسف يرفض أن يخرج من السجن بشفاعة قدرته على تعبير الأحلام، ويريد أن يثبت أنّه ما دخله لجرم ارتكبه، بل تمّت التضحية به في سبيل إنقاذ سمعة العزيز وزوجته. وقال للرسول: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ ٥٠: يوسف.

(١) صحيح البخاري: ٣١٩٢.

ورغم أن يوسف أمضى سنوات من شرخ صباه في السجن للتعفية على آثار فضيحة لا ناقة له فيها ولا جمل، فهو يكتفي بطلب شهادة النسوة اللائي قطّعن أيديهنّ، ويُعرض عن ذكر العزيز وامرأته حفظًا ليدهما القديمة عليه، ولا يطالب أيًّا منهما بدليل براءته حرصًا على ألاّ يعرّضهما إلى المساءلة، أو يوجّه إليهما شيئًا من الاتّهام يسيء إلى سمعتهما ومركزهما الاجتماعيّ. وفي سبيل ذلك ضحّى الملَك الكريم بالشاهد المِلك الذي كانت شهادته وحدها تكفي وتُغني... إنّه شاهِد القميص[1]. لقد وسع قلب يوسف النبيّ العذر لوليّي نعمته إذ غلبهما ضعف البشر على إحقاق الحقّ بشأنه، ولا غروَ فهو الآن يرعى ضحايا الضعف البشريّ في هذا السجن المعلّم.

وبعد سبع سنين من الصمت عادت فضيحة القصر المنسيّة إلى واجهة الأحداث، رغم تكتّم يوسف وحرصه، ووقف الملك على ملابساتها. والملك رمز دستوريّ منصوب على رأس هرم السلطة البعيد، ولا يُحاط علمًا بما يجري خارج بلاطه. وقد كان على رأس ماعناه الأمر له ذلك الكنز الذي وجده بين يديه من دون مقدّمات، ذلك الشابّ المدهش المعجِب[2].

واستدعيت النسوة، وسُئلن: ما خطبكن إذ راودتنّ يوسف عن نفسه؟

وتهاوت كلّ الحجب دفعة واحدة أمام براءة يوسف. أمّا النسوة فقلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ ٥١: يوسف، وأمّا امرأة العزيز فنفاجأ بها تدلي باعتراف كامل، يشي النصّ القرآنيّ بأنّه اعتراف طوعيّ، ذلك أن يوسف لم يذكرها وزوجها في تظلّمه أمام الملك، بل لم يذكر شاهد القميص للستر عليهما. فلعلّها استُدعيت للمثول أمام الملك، والإدلاء بشهادتها بطلب من النسوة. وقالت المرأة: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ ٥١ و٥٢ : يوسف.

---

(١) الذي شهد: "إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ۞ وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين" ٢٦ و٢٧: يوسف.

(٢) والملك الصالح يتحرّى الأفذاذ في شعبه، ويختار بطانته من أعيان الناس، المشهود لهم بالنزاهة والكفاءة.

إنّه أوان قول الحقّ، فقد وجب... أنا راودته عن نفسه، وقد كان صادقًا عندما قال: هي راودتني عن نفسي. وإذا كنت قد قلبت الحقيقة أمامه لحظة رأى العزيز ما رأى، فأنا الآن أقولها ناصعة كاملة في غيابه، ليعلم أنّي لم أخُنه بالغيب ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ٥٣: يوسف... اعتراف بالذنب، واستغفار على نسق عقيدة يوسف... وإقرار بالعبوديّة للغفور الرحيم... فهل آمنت امرأة العزيز بربّ يوسف، كما سوف تؤمن امرأة فِرعَون بربّ موسى[1]؟

لقد أبى وجه المرأة النبيلة الكريمة إلاّ أن يُسفر بعد أن احتجب وراء النفس الأمّارة بالسوء، فحفظت يوسف في الغيب، وأبت أن تتّهمه وهو في السجن، كما أبت مروءته أن يذكرها أمام الملك، أو يذكر ما يمسّها من بعيد أو قريب، وكأنّه كان يعرف أنّها لابدّ فاعلة هذا.

ولمّا وقف الملك على ما كان، عزل العزيز عن منصبه. وكانت تلك أولى درجات السلَّم أمام يوسف لكي يصعد إلى ما صار إليه[2]. لقد عرف الملك قدره، واتّخذ قراره ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ ٥٤: يوسف.

وكان الملك قد قال من قبل: ائتوني به. وذلك عندما بهرته براعته وقدرته في تفسير الأحلام. أمّا الآن، فقد تكشّف له من عفّته وحسن شمائله ما رغّبه في اصطفائه لنفسه. وقال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ ٥٤: يوسف[3]. ويبدو أن الملك كان يستقطب أهل

(١) نسب بعض المفسرين الآية الأخيرة كاملة إلى يوسف، بيد أنه مما لا يصح أن يقوله نبيّ. فالنفس الأمّارة بالسوء للكافرين والمشركين والفجرة، وهناك النفس اللوّامة، وهي لمن خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، أمّا الانبياء والصديقون فلهم النفس المطمئنة. ثم إن السياق يدل على أن يوسف لم يزل في السجن. والأرجح أن شطر الآية الأوّل على لسان امرأة العزيز، أمّا قوله: "إن النفس لأمّارة بالسّوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم" ٥٣: يوسف، فتعقيب من الله عزّ وجلّ على كلامها، جاء على الحكاية لتقرير الفكرة، وتعليمًا لكل من أمرته نفسه بسوء أن يقوله في معرض اعتذاره واستغفاره وتوبته.

(٢) يلاحَظ أن الملك يقوم بالتحقيق بنفسه. وفي الإسلام نوع من القضاء يقابل ذلك، ويدعى بديوان المظالم، وهو خاص بمن ليس لديهم بيّنة على دعاواهم من الناس. ويرأس ديوان المظالم رئيس الدولة أو من ينيبه عنه، ويحكم بالهيبة.

(٣) يحمد للملوك أن يهيئوا لأنفسهم بطانة صالحة. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما استُخلِف خليفة إلاّ له بطانتان: بطانةتأمره بالخير وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالشرّ وتحضّه عليه، والمعصوم من عصم الله» [صحيح البخاري: ٦٢٣٧].

obeikandi.com

الكفاءات، وإن لم يكونوا من الأسرة الحاكمة. وقد قرّب يوسف، وهو من الرقيق، لكفاءته وقدرته، إذ أنّه رأى في ذلك مصلحة الدولة .

خرج يوسف من السجن، وطُويت صفحة الماضي بكلّ ما فيه ومن فيه، وأصبح المجد كلّه لسيّدنا يوسف عليه السلام.

إلى الوزارة فالإمارة

انطلق يوسف من تعبير رؤيا الملك إلى تقرير خطّة زراعيّة للطوارئ، وتوفير الأمن الغذائيّ في سنوات قادمة من القحط تضرب المنطقة كلّها. وأذهلت خطة يوسف الملك، وتدارسا الجانب التنفيذيّ منها، وانتهى الأمر بيوسف إلى أن طلب تعيينه مسؤولاً عن اقتصاد المملكة، ليضمن نجاح الخطّة التي اقترح .﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ٥٥: يوسف[١].

وجعله الملك على خزائن الأرض، فكان حفيظًا عليمًا[٢].

وتنطوي عبارة يوسف البليغة على كمّ يثير العجب من العلم وفلسفة الحياة وفلسفة السلوك... فهي تعني: أنا لا أحرس مال الدولة، وأمنع العابثين من الوصول إليه وتبديده فحسب، بل أتولّى أمر الاقتصاد، وأطوّره، وأستثمر المال لينمو ويزداد. ووضعُ يوسف كفاءاته في خدمة الناس نوع من تفعيل ما أنعم الله به عليه في إقامة الحقّ في الأرض، أي تحقيق رفيع لما خُلق له الإنسان من الخلافة في الأرض. ولكن كيف اكتسب يوسف هذه الخبرة في شؤون المال والاقتصاد؟

---

(١) يجوز للمؤمن أن يلي حكمًا لكافر، وذلك في حال كونه في بلد إسلاميّ مستعمَر، أو في بلد غير إسلاميّ. والضابط لهذا أن يكون الحاكم عادلاً لا يظلم.

(٢) والحفيظ المحسّن والمنمّي والمطوِّر، وهو غير الحارس. فحارس القصر مثلاً يمنعه مما يأتي من الخارج، ولذلك يقف بالباب، أما الحافظ والحفيظ فيكون في الداخل، يحافظ على البناء والمقتنيات، ويحسنها ويزيد فيها، أو يطورها .

وهناك فرق بين من يحرس الدين ومن يحفظه. فحراسة الدين عدم السماح لأحد بالإساءة إليه وإلى رموزه، أمّا حفظه فتنميته وتطوير علومه، من فقه وأصول وتفسير وحديث. وهذا فرض كفاية تأثم الأمة كلها إن لم يقم به منها أحد. وهو فرض عين على كل قادر، كل في ميدانه. فإذا كان الدين مستهدفًا، فهو من الجهاد.

الناس أنماط، اقتصاديّ وعلميّ وفنيّ وعسكريّ وقياديّ. والنمط من صنع الأسرة ولذلك فهو أدنى إلى أن يكون وراثيًّا، وممّا ذكره يوسف عن نفسه، بين يدي طلبه تولّي أمر خزائن الأرض، الحفظ والعلم. ولبني إسرائيل باع في شؤون المال يغيب أصله، ولكنّه يظهر في فروعهم، ويستغلظ في هؤلاء الذين يلتحفون عباءتهم، ابتداءً بقوم موسى، وانتهاءً بيهود العالم اليوم. يضاف إلى هذا أن يوسف، الذي وصفه رسول الله بابن الأكرمين، قد ورث النمط المنطقيّ، المتّصف بالحكمة والرشد، من جدّه إبراهيم، الذي أوتيه فتًى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ ٥١: الأنبياء. **ونستطيع، بما نؤانسه من دور للأسرة في تحديد نمط الشخصيّة، فهم الحديث الشريف: «تخيّروا لنطفكم فإن العرق دسّاس»[١]. أي اختر لابنك أمًّا وفق ما تريده له من مستقبل.**

نكتشف من طبيعة الأحداث أن الملك كان حاكمًا اسميًّا، وكانت مقاليد الأمور في يد موظّف أوّل بمثابة رئيس الوزراء، يعيّنه الملك، وفي توراة اليهود أن هذا المنصب أُسند إلى يوسف، فأصبح الحاكم الفعليّ لمصر، وهذا زعم توراتيّ لا يخفى القصد منه[٢]، وليس ثمّة ما يحملنا على الأخذ به، ولاسيّما أن تاريخ مصر معروف وموثّق، وقد خلا تمامًا من ذكر يوسف أو شخصيّة يمكن أن تلتبس بشخصيّته، وإن كشفت دراسة الآثار عن كثير من الأحداث والوقائع التي عاصرها[٣]، وهذا لا يستقيم لو كان ليوسف المكانة التي تزعمها التوراة، والتي جاء ذكرها فيما زعمت أنّه رسالته إلى أبيه يستدعيه إلى مصر «جعلني الله سيّدًا لجميع المصريّين»[٤]. والأرجح أنّه كانت له امتيازات خاصّة حتى خارج نطاق وزارته،

(١) سنن ابن ماجه: ١٩٦٨. وقد عمر بن الخطاب ﷺ ما وراء الحديث العظيم، وطبّقه عمليًا حين سمع تلك الصبية تقول لأمها: إذا كان عمر لا يرانا، فإن رب عمر يرانا. فزوجها ابنه عاصمًا، فولدت له عمر ابن عبد العزيز، الحاكم الوحيد في تاريخ البشرية الذي لم يكن ذات يوم في دولته من يستحقّ الصدقة.

(٢) انظر فرية أرض الميعاد في قصة موسى عليه السلام.

(٣) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص ٢٢٣ و ٢٢٤.

(٤) سفر التكوين: ٤٥.

ومعروف أن لكلّ وزير بعضًا من نفوذ على سائر أجهزة الدولة، ولو لم تشملها مهامّه.

لقد هيّأ الله يوسف لموضع السلطة والمسؤوليّة، منذ أن أُلقي في غَيابة الجبّ، إلى أن خرج من السجن... سبعَ عشرة سنة من الإعداد الشاقّ أثبت إثْرَها بجدارة أنّه حفيظ عليم، وصار له ذلك النفوذ الكبير في مملكة هو فيها رقيق مملوك.

ويجوز في الإسلام طلب الحكم، وليس في ذلك ما يمسّ الزهد، وقد كان الخلفاء الراشدون أكثر الناس ورعًا، وأزهدهم في متاع الدنيا. فالزهد أن تجمع الدنيا بقوّة حتى تضعها بيدك، ثم لا تغويك ولا تغريك. ومن دعاء سيّدنا سُليمان ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ ٣٥: ص. وقد رأينا يوسف يطلب الوزارة من الملك، ومعروف طلب الأربعة الراشدين ﷺ للخلافة.

ذلك أن طلب الحكم في الإسلام، والدين عند الله الإسلام، ليس طلبًا لمكسب شخصيّ دنيويّ، بل طلبًا لإعلاء كلمة الله، وإقرار الحقّ في الأرض، وخدمة الأمّة بما أقدر الله عليه طالب الحكم، وهو واجبُ النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين. وعلى صاحب الكفاءة الذي يستطيع أن يلي منصبًا أن يطلبه بقوّة، ويأثم إن تخلّى عنه طوعًا لمن هو أدنى كفاءة منه، بل إن عليه أن يجهد في إبراز قدرته على الاضطلاع بمهامّه في سبيل النفع العامّ. ومن وراء ذلك، بل أصل ذلك كلّه، إحقاق الحقّ في الأرض. أمّا نهي النبيّ ﷺ أبا ذرّ عن طلب الإمارة فهو مقيّد بما صرّح به رسول الله ﷺ: «يا أبا ذرّ، إنّك ضعيف، وإنّها أمانة، وإنّها يوم القيامة خزي وندامة إلاّ من أخذها بحقّها، وأدّى الذي عليه فيها»[1].

والله تعالى أنشأنا في الأرض، واستعمرنا فيها. فمهمّتنا إعمارها، بكلّ ما فيه المصلحة العامّة للعباد، وبهذه الروح الشموليّة المخلصة، والمدركة للأصول الأمّ التي يقوم عليها الإسلام، والملأى بالشجاعة والإقدام، أخرج عمر بن الخطاب أهل الصُفّة من المسجد النبويّ.

---

(١) صحيح مسلم: ١٨٢٥.

والمُلك، كلّ الملك، نعمة، ولذلك جعله ربّ العالمين جزاءً ليوسف، وأجرًا على إحسانه وصبره وذكره وشكره، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ ٥٦: يوسف. فقد مكّن الله ليوسف في الأرض، فكان ذلك أجرًا كريمًا على إحسانه، ورحمة ممّا يصيب به من يشاء من عباده، وبوّأه من أرض تلك المملكة حيث يشاء،. وفي التعقيب على ذلك جاء في الذكر الحكيم ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ ٥٦ و ٥٧: يوسف، فهناك عبادات تؤجَر عليها في الدنيا قبل الآخرة، كما يذوق الكافر من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر.

وقيل إنّه كان ليوسف قصر في ضُمياط، وآخر في الشرقيّة، وثالث في مَمفِيس، وهو من التبويء في الأرض، ولكنّ يوسف لم يتّخذ هذه المقرّات بهدف السكنى، بل لفرض هيبة الحكم وتكريسها. وهيبة الحاكم بعض من هيبة الحكم، ولا بدّ للحكم من إثبات هيبته. ويتمّ التعويل على هيبة الحاكم في كثير من جوانب النظام الإداريّ الإسلاميّ.

إذا كانت الدنيا والآخرة لا تجتمعان في قلب المسلم، فإنهما تجتمعان في حياته. ومن أسباب عزوف الناس عن الطرح الدينيّ النفخ في الحالات والمواقف الفرديّة، أو الاجتهاديّة الفائقة. فهم يُبرزون من عمرَ ﷺ أن له قميصًا مرقّعًا، ليس له غيره. ولئن كان هذا من عمر، فقد كانت له تجارة وسوق، وشغل أعلى منصب في أكبر دول العالم في عصره.

يوسف العزيز وإخوته

اللقاء الأوّل

صار يوسف ﷺ عزيزًا في مرحلة الخصب التي أشارت إليها رؤيا الملك، فساس المملكة بالحكمة والعدل والحنكة والرحمة، وأحسن إدّخار المحاصيل. وقيل إن السنون العجاف هذه لم تَطَل مصر نفسها، لوجود نهر النيل، ولكنّها طالت فلسطين والشام، وكانتا تحت الحكم المصريّ. وقد كانت المناطق الخصبة في دلتا النيل قبلة

لكلّ الجياع في المنطقة في فترات المحل، وكانت القوافل التجاريّة في حركة ناشطة بينها وبين بلاد الشام وفلسطين[1].

ونستطيع رصد حركة التجارة بين مصر وجيرانها من سير الأحداث في قصّة يوسف عليه السلام، فقد ذُكرت السيّارة التي أخرجته من الجبّ، وكانت متّجهة إلى مصر عن طريق فلسطين، كما عرفنا أن ثمّة قوافل من بلاد الشام وفلسطين، كتلك التي جاء فيها إخوته، وعمّا قليل سوف نسمعهم يذكرون العير التي أقبلوا فيها، وهي القافلة التجاريّة... فالقوافل ذاهبة آيبة من مصر وإليها.

لقد أدّت كفاءة يوسف العزيز في الإدارة وتصريف الأمور إلى حصوله على كثير من الامتيازات، وطار ذكره في المنطقة والمناطق المحيطة بها. فلمّا جاءت السنون العجاف كان يوسف قد أحسن الاحتياط للأمر، مستفيدًا من الرؤيا التي كانت إنذارًا عاد على المملكة بالخير العميم. وفي سنوات المجاعة كان العزيز الحصيف حديث الناس، لعدله وتواضعه وحنكته، ففي الروايات أنّه لم يكن يعطي الممتار أكثر من حمل بعير واحد، ونستنتج من النص القرآنيّ أنّه كان يشرف على عمليّات البيع بنفسه، ويراقب غلمانه وهم يعملون، وكان يقايض في الزمان الصعب بأيّة بضاعة يأتي بها المشتري، لا يشترط الذهب ولا الفضة للتيسير على الناس.

وبلغ صيت عزيز مصر أرض كنعان حيث أبوه وإخوته، وكان آل يعقوب قد أصابهم ما يصيب البيت الكريم في المجاعات، فتكاثر عليهم المُعسِرون المعتفون حتى أملقوا أو كادوا. فلمّا سمعوا بعزيز مصر الذي يوفّي الكيل، قرّر أبناء يعقوب الخروج إليه ليمتاروا لأهلهم. وكان هذا أوّل لقاء لهم بيوسف الذي خرج من الجبّ إلى العبوديّة، فإلى قصر العزيز، فإلى السجن، فإلى الوزارة، وكانت له دائرة نفوذ واسعة، وصيت طبّق الآفاق من حوله.

جاء أبناء يعقوب إلى مصر يمتارون إلاّ بِنيامين شقيق يوسف، فقد لبث مع أبيه الشيخ الحزين. فلمّا دخلوا على يوسف عرفهم من سَمتهم ولباسهم وكلامهم وتَناديهم

---

(١) والأرجح أن المملكة التي تدور فيها أحداث قصة يوسف عليه السلام كانت في واحدة من تلك المناطق الخصبة في دلتا النيل.

بأسمائهم... فقد كان آخر عهده بهم على حافة الجبّ رجالاً كما هم اليوم، أمّا هو فقد كان يومذاك طفلاً، ومن هنا فقد عرفهم وهم له منكرون[1].

وكان يوسف حفيًا بمُمتاري أرض كَنعان، يُباسطهم ويُجالسهم، وهو في ذلك يتسقّط الفرص لسؤالهم عن أهلهم، حتى عرف من أخبارهم، وأحوالهم ما أراد. ولأن الله غالب على أمره لم يكتشف أحد منهم أن هذا العزيز ذا الصيت الذائع، والذي يتلطّف بهم، ويُقرّبهم دون غيرهم أخوهم يوسف. ولم يفاتحهم يوسف بالأمر، فهو لا يثق بهم، ويخشى أن يحاولوا إيذاءه، أو أن يثيروا من حوله المشاكل.

ووعد يوسف إخوته وعدًا مغريًا إن هم أتوه بأخ لهم من أبيهم: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ٥٩: يوسف، وهدّدهم بسحب كلّ ما أكرمهم به إن لم يأتوه بهذا الأخ، بل زاد على ذلك أن حرّم عليهم دخول المملكة ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ ٦٠: يوسف، وهو تهديد لا يُستهان به في ذلك الظرف، من حيث أنّه يعني انقطاعَ الرزق والقوت. وقد آتى التهديد أُكله، فوعدوه خيرًا ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ٦١: يوسف.

ولا يبرّر النصّ القرآنيّ طلب يوسف هذا، ولكنّ الأجواء التي تمّ فيها، وما تلاه من أحداث، يبيّن ذلك. فيوسف العزيز، وقد وجد طريقًا إلى أبيه وأخيه[2]، لا يستطيع الاعتماد على إخوته في جمع شمله بهما، فهم من ألقوه في الجبّ غلامًا ليفرّقوا بينه وبين أبيه. وهدى الله يوسف إلى طلب إحضار أخيه بنيامين ليعرف منه حقيقة الوضع، وكان يعرف أنّ هؤلاء الآن منه في موضع المطيع الممتثل، ولا يملكون أن يسألوه عن سبب طلبه ذاك.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ

---

(١) عندنا نكر وأنكر. ونكر بالقلب. "فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم" ٧٠: هود، أي بقلبه ولم يتكلم، أما أنكر فبالجوارح كاللسان والعين.

(٢) مع ذلك يظلّ في الأمر غموض، فمن المنطقيّ أن يسعى يوسف إلى أبيه من قبل تلك المصادفة، فهو يعرف مكانه لأنه كان مميّزًا عندما حدث ما حدث، وهو منذ حين يملك زمام أمره. فهل كان يوسف يخشى أن يفسد عليه إخوته أمره إن هم عرفوا طريقه قبل أن يملك ما يمنعه منهم؟

﴿يَرْجِعُونَ﴾ ٦٢: يوسف[1].

وقد يبدو ذلك تصرُّفًا من يوسف بالأموال العامّة، وهذا ما يسمّى بالغَلول ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ١٦١: آل عمران. ولكنّ هذا الظنّ لا يجوز على نبيّ، والأقرب إلى ما عهدناه في يوسف، من الأمانة والحفظ والإحسان، أن الأمر كان من مفرَزات حالة طارئة، وهي تلك المجاعة الكبرى، وفي مثل هذه الحالة يُعتمَد ما يُسمّى بقانون الطوارئ، حيث يتمّ تصريف الأمور وفق ما يراه القائمون عليها. وكان يوسف قائمًا على ميرة المملكة، وفي الروايات أنّه قد جعل للأشدّ عِوَزًا من الناس تسهيلات، فكان يُقايض في الزمان الصعب بكلّ بضاعة يأتي بها المُمتارون، لا يشترط الذهب ولا الفضّة، للتيسير على الناس. ولعلّه قد جعل للأشدّ عِوَزًا منهم صدقات. وفي الكتاب العزيز أن إخوته كانوا من هؤلاء ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ٨٨: يوسف.

اللقاء الثاني

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ٦٣: يوسف. وكانت الحفاوة غير العاديّة التي لقيها أبناؤه من عزيز مصر، وما تواتر على سمع يعقوب وقلبه من إشارات خفيّة فيما نقلوه عنه من حديث، ثم طلبُه إحضار أخ لهم من أبيهم، قد لفتت يعقوب النبيّ، وأثارت في وجدانه الذكريات والفكَر، كما أراد يوسف، ولكنّه لمرارة تجربته الأولى التي أسفرت عن فَقد يوسف لم يملك إلاّ أن قال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ ٦٤: يوسف؟

وتفقّد أبناء يعقوب رحالهم، ففوجئوا ببضاعتهم التي أخذوها ليقايضوا بها الطعام قد رُدَّت إليهم، فأطمعهم ذلك، وعادوا يحاولون إقناع أبيهم بالسماح لبنيامين أن يصحبهم في الرحلة المقبلة، فقد توفّرت لطلبهم الآن أسباب وجيهة ملموسة. ولمزيد من طمأنة أبيهم راحوا يبيّنون له ألاّ شيء يحملهم على ما يظنّ، فلا مطلب لهم بعد هذا الذي حصل ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا

(١) وأن تنقلب إلى أهلك يعني أن ترجع إليهم بلهفة وسرعة لخبر هامّ، مفرح أو محزن، أي لخير أو لشر.

وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ٦٥: يوسف.

تجمّعت علامات الاستفهام الموحية حول هذا العزيز حتى غدا أقرب إلى اليقين أن في الأمر سرًّا. وبحسّ النبيّ، وبعلمه لما علّمه الله أدرك يعقوب أن من الحكمة أن يرسل بنيامين مع إخوته. وكانت تلك الرسالة الخفيّة النهائيّة التي أراد يوسف أن يبعث بها إلى أبيه، فاستوثق منهم أغلظ استيثاق... ليعودُنّ ببنيامين إلاّ أن يموتوا، أو يُغلَبوا على أمرهم غلَبًا يُعذَرون معه.

لقد ظلّ هذا الميثاق الغليظ هاجس يعقوب منذ أن فقد يوسف. فقد كان يحزّ في نفسه بشكل مزلزل أنّه فرّط بفتاه حين أرسله مع إخوته، وهو يعرف موقفهم منه، دون أن يأخذ منهم ميثاقًا غليظًا أن يحموه ويعيدوه إليه. وهو الآن يريد تعديل ذلك الموقف بأخذ أغلظ المواثيق منهم ليقضي تلك الحاجة المؤرّقة في نفسه، ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾ ٦٦: يوسف. ففعلوا.

وجعل يعقوب يوصيهم: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ﴾ ٦٧: يوسف، فلعلّه خشي عليهم الحسد، لعددهم، أو لحُظوتهم التي باتت معروفة عند العزيز، أو أن يتوجّس المصريّون من دخولهم عليهم عصبةً كأنّما يستقوي بعضهم ببعض، ممّا قد يعرّضهم للمضايقات والعرقلة. وقد كثرت الأقوال في وَصاة يعقوب تلك، ولاسيّما في شطرها الأخير ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ٦٧: يوسف. ولعلّه أراد تذكيرهم بأن وَصاته ليست أكثر من اجتهاد واحتياط، وأن المعوّل عليه في حفظهم، وتمكّنهم من إنفاذ ميثاقهم، إنّما هو مبلغ تقواهم الله الذي له الحكم في كلّ أمر. وأنّه متوكّل عليه، فليتوكّلوا عليه إن أرادوا أن يحصدوا غنائم المتوكّلين.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ ٦٨: يوسف... لقد امتثل إخوة يوسف بظهر الغيب لما أمرهم به أبوهم، وكان معنى ذلك تقوى الله التي لا تغني عنها حيطة ولا حذر. وهكذا قُضيت الحاجة التي كانت في نفس يعقوب، وهي أن يتوب أبناؤه، وينصلح حالهم بحيث يحفظون الله في الغيب، ولاسيّما في أخوَيهم.

واستقبل يوسف إخوته بحفاوة، ثم احتال للانفراد ببنيامين، وأسرّ إليه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ٦٩: يوسف. وأطلعه على عزمه أن يبقيَه عنده. ويستدعي المقام أن يكون بنيامين قد أخبر يوسف أن إخوته قد واثقوا أباهم على أن يعودوا به إلاّ أن يُحاط بهم. فدبّر يوسف لذلك بالاتّفاق وبِنيامين.

وعندما حان وقت عودة أبناء يعقوب بالبضاعة إلى ديارهم، دسّ يوسف صُواع الملك في رحل أخيه بِنيامين، وبعد أن ابتعدوا عن مجمع الناس ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ ٧٠: يوسف [١]. وعاد رجال يوسف بإخوته إلى مجلسه، فراحوا يُقسمون ما هم بسارقين ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ ٧٣: يوسف. لاحظ دقة القرآن في القسم بالتاء، لإثبات معنى التعجّب: فهم يريدون أن يقولوا: عجيب أن تتّهمونا بالسرقة، ونحن أولاد نبيّ، وقد رددنا إليكم بضاعتكم من قبل؟

فسألهم يوسف: ما جزاء السارق في شريعتكم؟

قالوا: يؤخذ رقيقًا عامًا.

وكان هذا من يوسف من قبيل الحيلة الشرعيّة، وهي أن تحتال لكي تحقّق أمرًا مشروعًا.

ويلاحظ أن إخوة يوسف إلى هذه اللحظة مازالوا يحملون عليه من الحقد ما جعلهم يرمونه بالسرقة كما سوف نرى بعد قليل... إنّه داء قد أزمن، ولا بأس بالكيّ عسى أن يتمّ البرء منه. وفي حديث الذي لا ينطق عن الهوى: «كلّ الذنوب يؤخّر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلاّ عقوق الوالدين، فإن الله يعجّله»[٢].

وإذا كانت سعة النبيّ جديرة بأن تستلّ سخيمة قلبه، فلا يمكنها أن تنتزع ذاكرته. ولعلّ يوسف الصدّيق لم ير في تلك الوجوه المجتمعة غير تلك الذئاب الفاغرة الأفواه، وقد تجمّعت على حافة ذلك الجبّ، في غسق ذلك الليل، ووحشة ذلك الخلاء القاتلة، وهو يستغيثهم، طفلاً لا حول له ولا قوّة، بل لا ذنب له، ثم ذلك الاغتراب والذلّ في الرقّ، وتلك التجارب الهاصرة المزلزلة، التي ألقت به في نهاية

---

(١) وأذّن: نادى بصوت مرتفع، وكرر النداء.

(٢) الترغيب والترهيب: ٣٧٨٧.

المطاف في السجن بضع سنين.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ ٧٦: يوسف، وذلك للتمويه، ثم استخرج الصُواع المفقود من وعاء أخيه [١]، وكان ذلك بتدبير من الله الذي ألهم يوسف هذه الحيلة لكي يحتفظ بأخيه ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ٧٦: يوسف.

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ ٧٧: يوسف[٢]. ولعلّها شتيمة أو فرية افتروها على يوسف الميت في نظرهم، لكي يتنصّلوا من التهمة، ويلصقوها بالفريق المناوئ دائمًا: يوسف وأخيه، حيث أصل المشكلة ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ ٨: يوسف، وقد كان التخلّص من يوسف كفيلاً بحلّها، لولا أن أباهم نصّب لهم يوسف آخر في شخص بِنيامين، وكان يذكره دائمًا، حتى برموا به وبذكره إيّاه.

ثم كانت القشّة التي قصمت ظهر البعير، فهاهو ذا بِنيامين يسرق، فيُحْدِق بهم خطر فقدان الحظوة عند العزيز من جرّاء فَعلته. فما الذي يثنيهم عن جمع الأدلّة، ولو اقتسارًا، لتثبيت إدانته، ودفع الضرر عن أنفسهم. وليس ثمّة ما هو أسهل من إلصاق تهمة بميت، لا يعرف أحد عن سيرته شيئًا، إذا كانت هذه التهمة تدفع عنهم الضرر.

وملأت المرارة قلب يوسف الصدّيق، ولعلّه كان يأمل إن هو أثار ذكرى يوسف أن يرى من هؤلاء لينًا أو عطفًا أو ندمًا، ولكن هاهم يتبعونه إلى القبر الذي يتخيّلون، ليلوّثوا ذكراه ظلمًا، فما زالت قلوبهم ملأى بالحقد والكراهية ...

وكلّ كراهية يمكن أن تنطفئ إلاّ كراهية الحاسد، فإنّها تزداد يومًا بعد يوم حتى بعد الموت. وكلّ ذي نعمة محسود، وقد أُمرنا أن نستعيذ بالله من الشرور التي يجلبها حسد الحاسدين، ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ٥: الفلق، ونستعينه عليها. وللاستعانة تلك سبلها، ومنها أن نسدّ الذرائع على أهل الحسد، فلا نسمح لهم أن يحسدوا.

---

(١) الصواع هو وعاء معدنيّ نفيس للشرب. ولعلّه هنا المكيال الرسمي المصرح باستعماله من قبل الدولة لضبط كمية الحبوب المبيعة، فهو أدنى إلى أن يكون عهدة للدولة. ولذا قال: نفقد صواع الملك. ومن هنا كانت قيمته. وقيل غير ذلك.

(٢) قيل إنها إشارة إلى تهمة سرقة لفقتها إحدى عمات يوسف له لتحتفظ به. وهو جزاء السارق في شرعهم.

وكتمَ يوسف الصدّيق، الذي آتاه الله حكمًا وعلمًا خواطره التي أثارها كلام إخوته، ولو أبداها لهم لقال: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ٧٧: يوسف.

المحنة في آل يعقوب

بلغت سلسلة المحن في آل يعقوب ذروتها عندما أُخذ بِنيامين رقيقًا لاتّهامه بالسرقة، وقد ثبتت عليه بالعيان والمشاهدة، ولم ينكرها. وشعر إخوته بمدى الحرج الذي سوف يقعون فيه لدى عودتهم إلى أبيهم بدونه، وقد أخذ منهم ميثاقًا غليظًا، ووجدوا أنفسهم هذه المرّة عاجزين عن أن يبرّئوا أنفسهم، أويبرّروا فَعلتهم، فراحوا يجهدون في محاولة تجنُّب الموقف، ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٧٨: يوسف... فقد هان عليهم ذلك أمام موقفهم من أبيهم. ولكنّ العزيز حسم الأمر، وكان جوابه قاطعًا مسكتًا ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ ٧٩: يوسف. وكأنّه يقول من وراء الكلمات: وهذا حكمكم وليس حكمنا... أنتم الذين قلتم بأن من يسرق يكن رقيقًا عند المسروق منه عامًا كاملاً.

في هذه الآية حكم فقهيّ أقرّه الإسلام، وهو: لا تجوز الشفاعة في الحدود ...﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ ٨٥: النساء، **وفيها حكمان شرعيّان، أحدهما حسن معاملة المتّهم مهما بلغت تهمته، فلا يجوز إهانته ولا معايرته ولا التشنيع عليه، ولهذا قال: ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾** ٧٩: يوسف . **ولم يقل إلاّ من سرقَنا. ويُسنّ للشهود إذا شهدوا على سرقة ألاّ يقولوا رأينا فلانًا يسرق، لكي لا يقام عليه الحدّ، بل يقولوا رأيناه يأخذ المتاع. والحكم الثاني أنّه لا يؤخذ أحد بجرم غيره، فإنّه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾** ١٦٤: الأنعام.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾ ٨٠: يوسف، أي فلمّا يئسوا من جدوى توسّلهم، انتبذوا من القوم جانبًا يتشاورون، وهم بين مكذّب ومصدّق وشاكّ في أمر تلك السرقة الغريبة. ووجدوا أنفسهم في مأزق حقيقيّ، فلا هم قادرون على العودة إلى أبيهم دون بنيامين لمَوثقهم، ولاهم قادرون على حمل العزيز على التنازل عن حقّه في استرقاق الفتى، ولا بدّ من إسراعهم إلى الديار بالميرة لحاجة أهلهم إليها. فقال كبيرهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ ٨٠: يوسف[1]. وأشار على إخوته بالعودة إلى الديار من دونه، والإدلاء بالحقيقة إلى أبيهم.

رجع تسعة من أبناء يعقوب تعقد ألسنتهم الأحداث الأقرب إلى الخيال، ولم يجدوا ما يقولونه لأبيهم المفجوع سوى: ﴿يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾ ٨١: يوسف. وما أسرع ما تتبدّل لهجة بني إسرائيل تبعًا لمصالحهم، فعندما كانوا يراودون أباهم عن بنيامين ليصحبوه إلى مصر راحوا يُظهرون له الودّ، فيدعونه بأخيهم ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ ٦٣: يوسف. أمّا الآن فلا حاجة لهم بإظهار الودّ، فهم يخاطبون أباهم بمنتهى الجلافة: ﴿يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ ٨١: يوسف... هكذا ألقوا التهمة بملء أفواههم، ونفضوا أيديهم كمن لا يعنيه إلاّ تبرئة نفسه. فالذي سرق هو ابن ذلك الشيخ الذي يكاد الحزن يقضي عليه، أمّا هم فمجرّد ناقلين للخبر.

ولم يألُ التسعة الأشدّاء جَهدًا في توكيد براءتهم ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ٨١: يوسف[2]، هذا ما علمناه، ولم نكن نقرأ الغيب عندما أعطيناك موثقنا. ثم ألم تقل: إلاّ أن يُحاط بكم؟ فها قد أُحيط بنا، ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ ٨٢: يوسف.

---

(١) وهذا أول اعتراف صريح من إخوة يوسف بأنهم أجرموا في حقه.

(٢) لا تكون الشهادة على الظن.

obeikandi.com

ويثير استشهاد إخوة يوسف بأهل تلك القرية، موضوع شهادة غير المسلم على المسلم، وهي غير جائزة. والتاريخ القديم والحديث ملآن بالأمثلة التي تبرّر هذا التشريع على كلّ الصعد، حيث لم يكن غير المسلمين عدولاً في شهادتهم على المسلمين. وقد كان فقهاء المسلمين على جانب عظيم من الدقّة حين فرّقوا بين الشهادة والبيّنة. فالشهادة بقول: أشهد أنّي رأيت، أمّا البيّنة، فمن قرائن الإثبات، ويؤخذ بها من غير المسلم.

ولكن أنّى ليعقوب أن يصدّق هؤلاء وقد كذبوا من قبل، وهو ذو علم لما علّمه الله! ولذلك قال لهم ما قاله من قبل عندما جاؤوه عِشاء يبكون، وبين أيديهم قميص يوسف الملطّخ بدم كذِب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ١٨: يوسف، وأضاف ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ ٨٣: يوسف. ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ٨٤: يوسف. ونقل السيوطيّ في تفسيره قول رسول الله ﷺ: «لم يُعط أحد من الأمم الاسترجاع غير هذه الأمّة. أما سمعت قول يعقوب: يا أسفى على يوسف؟»[١].

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ ١٥٦ و ١٥٧: البقرة. وقال عمر بن الخطاب ؓ: «نعم العدلان ونعم العلاوة» أمّا العدلان فقوله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ ١٥٧: البقرة، وأمّا العلاوة فقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ ١٥٧: البقرة[٢]. فبالاسترجاع يصل الله العباد، وينزّل الرحمة، ويأجر أجرًا عظيمًا، بل كلّما تذكّر العبد مصيبته فاسترجع أوتي الأجر نفسه.

---

(١) الدر المنثور ١: ١٥٦.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجنائز ٤١.

والمصيبة في الإسلام مصدر من مصادر الأجر المستمرّ، ذلك أن العبد معرّض للمصائب كبيرها وصغيرها. قال النبيّ ﷺ: «لا يصيب المرء المؤمن من نصب ولا وصب ولا همّ ولا حزن، ولا غمّ ولا أذًى حتى الشوكة يشاكها إلاّ كفّر الله عنه بها خطاياه»[1]... إنّه العدل... خلق الضعف، فعدّل بالرحمة الميزان... فما الجنّة وما النار من هذه السعة وهذه الأمداء؟! وما أحوج المسلمين إلى تمثّل هذا!

ولكن كيف يبلغ الحزن بيعقوب النبيّ أن تبيضّ عيناه؟

لقد كان سيّدنا يعقوب يتّخذ الألم عبادة يستمطر بها رحمة الله، ولهذا قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ١٨: يوسف. فهو قد تحمّل الألم، وصبر على مصابه صبرًا جميلاً. فإذا حمد العبدُ وشكر مع الألم والحزن كان ذلك من أسباب الرحمة.

إن علينا أن نفرّق بين الحزن القلبيّ، وبين الجزع والصراخ والنحيب، ولم ينهَ رسول الله عن البكاء، بل نهى عن النياحة واللطم وشقّ الجيوب[2]. وقد ابيضّت عينا يعقوب من الحزن وهو يكظم مظاهره المنهيّ عنها، ويحتسب، ولكنّه القلب البشريّ... ينوء بالحمل، فيقصّر عن نيّة المؤمن وشوقه، ويخونه فيما لا يخرجه عن حدود العبوديّة لله الحقّ.

وقد حزن النبيّ لموت ابنه إبراهيم، وبكاه، وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلاّ ما يرضي ربّنا. وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[3]، كما بكى إحدى بناته، وحفيداً له. وفي الحديث: «إن هذا القرآن نزل بحزن»[4].

---

(١) صحيح ابن حبّان ٢٩٠٥.
(٢) صحيح البخاري: ١٢٣٢.
(٣) صحيح البخاري: ١٢٤١.
(٤) سنن ابن ماجه ١٣٣٧.

obeikandl.com

وقد ارتبط الحزن بأكثر من جانب من جوانب حياته ﷺ، فدُعي العام الذي فقد فيه عمّه والسيّدة خديجة بعام الحزن، وقيل: كان سمته الحزن.

ومن الحزن ما يرفع منزلة المؤمن عند ربّه «إن الرجل لتكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل، فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إيّاها»(١)، ومنه ما يكفّر الذنوب «أنّ من الذنوب ذنوبًا لا يكفّرها إلّا الهمّ في طلب المعيشة»(٢). فألم المؤمن عبادة، على ألاّ يصحبه اعتراض على مشيئة الله، بينما ألم الكافر عقوبة معجّلة.

لعلّ سيّدنا يعقوب كان يرهب جانب أولاده، ويتجنّب إثارتهم (٣). وفي النصّ القرآنيّ أكثر من دليل على ذلك، منها ما نلاحظه في خطابه إيّاهم، فهو رغم كلّ ما فعلوه لم يؤنّبهم أو يعنف عليهم، ولو من قبيل محاولة التقويم التي تكاد تكون طبعًا في الآباء. وقصارى ما قاله لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ ٨٣: يوسف، وقصارى ما فعله أنه ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ٨٤: يوسف.

وعندما ابيضّت عيناه من الحزن، ولم يطيّبوا نفسه بكلمة واحدة، لم يزد على أن قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٨٦: يوسف، ثم أضاف بتودّد وتلطّف ونصح، ودون زجر أو لوم: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ٨٧: يوسف.

---

(١) صحيح ابن حبان: ٢٩٠٨ .

(٢) مجمّع الزوائد ٢: ٢٩١ .

(٣) وظاهرة خوف الآباء الشيوخ من أبنائهم ليست غريبة، ولا نادرة في واقع الحياة، ولكنها في تفاسير قصة يوسف عليه السلام مسكوت عنها.

وعندما طغت عليه الفرحة بريح يوسف لم يطلق لنفسه العنان، بل قال على تخوّف أن يُزجَر أو يؤذى: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ ٩٤: يوسف. ومع ذلك جاءه الردّ العنيف كما كان يأتيه من قبل، وذلك بعد أن حصحص الحقّ، وانكشف تآمر بنيه وكذبهم، ورأوا ما آثر به الله يوسف عليهم: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ ٩٥: يوسف.

لقد كان أبناء يعقوب عليه السلام على شدّة وقسوة، وكانت فيهم خشونة وغلظة، نطقت بذلك مواقفهم من أبيهم وأخوَيهم، وخطابهم الخشن الجافي لأبيهم في محَنه المتوالية التي كانوا وراءها، وليس أدلّ على ذلك من قولهم له وقد عادوا بدون بنيامين، ممّا فجّر جرحه القديم: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ ٨١: يوسف[1]، وقولهم بعد أن فجعوه بأحب اثنين إلى قلبه: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ ٨٥: يوسف. وليس هذا بالخطاب الذي يليق برجال أشدّاء لأبيهم الشيخ المفجّع على أيديهم. وقد رأيناهم من قبل ذلك يقولون: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ٨: يوسف، و﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ ١٢: يوسف. وهو كلام ينطوي على استنكار وتهكّم، ويفتقر إلى الاحترام والتوقير. كما رأيناهم يستهينون بأبيهم أمام عزيز مصر ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ٦١: يوسف، وفي قولهم هذا وعد بالتآمر على أبيهم وخداعه، دون اعتبار لما يجلبه ذلك له من ضرر وأذى.

اللقاء الحاسم

كانت حياة يعقوب عليه السلام، كما تقدِّمها إلينا الروايات، سلسلة من المحن، فمن هربه إلى العراق فارًّا من أخيه عيسو الذي أقسم على قتله لتآمره وأمّه عليه، إلى بقائه مشرّدًا ثلاثين عامًا، إلى موت زوجته الأثيرة راحيل أمّ يوسف وبِنيامين، وما تلا ذلك من فقدانه يوسف، ثم بِنيامين، وقد كان سلواه بعد فجيعته بأخيه، ثم اتّهام بِنيامين بالسرقة، واسترقاقه عامًا في مصر، وتخلّف ابنه الأكبر رابين هناك حرجًا أن يرى أباه بعد الذي كان... هكذا فقد يعقوب ثلاثة من بنيه، وبقي وسط تسعة جفاة غلاظ خشنين، ولا يكادون يحسّون بآلام روحه، فابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم.

---

(١) عبارة قالها كبيرهم، وهو أمثلهم طريقة.

ولم يكن يعقوب النبيّ ليقابل أبناءه بمثل ما في قلوبهم من جفوة، فقد غلبته رقّة الأب، ورأفة النبيّ، فقال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ٨٧: يوسف[١]. لقد نطق يعقوب بما يهجس في قلبه، فهو يجد ريح يوسف في تضاعيف الأحداث الغريبة التي بدت له كأنّها تسعى إلى قدَر يكاد الغيب ينبلج عنه. ويدفع أبناءه إلى الذهاب إلى مصر عسى أن يجدوا ما يحقّق هواجسه وتشوّفاته.

وممّا لا شكّ فيه أن بوارق الأمل التي كانت تنتعش في قلب يعقوب، مع كلّ مرحلة من الأحداث، قد انعكس شعاع منها، في ذوات أبنائه، ومضة بعيدة مطفأة البريق، تقاطعت فيها صورة يوسف بصورة ذلك العزيز الغريب الأطوار والتصرّفات، ولكن بصمت لم يصارح به نفسَه منهم أحد. وقد أوصى يعقوب أبناءه ألاّ ييأسوا من رَوح الله، فإن استحضار الله في الذات قوّة ودافع، ولا يترك ذلك مؤمن.

وعاد أبناء يعقوب إلى مصر، واجتمعوا بأخيهم رابين، وعكفوا على تدارس السبل لاسترجاع بِنيامين والحصول على الميرة. ومارسوا كلّ أشكال الالتماس والرشوة والمداورة حتى استطاعوا الوصول إلى العزيز. فهم لم يتحسّسوا من يوسف وأخيه كما أمرهم أبوهم، بل راحوا يجرّبون كلّ ما يندرج تحت التجسّس من فنون للوصول إلى غاياتهم[٢]. وسوف نرى، في قصّة سيّدنا موسى، أن بني إسرائيل منذ قولة أبيهم تلك صاروا أساطين التجسّس في العالم إلى يوم القيامة، فما انتصروا في مواجهة مع عدوّ لهم إلاّ به.

وأفضت تلك المساعي بإخوة يوسف إلى العزيز وقد عزموا على استعطافه، ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ

---

(١) تشير كلمة الكفر في القرآن الكريم في معظم الأحيان إلى كفر النعمة "إن الإنسان لظلوم كفّار" ٣٤: إبراهيم. أما الكافرون بالله، أي الملحدون، فقلة قليلة، ذلك أن الإيمان بالله فطرة، والذين لا يؤمنون هم في الأصل باحثون عن الله أخطؤوا الطريق. وإرشاد الناس إلى الطريق الصحيحة مهمة الأنبياء.

(٢) التحسس هو الحركة الخفية لاختبار الإيجابيات، ويعتمد بنسبة كبيرة على ما نسميه بالحاسة السادسة. وهي منحة من الله سبحانه وتعالى للأنبياء والصديقين، والصالحين من أصحاب القلوب الصافية، والعلماء العارفين، والمتوسمين، والتوسم من العطاء الإلهيّ. وتدخل في هذا الباب حدة الفراسة، حيث فراسة المؤمن لا تخيب. أما التجسس فهو الحركة الخفية لكشف العورات.

عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِى ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ ٨٨: يوسف [١]. ويلاحظ أن أبناء يعقوب في منتهى الوداعة والذوق بل التذلّل أمام الغرباء، وفي غاية الجبَروت والقسوة والمناكفة مع أهلهم وذويهم. ومقالتهم للعزيز نموذج لخطاب الملوك والعِلية، فقد بدؤوا بتفخيم المخاطَب، ثم بسطوا له حالهم الموجبة لقصده، ثم قدّموا عذرهم بوصف الضرّ الذي ألجأهم إلى المسألة، ثم حقروا ما جاؤوا به إليه، وسألوه أن يكرمهم ويتصدّق عليهم[٢].

وأثّر الخطاب في يوسف، وكان الأمر قد بلغ النصاب، فتكلّم يوسف العزيز بقلب أبيه يعقوب، وأمّه راحيل، وبلسان إخوته المتذلّلين له ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ ٨٩: يوسف؟

... إذ أنتم جاهلون! يا للنبيّ! لقد رفع لهم مرآة تُريهم صورتهم الجديدة، ولكي يطوي تلك الصفحة التي تنطق بالإجرام تلطّف فعزاها إلى الجهل، وجعلها ماضيًا عفّى عليه الزمان، ليوحي إليهم أن يبدؤوا بعدها صفحة نقيّة جديدة.

وصعق التسعة الأشدّاء، فهي الحقيقة إذًا!!! وكان الموقف، بكلّ إيحاءاته وتصديقاته لخيالات مبهمة من أقوال يعقوب، ومن تصرّفات هذا العزيز العظيم العجيب، أضخم من أن يتماسك أمامه أحد... وجاشت النفوس بالمفاجأة والخجل والرعب والخشية والصَغار... مشاعر لا حصر لها، راحت تعصف بإخوة يوسف الوقوف في مجلسه: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ ٩٠: يوسف؟!

وبرز لهم في اللحظة نفسها بنيامين يرفل في عزّ أخيه ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ٩٠: يوسف[٣].

إنّه التدبير الإلهيّ من أوّل القصّة إلى آخرها... فها قد منّ الله على يوسف وأخيه بما اتقيا وصبرا. وصبر المؤمن التقيّ إحسان لا يُضيع الله أجره، بل يُعقبه النصرَ دائمًا بما اتّقى وصبر. أمّا الصبر المجرّد من الإيمان والتقوى فيجزي الله عليه نصرًا في شؤون

---

(١) والشكوى مذمومة، ولكن الشكوى من الجوع لمن بيده الطعام جائزة، كشكوى المريض إلى الطبيب.

(٢) ومسألة أصحاب الشأن عند الحاجة جائزة، ومسألة غيرهم مكروهة كراهة شديدة. ففي الحديث: «لا يفتح إنسان على نفسه باب مسألة إلاّ فتح الله عليه باب فقر» [صحيح ابن حبان: ٣٣٨٧].

(٣) المنّة هي التي لا يستطيع فعلها غير المانّ. فمن يفعل هذا غير الله سبحانه وتعالى؟

الدنيا... قانون حقّ في نظام الربوبيّة الذي يحكم هذا الوجود. فالذي يصبر في الحرب مثلاً، كعنترة وهرقل، يُجزى بالنصر، وبمديح الناس، وبما يحصّله من مكاسب يبتغيها من عدوّه المغلوب. أمّا في نظام الألوهيّة فالله ينصر من يتولاّه بإيمانه واستقامته من حيث لا يحتسب، أي يجزيه مكاسب لا تقتصر على عطاء الربوبيّة، بل تشمل الآخرة والأولى، والآخرة خير وأبقى. ولقد عزا يوسف ﷺ ما وصل إليه من هذا النصر العظيم إلى الله الذي لا يُضيع أجر المحسنين. وقد سبق لنا أن استعرضنا جوانب من إحسان يوسف الذي لم يُضعه له الله؟

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ ٩١: يوسف. لقد اعترف إخوة يوسف بذنبهم، والاعتراف بالذنب أوّل خطوة باتّجاه التوبة، فقد جاء في التنزيل: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ٤٢: الأنعام. ولم يكد يوسف يسمع إخوته الظلمة يعترفون بخطئهم، ذلك الاعتراف الذي يُرضي الله، حتى أسقط القلب النبيّ حقّه، ذلك أن ذلك القلب لا يرى لنفسه حقًّا عند من يرشّحه الله للغفران، بل هو يدعو له بالمغفرة ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ٩٢: يوسف(١). وقيل إن كلمة «اليوم» إشارة إلى أنّه يسامحهم وهو في موقع القادر المتمكّن، الذي لو شاء لأخذهم بما فعلوا، وغاية الإحسان أن تسامح من ظلمك وآذاك من موقع القوّة والتمكّن، كما سامح رسول الله ﷺ أهل مكّة وهو في موقف القادر على إبادتهم. وهذا هو العفو عند المقدرة، حيث «... من كظم غيظه لو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضًا»(٢).

وظنّي بيوسف، وإن كان في نفسه أن العفو عند المقدرة غاية الإحسان، أنّه لا يقول هذه الكلمة ليُفهَم منها هذا، فإن فيه منًّا لا يرتضيه يوسف لنفسه على إخوته، وإنّما أراد: عفا الله عمّا سلف، فلا تبتئسوا الآن، ولا تقنطوا من رحمة الله وغفرانه. فهو يغفر لهم، ويبشّرهم إلى ذلك بمغفرة الله ذي الرحمة الواسعة. وهذا لا يُقاس

---

(١) يلاحظ أنهم طلبوا من أبيهم أيضًا أن يستغفر لهم، فقال: "سوف أستغفر لكم ربي" ٩٨: يوسف. والاستغفار في مثل هذا الموضع إحسان عظيم.

(٢) الترغيب والترهيب ٣٩٨٥.

بموقف رسول الله الذي ينبغي فيه المنّ، لأنّه كان في بعضًا من الحرب الدائرة بين الكفر والإيمان، وينبغي أن يثبت علوّ الإيمان ومنّه.

ثم قال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٩٣: يوسف.

وليس في النصّ القرآنيّ ما يشير إلى ما هو غير عاديّ في قميص يوسف الذي حُمل إلى يعقوب من مصر، فما كان إلاّ قميصًا عاديًا، كما كان ذلك القميص الذي حُمل إليه يوم ألقي يوسف في الجبّ.

وفي كلّ قميص يُلبس شيء من الريح الخاصّ بلابسه. وكانت ريح يوسف ممّا لا يمكن أن يخطئه أنف يعقوب، ولعلّ هذه الفكرة هي ما حمل ابن كثير على القول: «ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه، وهو الذي يلي جسده»[(١)]. وما ردّت تلك الريح بصره إلاّ لأنّها عنت له أن يوسف على قيد الحياة، وأن لقاءه قريب، فهدأت نفسه، وعاوده بشره، ممّا كان له أثره في تحسّن صحّته، واسترداد قدرته على الإبصار بعد أن كانت شبه معدومة. لقد مَعجَزوا قميص يوسف، وقرنوه بفُلك نوح، وعصا موسى، كما مَعجزوا مثال الطيور في قصّة إبراهيم. وما من نصّ ولا أثر يحمل على ذلك[(٢)].

نُسجت أساطير وأساطير حول قميص يوسف، وكلّ من النصّ القرآنيّ وتوراة يهود منها براء[(٣)]، فقد جعل أصحاب القصص القميص الذي حمله إخوة يوسف إلى أبيهم قميصًا سحريًّا يشفي من العمى، وزعموا أنّه قميص إبراهيم، وأنّه قد أُنزل عليه من الجنّة، فورثه إسحاق ثم يعقوب، ثم آل إلى يوسف، حيث جعله أبوه في قصبة من فضة علّقها في عنقه. وأنّه كان معه في الجبّ، وفي الرقّ، وفي بيت العزيز، وفي السجن، وفي الوزارة.

(١) قصص الأنبياء ١: ٢٠٧ .

(٢) انظر قصة نوحُ وقصة موسى، وقصة إبراهيم عليه السلام.

(٣) لا أثر لقصّة القميص هذا، ولا لعمى يعقوب في التوراة.

ومن العجب أن هذا العِلق الثمين لم يسطُ عليه الإخوة الذين ألقوا بصاحبه في غَيابة الجبّ، لا بقصد السرقة، بل بقصد التبرّك به، وتعمية أصل صاحبه على من يجده، ولم يسلبه إيّاه الوارد الذي أخرجه من الجبّ، ولم يصادف طامعًا من أفراد السيّارة، ولا تجّار الرقيق الذين باعوه في مصر، كما لم يلفت أنظار العزيز وامرأته، ولو من باب الفضول لتعرّف أصل ذلك العبرانيّ الفائق والمتفوّق، ولم يَذكر شيئًا عنه وهو في السجن لسنوات طويلة فرغ فيها لاسترجاع أحداث حياته وتعزيز صلته الروحيّة بآبائه وأجداده. ولم يستَرعِ الملكَ الذي عيّنه وزيرًا، وجعله لديه مكينًا أمينًا!!!

وقال المؤرّخون، متابعين الرواية التوراتيّة، إن الذين التحقوا بيوسف من أهله كانوا حوالي التسعين نسمة، أمّا توراة اليهود فتقول إنّهم سبعون نفسًا.

يزعم كتبة التوراة أن يوسف حمّل إخوته رسالة إلى أبيه قال فيها: «جعلني الله سيّدًا لجميع المصريّين. تعال إليّ، ولا تتأخر»[1]. ولم يجعلوا ذلك تحت ظلّ الحاكم الهكسوسيّ، الذي يغلب أنّه كان على واحدة من ممالك الدلتا المستعمَرة. بل زعموا أن الملك الذي عيّن يوسف عزيزًا هو فرعون مصر، وأنّه طلب منه أن يقول لإخوته: «خذوا أباكم، وأهل بيوتكم، وتعالوا إليّ فأعطيكم أجود أرض في مصر، وتأكلوا خيرات الأرض... ولا تتوجع قلوبكم على أملاككم، فأجود جميع ما في أرض مصر هو لكم»[1].

ولعلّ الهدف من هذا التزوير إسقاط أكبر مبرّرات الكره المصريّ للمدعوّين ببني إسرائيل في زمان فرعون موسى، وهو ارتباطهم القديم بالهكسوس المستعمرين، إضافة إلى ما يقدّمه هذا الزعم من دعم لواحد من أبرز أهداف توراة اليهود، وهو إثبات حقّ لهم في المنطقة[2]. ذلك أن

(١) سفر التكوين: ٤٥.

(٢) وهي كما سبق القول تشكل بعضًا من الحدود الغربيّة لمملكة إسرائيل الداوديّة المزعومة التي تمتد فيما بين الفرات في العراق والنيل في مصر.

كون الملك فرعونًا مصريًّا يجعل وعوده، التي زعمتها توراة اليهود، التزامًا مصريًّا رسميًّا، في حين أنّها، إن كانت، فهي وعود محتلّ يتصرّف في أرض ليست أرضه. ولم يلبث هو نفسه أن خرج أو أُخرج منها[1]. وقد قرأ من تأثّروا بهذا قول الله الحقّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ ٥٦: يوسف، وقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ٩٩: يوسف، على ضوئها، فحمّلوا الآيتين ما لا تحتملان، ووثّقوا دون قصد مزاعم التوراة الهادفة إلى الاستيلاء على المنطقة.

* * *

ورفع أبويه على العرش

يقصّ علينا الذكر الحكيم من أنباء يعقوب المنتظِر في فلسطين: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ ٩٤: يوسف، وفي كثير من التفاسير أنّه قد وجد ريح يوسف منذ أن تحرّك أبناؤه من مصر باتّجاه فلسطين. وقيل في تعليل ذلك: إن الشعور الإنسانيّ إذا وصل إلى مرحلة عليا من الحساسيّة يخرج عن طبيعة البشر إلى طبيعة الملأ الأعلى، وهذا معروف عند الزاهدين.

ومع ذلك يبقى حمل العبارة على الحقيقة من إبعاد المرمى، حتى لو كان يعقوب المشوق قد استروَح ما خاله ريح يوسف. فما الريح إلاّ كناية عن إحساس يعقوب بأن أبناءه قد جاؤوا بخبر عن يوسف، أو اهتدوا إليه، وأنّهم قادمون بالبشرى.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ ٩٦: يوسف... إن يعقوب النبيّ الذي يعرف مُجرَيات الأمور، وما تكون قد آلت إليه الآن بين يوسف وإخوته، يستشرف الأحداث عن بعدٍ خطوة فخطوة، وكأنّه يعيش فيها. ومن هنا عرف أنّهم قد اتّخذوا طريقهم عائدين، وكان هذا يعني عودة يوسف أو أخباره، حتى كأنّه لا تفصله عنه إلاّ مسافة تسمح بشميم ريحه. وقيل إنّه قال ذلك لمن حوله من أحفاده، وكانوا قد ورثوا الجراءة عليه من آبائهم، فقالوا له: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ ٩٥: يوسف.

---

(١) وتلك المزاعم التوراتيّة جزء من مخطط طويل الأمد نراه اليوم يكاد يكتمل على أرض الواقع فصولاً.

وفي الروايات أن يهوذا، الذي حمل إلى أبيه قميص يوسف الملطّخ بالدم قبل ثلاثين سنة، أصرّ على حمل القميص اليوم، يسبق به إخوته إليه. فلمّا وصل ألقاه على وجهه فٱرتدّ بصيرًا.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ٩٧ و ٩٨: يوسف. لقد ظُلم يوسف ويعقوب، ولكنّهما أحبا أن يغفر الله لهما فعفوا وصفحا. وعفو المظلوم عن ظالمه عبادة لا تعدلها عبادة. قال تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ ٢٢: النور. وعلى الظالم أن يتحلّل كما تحلّل إخوة يوسف ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾ ٩٧: يوسف[(١)].

ثم بدأت المرحلة الجديدة باللقاء السعيد بعد ما يقرب من ثلاثين سنة من الحزن والصبر. واستقبل يوسف موكب بني إسرائيل، على حدود مصر، حيث ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ٩٩: يوسف[(٢)]. وكانت تلك بداية نزول بني إسرائيل في مصر، حيث ظلّوا هناك إلى أن جاءهم موسى، ثم خرج بهم منها كما هو معروف. ويقدّر الباحثون هذه المدّة بمائتين وخمسين سنة.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ ١٠٠: يوسف. وقد وقع خلط في تفسير هذا السجود، فقد كان الهكسوس ينحنون تحيّة للملك ورموز الدولة، كما كان الناس في العصر العباسيّ يقبّلون الأرض بين يدي الخليفة. ولا يصحّ اعتبار هذا سجودًا كما نعرف السجود، ذلك أنّه، في كلّ الأعراف، إذا كان أحدهما ساجدًا للآخر فهو الابن. فضلاً عن أن سيّدنا يوسف وسيّدنا يعقوب نبيّان، ولا يُقرّان السجود لغير الله.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ ١٠٠: يوسف. والتأويل غير التفسير، وهو ما آلت إليه الرؤيا، ويكون لما يحتمل أكثر من تفسير، يُؤوَّل إلى أن يَؤُول إلى ما يُطمأنّ إليه. والتأويل قد يكون خطأ، وقد يكون صوابًا. وهذه رؤيا يوسف قد حقّت ﴿وَقَالَ

(١) قيل إن يعقوب أراد أن يؤخر استغفاره إلى سحر يوم الجمعة، وهي ساعة يستجاب فيها الدعاء. فمن كانت له حاجة من حوائج الدنيا أو الآخرة، فليتحين سحر ليلة الجمعة يصلي فيه ركعتين ويتضرع إلى الله سبحانه بمسألته.

(٢) كانا أباه وزوجة أبيه.

﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ ١٠٠: يوسف[(١)].

انظر إلى رقّة يوسف... كان المفروض أن يقول: وقد أحسن بي إذ أخرجني من الجبّ والسجن، ولكنّه لم يشأ أن يخبر أباه في هذا الموقف بما كان من معاناته الفظيعة، كما لم يشأ أن يذكّر إخوته بجريمتهم وقد تابوا، وصفح عنهم صفحًا جميلاً. ومَن أجدر بالصفح الجميل من يوسف عليه السلام! ومن الصفح الجميل ألاّ تذكر الإساءة للمسيء.

❋

ثمّة سؤال يفرض نفسه على متتبّع قصّة يوسف عليه السلام: كيف استطاع يوسف البرّ الرفيق الذي يتّخذ الإحسان منهجًا أن يترك أباه الشيخ طيلة تلك السنين ملتاعًا لفقده، وفي يده أن يصل إليه، أو يخبره خبَره؟. وقد سبق أن ذكرنا أن الله كان غالبًا على أمره في كلّ أحداث قصّة يوسف، وأمره في هذا مندرج في وعده الحقّ في غيابة الجبّ ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ١٥: يوسف، وكيف يتأتّى أن يكون هذا إلاّ إذا طال الأمد عليهم حتى يكون خبره نبأً، وحتى يكونوا في الحال التي وصفها الله ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ١٥: يوسف؟

والوعد الحقّ يقتضي أن تترتّب الأمورُ ليكون، وأن تتّسق لتقود إليه وحده، ومن هنا وجد يوسف أن عليه أن يتحيّن الفرص، ويصنع ما هو موكّل به من الظروف قبل أن يسعى إلى لقاء أبيه وإخوته. فهو يخاف إخوته على أبيه، ويعرف أنّهم مسيطرون عليه، وأن ظهور يوسف في حياتهم قبل أن يملك أمر نفسه، ويقوى ساعده، ويصبح قادرًا على حماية نفسه وأبيه وأخيه، قد يكون ضرره أكبر من نفعه. وما كانت ظروف يوسف لتسمح بذلك قبل أن يصير إلى شأنه الأخير، قيّمًا على ميرة مصر. وقد تسلّم عمله هذا في ظروف صعبة اقتضته التفرّغ التامّ ليثبت أنّه حفيظ عليم كما قال للملك.

هكذا صنع يوسف الظروف بهدي من الله، وكان واثقًا بأن إخوته سيأتونه كما أتوه، حتى قبل أن يكيد الله له ليأخذ أخاه في دين الملك، ويأتيه بأهله أجمعين.

❋

---

(١) كان بنو إسرائيل في فلسطين بدوًا، يشهد بذلك قول يوسف هذا، وقول أبناء يعقوب ليوسف: "وجئنا ببضاعة مزجاة" ٨٨: يوسف. أي جاؤوا بما يقايضون به، وتلك من علامات البداوة.

وفي بعض الروايات أن يعقوب مكث ثلاثًا وعشرين سنة في مصر، فلمّا مات حُمل جثمانه إلى الخليل ليُدفن إلى جانب أبيه إسحاق وجدّه إبراهيم. وعن موت يعقوب يحدّثنا الذكر الحكيم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ ١٣٣: البقرة، وكانت آخر كلمة قالها لهم: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ١٣٢: البقرة.

* * *

اجتمعت ليوسف النعم من مال وولد، ونفوذ وسلطان وخلق وجمال وعلم وكفاءة. ويسّر له الله من العمل ما نفع الناس ومكث في الأرض. ولكنّ الروح الطموح لا تني تتطلّع إلى ما هو خير وأبقى. وما بقي في دنيا يوسف خير ممّا أوتي وممّا آتى، وما كان من سبيل أمام طموح الذات إلاّ ما وراء ذلك ممّا عند الله.

وكان من عيون أدعية القرآن الكريم دعاء يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ١٠١: البقرة... قمّة الرضا، ومنتهى الحمد والثناء، وغاية أشواط المنى... ويذكّرنا دعاؤه هذا بقول لعمر بن عبد العزيز، ضيف الدنيا، الذي قضى زيارته يتزوّد منها للعودة إلى مقرّه بما يليق بهمّة العبد الصالح: لقد خلق الله لي نفسًا وثّابه. طمحت إلى الإمارة فنلتها، ثم طمحت إلى الخلافة فنلتها، والآن تطمح نفسي إلى الجنّة.

ولكن هل يجوز أن يدعو المرء على نفسه بالموت؟

الأصل ألاّ تدعو على نفسك بالموت، وقد سئل رسول الله: من خير الناس؟ فقال: «من طال عمره وحسن عمله»[1]. وقيل إن قولَي يوسف ﷺ، وعمر بن عبد العزيز، حالتان

(١) سنن الترمذي: ٢٣٢٩.

استثنائيّتان، وكذلك قول مريم ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ ٢٣: مريم، وقول عليّ ﷺ لمّا تكالبت عليه الدنيا وضاق بها: أين أنت يا أشقاها... يا من يخضب هذه من هذه[١].

ولعلّ أيّ واحد من هؤلاء العظام لم يدعُ على نفسه بالموت، فإنّه يصحّ أن نقدّر في قول سّيدنا يوسف "حين تتوفّاني"، فيكون سؤاله أن يكون حين وفاته على الإسلام الكامل. أمّا عمر بن عبد العزيز فهو يتمنّى الجنّة، وليس الموت. وأمّا عليّ ﷺ ومريم عليها السلام فلعلّ قوليهما كناية عن مضمون الحديث الشريف: «إذا كان... فبطن الأرض خير من ظهرها»[٢] ليس إلاّ، ولكنّ مرارة الموقفين أكسبت الكلام حدّة، أو شيئًا من تطرّف.

كان يوسف يحظى بحبّ جميع فئات المجتمع وطبقاته، فلمّا حضرته الوفاة جعلوا جثمانه في تابوت من المرمر، وجعلوه في فرع من فروع النيل. فلمّا خرج سيّدنا موسى بمن معه من مصر حمله معه إلى الخليل في أرض كنعان، حيث مدفن آبائه وأجداده.

* * *

يطغى أخبار تأويل الأحلام، والحكم والعلم على أخبار دعوة يوسف عليه السلام، وكونه نبيًّا رسولاً، فنحن لا نقع في سورة يوسف، في مجال الدعوة، إلاّ على ما كان في خطابه لصاحبي السجن، وفيه يذكر أنّه من نسل أنبياء موحّدين، ويدعو صاحبيه إلى التوحيد، ويصرفهما عن معبودات قومهما، ويبيّن لهما أن الدين الحقّ هو الخضوع لله ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ ٤٠: يوسف.

---

(١) إشارة إلى قول رسول الله ﷺ: «أشقى الناس ثلاثة: عاقر ناقة ثمود، وابن آدم الذي قتل أخاه. . .». قال الطبرانيّ: وأسقط الثالث، والظاهر أنه قاتل علي بن أبي طالب" [مجمع الزوائد ٧: ٢٩٩].

(٢) سنن الترمذيّ ٢٢٦٦.

وفي سورة غافر ذكر مقتضب لنبوّة يوسف ورسالته، ولكنّه ذكر صريح ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ ٣٤: غافر.

وقد كان لدعوة يوسف إلى التوحيد في مصر آثارها، ولاسيّما في قومه بني إسرائيل الوافدين، وفي الرعايا من الهكسوس الحاكمين، وفي كثير من أصحاب الأرض من المصريّين. وبعد أن مات يوسف، وراحت الأرض المصريّة تهتزّ تحت أقدام الهكسوس، جعلت امتيازات الوافدين من بني إسرائيل ومن تجحفل حولهم تتآكل[1]، بل جوبهوا بانقلاب الناس عليهم. وفي ظلّ هذه الظروف، ولكون هؤلاء في جمهورهم بدوًا يحترفون الرعي، وأموالهم ومقتنياتهم ممّا يسمّى بالأملاك المنقولة، فمن الطبيعيّ، وقد انقلبت الأرض عليهم، أن يهجروا أماكن تواجدهم إلى غيرها. ولا شكّ في أن كثيرًا من بني إسرائيل قد عادوا من حيث أتوا.

وتقلّب الزمان بمن مكث من هؤلاء في مصر، فإضافة إلى ما لحقهم من سخط المصريّين على أولياء نعمتهم المستعمرين الهكسوس، تجهّمتهم السلطة الحاكمة بسبب احتفاظهم بصبغة التوحيد الذي جاء به يوسف، وهو مخالف للسياسة العليا للدولة، وتمّ تسخيرهم بعنف وقسوة، ولاسيّما في أعمال البناء.

في تضاعيف هذه الظروف القاسية تآكلت دعوة يوسف في جمهور هؤلاء، وهم على رأس حمَلتها، ولم يبق من التوحيد إلاّ بقايا في الصدور التي أرادبها الله الحقّ خيرًا. ويعرض الذكر الحكيم نموذجًا من الموحّدين الذين احتفظوا بتعاليم يوسف، وهو مصريّ من آل فِرعَون، ويعرّفه بأنّه ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ ٢٨: غافر، ويسوق قوله للملأ من آل فِرعَون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا

(١) وليس أدلّ على ذلك من أن المدعوّين ببني إسرائيل قد آلوا إلى تلك الطبقة المسخّرة المضطهدة في المملكة المصريّة، وأن الوحيد الذي ذكر أنّه كان له ملك فيهم، وهو قارون، تدور أحداث قصّته في بلاد الشام، أي بعد أن غادر موسى بقومه أرض مصر حسب أكثر المصادر، وعلى رأس ذلك توراة يهود نفسها [انظر سفر العدد : ١٧].

obeikandi.com

زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ ٣٤: غافر، وبهذا نقف على ما آلت إليه دعوة يوسف إلى التوحيد في مصر وكان عليها أن تمكث أكثر من قرنين، على أكثر الأقوال، بانتظار دعوة موسى عليه السلام.

* * *

obeikandl.com

الفصل العاشر

أيّـوب

عليه السلام

سلام على العبد الصبّار الشكور...

سلام عليك وقد أنفذ فيك الشيطان غيظه، وحقّق وعيده، فاحتنكك كما لم يحتنك أحدًا من ذرّيّة أبيك، غريمِهِ الأبديّ الأزليّ... آدم، ولكنّك صدّقت قول ربّك: " إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ".

*** * ***

بطل الصبر والشكر

لكلّ نبيّ من أنبياء الله في كتاب الله بطولة ترتبط باسمه، فآدم عليه السلام صاحب الأسماء وبطل التوبة المقبولة، ويوسف عليه السلام بطل الإحسان العفّة، وأيّوب عليه السلام بطل الصبر، وإمام الصابرين ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ٤٤: ص.

وأيّوب النبيّ الوحيد من نسل عيسو بن إسحاق [١]، فهو من الروم، وأمّه من نسل لوط، وزوجته من نسل يوسف عليه السلام. وفي الروم حِلم وأناة، فالروميّ بطيء الانفعال، ماكر، لا يُستثار ولا يغضب بسهولة، ويملك القدرة على المثابرة، والإصرار على تحقيق الهدف. والمشهور في الروميّ أنّه لا يلتزم بوعوده ومعاهداته ما لم تكن في صالحه، وليس له صديق إلاّ مصلحته.

وسيّدنا أيّوب نبيّ احتفظ من عِرقه بحميد الصفات دون ذميمها، فكان قمّة في

---

(١) هاجر عيسو بأسرته إلى أرض الروم مفارقًا أخاه يعقوب، بعد ما أثارته أمهما بينهما من نزاع على إرث أبيهما من النبوة. انظر تفصيل ذلك في قصتي إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

obeikandi.com

الصبر حتى دُعي إمام الصابرين، وكان فيه حلم وأناة ورفق تليق بالأنبياء. وما كان الرفق في شيء إلاّ زانه. وفي أخباره عليه السلام أنّه كان مَهيبًا طويلاً، حسن الخَلق، والخلُق. وقد أكرمه الله، وبسط له في ماله وأهله وولده، فكان شاكرًا لأنعم ربّه شكرًا عجيبًا، يؤدّي حقّه فيها، فما سأله أحد إلاّ أعطاه، وما رأى ذا حاجة إلاّ قضى له حاجته. وما كان عليه السلام يأكل إلاّ مع يتيم أوضيف، حتى سُمّي أبا القِرى كجدّه إبراهيم عليه السلام. والإحسان إلى اليتيم، ولاسيّما كفالته، من البطاقات الرابحة في حساب الأعمال، ومن أطواق النجاة يوم القيامة، وفي الحديث الشريف: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه»[1]. لقد كان عليه السلام غنيًا شاكرًا، والغنيّ الشاكر مع الصدّيقين يوم القيامة، وإن الله ليُكرم يوم القيامة الأغنياء بتأديتهم حقّ أموالهم، بما لا يُكرم به الفقراء بما صبروا على فقرهم.

اصطفى الله أيّوب، وأكرمه بالنبوّة. ولم يزد الذين اتّبعوه على الثلاثة، وهو ما اطّرد من شأن الأنبياء والرسل، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ٤٠: هود[2].

أيّوب عليه السلام في الذكر الحكيم

وسيّدنا أيّوب من الذين امتدحهم الله سبحانه وتعالى في الملأ الأعلى، و أثنى عليهم[3]. وقد جاء في حديث رسول الله ﷺ: «إذا أحبّ الله عبدا نادى جبريل: إنّي قد أحببت فلانًا فأحبَّه. قال: فيُنادى في السماء، ثم تنزل له المحبّة في الأرض»[4].

في هذا الملأ الكريم يُذكر المؤمن التوّاب، ويُستغفَر له ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ

---

(١) سنن ابن ماجه: ٣٦٧٩ .

(٢) ويلاحظ أن خاتم المرسلين قد بسط الله له في أصحابه، وآل بيته، فهم يملؤون الأرض، تحقيقًا لوعد الله الحق المستتر وراء قوله: "إن شانئك هو الأبتر" ٣: الكوثر.

(٣) وقيل: هم جبريل وميكال، ثم حملة العرش، فالحافون من حول العرش.

(٤) سنن الترمذي: ٣١٦١.

﴿تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ٧: غافر. **والذين تابوا واتبعوا سبيل الله هم الموحّدون أهلُ القبلة، وهؤلاء تسعهم رحمة الله الذي يعلم السرّ وأخفى.**

وذِكر الله العبد في الملأ الأعلى يعني أن الله وصله ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ٤٣: الأحزاب. **وإن لله صلاة على العبد، وللملائكة صلاة، وإذا صلّت الملائكة على العبد فقد نجا.**

ومن دعاء حمَلة العرش لأهل القبلة: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ٩: غافر، **والسيّئات هنا هي ما يُخجل المؤمنَ من ربّه عند العرض. فحمَلة العرش يدعون ربّهم ألاّ ينظر في صحائف أهل القبلة لئلاّ يخجلوا، وهذا يعني ألاّ يحاسبهم. وعلى المسلم أن يكون حريصا على ألاّ يُحاسَب، ولا يكون هذا إلاّ بأن تربو حسناته على سيئاته، ولا تربو حسناته على سيئاته إلاّ إذا كان من أهل القبلة.**

وقد وصف الله أيّوب بالإحسان ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ٨٤: الأنعام، وبأنّه من ذرّيّة نوح عليه السلام، وبأنّه نبيّ أُوحي إليه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ﴾ ١٦٣: النساء.

وقد حرّك قرائح الرواة، وألجأهم إلى أهل الكتاب، وإلى اليهود وتوراتهم قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ ٨٣ و ٨٤: الأنبياء[1]، وقوله في سورة ص: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ٤١ - ٤٤: ص.

---

(١) والضر ما أصاب المرء من الخارج، والضرر ذاتي، والضرار متبادل. أمّا الأذى فلسانيّ.

ولا تقول هذه الآيات أكثر من أن أيّوب نبيّ محسن صابر أوّاب مسّه الضرّ في جسده، وفي أهله، فصبر صبرًا معجزًا في طوله وفي جماله، فلم يتبرّم، ولم يشكُ، بل التجأ إلى أرحم الراحمين بكلّ أدب النبيّ وإخباته، حتى إنّه لم يسأله رفع الضرّ عنه، بل شكا إليه الشيطانَ الذي يرهقه باحتناكه ووسوسته، فاستجاب له ربّه[1]، وأمره أن يركض إلى ماء يسّره له، فيغتسل منه ويشرب، فينكشف ما كان في بدنه من الضرّ، وأجزل له العِوض في أهله، وعلّمه كيف يبَرّ بقسم يُثقِل عليه أنّه لا يستطيع البرَّ به.

وأنت كمؤمن قد تُخْتَبَر وقد تُمتحن، فإذا كان الامتحان فيما تشتهيه النفس فهو فتنة، وإذا كان فيما تكرهه فهو ابتلاء. فالخمر والمال والسلطان والنساء فتنة.. والمرض والموت والمصيبة ابتلاء. ومن هنا كان ردّ فعل المؤمن على الابتلاء الصبر، وعلى الفتنة الشكر. والصابرون كثير ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ ١٥٥ و١٥٦: البقرة، ولكن الشاكرين قليل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ ١٣: سبأ.

أيّوب عليه السلام في الروايات

قام المفسّرون بتغطية أفكار الآيات سالفة الذكر واحدة فواحدة، واعتمد أكثرهم روايات نسجت على منوال ما جاء في توراة اليهود، فكانت قصّة أيّوب عليه السلام في كثير من كتب التفسير حكاية توراتيّة سَداة ولُحمة، تُصوِّر الله الحقّ جلّ وعلا يكِل أمر من قال فيه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ٤٤: ص، إلى إبليس، فيما يشبه المراهَنة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، ففي سفر أيّوب: «ها أنا أجعل كل شيء له في قبضة يدك، ولكن إليه لا تمد يدك»[2].

ونقرأ في تفسير الرازي، ويدعوه بالحكاية، عن وَهْب بن مُنبّه أنّه كان لإبليس موقع في الملأ الأعلى[3]، فسمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيّوب، لإيمانه

---

(١) وما من مبتلًى يقول: "أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين" ٨٣: الأنبياء، إلا فرج الله كربه.

(٢) سفر أيوب: ١. أي مع ذلك لن تستطيع حمله على كفران أنعمي.

(٣) تفسير الآية ٨٣ من سورة الأنبياء. ومعروف أن الجن كانوا يسترقون السمع فلما بعث محمد كُفّوا، وقالوا في ذلك: "وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا" ٨ و٩: الجن.

وإحسانه وشُكرانه، فأدركه الحسد فقال: يا ربّ، لقد أثنيت على عبدك أيّوب وأنت منعم عليه، ولو ابتليته بماله لنسي نعمك، ولكفر بك.

قال: اذهب... فقد سلّطتك على ماله.

وتستمر الحكاية، فنرى الشيطان يتسلّط، بأمر من الله، على مال أيّوب فيُذهبه، وعلى أهله فيُفنيهم، وعلى بدنه فيُسقمه، حتى انفضّ الناس من حوله، ولم يبق غير زوجته.

وفي سائر الروايات أنّه اشتدّ البلاء على أيّوب، وأُرهقت زوجته حتى لم تعد تطيق التحمّل، فألقى الشيطان في رُوعها أن الله قد تخلّى عن أيّوب ونسيه، فقالت له يومًا: يا أيّوب كأنّ الله نسيك.

فغضب أيّوب غضبًا شديدًا، وقال يزجرها: والله لئن شفاني الله لأضربنّك مائة جلدة.

وقد نفخ الرواة وأصحاب القصص في دور زوج أيّوب، ونسجوا حولها أكثر من قصّة وتبعهم المفسّرون في ذلك. بينما نراها في النصّ التوراتيّ لا تظهر إلاّ مرّة واحدة لتقول لأيّوب: «أتبقى إلى الآن متمسكًا بنزاهتك؟ جدّف على الله، ومُت»[1]. ولا يتّفق هذا وصورتها في الروايات الإسلاميّة، التي احتفلت بها، وصوّرتها مثالاً للزوجة المؤمنة المحسنة، ورفعت نسبها إلى يوسف عليه السلام، بل أقحمتها في تفسير بعض الآيات، فسمّتها رحمة، لتقول إنّها المعنيّة بالآية ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ ٨٣: الأنبياء، وجعلت «الضرّ»، في الآية: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ٨٣: الأنبياء، قطعَها شعرَها، كما أكّدت أنّها المعنيّة بقوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ ٤٤: ص، رغم عدم وجود دليل على ذلك.

*

وكان كلّما طال صبر أيّوب وشكره تصاعد غضب الشيطان وحقده، وازداد ضغطه على قلب أيّوب الأعزل المثخن بالجراح، وإمعانه في تذكيره بمصائبه وخسائره «يقنّطه من ربّه، ويزيّن له أن يجزع، فخاف من تأكّد خاطر القنوط في قلبه...»[2]، فراح يشكو

---

(١) سفر أيوب: ٢.

(٢) الفخر الرازي. التفسير الكبير الآية ٨٣ من سورة الأنبياء.

إلى ربّه الشيطانَ، الذي يرهقه ويعذّبه بما يسلّطه على قلبه من الوساوس، وبما يحتنك به أهله والناس من حوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ٤١: ص.

ويقول ربّ العالمين: يا أيّوب لقد سبقت رحمتي غضبي، ولقد بلوتك فصبرت فعافيتك وجزيتك ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ٤٢: ص. فيتحامل أيّوب على ضعفه وعجزه مستجيبًا لهاتف الحقّ، ويكون البرء، وتكون العافية، وينجو أيّوب قلبًا وقالبًا ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾ ٨٤: الأنبياء.

وفي الروايات أنّه كان على أيّوب أن يبرّ بيمينه ويجلد زوجته، ووجد القلب النبيّ من ذلك، ولا شكّ في أنّه كان مطمئنًّا إلى عدالة وخيريّة ما يفرضه عليه الله الحقّ في الأمر، وكانت كلمة الحقّ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ ٤٤: ص[١].

*

ومهما قيل فيما تنوقل عن وَهْب ﷺ، فهو واحدة من تلك الروايات التي تلفّق بين ما أُخذ عن أهل الكتاب، وما جاء في النصوص القرآنيّة، لتوفّر أحداثًا ومواقف تملأ بها الجيوب البلاغيّة في القصص القرآنيّ. وما كان ينبغي للروايات أن تفرض رقَعها المجتَلبة على ما أراده الله لقارئ هذا القصص من حرّيّة في تلقّيه واستيعابه واستلهامه[٢].

و في قصّة أيّوب جانب تعليميّ، يبيّن كيفية التصرّف فيما إذا جلب البرّ بالقسم جورًا أو قسوة على من لا يستحقّ الجور والقسوة. كما أن في التوجيه المتواطأ عليه للآية[٣]، تعليمًا لأولئك الذين يتقيّدون بحرفيّة «واضربوهنّ»، وإذا كانت الآية قد جعلت من أسباب الضرب

(١) والضغث حزمة من القش الخفيف، يجعل عددها مائة ليبر قسمه.

(٢) انظر الباب الأول: في الإسرائيليات.

(٣) أي اعتبارها تخص قسَم أيوب أن يجلد زوجته.

النشوز، وجعلت لعلاج الأمر قبله الموعظة والهجر في المضجع، فإن السنّة العظيمة ربطت ذلك بإتيانهنّ الفاحشة المبيّنة.

وفي القصّة جانب توجيهيّ يستفاد من فداء قسَم أيّوب، وهو أن الضرب اعتباريّ، لا حقيقيّ، ذلك أن الضرب يُضرّ بالأساس الذي تقوم عليه العلاقة بين الزوجين، وهو المودّة والرحمة، وينافي رهافة حسّ المسلم المهذّب الذي يترفّع عن العلاقة المجرّدة من الإحساس [(١)]، وقد عبّر سيّد الخلق ﷺ عن ذلك بقوله: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يجامعها في آخر اليوم»[(٢)]. كما لا يجوز أن يعدو الضرب الحدّ الأدنى اللازم لضبط الأمور، في محيط الأسرة المسلمة، التي تقوم على نظام القوامة الإسلاميّة الراقية، المحكومة بالمودّة والرحمة. وينبغي أن يكون بمثابة الدواء، فلا يحمل من المرارة أكثر مما يحمل الشفاء.

لقد كان في قول رحمة لأيّوب النبيّ، كما جاء في الروايات، تجرّؤ على الله، ورغم ذلك جاء الأمر بهذا القدر من الرحمة والحكمة، والعناية بالتوجيه، وذلك لحيويّة الأمر وأهميّته ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ ٤٤: ص.

وكثير من العلماء على أن حكم تخفيف الضرب إلى الحدّ الأدنى عامّ وباق، وذلك لقول الحكيم العليم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ١١١: يوسف، ولمجمل ما جاء في هدي النبوّة في أمر الضرب، كالنصّ على أن يكون خفيفاً «... فاضربوهنّ ضربًا غير مبرِّح»[(٣)]. وعُرِّف الضرب غير المبرح بالذي لا يترك أثراً، وقيل كالضرب بالسواك ونحوه، ولعلّ من ذلك الضربَ على الكتف، أو النكز أو الوكز على سبيل التعنيف والتنبيه. والمقصود منه الصلاح لا غير، وكذلك القول في ضرب المؤدّب غلمانه لتعليم القرآن. من هنا ندرك أن المنهيّ عنه مطلق الضرب الحقيقيّ. وعن السيّدة عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ خادمًا له قطّ، ولا امرأة له قطّ...»[(٤)]. ومن حديثه: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[(٥)].

وممّا يدلّ على استهجان أصحاب رسول الله ضرب الرجل زوجته، ما رُوي من أن عمر ابن الخطّاب، على جلال قدره، قد ضرب زوجته، فعُذِل في ذلك. وفي تتمّة الخبر نقطة جديرة

(١) وهو الفرق بين ما يدركه الأعرابيّ الجلف والحضريّ المهذّب من "واضربوهن".

(٢) صحيح البخاري: ٤٩٠٨.

(٣) صحيح البخاري: ٨٩٠.

(٤) مسند أحمد: ٢٤٠٨٠.

(٥) سنن ابن ماجة: ١٩٧٧.

بالجلاء، فقد قال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يُسأل الرجل فيم ضرب امرأته»[1]. وقد يبدو هذا إطلاقًا ليد الرجل في أمر الضرب، وهو ما لا يتّفق والنصّ على أسبابه في الآية، كما لا ينسجم والروح التي وراء القيود على كيفيّته في سنّة رسول الله. ولعلّه من قبيل الحفاظ على ما بين الزوجين من أسرار ودقائق في علاقتهما. وهو حقّ لكليهما لا يجوز انتهاكه.

وكلمة التأديب التي وردت في بعض الأحاديث، وعلى ألسنة الفقهاء، ينبغي أن تُفهم بعيدًا عن ظلالها في العرف الحاليّ، حيث فقدت معناها اللغويّ والاصطلاحيّ الأصليّ، وصارت تعبيرًا عن ممارسة العنف والفوقيّة، بل الإهانة. وإذا تذكّرنا النَفَسَ التأديبيّ الذي تنتمي إليه الموعظة والعبرة في القصص القرآني، وقر في أذهاننا أنّها تعني التعليم والصقل والتزكية والتحسين بحزم، ولكن برفق ورحمة وحبّ.

إن كون الأصل في العلاقة بين الزوجين في التشريع ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ ٢٢٨: البقرة، يحمل على اعتبار الضرب الحقيقيّ للمرأة وليس المبرح فحسب، من الكبائر، وذلك في مقابل ما ذكر من اعتبار موت زوجها وهو غير راض عنها من الكبائر. حيث أن الاعتبار الأخير يتطلّب مراعاة غير محدودة ولا مشروطة حتى لمزاج الزوج ونزواته[2]، الأمر الذي لا يمكن أن يتمّ في ظلّ علاقة يقوم فيها الزوج بضرب زوجته كلّما قدّر أنّها تستحقّ الضرب. ومن هنا، ولأن الأمور قائمة على الحقّ والعدل والممكن والمعقول، كان وجود مثل هذا الحكم متضمّنًا وجود ما يقابله.

وقد أعطى الإسلام المرأة حقوقًا، تحفظ كرامتها فيما لو أساء زوجها إليها، ولم تشأ الصبر عليه، ومنها أن تطلب الطلاق، أو أن تخلعه، ولكنّه حضّها على الصبر لمصلحة الأولاد، وأثابها عليه، فما من عبادة يوم القيامة، عند النساء، أرجى من صبرهنّ على أذى أزواجهنّ.

نقاط ينبغي جلاؤها

قيل كيف يكون أيّوب إمام الصابرين وهو الذي نادى ربّه: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ٤١: ص، و: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ٨٣: الأنبياء، وفي النداءين ما فيهما من الشكوى التي لا تتّفق والصبر، بينما سيّدنا إبراهيم جاءه جبريل

---

(١) سنن أبي داود: ٢١٤٧.

(٢) وهو واحد من اعتبارات كثيرة من هذا النوع.

وهو يُلقى في النار وسأله: ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا، وأمّا إليه فهو عليم بحالي؟

وندب كثيرون أنفسهم ليبرّروا لأيّوب ما رأوه خروجًا على الصبر، وشكوى من الابتلاء. ومن عجب أنّهم لم يَثنهم عن ذلك أن الله تقبّله منه، واستجاب له ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ﴾ ٨٤: الأنبياء.

ولكنّ أيّوب ﷺ لم يكن يشكو، ولا كان يتضجّر أو يلجّ عندما ذكر ما حاق به من الضرّ. وانظر إلى أدبه الراقي مع الله، فهو لم يقل: يا ربّ لقد أمرضتني، وأفقرتني، وأثكلتني. بل أسند مصائبه إلى الشيطان... فنسبها إلى الأسباب المباشرة، وشكا من الشيطان الذي يخشى أن يَضعف عن مقاومته كما يريد لنفسه أن يفعل، فقد كان يقف له كالنصُب الصلب الذي لا يَريم، ويحتنك مَن حوله ليؤذوه، ويذكّره بأوصابه وآلامه في الصلاة ليصرفه عن الخشوع. فأيّوب يستعين بالله، ويعوذ به من الشيطان المُضلّ المبين.

لقد بلغ أيّوب من الصبر والاحتساب ما أرضى ربّه الحقّ، فلم يشكُ، ولم يتبرّم، ولم يجزع لما أصابه على هوله وعِظَمه، ولم ينل الألم المبرّح من إيمانه وصبره واحتسابه شيئًا، وبهذا كانت نبوّته. وأيّوب في الآية المذكورة لم يزد على أن التجأ إلى ربّه بضعفه الإنسانيّ، يبسط بين يديه حاله، مستعطفًا راجيًا متبتّلاً أن يعينه على مرضاته، ويسأله من رحمته التي وسعت كلّ شيء.

وعلينا الانتباه إلى فرق ما بين الشكوى والتضرُّع. فالشكوى أن تتبرّم وتتأفّف ويضيق صدرك، وأن تُلحّ في طلب كشف الضرّ بصبر نافد. وهي مكروهة ومذمومة، وتقدح في تسليمك لله، وعمق إيمانك بأن ما قدّره عليك حقّ ما كان لغيره أن يكون. أمّا التضرّع، فأن تبسط حالك أمام الله، مُظهرًا ضعفك واضطرارك، من قبيل: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ ...٦٢: النمل، **ومعلنًا خضوعك لمشيئته، وصبرك على بلواك، وحاجتك إلى رحمته ورأفته بك، إيمانًا منك أنّه ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾** ١٠٧: يونس.

فالتضرّع عبادة عظيمة، يطلبها الله ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ٤٢: الأنعام، **لأن فيه توكيدًا لاعترافك بقدرة الله ولطفه ورحمته، وتطبيقًا لما تقتضيه العبوديّة من الخضوع**

والانقياد إليه، وإقرارًا بالافتقار إلى رحمته وعفوه.

إن استطابة البلاء، والاستسلام إليه، وعدم السعي إلى رفعه وإزالته بكلّ الوسائل الممكنة، ليس من سمات الإنسان السويّ، وليس بالخلق المحمود، إذ أن في ذلك ادّعاءً، وإحساسًا أدنى إلى الغرور بقدرة المرء على التحمُّل، وهذا يناقض الفطرة السليمة. ولهذا كان من هدي رسول الله ألاّ نطلب الابتلاء.

ونجد في بعض التفاسير، نقلاً عن توراة اليهود، أن أيّوب ﷺ أصيب بمرض مقزِّز، فتناثر من جسده الدود، وسطا عليه النمل. وأنّه كان له أخوان، فجاءاه يومًا فلم يستطيعا الدنوّ منه لريحه. وأنّه قد أُخرج من بلده، وأُلقي على مزبلة خارجها. وكثير من هذا جاء في التوراة، فالفكرة من صنع اليهود المولعين برسم صور منفّرة للأنبياء، ومعروف ما درجوا عليه من أنّه كلّما جاءهم نبيّ قتلوه أو لوّثوا سمعته، أو شوّهوا صورته.

ومثل هذه الأوصاف التي أُلصقت بأيّوب ﷺ لا يجوز على الأنبياء، فهم قد يمرضون مرضًا شديدًا[1]، وقد يتعرّضون للعذاب والمحن، وقد يُرجَمون، أو يُلقَون في النار، أو في الجبّ، ولكنّهم لا يُصابون بأمراض مقزِّزة، وعاهات منفِّرة. وهذا من حكمة الله الحقّ، فالنبيّ مبعوث إلى الناس، ولا يجوز أن يكون فيه ما ينفّرهم منه، ويصرفهم عنه، أو يشكّكهم في صلته بربّه وتأييده إيّاه.

إن أوّل درس في مدرسة الصبر الأيوبيّة أن على المؤمن أن يحرص على الحدّ الأدنى من الصبر والشكر، فيكون صابرًا شاكرًا، أمّا الحدّ الأعلى ففيه يكون صبورًا أو صبّارًا شكورًا. والصبّار الشكور قمّة في هذا الباب، وقد ذكره الله مرّات ومرّات في محكم تنزيله، وذلك في

(١) وقد أصيب النبي ﷺ بالمرض حتى كان يوعك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ٥: إبراهيم، وقوله: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ٣١: لقمان، وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ٣٣: الشورى.

وإذا استعرضنا الآيات وجدنا أنّه تعالى قد وَصف بالصبّار الشكور أولئك الذين يفقهون آيات الله العظام، ذلك أن فقهها يتطلّب الصبر والمصابرة في معالجتها أوّلاً، والصبر والمصابرة في مجابهة العقول القاصرة عمّا يتحصّل بذلك من نتائج ثانيًا. كما أن نفاسة ما يتحصّل بالصبر والدأب يتطلّب الشكر الحقيقيّ بالعمل الذي يحفظه، واتّقاء أحابيل الشيطان التي توقع من يمنّ الله عليهم بشيء من ذلك بالغرور المهلك.

ولا يُحسن الشكرَ حتى يُسمّى شكورًا إلاّ قلّة من عباد الله﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ ١٣: سبأ. و"عباد الله" صفة تميُّز في حدّ ذاتها. فإذا كانوا شكورين فهي قمّة لا يبلغها إلاّ الطيّب الهمام من العباد. ومن رحمة الله أن في طوق المؤمن أن يكتسب الصفتين بالتعلّم، وأن يحمل نفسه عليهما، فيعينه الله، الذي يشمل بعونه كلّ من يتصدّى لعمل طيّب. ويتمّ هذا في سياق الحقّ الذي وراء قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ ٢٨٦: البقرة، و﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ الآيتان ٤٠ و ٤١: النجم. وهذا معنى القول المعروف: الصبر بالتصبّر والحلم بالتحلّم.

والصبر من أشقّ العبادات، لما يتطلّبه من حضور دائم للذات المؤمنة الواعية، ولكنّ المَرانة على الصبر تخفّف من مشقّته. ومن بركات المَرانة على الصبر أنّها تؤتي أُكلها على صعيدين، الأوّل تذكُّر الله دائمًا، والثاني اكتساب العادة. وفي كليهما من الخير ما هو أشهر من أن يُذكَّر به.

وقد جاء ذكر الصبر في القرآن الكريم مائة وثلاث مرّات، نرى في أربع متفرّقات منها توكيدًا لعلوّ منزلة الصابرين، وعون الله لهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الآيتان ١٥٣: البقرة و٤٦: الأنفال، و﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الآيتان ٢٤٩: البقرة و ٦٦: الأنفال، بل حبّ الله إيّاهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ١٤٦: آل عمران. ومن هذا الحبّ أطلق الله للصابرين البشرى، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ١٥٥: البقرة، وإذا أطلق الله البشرى كانت بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

إن علينا أن نثقّف أنفسنا بثقافة البلاء، كما ثقّفناها بثقافة النعمة والرخاء. وثقافة البلاء تعني أن نتعلّم الصبر، ونتدرّب عليه، ونعلّمه أولادنا حتى نعتاده ويعتادوه، كما تُعلَّم الجيوش التغلّب

على المشاقّ بالدُربة المستمرّة على خوض غمارها لتكون مؤهّلة لمعارك تحرز فيها النصر الصعب.

وقد قيل عن الذين أنعم الله عليهم: كان أحدهم يفرح بالبلاء كما يفرح أحدنا بالنعمة. ذلك لأنّه توكيد لنجاحه في مدرسة الصبر بكلّ ما يعنيه ذلك النجاح من تكفير للذنوب، ومرضاة لله. فعن المبعوث رحمة للعالمين ﷺ أنّه قال: «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده وماله وولده حتى يلقى الله عزّ وجلّ وما عليه خطيئة»[١]. وعنه أيضًا: «من وُعك ليلةً فصبر، ورضي بها عن الله عزّ وجلّ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه»[٢]. فإذا ثقفنا هذا استطعنا الإيمان حقًّا بقوله ﷺ: «إذا أحبّ الله قومًا ابتلاهم»[٣]، ورأينا في الصبر كنزًا يغتنمه ذو الفطنة الأريب.

وفي الروايات أن أيّوب عاش ٩٥ سنة ومات في الشام، ولم يؤمن به إلاّ ثلاثة. ثم بعث الله من أولاده بِشرًا، وهو ذو الكفل الذي جاء ذكره في القرآن الكريم مرّتين، ويبدو أنّه لم يؤمن به أحد، والله أعلم. وبعد ذي الكفل، بعث الله شُعيبًا، الذي سمّاه النبيّ ﷺ خطيب الأنبياء.

* * *

(١) مسند أحمد: ٩٨١٠ .

(٢) الترغيب والترهيب: ٥٢٢٢ .

(٣) مجمع الزوائد ٢: ٢٩١ .

الفصل الحادي عشر
شُعَيب
عليه السلام

السلام عليك يا أخا مدين، يا من لم يشفع له حِلمه ورشده، فخُيّر بين الصمت والطرد، فاختار الله ربّه، وهلك الظالمون.

السلام عليك أيها الأب الذي ربّى بناته كما لا يعرف التربية كثير من رجالها حتى اليوم.

السلام عليك يا خطيب الأنبياء بما قلت: ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ..

* * *

أخـو مَديَن

أرسل الله الحقّ شُعَيبًا عليه السلام إلى مَديَن ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ٨٥: الأعراف. ومَديَن قبيلة عربيّة معروفة، كثيرة العدد وفيرة المال، كانت في شمال الحِجاز، ويرجع نسَبها إلى مَديَن بن إبراهيم عليه السلام، الذي تزوّج بنتًا للوط، وبارك الله في ذريّته فغدت ذات شأن، في تلك البقعة الممتدّة فيما بين الشام والحِجاز، وقد منّ الله جلّ وعلا عليهم بذلك: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ ٨٦: الأعراف.

والكثرة نعمة، فهي قوّة فغنًى فمنَعة. وقد رأينا في الذكر الحكيم الخطاب نفسه موجّهًا إلى المسلمين، تذكرة لهم بما أنعم الله عليهم في بدر وغيرها: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ٢٦: الأنفال.

obeikandl.com

وتكثير المال كمًّا من عطاء الربوبيّة، فربّ العباد يكثّر للكافر والمؤمن بأسباب التكثير، ولكنّ المال الحلال الطيّب من عطاء الألوهيّة، ييسّره للمؤمن الذي يتّقي الله ويتّبع الحقّ. والتكثير للكافر من قبيل الإملاء له، ذلك أنّه كلّما كثر ماله الحرام ازداد إيغاله في الباطل في جمعه وتكثيره: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ ١٧٨: آل عمران.

دعوة شُعَيب

اختصّ الله شُعَيبًا بمال وفير، يسّره له حلالاً طيّبًا دائمًا. وكانت نفس شُعَيب الشاكرة تستشعر ذلك، ولسانه يلهج به في حمد وثناء موصولَين لربّه الذي منّ عليه بأنعمه ظاهرة وباطنة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ ٨٨: هود... إنّها أنعم من الله الحقّ، فالبيّنة منه، والرزق منه.

رأى شُعَيب أن قومه قد دبّ فيهم الخلل، وانتشر بين ظهرانيهم الفساد، وأدرك بعقل النبيّ الملهَم أن عليه أن يبدأ جهاده فيهم بالدعوة إلى الله، ومحاربة الشرك، ذلك أنّه العلّة والأصل لكلّ فساد، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ ٨٥: الأعراف[(١)]. ثم فرغ إلى تشخيص أدوائهم، وعلى رأسها أنّهم كانوا يمدّون أعينهم إلى ما متّع الله به غيرهم من الناس، ويبخسونهم أشياءهم، رغم ما كثّر الله لهم من أموال وأنفس ومتاع. وكان قوم شُعَيب عَشّارين أصحاب مَكس، ولم يكن يمرّ ببلادهم أحد إلاّ استولَوا على نصيب مفروض من ماله، وكانوا، إضافة إلى ذلك، يقومون بتطفيف الكيل ويُخسِرون الميزان، ويغشّون في السلع، ويحبسون الأموال عن أصحابها[(٢)]. كما كانوا يتربّصون بالمسافرين لقطع السبل عليهم ونهبهم، وهو من الفواحش المنهيّ عنها[(٣)].

❋

---

(١) من هنا كانت الدعوة إلى عبادة الله وحده هي القضية المركزية في كل الدعوات، ولدى كل المرسلين.

(٢) كالذي يفعله الغرب اليوم من التلاعب باقتصاد العالم وأمواله، وعلى رأس ذلك السيطرة على أسواق النفط، حيث يمارس كل أنواع البلطجة والتلاعب لشرائه بأبخس الأثمان، وفرض الوصاية على تصرف أصحابه بعائداته.

(٣) ذلك أن من أوليات حقوق الإنسان الأمن في بيته وفي طريقه.

لُقّب سيّدنا شُعَيب ﷺ بخطيب الأنبياء، وكان له منهج في الدعوة والحوار يمكن تلخيصه بما يلي:

- يبدأ بذكر الله سبحانه وتعالى، ويذكّر بنعمه، ويوكّد وحدانيّته ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ٨٥: الأعراف.
- يُصرّح بأنّه يأخذ نفسه بما يدعو إليه الناس: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ ٨٨: هود.
- يتكلّم عن دافعه إلى الدعوة، وهو الأمر بالحقّ لإصلاح شأن الناس، ويؤكّد أنّه لا يطلب على ما يفعل جزاءً ولا شكورًا: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ٨٨: هود.
- يبرّر، ويحاجّ بمنطق رصين، وعبارة ليّنة: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ ٨٧: الأعراف، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ٨٨: هود.

لنُخرجَنّك من قريتنا

ولم يَلقَ شُعَيب من قومه آذانًا صاغية، بل جابهوه بمنطق من يجحد الحقّ، ولا يُلقي إليه بالاً ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ٨٧: هود. وقالوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ٩١: هود... ثم لم يلبث الأمر أن انتهى بهم إلى القول: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ ٨٨: الأعراف.

يفرض الغرب اليوم على العالم كلّه، من موقع القوّة، هذا المنطق التسلُّطيّ: من لم يكن معنا فهو ضدّنا. ويضعنا كمسلمين أمام ما يدعوه خيارًا: إمّا أن تكونوا معنا، أو مع الإرهاب. وأن يتمسّك المسلم بدينه، في عرفهم، يعني أنّه اختار الإرهاب، وبالتالي فهو مستهدَف مهدور الدم.

لقد كان الإسلام أوّل نظام قبل حقًّا، وليس دعاية وادّعاءً، المعارضة الهادفة، وذلك عندما أعلنها الصدّيق لتُكتب في سجلّ الخلود: لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم

نقبلها. إذا أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني.

وما من دين ولا معتقد وضعيّ، ولا نظام اجتماعيّ أو سياسيّ يقبل الآخر كما يقبله هذا الدين. فكم من مسلم اسمه عيسى وموسى وداود وسليمان! وما يُعرض المسلمون عن اسم لقدّيس أو حَبر إلاّ أن يكون غير عربيّ. ولا تجد هذا لدى أتباع أيّة ديانة كانت في الأرض. بل إن أسماء بعض الشخصيّات البارزة في الإسلام من المحرّمات لدى أتباع الديانات الأخرى حتى من العرب، فلا يسمّون محمّدًا أو عمر أو عثمان أو عليًّا. وهذا من المضحكات المبكيات في تقبُّل العالم للآخر، وعدم تقبُّل الإسلام والمسلمين له، وذلك رغم كلّ ما يعتري المسلمين اليوم من البعد عن دينهم.

ويعلّمنا نبيّ الله شُعَيب الردّ على هذه الدعوة الوقحة: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ ٨٩: الأعراف[1]. وفتحُ الله جلّ وعلا هنا معناه حكمه الحقّ في الأمر، فبماذا حكم الله الحقّ بين شُعَيب وقومه؟

قوّة غاشمة آتاها الله ما آتاها من فضله تستأسد دفاعًا عن الباطل، وتستبدّ بعُصبة، كلّ ذنبها أنّها مؤمنة مسلمة... هنا يتدخّل الله الحقّ تدخُّلاً مباشرًا، فنقرأ في كتابه العزيز: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ ٧٣: الحجر. أي رماهم ببلاء من السماء، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ ٩١: الأعراف. أي أصابهم ببلاء من الأرض.

إن علينا أن نعرف أن هذا الكون كيان قائم على الحقّ، كما سبق أن ذكرنا، وهو كيان حيّ متكامل متواشج متوازن يتفاعل كوحدة، وله معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه كما أراده فاطره الحقّ. وهو يغضب ويثور ويضرب متى اقتضى الحقّ أن يفعل، ليحفظ التوازن الذي شاءه

(١) والفتح القضاء. وفي عُمان وبعض دول المغرب يدعون القاضي فتاحًا.

الله فيه... إنّه كيان ملآن بالعقلانيّة. ولكنّها عقلانيّة لا نفهمها[1].

ولكلّ أمر خطوط حمر، إذا سمحت لنفسك بتجاوزها انقلبت الأمور عليك. فكم من مصادر قوّة أصبحت وبالاً على أصحابها! وتلك بعض المفاعلات الذرّيّة التي هدّد بها أقوام الأرض ذات يوم، أصبحت وهي دمار منصَبٌّ عليهم قبل الآخرين. وتلك كوادر التجسّس والتآمر التي أُعدّت للسيطرة على العالم، تجرّ على أصحابها من الويلات ما لم تجرّه على أعدائهم، وقد كانت فضائحها من أكبر معاول التدمير لكياناتهم.

ومن هنا فإنّ كلّ قوّة طاغية، تواجه، ظلمًا وعدوانًا، قوّةً لا تكافئها، تنقلب على أصحابها على غير انتظار... فما كان بين فِرعَون وجنوده، وبين الكارثة التي حلّت بهم، إلاّ أن أوحى الله الحقّ إلى موسى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ ٦٣: الشعراء. وما كان النمرود يعرف، وهو يرفل في جبَروته أمام العزّل المغلوبين على أمرهم، أن هذا الجيش المعجِب سيقتله الذباب أو البعوض... إنّها الخطوط الحمر في خلق الله الحقّ...

إن لهذا الكون أخلاقيّات رغم أنفك، وله قواعد ونواميس جارية، لا يحيط عقلك بالكثير منها، وقد تبدو خارقة لما ألف وعرف، فكيف تفسّر مثلاً أن يقاتل ثلاثمائة من المسلمين العربَ جميعا في بدر؟ لقد أخبرنا الكتاب العظيم أن الله أمدّهم بالملائكة... قوّة لا نعرفها... قوّة فوق ما يستوعبه العقل البشريّ، كان ينبغي أن تتدخّل بشكل ما لإحقاق الحقّ.

ولأن لهذا الكون معقّبات من بين يديه ومن خلفه، ولأن للأمور قوانين يحكمها الحقّ في النهاية، فما يجري للمسلمين اليوم ينبغي ألاّ يخيفنا إلاّ بالقدر اللازم لاستنفارنا إلى العمل والإصلاح. فهذه أمّة حماها الله سبحانه وتعالى طوال التاريخ، قد تنحرف قليلا... قد تؤدَّب قليلا... لكنّها لن تفنى أبدًا... ذلك وعد من سيّد الخلق الذي لا ينطق عن الهوى: «سألت ربّي عزّ وجلّ أن لا يهلك أمّتي... فأعطانيها»[2]، ولن يعدم الحقّ الذي يقوم عليه الكون كلّه فئة تقوم

---

(١) والعقلانية المذكورة، حسب فهمي لمقاصد صاحب القصص، تعني القوانين القاصدة المحكمة الفاعلة التي قضاها الله في هذا الكون لتحفظ توازنه، وتضمن استمراره إلى أجل الله فيه، لكنّها عقلانيّة لا نفهمها، وهذا لا يعني أنها لا يمكن فهمها. فما دمنا قد أُمرنا بالنظر في الآفاق وفي أنفسنا، وبقراءة الكون باسم ربنا الذي خلق، وما دام الله الحق لم يحجب عنا السلطان الذي ننفذ به من أقطار السماوات والأرض، فمعنى هذا أن القوانين الضابطة للكون ليست مما يستعصي على العقل فهمه، وقد فهم الإنسان قدرًا منها، وسخرها لنفعه. ولكن الإحاطة بتلك القوانين هي التي ليست في طوق العقل، وأظن أنها المقصودة بقوله: "لا نفهمها".

(٢) مسند أحمد: ٢٢١٨٩.

عليه وتُظهره.

فما على المسلمين اليوم إلاّ أن يستنفدوا طاقاتهم ووسائلهم في العودة إلى الله، واستمطار رحمته، وأن يبدؤوا خطواتهم في طريق الإصلاح على هدًى منه، وعلى رأس ذلك إصلاح الإعلام العربيّ المستلَب، الذي زعزع ثقتنا بأنفسنا، وزعزع ثقة العالم الإسلاميّ بنا .

ومعروف خطر ذلك على عقيدة المسلمين من غير العرب، الذين يرتبط الإسلام بالعروبة في أذهانهم. ولا يخفى أن تسويق الإعلام العربيّ الفاسد، إلى الدول الإسلاميّة غير العربيّة، جانب خبيث من الحرب على الإسلام، إذ يستعصي التصدّي لآثاره، في حالة الخفوت الراهن للصوت العربيّ والإسلاميّ، بل اختفائه.

وقد بدأنا نلمس نتائج هذه الخطّة الخبيثة، في نجاحات هنا وهناك في الديار الإسلاميّة غير العربيّة، حيث يخرِّج الإعلام المرتدّين عن الإسلام، في مهرجانات دعائيّة لن تضرّ الله شيئًا، بل تقُمّ الأمّة، وتنفي عنها خبثها، لتَخلُص إلى الله طيّبة نقيّة، فإن الله طيّب لا يقبل إلاّ طيّبًا.

ألا بُعدًا لِمَديَن كما بعدت ثمود

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ ٩٤ و ٩٥: هود. أهلك الله ربّ العالمين قوم شُعَيب، وانتهى أمر مَديَن بما كفرت بالله، وجحدت من أنعُمه. ووقف شُعَيب عليهم، كما وقف النبيّ ﷺ في بدر على أهل القَليب، وأشاح بوجهه: ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ ٩٣: الأعراف

إنّها سنّة الله الحقّ في قلوب الأنبياء، تلك القلوب الفذّة، التي بلغت من الصلة بربّها، وكمال العبوديّة له، أن غدا فرحها وحزنها تبعًا لما أمر به ونهى عنه. فهو جلّ وعلا يرعاها، ويوجّهها، ويربطها بسَعته، فتُفضي إليه من عنَت الحسرات، ومرارة الأسف، وضيق الحزن: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ ٨: فاطر، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ٦: الكهف، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ١٢٧: النحل.

وتستجيب القلوب النبيّة الوليّة، حتى لتتلاشى أمام ولائها لمولاها الأبوّة، والبنوّة على ما لهما من القدسيّة فيما شرعه الله ووصّى به. فقد رأينا نوحًا يستغفر ضارعًا أن سأل ربّه ما خيّل إليه أنّه وعَده إيّاه من نجاة ولده، ويخضع راضيًا شاكرًا، وهو يتلقّى كلمات ربّه: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ ٤٦: هود. وسمعنا سيّد الخلق ﷺ يقسم: « والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها »[1]. ولو أنّها فعلت لفعل، وهي مَن هي مِن رسول الله ﷺ...

أصحاب الأَيْكة

وأرسل الله سيّدنا شُعَيبا إلى أصحاب الأَيْكة، وقد انفرد شُعَيب ﷺ بأنّه أُرسل إلى قومين. ويذهب بعض المفسّرين إلى أن أهل مَديَن وأصحاب الأَيْكة اسمان لمسمًّى واحد، لكنّ النصّ صراحة في الكتاب العزيز على اختلاف مصارع القومين، إضافة إلى النصّ على أن شُعَيبًا أخو مَديَن: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ ٨٥: الأعراف، وعدم النصّ على ذلك في نسبته إلى أصحاب الأَيْكة، حيث قال: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ١٧٦ و١٧٧: الشعراء. يحملان على ترجيح كون أصحاب الأَيْكة قومًا آخرين[2].

ولعلّ كون ذنوب أهل مَديَن وأصحاب الأَيْكة واحدة هو الذي حمل على الاعتقاد بكونهم قرية واحدة. فالفريقان يطفّفان الكيل، ويُخسران الميزان، ويَبخسان الناس أشياءهم، ويقطعان الطريق. ولعلّها كانت من المفاسد الشائعة في المنطقة كلّها، وهي سمات المجتمعات الفاسدة حتى اليوم.

وهذا ما جعل شُعَيبًا يكرّر هنا دعوته الأولى، ويعِظ هؤلاء بما وعظ به أولئك، وكان طبيعيًّا أن تكون ردّة الفعل متشابهة، فقد تحدّى أصحاب الأَيْكة شُعَيبًا، وتحدَّوا

(١) سنن النسائي: ٤٩٠٠.

(٢) يفنّد ابن كثير هذه الحجج في قصص الأنبياء ١: ١٧٣ و ١٧٤.

ربّ العالمين بحماقة عجيبة، فقالوا لشُعَيب: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ١٨٧: الشعراء.

وقد ابتلى الله أصحاب الأيْكة بالحرّ الخانق، فجعلوا يفِرّون إلى حيث يظنّون أن ثمّ مُعتَصَم، ولا عاصم من أمر الله إلاّ من رحم، فأفضَوا إلى البرّيّة يلتمسون النجاة من الحرّ، فسلّط الله عليهم غمامة سوداء بادرتهم بريح باردة، فهُرعوا يتجمّعون تحتها، وإذا هي تتفجّر مطرًا كالحميم، وتُساندها ريح حارقة، فيُقضى عليهم جميعًا بعد عذاب بئيس. ويدعو الذكر الحكيم ذلك اليوم المشؤوم بيوم الظُلّة: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٨٩: الشعراء. ولم يَنجُ من ذلك العذاب غير شُعَيب والقلّة الذين آمنوا معه.

مصارع العُتاة

ويعقّب النصّ العظيم على مصرع قوم شُعَيب عليه السلام ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ ٩٤: الأعراف[١]. وقد اطّرد في الأمم التي يُبعث فيها الأنبياء والمرسلون أنّها تكذّبهم، وتجنح إلى الإلحاد والظلم، وتتعصّب لمَوروثاتها ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ ٢٣: الزخرف، وأنّها تزهو، وتستكفي، عُتُوًّا واستكبارًا بما أحرزته من علم ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ ٨٣: غافر، ويبلغ بها الافتتان بما مُتّعت به أن يقول قائلها: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ ١٥: فصلت؟

ويلفت الرحمن الرحيم تلك الأمم التي عتت عن أمر ربّها إلى ضرورة العدل، ويذكّرها بما شرعه من الدين، فإذا اعتبرت بما أصابها، فآمنت وارعوت، نفعها ذلك ونجت[٢]، وإلاّ أخذها بالبأساء والضرّاء، وهو مؤشّر لا لَبس فيه على أنّها قد أخطأت، وأن عليها التضرُّع، أي تدارُك الأمر بالتوبة، وإعطاء الحقّ من نفسها. فالله لا يحاسب الناس في الدنيا على الشرك، ولا على الكفر[٣]، وإنّما يحاسبهم على العدل. ﴿وَمَا

(١) والبأساء البلاء يصيب مالك، والضراء البلاء يصيب بدنك.

(٢) كالذي كان من قوم يونس.

(٣) فحساب هذا في الآخرة.

كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ١١٧: هود[1].

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ٤٤: الأنعام. فإذا لم يفلح التذكير، ولم ينفع الأخذ بالبأساء والضرّاء في حمل الأمّة على العدل، فتح الله عليها أبواب كلّ شيء من العلم والخير والرفاه والرخاء[2]، أي أملى لها، ومتى أملى الله لقوم أمعنوا في الظلم، واستعلَوا في الأرض، وأمنوا مكر الله وهو القائل: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ٩٩: الأعراف؟[3] وهم خاسرون لأن بأس الله لهم بالمرصاد ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ٩٧ و٩٨: الأعراف.

ومن هنا فقد نبّه الحقّ جلّ وعلا الأمم الغالبة إلى أن الله من ورائهم محيط: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ١٠٠: الأعراف[4]، وأنهم إذا لم يخضعوا إلى الحقّ، طُبع على قلوبهم، فأُصيبوا بما أذنبوا؟

* * *

---

(١) والقرية في القرآن الكريم تعني المجتمع والأمة.

(٢) وما ذلك إلاّ لتكون الضربة آلم وأمضّ وقعًا "حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة" ٤٤: الأنعام، وهم أجدر أن يفرحوا ذلك الفرح القاروني الأثيم الذي لا يحبه الله "إن الله لا يحب الفرحين" ٧٦: القصص، وهو غير فرح الشاكرين بما آتاهم الله من فضله ورحمته: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا" ٥٨: يونس.

(٣) أي غفلوا عن حتمية سنن الله الحق في خلقه. ومن هؤلاء أولئك الذين لا يعتبرون بما جرى لمن قبلهم، ويرون أنه أمر مسّ السابقين من آبائهم لظروف خاصة بهم، ولا يرون فيه سنة كونية تتكرر كلما توفرت أسبابها.

(٤) ولا تعني المشيئة هنا الجبر الإلهي، ذلك أنها مشيئة الحق ومقتضاه، فحق أن يصاب مقترف الذنب بذنبه، لأن الذنب سبب لا بد له من نتيجة، وكانت النتيجة لذنوب هؤلاء أن ابتليت قلوبهم بالقسوة، فانتفت منها الرحمة فظَلَموا، فدُمِّروا بسبب ظلمهم.

الفصل الثاني عشر

موسى

عليه السلام

السلام عليك يا من صنعك ربّك على عينه، وألقى عليك محبّة منه، فاحتملك اليمّ وليدًا، ونجّاك من فرعون وجنوده كهلاً.

السلام عليك في الوادي المقدّس، وأنت تشارف تخوم المطلق، في لحظة انمحى فيها الزمان والمكان، وألغى كيانَك النداءُ المزلزل: يا موسى... إنّي أنا الله...

السلام عليك وأنت تحمل عبء إحياء الإنسانيّة المغتالة في القلوب الغلف...

سلام عليك يا سيّدي في الآخرين... سلام على موسى وهارون.

* * *

كما استحوذ يوسف على سورته، استحوذ موسى على سورة القصص، فلم تتحدّث عن نبيٍّ غيره، وتبدأ سورة القصص بقوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ ١ -٣ : القصص. ويلفتنا الفعل «نتلو»، حيث جاء دون نُخبر أو نقرأ أو نقُصّ. وتمتاز التلاوة بكونها تعرض الأحداث متتالية حتى تتمّ. فتلاوتك القرآن تعني أنّك تقرأ السورة تلو السورة بشكل متسلسل. كما يلفتنا قوله «من نبأ» دون «من خبر»، ذلك أن الخبر قد تحصّله بنفسك، أمّا النبأ فما أخبرك به عليم ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ ٤٩ : هود. ويتلو الذكر الحكيم هذه الأنباء بالحقّ، أي بدون تزييف ولا تزوير، وليس

obeikandi.com

كالذي قصّه كتَبة التوراة محرّفين الكلِم عن مواضعه. ذلك أنّه ما من كتاب ولا شريعة ولا سِفر ولا وثيقة في التاريخ بمنأى عن التحريف والتزوير إلاّ هو.

ولد سيّدنا موسى بن عِمران عليه السلام في مصر. في أولئك الذين غلب عليهم اسم بني إسرائيل، كما سبق القول، ويُرجع الرواة نسَبه إلى لاوي، وهو أحد أبناء يعقوب الذي كان قد جاء إلى مصر، مع من جاء، في زمان يوسف عليه السلام.

قوم موسى في مصر

وقال مؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ ٣٤: غافر، فلم يكن الزمان شديد التطاول بين يوسف وموسى عليهما السلام، ولكنّ الأحوال تبدّلت، حيث رحل الهِكسوس، وتولّى حكم البلاد ملوك الأسر، وهم حكّام مستبدّون قساة، عُرفوا باضطهادهم للأجانب، واستعبادهم للمدعوّين ببني إسرائيل على الأقلّ[1].

وهكذا فقد المدعوّون ببني إسرائيل ومن التفّ حولهم حظوتهم في مصر، وساد التوتّر علاقتهم بالسلطات. وتُرجع توراة اليهود موقف فرعون مصر وملئه من قوم موسى إلى تخوّفه من تكاثرهم، وخشيته أن يعظم أمرهم فينقلبوا عليه: «فقال لشعبه: انظروا كيف صار بنو إسرائيل أكثر وأعظم منّا. تعالوا نحكم القبضة عليهم لئلاّ يكثروا. فإذا وقعت حرب ينضمّون إلى خصومنا ويحاربوننا ويسيطرون على أرضنا»[2]، وقد ذكر بعضهم العقيدة، كسبب من أسباب موقف تلك السلطات، حيث كانت في قوم موسى بقايا من التوحيد.

وفي كلٍّ من السببين المذكورين ما يستحقّ الاستدراك، فما ساقه الخبر التوراتيّ لا يخرج عن كونه بعضًا من التضخيم المعتاد المعروف الغرض لعدد بني إسرائيل كلّما لاحت فرصة لذلك، وأمّا بقايا التوحيد في هؤلاء، فقد كانت أقلّ بكثير من أن تشكّل

(١) انظر قصة يوسف عليه السلام.

(٢) سفر الخروج: ١.

معارضة لسياسة الدولة المشركة، التي تؤلّه الحاكم، ولعلّ الأمر لم يكن يزيد على الإعراض والإنكار القلبيّ. والأرجح، كما سبق القول في قصّة يوسف، أن إلغاء امتيازات هؤلاء، وحملهم على السخرة كان وراء تدهور علاقتهم بالسلطات في مصر[١]. وقد أدّت هذه الأوضاع إلى حركة نزوح عن أماكن العمل في المدن، واللجوء إلى الخلاء استجابة لنداء البداوة المتجذّرة فيهم.

ويبدو أن نطاق تلك الحركة قد اتّسع، ممّا أدّى إلى تنبّه السلطات إلى خطرها على نسبة الأيدي المسخّرة في أعمال البناء، في المملكة الناشئة، فجعلت تمنع هؤلاء بالقوّة من مغادرة المدن، ومن مغادرة البلاد، حتى بدوا كالمعتقلين، وقد زاد هذا من استيائهم وتهرّبهم وشغبهم، ممّا شدّد القبضة فرعون وزبانيته عليهم، حتى زادوهم رهقًا. ومن هنا جاءت رسالة موسى وهارون إلى فرعون ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ ٤٧: طه، وتلخّص التوراة مطلب موسى من فرعون على لسان الربّ: «أطلق شعبي ليعيّدوا لي في البريّة... فدعنا الآن نسير مسيرة ثلاثة أيام في البرية ونقدم الذبيحة للربّ إلٰهنا»، أمّا إجابة فرعون فكانت: «لماذا يا موسى وهارون تعطلان شعبكما عن أعمالهم؟ اذهبا وأعيداهم إلى أشغالهم»[٢].

فِرعَون موسىٰ

زعم الرواة لفرعون موسى أسماء كتلك التي يطلقها البعض على الجنّ، ومنها أنّه يُدعى الوَليد بن مُصْعَب[٣]. وقد جاء ذِكره في القرآن العظيم أكثر من سبعين مرّة، على أنّه ملك الأرض، وربّ العالمين في زعمه. وقد أمر الله الحقّ موسى وهارون أن يتلطّفا به ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ٤٤: طه. ويعزو بعض الدارسين هذا

---

(١) لا يلائم العمل العضليّ المرهق المنظّم في السخرة طبيعة البدو، لما يتّصفون به من عدم الانضباط، وصعوبة الانصياع إلى الأوامر، ولاعتيادهم الإيقاع المتراخي في حياتهم، وافتقارهم إلى الجلد على العمل العضليّ، وهذا يجعل أداءهم غير مرضيّ عنه، ويُفضي إلى عنُف المشرفين عليهم، وإلى بلوغ أخبارهم السلطات على أنّها نوع من عرقلة العمل، أو الشغب الجماعيّ، ومن المعقول أن ينتهي الأمر بالتضييق عليهم.

(٢) سفر الخروج: ٥.

(٣) وهو ما يُنكره الباحثون في تاريخ مصر القديم.

obeikandi.com

الأمر إلى مِيزات فيه، تندر في الحكّام المستبدّين الظالمين، يمكن استخلاصها من مواقف أثبتها الذكر الحكيم.

وفرعون موسى في القرآن الكريم لم يكن يستبدّ برأيه في سياسة الأمور، بل كان يتقيّد بتقاليد عريقة في أسلوب الحكم. وقد صوّر لنا النصّ القرآنيّ مجلس شورى حقيقيًّا، يستشير فيه الملأ من حوله في شأن موسى ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ٣٥: الشعراء ؟ وفي مشهد آخر نراه يعرض وجهة نظره في أمره، فهو يرى التخلّص منه، ويقدّم مبرّراته، ولكنّه لا يستعمل سلطته في التنفيذ بل يَنوط ذلك بموافقة هؤلاء الملأ الطوعيّة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ ٢٦: غافر. ويصوّر الذكر الحكيم الملأ يُدلون برأيهم ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ ٣٦ و ٣٧: الشعراء، فيستمع إليهم، ويتفّقون على التنفيذ ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ ٣٨ و ٣٩: الشعراء ؟

وهو مهذّب الخطاب، يحترم الآخر، ويسمح لخصمه بمناقشته ومحاورته، فقد قال لموسى: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ ٥٨: طه، ولم يبادر إلى قتله لمجرّد معارضته إيّاه، بل صبر عليه ليُدلي بحُججه، كما في هذا الحوار: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ ٢٩: الشعراء.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ ٣٠: الشعراء؟

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ٣١: الشعراء.

ونحن نرى من بِرّه بموسى ما تنقطع دونه كثير من الهمم، وذلك قبل أن يبلغ الصدام العَقَديّ بينهما نقطة الذروة. فقد قال له في عتاب رفيق، وتذكير لطيف: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ١٨ و١٩: الشعراء؟ وفي مقابل هذا نقف في الذكر الحكيم على الوجه الآخر لفرعون ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ ٤: القصص.

obeikandl.com

الشيع هي الفرق المتناحرة، التي يكفّر بعضها بعضًا، فيتفرّق الدين، كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ ١٥٩ : الأنعام. أمّا الطوائف فالفرق المتآلفة كما هي الأحزاب، والأحزاب في الأصل تتّفق فيما بينها على مصلحة الأمّة، ومصلحة الوطن، كلّ بأسلوبه الخاصّ .

وفي الأمّة الإسلاميّة طوائف كالأحناف والشافعيّة والمالكيّة والحنابلة، ولكلّ منها منحًى خاص بها. والطوائف قوّة للأمّة، إذ تصنع ما يدعى بالرأي الآخر، ممّا يؤدّي إلى تكريس روح التفاهم بين المشارب الفكريّة عن طريق الحوار الهادف. فإذا بلغ الأمر بطائفة أن تكفّر الآخرين، وتستحلّ دماءهم، فقد تحوّلت إلى فرقة.

إن شرّ ما يفعله الحاكم أن يثير العداوة بين فئات شعبه، ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ٤ : القصص. والإفساد صفة تشمل جميع المثالب الآنفة الذكر، ذلك أنّها إمّا إفراط وإمّا تفريط، وكلاهما خروج على الاستقامة التي تعني الاعتدال.

وممّا وصف به الذكر الحكيم فرعون الإسراف: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ٨٣: يونس، والطغيان: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ ٤٣: طه، والطاغية هو الذي لا يعرف لأحدٍ حقًّا، والاستبداد: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ ٢٩: غافر. فلا حقّ إلاّ ما يراه هو، ولا اعتبار إلاّ لكلامه وفلسفته وفكره.

ويصوّره الكتاب العزيز يحمل رعاياه على عبادته، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ٢٤: النازعات، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ ٣٨: القصص، وينكّل بمن يستنكفون عن عبادته منهم. وهذا من أسباب العداء بينه وبين بني إسرائيل[1]، فهم «... ومهما يكن قد وقع في عقيدتهم من فساد وانحراف، فقد بقي لها أصل الاعتقاد بإله

---

(١) وهي كثيرة سبق تفصيلها ومناقشتها.

واحد، وإنكار ألوهيّة فرعون، والوثنيّة الفرعونية جميعًا»[1]. وكان فرعون يأخذهم بالعنف والقسوة، وينغّص عليهم حياتهم بأعمال السخرة المرهقة، وقد أسفر ذلك عن مجتمع طبقيّ متظالم، وعمّ البلاد الفساد.

ولم يرعوِ فرعون عن ضلاله وطغيانه، وأصرّ على تعبيد الناس، وتنصيب نفسه إلهًا لا يُرَدّ له حُكم، فكانت عاقبته كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ ٢٥: النازعات.

ومن المفارقات أن امرأة فرعون هذا كانت من فضليات النساء، وتزعم الروايات أنّها تُدعى آسية بنت مزاحم، ويربط بعضهم نسبها بالملك الهكسوسيّ الذي كان يحكم مصر في زمن يوسف، والذي تقول تلك الروايات إنّه قد آمن. وفي القرآن الكريم ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ ١١: التحريم.

مولد موسى عليه السلام

في هذه الأوضاع المأساويّة، التي عايشها المدعوّون ببني إسرائيل في مصر، ولد موسى عليه السلام «ولد والخطر محدِق به، والموت يلتفّ عليه، والشفرة مشرَعة على عنقه، تهم أن تحزّ رأسه»[2]. وفي الروايات أن عمران أبا موسى قد تزوّج بيوكابد، فولدت له هارون ومريم ودالية، ثم وضعت موسى. وكانت دائمة الهلع لمعرفتها لما ينتظر طفلها على أيدي زبانية فرعون الطاغية، الذين كانوا يسومون بني إسرائيل سوء العذاب: يذبّحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم.

جاء في الذكر الحكيم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ٤٩: البقرة، **وهذه الآية لا تُلزم بالقول أن**

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، تفسير الآية ٤ من سورة القصص.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، تفسير الآية ٧ من سورة القصص.

فرعون كان يتحرّى المواليد الذكور، في بني إسرائيل، فيقتّلهم لدى ولادتهم، كما تزعم توراة اليهود[1]. وقصارى ما تحتمله أن فرعون كان كثير التقتيل لهؤلاء، تدلّ على ذلك صيغة المبالغة في «يذبّحون» ، فهم يقتلون فرادى وجماعات تجنّيًا وظلمًا، ولعلّ آل فرعون كانوا يأخذون صغار هؤلاء بجريرة كبارهم. ومن الطبيعيّ أن يقع القتل على الرجال دون النساء.

وقد ذكرت كثيرٌ من التفاسير نسخةَ موسى من الحكاية العتيدة عن تقتيل المواليد الذكور، والتي تقول: إن الملك الطاغية رأى فيما يراه النائم، أن نهايته سوف تكون على يد طفل يولد في مملكته، فقرّر قتل كلّ ذكر يولد في الوقت الذي حدّدته الرؤيا. ولكنّ أمّ الوليد المقصود تنجح في إخفائه، ويكبر ليتمّ قضاء الله في هذا الملك. وهي حكاية ألّفها قاصّ بارع، لتعليل العداء الذي تواجِه به السلطات الحاكمة الأنبياء والرسل والمصلحين.

وهل كان فرعون من الغباء، وهو يقتّل مواليد بني إسرائيل، بحيث يحتضن واحدًا منهم، ويربّيه في حجره؟ أليس جديرًا بمن يحتاط تلك الحيطة، ألاّ يفرّط ذلك التفريط؟

وتحوّل الهاجس والقلق إلى عذاب، ففرّ القلب المؤمن إلى السيّد والسند يستهديه ويستعينه، في قمّة من الصدق والإخلاص تنفذ بصاحبها إلى لُباب الحقّ، وتؤهّله لتلقّي الحكمة المهداة، والانقياد للرشد الموهوب رحمة ومنّة.

وكان لله شأن ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ٧: القصص[2]. وأرضعت يوكابد الطفل، ثم أحسّت بالخطر يقترب منه، فهل تلقيه في اليمّ لذلك الوعد وتلك البشرى؟ وكان في قلبها من اليقين، والإحساس بيد الله، ما جعلها تنهض إلى الأمر دون تردّد، وهي تتلمّس همسات البشرى المضيئة تشدّ أزرها وتسدّد يدها وخطاها ...﴿إِنَّا رَآدُّوهُ

(١) في قصّة القابلتين البيّنة الافتعال.

(٢) وللوحي طرائق، أعلاها الوحي المجرد عن طريق جبريل، وهو خاص بالأنبياء، والوحي هنا الإلهام، أو حديث الخاطر، وهذا خاص بالصالحين من الناس.

إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ٧: القصص. ويمّحي الزمن، ويبدو لها الآتي ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ ٣٩ : طه... هكذا بدا لها اليمّ آمن على الصغير من أحضانها.

وقاد اليمّ الطفل إلى شاطئ الأمان، قاده إلى قاتله... إلى قلب بيته، وقلب زوجته، حيث لا يمكن أن تصل إليه يده أبدًا . ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ٨: القصص، ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ ٩: القصص. وكان الله قد جعل فيها من الخير ما لم يجعل في فرعون، فكان كذلك لها من دونه. أمّا فرعون وهامان وجنودهما فقد كان لهم عدوًّا وحزنًا، وكان مجرّد قبوله بينهم من أكبر أخطائهم وسوء تدبيرهم، وما أكثره! ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ ٨: القصص، ذلك أنّهم احتضنوا من جعل الله على يديه نهايتهم ونهاية ظلمهم، فسعَوا بأرجلهم إلى حتوفهم.

ونما خبر الطفل الذي التُقط من الماء إلى الملأ من آل فرعون. ويصعب جدًّا الظنّ أنّهم لم يفطنوا إلى كونه عبرانيًّا، ولكن لعلّ أسرة الحاكم، رغبة منها في الإبقاء على الطفل، هوّنت من أمر الشكوك، ولعلّ امرأة فرعون قد أقنعت زوجها بأن اللقيط الفاتن سوف يُنشّأ في القصر كما لو كان ولدًا لهما، ولن يعرف أنّه من بني إسرائيل، وسوف يكون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ ٩: القصص، ولكن فرعون قال: قُرّة عينٍ لك أنتِ، لا حاجة لي في ذلك. وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو أقرّ فرعون كما أقرّت امرأته لهداه الله كما هدى امرأته»[١] . ولكن أشقته كلمته.

إن للكلمة شأنًا عجيبًا... القرآن كلمة، عيسى كلمة، لا إله إلاّ الله كلمة... الكفر كلمة. وأنت تُحَاسَب على الكلمة يوم الحساب، ولأن القرآن كلام الله كرّم الله أهل القرآن، وقال رسوله: «ما تقرّب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه»، يعني القرآن[٢]. وكرّم الله أهل كلمة «لا إله إلا

(١) مجمع الزوائد ٧: ٥٧.

(٢) سنن الترمذي: ٢٩١١ .

الله»، وجعلها منجاة للناس يعصمون بها دماءهم في الدنيا، ويكفّون بها عن وجوههم النار في الآخرة. وعذّب الله أهل الكفر بكلمة الكفر.

والكلمة الطيّبة في شهادةٍ بظهر الغيب تغفر الذنوب جميعًا، ويقابله أنّ من أعان على قتل مسلم ولو بشقّ كلمة بُعث يوم القيامة مكتوبًا على جبهته آيس من رحمة الله. وإن ابن آدم ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ١٨: ق.

هذا يعني أن البلاء والرجاء رهينان بالمنطق، وما من كلمة تقولها إلاّ ولها تأثير في حياتك خيرًا أو شرًا، وهذا سيّدنا يوسف الصدّيق يقول: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ ٣٣: يوسف، **ولو أعقبها بما قاله المصطفى ﷺ: «غير أن عافيتك أوسع لي»[1]. لعافاه الله.**

ومن هنا كان لذكر الله بالكلمة شأن جليل، فإذا قلت: «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» مائة مرّة، وأنت تعنيها، وتستحضر ظلالها في ذاتك، غفر الله لك ذنوبك، بما فيها الكبائر. وحديث البطاقة حديث عجيب صحيح.

يقصّ علينا الذكر الحكيم من خبر أمّ موسى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ١٠: القصص. وأرى كلمة «فارغًا» هنا من إعجاز لغة القرآن في التعبير عن حال أمّ انتُزع منها طفلها الذي كان ملء القلب والسمع والبصر والأحضان، فاستبدّت بفؤادها لوعة الشوق والحنين، ومسحت كلّ ما فيه، وتركته فارغًا إلاّ منها وحدها. وجدير بهذه الأمّ أن تأتي ما يهدّد بافتضاح أمرها، ولكنّ الله أراد لها الكتمان، فربط على الفؤاد الفارغ، فما أبدى حنينه ولهفته وشوقه.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٩: القصص[2]، لقد أرسلت يوكابد اللهفى ابنتها تتحسّس من الوليد الذي انتهى به المطاف في قصر عدوّ

(١) مجمع الزوائد ٦: ٣٥.

(٢) وقوله: فبصرت يفيد الرؤية المشفوعة بمعرفة حال المرئيّ، أي الرؤية والتدبّر، وليس مجرد الرؤية، وفي هذا دليل على ذكائها وبراعتها.

الله وعدوّه، لتأتيها بأخباره دون أن يشعر بصلتها به أحد منهم. ولعلّها كانت صبيّة صغيرة لا تُثير الريبة، وقد تبيّن أنّها تتمتّع بما يتمتّع به قومها من براعة في التخفّي والتمويه والتسلّل، مكّنتها من النجاح في مهمّتها. ولعلّها استطاعت دخول القصر عن طريق بعض جواري سيّدته الطيّبة المحسنة.

ولليهود على امتداد تاريخهم باع في التجسّس وتسقُّط الأخبار من وراء وراء. وهذا ملائم لطبعهم المتكتّم البعيد عن الصراحة والمباشرة، ولما فيهم من جبن فطريّ، يدفع بهم إلى الصفوف الخلفيّة، حيث تكون الرؤية غير مباشرة، وتتطلّب الحيلة وحسن التأتّي.

ومعروف عن اليهود اليوم متاجرتهم فرديًّا، وعلى مستوى الدول، بالمعلومات. فوعد بلفور الذي كان وراء نكبات العالم كلّها كان ثمنًا لمعلومات استخباريّة صهيونيّة. وقد تعاظمت في هذا القرن أهميّة المعلومات الاستخباراتيّة في السياسة، وبرز دورها فيما شهدناه ونشهده من حروب. ولم يعد خافيًا أنّنا، مسلمين وعربًا، مختَرَقون من قِبل جواسيس الأرض هؤلاء اختراقًا فاضحًا، وأن هذا وراء ما آلت إليه حالنا اليوم.

إن الاستخبار عن العدوّ وسيلة لوقاية الأمّة ممّا يدبّره لها من سوء في ظهر الغيب. وقد جاء في الذكر الحكيم ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ ١٨٨ : الأعراف.

حظي الطفل الملتَقط في قصر الملك بكلّ صنوف الحفاوة والبرّ، وأطلقوا عليه اسم موسى وتعني الماء والشجر. ولكنّهم سرعان ما ذُعروا إذ حرّم المدبّر على الطفل المَراضع، حتى كاد يموت جوعًا بين أيديهم وهم مُبلِسون. وكانت تلك فرصة ذهبيّة للمتسلّلة الصغيرة: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ ١٢ : القصص؟

هكذا صارت أمّ موسى مرضعة لربيب الملك المدلّل، وانتقلت إلى القصر لتُباشر عملها، وقيل بل انتقل الطفل إليها، والأوّل أرجح منطقيًّا. وفي الذكر الحكيم يمنّ

الله على موسى وأمّه: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ١٣: القصص، وفي آية أخرى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ ٤٠: طه[١].

ويلاحظ وضوح دور العنصر النسائيّ في قصّة موسى عليه السلام فأمّه وأخته تلعبان دورًا ذا تأثير واضح في مجريات الأحداث. وسوف نرى أن أمّه قد لقّنته مع اللبن عقيدة آبائه، ونقلت إليه ما بُشّرت به من أنّه سوف يكون رسولاً إلى بني إسرائيل، ممّا حدّد اتّجاهه، ووجّه نشاطه. كما تُبرز توراة اليهود دور أخته التي تدعوها مريم وزوجها إلى جانب موسى بعد مغادرته مصر ببني إسرائيل. وهناك نساء أخريات يلعبن أدوارًا حيويّة في القصّة وهنّ زوجة فرعون، وبنتا شيخ مَدين، الذي يرى كثيرون أنه شُعيب النبيّ عليه السلام.

في قصر فرعون

تجلّى وعد الله الحقّ لموسى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ ٣٩: طه، فإذا الطفل، الذي ذبح فرعونُ وهامانُ وجنودُهما مئاتِ الأطفال حذرَ أن يكون واحدًا منهم، يعيش مقرّبًا مكرّمًا في قصر فرعون نفسه، وينعم بكلّ امتيازات تلك المكانة[٢]، ولم يكن لهذا سوى مبرّر واحد، وهو المحبّة التي ألقاها الله عليه... مفارقةٌ لا يمكن للعقل البشريّ تفسير حدوثها إلاّ بالعناية الإلهيّة التي تحيط بالأسباب، وتدبّر الأمر، وتُري الناكبين عن الحقّ من الله ما كانوا يحذرون.

وتجلّى وعد الله الحقّ لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ ٣٩: طه، فإذا العبريّ ذو الحظوة، يتعلّم في قصر فرعون كلّ علوم زمانه، من قراءة وكتابة وفلك وجغرافية وتاريخ وحكمة. ولم يكد يبلغ الثلاثين من عمره حتى تكشّف عن حكمة وعلم واستواء، بدا واضحًا أنّها تزيد زيادة نوعيّة عمّا لُقّنه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ١٤: القصص.

---

(١) ورجعناك أعدناك، أمّا رددناه في الآية السابقة فرجعناه فورًا، أو بسرعة "وإذا حُييتُم بتحيةٍ فحيوا بأحسن منها أو ردوها" ٨٦: النساء. أي ردوها فور سماعها. ولعل الرجوع الإيابُ بعد الذهاب واحد، والعودة لما يتكرّر من الإياب.

(٢) هذا على اعتبار قصة الرؤيا، وهي محض حكاية كما تقدم.

ولم يعد أصل موسى العبرانيّ خافيًا، ويبدو أن فرعون وأهل بيته والمقرَّبين من حاشيته كانوا يرَون أن ولاء موسى لهم، رغم عبرانيّته، فوق الشبهات. وهكذا سكت أغلب ملأ فرعون عن الأمر. لقد صنع القصر موسى ليكون من رجال فرعون[1]، وصنعه الله على عينه لكي يكون نبيًّا رسولاً. فلمّا بلغ أشدّه، واستوى فكرًا ورشدا آتاه الله حكمًا وعلمًا جزاء إحسانه، فقد كان موسى من المحسنين، كما تقرّر الآية. ولكن أنّى لموسى، ربيب فرعون، الذي نشأ في أجواء القصر الملوّثة الملأى بالظلم والعسْف والتسلّط، أن يكون من المحسنين، وأن يؤتيه الله من الحكمة والعلم ما آتاه جزاء إحسانه؟!

ممّا لا شكّ فيه أن موسى عليه السلام قد أخذ دين يوسف وإبراهيم عن أمّه التي رجعه الله إليها، بل عن أسرته الموحِّدة التي كان يتّصل بها عن طريق أمّه. وبينما كان فرعون ومن معه يظنّون أن تلك القصّة القديمة، عن الوليد الذي التُقط من اليمّ، قد أصبحت نسيًا منسيًّا كانت يوكابد المرضعة تتعهّد في أعماق الطفل بذرةَ النبوّة، التي تشعر بمسؤوليّتها عنها، منذ أن أوحى الله إليها وهي تُلقيه في اليمّ وليدًا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ٧: القصص[2]... لقد تحقّق الشطر الأوّل من الوعد الحقّ، فردّ الله إليها ولدها، وهي على يقين أنّه سيجعله من المرسلين.

ولمّا بلغ موسى من العمر ما يستطيع معه حفظ السرّ وصونه أطلعه ذووه على هوّيته الحقيقيّة، فعرف يقينًا أنّه ليس مصريًّا، بل عبريًّا من بني إسرائيل. وأنّه من سلالة أنبياء، ولا بدّ أن يوكابد قد قصّت عليه كيف ألقته في اليمّ خوفًا من بطش المصريّين، وأن الله وعدها أن يجعله من المرسَلين، ولا شكَّ في أن أسرته قد علّمته من دين إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف ما ينبغي له أن يتعلّمه.

---

(١) وفي كثير من الروايات أن فرعون أراده وريثًا لعرشه، والأرجح أن هذا نفخ إسرائيليّ الوجه أو الرّوح، ومن قبل ما أوصلوا يوسف إلى ملك مصر. ولعلهما عليهما السلام لم يزيدا على أن كانا ذوي مكانة وحظوة ونفوذ، وقد منّ فرعون على موسى بأنه رباه في أهله ومكث فيهم سنين، ولم يمن عليه بأنه كان يعده لملك مصر، وهو أجدر بالمنّ.

(٢) ولعل تقاليد القصر لم تكن تحظر على أهله الصلة بمرضعاتهم، ولعل المرضعات كن دائمات التردد على القصر طلبًا للعطاء لما لهن من حظوة. أو أن أسرة موسى حرصت على أن تبقى على صلة بالقصر عبر أم موسى وأخته، دون أن يفطن أحد إلى حقيقة صلتهما بموسى.

وكان لا بدّ أن يبقى كلّ ذلك سرًّا، وأن يبقى موسى في قصر فرعون لأسباب بديهيّة ليس أقلّها شأنًا أن في ذلك مصالح لقومه. وهكذا كان موسى يعيش حياة ذات وجهين، واحدًا تحت الشمس في قصر فرعون، وآخر في الظلّ والظلام، في بيت عبريّ مغمور، يربطه به ظاهريًّا أنّه بيت ظئره المرضيّ عنها من قِبل القصر، وباطنيًّا أنّه أصله وحقيقته ومدرسة عقله وروحه.

وفي الروايات، أن موسى كان يُدْعَى ابن فرعون وكان يخرج إلى الناس بالعربة الملكيّة، وأن فرعون خصّه برعاية ملكيّة، فجعل بينه وبين الناس حواجز لم يتساهل في أمرها، وفرض عليه نظامًا صارمًا، ورقابة دقيقة لحُسن تنشئته وتهذيبه شأن أبناء الملوك. ولعلّ موسى كان يتململ من هذه القيود، التي تَغُلّ خطى الشابّ الشديد المتوقّد، ويتحيّن الفرص لكسر الطوق المضروب حوله.

وتوجّه هذه الروايات، التي لا سند لها من توراة اليهود، ولا من موثوق المصادر الإسلاميّة، رؤية الأحداث، وتفرض تصوّرًا يقول: إن إحساس موسى بمعاناة قومه أخذ يتزايد، وتَبدّى له الوجه الآخر لذلك النعيم الذي يكتنفه، وبدأ وجدانه النقيّ الذي صقلته التربية الملكيّة ينفّره من الشهد العائم فوق العلقم، والجمال الذي ينتقبه القبح. وبدا له ما استشعره من الإخلاص للحقّ والأنس بالاعتصام به نعَمًا أثمن من كلّ المكاسب التي يجنيها من مظاهرته للمجرمين.

وراحت صلة موسى بالقصر تعاني توتُّرًا خفيًّا لا ينفكّ يتزايد كلّما اقترب من بلوغ أشدّه والاستواء، ولم يعد خافيًا أن ربيب الملك قد عرف أصله، بل بدأت بعض المؤشّرات على انحيازه إلى قومه في تفكيره ومواقفه تظهر، ويبدو أن القصر لم يُقِم لذلك وزنًا، في مقابل ما هو راسخ لديه من ولاء موسى لفرعون، وارتباطه بالقصر، ولا معقوليّة تفريطه بامتيازاته الهائلة لأيّ سبب كان. فكانت المواقف تهمَل أو تؤوّل أو تُفصل عن صفته الرسميّة. ويبدو أن العلاقة بين السلطة وبين بني إسرائيل كانت في حالة استقرار نسبيّ، فلم تُثر هذه المؤشّرات القلق، وإن كان فرعون وملؤه يتقبّلونها على مضض.

ومع مرور الوقت وتطاول الزمن لم يعد موسى يحفِل بإخفاء ميله إلى قومه، ومساندته إيّاهم، ممّا أكسبه شعبيّة بينهم. ويبدو أن تقادم الزمن على النبوءة قد أزال

الكثير من مخاوف فرعون من بني إسرائيل، حتى لم تعد هويّة موسى تعني له شيئًا. وبدأ بنو إسرائيل يتنفّسون الصُعداء... ولعلّهم راحوا يسترجعون أخبار تلك الحظوة التي نعموا بها في ظلّ يوسف العزيز.

فوكزه موسى، فقضى عليه

وكان من تفريق فرعون الناس، وجعلهم شيعًا، أنّه قد استضعف طائفةً من بني إسرائيل، وسخّرهم للعمل، ولم تلبث السخرة أن صارت لازمةً لهم، فكان المصريّ إذا رأى إسرائيليًّا يستخدمه بدون مقابل. وحدث أن دخل موسى المدينة ذات يوم، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ﴾ ١٥: القصص[1]. ونزل الأمر بموسى نزول الصاعقة، فهو لم يكن يريد ذلك، ولا قصد إليه، وإن كانت توراة اليهود تزعم أنّه قتله عامدًا «خرج يومًا إلى بني قومه لينظر إلى حالتهم، فرأى رجلاً مصريًّا يضرب رجلاً عبرانيًّا من بني قومه. فالتفت يمينًا وشمالاً فما رأى أحدًا، فقتل المصريّ وطمره في الرمل»[2].

ونرى موسى في النصّ القرآنيّ يجد فيما حدث قدَرًا أراد به المقدِّر أن يؤدّبه، فتنبعث النفس اللوّامة التي تنقّب عمّا عليها قبل أن تلقي بالاً إلى ما لها ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ١٥: القصص... لقد أضلّه الشيطان فاندفع بحميّته، وبتعصّبه لقومه، ومدّ يده إلى الرجل دون تروٍّ وتفكير في الأمر، فكأنّه في هذا داود حين ظنّ ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ٢٤: ص.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ ١٦: القصص، وما هذا بكلام من أوتي حكمًا وعلمًا فحسب، بل هو كلام مؤمن موحّد محسن، يقف على عتبة فيما بين ذلك وبين النبوّة. وعلى تلك العتبة عاهد موسى ربّه الحقّ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ١٧: القصص...

---

(١) وفي قوله: فوكزه، فقضى عليه إيحاء خفي بصرف المسؤولية عن موسى عليه السلام، حيث لم يقل قتله، وهو التعبير الحرفي عما فعله موسى، فهو أولاً وأخيرًا لم يقتل المصري عمدًا، بل بتدبير من رب العالمين، وما كان يريد أن يقتله.

(٢) سفر الخروج: ٢.

موقف يدعو إلى التأمّل فيما اعتمل في تلك النفس النبيّة... وأيّة مقدّمات أنطقت موسى بذلك العهد، وأيّ إحساس نبويّ ذلك الذي استشعر به تلك النعمة! وأيّة نعمة هي!... نعمة لا يفقهها ولا يتبيّنها إلاّ نبيّ... لقد شعر موسى بإحاطة تدبير الله به، وهو في صلته تلك بالحقّ موقن أنّه ليس بقاتل، وبأن ما حدث ليس إلاّ إرشادًا لخطواته المتعثّرة إلى الطريق الذي يلوح ويختفي وسط ما يحيط به من ظروف وأحداث. وخلَص موسى من كلّ ملابسات الأمر إلى ما أراد له الله أن يَخلص إليه: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ١٧: القصص.

وما كان موسى قد نبّئ بعد، ولكنّ الله أوحى إليه أنّي قد غفرت لك... كما أوحى إلى الفتى يوسف وهو في الجبّ: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٥: يوسف. وكما كان يلقي في رُوع الفتى محمّد كلّما اقترب من وثن جدّه: ابتعد يا محمّد... وكما ألقى عليه النوم على عتبة مجلس لهو أغراه به أترابه...

وأدرك موسى أنّه ظلم نفسه بما جلبه عليها من جريرة، ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ ١٨: القصص، وبينما هو في بعض الطريق ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ ١٨: القصص. وأدرك موسى أن هذا العبريّ مشاكس، وأنّه لا ينبغي مجاراته، فقال له موبّخًا: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ١٨: القصص، ولعلّ المصريّ لم يرعو ممّا أحفظ موسى حتى همّ بضربه، وهنا التبس الأمر على الإسرائيليّ، وظنّ أنّه سيقتله، فصرخ فزعًا: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ ١٩: القصص.

وهكذا فضح جبن الإسرائيليّ وخوفه ما كان مستورًا من أمر موسى، وأخطرُه أنّه قد شاع خبره كمصلح في قومه. وسرعان ما اقترن هذا بما كان قد بدأ يتناثر هنا وهناك من شائعات عن انحياز موسى إلى المدعوّين ببني إسرائيل عقيدة وعملاً. ولا شكّ في أن مناوئيه ومنافسيه في القصر كانوا وراء تضخيم ذلك لفرعون، وتجسيمه له، حتى انبعث ما كان راقدًا من عداء فرعون وملَئه لبني إسرائيل.

ووجد موسى نفسه في موقف لا يُحسد عليه، فهو الآن يُنظَر إليه من قبَل السلطة على أنّه عبريّ أوّلاً، وقاتل ثانيًا، وخائن ثالثًا، وهذا هو الأهمّ. وكانت ردّة فعله

المباشرة على الأحداث، التي تراكمت بين عشيّة وضحاها، أن توارى عن الناس خِيفة، بانتظار أن يهديه الله إلى ما يفعله.

وكانت نجدة السماء، ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٢٠: القصص[1]. وبهذا تبدأ مرحلة المعاناة القاسية في حياة موسى عليه السلام.

على ماء مدين

هاهو ذا موسى، ربيب فرعون، المرفَّه، المقضيّ الحاجات، يواجه متاعب الهرب خائفًا مطارَدًا من رجال مولاه[2]، يكاد يكون بلا زاد ولا ركوبة ولا لغة تساعده على الاستهداء.

خرج موسى من المدينة على عجل، لا يعرف له وجهة، ولم يكن في مُكنته أن يسأل، فانطلق هائمًا على وجهه، واتّخذ السبيل التي ظنّ أنّها آمنة، مستهديًا الله ربّه، فكانت طريقَ مَديَن، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ قَالَ﴾ ٢٢: القصص... ومضة إخلاص والتجاء إلى الله الحقّ خلّدها الذكر الحكيم، فهي دعاءٌ ملهَم لا يقوله تائه حيران إلاّ هداه الله.

وصل موسى إلى ماء مدين مهدودًا مكدودًا، وقد نالت منه وعثاء السفر في طريق وعْرة طويلة غير مطروقة، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ ٢٣: القصص، وكانوا جماعة من الرعاة الأشدّاء مزدحمين يتبادرون الماء، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ ٢٣: القصص[3]. ولفت الأمرُ موسى، وأعجبه أن المرأتين تحاولان البقاء بعيدًا عن مزدحَم الرجال، فاقترب منهما، ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ ٢٣: القصص؟

---

(١) قيل إنه مؤمن آل فرعون.

(٢) وعلى رأسهم الموتورون المتشفون من بطانته.

(٣) والرعي في المجتمع البدوي، وفي مجتمع الريف تقوم به المرأة كما يقوم به الرجل. والأصل أن العمل العام للمرأة لا يكون إلا لحاجة شخصية أو اجتماعية. وليس له حكم شرعي من كتاب أو سنة، بل يُرجَع فيه إلى العرف، وكون أبي المرأتين شيخًا كبيرًا سبب مشروع لعمل ابنتي شيخ مدين خارج البيت.

لقد استرعى الموقف اهتمامه، وأثار شهامته، فمن الواضح أن هاتين المرأتين في موقف يتطلّب العون، ولا بدّ من أن يقدّمه إليهما. وتقدّم موسى شيئًا من الفتاتين، وسألهما: ما خطبكما؟

وفهمت المرأتان من السؤال ما يلي: لماذا تقفان بعيدًا ولا تسقيان كسائر الناس؟

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ٢٣: القصص[1]. وكان ذلك يعني: إنّنا ننتظر أن يبتعد الرِعاء لئلاّ نزاحم الرجال، وهو تصرّف رشيد من امرأتين تحفظان نفسيهما. ويلاحظ أن قولهما: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ٢٣: القصص، زيادة على ما سأل موسى، واستباق لسؤال توقّعتاه وهو: أليس لكما من يسقي عنكما؟

لقد كان أجدر بامرأتين لا تسقيان حتى يُصدر الرِعاء ألاّ تزيدا السائل الغريب فوق الإجابة الأولى التي كانت مجزِئة. وما الفُرجة الصغيرة في تحفّظهما إلاّ إشارة إلى الارتياح للسائل الشهم. وهذا إرهاص بما سوف تؤول إليه الأمور بين موسى وإحدى الفتاتين. وهو من قمم إعجاز البلاغ القرآنيّ العظيم.

وفي تأمّل كلمات هذا المقطع نرى مصداق ما قلناه ونقوله من أن الكلمة القرآنيّة معبّأة تعبئة هائلة بالدلالات الظاهرة والخفيّة، البعيدة والقريبة، المباشرة وغير المباشرة، بحيث لا تُغني عنها في موضعها كلمة غيرها. فالملاحظ أن موسى ﷺ لم يقُل: ما شأنكما، أو ما بالكما؟ بل قال: ما خطبكما؟ والخَطْبُ للمأزق المستعلِن، أي المشكلة أو الواقعة السلبيّة التي لا تَخفى، ولا مانع لدى صاحبها من تقديم إيضاح للسائل عنها. فموسى يسأل الفتاتَين عن السبب الذي

---

(١) كثير من المفسرين على أنه شعيب، والإشارة إليه، وذكر بنتيه على أنهما امرأتان تفعلان كذا وكذا يجعل الأمر مستبعدًا. ذلك أن شعيبًا نبيّ، وله ذكر واضح في كتاب الله، وله قصة معروفة أحداثها، مما يرجح، وبناء عل بلاغة النص القرآني، أن يشار إليه بما يعلن عن هويته، لا أن يذكر بصورة توحي بالتعريف بمجهول. ثم إن القول بأن شيخ مدين هو شعيب النبيّ لا يخدم هذا النصّ في شيء. والأرجح أن ذكر ماء مدين في الآية استدعى ذكر شعيب لارتباطه بمدين، وآزر ذلك أن اندماج الشخصيتين يقوّي الحبكة في القصة.

من أجله تذودان قطيعهما عن الماء ولا تسقيانه. وهذا ظاهر مستعلِن من حالهما، ولا يسألهما عن سبب خروجهما للسقي، وهو ما لو شاءتا لأخفَتاه.

كان موسى قويًّا، وفرض على الرعاة هيبته، فخضعوا لحكم الدور الذي تنكّروا له عندما لم يكن مدعَّمًا بالقوّة. ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ٢٤: القصص... لقطة غاية في الإيحاء والغنى... لقد قام موسى بالعمل رجولةً ومروءةً ولوجه الله، أي لأن هذا ما ينبغي أن يكون، ولم يتّخذ خدمته هذه وسيلة إلى حديث، أو متعة ممّا لا يليق بمروءة المسلم. وبعد أن سقى للفتاتين تولّى إلى الظلّ، وانصرف إلى نفسه، يتمتّع بذلك التوازن والاستقرار الداخليّين، اللذين يضفيهما على المسلم نُشدان مرضاة الله، والاستقامة على أمره. وأنت تلاحظ أن المرأتين عاملتاه بالطريقة نفسها، فكلا الفريقين كانا يتسابقان في الفضل.

واستجاب مجيب الدعاء، وعادت إحدى الفتاتين اللتين سقى موسى لهما، يسربلها حياء يتصاعد مع خطواتها ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ ٢٥: القصص، فقد رأت هذا العملاق الشهم الذي أنجدها وأختها بأدب وأريحيّة نادرَين، حيث لم يتقاضاهما مقابل خدمته نظرة أو كلمة، وهو شابّ، وهما فتاتان يافعتان، وله عليهما يد، وليس ثَمّ رقيب، فلا غروَ أن يَبهرها حتى تكاد تتلعثم في خطابه: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٢٥: القصص[(١)].

وهكذا دخل موسى بيت شيخ مدين خائفًا فأمن، وجائعًا فشبع، وضائعًا فوجد المأوى، وفردًا فتزوّج، وفقيرًا فاغتنى.

---

(١) قيل إن شدة وعثاء الطريق، ووطأة الجوع والإرهاق، اضطرت موسى إلى قبول تقاضي أجر مقابل مروءته. ولكن النص يضج بإيحاء مبهم المصدر، بأن موسى ما تبع الفتاتين إلى أبيهما إلاّ ليتحسس منهما، إذ أعجبه فعلهما وسمتهما، وهو شاب غريب عازب.

من الإبداع الذي يزيد على درجة الإعجاز في بلاغ الذكر الحكيم ما ترصده الأذن الواعية من خيط دراميّ لافت، كثيرًا ما يستوقفنا مثله في القصص القرآنيّ، حيث نلاحظ أن للقصة نسخة خفيّة دارت فيها الأحداث بين الفتاتين وموسى بصورة عفويّة. وقد بدأ موسى أحداث تلك النسخة بالسؤال، واستجابت إحدى الفتاتين لمبادرته عندما أضافت التبرير إلى جوابها، وكان كلّ من السؤال والإضافة خطوة من كلّ منهما باتّجاه الآخر، وهذا يترجم تجاوبًا داخليًّا، سرعان ما قرأنا امتداده الطبيعيّ في تزكية الفتاة موسى لأبيها من جهة، وفي قبول موسى، غير المتوقّع، دعوة الرجل ليجزيه أجر ما فعل، من جهة أخرى.

ونلاحظ، في النسخة الخفيّة للقصة، المكافأة بين موقف موسى الذي بدأ أقرب إلى الموضوعيّة بعد أن سقى للفتاتين، وبين قول الفتاة التي جاءته تمشي على استحياء: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ ٢٥: القصص، فهل أثار الفتاة تجاهلُ الشابِّ الغريب البالغ الكمال لها ولأختها، فخاطبته بما يعادل ذلك عندما جاءته برسالة أبيها؟ وهل أدرك موسى، حين أجاب الدعوة، ما لم تصرّح به الفتاة، بل ما لم تدركه هي نفسها على الأرجح؟

لقد كان حريًّا بموسى أن يرفض دعوة الشيخ الكبير، فما سقى للمرأتين ابتغاء أجر، ولكنّه، عندما قرأ في كلام الفتاة وتصرّفها ذلك الحرص الأصيل على غلق الباب دون الشيطان، أنِسَ قلبه النبيّ بهذا النقاء، وتوسّم في البيت الذي تنتمي إليه الفتاة خيرًا. وكان محيطًا بذلك تدبيرُ العليم الحكيم.

وحكى موسى للشيخ قصّته، بل قصصه، وقصص أهله في مصر، ولعلّ الشيخ أدرك بفراسة المؤمن، أو بفراسة النبيّ[1]، أن موسى نبيّ أو سوف يكون، فقال: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٢٥: القصص. وكانت بنتاه تشرفان على خدمة

---

(١) على قول من يرى أنه شعيب النبي عليه السلام.

الغريب، شأن الأنبياء جميعًا[1]، ولن نلبث إلاّ قليلاً حتى نرى أن إحداهما تشفّ عن ميل واضح إلى الضيف الشابّ، وتمهّد لذلك بأن توحي به إلى أبيها، عن طريق تزكية الشابّ والإشارة إلى خصاله، وهي واثقة أن أباها يفهم ما ترمي إليه ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ ٢٦: القصص، والقوّة والأمانة هما رأس الأخلاق الفاضلة جميعًا[2].

ويتقبّل الشيخ الأمر، ويقول لضيفه: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ ٢٧: القصص، ويحدّد له المهر ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ ٢٧: القصص... لقد أكرم الشيخ موسى، ولم يشقّ عليه، فبادله موسى الكرم بمثله، إذ اختار أن يقضي أطول الأجلين في خدمته.

وكانت السنوات العشر فترة إعداد للمرتبة الفريدة، التي خصّ الله بها موسى، واصطفاه على الناس ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ ١٤٤: الأعراف[3]، خبر فيها حياة البادية شأن معظم الأنبياء[4]، واعتاد خطاب القوم، ومارس الرجولة والبطولة والشجاعة والجرأة، وخالط الناس، وخبر واقع النفوس وشؤون الحياة، بعد أن عاش ما عاش في برج فرعون الرفيع المعزول.

---

(١) كان ذلك في بيت إبراهيم أمام الناس، كما كان في بيت النبي حتى نزل الحجاب لنسائه. وظلت النساء المسلمات يقمن على حاجات الضيف حتى نهاية العصر العباسي، حيث ظهر الترف والمال والمجون والخمر، فتم الفصل بين الجنسين من باب سد الذرائع. وهذا حسن. ولا تزال النساء في البادية حتى اليوم يقمن بخدمة الضيف، ذلك أن للبادية طابعًا يقتضي الاختلاف، وطهر البادية في هذا الباب كطُهر المساجد.

(٢) ما من خلق من الأخلاق الفاضلة إلا وفي أصله القوة والأمانة. وفي حديث رسول الله ﷺ أن الأمانة ترفع «فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أمينًا» [صحيح البخاري: ٦١٣٢].

(٣) وكيف يكون موسى نبيًا، وهو يعيش في قصر ملكي، ويتمتع بكل ما رأينا من الامتيازات والسلطان؟ إن عليه أن يرعى الغنم، شأنه في ذلك شأن الأنبياء جميعًا، فمن أفلح في القيام على شأن الغنم، كان أكثر قدرة على سياسة قومه.

(٤) الصحراء مدرسة الرجال، ولهذا كان خلفاء المسلمين وملوكهم، بعد الخلافة الراشدة، يبعثون أبناءهم إلى البادية لكي يصبحوا رجالاً أشداء، ويتعلموا لغتهم.

فلمّا قضى موسى الأجل، انطلق بأسرته إلى مصر لزيارة أهله، وقد أغناه الله روحًا ويدًا بما هيّأ له من تجارب، وما أمدّه به من عطاء، فقد أهدى إليه شيخ مدين قطيعًا من الغنم يعينه وأسرته في معاشهم[1].

في النصّ القرآنيّ الذي يغطّي وجود موسى في مديَن طائفة من الأحكام الشرعية، والمندوبات الخاصة بالزواج. فهناك سرعة البتّ في الزواج ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ ٢٧: القصص، **والسماح للخاطب بالنظر إلى المرأة التي يريد خطبتها، والتيسير في أمر المهر، وعدم الإعنات فيه** ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ ٢٧: القصص. **وأن المهر يصحّ أن يكون منفعة، كما في المهر الذي طلبه الشيخ، وكقولك مثلاً: أزوّجك ابنتي على أن تعلّمها القرآن.**

وإضافة إلى أحكام الزواج تلك، يبيّن النصّ نقطة هامّة في العلاقة بين الرجل والمرأة في الإسلام. وهي أنّه لا ينبغي لك، إذا رأيت امرأة في مأزق، أن تحجم عن تقديم العون بحجّة الحشمة أو الورع. وذلك تأسّيًا بما فعله موسى عندما وجد المرأتين في حاجة إلى المساعدة.

ويلفت ذا البصيرة في قصّة موسى دور الأخت في حياة الرجل: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ١١: القصص، و﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾ ٤٠: طه، **وفي الآيتين إشارة إلى دور الأخت المغمور في حياة معظم الرجال، حتى إن جهدها وجهادها يكاد يفوق جهد الأمّ والزوجة والبنت، ولكنّه دور يُقابَل بالنسيان في أفضل الحالات. وعندما يتزوّج الأخ، أو تتزوّج هي، ينساها أو يكاد. أمّا إذا لم تتزوّج، فإنّها تبقى بلا كيان مستقلّ، تتوزّعها بيوت إخوتها، ولا تجد الترحيب من زوجاتهم. وتلك مريم، أخت موسى غامرت بحياتها من أجل أخيها، وربّته وأخاه هارون، ثم انطفأ كلّ ذكر لها في زحمة أحداث حياتهما الهائلة، إلّا ومضة صغيرة في تضاعيف توراة اليهود.**

وفي حديث رسول الله ﷺ: «من عال ثلاث بنات فأدّبهنّ وزوّجهنّ، وأحسن إليهنّ فله

---

(١) يندب لمن يزوج ابنته أن يكرمها، ومن إكرامها أن يقدم لها الهدايا، ولا يأخذ مهرها.

الجنّة»، وقال: «ثلاث أخوات أو ثلاث بنات»[1]، ولعلّ الأخت أكبر أجرًا، لأن الرجل يتلذّذ بإكرام بنته، ولا يكاد يفعل مع أخته. فمن أكرم أخواته، فله من الأجر ما لمكرم بناته. والله أعلم.

في الوادي المقدّس

سار موسى بأهله إلى مصر بعد عشر السنوات التي أجَر فيها شيخَ مدين، واحتاط لما قد يناله من أذى فرعون[2]، فسلك بقافلته الصغيرة سبيلاً غير مطروقة، تمرّ بجانب الطور، وكان كلّما أقبل على قوم تحرّى عنهم قبل المرور بهم، خشية أن يجد نفسه وأهله في قبضة فرعون، فهو مجرّم من الدولة.

وفي الروايات أن موسى عليه السلام حطّ رحله على ربوة في ليلة باردة، اشتدّ فيها عصف الريح، وهطَل المطر، وفاجأ المخاض زوجته، ولم يُفلح في إيقاد النار، فقرّر أن ينطلق ليبحث عن جذوة لعلّهم يصطلونها.

وكان موسى مع الله في قلبه، وفي خطاه، ولم يكد يصدّق أن الوميض الذي بدأ يلمحه على بعد يسير منه حقيقة، وأنعم النظر، فإذا هي حقًّا نار تتوهّج. وما من أنس للمسافر المُقوي أكبر من أن يلمح نارًا ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ ٧٣: الواقعة[3]، فهي تُذَكِّرُهم بعناية الخالق، وبالألفة والأنس، وتكون لهم متاعًا، فيرون ما حولهم، ويُنضجون طعامهم أو يُجففون ثيابهم.

وقال موسى لأهله: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ٢٩: القصص[4].

وانطلق موسى عليه السلام مستبشرًا إلى الفرج الذي يبتغي، وما هي إلاّ خطوات جادّة واسعة

(١) سنن أبو داود: ٥١٤٨.

(٢) قيل إن فرعون الذي فر منه موسى قد مات، وأن هذا ما شجع موسى على العودة إلى مصر.

(٣) والمُقْوي الذي يسافر وحيدًا في الليل.

(٤) وفي آية أخرى قال: "لعلي آتيكم منها بقبس" ١٠: طه. والجذوة قطعة ملتهبة تصلح للاصطلاء، أما القبس فبعض من النار للاستضاءة. فالنار دفءٌ ونور... قبس من نور، وجذوة من نار.

حتى اكتشف أنّ ثمّة ما هو غير عاديّ في الأمر، فقد بدت له النار غريبة عمّا يألف من النيران، فلا خطاه تقرّبه منها، ولا هي ثابتة حيث يقدّر، ولا دخان للهبها ممّا هو معروف في النيران. وها هو الآن يتبيّن أن اللون ليس بلون نار، والوهَج ليس بوهَج نار.

وتظاهر على موسى الشكّ والخيبة والدهشة والخوف، وطغى على كلّ هذا إحساس غريب لم يعرف له تسمية أو تصنيفًا، فقد استقرّ في رُوعه أن أمرًا عظيمًا فريدًا يوشك أن يقع، وشعر بوطأة ذلك على كيانه كلّه. وفي الروايات أنّه تذكّر زوجته التي تحتاج إليه، وخشي إن هو لم يعد أدراجه حالاً أن يصيبه مكروه، فيقضى عليهما معًا. وبعد لحظات من التمزّق بين تلك الأحاسيس المتصارعة الهاصرة، ملأ كيانَه كلّه صوت سمعه بكلّ جوارحه، ومن كلّ جانب، ووعى أنّه يُنادَى: يا موسى...

تسمّر موسى في مكانه، وغاص والوجود من حوله في طمأنينة فريدة... وأُلقي في سمعه وفي بصره وفي قلبه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ ١١ و١٢: طه[١]. ونفّذ موسى الأمرَ، بل نفَذ الأمرُ، إذ لم يكن ثمّة موسى لحظتئذ، بل من اختاره الله ليوحي إليه، ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ ١٣: طه.

[تكون الذات في الأحوال العاديّة راسبة تحت أطباق وأطباق من الأغشية، التي يقتضيها الكيان الوجوديّ المادّيّ، وفي لحظات الانفراد والخلوة والوحدة الحقيقيّة، يفرغ المرء إلى ذاته، فتطفو من تلك اللجج، وتحتلّ كلّ مساحة الشعور، ويذرعها الفكر ظاهرًا وباطنًا، ويتوغّل في أعماقها، فيُفضي إلى الحقّ المكنون في أُسّها، أي في فطرتها النقيّة. وعندما تكون الذات نبيّة تستطيع أن تنطلق من الحقّ المكنون فيها مباشرة إلى أقصى ما يمكنها بلوغه من المطلق، ومن ثم تهتدي تلقائيًّا إلى الله الحقّ][٢].

(١) ونلاحظ أن القرآن ذكر شاطئ الوادي الأيمن، وذكر الوادي المقدس، وهي المراحل التي قطعها سيدنا موسى للقاء ربه، بدأها بشاطئ الوادي الأيمن، ثم بالطور، ثم بالوادي المقدس طوى.

(٢) من بحث "الحق المطلق" للكاتبة.

ومنذ ذلك النداء صار موسى كليم الله. خصّه بكلامه صراحة دون لبس، ودون قابليّة للتأويل، وبصورة تُميّزه عن سائر الأنبياء والمرسلين ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ١٦٤: النساء. وفي آية أخرى ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ٥٢: مريم. والنجوى تعني عدم وجود وسيط بين الله وموسى، كما كان بينه وبين سائر الأنبياء، حيث يتنزّل جبريل بكلام الله على قلوبهم. فقد تعاظم حضور الذات الإلهيّة في قلب موسى، حتى كان الوحي خطابًا سمعه كما يليق به أن يُسمع.

وتلا ذلك الخطابُ الأوّل: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ١٤: طه[1]. وهنا ينسلخ موسى تمامًا عن ذاته، فالذي كان قبل قليل ربَّه هو الآن الله لا إله إلاّ هو، أي الذي يخضع له كلّ شيء وكلّ أمر طوعًا، وعلى المخلوق الوحيد الذي يملك الاختيار أن يخضع له مختارًا، ويصِلَه. أي يتمثّله، ويمتثل له، كلّما ذكره[2].

بكلمة التوحيد، وبالعبادة اللازمة له حكمًا، صار موسى نبيًّا. وعندما تأتي الرسالة الخاتم فسوف تجمع كلمةُ «الإسلام» ذينك المعنيين، حيث الإسلام الحقيقيّ الكامل لا يكون إلاّ بالإسلام والتسليم لله الحقّ الذي لا إله غيره، وحيث العبادة ناتج طبيعيّ، بل حتميّ لتلك الكلمة المعجزة «الإسلام».

وما من نصّ في الكتاب ولا في السنّة أرجى ممّا تناول الذكر، وكلّ العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحجّ مقيّد بالكمّ والكيف، إلاّ الذكر، فهو مُطلَق الكيف ذلك أن منه الذكر باللسان، والذكر بالقلب والذكر بالجوارح، أي بلسان الحال في التعبير الشائع. وهو مطلق الكمّ ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ٣٥: الأحزاب، و﴿الَّذِينَ

(١) يلاحظ التعبير عن الألوهية بقوله تعالى: "إني أنا ربك" ١٢: طه، وعن الربوبية بقوله: "إنني أنا الله" ١٤: طه.

(٢) ولعلّ إقامة الصلاة هنا بهذا المعنى.

﴿يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ ١٩١: آل عمران، والقعودُ مدّة الكسل والبطالة والعجز والمرض والضعف، وهو غير الجلوس. ومن القعود ما قد يُعفيك من الصلاة، أو من الصوم، ولكن ليس ثمّة ما يُعفيك من الذكر إذا أردت السبق.

ومن عظمة الله الحقّ ولطفه وشكره وودّه وبرّه ورحمته ورأفته بعباده قوله في الحديث القدسي: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني»[(١)]، وفي كونه جلّ وعلا مع عبده الذاكر، إكرام منقطع النظير للذكر والذاكرين. وفي الحديث: «لم يتحسّر أهل الجنّة إلاّ على ساعة مرّت بهم لم يذكروا الله تعالى فيها»[(٢)]، ذلك أن الذكر اللسانيّ والذكر القلبيّ وسيلة العبد إلى أن يكون وليًّا لله.

وأرقى الذكر الذكر العقليّ، وهو العلم، والذكر بالعلم أفضل الذكر، لأنّه يجعل من صاحبه وارثًا محمّديًا، إذ: «العلماء هم ورثة الأنبياء»[(٣)]، وفرق كبير بين الوليّ وبين الوارث، وفي رواية: «إذا مررتم برياض الجنّة فارتعوا. قالوا: وما رياضُ الجنّة يا رسول الله؟ قال: مجالس العلم»[(٤)]. وقد فُسّر ذكر الله في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ ٤٥: العنكبوت[(٥)]، بالعلم. وعلى هذا فالعلم أكبر من تلاوة القرآن ومن الصلاة. وفي الحديث: «يا أبا ذرّ، لأن تغدو فتَعلَّم آية من كتاب الله خير من أن تصلّيَ مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلّم بابًا من العلم، عُمِل به أو لم يُعمَل خير من أن تصلّيَ ألف ركعة»[(٦)].

وممّا يجمع أنواع الذكر قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ ١٣٥: آل عمران، فإذا ما فعل المرء فاحشة أو ظلم نفسه بمعصية، فاستغفر أوّلاً بلسانه، فذلك الذكر اللسانيّ، وهو ذكر تلقائيّ، يفزع إليه المؤمن فور انتباهه إلى ميله عن جادّة الحقّ، ويُدعى صاحبه ذاكرًا، فإذا شَفع الذكرَ اللسانيّ باستنكار فَعلته، والندم عليها، والعزم على التوبة، فذلك الذكر القلبيّ، ويُدعى صاحبه وليًّا.

---

(١) صحيح البخاري: ٦٩٧٠.

(٢) مجمع الزوائد ١٠: ٧٣.

(٣) صحيح البخاري: ٦٧.

(٤) مجمع الزوائد ١: ١٢٦.

(٥) في الآية الكريمة: "واتل ما أوحي إليك من الكتب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون" ٤٥: العنكبوت.

(٦) سنن ابن ماجة: ٢١٩. هكذا ضبط الفعل «تعلم» في المرتين، ولعله في المرة الثانية «تُعلِّم».

حتى إذا ما قام بالنظر فيما فعل وفيما سوف يفعل، وتحرّى حكم الله فيه، وبحث فيما قيل عنه وحوله، طالبًا بذلك الوقوف على الحقّ ليكون على علم وهدًى، فذلك الذكر العقليّ، وهو قمّة الذكر، وصاحبه الوارث، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ١٠و١١: المؤمنون.

وتستمرّ كلمات الله الحقّ تتنزّل على القلب النبيّ: ...﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ ١٥: طه... فلا تنس أن الساعة قاب قوسين أو أدنى، وأنّها واقعة حتمًا، وقريبة حتى كأنّها راهنة .﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ ١٦: طه[1].

وطحن جلالُ الموقف ورهبته ذلك الشديد الذي قضى على المصريّ بوكزة، والذي تنحّى له الرعاة المتكالبون على الماء دون كلمة واحدة... إنّه أثر كلام الله الحقّ، ذلك الذي لا نملك إلاّ أن نسمّيه كلامًا، في مكوّنات الوجود المادّي ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ ١٤٣: الأعراف، وما كان موسى، وما كان الأنبياء والرسل إلاّ بشرًا من تراب الأرض، و﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ ٢١: الحشر، فكيف إذا أنزله على قلبٍ بصير!

وعلى هذا فإن ما سمعه موسى لم يكن كلامًا كالذي يعرفه ونعرفه، ولعلّه كان بلاغًا عن طريق السمع، لا كيفيّة له ممّا طرق الأذن البشريّة ويطرقها منذ بدء الخليقة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وعن رسول الله، ﷺ، أنّه سئل عن الوحي فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عليّ، فيفصِم عنّي وقد وعيت عنه ما قال»[2]... فإذا كان الوحي عن طريق جبريل بعيدًا هذا البعد عن الكلام، فما بالك بالخطاب المباشر؟!

---

(١) ومن أعجب العجب أن ذكر اليوم الآخر والحساب والعقاب قد مُسخ في توراة اليهود، فلا تقع له على ذكر، حتى إن الصَدوقيّين، وهم فرقة يهودية، أنكروا كلّ ما يتعلّق بذلك، وحصروا الثواب والعقاب في الحياة الدنيا. وهذا أكبر الأدلّة على أن ما يُدعى بالتوراة ليس توراة موسى عليه السلام .

(٢) صحيح البخاري: ٢.

لكنّ أصدق القائلين قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ ١٧: القمر، فكانت تلك النسخة البشريّة المنزّلة على قلب محمّد، والمُجراة على لسانه ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ ٩٧: مريم. وهذا معنى المقولة «المعنى قديم واللفظ حادث» التي مات صاحبها كمدًا من الناس أن لم يفقهوها... إنّها مأساة الأفذاذ في أزمنة الأقزام، والكرام على موائد اللئام!

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ١٤٤: الأعراف[١]... هكذا اكتملت لسيّدنا موسى عناصر رسالته وقواعد دعوته، التوحيد، فالعبادة، فالذكر، فالإيمان باليوم الآخر، فمقاومة الهوى.

آيات إلى فرعون

من وطأة أسس التكليف التي ناء بها موسى انتقل الرحمن الرحيم إلى تهيئة كليمه لما اختاره من أجله، وتسليحه بما يقابل به الباطل الذي سوف يتنمّر له. وبدأ اللطيف الخبير بما هو لطيف الوقع على بشريّة كليمه التي أرهقها المقام: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؟

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ ١٧و١٨: طه ... أيّة بلبلة! وأيّ اضطراب! وما أعجب أنّه ما زال قادرًا على الكلام بعدما سمع!

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾.

﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ ١٩ و ٢٠: طه.

وكون الحية تسعى بيان لحقيقتها، فهي حيّة ذات حياة، أمّا كونها ثعبانًا مبينًا[٢]، فوصف لحالتها، أي إثبات لصفة السرعة وشدّة الحركة، وكذلك في قوله تعالى: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ ١٠: النمل. حيث ترسم الآية صورة صورة بصريّة لتلك الحركة بقرنها بصورة بصريّة معروفة. وهذا من بلاغة القرآن العجيبة[٣].

لقد كان كلّ شيء مدهشًا ومذهلاً، ولكنّ أمانًا غريبًا كان يملأ موسى، أمانًا أدرك معه أنّه خارج نطاق الوجود الذي يعرف... وأخذ الحيّة باسم ربّه، فعادت عصًا كما

---

(١) يلاحظ أنه لم يقل برسالتي، وهي واحدة، ذلك أن الرسالات كلها رسالة التوحيد. والفيصل لصدق العبد مع ربه أنه لا يفرق بين أحدٍ من رسله. وليس هذا إلاّ للمسلمين.

(٢) من ثعب الماء إذا تدفّق بقوّة.

(٣) من بحث "الكلمة وأخواتها في القرآن الكريم" لصاحب القصص.

قال. وجاءه الأمر التالي: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ ٢٢: طه[١]، ضع إحدى يديك تحت إبطك، ثم أخرجها تجدها بيضاء نقيّة تمامًا، على غير ما يُعرَف في الأيدي من لون. وذكر ذلك في آية أخرى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ ١٢: النمل، فحدّد له الجهة التي يدخل منها يده لتصير إلى إبطه، وهي الفتحة العلوية لقميصه. وفي آية ثالثة بيّن له كيفيّة العمليّة ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ ٣٢: القصص[٢]. فقوله: «ادخل» بيان للفعل، وقوله: «اسلك» بيان لصورة الإدخال، فهو سلك لليد فيما بين النحر والإبط.

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ ٣٢: القصص، فإذا أرهبك الموقف أمام فرعون فضمّ عضديك إلى جِذعك، وقف مجتمعًا متماسكًا يَزُل عنك الخوف. وهذا حصن دائم لموسى من الخوف بصورة عامّة، ومن فرعون بصورة خاصّة.

وأدرك موسى عليه السلام أنّه كلّما قرّبه ربّه كانت المهامّ أعظم، وتطلّبت تحمّلاً أكبر. وتمثّل حجم المسؤوليّة، وعِظم المهمّة التي كلّف بها، وفرادة الحدث الذي يواقعه. وما كان قبل موسى وحي كهذا، ولا رسالة بهذه الضخامة، ولا كتاب مُنْزَل، وإنّما هي صُحفٌ، يوحى بمضامينها على لسان رجل. وأوحى إليه ربّه قولاً يُعِينه:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ ٢٥: طه، وشرحُ الصدر سَعته، وزيادة استيعابه. والغاية من دعاء موسى الاستعانة بالله الحقّ على استيعاب مهامّ الدعوة، والصبرِ عليها، والمنِّ عليه بالأفق الذي يسع الناس. ومن أعظم ثمار شرح الصدر، الذي يمنُ الله به على من يصطفي لحمل رسالته، القلب السليم، الخالص للحقّ المخلَص له... القلب الذي جاء به إبراهيمُ ربّه.

وليس شرح الصدر خاصًا بالأنبياء والمرسلين، بل هو ممّا يمنّ الله به على من يتحرَّون الحقّ ويختارونه من عباده، وينزِعه ممّن حقّت عليهم الضلالة بما كسبت أيديهم ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ١٢٥: الأنعام[٣].

---

(١) قيل إن السوء البرصُ، وكان شائعًا في المصريين، فطمأن الله موسى أن بياض يده ليس منه.

(٢) والسلك الدخول بخط مستقيم أدنى إلى الانزلاق، كدخول السلك في الخرز.

(٣) ومن يرد الله أن يضله إنما هو ذلك الذي حقت عليه الضلالة بما كسبت يداه.

لقد أوحى الله إلى موسى أن يسأله شرح صدره، بينما وهبه سيدَ خلقه وخاتم رسله برحمته مِنّةً دون سؤال ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ١٥٩: آل عمران. ولأنّه ﷺ ليّن برحمة الله، فما خُيِّر رسول الله قطّ بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما. وتلك فطرة الله الحقّ التي فطر الناس عليها، فمن جنح إلى الشائك والصعب من الأمور، كان ممّن شدّدوا فشدّد الله عليهم، كشأن بني إسرائيل عندما قال لهم موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ ٦٧: البقرة.

وتابع موسى الابتهال: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾٢٦: طه ...

ويسّر الله لموسى أمره، فذهب إلى فرعون ذي الأوتاد، وله عليه ذنب، ويخاف أن يقتله، ودخل عليه، وحاوره، بل اجترأ عليه ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ ١٠٢: الإسراء. وتقبّل فرعون ذلك، وما كان بالذي يفعل، بل جعل يتلطّف بموسى، ويعاتبه برقّة ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ١٨ و١٩: الشعراء. وليس ما رشحت به مقالات فرعون الأولى لموسى من لين وتطامن، وما بدا فيها من خطَل وتخبّط فيما أطلقه عليه من نعوت[(١)]، إلاّ ممّا يسر الله الحقّ لموسى من أمره.

ويسّر الله لموسى أمره، فوهب له أخاه هارون رِدءًا يصدّقه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ ٥٣: مريم، ووزيرًا يحمل عنه جانبًا من أعباء التبليغ، ويؤازره في شؤون الدعوة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ ٣٥: الفرقان.

واحلل عقدة من لساني

وواصل موسى دعاءه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ ٢٧ و٢٨: طه. وفي توراة اليهود يقول موسى: «ما كنت يومًا رجلاً فصيحًا... أنا بطيء النطق، وثقيل اللسان»[(٢)]، أمّا نصوص القرآن الكريم فتحصر الأمر في الإبانة والإفصاح، وذلك فيما قاله عنه فرعون ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ ٥٢: الزخرف، والانفعالِ المؤدّي إلى عدم الطلاقة فيما قاله عن نفسه ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾١٣: الشعراء.

---

(١) فهو تارة مسحور، وأخرى ساحر، وثالثة مجنون.

(٢) سفر الخروج: ٤.

وفي عقدة لسان موسى أكثر من قول، أشهرها أنّه كان يعاني بعض عيوب النطق، أي أن الأمر آفة خَلقيّة لم يستطع موسى تجاوزها. ولا يطمئنّ المرء إلى القول بذلك. وإذا لم يكن هنالك منطقيًا ما يمنع أن يكون ذلك في لسان النبيّ، فإن الضلوع في الرسالة والقيادة والمرجعيّة[1]، وما يتطلّبه التبليغ من الخطاب، لا بدّ له من سلامة اللسان عضويًا كحدّ أدنى. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ ٤: إبراهيم.

أمّا صاحب القَصص فيذهب إلى أنّها تعني تبلبُل لسانه بين لغة قومه الذين أُرسل إليهم، وبين لغة القصر المصريّ، حتى لم يعد قادرًا على التعبير البليغ المبين، الذي تتطلّبه الدعوة في أيّة واحدة منهما. فقد سلخ موسى ثلاثين سنة من عمره، ضمن دائرة صارمة، كادت تعزل القصر الملكيّ ومن فيه عن العالم من حوله، فاقتصر لسانه على لغة العلية من المصريّين[2]، وهي لغة تختلف عن لغة الشارع، الذي يعجّ بالوافدين من أقوام شتّى. وعندما نزل مدين كان عليه أن يتكلّم لغة ثالثة لا يعرفها، وتعذّر عليه الإفصاح عن مراده بصورة دقيقة، فسأل ربّه أن يحلّ عقدة من لسانه ليفقه الناس قوله.

وفي اللغات المذكورة التي قيل إنّها أربكت لسان موسى أقوال متباينة، فالأحدث من الدراسات، والأكثر وعيًا للتزوير التوراتيّ للحقائق، يرى أن المنطقة كلّها من العراق شرقًا إلى النيل غربًا كانت تتكلّم لهجات عربيّات تنحدر كلها من لغة واحدة أطلقوا عليها «العربيّة الأمّ»، ومن هذه الأقوام القبط المصريّون، والكنعانيّون، والعبرانيّون المدعوّون ببني إسرائيل. فالأرجح أن العبرانيّين لم تكن لهم لغة خاصّة بهم، بل كان كلّ تجمّع من تجمعاتهم يتكلّم لغة القوم الذين يحلّ فيهم. ولعلّ الأمر يتعلّق بتباين اللهجات، وليس باختلاف اللغات، ومن المنطقي أن يكون هذا التباين واضحًا.

---

(١) كما هو شأن موسى.

(٢) يطرد في الأمم التي تُحتل، أن تتبنى العلية فيها كثيرًا من مفرزات حضارة المحتل، وتحرص هذه الطبقة على اللسان الهجين كواحد من مظاهر التميّز والوجاهة. ولا يبعد أن يكون في لسان العلية من أهل القصر الذي ربّي فيه موسى الكثير من لغة الهكسوس الحديثي العهد بمغادرة البلاد، بل الذين لم يزالوا في بعض مناطقها كما يقول بعض المؤرخين والدارسين.

وتشكّل اللغة العربيّة في الإسلام العامل الثالث من عوامل وحدة الأمّة، أمّا العاملان الآخران، فعامل قلبيّ، وهو التوحيد، وتمثّله "لا إله إلا الله"، وعامل حركيّ، وهو الصلاة. وقد تأذّن ربُ العالمين أن هذا الدين، لكي يكون لك فيه ذكر، لا بدَّ أن تكتب عنه وفيه بالعربيّة، وذلك لقوله جلّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ١١٣: طه.

لقد استمرّت صلة موسى بأسرته العبريّة، كما استنتجنا آنفًا، بعد فطامه، وذلك عبر صلته التي قد تكون سرّيّة بأمّه، وعبر أخته مريم، التي كانت، فيما يبدو، على علاقة مّا بالخدم أو بسيّدة القصر. وهذا يعني أنّه يُتقن لهجتهم، ولاسيّما بعد أن عرف حقيقة صلته بهم، وما ينتظره من مستقبل لوعد الله لأمّه ...﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ٧: القصص.

ثم إن موسى عليه السلام أُمر بالتبليغ بعد أن عاش عشر سنوات في مديَن، وتزوّج من أهلها، ممّا يعني أنّه لا بدّ أن يكون قد أتقن خطابهم. واكتسابُ لهجة، أو لغة في سنّ الثلاثين بالعيش بين أهلها عشر سنوات لا يبلبل اللسان عادةً.

كان موسى عليه السلام هائلَ العالم الداخليّ الروحيّ فريده، لدرجة أن الله جلّ وعلا كلّمه تكليمًا. ومثل هذه السعة الداخليّة يُقصّر البيان دائمًا عن المتح منها[1]. ونحن نلاحظ باطّراد أن ممتلئي الداخل يفضّلون الكتابة على الخطاب الشفويّ للتعبير عمّا يريدون، فإذا حُملوا على الخطاب الشفويّ لم يَبلُغوا فيه ما يبلغونه في الكتابة، وكثيرًا ما يُفضي بهم النضال في سبيل تحجيم أفكارهم، وتهيئتها للطرح، إلى الثورة والعنف في الخطاب، الأمر الذي يبدو معه خطابهم مشوّشًا مضطربًا تُضيّق فيه الفكرة على الفكرة، ويرتبك فيه اللسان أمام حشود المعاني وتشعّباتها، وحضور أبعادها كلّها دفعة واحدة في ساحة الشعور.

(١) حيث ينبغي في البيان حشر تلك الآفاق في حدود الكلمات، لكي يتم إيصالها إلى الآخر.

وتصل معاناة هؤلاء إلى الذروة عندما يوضعون في موضع التبليغ. وربّ موسى الذي خلقه أدرى بهذا، ولذلك علّمه كيف يسيطر على خوفه واضطرابه، كما لم يعلّم رسولاً غيره ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ ...٣٢: القصص. وفي قول موسى عليه السلام: ...﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ ...١٢و١٣: الشعراء(١). دليل واضح على ارتباط حبسة لسانه بموقف المخاطَب من جهة، وبانفعاله هو واحتدامه تجاه الموقف من جهة أخرى.

لقد كانت رحابة عالم موسى الداخليّ الروحيّ وغناه وشموله تستوفزه، فكان سريع الانفعال، مباشر ردّة الفعل، يندفع بعنف عندما يُثار، ويستعجل النتائج، فلا يصبر على الأمر حتى ينجلي ظاهره عمّا وراءه. حتى إن ربّه عاتبه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ ٨٣: طه؟ فكان من جوابه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ ٨٤: طه. ولا تحجب هذه الغاية النبيّة النفيسة استعجال موسى واندفاعه وسرعة ردّ فعله.

ومن الشواهد على ذلك أيضًا وكزُه المصريَّ تلك الوكزة البريئة التي أدّت إلى موته، وهذا المشهد العاصف بينه وبين أخيه هارون: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ١٥٠: الأعراف، وقصّة موسى مع العبد الصالح درس له في ضرورة الصبر والتريّث وتجنّب العجلة. وذلك الاحتدام والانهماك واستعجال الأمور ينال من قدرة صاحبه على الإبلاغ الذي يقتضي التروّي والرزانة.

ولعلّ ما يُدعى بعقدة لسان موسى أدّى به إلى شيء من العزلة، ورهبة مباشرة الناس بالخطاب، وربّما كانت له تجارب مخفقة، ومحاولات متعثّرة في بداية عهده في مدين، وقد أسفرت إخفاقاته وعثراته تلك عن رهبة وتخوّف من مباشرة الناس بالكلام. فلمّا أُمر بالتبليغ، وألجأته الرسالة إلى مخاطبة الناس، اشتدّت وطأة الأمر عليه، فاستعان بربّه، وسأله أن يسعفه بأخيه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ ١٢و١٣: الشعراء. وهكذا نرى الخوف والتخوّف يسجّلان حضورًا واضحًا في قائمة انفعالات موسى عليه السلام، حتى إن الله الحقّ يعلّمه كيف يحصّن نفسه من الرهب ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ ٣٢: القصص، وقد لاحظ شيخ مدين ذلك الخوف عندما قصّ عليه موسى القَصص، فكانت كلمته الأولى له: لا تخف.

---

(١) إني أخاف تكذيبهم، وأنا امرؤ يضيق صدره ويحتبس لسانه في هذه الحال.

وقد أحصيت خمس عشرة مرّة ذُكر فيها خوف موسى، ليس بينها الخوف المندوب، كخوف الله، أو يوم الحساب، أو الظلم، فهو يخاف المصريّين، ويخاف أن يكذَّب، ويخاف أن يُقتل، ويخاف أن يُدرَك، ويخاف أن يَفرُط عليه فرعون أو أن يطغى، ويخاف العصا عندما انقلبت حيّة، بل يُولّي مدبرًا، ولا يُعقّب، ويخاف حبال السحرة وعصيّهم. ولا يستطيع الناظر في عُقدة لسان موسى تجاهُل دور الخوف أو التخوّف كعامل له أثره في صلته بالآخرين، ولاسيّما فيما يخصّ الدعوة، حيث هذه الصلة تعني الخطاب.

وما يزال موسى يدعو ربّه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ ٢٩-٣٢: طه. وقد سأل موسى ربّه جلّ وعلا ذلك مرارًا ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ ٣٤: القصص، و﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ ١٢و١٣: الشعراء. واستجاب الله لموسى، فكان هارون ملازمًا له، يشاركه عبء الدعوة، ويشدّ أزره. وهي ظاهرة بِدْع في النبوّات، ولعلّ حواريّي عيسى، وصحابة رسول الله من بقاياها. بل إن التوراة تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فتنسب معجزة العصا إلى هارون[١].

ورغم أن الوحي كان لموسى وأخيه معًا ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ ٨٧: يونس، وكذلك التكليف ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ ٤٣: طه، ورغم أنهما ذُكرا معًا في الغالبيّة العظمى من الآيات التي تتناول دعوتهما ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١١٨ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ١١٧-١٢٠: الصافات، إلاّ أن مجريات الأمور تدلّ على أن موسى كان الأساس في الرسالة.

واستجاب الله لموسى، ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ٣٦: طه ...[٢] فشرح صدره، ويسّر له أمره، وحلّ شيئًا من عقدة لسانه بما علّمه من معالجة الرهْب، وبجعله هارون

(١) سفر الخروج: ٧

(٢) والدعاء في لحظات القرب مجاب، وأقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد، وأقرب ما يكون الله من عبده في الثلث الأخير من الليل إذا ذكره.

أخاه ردْءًا يصدّقه، ووزيرًا يحمل عنه من أعبائه...

ويذكّره جلّ جلاله بنعَمه الأخرى عليه، تقوية له، وإشعارًا لقلبه بالاطمئنان إلى أنّه معه: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ ٣٧ و ٣٨: طه، ومرّة ثالثة ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ ٤٠: طه، ومرّة رابعة ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ ٤٠: طه، ومرّة خامسة ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ ٤١: طه...

*

أذهل الأمر موسى عليه السلام، وأدرك أن ما كان فيه عالَم آخر غير العالم الذي يعرف، عالم اعتباريّ غيبيّ، خارج عن نطاق الزمن، وبُعد يخالف ما هو معروف من الأبعاد، تجلّت له فيه قدرة الله المطلقة.

وعالم الغيب مملكة، بل ممالك لا تدرَك بالحواسّ، ولا اعتبار فيها للزمن ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ ٢٥٩: البقرة. ومن عالَم الغيب الإسراء والمعراج، وما بعد الموت، والبرزخ، والوحي، والملائكة، والجنّ، ونحن نؤمن بكل هذا اعتقادًا يوافقه المنطق الرياضيّ، ويُقرّ به العقل، وتسير في ركابه الحقائق التي فرغ العلم التجريبيّ الوجوديّ من تصديقها.، لا عن طريق الحواسّ، أو ما يُعبَّر عنه على التغليب بالمشاهَدة، فعالم المشاهَدة الذي نعيه قد يكون أصغر العوالم على الإطلاق.

وانتبه موسى عليه السلام، فإذا هو يحمل الأمانة. وتذكّر زوجته، فهبّ، وانطلق مسرعًا يتعثّر بخوفه وإشفاقه وقلقه. وفي الروايات أن الله أرسل ملائكة ساعدت زوجة موسى حتى وضعت حملها، وقامت بخدمتها والطفل.

واستأنف موسى السير بأهله من الطور الأيمن إلى مصر... ونزل قريبًا من منازل أهله[1]، ثم أتاهم متلطّفًا، ودخل عليهم بأسرته، وكان لقاء بعد أكثر من عشر سنين.

اذهبا إلى فرعون إنّه طغى

كان تكليفًا خطيرًا: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ ٤٣: طه، وموسى وهارون عليهما السلام يعرفان أن هذا سوف يثير غضب فرعون، كما يعرفان ماذا يعني أن يغضب فرعون، ولاسيّما إذا كان مَن أغضبه من بني إسرائيل، الذين يُذَبِّح أبناءهم ويستحي نساءهم. ولكنّ ربّ العالمين كان قد علّم موسى ما يتغلّب به على الخوف ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ ٣٢: القصص[2].

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ٤٤: طه. وفي هذا التوجيه درس للدعاة، فهذا فرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ٢٤: النازعات، و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ ٣٨: القصص، والذي طغى حتى بلغ غضبُ الله عليه أن لعنه، وأماته تلك الميتة العبرة، يأمر الله رسوليه أن يقولا له قولاً ليّنًا، عسى أن يذكّره ذلك، أو يجعل في قلبه خشية الله.

نلاحظ في معظم المواعظ، كخطبة الجمعة، أن كثيرًا من الخطباء يعمدون إلى آيات الوعيد والعذاب التي أنزلها الله في الكافرين يعِظون بها الناس. وهذا خطاب لا يليق، ذلك أن الله الحقّ أنزل الكتاب على نبيّه، وقال له: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ ٩٧: طه. ولئن لم يكن مصلّو الجمعة كلّهم من عِلية المتّقين، فهم ليسوا القوم اللدّ الذين يستحقّون هذا الإنذار.

إن في كتاب الله خطابين لا ثالث لهما، أحدهما للكافرين، والآخر للمؤمنين على فسقهم..

(١) من أدب المسلم ألاّ يأتي قومًا مفاجأةً، حتى زوجته، بل عليه أن يخبرهم ليتخذوا أهبتهم، ويحسنوا استقباله، ولا يحرجهم بالوقوف على ما لا يريدون من شأنهم.

(٢) والرهْب أقوى من الإرهاب، مع أن أغلبهم على العكس، وذلك لما فيه من الإيحاء بأنه أصبح من المسلَّمات.

والمؤمن مؤمن على فسقه، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ ٦ : الرعد، وهذا للمؤمنين بالله المسلمين إليه. وقد أُمرنا ألاّ نحاسب الناس وكأنّنا أرباب.

وعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «ألا أدلّكم على دائكم ودوائكم؟ ألا إنّ داءكم الذنب، ودواءكم الاستغفار»[1]. وموقف الداعية موقف الطبيب العطوف من مريضه الذي يحتاج إلى رعايته وعنايته.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ٤٥ و ٤٦ : طه.

إن من أعظم الشهداء رجلاً قام إلى ظالم فوعظه فقتله. وقد علّمنا رسول الله أن نتّقي الخوف والرهبة في مواجهة الطغاة بهذا الدعاء: «اللّهمّ ربّ السماوات السبع، وربّ العرش العظيم كن لي جارًا من شرّ فلان... أن يَفرُط عليّ أحد منهم. عزّ جارك، وجلّ ثناؤك، ولا إله غيرك»[2].

والتقى فرعون بعد عشر سنوات هذا الذي كان يُدعى ابنه، وقد صار رجلاً في الأربعين من عمره، وكسته النبوّة هيبة وجلالاً. وقدّم موسى نفسه وأخاه: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ١٦ : الشعراء. وفي سورة أخرى ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ٤٧ : طه، فهما رسول واحد من حيث حملهما رسالة واحدة، ورسولان من حيث كونهما كليهما يبلّغان .

ويوظّف الكتاب المبين القصص لأغراض التنزيل[3]، فقد نراه يتناول القصّة كاملة، أو يوظفها جزءًا جزءًا كما يتطلّب المقام. وعلى المتصدّي للبحث في القصص القرآنيّ أن يولي هذا الجانب الاهتمام الذي يستحقّ، وأن يعرف كيف يجمع أجزاء القصّة من مواضعها المتفرقة، ويجرّد كلاً

(١) رواه البيهقي عن أنس.

(٢) مجمع الزوائد ١٠ : ١٣٧.

(٣) انظر الباب الأوّل: أهداف القصص القرآني.

منها ممّا اقتضاه المقام ليخلص بها إلى أصلها، ثم يجعلها رتلاً لكي يحصل على القصّة المتكاملة التي يريد اكتشافها[١].

وكانت ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ١٦: الشعراء، البلاغَ الذي أمر الله به موسى وهارون، وصاعقة كان جديرًا بفرعون أن يزلزَل لها، فهي تعني نسف ربوبيّته التي يدّعي، والانصياع إلى سلطة عليا يستوي أمامها العالَمون. وأسرع موسى يستغلّ صمت فرعون الغريب، ويدلي بسبب دخوله وهارون عليه ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ١٧: الشعراء[٢]، «فالإنسان عبد الله، ولا يحقّ لك استعباده»[٣]. وهذا منطلق «أرسل معنا»... وليس إكرامًا لبني إسرائيل واختيارًا لهم.

بوغت فرعون، ولم يجد ما يقوله أمام المباشرة الصادمة التي جبهه بها موسى، وتجاهل الأمر، ليتيح لنفسه التفكير في الردّ الذي يخدمه[٤]، وهرب إلى ما يستطيع الكلام فيه، وراح ينتقص موسى بأسلوب المنهزم المفلس الذي يختبئ وراء أمور جانبيّة: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۞١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ١٨ و١٩: الشعراء. فهو يمنّ عليه، ويذكّره أنّه رُبّيَ في أسرة فرعون، ولبث فيهم سنين طويلة، ثم يذكّره بما يراه مثلبة ارتكبها موسى بقتل المصريّ الذي تقول الروايات إنّه خبّاز فرعون، وهوّل منها فصوّرها أكبر من أن تُذكر، وشنّع عليه أنّه قد كفر أنعُمَهم عليه بما فعل.

وكان الموقف في صالح موسى وهارون، ذلك أن الله كان معهما يسمع ويرى، وتلاشت رهبة فرعون ذي الأوتاد وإرهابه، وقال موسى: ﴿فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾

---

(١) من بحث «الكلمة وأخواتها في القرآن الكريم» لصاحب القصص.

(٢) وكان موسى قد أتى فرعون لهذا الغرض، وليدعوه إلى الإيمان. ولا تبرز النصوص السبب الثاني لأنه بديهيّة، فالدعوة إلى الله مهمة الرسل.

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، تفسير الآية ١٧ من سورة الشعراء.

(٤) وذلك أسلوب المشتغلين بالسياسة.

٢٠: الشعراء، لقد ضلّلني تقديري، فما خِلت أن وكزتي تقضي عليه، وأضاف: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٢١: الشعراء.

ويستدرك موسى مستنكرًا[1]: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ٢٢: الشعراء؟ أي أتراها نعمة أن استعبدت قومي، وقتّلتهم حتى تخلّت أمّي عنّي، وقذفت بي إلى الموت، فالتقطتموني وربّيتموني، ولبثت فيكم من عمري سنين؟

وأعرض فرعون عن تهكّم موسى، وتندّره بنعمته، والتفت إلى بداية كلامه ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٦: الشعراء، وقال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٣: الشعراء؟

وأجاب موسى الإجابة المباشرة البسيطة ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ ٢٤: الشعراء.

فأشار فرعون إلى حاشيته بسخريّة: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ ٢٥: الشعراء؟

وكان ذلك استهلالاً لموقف سلبيّ سوف يوجّه ما تبقّى من أحداث قصة موسى وقومه. لكنّ سيّدنا موسى تخطّى هذه الرسالة البعيدة العميقة، وكرّس موقفه الراهن فقال كأنّه لم يسمع ملاحظة فرعون: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٦: الشعراء.

وقبل أن يتوقّع موسى استشاط فرعون غضبًا: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ٢٧: الشعراء

وصمد موسى، وتابع بإصرار: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ٢٨: الشعراء. أي لا جواب فوق ما ذكرت لذي عقل يبتغي الفهم. وفي هذا إشارة إلى مماحكة فرعون، وعدم جدّيّته في ابتغاء الحقيقة من حواره، وهي غاية الحوار الجادّ.

ولكنّ فرعون لم يكن دائمًا على هذا القدر من النزق، ففي مواجهات أخرى نراه يناقش ويحاور، رغم أنّه لم يكن ينشد الوصول إلى الحقّ، ولو أنّه قصد ذلك لهداه الله. وفي ذات مواجهة قال يحاور موسى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ ٤٩: طه؟

أي من تعتقدان أنّه خلق كلّ شيء، وقدّر كلّ أمر، وسيّر هذا الكون؟ وأجابه موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ٥٠: طه[2].

---

(١) لعلّه أكثر من خطاب، في أكثر من موقف، جمع النص القرآني بينها، كإجابات واجه بها موسى فرعونَ. ويطرد في القصص القرآني جمع أكثر من موقف، أو أكثر من عبارة ينتمي كل منها إلى موقف.

(٢) ومثله قوله جل وعلا: "الذي خلق فسوى * والذي قدّر فهدى" ٢ و ٣ : الأعلى.

أي الذي خلق كلّ المخلوقات، ووضع لكلّ مخلوق دوره ووظيفته، وهداه إليها. وهذا معنى الربوبيّة. والهداية هنا أن تباشر كلّ العناصر وظائفها بإذن ربّها. فالنار تحرق، والماء يروي، والشمس تُدفئ، وهذا ما يعبّر عنه بالإذن.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ٥١: طه؟

ويلاحظ هنا أن فرعون يحاول النيل من قوّة مُحاوِره بإدخاله في قضيّة جدليّة تربكه، ممّا له هو باع فيه. أي يفتعل مناظرة جانبيّة يضمن فيها ظهوره على خصمه، فلا يبعد أن يكون عِلم فرعون بالقرون الأولى أكبر من علم موسى. ولكنّ حكمة موسى تقطع على فرعون الطريق، وتفوّت الفرصة. وتبقى الآيات درسًا في كيفيّة تصرّف الداعية في مثل هذا الموقف، ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ٥٢: طه.

هكذا أجهض موسى بادرة فرعون، وانصرف ببساطة وبراعة إلى قضيّته التي يفرّ منها مُجادلُه... قضيّة التوحيد، فقال متابعًا: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ ٥٣ و٥٤: طه.

فهو يعدّد بعضًا من نعم الله التي تمثّل مقوّمات الحيية كتمهيده الأرض لقرار الناس، وجعله فيها طرقات لتنقّلهم والتقائهم، وإنزاله المطر، وإنباته النبات الذي ينمو ويزداد ليحفظ حياة الإنسان والحيوان، وكلّ ذلك دلائل وبراهين لأصحاب العقول المفكّرة على ربوبيّة الله الواحد.

ويتابع موسى من فوق هذا المنبر الاستراتيجيّ الذي يذكّرنا بمنبر الخليل قبل أن يُلقى في النار: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ٥٥: طه[1].

يلاحظ أن موسى انتقل من الخطاب المباشر إلى الخطاب بالحكاية عن الله جلّ وعلا، في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ ٥٣: طه، وقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ٥٥: طه.

---

(١) إنه دأب النبي الرسول... لا يبالي أن يدفع حياته في مقابل موقف ينفذ بدعوته إلى العقول والقلوب.

والخلق هنا هو الخلق الأوّل، أو النشأة الأولى من الطين. وهناك الخلق الثاني أو النشأة الثانية، أي البعث بعد الموت، وقد أشار إليها بقوله: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ٥٥: طه. أمّا قوله: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ٥٥: طه، فإشارة إلى نهاية الأرض، ومغادرة الوجود الماديّ إلى كون آخر بالزجرة. أي بعد نهاية هذا الكون. ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ ١٠٤: الأنبياء.

وقد جعل ربّ العالمين لكلّ خلق أصلاً وعنصرًا، فالنشأة الأولى، أو الخلق الأوّل، كان من طين الأرض، أي من عناصرها. وتلك النشأة علمناها. أمّا الخلق الثاني، أو النشأة الثانية، ففيما لا نعلم ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ٦١و٦٢: الواقعة. **فالإيجاد الأوّل هو الخلق من طين الأرض، والإيجاد الثاني هو البعث والإخراج إلى كون آخر.**

يقول تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ٢٩: الأعراف، **فالعودة تتمّ كما تمّ الخلق الأوّل، ولكن بقوانين أخرى لا نعرفها. ولا سبيل لنا، حتى الآن، إلى معرفة أصل الخلق الآخر، الذي سوف يخلف الإنسان، ولا طبيعته، ولا طاقاته. وقد أنبأنا الله الحقّ أنّه يخرجه إلى مستقرّ آخر سمّاه الساهِرة، وذلك بزجرة واحدة ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾** ١٣: النازعات.

واستثير فرعون بهذا التعقيب، فهو يمكن أن يحتفظ بالتعقّل والموضوعيّة مادام الأمر لا يمسّ مركزه الإلهيّ المدّعى، أما وأن موسى يذكر ربًّا للمشرق والمغرب وما بينهما، أو يصفه بأنّه خلَق ثم هَدى، فلا بدّ أن يخرجه ذلك عن النقاش إلى مثل هذا التهديد العنيف: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ٢٩: الشعراء.
وخفّض موسى بحكمة من تصاعد التوتّر ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ ٣٠: الشعراء؟ واستجاب فرعون حفظًا لماء وجهه، وليبدوَ كالواثق ممّا لديه، والمنصف لخصمه، ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ٣١: الشعراء. ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ٣٢: الشعراء[1]. وتركت المفاجأة أثرها في فرعون، ولكنّه على ما يبدو لم يُبدِ اقتناعًا،

---

(١) من بلاغة الكتاب العربيّ المبين ما وُصفت به عصا موسى عليه السلام، فقد قال في مقام التعريف المحض: إنها حية. والحية اسم جنس، يوصف به الثعبان وغيره كالجان والأفعى، وقال: إنها ثعبان عندما تطلّب المقام إبراز ضخامتها وشدة حركتها، وقال: إنها جان عندما تطلّب المقام إبراز سرعتها وخفتها.

أو طالب ببرهان أقوى، فأدخل موسى يده في جيبه، ثم نزعها، فإذا هي تبرُق ببياض باهِر، لا يشبه ما يعرفون من البرَص الذي كان شائعًا. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ ٣٣: الشعراء.

إن من رحمة الرحمن الرحيم أنّه سلّح الأنبياء والرسل بالآيات والمعجزات ليُيسّر للناس سبل الاقتناع بالحقّ والاهتداء إليه، وقد أعطى موسى تسع آيات بيّنات ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ ١٠١: الإسراء، ورغم كونها بيّنات فقد زادت في ضلال فرعون وصلَفه، فزعم أنّها سحر، وكان للسحر حضور واسع لدى المصريّين، وانتهى به الأمر إلى أن أعلن برَمه بموسى، ورغبته في التخلّص منه. ولكنّه لم يُفلح في إخفاء هزيمته الداخليّة، ويظهر ذلك في خطابه الليّن المتواضع حتى التملّق لملئه، وهو الذي حَشَر ﴿فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ٢٤: النازعات، حيث يقول لهم: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ ٢٦: غافر.

إنّه منطق الطواغيت، يدعون الإصلاح إفسادًا، والخير شرًّا، وما ذلك إلاّ ليسوّغوا قتل القائلين به. وقد رأينا كيف أصبح التطهُّر في منطق قوم لوط سببًا لإخراجه وأهله من القرية ﴿قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ ٨٢: الأعراف. وهكذا يضيع مفهوم العدالة، ويشوَّه في وجدان الناس. فإذا جاء على الأرض عصر يغيب فيه الحدّ الأدنى من العدالة تدخّل الله مباشرةً، كما حصل في عاد وثمود وقوم فرعون وقوم نوح... ما هم اليوم عنّا ببعيد...

ويساوي الخطاب القرآنيّ بين فرعون ووزيره هامان، ففرعون، بزعمه، ربّ أعلى، وما يعلم لقومه من إله غيره، فهو على هذا ربّ وإلهٌ. وهذا الشرك المركّب لم يَدَّعِهِ إلاّ فرعون، ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ ٧٩: النازعات. وكان هامان شريك فرعون، وساعده الأيمن، يستعين به على موسى ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ٣٨: القصص، ومن هنا قرنهما الذكر الحكيم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ ٨: القصص.

مع سَحَرة فرعون

بعد جولات وجولات مريرة مديدة من المساجلات والمماحكات استشار فرعون ملأه في هذا الذي يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره. وأسفرت المشاورات عن قرار بدعوة موسى وأخيه إلى حوار علنيّ، على أن يُرجَأ الأمر قليلاً، ليتمّ حشر كبار السحرة من سائر أنحاء المملكة. وكان هذا مقترَح الملأ من قوم فرعون ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ ١١١ و ١١٢: الأعراف.

وقال فرعون من وراء قناع الإنصاف الخدّاع: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى﴾ ٥٨: طه[1]، ووافق موسى، وبادر بتحديد المكان والوقت ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ ٥٩: طه، وهو موعد وظرف اقترحه موسى لغاية في نفسه.

ولنا أن نتوقّع أن موسى يعرف المكان، بل يعرف مسرح المباراة بينه وبين السحرة، ولعلّ موضع الشمس في ضُحى ذلك اليوم كان يخدمه، من حيث اتّجاهها وحِدّتها وما ترسمه من ظلال. ومعروف توظيف الإضاءة في إحداث التأثير في العروض المشاهَدة، وهناك لفتة ملهَمة من ابن عبّاس حيث قرن، في تعليق له على سورة الفلق، شرّ النفّاثات في العقد بشرّ الغاسق إذا وقب. ولعل موسى استفاد من حشر الناس الذي يُتيح مضاعفة فعاليّة المؤثّرات بآليّة العدوى في الحشود. وليس هذا من التحجير واسعًا، بل هو ممّا عُلِّمه موسى الذي آتاه ربّه حكمًا وعلمًا، وجزاه جزاء المحسنين.

---

(١) وهي سابقة لفرعون يتردّى لها لبوس العدل والتجرد، وما يدعى بالشفافية، شأن ديمقراطيات اليوم، وكل ذلك ظاهر فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب. ويمكن الوقوف على نوع من التعامل الحضاري بين السلطة والرسول، كذلك الذي لمسناه في عاد، وإن لم يدُم، ذلك أنه ليس خلقًا بل تخلُّقًا، كما هي الحال في ديموقراطيات اليوم، التي تخفي سجونَها وآلات تعذيبها، وتبرز مظاهر العقلانية والحوار بينها وبين معارضيها.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ ٣٨ - ٤٠: الشعراء. ويوم الزينة عيد مشهود، وفي هذا العيد بذلت جهود إضافيّة لحشد الناس، وأغدق فرعون على السحرة المال والمناصب تشجيعًا لهم على دحر موسى الذي بات يتسبّب في متاعب متزايدة.

*

بدأ النزال، وتوجّه موسى رسول الله، الداعية أوّلاً، وقبل كلّ شيء، إلى سَحَرة فرعون: ﴿وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ ٦١: طه. وبهذا الخطاب سيطر موسى على الموقف، وانهزم السحرة داخليًا، ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ ٦٢: طه. أي أن مقالة موسى شقّت صفّهم، ولم يجِدوا إلاّ أن يتساروا ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ ٦٣: طه، فلنبذل جهدنا، ولنتآزر في مواجهتهما، فمن تفوّق فهو الأفضل، حكمًا لا نحيد عنه. ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ ٦٤: طه.

ولكنّ الخضوع كان يتسلّل بقوّة وبلا رحمة إلى قلوبهم، إذ قالوا بلهجة موادعة أقرب إلى الاستسلام والتسليم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۞ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ ٦٥ و٦٦: طه. ورأى موسى أن سحرة فرعون قد ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ ١١٦: الأعراف، ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ ٦٧: طه.

وينبغي لنا الوقوف عند بعض التعابير والألفاظ التي تعطينا فكرة عن المفهوم الإسلاميّ للسحر، أو للشعوذة، حيث أن ما أتى به هؤلاء من قبيلها، فالحبال والعصيّ لا تسعى، بل «يخيّل» إلى الناس، من براعة هؤلاء وخفّتهم، أنّها تسعى، والسحرة لا يَسحرون فعلاً، بل يتراءى لمن يراقبهم أنّهم يفعلون، فهم لم يَسحروا الحبال والعصيّ فتنقلب أفاعيَ، بل سحروا «أعين الناس»، فالأمر خداع بصر. وفي آية أخرى قال: "واسترهبوهم". فهو إيهام وسيطرة على المُشاهِد، وسوف نرى بعد قليل أن الله تعالى يقول لموسى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ﴾ ٦٩: طه.

obeikandl.com

وهكذا فالسحر في المفهوم الإسلاميّ تمويه وإيحاء، ولُعب بصريّة ونفسيّة خفيّة، يحذقها الساحر، ويجهد في إنجاحها.

ولكنّ المشهد في يوم الزينة كان غاية في البراعة والإحكام وقوّة التأثير، حتى داخل الخوفُ والرهبة موسى رغم كلّ ما أيّده الله به من معجزات. وكان الله معه، كما وعده، يسمع ويرى، فأوحى إليه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ ٦٩: طه. وألقى موسى عصاه، فإذا هي حيّة هائلة تلقف كلّ أفاعي السحرة التي تعجّ بها ساحة العرض.

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ٧٠: طه. وأذهل ذلك فرعون، فانطلق يهدّد بالتنكيل بهم، ويتوعّد بتصليبهم في جذوع النخل. وسقط فرعون، وزَهَق تهديده ووعيده أمام الحقّ الذي جاء، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ * إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ ٧٢ و٧٣: طه. لقد انبعثت فيهم جذوة الحقّ... فطرة الله التي يطمرها الضلال بالرماد حتى يَرين عليها، ولكنّها لا تموت أبدًا، بل تلبث بانتظار النداء. وسمع السحرة النداء، فانبعث الحقّ الكامن، وأسلموا إلى إله موسى وهارون ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ ١٢٥: الأنعام.

كان إيمان السحرة عملَ القلب، وهو فطرة الله التي لا تُكتَسب. فمن أين لهم هذا الذي قالوه، وهو من عمل اللسان، ولا بدّ فيه من الاكتساب؟

لقد لبث موسى عليه السلام عشرين عامًا كما في بعض الروايات يدعو إلى الله قبل مواجهته سحرة فرعون، فأشاع في القوم ثقافة الإيمان بالله والإسلام إليه، وتخلّلت كلماته النسيج الفكريّ للمحيط، وسرت تعابيره على الألسن، حتى إذا أنقدح زناد الإيمان وانطلق الشرر كانت الأوعيةُ اللسانية بالانتظار.

وهكذا كان موعد يوم الزينة غلطة فرعون الكبرى، التي حمله عليها غروره واتّباعه الأمانيّ، فليست المواجهة العلنيّة في مصلحة ضعيف الحجّة، ذلك أنّه يستعمل قوّته

دائمًا لحسم المواقف، ممّا يكشف ضعفه وهزيمته. وهذا ما كان، فقد أنهى فرعون المواجهة بما برهن على إخفاقه وهزيمته ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ ٢٩: الشعراء.

إنّه درس في الأمل للدعاة إلى الله الحقّ في أزمنة الهبوط والظلام: أيّها الداعية المسلم لا تفقد حماسك لكلمة الحقّ التي تحملها، ولا تقتك بجدواها. قل كلمتك، فإن لها قدرة من أمر الله على الوصول، ذلك أنّك تدعو إلى ما ينبغي أن يكون، وأن ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ ٢١: يوسف، وازرع، فإن رحم الأرض يحتفظ بالحقّ حيًّا، ويقذف به كلّما آنس خُطا من يبحثون عنه.

إن الإسلام دين الأزمات، تتعادل فيه كِفّتا الصمود والتَقدُّم. فإذا مرّ بأزمة امتصّ الهجوم الذي يجبهه، واكتسب سلاحًا فعّالاً فيه، فأضافه إلى عوامل قوّته. وإذا أُتيح له التقدّم اندفع بقوّة مذهلة، فاكتسح كلّ ما أمامه من الباطل. وفي أوج الأزمات، التي تضرب الأمّة كدولة أو كدول اليوم، يسجّل الإسلام أعلى درجات التقدّم والتفوّق كمعتقد ودين، وذلك من حيث المستوى العقديّ والفكريّ للذين يعتنقونه، ومن حيث نتاج العقول التي تعتقده. و«إن الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها دينها»[(١)]، وإنّه لآتٍ بإذن الله، ذلك أنّ الله غالب على أمره.

تفاقم البلاء

ألقي السحرة ساجدين، وكان ذلك فاتحة ثلاثين عامًا من تصدّي فرعون لموسى وقومه، وتصاعُد بطشه بهم، حتى أرهقتهم المعاناة، واستبدّ بهم الرعب، وطبعهم الذلّ والانكسار، ممّا قوّى ما هو معروف عنهم من الخوف، وعدم الإقدام، والانعزال والتكتّم، ولجؤوا إلى موسى يتمسكنون: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ

(١) سنن أبي داود: ٤٢٩١.

﴿تَعْمَلُونَ﴾ ١٢٩: الأعراف[1]، أي أنّه قد فعل أو سوف يفعل. هكذا نفخ هذا القائد الملهَم في تلك القبائل البدويّة المشرذَمة روح الأمل، الذي سوف يستثمره ليخرجهم من واقعهم المزري، ويجعل منهم شعبًا مؤمنًا.

وأصاب الله المصريّين بالقحط، ونقص من الثمرات ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ١٣٠: الأعراف. ولكنّ رحمة الرحمن الرحيم التي تسبق غضبه، والتي تسع كلّ شيء، تأبى إلاّ أن تترك باب التوبة مفتوحًا، فعسى أن يتذكّر الظالمون، الذين تجرّ عليهم أيديهم ما اكتسبت، أن عليهم أن يعودوا إلى الحقّ، وسوف يجدون الله عنده.

لم يُرِد آل فرعون أن يذّكروا، ولم يفكّروا في عطف أعنّة جيادهم إلى الطريق القويم، بل راحوا يطَّيرون بموسى ومن معه، ويُلقون عليهم اللوم فيما هم فيه ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ١٣١: الأعراف... أي ما يصيبهم من خير وشرّ إنّما هو من عند الله، وليس شؤم أحد أو يُمنه[2]، وقد أصابهم به بسبب أعمالهم[3]. وفي الحديث: «ليس منّا من تطيّر، أو تُطُيِّر له»[4]. وهو من الحضّ على اتّخاذ الأسباب، وعدم اللجوء إلى المغالطة في فهم المسلّمات.

ثم يأتي تعقيب الحكيم العليم: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١٣١: الأعراف. لكنّ المؤمن الذي يعي القول الحقّ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ٧٨: النساء، يعلم، يطمئنّ قلبه إلى أن طائر آل فرعون عند الله. فالنصّ القرآنيّ يستثني، بهذا التعقيب، قلّة من قوم فرعون يعلمون أن ما أصابهم إنّما هو بظلم فرعون وملئه، ويعلمون أن موسى على الحقّ. ولكنّهم مستضعَفون، لا حولَ لهم ولا قوّة، يعبدون الله على خوف من فرعون أن يفتنهم.

---

(١) و"عسى" هنا رجاء من موسى أن يكون ذلك، أو وعد وعده الله إياه، فتكون للتحقيق كما في قوله تعالى: "عسى الله أن يتوب عليهم" ١٠٢: التوبة. وفي البحر المحيط في تفسير الآية: قال ابن عباس: "عسى" من الله واجب.

(٢) أبو حيان: البحر المحيط تفسير الآية.

(٣) وهذا ما يدعى بالقدر. أما ما يصيب المرء مما لا يد له فيه فهو القضاء. ولما كان الله قد قضى أن الأمور مرهونة بأسبابها، فالقدر نفسه مما قضى به الله. فكلاهما إذًا من عند الله.

(٤) الترغيب والترهيب: ٤٦٠٦.

obeikandl.com

وبلغ فرعون ومن معه قمّة الميل عن الحقّ، وأعلنوا تنكّرهم لكلّ برهان، وإصرارهم على اعتبار موسى ساحرًا، ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ١٣٢: الأعراف... وكانت آيات من الكوارث البلاء والعذاب ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ ١٣٣: الأعراف[1]، ثمّ لم يلبثوا أن ناؤوا بما وقع بهم من الرِجْز، فخضعوا مرغَمين. ولمّا فُرّج عنهم عادوا سيرتهم الأولى، فكان لا بدّ أن يحيق بهم ما قضى به الله الحقّ لأمثالهم.

ليس فريضةً على المسلم أن يُجابه القوّة الحاكمة الغاشمة بما يعرّضه لبطشها، وقد قال سيّد خلق الله: «ليس للمسلم ان يذلّ نفسه. قالوا: يا رسول الله، كيف يذلّ نفسه؟ قال: يتعرّض من البلاء لما لا يطيق»[2]. فإذا أنت اخترت المجابهة، وكنت ضحيّة اختيارك، فأنت سيّد الشهداء. وذلك لقول الذي لا ينطق عن الهوى: «سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه، فقتله»[3].

وعندما تفقد الأمم أو الأقليّات أو الأفراد القدرة على رفع الظلم عن نفسها يتدخّل ربّ العالمين بشكل مباشر. وهذا عطاء الربوبيّة، وهو قانون حقّ، فكلّ عبد من عباد الله، مسلمًا كان أو غير مسلم، حاق به ظلم لا يستطيع له دفعًا، ودعا الله موقنًا بالإجابة كشف الله عنه الضرّ. فعطاء الربوبيّة يتجلّى بكشف الضر عن الداعي المضطر ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ ٦٢: النمل. **ومن أمثلة رفع الضرّ عن المستضعفين مَصارع جبابرة التاريخ التي تولاّها الله الحقّ، ولم يجعل لمن ظُلموا فيها يدًا، فقد أهلك الله فرعون بالغرق، والنمرود وجيشه بالبعوض، والذين استَضعفوا الأنبياء ومن معهم من القلّة المؤمنة بالصواعق والطوفان والزلازل.**

---

(١) وليس ثمة داع للخوض في تفصيل تلك الآيات، ولا دليل على ما قيل في ذلك. وما في توراة اليهود منه شاهد لكل ذي عقل على أنها مما كتبته أيديهم وليست من عند الله.

(٢) مجمع الزوائد ٢: ٢٧٥.

(٣) مجمع الزوائد ٧: ٢٧٢.

الخروج

اشتدّ البلاء بقوم موسى، واستحَرّ فيهم القتل، فأُمر سيّدنا موسى بالخروج ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ ٥٢: الشعراء، وفي الدخان ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ ٢٣: الدخان[١]. وفي التوراة: «فقال له الربّ: فنزلتُ لأخرجهم من تلك الأرض»[٢]. وفي التوراة أن فرعون رفض إطلاق بني إسرائيل من خدمته ليخرج بهم موسى إلى البرّيّة للتعبّد، وهو ما طلبه منه موسى، فضربه الله والبلاد ضربات موجعات، فاضطر إلى إطلاقهم، فانطلق بهم موسى وهم يريدون الأرض التي تدرّ لبنًا وعسلاً. وفي سفر الخروج «ولما أطلق فرعون شعب إسرائيل، رأى الله أن لا يسير بهم في طريق أرض الفلسطيين، مع أنه قريب، لأنه قال في نفسه: لعلّ الشعب يندم إذا واجهتهم حرب، فيرجعون إلى مصر. فأدار الله الشعب في طريق البرّيّة نحو البحر الأحمر»[٣]. فلمّا عرف فرعون أنهم هربوا «لحقهم المصريون بجميع مركبات فرعون وجنوده وهم نازلون عند البحر»[٤].

واختلفت المصادر في عدد الخارجين مع موسى ﷺ، فهم في أشهر الروايات التاريخيّة العربيّة ستّون ألفًا، وهم في التوراة «نحو ستمائة ألف راجل، ما عدا النساء والأطفال. وخرج أيضًا معهم كثير من الأغراب، وغنم وبقر ومواش كثيرة»[٥]. وقد جعله بعض الباحثين خمسة آلاف وخمسمائة فرد، بينما جعله آخرون بضع مئات[٦]، ولعلّه الأقرب إلى الصواب.

---

(١) وفي البحر المحيط في تفسير الآية: " وهم بنو إسرائيل ومن آمن به من القبط ".
(٢) سفر الخروج: ٣.
(٣) المصدر السابق نفسه: ١٣.
(٤) المصدر السابق نفسه: ١٤.
(٥) المصدر السابق نفسه: ١٢.
(٦) انظر محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢: ٢٣٨ ـ ٢٤٠ .

obeikandi.com

هناك تساؤلات كثيرة، وعلى جانب كبير من الأهمّيّة، عن عدد الذين خرجوا مع موسى، وعبر بهم البحر، وتاهوا في الأرض أربعين سنة، كما جاء في الكتاب المبين. فإن رقمًا توراتيًّا يشير إلى عدد الذين كانوا في مصر، ممّن حملوا اسم بني إسرائيل، وخرجوا مع موسى[1]، يقبل القسمة على عشرة على الأقلّ.

وقد أخذ كثير من المؤرّخين بما جاء في القصص التوراتيّ عن عدد الخارجين مع موسى، بل إن كثيرًا منهم نفخوا فيه لإضفاء مزيد من التشويق على أخبارهم. وقد غزت هذه الروايات معظم كتب التفسير لما فيها من عنصر القصّ المساعد على تقريب المعاني وإحداث التأثير الوجداني[2].

ولعلّ ممّا يلقي ضوءًا على مبلغ مصداقيّة تلك الروايات أن تاريخ مصر في الحقبة الموسويّة وما بعدها صفرٌ من كلّ إشارة إلى هذا الخروج[3]، ولئن احتُجّ بأنّه كان صفرًا من كلّ إشارة إلى موسى نفسه، ومن قبله إلى كلّ من يوسف وإبراهيم ﷺ، على عظَم شأنيهما، فهو احتجاج مردود. ذلك أنّ الإشارة، في آثارٍ ومدوَّنات، وُجدت أصلاً لتخليد أمجاد الملك، إلى مصلح دينيّ واجتماعيّ في البلاد، ولاسيّما إذا كان مناوئًا له، لا يقاس بعدم الإشارة إلى خروج طبقة اجتماعيّة، يزيد عددها على مليوني نسمة[4].

فضلاً عن أن هؤلاء كانوا الطبقة العاملة، وخروجها على هذا النحو يُفضي إلى كارثة في كلّ مرافق الحياة في البلاد، إضافة إلى تعطّل حركة البناء الناشطة، والتي يجدُر أن يظهر فيها مثل هذا التوقّف أو التعثّر، أو يسجّل في تاريخها على الأقلّ، فلا يمكن تعويض هذا العدد من الأيدي العاملة، حتى على اعتباره أدنى عدد ذُكر، في ذلك الظرف وتلك الحقبة دون أن يشار

---

(١) وهم أخلاط من البدو الرحل الذين جاؤوا من أرض كنعان، ومن بقايا بني إسرائيل، وممن آمن بموسى من أهل مصر، ويعرفون بالقبط. انظر الباب الأول: في الإسرائيليات، وقصة يوسف ﷺ.

(٢) ونجد في هذه الروايات رموزًا توراتية ما أنزل الله بها من سلطان عند كبار المفسرين كعمود الغمام، الذي يقع على موسى عند التكليم، فيُغَشّيه والجبلَ. [انظر البحر المحيط تفسير الآية ١٥٥ من سورة الأعراف].

(٣) وتاريخ مصر الفرعونية معروف موثق.

(٤) وهو الرقم التقديري للستمائة ألف رجل ما عدا النساء والأولاد الذي زعمته توراة اليهود.

obeikandl.com

إلى ذلك الأمر في المدوّنات الأدبيّة أو الرسميّة الملكيّة، وبصورة بارزة جدًّا، لما ذكرت من عظيم أثره في كلّ مجالات الحياة في المملكة. ولا يبرِّر عدم ذكر شيء من ذلك إلاّ وضعُ عدد الخارجين في الحدود المعقولة التي أشار إليها الذكر الحكيم على لسان فرعون ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ ٥٤: الشعراء.

يضاف إلى ما تقدّم لا معقوليّة الحدَث التوراتيّ الذي يصوّر خروج موسى وقومه، من حيث الكيفيّة والتوقيت ومكان الانطلاق واللحاق بهم، بطريقة لا يستقيم معها أن يزيد الخارجون على بضع مئات في أكثر التقديرات تجاوزًا. وقد استتبع التضخيمُ التوراتيّ الواضح الأهداف لعدد الخارجين تضخيمَ الردّ المصريّ، فإذا فرعون يحشر جنده من أرجاء مملكته، ويتبع من قال عنهم شرذمة قليلون، وإذا بتلك الملايين تجوز البحر أو اليمّ، الذي قطعت التوراة بأنّه البحر الأحمر، لكي يستوعب ما تزعمه من جيش فرعون الخرافيّ بمركباته وخيوله. وكلّ ذلك بتجاهل مفضوح لمنطق الأمور، وجغرافيّة المكان، وعنصر الوقت، وعين التاريخ.

ولا بدّ من الاعتراف بضآلة، بل بعدم، جدوى ما حاول بعضهم القيام به من تقدير عدد الذين خرجوا مع موسى، على أساس عدد أبناء يعقوب الذين نزلوا مصر في زمن يوسف ﷺ، لعدم الوثوق بالمصدر الذي يذكر عدد هؤلاء، وعدم الاتّفاق على المدّة مابين هذا الحدث ومبعث موسى وما كان فيها[1]، فضلاً عن أنّنا لا نستطيع الجزم بأن هؤلاء كلّهم قد آمنوا بموسى، ولا أن كلّ من آمن منهم قد خرج معه.

كلّ ذلك يوجب علينا الاستعانة بالمعطيات غير المباشرة للنصوص الدينيّة، وللتاريخ القديم والمتأخر، وبنتائج الأبحاث الآثاريّة ذات الدلالات الأقرب إلى القطع، والقيام بدراسة التقاطعات فيما بينها، عبر معالجة علميّة منطقيّة وحدْسيّة معًا، وذلك في سبيل الحصول على قراءة للأحداث أقرب إلى الصواب[2]. وهذا يفضي إلى ترجيح الاعتبار القائل إن الذين خرجوا

---

(١) انتهينا، حسب ما بين أيدينا من معطيات، إلى أن هؤلاء قد تحوّلوا إلى خليط من الناس جمعتهم بقايا الإيمان بدعوة يوسف، والوضع الاجتماعي والاقتصادي المأساوي، وأنهم قد احتفظوا بالاسم والطابع الأشهر وهو بنو إسرائيل. وتزخر التوراة بالإشارة إلى الأغراب على مدار التاريخ اليهودي، وتُفردهم بأحكام خاصّة.

(٢) نقع على نموذج من تلك الدراسات في كتاب للباحث السوري فراس السواح بعنوان "آرام دمشق وإسرائيل"، وإن كان قد أهمل أو كاد الاستهداء بالنصوص القرآنيّة. وقد وجدتها باطّراد تتوافق ونتائج الأبحاث العلميّة، كما نحّى الحدس تنحية شبه كاملة تنظيريًّا فقط، ذلك أن له حدسًا جيّدًا يوجّه نظرته=

مع موسى لا يزيدون عددًا على الماءتين أو المئات الثلاث رجالاً ونساءً وأطفالاً. ويكتسب هذا الاعتبار قيمته من كونه يؤدّي إلى تلافي الإشكالات والإحالات السالفة الذكر، ويعطي معقوليّة لبعض أحداث التيه كما ترويها التوراة نفسها.

ولكنّ المفاجأة الحقيقيّة تتبدّى لنا إذا استطعنا أن نكافح النصّ القرآنيّ بدون وساطة التفاسير، حيث نكتشف أنّه قد أشار إلى عدد هؤلاء، وإلى سبب ملاحقة فرعون لهم على لسان فرعون نفسه ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ ٥٤ - ٥٦: الشعراء. والغيظ ردّ فعل منطقيّ لما قام به هؤلاء من الهرب بذهب المصريّين، ولمَخزاة السحرة الذين جُمعوا وعبّئوا ليغلبوا موسى، فآمنوا به، وتحدّوا فرعون وسلطته، كما أنّه امتداد طبيعيّ لتطيّر فرعون بموسى ومن معه. بينما لا يصلح الغيظ كردّ فعل على تهديد هؤلاء أمن البلاد، وتوقّع غلبتهم على أهلها، كما تزعم توراة اليهود،. وإذا كان فرعون وملؤه قد فكّروا في هذا، فهو من قبيل التحسّب بعيد المدى، لا أكثر.

وقد تمّ التحايُل على هاتين المعلومتين الجوهريّتين: كونهم شرذمة قليلون، وكونهم قد غاظوا فرعون وملأه، رغم المباشَرة الواضحة في ذكرهما، وذلك تأثّرًا بالإسرائيليّات، ولويت عنق النصّ الصريح، واعتبر تبجُّحًا من فرعون، أو إشارة إلى قلّة عدد بني إسرائيل بالنسبة إلى جيشه(١).

إن النصوص القرآنيّة عمومًا، بمعزل عن جناية الإسرائيليّات على كثير من التفاسير، تتكشّف لدى التمحيص، عن قبول لافت للنظر لما يُقرّه المنطق والعلم من التأويل، كما رأينا في أكثر من نصّ، وفي أكثر من موضوع.

فأتبعهم فرعون وجنوده

رأينا في توراة اليهود أن فرعون أطلق قوم موسى وهو لا يعرف أنّهم راحلون دون رجعة، فلمّا عرف أتبعهم بجنوده. ولعلّ ممّا عرّفه ذلك ما تبيّن للمصريّين من أن شعب

= إلى النصوص، ويساهم فيما يسجّله من نتائج. وقد خرج بنتائج يوافق معظمها ما جاء في القرآن الكريم، أو لا يتعارض وإيّاه.

(١) لما كان هؤلاء مليونين ونصف المليون، فذلك يعني افتراض رقم خرافي للتعبير عن عدد جيش فرعون.

الله المختار قد سرق بالخداع والكذب كميّات كبيرة من ذهب مصر ونفائسها، وفي توراتهم أن الربّ قال: «تطلب كل امرأة عبرانيّة من جارتها، ومن النازلة في بيتها مصاغ فضة وذهب وثيابًا، فتلبسونها بنيكم وبناتكم. وهكذا تسلبون المصريّين»[1].

وقد لا يعدم اليهود مبرّرًا لذلك، وقد نجد من يقارن هذا باستيلاء المسلمين على قافلة أبي سفيان الذي أدّى إلى معركة بدر. ولكن الفيصل في ذلك: أنّهم حتى اليوم يواصلون عمليّة الاستيلاء على ذهب العالم، وأنّنا مازلنا، ولن نبرح، نقول بِقول كتابنا: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ ٣٨: المائدة.

وتزعم توراة اليهود أن فرعون انطلق بكل جنوده وفرسانه يتبع موسى ومن معه، وأمّا الروايات الإسلاميّة فتوقّفت عند قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ ٥٣: الشعراء. وقد رأى كثير من المفسّرين أن مهمّة الحاشرين كانت استدعاء الجند للخروج وراء موسى وقومه، وأن ذلك قد تمّ في سُويعات قليلة، حيث انطلق فرعون بهم مع شروق الشمس. وقد أفرز هذا بسطَ القول في عدد جيش فرعون، وسرعته، ودقّة تنظيمه وحِرفيّته.

ولعلّه ليس ثمّة ما يمنع من القول إن الحشر لم يكن لقطعات الجيش لسببين اثنين: الأوّل أن عدد المطارَدين، كما سبق القول، لا يستدعي ذلك بحال من الأحوال، فهم شرذمة قليلون كما قال فرعون نفسه. والثاني أنّه لا يستقيم أن ملكًا متألّهًا يعلن النفير العامّ، ويرسل من يجمع قطعات جيشه من سائر مدن مملكته للحاق بفارّين يصفهم هو نفسه بالشرذمة القليلين.

ثم إن الذين يزعمون ذلك هم أنفسهم الذين يقولون، متابعة للتوراة: إن بني إسرائيل مستضعفون مملقون، يسخّرهم فرعون بلقمتهم، بل بدونها في الآونة الأخيرة، ويترتّب على هذا ألاّ يُتوقّع منهم مقاومة تستدعي هذا الحشر. وسوف نرى أن طائفة من القائلين بحشر الجند اضطرّوا بعد قليل إلى جعل فرعون ينطلق وراء موسى قبل أن تصل قوّاته التي استدعاها، وما ذلك إلاّ ليُكسِبوا الأمر بعض المعقوليّة، وبهذا أجهضوا مبرّرات افتراضهم. وقد كنّا في غنًى عن ذلك كلّه.

---

(١) سفر الخروج: ٣.

فلعلّ الحاشرين كانوا أبواق الملك، وكانت مهمّتهم القيام بحملة إعلاميّة، لتهيئة الرأي العامّ في البلاد، لما يقوم به الملك من قمع تلك الشرذمة المتمرّدة، التي تسبّب القلاقل وإزعاج السلطات. ونرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ ٥٤ - ٥٦: الشعراء، نصّ تلك الحملة الذي قرّره القصر، وأمر بإذاعته. ومن أجل ذلك كلِّفوا بحشد الناس في سائر الميادين والساحات العامّة في سائر المدن.

وليس لقائل أن يقول: إن هذا لا ينسجم واستبداد فرعون، ولا مبالاته بالناس. فهناك الكثير من الأدلّة على أن هذا الحاكم كان على جانب واضح من الحنكة السياسيّة، أو الحِرفيّة السياسيّة، بدا ذلك في تكرار «قال للملأ من حوله»، وفي استشارته إيّاهم في أمر موسى، كما بدا في السماح بارتفاع أصوات معارضة للأساس الإيديولوجيّ للنظام القائم[1]، في البلاط الملكيّ، حيث قام كلّ من موسى وهارون ومؤمن آل فرعون بمساجلات ومحاورات لفرعون وملئه، اتّسمت بالعنف والمباشرة أحيانًا كثيرة ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ ٢٨: غافر. وفي بعض الروايات أن موسى وهارون ظلاّ قرابة عشرين عامًا يتزعّمان معارضة تتمتّع بكامل حرّيّتها، وكانا يدخلان القصر على فرعون، فيمارس موسى الدعوة إلى الله، ويناقش في ذلك ويحاور، ويقدّم براهينه ومعجزاته، في ظلّ ديمقراطيّة لا نجدها في زماننا هذا.

اضرب بعصاك البحر

نقرأ في توراة اليهود: «وكانوا عند صعودهم من أرض مصر مجهزين للقتال»[2]، ونقرأ أيضًا: «فلحقهم المصريّون بجميع مركبات فرعون وفرسانه وجنوده وهم نازلون

---

(١) وهو تأليه رأس السلطة.

(٢) سفر الخروج: ١٣.

عند البحر»[١]. وهذا يعني أن بني إسرائيل، رغم نير فرعون، كانوا يتسلّحون سرًّا، ولم يكن ذلك خافيًا على فرعون، فبنو إسرائيل لم يكونوا يومًا، بالذين يؤمَن جانبهم، و تلك الطبيعة المقلقة، إضافة إلى تاريخهم في الحقبة اليوسفيّة[٢]، جعلت فرعون ومن معه جميعًا حاذرين، مدركين بواطن الأمور في أرضهم، ومستعدّين لمجابهة ما قد يقوم به قوم موسى من تمرّد أو شغب[٣]. ولم يكونوا في هذه خاطئين كما كانوا يوم التقطوا موسى ليكون لهم عدوًّا وحَزَنًا.

انطلق فرعون وراء موسى ومن معه مُشرِقين. أي: متّجهين شرقًا[٤]، فحوصر هؤلاء بين جيش فرعون وبين البحر. ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ ٦١: الشعراء، وفي توراة اليهود «وقالوا لموسى: أما في مصر قبور، فأخذتنا لنموت في هذه البرّيّة؟ ماذا عملت بنا؟ أما قلنا لك في مصر: دعنا نخدم المصريّين، فخدمتنا لهم خير من أن نموت في البرّيّة»[٥].

﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ ٦٢: الشعراء... موقف لا يقفه إلاّ نبيّ، يقود قومه في طريق رسمها الله له، فهو مُترَع طمأنينة ويقينًا في كلّ خطوة مهما لقي منهم، ومن أخطار الطريق. لقد اتّبع موسى الحقّ، وأعدّ له عدّته، كما ينبغي للمتوكّل على الله أن يفعل، فاستحوذ على عطاء الربوبيّة باستفراغ الجهد في العمل والتدبير، وعلى عطاء الألوهيّة بالإيمان والاتّكال على القادر الحقّ. ومن عطاء الربوبيّة أنّك إذا أدّيت ما

---

(١) سفر الخروج: ١٤.

(٢) حيث بدوا صنائع للهكسوس المستعمرين.

(٣) ولكن هذا لم يبلغ أن يشكلوا خطرًا على المملكة، كما تدّعي توراة اليهود، فهم لم يزيدوا على الشغب وإغاظة السلطات بنص الكتاب المبين. أما توراة اليهود فتبرئهم حتى من هذا.

(٤) كما تقول: أعرقَ وأشأمُ أي أتى العراق والشأم. يؤنس في هذا أن جميع تحديدات منطقة العبور تجعلها إلى الشرق من المنطقة. وأكثرهم على أنّها تعني عند شروق الشمس.

(٥) سفر الخروج: ١٤. وقد اعتاد موسى من قومه أن يجزعوا ويندبوا، ويُلقوا عليه اللوم لدى كلّ عقبة تعترضهم، وكأنّهم يتفضّلون عليه بخروجهم معه. ويحفل سفر الخروج بأمثال هذه المواقف من شعب الله المختار... لقد أفهم هؤلاء أحبارُهم أن الله اختارهم لأنّهم بنو إسرائيل، ولم يفهموا أنّهم إن يتولّوا يستبدل قومًا غيرهم، وأن الأرض يرثها عباده الصالحون.

عليك، وفعلت ما في وسعك، وصلت، فإذا قصّرت أداتُك جبر الله التقصير، أمّا إذا عجزتَ، ثم بدا لك ألاّ منفذ ولا مهرب، وجدت الله معك، وقُضي الأمر بيده دون يدك.

وبين فرعون والبحر وقف موسى وقد صفِرت يداه، بعد أن استنفد الممكن والمتاح، فوجد الله معه ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ ٦٣: الشعراء.

وضرب موسى البحر ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ ٦٣: الشعراء...

كثرت التكهّنات حول البحر الذي عبره موسى بمن معه، وأكثرها ينحو منحى التوراة في اعتباره البحر الأحمر، ولكن لعلّ اعتباره واحدًا من فروع النيل المنتشرة شماليّ خليج السويس أقرب إلى الانسجام وما جاء في الذكر الحكيم، وفي الآثار الموثوق بها، بل أكثر انسجامًا وما جاء في التوراة نفسها من أخبار العبور. وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى فلْق البحر، فمنهم من جعله خارقة تنفي كلّ سبب، ومنهم من جعله ظاهرة طبيعية لا علاقة لها بموسى ولا بعصاه. ونحن في نطاق مفهوم المعجزة، وقد فصّلنا القول فيه في أكثر من موضع[1]، لا نعترف بالتعارض بين الاعتبارين، فمن المعروف أن بعض المسطّحات المائيّة في شرق الدلتا يضطرب منسوب المياه فيه اضطرابًا هائلاً بفعل عوامل طبيعيّة مختلفة، وقد أذن مسبّب الأسباب أن تُسخَّر هذه العوامل، في تلك الساعة، لضربة عصا موسى ﷺ، فيكون البحر طريقًا آمنةً له ولقومه، ومقبرة لفرعون وجنوده الذين أتبعوهم بغيًا وعدوًا.

وهكذا نجّى الله موسى ومن معه، فعبروا البحر على مرأى من عدوّهم الذي يلحق بهم على أعقابهم ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ ٩٠: يونس،

(١) انظر الباب الأول: المعجزة.

وفي طه ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ٧٨: طه. ولعلّها كانت حركة غريزيّة، أراد بها موسى أن يقضي على فرعون ومن معه، أن فزع إلى عصاه التي ضرب بها البحر فانفلق، ليضربه بها فينغلق عليهم، ولكن جاءه التحذير: لَم تفعل الأولى لتفعلَ الثانية، ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ ٢٤: الدخان، فقد سبقت كلمة ربّك وكتابه.

وغشي فرعون وجنوده من اليمّ ما غشيهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ٩٠: يونس.

وقال الذي لا إله إلّا هو: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ٩١: يونس! لقد أُقفل باب التوبة اللحظةَ، وقد كان مفتوحًا دائمًا، و﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ ١٧: النساء، أي قبل أن يدركهم الموت. أمّا إذا بلغت الحلقوم، فهي الخطوة الأولى خارج نطاق التوبة، ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ ١٥٨: الأنعام.

ويحتفل اليهود بنجاتهم في عاشوراء من كلّ عام، وكثير من المؤرّخين على أن ذلك كان عام ١٢١٥ قبل الميلاد، وقد اتّخذه اليهود عيدًا يصومونه، وفي صحيح البخاريّ: «قدم النبيّ ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجّى الله بني إسرائيل من عدوّهم، فصامه موسى. قال: «فأنا أحقّ بموسى منكم». فصامه وأمر بصيامه»[(١)].

فلمّا انتهى أمر فرعون وجنوده، وانغلق اليمّ على جثثهم وعتادهم، وجد موسى ومن معه الوقت الكافي للالتفاف حول هذا المسطّح المائيّ، وإرسال فرقتين منهم إلى

(١) البخاري: ١٩٠٠.

عاصمة فرعون لإحضار الغنائم[١]. وهذا يدعم القول: إن العبور كان لواحد من المسطّحات المائيّة، ولو كان البحر الأحمر هو الذي سخّره الله لعصا موسى، لاحتاجت الفرقتان المذكورتان إلى معجزة عبور معاكسة للعودة إلى مقرّ فرعون، وهو ما لم يكن.

هكذا يصوّر الذكر الحكيم الحدث من منظار الحكمة التي وراءه، فإذا هو بضع لقطات سريعة حيويّة تهيّئ النفس، وتترك للمخيّلة الواقعة تحت تأثير هذا الإيحاء أن ترسم الصورة المفصّلة النهائيّة فتأتي مرسّخة للحكمة التي وراء الحدث.

ومن جهتها تُصوّر التوراة الحدَث كما يلي: «ومد موسى يده على البحر، فأرسل الرب على البحر ريحًا شرقية عاصفة طول الليل، حتى أيبس مابين مياهه. فانشقت المياه. ودخل بنو إسرائيل في وسط البحر على الأرض اليابسة، والماء لهم سور عن يمينهم وعن يسارهم وتبعهم المصريون... وأشرف الرب عند طلوع الصبح على جيش المصريين... فأوقع الفوضى في صفوفهم... فطرحهم الرب في وسط البحر ورجعت المياه فغطت المركبات والفرسان... »[٢].

وكما اختُلف على البحر الذي عبره موسى بقومه اختلف المؤرّخون على الفرعون الغريق، فقد ذكر له المؤرّخون الإسلاميّون أسماء لم يقرّهم عليها المشتغلون بتاريخ مصر القديم. كما رُشّحت أكثر من مومياء ممّا اكتُشف حديثًا، منها مومياء الملك توت عنخ آمون لتكون فرعون موسى، لقوله تعالى ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ ٩٢: يونس، **وقد جعلت طرافة الربط بين بقاء الجثّة والتنجية التي في الآية هؤلاء يتمسّكون بزعمهم عدم قيام أدلّة تسوّغه، ورغم أن بدن فرعون الغريق كان لمن خلفه من قومه وقوم موسى آية، وليس من اللازم أن يكون آية لكلّ من خلفه إلى يومنا هذا، بل إلى ما شاء الله. وهذا يهبط بالمومياء عن مرتبة**

(١) هذه الحادثة غير ثابتة، ولكن حظّها الهائل من المنطق يؤهّلها للإثبات، فلا يعقل أن يفوت هذا قوم موسى.

(٢) سفر الخروج: ١٤.

الدليل على كون صاحبها فرعون موسى، ويزيد الأمر بعدًا أن تاريخ هذا الملك معروف مدوَّن، وليس فيه ما يسمح بالذهاب هذا المذهب على الإطلاق[1].

هكذا انتهى فرعون وجنوده. وكان لا بدّ أن ينتهي وتدول دولته، فإن طغمة حاكمة تظلم الناس إلى هذا الحدّ ينبغي أن تزول. ذلك أن هذا الكون مضبوط بقواعد ونواميس ربّانيّة ثابتة، وكلّ خروج عنها إنّما هو مؤقّت وعارض وزائل.

ادخلوا الأرض المقدّسة

قال الله الحقّ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ ١٠٥: الأنبياء. ويختلف مفهوم وراثة الأرض في الإسلام عن مفهوم تملّك الأرض، يشي بهذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ ٥: القصص، حيث جمع الإمامة والوراثة. ولذلك كان العباد الصالحون ورثة الأرض، أي المستخلَفين على إقامة الحقّ فيها.

لكنّ معظم المفسّرين صدروا عن وجهة النظر التوراتيّة التي تعتبر وراثة الأرض تمليكًا في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ٥٩: الشعراء، وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ ١٣٧: الأعراف، ولو كان الإيراث يعني التمليك لكان المستفاد من هذه الآية أن الله ملّك هؤلاء المباركَ فيه، من المشارق والمغارب في الأرض كلّها[2]، وهذا غير حقيقيّ. في حين أن استخلافهم فيها حقيقيّ، وهو ما يجعلها مباركة. وفي ضوء هذا الفهم قرؤوا الآيات التي لها صلة بالأمر كقوله عزّ وجلّ: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ١٤٥: الأعراف، وقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ٢١: المائدة، حتى كان بين مفسّرينا من ملّك هؤلاء أرض مصر إلى أرض فلسطين، إرثًا موثّقًا بأمر من الله[3].

---

(١) انظر محمد بيومي مهران دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢: ٢٩٧ و ٢٩٨.

(٢) ذلك أن "التي باركنا فيها" صفة للمشارق والمغارب، وليست صفة للأرض.

(٣) انظر روح المعاني، تفسير الآية ١٤٥ من سورة الأعراف.

انتهى فرعون ومن معه في اليمّ، ولكن ماذا عن موسى وقومه؟ يقول ابن الأثير: «ثم بعث موسى جندين عظيمين، فدخلوا البلاد، وغنموا الأموال، وحملوا ما أطاقوا، وباعوا ما عجزوا عن حمله من غيرهم...»[١]. ونحن إذا تجاوزنا قوله: جندين عظيمين، الذي يندرج في سياق ما فرضته التوراة على المصادر المتداولة من ضخامة عدد بني إسرائيل، وجدنا أن الأمر لا يزيد على إرسال مجموعة مسلّحة، أو مجموعتين إلى قصر فرعون القتيل للعودة بما تيسّر من الغنائم، قبل أن يُفيق ورثة عرشه من صدمة الأحداث المفاجئة، ويمسكوا بأزِمّة الأمور[٢]. أمّا أن تعني أن الأمر والعرش والبلاد قد آلت إلى موسى ومن معه، وأنّه أنزل قومه في مصر كما نُقل عن ابن عبّاس[٣]، فليس ممّا يُلزم، ولا يقرّه المنطق، بل لم تزعمه التوراة نفسها، وما كان ليفوتها.

والأرجح أن هناك خلطًا زمنيًا في الأمر[٤]، فالتوراة تصوّر المدعوّين ببني إسرائيل يتجاوزون التيه، ويصبحون قوّة عظيمة محاربة بقيادة يشوع[٥]، ويدخلون أرض كنعان، وهي يومئذ تابعة للإمبراطوريّة المصريّة، فيدمّرون ويخرّبون ويحرّقون، ويستولون على عدد كبير من المدن، بل يُبيدون، بزعمهم، الحثّيين والأموريّين والكنعانيّين[٦]، وهذا مبنيّ على مجموعة أغاليط وأوهام ومبالغات، اختلطت بالأحداث التي كانت إثر غرق فرعون، لأن الآية التي ذكرت الوراثة كانت في السياق تالية لغرقه. يؤيّد ذلك تعليق لابن عطيّة على مقالة ابن عباس "

(١) الكامل في التاريخ ١: ١٨٨.

(٢) وهذا شأن بني إسرائيل يتسقطون الفرص للضربة الخفية التي يغنمون فيها دون مواجهة عدوهم.

(٣) البحر المحيط: تفسير الآية ٦٠ من سورة الكهف.

(٤) وقد تنبه بعضهم إلى ذلك كما سوف يأتي.

(٥) يوشع في المصادر الإسلامية.

(٦) سفر التثنية: ٢٠.

وما يرى أحد قطّ أن موسى ﷺ أنزل قومه بمصر إلاّ في هذا الكلام، وما أراه يصحّ، بل المتظاهر أن موسى مات بفحص التيه قبل فتح ديار الجبّارين»[1]. ولكن المقولة تلك، وبتأثير المصداقيّة المعروفة لابن عبّاس، أخذ بها كثير من مشاهير المفسّرين كالرازيّ، وأبي حيّان والزمخشريّ والآلوسيّ فوجّهت تفسيرهم للآيات التي تتكلّم عن وراثة الأرض بعد غرق فرعون، رغم أن بعضهم أورد نقد ابن عطيّة المذكور كتعليق عليها.

ونحن، في معزل عن إملاءات الفكر التوراتيّ، لا نجد في الآيات المعنيّة ما يلزم عنه أن ما أورثه الله بني إسرائيل من جنّات وعيون وكنوز ومقام كريم، هو نفسه ذلك الذي كان لفرعون ومن معه. إلاّ أن نعتبر أن الأرض المقدّسة كانت وقتذاك مستعمرات مصريّة كما سبق القول، وعليه فإن ما أورثه الله بني إسرائيل من ملك فرعون هو تلك الأرض نفسها. وقال قَتادة إنّها أرض الجبابرة والعمالقة بالشام[2]، وهي التي دارت حولها في توراتهم أسطورة أرض الميعاد.

ولعلّ القول الأسلم في ذلك هو ما قاله سيّد قطب: فالمقصود هو نوع الملك والنعمة الذي زال عن فرعون وملئه، وورثه بنو إسرائيل "[3]. وقد قال بهذا أكثر من واحد من المفسّرين، ومنهم أبو حيّان، ولكنّه رجّح مقولة ابن عبّاس.

*

وفي يقيني أنّه لو أمكن للمدعوّين ببني إسرائيل أن يستولوا على ملك فرعون في مصر لَما تابع واحد منهم الطريق مع موسى وهارون، ولما وُجدت قصّة أرض الميعاد بصورتها التوراتيّة التي نعرف أصلاً، فقد فرّ موسى بهؤلاء من العبوديّة والاضطهاد، وكانوا لدى كلّ عقبة في الطريق يقولون له ولأخيه: " ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر. فهناك كنا نجلس عند قدور اللحم، ونأكل من الطعام حتى نشبع. فلماذا أخرجتمانا إلى هذه البرية لتميتا هذا الجمع كله بالجوع؟ "[4]، أو يقولون لموسى: "أقليل أنك أخرجتنا من أرض مصر التي تدرّ لبنًا وعسلاً لتقتلنا في البرية؟ "[5].

(١) البحر المحيط: تفسير الآية ٦٠ من سورة الكهف.
(٢) عن قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٢٣٨.
(٣) في ظلال القرآن: تفسير الآية ٢٨ من سورة الدخان.
(٤) سفر الخروج: ١٦.
(٥) سفر العدد: ١٦.

أمّا قصّة الوراثة هذه، فلم تلبث أن قامت بدورها التاريخيّ الذي اختُرعت من أجله، حيث سوّقها اليهود على أنّها صكّ تمليك إلهيّ لأرض فلسطين، وضعوا أيديهم عليها بموجبه، وهي لا تملك سندًا من تاريخ أو نصّ صحيح.

ولو كان لمفسّرينا أن يتنبّؤوا بما أدّت إليه القصّة التوراتيّة البريئة عن وراثة الأرض من ضياع فلسطين ومآسي الأمّة، لما نقلوها عن أهل الكتاب، ولما قالوا ما قالوه في وراثة المدعوّين ببني إسرائيل أرضَ مصر، ولاسيّما أن توراة اليهود تُرجف بأن يوسف ﵇ كان قد ملّكهم إيّاها، وأطلق أيديهم فيها.

اجعل لنا إلـٰهًا

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ ١٣٨: الأعراف... هنا تبدأ العلاقة الحقيقيّة بين موسى وقومه، ونقف على عِظم المسؤوليّة، وعبء المهمّة التي حملها ﵇، ونتبيّن الحكمة من جعل أخيه هارون نبيًّا ووزيرًا له، وندرك أن نَصَبًا كهذا الذي سامه إيّاه قومه لا يتحمّله بشر لولا أن الله يكلّمه.

لقد كان الذين خرج بهم موسى نموذجًا قياسيًّا للإنسان المدمَّر الروح، المقتول الشعور، المنصرف كلّيًّا عن القيم، فقد نجّاهم الله من العبوديّة، ووعدهم الأمن والسيادة والخيرات، ولكنّهم لم يصبروا ولم يشكروا، بل نسوا ما هم فيه من النعم، وكثرت لجاجاتهم، وتذمّرهم، وثوراتهم ومعانداتهم، ومماحكاتهم[١] ومن ذلك قولهم لموسى: ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ ٦١: البقرة، و﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ ٥٥: البقرة، و﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ٢٤: المائدة، ومِحالهم الشديد في البقرة التي أمرهم الله بذبحها.

حمل موسى هؤلاء القاسية قلوبهم بين السماء والتراب أربعين سنة يتيهون في الأرض، ولا شيء أمامهم سوى هدف في الحلم... أن يدخلوا الأرض المقدّسة التي

(١) وتغصّ التوراة بالشواهد على ذلك، وتبرره بما أصابهم من صغار النفس وذلها بسبب العبودية الطويلة المريرة.

كتب الله لهم أن يدخلوها. وكان لا بدّ لكي يدخلوها أن تهصرهم التجارب، التي تصعد بالكائن البشريّ إلى مرتبة الإنسان المستخلف في الأرض. ذلك أن الله قد كتب في الزبور من بعد الذكر: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ ١٠٥: الأنبياء.

ومن هنا نرى أن أحداث التيه قد رصدت تساؤلاتِ أكثر النماذج الإنسانيّة بُعدًا عن جادّة الحقّ وفنّدتها، وعالجت مرض القلوب، التي غدت كالحجارة أو أشدّ قسوة. فكانت أحداث التيه تصويرًا لرحلة الإنسان بين أدنى درجات الإنسانيّة وأرقاها، وهي درجة وراثة الأرض المقدّسة، أي الاستخلاف على الحقّ في الأرض[1].

*

انطلق سيّدنا موسى بالناس بعد أن جاوز الله بهم البحر، ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ ١٣٨: الأعراف. هكذا يصفع النصّ القرآنيّ المتلقّي بحقيقة تلك القلوب الشائهة، التي تثّاقل إلى الأرض بكلّ تلك البساطة بعد ما رأته من نصرة الله وبرّه، وصدق رسوله ومعجزاته. إن بني إسرائيل لا يعترفون إلاّ بما يمكنهم القبض عليه، ولا يؤمنون إلاّ بما تراه أعين رؤوسهم، ومن هنا فإن الوعد والعهد والميثاق لا تعني لهم شيئًا، ذلك أنّها لغة الألباب الرفيعة، لا لغة المادّة المعاشيّة الترابيّة. وهاهم يقولون لموسى بصفاقة مدهشة: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ٥٥: البقرة، فيصعقون لساعتهم حتى الموت، ثم يمنّ الله عليهم بالحياة بعد موت مؤكّد، ويمنّ عليهم بعد ذلك مرارًا وتكرارًا، ولكنّهم كانوا أنفسهم يظلمون.

إن أولئك الذين يبحثون عن الدليل المادّيّ في المعتقدات لا يتّخذون الطريق الصحيحة إلى غايتهم. وعندما يقول قوم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ

(١) وإنما تُقدَّس الأرض بمن طهروا عليها، فاستقاموا للحق ودانوا له وإلاّ فكل الأرض مقدسة طهور، ومن هذا قول سيد الخلق ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا» [البخاري: ٣٢٨].

﴿وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ ٩٠ - ٩٣: الإسراء، **فهم في الحقيقة لا يريدون أدلّة على أن لهذا الكون ربًّا، ذلك أنّهم لو أرادوا الدليل لوجدوا، في الآفاق وفي أنفسهم، ما يغنيهم عن مطالبة الرسول البشر بخرق أنظمة الوجود. ولكنّها بدائيّة التفكير البشريّ، التي تجسّد الفكرة المجرّدة وتسجنها في كتلة من الحجر. وتلك هي الوثنية**[1].

وبنو إسرائيل لم يستطيعوا، حتى بعد أن جاوز الله بهم البحر وأغرق عدوّهم، نزع ذواتهم من التراب، والرقيّ بها إلى ممالك الروح، لكي ترى الله بغير نظر، وهاهم يبحثون عن كيان يتعرّفونه بحواسّهم، ليُسقطوا عليه صفات إله موسى، ثم يتّخذون عجل السامريّ إلهًا ولمّا تجفّ أقدامهم من مياه البحر.

ماء وغمام وطعام

وممّا قصّه علينا الذكر الحكيم من شغب قوم موسى ومشاكستهم، وكفرهم بأنعم الله عليهم أنّهم عطشوا في بعض منازلهم في سيناء، فقاموا كعادتهم يُبكّتون موسى وهارون: «لماذا جئتما بنا، نحن جماعة الرب، إلى هذه البرية لنموت هنا مع بهائمنا؟ ولماذا أخرجتمانا من مصر إلى هذا الموضع الرديء الذي لا زرع فيه، ولا تين، ولا كرم، ولا رمّان، ولا ماء للشرب؟»[2]، فاستسقى موسى لهم ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ ٦٠: البقرة، وفي آية أخرى ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ ١٦٠: الأعراف[3]. وكان

---

(١) تسيطر الوثنية على التفكير الديني في الأوساط التي لم تَثقف رياضة الفكرة، حيث يلاحظ الميل إلى تجسيد المفاهيم، ووضعها في أطر ماديّة تبتعد بها عن روح الدين.

(٢) سفر العدد: ٢٠.

(٣) وانبجاس الماء تحلبه ونزّه، أمّا انفجاره فتدفقه بقوة. ولعلهما مرحلتان: انبجاس الماء لدى الضربة الأولى، وانفجاره عيونًا لدى الضربة التالية، أو الضربات التاليات.

بنو إسرائيل اثنتي عشرة فرقة، فأمنوا النزاع على الماء، وحصلوا على حاجتهم منه.

وتناول أصحاب القصص ذلك الحجر، وضربة موسى، والعيون المتفجّرة[1]، وأخذ عنهم كثير من المفسّرين. وليس في صحيح النصوص ما يحملنا على الأخذ بشيء من تلك الروايات، فالآيتان صريحتان، في أن موسى قد أُمر بضرب الحجر بعصاه، فهو حجر الأرض[2]، وليس حجرًا معيّنًا، وأنّه قد فعل لأمر الله. ويمكن الحصول أحيانًا على الماء في تلك المنطقة تحت طبقة رقيقة من الحجر الجيريّ على عمق قدمين، وأنّه يظلّ مخزونًا طوال العام[3]. ولعلّ المعجزة كانت في توجّه موسى إلى مكان الماء، في ذلك القفر الذي لم يسبق له أن عرفه من قبل. ولكن أنّى لذلك أن يُرضي الآباء الشرعيّين لأفلام المغامرات الخياليّة، التي تغتصب اليوم العقل الإنسانيّ، وتسيء إلى قدسيّته ودوره على هذه الأرض.

*

وممّا قصّه علينا الذكر الحكيم أيضا من كفران قوم موسى النعمة ما نراه في قوله تعالى يذكّرهم بنعمه عليهم: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ٥٧: البقرة. وحاشا لله أن يكون التيه عذابًا، ولكن مدرسة صارمة للتطهير والإعداد للخلافة في الأرض. وقد يسّر الله في هذه المدرسة لمن قصَد وجهه، واستشعر نِعمَه، نِعَمًا تقوم بحاجاته، وتُعِينه في اجتياز زمن الدرس وتحصيل النجاح، فإذا كانت الرمضاء، فمن رحمة الله أن جعل الغمام حماية وظُلّة، وإذا لم يكن البقل والقثّاء والفوم والعدس والبصل، فمن رحمته أن في جعبة الأرض دائمًا خيرات خفيّة، تدفع بها إلى أبنائها دون ثمن، منّة منه على عباده، وتسلية لمن لا يقدر على نيل معاشه بكدحه منهم، ومن نفيس ما تزخر به الأرض الكمأة. وقد قال ﷺ: «الكمأة من المَنّ وماؤها

---

(١) انظر محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢: ٣٤٦ و٣٤٧.

(٢) المصدر السابق نفسه ٢: ٣٤٥. ولعل الأرض كانت بين حجارة وتراب، فأُمر بضرب الحجر دون التراب.

(٣) المصدر نفسه ٢: ٣٤٥.

شفاء للعين»[١]. أمّا السلوى، كائنة ما كانت، فإنّها ممّا يبعث على الطمأنينة والرضا...[٢] وقد كان المَنّ والسلوى كلاهما حلْبة للمتبارين في الإغراب، يتزايدون في ذكر تفاصيل تثير الدهشة ولا عجب ما داموا يزعمون أنّهما الطعام الوحيد لستّمائة ألف رجل ما عدا النساء والأطفال!

*

مجاوزة البحر، وإغراق العدوّ، واثنتا عشرة عينا، وظلٌّ من الغمام، وطعام بلا عناء... نِعَم من عيون النِعَم، لقوم يفرّون بجلودهم في الصحراء، بلا وجهة، وبلا دليل. ولكنّ قوم موسى لم يكونوا من الشاكرين.

والنعم فضل من الله يقابله العبد بالشكر أو بالكفر ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ ٤٠ : النمل. **أمّا الشكر فامتداد للنعمة وزكاء لها، وأمّا الكفر فقطع للنعمة وظلم للنفس. ولن ينال الله شيء من هذا ولا ذاك** ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ٥٧ : البقرة[٣].

وكلّ أمر المؤمن، بل الإنسان عامّة، ابتلاء، فهو مبتلًى بالنعمة كما هو مبتلًى بالنقمة، وكلاهما يتطلّبان الصبر، واستحضار الحقّ، والاستعبار، والاستفادة من كلّ ذلك في تزكية النفس وترقيتها. وقد قال ﷺ: «عجبت من أمر المؤمن، كلّه له خير، وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن»[٤].

والصبر على الضرّاء معروف، وهو، على فضله، وما وُعد أصحابه من النعيم، والخير، والجزاء بأحسن العمل، والغفران، وتأييد الله وعونه وحبّه، فإنّه ممّا تقود إليه الحال، ولا يقاوم

(١) صحيح البخاري: ٤٢٠٨.

(٢) قيل: أن السلوى في الآية طائر، وهو في غير القرآن العسل. وأحسبه كما قال الفارسيّ: السلوى كل ما سلّاك، وقيل للعسل سلوى لأنّه يسليك بحلاوته، وتأتيه عن غيره مما تلحقك فيه مؤونة الطبخ وغيره من أنواع الصناعة، ورحم الله الأصمعي بما قال لنُصير: اسكت لا يسخر منك هؤلاء، إنما السلوان مصدر قولك سلوت أسلو. وكان نصير قد قال: إنه خرزة تُسحق ويُشرب ماؤها فيورث شاربه سلوة.

(٣) انظر قصة سليمان عليه السلام.

(٤) مسند أحمد: ١٨٩٥٤.

تطلّع النفس وشهَواتها، بل تجد فيه مستراحًا من معاقرة الألم ومكابدة الحزن، ورجاء في نوافذ على الفرج في حلكة الضيق والمعاناة.

أمّا الصبر على السرّاء فهو صبر وشكر بآن معًا، صبر لما تقتضيه السرّاء من مقاومة لإغراءاتها، وشكر لما تتطلّبه من قيام بحقّ المنعم المتفضّل بها، وبالتالي فالصابر على السرّاء يجمع فضلي الصابرين والشاكرين. وهذا أشقّ من الصبر على الضرّاء، ذلك أنّه يعني أن الله الحقّ أقوى حضورًا في النفس من ملذّاتها وشهواتها وهواها، فهو يمسكها دون ذلك كلّه وقد أُتيح لها ودنت قطوفه، ويزيد على ذلك القيام بحقّ الله فيها، وهو ممّا قد يقصم الظهر. وهذا لبّ الإيمان، وأسماه، ولا يقدر عليه إلاّ من رضي الله عنهم بفضله أوّلاً وبسعيهم ثانيًا.

وقد ضمّن عمر بن الخطاب، ﷺ، هذا كلّه عبارتَه المشهورة: ابتُلينا بالضرّاء فصبرنا، وابتُلينا بالسرّاء فلم نصبر. وحاشى لعمر ألاّ يكون من الأعلَين، ولكنّه تواضع المؤمن الذي يستقلّ عمله، والكلم الجامع الذي يعبّر في جانب منه عن خصوصيّة قائله، وفي الجانب الآخر عن عموم الحكم.

هكذا لم يشكر بنو إسرائيل لله، كما لم يشكروا للناس قطّ، فهم ما حلّوا في مجتمع، عبر تاريخهم كلّه، فآواهم وأكرمهم ونصرهم إلاّ انقلبوا عليه، ولهذا تأذّن ربّك أن يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب، ذلك بأنّهم كما أخبر عنهم الذكر الحكيم ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ ١٠٠: البقرة.

*

جاء في توراة اليهود أن القيام على شأن بني إسرائيل بات يرهق موسى لكثرتهم، فجعل له نُقباء، يكونون صلة الوصل بينه وبينهم. ولمّا كان شكّ قوم موسى بنبوّته راهنًا، لا تكاد تطمسه الآيات البيّنات حتى يعود ليذرّ قرنه، فقد أرادوا النقباءَ على مرافقته إلى حيث يخلو بربّه ليسمعوا كلام الله، فخرج بهم موسى إلى طور سيناء. ولكنّهم لم يُطيقوا جلال الموقف، وخرّوا ساجدين، وأخذتهم الرجفة حتى كادوا يَصعقون. وجعل موسى يتضرّع إلى ربّه أن يرحمه وهؤلاء البررة، وألاّ يأخذهم بجريرة السفهاء الذين لا يوقنون. ويصوّر الذكر الحكيم هذه الحادثة التي تُلقي مزيدًا

من الضوء على طبيعة قوم موسى التي تتميّز بالمبالغة في الارتياب والمناكفة من جهة، والخضوع والإذعان فَرَقًا وكرهًا لا طوعًا وتسليمًا للحقّ من جهة أخرى. يقول عزّ وجلّ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ﴾ ١٥٥: الأعراف.

وواعدنا موسى ثلاثين ليلة

نزل بنو إسرائيل بريّة سيناء، ووقّت الله لموسى أن يصعد الجبل بعد ثلاثين ليلة ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ﴾ ١٤٢: الأعراف، وهي عدّة ذي القعدة، وعشرة من المحرّم، فصامها موسى تقوية لروحه، وإعدادًا لها للاتّصال بالله الحقّ[1]. وفي الروايات أن موسى صام ثلاثين ليلة، فوجد رائحة فمه قد تغيّرت فاستاك، فمدّ الله تعالى صومه عشرة أيام، فتمّ له صوم أربعين يومًا.

وكانت تهيئة جسديّة وروحيّة لتلقّي أمر الله، تستحضر خلَوات سيّد الخلق في حِراء قبل التكليف... لقد خلص موسى لربّه الحقّ، نفض عن ذاته كلّ ما قد يعيق روحه عن التلقّي، ولم يحتفظ من كيانه الماديّ العارض إلاّ بما يساعده على تبليغ الرسالة التي سوف يتلقّى.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ ١٤٣: الأعراف. ذلك أن النظر عمليّة فيزيائيّة، تتعلّق بواحد من أعضاء الكيان الماديّ للإنسان، وهو العين، أمّا الرؤية والبَصَر فعمليّتان عقليّتان[2]. وعلى هذا فموسى لن يستطيع أن يرى الله بواسطة عينيه، وقد قال له الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ

---

(١) يحمد العرب الصوم والطوى، ويعتبرونه مكرمة. ومما يلحق العار بالعربي أن يتجشأ، أو تقرقر بطنه في حضرة ملك أو أمير، وأن يطعن في الميدان فيظهر ما في معدته أو جوفه من طعام.

(٢) والرؤية هنا مصدر لرأى القلبي، أي المتعدي بنفسه إلى مفعولين، وهو بمعنى عَلِم. أما البَصَر فمن بَصِر يَبصَر بَصَرًا بالشيء: علمه، وهو بصير. ولا يكاد يقال في الحاسّة إذا لم يضامّ رؤية القلب. [متن اللغة: بصر].

«وقد أدى إهمال معظم المفسرين ما نحن فيه بفضل الله من العناية بالوقوف على المعنى الدقيق للكلمة القرآنية، والإحاطة بدلالاتها، إلى اعتبار أمثال هذه الكلمات مترادفة، الأمر الذي حجب الكثير من دلالاتها، التي تُسهم في فهم النصوص وتدبرها.» من بحث «الكلمة وأخواتها في القرآن الكريم» لصاحب القصص.

﴿مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ ١٤٣: الأعراف، أي لن تتمّ لك الرؤية بالنظر، لأنّك كبشر لن تطيقها، ولكنّني سوف أتجلّى للجبل، فانظر إليه. فإن صمد الجبل، وهو ما هو من القوّة والصلابة، كان معنى هذا أنّك سوف تصمد، وبالتالي سوف تراني. وهي مجموعة مُحالات تعني استحالة النظر إلى الله، أي رؤيته بالعين.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٤٣: الأعراف... لقد كان أمرًا خارقًا كما أراده موسى. وخرقُ قوانين الوجود يعني تعطيل تركيبته والخروج من نطاقه. فكيف تمّ ذلك؟ وكيف بدا لروح نبيّ متلبّسة بهذا الوجود الماديّ، خاضعة إلى أمره الذي أوحاه فيه خالقه؟ ... لقد كان موسى في حاجة إلى هذه التجربة الهاصرة[١]، لكي يوقن أنّه لن يرى الله إلاّ بقلبه.

واستشعر موسى هول الموقف ورهبته، وعِظَم الجرأة، فأخبت وتطامن لما قضاه الحقّ لهذا الكيان من قوانين وأحكام، وتبرّأ إلى الله من جراءته، وصدع بكلّ ما يملأ ذاته من إيمان لا يَتوقّع أن يبلغه من البشر غيره، فهو أوّل المؤمنين.

وجاء توجيه الحقّ جلّ وعلا لموسى الذي خرّ صَعِقًا أمام جلاله، صادعًا بخضوعه وولائه: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ ١٤٤: الأعراف... يا موسى لقد مننت عليك بما لم يُعطَه أحد من الناس: الرسالة والكلام، فقم بما يقتضيه ذلك من العمل، واشتغل بالشكر عليه عن طلب الرؤية. ففي هذا إشارة من اللطيف الخبير إلى أن ما اصطُفِيت به جدير بأن يشغلك القيام بحقّه وشكره عن طلب المزيد.

وأخذ موسى الألواح، وقد أثبت الله فيها ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ ١٤٥: الأعراف، وأوصاه أن يقوم بحقّها عليه ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ ١٤٥: الأعراف[٢]. وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كان فيما أعطى الله تعالى موسى من الألواح:

---

(١) رغم أنها تمت تحت مظلة لطف الله به.

(٢) وقد اختلف في عدد الألواح، وفي صفتها. وأبرز ما جاء فيها الوصايا العشر.

ـ يا موسى لا تُشرك بي شيئًا، فقد حقّ القول منّي لتلفحنّ وجوهَ المشركين النار.

ـ واشكر لي ولوالديك أَقِك المتالف، وأُنسئك في عمرك، وأُحيِك حياة طيّبة، وأقلبك إلى خير منها.

ـ ولا تقتل النفس التي حرّم الله تعالى إلاّ بالحقّ، فتضيقَ عليك الأرض برَحبها، والسماء بأقطارها، وتبوء بسخَطي والنار.

ـ ولا تحلف باسمي كاذبًا، ولا آثمًا. فإنّي لا أطهّر ولا أزكّي من لم ينزّهني ويعظّم أسمائي.

ـ ولا تحسد الناس على ما أعطيتهم من فضلي، ولا تَنفَس عليهم نعمتي ورزقي، فإن الحاسد عدوّ نعمتي، رادّ لقضائي، ساخط لِقسمتي التي أقسم بين عبادي، ومن يكون كذلك فلست منه وليس منّي.

ـ ولا تشهد بما لم يعِ سمعك، ويحفظ عقلك، ويُعقد عليه قلبك، فإنّي واقف أهل الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة، ثم سائلهم عنها سؤالاً حثيثًا.

ـ ولا تزنِ ولا تسرِق، ولا تزنِ بحليلة جارك فأحجب عنك وجهي، وتغلَق عنك أبواب السماء.

ـ وأَحبَّ للناس ما تحبّ لنفسك.

ـ ولا تذبحنّ لغيري، فإنّي لا أقبل من القربان إلاّ ما ذُكر عليه اسمي، وكان خالصًا لوجهي.

ـ وتفرّغ لي يوم السبت، وفرّغ لي نفسك وجميع أهل بيتك»(١).

وقد جاءت الوصايا كلّها في القرآن العظيم، فمنها ما تفرّق، ومنها ما اجتمع. فمن المتفرّقات ثلاث في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ ٦٨: الفرقان. واثنتان في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ ٢٣: الإسراء.

ومن المجتمعات ما جاء في سورة الأنعام في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ

---

(١) أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية.

﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ١٥١: الأنعام. ويلاحظ أن الوصايا قد بدأت بالصراط، وأتبعته بالوسائل.

وهناك أربع شُفعت كلّ واحدة منها بتفصيلات تدلّ على مبلغ العناية بتنفيذها بدقّة، وبأقرب صورة ممكنة من الكمال. فالأولى ذلك النهي المتميّز عن الفواحش بـ «ولا تقربوا»، وبه بدأت الآية الكريمة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ ١٥٢: الأنعام، والنهي هنا لا يقتصر على مقارفة الفعل، بل يشمل ما قد يكون سببًا له، أو مقدّمة، أو مدخلاً[1]، لما لذلك من دور في هذه الوصيّة بالذات. والثانية: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ١٥٢: الأنعام، ويفيد التعقيب هنا أن الدقّة في الكيل والميزان ممّا هو منوط بالوُسع، حيث لا يوجد ضابط دقيق إلى حدّ القطع[2]. والثالثة: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ١٥٢: الأنعام، ويشمل التعقيب على هذه الوصيّة العمليّةَ القضائيّة كلّها، فأنت إن كنت مُدّعيًا أو مُدّعًى عليه أو شاهدًا أو مُدّعيًا عامًّا أو قاضيًا، فعليك أن تزن قولك وزنًا لأنّه ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ١٨: ق. والرابعة: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ ١٥٢: الأنعام، وعهد الله هو أمانة التكليف، أي أمانة المهنة ومسؤوليّتها، أو أمانة الوظيفة كائنة ما كانت الوظيفة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ ٧٢: الأحزاب. فهذا عهد الله الذي نسمّيه بالتعبير المعاصر «قَسَم المهنة»، ولهذا قال بعده: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ١٥٢: الأعراف، أي أنتم في حاجة إلى أن تقيسوا الغائب على الشاهد، لعلّ هذا يذكّركم، فلا تضلّوا ولا تنسوا.

ويختم الذكر الحكيم بأهمّ الوصايا... الصراط المستقيم الذي لا بدّ من اتّباعه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ١٥٣: الأنعام، والصراط المستقيم هو «لا إله إلاّ الله» فلا تسلكوا غيره.

---

(١) انظر قصة آدم ﷺ.

(٢) وقد وجد هذا الضابط فيما بعد باختراع الموازين والمكاييل المتطوّرة.

لقد جمعت الألواح الرسالة الموسويّة كلّها فيما يمكن دعوته بالوعاء الواحد، حيث كانت قد تبلورت قاعدة فكريّة إنسانيّة، صالحة للخطاب بما يأتي عن طريق الوحي المجرّد، أي الذي يجيء به جبريل من الغيب. وهكذا بدأت سلسلة رسائل يكمّل بعضها بعضًا، كانت أولاها رسالة موسى، وثانيتها رسالة عيسى الذي بشّر بصاحب الرسالة الخاتم الشاملة الجامعة ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ ٦: الصف، وقد انتهت إلى ما قضاه الله في الناس: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ ٣: المائدة.

وأُشرِبوا في قلوبهم العِجل

غادر موسى قومه إلى الجبل لميقات ربّه، وخلّف أخاه هارون على من معه. وفتن السامريّ الكثرة الكاثرة من القوم، فكانوا بين ضالّ وساكت على الضلال. فقد جعلهم السامريّ ينبذون ما في حوزتهم من الذهب، فلما فعلوا صهره، وصنع لهم منه عجلاً، ليتّخذوه إلهًا، وبذلك حقّق لهم رغبة سبق أن صرّحوا بها لموسى نفسه من قبل: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ ١٣٨: الأعراف[(١)].

﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ ٩٣: البقرة، فهم قد وقرت في قلوبهم تلك العبادة، واعتادوها[(٢)]. وبنو إسرائيل، في مادّيّتهم وحَرفيّتهم وجلافة نفوسهم، أجدر أن يعبدوا العجل، ولاسيّما أنّه من الذهب. وقد كان هارون رقيقًا حليمًا أقرب إلى المسالمة، ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾ ٩٠: طه، فلم يطيعوا أمره، ورفضوا الانصياع للحقّ، ويقينًا ما أرادوا إلاّ إسكاته بزعمهم أنّهم يرون أن ما يفعلونه الحقّ، وأنّهم لن يتحوّلوا عنه حتى يرجع موسى، فينزلوا على حكمه في الأمر إن سلبًا، وإن إيجابًا: ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ٩١: طه.

وعندما همّ موسى بمغادرة الجبل عائدًا بالألواح إلى قومه، قال الحكيم العليم:

---

(١) وفي التوراة أن هارون هو مَن صنع العجل بطلب من بني إسرائيل، وأنه أقام مذبحًا أمام العجل للتعبد [سفر الخروج: ٣٢]، ولا غرو فقد دأب اليهود على الطعن في الأنبياء، وانتقاصهم.

(٢) قيل إن عبادة العجل تسربت إليهم من بعض الديانات المصرية.

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ٨٣: طه؟

قال موسى: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ ٨٤: طه. إنّها طبيعة موسى النارية، فهو لا يطيق صبرًا على ما يُرضي ربّه، ولا يمكنه أن يسعى في مرضاته سعي الآخرين، بل لا بدّ له من الإسراع والسبق.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ ٨٥: طه[1].

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾ ٨٦: طه، وبدأ تحقيقه في الأمر بعتاب مرّ لقومه ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ ٨٦: طه؟

واعتذر القوم، وألقوا باللائمة على السامريّ الذي صهر الحليّ المصريّة المسروقة التي نبذوها، وصنع منها عجلاً مجسّدًا له خوار[2]. وكان موسى أشدّ على أخيه، فأخذ بلحيته وبرأسه، وراح يهزّه بعنف حتى كاد يسقط مغمًى عليه: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ ٩٢و٩٣: طه؟

قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ ٩٤: طه.

وفي آية أخرى يسارّ هارون أخاه بالسبب الذي يُحرجه، ويرجوه ألاّ يعاقبه على ما لم يكن في مُكنته فيُشمت به أعداءه، وألاّ يعتبره من الظالمين بتراخيه عنهم، أو بموافقته إيّاهم ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ١٥٠: الأعراف.

ثم راح موسى يحقّق مع السامريّ بدوره: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ ٩٥: طه؟

﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ ٩٦: طه.

---

(١) قيل الكثير في السامري، وهو عند الجمهور منافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر.

(٢) وفي كلمة "جسدًا" أكثر من قول، منها أنه ذهب. ولعل المقصود أن له صورة الجسد، أي أنه ذو أبعاد ثلاثة، أو مجسّم بالتعبير المستخدم اليوم. فهو تمثال وليس صورة مسطحة. ويفيدنا هذا في تفسير وجود الخوار الذي يحتاج إلى فراغ يدخله الهواء ويخرج منه بطريقة تجعل له صوتًا.

وكانت مادّة للرواة، فنسجوا من الحكايا ما لا يسنده نصّ، ولا يقبله عقل. وفي هذا يقول سيّد قطب رحمه الله: «والقرآن لا يقرّر هنا حقيقة ما حدث، وإنّما هو يحكي قول السامريّ مجرّد حكاية. ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذرًا من السامريّ وتملّصًا من تبِعة ما حدث. وأنّه هو صنع العجل من الذهب الذي قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريّين التي أخذوها معهم، وأنّه صنعه بطريقة تجعل الريح تصوّت في فراغه، فتحدث صوتًا كالخوار. ثم قال حكاية أثر الرسول يبرّر بها موقفه، ويُرجع الأمر إلى فطنته إلى أثر الرسول!»[١]. وهو أفضل ما قيل في القبضة المذكورة.

ويلاحظ أن السامريّ قد اعترف بأن الأمر من تسويل النفس، ولم يصرّ على الخطأ، ولذلك لم يوقع عليه موسى عقوبة المرتدّ، وهي القتل، بل ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ ٩٧: طه. وقيل إنّه ما مسّه أحدٌ بعدها، أو مسّ أحدًا إلاّ أصيبا بالحمّى، ولهذا كان يبادر كلَّ من يقابله بالقول: لا مِساس.

وبعد هذا التحقيق والحكم، قام موسى بسحق العجل الذهبيّ المؤلّه، وألقى نُثاره في اليمّ ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ ٩٧: طه. أمّا أولئك المخرَّبون، الزائغو القلوب، الذين ينكصون على أعقابهم كلّما خلَوا بذواتهم المريضة، فقد كان لابدّ من تذكيرهم قبل أن يحصدوا زرعهم الوخيم ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ ٩٨: طه.

وكان لا بدّ للتوبة من مهر قاس لتكشط خبث القلوب الراسخ العنيد ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ٥٤: البقرة. فأيّ ظلم ذلك الذي استوجب هذا الحكم من ذي مغفرة للناس على ظلمهم؟ وهل يُفلح في قوم موسى أن يقيموا حدّ الردّة على أنفسهم بأنفسهم؟

وظاهر النصّ أن هؤلاء الزمْنى القلوب أذعنوا إلى آخر الدواء، وشرعوا في تنفيذ العقاب. وكان ذلك توبة صادقة، وتطهيرًا حقيقيًا لمن قُتل منهم ولمن قَتل ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ٥٤: البقرة. ولكنّ من المفسرين من رأى أن قتل النفس الذي

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، تفسير الآية.

تمّت به التوبة هو قتلٌ لشهوات النفس، وحبسٌ لها على مرضاة الله الحقّ، وليس قتلاً حقيقيًّا. وقيل إن الذين أُمروا بذلك هم من السبعين الذين اختارهم موسى ليصحبوه إلى الجبل، وهم الذين قالوا: أرنا الله جهرة. وفي الحالتين علينا أن نتذكّر أن هذا القول لم يكن قول جميع قوم موسى، ولا قول السبعين جميعهم، يؤيّد هذا منطق الأمور، ولا يمنع منه النصّ.

إن التوبة في الإسلام رحمة من رحمة الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ١٠٧: الأنبياء، وهي من إكرامه عباده الذين أسلموا وجوههم إليه، يسّرها لهم، فكانت عودة صادقة مخلصة إلى الهدى... عودة في النية والاتّجاه، تجبّ ما قبلها من الضلالة، وتعيد المسلم إلى جادّة الحقّ كما لو لم يكن قد حاد عنها قطّ.

سأوريكم دار الفاسقين

عندما عاد موسى بنسخة الألواح إلى قومه كانت في جَعبته بشرى لهم، ولكنّ ما وجدهم عليه من الردّة، واتّخاذ العجل، وما ابتُلوا به من شدّة التوبة وثِقلها، أجّل إطلاعهم على الأمر. أما وقد تاب الله عليهم، فها هو ذا موسى ينقل إليهم ما في الألواح التي يعطينا النصّ القرآنيّ فكرة مجملة عنها: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ ١٤٥: الأعراف، ويبلّغهم أمر الله بشأنها: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ ١٤٥: الأعراف، ثم يزفّ إليهم البشرى: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ١٤٥: الأعراف[1]. ولعله يريد سأجعلكم خلفاء فيها من ورائهم، أي من بعدهم. وهذا ينسجم وسائر آيات الاستخلاف والتوريث التي نزلت في هذا الموضوع.

ولم تمنع البشرى بني إسرائيل أن يقولوا بصلَف: لا نطيق تلك الأحكام لغلَظها وثِقلها.

وحاول موسى إقناعهم بما وراء التكليف من خير لهم، ليخضعوا له رغبًا في مرضاة الله ونزولاً على حكمه الحقّ، فلم ينجح. فرماهم الله بالهلع، حتى وقر في

---

(١) وقرئ "سأُريكم"، وقيل إنها في الحالتين من الرؤية. واختلف في دار الفاسقين، وقيل إنها منازل الذين هلكوا، فتكون الإراءة للاتعاظ، وقيل إنها أرض الشام، فتكون الإراءة على الوعد والترغيب. وهو مذهب، وإن صح لغويًا، لا يملك قوة التعبير القرآني المعهودة. ولعل فيما ذكرت وجهًا.

قلوبهم أن الجبل المائل الذي يُظلّهم لن يلبث أن يُطبق عليهم، فيسحقهم إن هم لم يقبلوا بما في التوراة من حكم الله ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ ١٧١: الأعراف، وعندئذ أذعنوا خوفًا ورهبًا، وخرّوا ساجدين.

وقد اختُلف في تفسير المقصود بنتق الجبل بين مُعرض عن الخوض فيه، ومتقيّد بحرفيّة التعبير، وآخذ بمجازيّته، ولكنّ هذا الاختلاف لم يَطُل المعنى الذي وراء التعبير، وهو أنّه آية من آيات الله الحقّ، أرهبت هذه النفوس الرديئة، وأرغمتها على الانصياع بهدف كسر شوكة شغبها.

عند ذلك قال لهم موسى: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ ٢١: المائدة[1]. ولكنّهم قالوا بلا تردُّد ولا مواربة: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ ٢٢: المائدة، وهو رفض صريح للانصياع إلى ما كتبه الله، وبلّغهم إيّاه رسوله. وقد اعتذر لهم كثير من المفسّرين بأنّه الجبن والخوَر والضعف، لا النكول عن أمر الله. وكان هذا وجيهًا لولا أن هؤلاء درجوا على المناكفة والتهرّب والتملّص من كلّ التزام، حتى ممّا يعاهدون عليه، فهم لا ينزلون على الحقّ، ولا يقرّون به إلاّ كارهين بل مكرَهين، كائنًا ما كان الأمر. وما قصّة العجل، وما مناكفتهم لموسى طوال التيه عنّا ببعيد.

ثم أيّ جبن هذا وهم قد خرجوا من مصر لوعد الله أن يدخلوا الأرض المقدّسة، وهذا الوعد بشارة، فهو دخول محقّق بإذن من الله؟! ولكنّها رقّة الدين، وضعف الإيمان. وقد علم الله منهم هذا فأخذهم به، وحاشاه وهو الحقّ أن يأخذهم به لو لم يكن لهم سيطرة عليه.

ووجد القصّاصون لخيالاتهم مرتعًا خصبًا في هؤلاء القوم الجبّارين، وجاؤوا في ذلك بما يؤلم أن يُقرأ في تفسيرٍ للكتاب العظيم[2]، وما أنزل الله بذلك من سلطان، وإن هي في الذكر الحكيم إلاّ كلمة حكايةً لما قال هؤلاء . . . كلمة واحدة استُعير لتفسيرها كلّ ما جاء في توراة اليهود من خرافات وأعاجيب عن هؤلاء القوم.

---

(١) والأرض التي كتب الله لهم هي التي كتب أن يفتحوها ويقيموا فيها الدين، الذي طهرت وتقدست بإقامته. وفي ذلك حث لقوم موسى على التصدي لمن في تلك الأرض من الوثنيين.

(٢) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ٢: ٢٨٨. وانظر الباب الأول: في الإسرائيليّات.

وما تلك الصورة التي رسمتها توراة اليهود لمن وصفوهم بالجبّارين، إلاّ كالصورة التي درج على رسمها اليهود إلى اليوم لكلّ من يقف في وجههم، ابتداءً بفرعون موسى، وانتهاءً بالإرهابيّين الفلسطينيّين، الذين يتصدّون لترسانة إسرائيل العسكريّة، التي تجرفهم من ديارهم، وتدوس جذورهم، وتسحق فروعهم، بالحجارة والعصيّ. ويرى الرازي أن كلمة جبّارين تعني أنّهم ذوو قوّة وشوكة، وأن قوم موسى يخشون لقاءهم. ويقول: «أيدي قوم موسى ما كانت تصل إليهم، فسمّوهم جبّارين لهذا المعنى»[1].

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ٢٣: المائدة... رجلان أنعم الله عليهما بأنّهما يخافانه، أو بأنّهما ذوا فطنة وتدبير، فقد رأيا من عون الله لبني إسرائيل في مواجهة عدوّهم أنّه يكفيهم الامتثال للأمر، والشروع في التنفيذ، وأنهم إذا قاموا بالخطوة الأولى تولّى الله عنهم سائر الأمر، فكانوا هم الغالبين.

ولكن هيهات لهؤلاء أن يفعلوا، فإن الإقدام، في حال فراغ اليد من السلاح ثقةً بنصر الله وتأييده، يحتاج إلى مدًى من الإيمان لا يملكونه. وهاهو الأمر ينتهي بهم إلى هذا الدرْك من الجحود والرقاعة ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ٢٤: المائدة. ومعروف عن اليهود عبر التاريخ أنّهم لا يقاتلون مواجهة ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ ١٤: الحشر[2]، وأنّهم يُثيرون الحروب من بعيد، ومن هنا قال الله الحقّ عنهم: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ ٦٤: المائدة، ولم يقل: كلّما حاربوا. فهم يوقدون نار الحرب ليصلاها غيرهم، ولا يخوضون غمارها إلاّ مكرهين وكارهين، فرَقًا من الموت، وحرصًا على الحياة.

وحمّل النبيّ نفسه العبء، فهو أمر الله، وعليه أن يدفع بكلّ ما يملك لتنفيذه. ولكنّه وقد أفلست يده من هؤلاء الذين يجرّهم بأسنانه إلى الجنّة، لا يجد إلاّ أن يبسط

---

(١) التفسير الكبير تفسير الآية.

(٢) أي لا يقاتلونكم إلاّ إذا تحصنوا أو احتموا بأثقل الأسلحة، لأنهم يعرفون أن طلبكم الشهادة يعني أن الله سيعذبهم بأيديكم... وليس نصرًا أن تغلبك دبابة وأنت تحمل حجرًا فأنت منتصر حتى لو قتلتك الدبابة.

ما يملك أمام مولاه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ٢٦: المائدة[١].

وكان التيه الجزاء الوفاق، جزاء الله الحق ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ ٢٦: المائدة، فالذين يملكون هذه القلوب أبعد ما يكونون عن الهدى، فليجتمع عليهم ضلال القلب وضلال الخُطا، لعلّهم يدركون ضرورة الهدى فيبحثوا عنه، وتتّجه خطاهم وعقولهم إليه. من أجل هذا قضى الله على قوم موسى بالتيه في هذه المفاوز أربعين سنة. ولا شكّ في أن هؤلاء، جريًا على عادتهم، راحوا يلتمسون العفو والتوبة. ولئن أعفتهم التوبة من العقاب، فإنّها لا تؤهّلهم لدخول الأرض المقدّسة، وكان لا بدّ أن ينتهوا في غياهب الرمال، ليدخل تلك الأرض جيل نظيف، يُقيم كلمة الله فيها.

وعندما تكون الأمّة في مرحلة تحوّلٍ في أخلاقيّاتها، فإن فترة أربعين عامًا وسطيًّا تنقضي في تمخُّضات واضطرابات، حيث تبرز اتّجاهات فرعيّة تتطاحن، ويصفّي بعضها بعضًا. وتحتاج الأمّة إلى هذه الفترة ليحتلّ الذين نشؤوا على المبادئ الجديدة المراكز المؤثّرة والفاعلة في كلّ المجالات، ويصبغ منهجهم فكر الأمّة بصبغته.

وهناك من المفسّرين من يجعل التيه بعد مذبحة التوبة. ولكن يصعب أن يكون ذلك التمرّد على موسى والامتناع عن دخول الأرض المقدّسة بعد تلك المذبحة.

وممّا يلفت النظر أن التوراة قد بدأت تتكلّم عن بني إسرائيل كجيش منذ خروجهم من مصر، وهذا يجعلنا نعيد النظر في مبلغ ما زعموا أنهم كانوا فيه من التضييق والجور والظلم فيها ممّا يجعل اقتناءهم السلاح على النحو الذي تصفه التوراة أمرًا مستحيلاً.. وقد يعني هذا أنّهم كانوا يتسلّحون سرًّا في أثناء إقامتهم في مصر، ولكنّه قطعًا لم يكن بالسلاح الذي يسمح بإطلاق كلمة الجيش عليهم. فإذا أضفنا إلى هذا أنّهم لا بدّ أن يكونوا قد استخرجوا كميّات من أسلحة فرعون وجنوده الغرقى من

---

(١) وقيل أنّ موسى لم يذكر الرجلين اللذين كانا ينصحان لبني قومهما قبل قليل فكأنه لم يثق بهما أو يعتمد عليهما. ولعل السبب في عدم اعتباره إياهما أن اثنين من قوم لا يعدون شيئًا ولا يذكران.

الأماكن الضحلة من المياه، واستولوا من قصره على سلاح ومتاع[1]، حصلنا على تفسير معقول لكلمتَي عسكر أو جيش اللتين بدأتا تُطلَقان على جماعة الخروج في التوراة، ومن ثمّ في المصادر الأخرى منذ غرق فرعون ومن معه[2].

***

إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ ٦٧: البقرة، واستقبل قومه أمر الله هذا بالاستغراب ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ٦٧: البقرة[3].

ولم يكتف قوم موسى بمواجهة ما بلّغهم إيّاه بالاستنكار، بل راحوا يمارسون خُلق الرَعاع المتسيّبين، فيسألون نبيّهم تفاصيل تدلّ على الاستخفاف والهُزء في أسلوبها ومضمونها، حتى بدا الأمر لعبة سمجة، احتاجت إلى كلّ حِلم النبيّ الكريم. ومن سوء أدبهم وفظاظتهم تكرارهم كلمة «ربّك»، كأنّهم ينأون بأنفسهم عنه وعن ربّه، أو كأنّهم يتّهمونه بالكذب ويُطيلون مِحاله لينكشف لهم أمره. وكان الله يمدّ لهم، وهو يوحي لموسى أن يجاريهم، ويصبر على مماحكاتهم.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾؟ ٦٨: البقرة.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ٦٨: البقرة.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾؟ ٦٩: البقرة.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ ٦٩: البقرة.

ورغم وضوح مجاراته، وبوادر سخريّته منهم استمرّوا في عبثهم الأرعن، ﴿قَالُوا۟

---

(١) وتلك سنة المنتصرين، فكيف بقوم موسى الذين لم يعجلهم الخروج عن ذهب المصريين فاحتالوا لنهبه قبل انطلاقهم بسويعات.

(٢) مع عدم إغفال المبالغة المقصودة في كلّ ما له علاقة بأعداد هؤلاء.

(٣) والجهل في القرآن الكريم تعبير عمّا يُنكر مطلقًا بمقتضى العقل، أي اللامعقول مطلقًا. يبين ذلك قوله تعالى: "قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون" ١٣٨: الأعراف، فقولهم هذا ينكره العقل إنكارًا تامًا.

﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ٧٠: البقرة.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ ٧١: البقرة.

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ ٧١: البقرة.

وأخيرًا انتهى بهم الأمر إلى الوقوع في شرّ أعمالهم، فقد أرادوا إعنات موسى، فأعنتهم الله. وفي الروايات أنّهم دفعوا مبلغًا خياليًا في بقرة كانت تُجزئ عنها كلّ بقرة. لقد عاملهم الله معاملة على شاكلتهم، فيها إعنات وعقاب وتقويم بالكيّ، وتلك لغتهم التي ينطقون ويفهمون. ورُوي، ورفعه بعضهم إلى رسول الله ﷺ: «لولا أن بني إسرائيل قالوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ٧٠: البقرة، ما أُعطوا أبدًا»[١].

وفي الروايات الواضحة الوضع أن رجلاً من بني إسرائيل صالحًا لم يكن يملك من متاع الدنيا غير بقرة، يستعين بها في معاشه ومعاش ولده الوحيد، فحضرته الوفاة، ولمّا يبلغ ابنه أشدّه. فقال: يا ربّ، إنّي أستودعك ولدي وهذه البقرة، وأنت آمن عليهما منّي.

وكان تدبيرًا من الله أن يماحك قومُ موسى حتى الرمق الأخير في صفة البقرة التي أمرهم الله بذبحها، فلا تنطبق صفتها إلاّ على بقرة ذلك الرجل الصالح، فيشترونها بملء جلدها ذهبًا، لينعم بذلك ولده اليتيم الذي استودعه الله مخلصًا صادقًا. وسبقت كلمة الله ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ ٢: الطلاق[٢].

إنّها أسباب تتآلف وتتفاعل وفق ما يقضي به مدبّر الأمر، وتُفضي إلى توافقات تؤدّي إلى تحقيق ما نسمّيه بالمسلّمات، كتلك المسلّمة التي تضعها في رُوعنا قصّة الرجل الصالح صاحب البقرة، والتي عبّر عنها الذكر الحكيم بذلك القول المحكم: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ ٢: الطلاق.

---

(١) رواه ابن مردويه في تفسيره.

(٢) لا ضير في هذا النوع من القصص الموضوعة، التي لا تنطوي على دسّ، وتعتبر من القصص التعليميّ الموجّه إلى البسطاء والصغار.

ويتمّ ذلك بشكل لا يستطيع العقل تبيُّنه، بلهَ تتبّعه وإدراكه، لأن العقل لا يحيط بتصريف الأمور وفق قضاء الله الحقّ فيها. ولكنّ المؤمن الفطن المتحرِّي للحقّ، قد يحيط بشيء من ذلك، بنسبة تكافئ فطنته وعمق إيمانه، وذلك بإذن ربّه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ ٢٥٥: البقرة. **أمّا هو، الذي وسع سلطانه السماوات والأرض، والذي خلق الأسباب والمسبَّبات، فيحيط بكلّ شيء علمًا. فما عليك إلاّ أن تؤمن به، وتعمل وفق إيمانك هذا، ثم تدَع الأمور تجري في أعنّتها.**

وأخيرًا اهتدى بنو إسرائيل إلى البقرة التي كفّت شقشقة ألسنتهم المعنِتة، بمشيئة الله حيث قالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ٧٠: البقرة. وبعد كلّ هذا التلكّؤ والتردّد، وبرغم كلّ هذه الاحتياطات والأسئلة، ومع أن فيهم نبيًّا من أُوْلِي العزم، وقد رأوا ما رأوا من معجزاته، فقد ذبحوا البقرة مرغَمين متضرّرين دون قناعة تُذكر بجدوى ما يفعلون ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ ٧١: البقرة.

*

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ٧٢ و٧٣: البقرة. وتفيد هاتان الآيتان أن نفسًا من قوم موسى قُتلت، فاتّهم أهل المقتول رجلاً بعينه، فتصدّى لهم شيعة الرجل واتّهموا واحدًا منهم. وكان حكم الله الذي أوحى به إلى موسى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ ٧٣: البقرة. وقد ربطت معظم التفاسير هاتين الآيتين بالبقرة التي أمر الله بذبحها في الآيات السابقة، وتبع ذلك أن «اضربوه ببعضها» تعني اضربوا القتيل بشيء من جثّة البقرة فيحيا، ويسمي مَن قتله، وأنّهم فعلوا، وأن القتيل حيي، وتبيّنت الحقيقة.

وقد قال تعالى تعقيبًا على القصّة: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ٧٢ و٧٣: البقرة. فهل عقل قوم موسى لدى رؤيتهم تلك الآية، وآمنوا أن الله يحيي الموتى، وأن وراء هذا العالم الذي يتحجّرون فيه عالمًا آخر تُجزى فيه كلّ نفس بما كسبت؟

سؤال تثير الإجابة عنه الدهشة والحيرة، ذلك أن التوراة التي بين أيدينا خلو أو تكاد من ذكر الحياة الأخرويّة، وما يتعلّق بالحساب والمآل[1]، وإن كانوا قد ذكروا شيئًا عن العودة إلى الحياة بعد الموت في الدنيا، كما في حديث عُزير، وفي قولهم إن هارون، وقد مات في التيه، سوف يرجع[2].

ولكنّ قوم موسى، رغم الآية التي رأوا، لم يعقلوا. وعلى رأس البراهين على ذلك طابع القسوة والتطرّف الذي يسم الشخصيّة اليهوديّة، فاليهود، عبر التاريخ، إمّا مغلوبون أذلّة معبَّدون، أو طغاة مستبدّون، يسعون إلى سحق الآخرين، وتجريدهم حتى من الأرض التي يطؤونها. ويؤكّد هذا بوضوح ما جاء بعد تلك الآية.

وجه لقصّة البقرة

تبدأ قصّة البقرة في القرآن الكريم كما يلي: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ٦٧: البقرة، وتنتهي كما يلي: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ٧١: البقرة. أمّا في معظم التفاسير فتبدأ بالقول: اختصم قوم من بني إسرائيل إلى موسى عليه السلام في مقتل أحدهم. ثم نكتشف أن هذا الأمر يتعلّق بآيتين أخريين تلتا قصّة البقرة في الذكر الحكيم وهما ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ٧٢ و ٧٣: البقرة. ويتّضح أنّه تمّ الربط بين القصّتين، حيث رأى المفسّرون أن الله أوحى إلى موسى أن يذبح القوم بقرةً ثم يضربوا القتيل ببعضها فيعود حيًّا، ويشير إلى قاتله، وأجمعوا، أو كادوا، على أن إحياء القتيل قد تمّ بضربه ببعض البقرة المذبوحة.

---

(١) انظر محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢: ٢٨٦.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ١: ٢١٢. ولمّا كان من البديهيّ أن توراة موسى لا يمكن أن تخلو من هذا الحديث، فإن خلو توراة اليهود منه يعني أنّها ليست توراة موسى.

وقد يثير هذا العجبَ إذا عرفنا أن النصّ القرآنيّ لا يُلزم بشيء من ذلك. بل إن الربط بين قصّة البقرة وقصّة القتيل، بالشكل الذي تورده التفاسير، يعني أن قصّة القتيل ينبغي أن تُقدّم على قصّة البقرة في السياق، فهم ما ذبحوا البقرة إلاّ ليهتدوا إلى القاتل، وهذا عكس ما نراه في النصّ القرآنيّ، حيث سبقت قصّةُ البقرة، ثم كانت قصّة القتيل. ثم إن هذا الربط ينطوي على كثير من الافتعال غير المبرَّر، إذ لا معنى من قريب ولا من بعيد للضرب ببعض البقرة المذبوحة، ولا مبرّر له، وإن جهد المفسّرون في تبريره. ويؤدّي ذلك الربط إلى فَهاهة تُناقِض الإحكام الذي يتّسم به القصص القرآنيّ.

إن قصّة القتيل قصّة مستقلّة تمامًا[1]، بدأت بالطريقة التي بدأت بها قصّة البقرة[2]، أي بالظرف «إذ»، معطوفًا على ظرف سابق له في قصّة البقرة نفسها. ويستفاد من ظاهر النصّ، الذي لا مبرّر لتجاوزه، أن الضمير في «اضربوه» يرجع إلى المتّهم، يُستفاد ذلك من عائد الضمير في «قَتلتم»[3]، أي قتل أحدكم أو بعضكم، وقوله «قتلتم»، أي إسناده الفعل إلى الجماعة، تعبير عن شمول التهمة الجميع قبل كشف القاتل، فهو غرض بلاغيّ، ويستفاد من ظاهر النصّ أيضًا أن الضمير في «بعضها» يرجع إلى نفسًا، وهذا أقرب إلى روح النصّ، ومقتضى اللغة. ويكون المعنى على هذا اضربوا من تتّهمون منكم ببعض جثّة القتيل.

ولعلّ افتقار عبارة «وما كادوا يفعلون» إلى الرابط الماديّ بقصّة البقرة كان من أسباب دمج القصّتين، ولكنّها عبارة يربطها بما قبلها تقدير المعنى بكون هؤلاء، رغم

---

(١) كنت أمضي في تصوّري هذا على تخوّف ووجل، ولكن شدّ أزري أن عبد الوهاب النجّار رحمه الله في كتابه "قصص الأنبياء" قد سبقني إليه، وأنّه قد وصله من النظر في هذه القضيّة ما وصلني، إلاّ في نقاط تكشفها المقارنة. ومحّصت نقد الأزهر لما ذهب إليه بتهيّب، ولكنّني رجحت لديّ كفّته، ووجدت أن ذلك النقد ببعض التدبّر يمكن اعتباره الأكثر إخلاصًا للروايات ليس إلاّ. انظر عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ٢٥٢ - ٢٧٠. الكاتبة.

(٢) والتي تبدأ بها كثير من قصص الذكر الحكيم.

(٣) ولا معنى هنا للقول إن هنالك متّهمين، وهو ما اعترض به الأزهر على في مناقشته لعبد الوهاب النجار، فعمليّة الضرب تتكرّر مع كلّ المتّهمين بالغًا ما بلغ عددهم.

obeikandi.com

طول مماحكتهم، وقولهم «الآن جئت بالحقّ»، ما قاموا بالذبح إلاّ مُكرَهين، ففِعلهم أدنى إلى المقاربة منه إلى الإنجاز. أي كأنّهم، لشدّة إنكار قلوبهم، لم يفعلوا.

فلعلّ الأقوم، بناء على ما تقدّم، اعتبار القصّتين منفصلتين، تحكي أولاهما اختبارًا لامتثال قوم موسى وإسلامهم لما يأمر به الله، إذ أمرهم أن يذبحوا بقرة. وكما هي الحال دائمًا وأبدًا مع هؤلاء كان لا بدّ من المناكفة طويلاً، وطويلاً جدًّا، وأن ينقلب الأمر وبالاً عليهم قبل أن ينفّذوه. وتلك القصّة شاهد على مماحكة بني إسرائيل ومناورتهم ورقّة عقيدتهم، وشدّة مِحالهم، وعلى احتمال وجود بقايا ولاء فيهم لعبادة مصريّة وثنيّة قديمة أراد الله نزعها من قلوبهم. وقد رأينا أثر ذلك في اتّخاذهم العجل قبل هذه الحادثة.

وتحكي القصّة الثانية أن قومًا ادّارؤوا في نفس منهم قُتلت، وكان الحُكم أن يضربوا المتّهم ببعض من جثّة الضحيّة. والغاية من ذلك أن تُرعب رهبةُ الموقف القاتلَ، إذ تضعه في أجواء قيام ضحيّته من عالم الأموات لتنتقم منه، فيذعَر، فينكشف أمره، أمّا إن كان بريئًا فلا يرعَب، لأن ما أرعب القاتل لا يعني له شيئًا[1]. وهكذا تتاح الفرصة للاقتصاص من القاتل. وفي هذا الإجراء آية من آيات استعلان الحقّ وظهوره، وتذكرة لقوم موسى بأنّه بالغٌ قمّة الاستعلان والظهور في يوم الحقّ، يوم يحيي الله الموتى.

* * *

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ٧٤: البقرة. ذلك أن ﴿مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ ٧٤: البقرة. وتلك الآية من المعجزات الباقيات التي تقوم عليها البراهين بصورة مستمرّة وحيثما كان اليهود.

ومن المدهش أن ما جاء في توراتهم من الحضّ على القسوة وعدم الرحمة

(١) انظر عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء ص ٢٥٢ - ٢٧٠.

واستئصال العدوّ، دون غيره من التعاليم، قد حظي، وما زال، بأعلى درجات الإيمان به، والالتزام بتطبيقه. فهم يمارسون الإبادة الكاملة لعدوّهم، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال والأنعام والزروع والمنشآت، إلاّ أن ينهبوها، أو يسترجعوها بزعمهم، ذلك أنّهم يعتقدون أن ما في أيدي الناس مغتصَب منهم. وهذا المبدأ كان، وما يزال، ولن يبرح، سبب كلّ ما حلّ وسوف يحلّ باليهود من النكبات على أيدي شعوب الأرض كلّها. ولا تمنع من ذلك قوّة ولا تسلّح ولا مؤامرة، ولا مال. ذلك أنّه أمر الله الذي سبق في علمه أنّهم لن ينتهوا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ١٦٧: الأعراف.

إن من قضاء الله في الخليقة ألاّ تنفرد قوّة بالتحكّم في العالم، وألاّ يُخلّى بين قويّ وضعيف بحيث ينفرد به. وعلى طغاة العالم اليوم أن يعوا هذا القانون الأزليّ الأبديّ. فهذه عاد الأولى كانت سيّدة زمانها قوّة، على إطلاق القوّة، ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ١٥: فصلت؟ فأهلكهم الله سبحانه وتعالى بعاصفة، وهذا فرعون الذي قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ ٣٨: القصص غرق ومن معه في ثوانٍ، وهذا النمرود الذي عبّد العراق هلك وجيشه بالبعوض... ومن أسباب الهلاك الزلازل والجائحات والأوبئة والانحرافات الاجتماعيّة والأمراض النفسيّة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ٣١: المدثر... جنود يحفظون هذا الوجود كما أراده بارئه الذي يقضي ويوقّت القضاء.

يقول سيّد قطب: «إنّما المقصود أن الشرّ حين يتمحّض يحمل سبب هلاكه في ذاته، والبغي حين يتمرّد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر، بل تتدخّل يد القدرة، وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم، فتنقذهم وتستنقذ عناصر الخير فيهم، وتربّيهم، وتجعلهم أئمّة، وتجعلهم الوارثين»[1].

وكثيرًا ما يقف العقل البشريّ موزّعًا بين ما قد يراه من طغيان الباطل، وما يوقن به من غلَبة الحقّ، حتى يقول: متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله واقع لا محالة، ولكن متى تكاملت الأسباب، فهذا قضاؤه في الأمر.

---

(١) في ظلال القرآن: تفسير الآية ٥ من سورة القصص.

قارون الغنيّ الفاجر

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ٧٦ - ٨٢: القصص.

وجاء ذكره في العنكبوت: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾ ٣٩: العنكبوت. وجاء في غافر ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ٢٤: غافر.

فقارون في نصوص الذكر الحكيم، على عكس سواد قومه، ثريّ مثل كبار أثرياء يهود الموزَّعين في أقطار الدنيا اليوم، لكنّه بغى على قومه، وكان من الغرور بحيث لم يعترف بفضل الله عليه فيما أوتي، وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ ٧٨: القصص، وكان مختالاً فخورًا ممّن لا يحبّهم الله، حتى كاد الناس يُفتَنون بما أوتي رغم بغيه واستكباره، فخسف الله به وبداره الأرض حتى قال هؤلاء: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ٨٢: القصص.

وقرن الذكر الحكيم قارون بفرعون وهامان مرّتين، وقد أدّى هذا إلى ما قيل من أنّه كان مقرّبًا من فرعون، وأنّه كان يظاهره على قومه المستضعفين، وأنّه جنى من وراء ذلك ثروة عظيمة. وهؤلاء جعلوا الخسف به في مصر، وهو مخالف لما في التوراة، فكان

على الذين وافقوا ما جاء فيها، أن يجدوا وسيلة للتوفيق بين قرن القرآن إيّاه بفرعون وهامان، وبين كونه قد خرج مع موسى، فقالوا إنّه اتّبع موسى، ولكنّه كان منافقًا.

وفي الروايات أنّه عندما أغرق الله فرعون وجنوده، أرسل موسى إلى قصره جماعة ليعودوا بأمواله وكنوزه غنيمة انتصار، فنفَس قارون على موسى وهارون ما غنما، وما جعل الله لهما في قومهما من المنزلة والنبوّة. ولم يلبث أن عمد إلى شراء ولاء طائفة من القوم، راحت تزداد يومًا بعد يوم عددًا، على الرغم من أن حكماءهم وعلماءهم كانوا يعرفون ماضي قارون مع فرعون، ومصدر ثروته التي جمعهم بها حوله.

واستمرّ قارون في الكيد لموسى، مستغلاً حِلم النبيّ وحرمة القربى[١]، وجعل يسعى إلى احتلال مكانته بين عبَدة الذهب، الذين يقيّمون الملوك بما يملكون منه[٢]، فخرج يومًا على قومه في زينته في موكب يخطف الأبصار، فبهرهم مارأوا، حتى قال بعضهم: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ ٧٩: القصص[٣]. ولا يُغفل الذكر الحكيم الإشارة الموحية إلى الإنذار الذي تهيّئه رحمة الله وعدله للجانحين عن جادّة الحقّ، قبل أن تصل بهم خطاهم إلى الهاوية، فقد سخّر لقارون من قام بهذا الدور، ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ * وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ٧٦ و ٧٧: البقرة. ولكنّ قارون لم ينتهِ، بل أمعن في غيّه، وكانت القفزة الأخيرة باتّجاه الهاوية أن قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ ٧٨: البقرة.

وتلك الكلمة هي أقصى ما يتطلّع إليه الشيطان من الأغنياء وأصحاب النفوذ. فما قَتل فرعونَ إلاّ أن قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ ٣٨: القصص. وما قَتل النمرودَ إلاّ قوله: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ ٢٥٨: البقرة، ولا قَتل عادًا إلاّ قولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ١٥: فصلت؟... هذا التجرّؤ على سلطان الله، والجحد لفضله، والتبجّح بما تحرزه الذوات المريضة من مكاسب الدنيا العارضة، والاستطالة بها على الآخرين،

---

(١) قيل إنه من أقرباء موسى.

(٢) انظر قصتي طالوت، وسليمان.

(٣) قالوها غبطةً.. والغبطة شعور إنساني محمود ودافع، يقوم على تمني أن يكون للمرء ماللآخرين بلا حسد.

وهذه اللهجة الوقحة المتحدّية، لا يمكن أن يكون وراءها إلاّ المحق.

وقد ردّ الله على قارون: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ ٧٨: القصص.

وفي الروايات أن السبب المباشر للخسف بقارون هو أن حقده على موسى قد دفعه إلى أن إغراء بغيّ باتّهامه على رؤوس الأشهاد بإتيان الفاحشة المبيّنة معها[١]، فقال لها موسى: أقسمي على ذلك، فإذا أقسمت فأنا كما تقولين. فلم تُطق المرأة القسَم، واعترفت بأن قارون هو من دفعها إلى هذه الفرية.

واستغاث موسى ربّه، فخسف بقارون وبداره العظيمة وبأمواله الأسطوريّة، ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ٨٢: القصص.

إن المال الحرام، والغنى الفاحش بالطرق غير المشروعة يدمّر الذمم ويخرّب الضمائر ويفسد المجتمعات. ومن سنن الله في الأرض ألا يُبْقِي مالاً حرامًا لمُحرزه، وأن يجعله وبالاً عليه وسوء عاقبة.

إلى مجمع البحرين

قيل لأبي حنيفة: بمَ نلتَ ما نلت؟

قال: ما استنكفت عن الاستفادة، وما بخلت بالإفادة.

كان موسى ﷺ من أولي العزم، وقد علّمه الله التوراة. فعظُمت منّة الله عليه في نفسه حتى رآها أكبر ما أوتي بشر، فكانت قصّته مع العبد الصالح[٢]. ولئن كان العبد الصالح في هذه القصّة معلّمًا[٣]، فإن موسى لم يقصده ليتعلّم منه، بل ليتعرّف هذا

---

(١) ولم تزل عادة في اليهود تسخير المرأة لأغراضهم، ولاسيما في مجال السياسة. ويزخر التاريخ الحديث والمعاصر بأحداث من هذا القبيل، يقبع اليهود وراءها، فوق أية أرض كانت، وتحت أية سماء رفعها الله.

(٢) كثير من المفسرين على أن العبد الصالح هو الخضر. وجمهور اليهود على أن موسى المذكور ليس بموسى النبي.

(٣) المعلمُ لا بد أن يكون ذا مهارة عظيمة، أمّا المدرس والدارس، والطالب دارس، فقد يكونان ماهرين، وقد لا يكونان كذلك. قال تعالى " ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون " ٧٩: آل عمران.

الذي يفوقه علمًا، ويرى بم كان أعلم منه؟ وما كانت تجارب موسى الثلاث مع العبد الصالح بالتي تعلَّم أو تُتعلَّم، فهي معرفة لدنّيّة بما وراء الأشياء، ولكن موسى لقِّن من ورائها دروسًا في أن ما عند الله مطلق، وأن فوق كلّ زيادة مزيدًا، كما لُقِّن دروسًا في التواضع والتأنّي وضبط الانفعال والصبر والتريّث وتجنّب العجلة. وهو ما كان موسى يحتاج إلى تعلّمه.

خرج موسى بفتاهُ يوشَع بن نون[1]. وفي البخاريّ أنّهما أُمرا أن يأخذا حوتًا في مِكتل، فحيثما فقداه فثمَّ عبد من عباد الله، آتاه رحمة من عنده، وعلّمه من لدنّه علمًا.

سار سيّدنا موسى مع فتاه بطول سِيف البحر يبتغيان لقاء العبد الصالح، وأصرّ موسى على مواصلة السير مهما طال، وفي الذكر الحكيم أنّه قال لفتاه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ ٦٠: الكهف. ونال منهما التعب فأويا إلى صخرة يستريحان، فاضطرب الحوت من المِكتل، وسقط في البحر، وغاص في الماء مبتعدًا. ورأى يوشَع ذلك، ولكنّ النعاس والتعب، على ما يبدو، غلبه فنام.

صحا موسى وفتاه، واستأنفا السير، ولم يلبث موسى أن أحسّ بالجوع، وطلب الطعام، وهنا استيقظت الأحداث في ذاكرة الفتى ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ ٦٣: الكهف. وكلمة «عجب» لا تعني ما حمّلتها إيّاه الروايات، بل تعني غرابة الأمر. فإن قفز حوت مَصيد من المِكتل إلى الماء ممكن، لكنّه نادر الحدوث، ومن هنا فهو ممّا يدعو إلى العجب[2]. وهنا أدرك موسى أنّها إشارة إلى مكان العبد الصالح، ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ ٦٤: الكهف، يتتبّعان الطريق إلى حيث اختفى الحوت.

---

(١) قيل إنه يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف عليه السلام، وكان تلميذًا لموسى ومؤيدًا وخادمًا، وخلفه على قيادة قومه.

(٢) ولا ضرورة لما قيل من أن الحوت كان مطهوًا، أو ملحًا، وغير ذلك من تفصيلات لم يثبتها نص، ولا تقدم إضافة من جهة أخرى. ولعله لم يكن ثمة خارقة أو معجزة، فما هو إلاّ علامة لموسى على مكان العبد الصالح الذي يقصده. والنسيان نوعان: نسيان في الطبيعة البشرية، ونسيان من الشيطان، وهو الذي يترتب عليه أذًى كبير، وهذا النوع من النسيان يبدو غريبًا نظرًا لأهمية وحيوية الموضوع الذي يقع عليه، ومنه نسيان يوشع أمر الحوت، ونسيان الناجي من صاحبي السجن ذكرَ يوسف عند ربه.

لن تستطيع معي صبرًا

ويتابع النصّ القرآنيّ الأحداث: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ٦٥: الكهف.

وقال موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ ٦٦: الكهف؟

كلّ ذلك ليقف موسى على واحد من أمداء العلم اللامتناهية، التي يُعلّم منها العليمُ من رحِم من عباده الصالحين، لعلّه يبلغ شيئًا من الرُشد على يدي ذلك المعلّم العظيم. وقال العبد الصالح: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ ٦٧: الكهف.

وكانت أكثر من صدمة لموسى، فهو رغم إلغائه نفسه وعِلمه أمام ذلك المعلّم، لا يمكنه أن ينسى أنّه من قال له الله جلّ وعلا: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ ١٤٤: الأعراف.

وتساءل العبد الصالح المعلّم كأنّه يلتمس لموسى الدهِش العذر: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ ٦٨: الكهف؟ أي أنت علمك أخبار، فما أُخبرت به أحطت به، وما لم تُخبَر به لم تعرفه. وتلك النقطة الأولى التي أراد الله الحقّ أن يعيها موسى... إن رأس العلم ما يلقيه الله الحقّ في رُوع العبد. وهو علم لا يُلقى إلاّ في القلوب التي تقصد وجه الله بإخلاص.

وأسرت كلمات العبد الصالح موسى... إنّها سيادة الصالحين علوّ في رقّة وعطف... وسرت العدوى في موسى، فقال بأدب التلميذ الحريص على ملازمة معلّمه: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ ٦٩: الكهف.

ولكن كان للمعلّم شرط: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ٧٠: الكهف.

وكان حزمًا بيّنًا، وتشدُّدًا في طلب التزام حدود التلمذة، وكان موسى من الامتثال بحيث لم يعقّب على كلام العبد الصالح المعلّم.

وبهذا يضعنا النصّ القرآنيّ المعجز أمام أمثولة للعلاقة الراقية بين المعلّم والمتعلّم، فالتواضع للمعلّم والتذلّل له يدعّم عمليّة طلب العلم، وهي المهمّة الأولى للإنسان، المهمّة التي كان إنسانًا عندما أصبح قادرًا على الاضطلاع بها. وفي التذلّل

للمعلِّم تواضع لعظمة العلم، وإجلال لفضله، وحرص عليه. والعلم في الإسلام أرقى الذكر، ولذلك فهو من أجلّ العبادات.

وفي الروايات أنّهما ركبا في السفينة، وانطلقا في عُرض البحر، ووقفا على حافتها يتأمّلان... وكان عصفور يدوّم فوق الماء، ويمسّه بمنقاره الدقيق بين الفَينة والأخرى. وقال المعلِّم: يا موسى... إن علمي وعلمك، إلى علم الله، لا يعدلان القطرة التي يلتقطها هذا العصفور من البحر.

عند ذلك أدرك موسى ﷺ أن هذا المعلِّم الفذّ كان يعرف سبب بحثه عنه.

وانطلقت السفينة، وإذا العبد الصالح المعلّم يعكف على جانب فيها يخرقه، وأُخذ موسى بما يرى، ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ٧١: الكهف!!!

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ٧٢: الكهف؟

واعتذر موسى ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ ٧٣: الكهف.

لقد أنساه الشيطان ذلك، كما أنسى فتاه أمر الحوت، على ما للأمرين من الأهميّة.

وراح موسى يرجو معلِّمه الرأفة واللين: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ ٧٣: الكهف.

لم تَغرق السفينة، ولكنّها عِيبت، وفي هذا خسارة لأصحابها. وهذا ما حزّ في نفس موسى، ولكنّه كتمه التزامًا بوعده للعبد الصالح، وخضوعًا لأسر هذا المعلِّم الذي بدأ يتكشّف له من قدراته ما أدهشه.

ترجّل موسى والعبد الصالح من السفينة، واتّجه المعلّم بتلميذه المنصاع إلى حيث لا يدري، ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ ٧٤: الكهف. وكان أقرب إلى ردّة الفعل أن هتف موسى مستنكرًا: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ ٧٤: الكهف.

ويتفنّن الرواة، بدافع التشويق، ويصفون قِتلات وحشيّة، لا يستقيم أن تنسب إلى من قال فيه الله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ ٦٥: الكهف، والأجدر بالموقف والظرف أنّها كانت إشارة من يد المعلِّم الرحيم ليس إلاّ.

وكان لابدّ من عبارة تحذير بعد التنبيه السابق: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ٧٥: الكهف؟

وامتعض سيّدنا موسى، فليس من اللائق أن يُخطئ مرّتين بهذا الشكل، مخلفًا بذلك ما عاهد عليه معلِّمه. إنّه الآن في وضع حرج، فهو، إضافة إلى أن عليه أن يصمت

متضرِّرًا، لا بدَّ له هذه المرّة من تعهُّد موثَّق يترجم أسفه، ويطيّب خاطر معلِّمه ويطمئنه: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ ٧٦: الكهف.

إن شدّة شعور موسى عليه السلام بالحرج والخجل دفعته إلى تقييد نفسه بما لم يطلبه معلّمه. وقد روي عن النبيّ ﷺ قوله: «يرحم الله موسى، لوددنا أنّه كان صبر حتى يقصّ علينا من أخبارهما»[1]. ومن هنا قيل: البلاء موكل بالمنطق.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ ٧٧: الكهف... قرية وصفها النبيّ ﷺ باللئيمة، فقد أتاها موسى والعبد الصالح، وقد نال منهما الجوع والنصب، ممّا اضطرّهما أن يسألا بعض أهلها طعامًا، ولكنّهم أبوا أن يضيّفوهما. وفي غمرة انفعال موسى، وغضبه واستيائه من هذا الموقف النذل، إذا بالمعلّم يعمد إلى جدار متداعٍ يريد أن ينقضّ، فيُقيمه!!! ويبدو أن موسى هذه المرّة لم ينسَ نفسه تمامًا، فيترك العنان لغضبه يقوده، بل قال معترضًا، أومنبِّهًا وهو يغالب بركانه الداخليّ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ٧٧: الكهف...

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ ٧٨: الكهف. وقبل أن يستفيق موسى من الصدمة عاجله العبد الصالح: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ ٧٨: الكهف ...

لقد صدقت نبوءة العبد الصالح، فقد كان أوّل ما قاله لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ ٦٧: الكهف. وقد ظلّ مُصِرًّا عليها رغم ما رآه واستيقنه من حرص موسى على الالتزام والامتثال، ذلك أنّه يعرف مشقّة الصبر على ما يحدث، وأن ما يحتاج إليه موسى أكثر من أيّ شيء آخر هو الصبر... الصبر على جيَشان أحاسيسه القاهر الذي طالما غلبه، والصبر على مواجهة المواقف الهاصرة، التي يخاف أن يُخفق أمام رهَقها، أو أن يقصّر، والصبر على خطاه التي تعسِفه، وعلى يده التي تطيع انفعالاته قبل أن يصلها أمر عقله. وأخيرًا، وفوق كلّ ذلك الصبر على بني إسرائيل... الصبر على محاولة صنع أمّة ترث الأرض من بقايا أناسيّ مشوّهين، عليه أن يعلّمهم كيف ينعتقون من أسر المادّة الصلدة الجامدة إلى آفاق لاتُحدّ... يعلّمهم شوق الانتماء،

---

(١) سنن الترمذي: ٣١٤٩.

وينقُب حجريّة فكرهم ليُطلُّوا على فضاءات المفاهيم، ولْيحلُموا بالاستقرار والسيادة. كلّ هذا وهم مضطربون بين الأرض والسماء، كأنّما يأبى الله إلاّ أن يستقيموا كما يُريد قبل أن يمكّن لهم في الأرض.

سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا

وراح العبد الصالح ينبّئ موسى بما لم يستطع عليه صبرًا:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ٧٩: الكهف، لقد أردت أن أعيب السفينة حتى لا تغري الملك بالاستيلاء عليها، كما يفعل كلّما رأى سفينة سليمة جيّدة، وذلك وفق القاعدة الشرعيّة «دفع الضرر الأعمّ بالضرر الأخصّ».

تلك الأولى، أمّا الثانية: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ٨١ و ٨٢: الكهف. لقد كان في قتل هذا الغلام منجاة لأبويه الصالحين، لأن في بقائه ما سوف يحملهما على الطغيان والكفر... ولعلّها حال تؤهّله لها حالُه وظروفه لو بقي حيًّا. وهذا ممّا لا سبيل إلى التكهُّن به. والثالثة: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ ٨٢: الكهف[1]، فدبّر الأمر بحيث كنّا هنا في الوقت المناسب لأقيم الجدار، فلا يُكتشَف الكنز قبل أن يبلغ الولدان القدرة على حيازته والدفاع عنه.

الآن يعرف موسى ماذا يميّز هذا العبد الصالح، إنّه يعلم ما لا يمكن تعلّمه، يعلم بواطن الأمور، وما وراء ظواهر الأشياء... وهذا معنى قول الله الحقّ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ٦٥: الكهف... علمًا لا يحدّ ولا يصنّف ولا يلقّن ولا يقعّد... إنّه هبة من لدن الحكيم العليم لعباده الصالحين، يلقى في قلوب بلغت من الصلة بالله الحقّ ما أطلق قدراتها من أسر الطين إلى رحابة المطلق، فأحاطت بالمحدود، وسبرت أغواره، ونفذت إلى ما وراءه بإذن ربّها.

---

(١) يكرم الله سبحانه وتعالى الأبناء بصلاح الآباء، وقد كان سعيد بن المسيب يقول لابنه: يا بُني إني لأزيد في صلاتي من أجل أن يحفظني الله فيك.

إن موسى نبيّ ورسول، أوتي التوراة وفيها علم جليل عظيم. ولعلّه حسب أنّه مادام الله قد خصّه برسالاته وبكلامه، فقد نال قصارى ما عند الله لعبد، فأراه الله أن ما عند الله مطلَق لا قُصارى له، وأن هناك علمًا لا حدود له، ولا اكتساب فيه، يوهَبه العباد الصالحون، فيقرّ في النفس الصافية المنفتحة على الحقّ المتحرّية له المتّخذة لسبله. وحتى النبيّ على جلاله وعظمته قد لا يؤتى هذا. وتلك تجربة مرّ بها موسى النبيّ الرسول ليقف على الخيرات المطلقة للعبوديّة لله الحقّ.

وفي تلك التجربة رأينا وجه النبيّ الأكثر سطوعًا، والأعلى رتبة في درجات النبوّة، رأيناه ولا شيء غير العلم في ذاته، وافتقدنا موسى الرسول، وموسى الزعيم، وموسى القائد، بل افتقدنا موسى النبيّ؟ كلّ ذلك تجمّع في مُريد صغير يتضاءل أمام عبد من عباد الله الحقّ، آتاه الله رحمة من عنده، وعلّمه من لدنّه علمًا، ووضعه منه موضع المعلِّم، فوضع نفسه منه موضع التلميذ.

❋

اختلف إسناد الفعل «أراد» على لسان العبد الصالح في كلّ واحدة من المرّات الثلاث، فكان مرّة «فأردتُ»، وأخرى «فأردنا»، وثالثة «فأراد ربّك»، ويعلّل صاحب القصص ذلك الاختلاف بأن الأمر في المرّة الأولى قضيّة دنيويّة، تصرّف فيها العبد الصالح قطعًا بهدي الله، وفي المرّة الثالثة قضيّة غيبيّة صِرْفة، وهذا من شأن الله سبحانه وتعالى وحده. تبقى المرّة الثانية، وكانت قتل نفس زكيّة بغير نفس، وفيها وجدنا العبد الصالح يسند الإرادة إلى آخرين معه. فمن هم أولاء الذين أرادوا مع العبد الصالح؟

يتكلّم العبد الصالح هنا عن نفسه، باعتباره واحدًا من أولئك الذين أنعم الله عليهم، بأنّهم لا يريدون إلاّ ما يريده الله، ولا يأتون أمرًا إلاّ أن يكون كذلك، فإرادتهم نافذة لأنّها موافقة لأمر الله النافذ. وأولئك المسمّون بالمأذونين.

تواجه كلمة «المأذون» تجهُّمًا لما يُطيف بها من ظلال الخلاف حول مثيلاتها في زمان الجدالات غير الطيّب الذكر، ولكنّ الأمر لن يكون كذلك إذا عولج الموضوع بالطريقة التالية:

لقد جعل ربّ هذا الكون للكون الذي خلق قوانين سارية فيه بأمره ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ ١٢ : فصلت، وكلّ من هذه القوانين يقوم بدوره فيه، لا يَريم ولا يَحيد، وأوكل أمر التصرّف في الوجود ماديًّا إلى الإنسان، حين جعله خليفة في الأرض.

والمأذونون عباد يسّر الله لهم تحرّي الحقّ والعمل بمقتضاه في مجال معيّن من مجالات الحياة، فهم يقومون بعملهم في هذا المجال كما يريد الله، أي أنّهم استطاعوا أن يسجّلوا أرقامًا بشريّة قياسيّة جديدة في الاقتراب من الإجادة المطلقة فيما يخصّ هذا الأمر، وهؤلاء المختارين، أي الذين اختارهم الله الحقّ لأداء هذه الوظيفة أو المهمّة ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ ٦٨ : القصص.

ومن هؤلاء المختارين المصطفَون، وهم أفضلهم، ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ ٧٥ : الحج، ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ ١٤٤ : الأعراف، ﴿اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٢ : آل عمران.

ومنهم الوكلاء، وهم الذين يُمضون أمر الله في المجال الذي يعنيهم، بأقصى درجة من الالتزام الإنسانيّ بمقتضيات الحقّ. ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ ٨٩ : الأنعام. ويصرّف ربّ العالمين شؤون هذا الوجود بهؤلاء.

وهنالك طبقة رفيعة جدًّا، يصدق عليها اسم المأذونين، وسُمّوا بذلك لأن الله أذن لهم باستعمال خاصّيّة «كن فيكون»[1]، ومن ذلك إذن الله لعيسى عليه السلام بنفخ الروح، وإعطاؤه النبيّ ﷺ اسمين من أسمائه هما الرؤوف والرحيم، وإذنه للذي عنده علم من الكتاب بنقل عرش بِلقيس إلى مجلس سليمان، كائنة ما كانت طريقة ذلك، وإذنه لسيّدنا موسى بالفعل عن طريق الإشارة بالعصا.

وقد قيل: إن خاصيّة «كن فيكون» تعني أن يتمّ ما يريد المأذون بمعزل عن الأسباب. وهذا القول ليس دقيقًا، ذلك أنّه يصدق على ظاهر الأمر فحسب. أمّا الحقيقة فإن الله قد أذن أن الأمر لا يكون ولا يتحقّق في هذا الوجود إلاّ إذا توفّرت أسباب ذلك. وبما أن المأذونين لا يريدون إلاّ ما يريده الله، وما يريده الله متحقّق حكمًا، فإن ما يريدونه متحقّق كذلك. ومن هنا قيل: إنّ

(١) وهي درجة دون الإطلاق الذي يبقى لله الحقّ وحده.

(٢) هناك الإذن، وهناك المشيئة، وهناك الإرادةُ، وهناك الأمرُ. والأمر قانون "وأوحى في كل سماء أمرها" ١٢ : فصلت، أي قوانينها.

لله خلقًا إذا أرادوا أراد الله، أي متى أرادوا شيئًا كان أو تمّ، فهو قد تمّ قطعًا بإذن الله. وقد قالت السيّدة عائشة للنبيّ ﷺ: «ما أرى ربّك إلاّ يسارع في هواك»(١)، وهو تعبير عن مفهوم الإذن. والعبد الصالح من المأذونين، ولعلّ القصد من قوله «أردنا» جنس المأذونين، أو المأذون لهم.

وهنالك المجتبَون ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ ٨٧: الأنعام، ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ ٧٨: الحج. والاجتباء أن يهَب الله لعبده نعمًا لخصائصَ خلقها فيه بغير جهد منه. فمن رزق القدرة الفكريّة أو الجمال الجسديّ، فقد اجتباه الله بهذا. وهذا قطعًا له أسبابه الوجوديّة، وهي معروفة، أمّا أسباب تلك الأسباب فهي التي اجتُبي بها المجتبَون. وأمّا قولنا «بغير جهد منه» فهو محلّ نظر، ذلك أن الجهد يقرّر بقاءَ تلك النعم التي حُبيها صاحبُها أو زوالَها.

وقد اجتبى الله يوسف ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ ٦: يوسف. فسيّدنا يوسف لم يكن يعرف تأويل الأحاديث، فاجتباه الله لما يعلمه من حقيقة قلبه، وأعطاه تلك القدرة. وأساس ذلك كلّه القلب السليم، وصاحب القلب السليم هو من صار الحقّ عينَه وقلبَه ويده ولسانه وقدمه.

إن هؤلاء جميعًا من جند لله الحقّ، وإن له تبارك وتعالى في هذا الوجود جنودًا يعلمهم ولا نعلمهم ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ ٣١: المدثر، وهم مسخّرون لأمره، بغضّ النظر عن كونهم سيّئين أو صالحين(٢)، وقد يكون جنود الله مخلوقات غير الإنسان، كالظواهر الطبيعيّة من أعاصير وزلازل، وقد يكونون ظاهرات إنسانيّة أو اجتماعيّة، كهذه الهجمة العالميّة على الإسلام والمسلمين، فهي من جند الله، سخّرها لتكون مَنبَهة للمسلمين إلى ما في واقعهم من سلبيّات، فتكشف الزيف والنفاق، وتضرب بعضه ببعض.

ولعلّ هناك سببًا آخر لاختلاف إسناد الفعل «أراد» على لسان العبد الصالح، وهو أن كلّ واحدة من الجمل الثلاث جاءت لتفسّر واقعة غامضة بالنسبة إلى المخاطب.

(١) صحيح البخاري: ٤٥١٠.

(٢) فالله قد ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر.

ففي المرّة الأولى، حيث الواقعة هي خرق السفينة، يقبل المخاطَب التفسير التالي: خرقتُها لئلاّ يستولي عليها الملك. وهو تفسير يكفي المخاطَب.

أمّا في المرّة الثانية، حيث الواقعة قتل نفس بريئة، فلا يقبل المخاطب أن يقول الفاعل: قتلت الطفل لأن موته خير لوالديه، لأن ذلك من الغيب الذي لا يعرفه المتكلّم. لذلك أسند المتكلّم الفعل إلى الله، وجمع إرادته إلى إرادته، لكي يفهم المخاطَب أن إرادة الفاعل كانت تبَعًا لإرادة الله، وهذا يماسّ مفهوم الإذن كما سبق بسط القول فيه.

وأمّا في الحالة الثالثة، حيث الواقعة إقامة جدار دون أجر، وهو ما أضر في نظر المخاطَب بمصلحة المتكلّم وبمصلحته هو شخصيًّا، فإنّه لا يقبل أن يكون للفاعل دور في إمضاء الفعل، بل يحقّ له أن ينكر ذلك عليه. ولذلك أسند المتكلّم الفعل إلى الله، وانسحب إلى ما وراءه، وأكّد انسحابه ذاك بقوله: وما فعلته عن أمري.

من هو العبد الصالح؟
أو من يمكن أن يكون؟

إن من حقّنا أن نؤوّل، على ألاّ نجزم أن تأويلنا هو الصواب. فهناك أكثر من داع إلى التأويل، أبرزها الحدْس القائم على عمل العقل الباطن لدى التمرّس بالنصوص، وهذا الحدْس يدفع إلى البحث عن الأدلّة أوّلاً، والقرائن الداعمة ثانيًا، وذلك بهدف توكيد ذلك الحدْس وإمضائه، أو تكذيبه واستبعاده. والضوابط العلميّة لدور كلّ من الأدلّة والقرائن معروفة. وإذا ما توفّر ذلك فُتحت نافذة ليس من الحكمة، ولا من الحرص على تدبّر هذا القرآن، أن نقفل قلوبنا دونها. وقد تُفتح على هذا الشرط أكثر من نافذة، ولا يحقّ إغلاق أيّ منها إلاّ بدليل يوجب ذلك. وبانتظار هذا الدليل يبقى لمن فتح تلك النافذة أجر الاجتهاد إلى نصيبه من أجر ما بلغ من الإصابة.

لقد كان العبد الصالح، كما وجده موسى وفتاه، ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ٦٥: الكهف. **وهذه الأوصاف تستدعي حدْسًا شخصيّة رسول الله ﷺ. فهل**

تسعف الأدلةُ الحدْسَ فيكون لنا أن نقول: إن العبد الصالح هو محمّد ﷺ؟

إن لهذا الحدْس أكثر من مبرّر، أوّلها أن لكلٍّ منّا كيانًا عاقلاً ومكلّفًا منذ أن نفخ الله في أبي البشر آدم من روحه ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ ١٧٢: الأعراف[1]. وذلك هو الكيان الذي ندعوه بالروح. والروح في مرحلة الحياة الدنيا يستقرّ في وعاء ماديّ يناسب طبيعة تلك المرحلة، وهو الجسد، والعلاقة بين الروح والجسد أقرب إلى الملابسة منها إلى الاستقرار. وفيما عدا ذلك فالروح كيان ندعوه للتقريب بالأثيريّ، ولعلّ بالإمكان دعوته بالأمريّ، نسبة إلى عالم الأمر الذي سوف يأتي الكلام فيه. وهو عالم لا يُدرَك إلاّ بالعقل، ولا نستطيع تعريفه بأكثر من ذلك. وعلى هذا[2]، فنحن نفترض أن رسول الله ﷺ يمكن أن يكون ذلك العبد الصالح الذي التقاه موسى عليه السلام فعلّمه ممّا عُلِّم رشدًا.

وأمّا الأدلّة فنتحرّاها في المشترك ممّا وصف الله تعالى به كلاً من العبد الصالح وخاتم أنبيائه ورسله. فممّا وَصف به تعالى العبدَ الصالح ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ ٦٥: الكهف، وممّا وَصف به رسول الله، وهو أقرب ما يكون منه ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ١: الإسراء، كما وَصف العبد الصالح بقوله: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ ٦٥: الكهف، وقال لرسول الله ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ ١٠٧: الأنبياء، ووصف العبد الصالح بقوله: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ٦٥: الكهف، وقال لرسول الله ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ﴾ ١١٣: النساء. ولئن لم يكن هذا خاصًّا برسول الله، فهو صفة شديدة البروز فيه، لأكثر من سبب على رأسها أُمّيّته، وانقطاعه عن العالم فيما وراء حدود منطقته، وثبوت عدم اتّصاله برجال يمكن أن ينقلوا إليه ما صدر عنه من العلم.

والدليل الذي يمكن اعتباره مرجِّحًا لهذا الافتراض هو ما جاء في سورة السجدة من خطاب صريح لرسول الله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ﴾ ٢٣: السجدة. وأكثر المفسّرين على أن اللقاء هو لقاء رسول الله موسى في المعراج، وقيل إن الضمير في "لقائه" عائد على الكتاب في الآية، وقد رجّحه بعضهم. ولكنّنا إذا استعرضنا السورة وجدنا أن

---

(١) أي هو كذلك من قبل أن يبلغ مرحلة الحياة الدنيا.

(٢) ومضافًا إليه كثير من الأدلة من القرآن والسنة على أن رسول الله بعد موته حيّ بيننا.

الإيمان بكون الكتاب من عند الله هو محورها، فهي تبدأ بتوكيد كونه منزّلاً من الله، وأنّه غير مفترًى، بل هو الحقّ من الله الذي خلق ودبّر ويعلم الغيب... وأن من يؤمن بما جاء فيه سعيد، ومن يفسق عنه فله النار. ويصعب بعد هذا الكلام الذي تناول الكتاب أن نفترض أن محمّدًا يمتري في لقائه وهو يتلقّاه وحيًا كما نرى. فإذا ما قرأنا بعد ذلك الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ ٢٣: السجدة، تبادر إلى الذهن القول: لقد آتينا موسى الكتاب عينه، أي الذي ذكرت لك يا محمّد[١]، فلا تشكّ في أنكما ملتقيان على هذا الأمر، أي أن عقيدتكما واحدة[٢]. ويبدو اعتبارُنا اللقاءَ، في الآية المذكورة، لقاءَ موسى بالعبد الصالح أكثر إحكامًا من اعتبارنا إيّاه لقاء المعراج، حيث لقاؤه في المعراج مؤكّد تمامًا بالنسبة إلى رسول الله، وممّا لايستقيم معه القول له: لا تكن في مرية من لقائه.

وأخيرًا مَنذا الذي يتعلّم منه موسى، ويمتثل له هذا الامتثال المدهش، وهو النبيّ العظيم وواحد من أولي العزم من الرسل، إلاّ سيدنا محمّد ﷺ؟ ولعلّ ممّا يؤيّد ما ذهب إليه صاحب القصص من أن العبد الصالح إنّما هو محمّد ﷺ، أنّه لا وجود لهذه القصّة في التوراة، وأن أهل الكتاب يقولون إن موسى الذي التقى العبد الصالح غير موسى النبيّ. ولعلّ السبب في ذلك أن هذا كان واضحًا لكتبة التوراة فتخلّصوا من القصّة برمّتها، أو كان ممّا لم يعلمه عن موسى إلاّ الله، وأنّه أوحى به إلى خاتم رسله ليكون في خاتم كتبه، ذي الكلمات التامّات، التي كمل بها الدين، وتمّت بها النعمة.

ولكن كيف تمّ هذا اللقاء؟

لقد تمّ لقاء محمّد وموسى حيث الكينونة الإنسانيّة منعتقة من الزمن، أي في عالم آخر غير هذا الذي نعرفه، وهو عالم غير محسوس، ممّا يعني حكماً أنّه عالم غير مرئيّ.

[تتعدّد العوالم وتتباين، وكلّ منظومة متكاملة هي عالم قائم بذاته يمكن أن يكون مستقلاً، وبديهيّ أن العوالم تتنوّع وفق كلّ الاعتبارات. ولكنّ هناك أكثر من عائق دون مصداقيّة القول

---

(١) والكتاب هنا لا يعني كتابًا بعينه كالقرآن والتوراة، بل يعني أصل ما كتبه الله، وهو التوحيد والبعث للمصير، وهذا ما نزل على كل الرسل، وما جاء في كل الكتب.

(٢) ذهب سيد قطب إلى هذا المعنى حيث قال: "... تثبيت رسول الله ﷺ على الحق الذي جاء به، وتقرير أنه الحق الواحد الثابت الذي جاء به موسى في كتابه، والذي يلتقي عليه الرسولان ويلتقي عليه الكتابان" [في ظلال القرآن تفسير الآية].

بوجود عوالم غير محسوسة، أي لا تدركها الحواسّ، ولعلّ أهمّ العوائق أنّه يتطلّب محاكمة منطقيّة، وقدرة عقليّة ليست في واقع الأمر قاسمًا مشتركًا بين الجميع. وقد يُجدي في هذا الصدد القول: علينا أن نعرف أن ما ندركه بحواسّنا ليس إلاّ جانبًا غاية في الضآلة من الأمور. والعوالم المتعددة من أحدث النظريّات في فيزياء الدقائق اليوم][1].

فالعالم المحسوس الذي نعيشه واحد من عوالم لا متناهية عددًا وطبيعة، وما يُدعى في الإسلام بالعالم الآخَر واحد منها، وهو عالم لا محسوس، أي لا يمكن إدراكه بالحواسّ التي زُوّد بها الجسد الإنسانيّ، وكذلك عالَم الجنّ والملائكة. ونستطيع أن نستعمل تعبير «اعتبار آخر» بدلاً من «عالم آخر» للتقريب، ذلك أن العوالم غير المحسوسة بالنسبة إلينا عوالم اعتباريّة أو افتراضيّة، بمعنى أن العقل يقبل وجودها، أو لا يستطيع إنكارها نظرًا لإمكانيّة وجودها. ونحن قد نكون محسوسين من قبَل عوالم غير محسوسة بالنسبة إلينا، ومن هذه العوالم ما هو أبسط من عالمنا، ومنها ما هو أكبر وأعظم وأبقى، كما أن منها ما يُتاح لنا النفوذ إليه في حالات معيّنة.

[ومن سُنّة الله الحقّ في العالم الذي نُدرك أنّه لا تداخل بينه وبين العوالم الأخرى، لأن عمليّة الإدراك مرتبطة بنظام الأسباب الذي يقوم عليه عالمنا. ولكن هذا لا يعني عدم قدرة العقل على استشراف العوالم الأخرى، والوقوف على بعض من جوانبها. وقد تحدث لقاءات بين عالم الأمر وعالم الخلق في ظروف أقرب إلى الإعجاز، ومن ذلك الإسراء برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ولقاء موسى به في قصّة العبد الصالح. فالعقل، من حيث انتماؤه إلى المطلق انتماءً معيّنًا[2]، فيه شيء من خاصيّة القاسم المشترك بين سائر العوالم كائنة ما كانت][3].

والعالم الآخر في الإسلام عالم اعتباريّ، بالنسبة إلى العقل، وقد دعا القرآن الكريم أولى مراحله بالبرزخ ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ ١٠٠: المؤمنون. والبرزخ في الذكر الحكيم حيثما ذُكر يدلّ على مساحة اعتباريّة أي غير محسوسة ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٌ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ ٢٠: الرحمن،

---

(١) من بحث «الحق المطلق» للكاتبة. وانظر محمد التكريتي: القوة الخفية ص ١٠٣ ـ ١٢٠ .

(٢) باعتباره نفخة الله في الإنسان.

(٣) من بحث «الحق المطلق» للكاتبة.

و﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ٥٣: الفرقان[١]. وقد جاءت في الأناجيل إشارات إلى هذا العالم، منها قول عيسى عليه السلام: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»[٢]، و«أنا أصل وذرية داود»[٣].

وهناك أحداث ومواقف في حياة رسول الله تمّت في برازخ اعتباريّة، ومنها معجزتا الإسراء والمعراج، حيث ذهب ﷺ في رحلة تستغرق ملايين السنين الضوئيّة في حساباتنا، وعاد وفراشه دافئ، ومنها اختفاؤه عن عينَي أمّ جميل وقد أقبلت تريد به شرًّا[٤]، ومنها خروجه ليلة الهجرة من بيته، وانطلاقه خارج مكّة رغم القرشيّين المسلّحين الذين يتربّصون به وراء الجدر وفي المنعطفات، على بعد خطوات معدودات، ليسدّوا عليه سبل الفرار...

وفي العالم من حولنا يمكن أن نشير إلى أكثر من عالم اعتباريّ أو برزخ، فمن الثابت فيزيائيًّا أنّه لا فراغ، على هذا الكوكب على الأقلّ، ونحن، رغم معرفة ذلك، نصرّ على دعوة ما هو غير مشغول بمحسوس فراغًا. وهذه اللاّمحسوسات التي تلتهم الفراغ من حولنا عوالم قائمة بذواتها، كشفَ العلم التطبيقي عن جوانب من بعضها، كما هو الشأن في عالم الدقائق: الجراثيم والبكتيريا والفايروسات الذي ظلّ عالمًا افتراضيًّا حتى تمكّن العقل الإنسانيّ من كشف بعض خباياه لدى تطويره المجاهر[٥]. ولا يزال كثير، وكثير جدًّا من العوالم افتراضيًّا لعجز العقل عن استشرافه.

إن ما جرى بين سيّدنا موسى والعبد الصالح جرى في عالم غير محسوس، فلم يكن يراهما أو يدرك ما فعلا أحد، حتى فتى موسى. ولهذا اختفى من دائرة الأحداث منذ اللحظة الأولى،

---

(١) البرزخ في الآيتين الأخيرتين قد يكون عالم قوانين الفيزياء. وهو عالم اعتباري توصّل العقل إلى بعض جوانبه. وفي هذا العالم، وفي ظل النظريات الأحدث، تسجل الفلسفة حضورًا متزايدًا، وتكاد النتائج المخبرية تُداخل الخيال. ويقف الموغل في فيزياء الدقائق اليوم على مشارف هذا البرزخ متحيرًا، بل يكاد يخر أمام ما يتراءى له من ورائها صعقًا.

(٢) إنجيل يوحنّا: ٨.

(٣) رؤيا يوحنّا: ٢٢. ونرى بعض التفصيل لذلك في قصة عيسى عليه السلام.

(٤) كان رسول الله ﷺ جالسًا إلى جدار الكعبة مع أبي بكر، وأقبلت أم جميل ثائرة تريد رجمه بحجارة تحملها، فرآها أبو بكر من بعيد، فقال: «يا رسول الله هذه امرأة بذيئة، وأخاف أن تؤذيك، فلو قمت. قال: إنها لن تراني» [ابن حبان: ٦٥١١].

(٥) وقد ظلت الأمراض الناجمة عن الجراثيم وأنواع البكتريا تعزى إلى الجن، والأرواح الشريرة، وقوى غيبية أخرى، حتى تطوير المجاهر الإلكترونية الجبارة.

وبقي موسى والعبد الصالح وحدهما، وانطلقا.

وهنا تجد الروايات مسرحًا مواتيًا، فإذا الحوت المشويّ ينتفض حيًّا، ويغوص في الماء تاركًا خلفه نفقًا مفتوحًا، ويعود موسى وفتاه بعد حين، فيدخلان ذلك النفق، ويلتئم الماء من خلفهما. وهو كلام خياليّ، لا يلزمنا به نصّ الحديث. وكلّ الأحداث التي جرت بعد ذلك من ركوب السفينة، ودخول المدينة، وقتل الغلام، تمّت في برازخ لا سبيل لنا إليها، ومثل ذلك ما رآه رسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج. وكلّ خوض في الكيفيّات في الكلام عن هذه العوالم لا يعدو كونه خيالاً.

ونقف عند قول موسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ٧١: الكهف، فما قام به العبد الصالح أمور خفيّة، فقد قتل الطفل ولم يُرَ القاتل، أو يُعرَف السبب، وخُرقت السفينة دون أن يُعرف الفاعل، ودُعِّم الجدار، وصمد دون أن يَعرف من كانوا، ولا يزالون، يرونه ما جرى. وكلّ ذلك كان يجري في بعد ثالث خارج عن نطاق فعاليّة الحواسّ، تمامًا كذلك الذي كان في إسراء رسول الله ومعراجه. ولا شكّ في أن تكهّنات كثيرة، في العالم المحسوس، قد دارت في وقتها حول هذه الأمور، كتلك التي تدور حول كلّ حدث لا تتّضح الملابسات المحيطة به.

* * *

النموذج الإسرائيليّ اليهوديّ في القرآن الكريم

جاءت عبارة بني إسرائيل في القرآن الكريم ثلاثًا وأربعين مرّة، ومن المنطقيّ أن الكتاب المبين استعملها بدلالتها السائرة في كلّ حدث يتناوله. وقد تأثّرت تلك الدلالة حكمًا بالظروف والأحداث على اختلافها، إلى أن انقرضت، أو كادت، لتفسح المكان لكلمة اليهود(١). وفي الذكر الحكيم تصريح بأن يعقوب وأبناءه أمّة قد

(١) إن دراسة لتاريخ تلك العبارة في القرآن الكريم سوف تأتي بنتائج ثمينة في جوانب كثيرة وحيويّة ترفد الأبحاث في هذا المجال. وينبغي أن تأخذ الدراسة الدلالية لمثل هذه العبارات المكانة الجديرة بها في الدراسات الجادّة لكل موضوع في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، على أن تكون بعيدة عن الخيال والهوى، ومستندة إلى مراجع ومصادر موثوق بها. وكتاب توشيهيكو إيزوتسو «بين الله والإنسان» محاولة يمكن الاستئناس بها في هذا الباب.

خلت، وأن من جاء بعدها من اليهود والنصارى ليسوا منها ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ ١٤٠ و١٤١: البقرة؟ فكلّ من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ليسوا من هؤلاء، ولا هؤلاء منهم في شيء. وإذا كان المقصود في الآية الناحية العقديّة، فإن الناحية العرقيّة ساقطة من قبلها، لما هو معروف من سقوط نظرية الصفاء العرقيّ، ولأن تاريخ هؤلاء من أسطع الأدلّة على سقوطها[1].

فالتسمية ببني إسرائيل، التي تعني أبناء يعقوب وذراريهم، لم تعد تصدق على هؤلاء من قبل عهد موسى عليه السلام[2]. ولم يشكّل المدعوّون ببني إسرائيل في يوم من الأيّام كيانًا ذا ملامح خاصّة، بل كانوا قبائل تتداخل في النسيج السكّانيّ للمناطق التي تحلّ فيها، كما كانوا في مصر[3]، وكما كانوا في بلاد الشام، بعد موسى عليه السلام، حيث كانت المنطقة تعجّ بأقوام شتّى من الغزاة والمستعمرين والسكّان الأصليّين[4]، فكان هؤلاء جزءًا من الكيان الذي يجاورونه، ولم تُعرف لهم هويّة باستثناء كونهم قبائل بدويّة وافدة.

فالذين خلعت عليهم توراة اليهود هذه التسمية كيان وهميّ قرّره كتبة التوراة، وهم شرذمة من مسبيي بابل، الذين يغلب عليهم من يزعمون أنّهم يهود، وكرّسوه في المدوّنات التي سمّوها التوراة، وادّعوا أنّها توراة موسى عليه السلام، وبدؤوا تكريسه على الأرض بعد العودة من السبي، وذلك في ظلّ الوجه الجديد للاستعمار الفارسيّ، وكجزء من سياسته في المنطقة، وكان ذلك في بدايات القرن الرابع قبل الميلاد.

وكلّ ما دوّنه أحبار يهود في السبي وما بعده، من تاريخ مجيد لبني إسرائيل في بلاد الشام وفلسطين، إنّما هو أحداث من مخزون الذاكرة العامّة عصرَئذ، جُرِّدت من

---

(١) انظر الباب الأول: في الإسرائيليات.

(٢) انظر قصة يوسف عليه السلام.

(٣) حيث كانوا طبقة من طبقات المجتمع المصريّ آنذاك.

(٤) بعد خروجهم من مصر مع موسى، تسلل هؤلاء إلى أرض كنعان، واختلطوا بالسكان كأقليّات لاجئة، وليس كفاتحين مظفّرين كما تدّعي توراة اليهود، وكانوا قبائل تعتاش من الغزو، وتشتبك بمن حولها بصورة مستمرة. ولم يشكلوا كيانًا سياسيًا إلا بعد قرون طويلة.

أزمنتها وأمكنتها وأعلامها، ثم لُفّق بينها وبين حكايات ناصلة في مخيّلات هؤلاء، بهدف صنع قاعدة، وادّعاء جذور لأمّة، من شعب كبير عريق، وأرض لم تكن لهم خاصّة في يوم من الأيام[1]، ومعتقد فكريّ واحد أقاموه على بقايا ممّا وافق مخطّطاتهم من دين موسى عليه السلام.

وأبرز سمات النموذج اليهوديّ في الذكر الحكيم :

١ ـ شدّةُ الريبة والشكّ في كلّ خبر وفي كلّ مُخبِر، ويجسّد ذلك شكّهم في الأنبياء. فما من يهوديّ حقيقيّ يؤمن بنبيّ إيمانًا حقيقيًّا ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ٨٧: البقرة. وهذا ناتج طبيعيّ للجُبن والحرصُ على الحياة.

٢ ـ عدم الإيمان إلاّ بما تراه أعينهم. ومن هنا تداخلت صورة الإله عندهم بصورة الحاكم البشريّ، فما استطاعوا أن ينزّهوه.

٣ ـ شدّة الطمع بما في أيدي الآخرين، وذلك أنّهم يرون أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه، وأن كلّ ملكه لهم.

٤ ـ العبوديّة للذهب. فاسمهم مرتبط بالسعي إلى السيطرة على ذهب الأرض في كلّ صوره، وما ذلك إلاّ ليكون لهم وسيلةً بديلة عن الحرب لتحقيق مصالحهم، وعلى رأسها حفظ أرواحهم.

٥ - شدّة القسوة على عدوّهم، وعدم تورّعهم عن النيل منه بكلّ الوسائل، كتشويه عرضه، وتناول سلوكه الشخصيّ، ولم يسلم من ذلك الأنبياء.

٦ - التكتّم واعتماد السرّيّة المُحكَمة في كلّ أمرهم. وهذا يمثّل أقصى التطرّف بالنسبة إلى ما أُمِرنا به كمسلمين، من الاستعانة على قضاء حوائجنا بالكتمان.

٧ - البراعة التي لا تُدانى في التجسّس والتلصّص، فأجهزة المخابرات اليهوديّة لا تُجارى في هذا الباب. وتحفل توراتهم بقصص مختَرَعة عن الجاسوسيّة في فتحهم العسكريّ المزعوم للممالك في بلاد الشام. وفي القرآن الكريم مثال على ذلك هو

(١) فزعموا أن الله ملّكهم إيّاها تمليكًا يتوارثونها إلى الأبد.

ما قامت به أخت موسى من دور لإعادته إلى أمّه بعد أن صار إلى القصر الملكيّ، والتقطه آل فرعون.

٨ - لا يمكن للشخصيّة اليهوديّة الوفاء بعهد قطعَته أبدًا، ويظهر نقض العهد كجزء أساسيّ من تركيبتها ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ ١٠٠: البقرة.

٩ ـ لا يواجهون عدوّهم، وإذا حملتهم ظروف قاهرة على ذلك لجؤوا إلى حسم الموقف بسرعة، معوّلين على وسائلهم المعروفة، من الاحتيال، والتجسّس، وشراء الذمم، والنخر في جسد العدوّ من الداخل خفية. ولا نجد في تاريخهم غير المزوَّر مواقع عسكريّة نزيهة ونظيفة، ولكن هزائم ماحقة، أو انتصارات رخيصة، كلّ همّهم ألاّ تكلّفهم أرواحًا.

ومن هنا كان قدَر اليهود أنّهم ما إن يحلّوا بأرضٍ حتى يسطوا على كلّ ما فيها، وينكبوا أهلها، لا يرقبون في ذلك إلاّ ولا ذمّة، فينقلب الناس عليهم بكلّ الحقد الذي تزرعه تصرّفاتها فيهم، فيبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب. والغريب في الأمر أن جمهور اليهود كان ولم يزل يتّبع الفئة الباغية، التي تحتكر القيام على شؤون العقيدة، ويعتنق تفسيرها المتوارَث حرفيًّا لتلك النكَبات، حيث يتقبّلونها على أنّها لعنة قدريّة ممّا يكرّس واقع الذلّة والمسكنة فيهم.

* * *

الفصل الثالث عشر
طالوت

عليه السلام

السلام عليك يا مولاي النبيّ الملك، في قوم دأبهم قتل الأنبياء والتنكيل بالملوك.

السلام عليك، أيّها القائد الأريب الخبير بأسباب نصر الله... السلام عليك وأنت تصطفي جندك، وتصطفي من صفوتهم، وتصطفي من صفوة الصفوة، حتى لم يبق معك إلاّ القليل الصابرون، فهزموا عدوّهم بإذن الله.

***

يتعاظم في قصص الأنبياء، بعد موسى عليه السلام، الخطّ التاريخيّ، ذو المصدر التوراتيّ الذي يفتقر إلى أدنى مصداقيّة، والروايات في مجملها خارجة من عباءته. وتُعرف الأسفار التي تغطّي قصص هؤلاء الأنبياء في توراة اليهود بالأسفار التاريخيّة، وهي أسفار تختلف طوائف من اليهود والنصارى في الأخذ بها[1].

ويرى الآخذون بنتائج الدراسات العلميّة لآثار منطقة فلسطين، والدراسات المقارنة للنصوص التاريخيّة غير التوراتيّة، أن الذين أُطلق عليهم اسم بني إسرائيل، وكانوا قبائل بدويّة تمارس الغزو فتَغلب تارةً، وتُغلب أخرى. وقد دخلوا أرض الكنعانيّين شراذمَ متفرّقة، وليس بالفتح العسكريّ كما في توراة اليهود، وأنّهم تخلّلوا النسيج السكانيّ الكنعانيّ، دون أن يظهر

---

(١) حذفت الكنيسة البروتستانتية عدة أسفار من التوراة، وقالت إنها مدسوسة عليها، كما أن اليهود السامريين لا يعترفون إلاّ بالأسفار الخمسة الأولى من التوراة. [مصطفى محمود: التوراة ص ١٣ و١٤]. وانظر الباب الأول: في الإسرائيليات.

لهم أثر حضاريّ فيه[١]. والمهمّ في الأمر أن النصوص القرآنيّة لا تُعارض نتائج هذه الدراسات من جهة، وليس فيها ما يؤيّد مزاعم التوراة من جهة أخرى، كما سوف يتبيّن لنا تباعًا.

يستفاد من توراة اليهود والروايات المعتمدة عليها أن أيّام التيه قد تطاولت ببني إسرائيل، ومات هارون وموسى، قبل أن يدخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لهم، فأرسل الله إليهم يوشَع بن نون، وقال له: «مات عبدي موسى، فقم الآن، واعبر الأردن أنت وجميع بني إسرائيل إلى الأرض التي أعطيتها لهم. كل مكان تدوسه أقدامكم أعطيه لكم كما قلت لموسى...»[٢]، فسار بهم يوشع إلى أريحا يقدمهم تابوت العهد.

أطاع بنو إسرائيل يوشَع بن نون فيما كانوا قد عصوا موسى فيه عندما أتاهم بأمر الله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾ ٢١: المائدة، فما كان ردّهم إلاّ أن قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ ٢٢: المائدة، بل بلغ بهم الجحود والجلافة أن قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ٢٤: المائدة، فسجّلوا واحدًا من أخزى المواقف في تاريخ معاملة الأنبياء، تاهوا بسببه في الأرض أربعين سنة ...

وعلى أنقاض أصحاب هذا الخطاب المتخاذل، نشأ جيلٌ أكسبته قسوة التيه شيئًا من صلابة، وأثمر فيه العقاب الربّانيّ خضوعًا للحقّ، وإذعانًا لمقتضاه. ونحن إذا ما تتبّعنا توراة اليهود وجدناها تصوّر دولة كاملة متنقّلة، بكلّ أجهزتها وشرائعها ونواميسها وأعيادها وأنظمتها المختلفة، بتفاصيل روائيّة متحرّية، تستهلك ثلثي سفر الخروج، وكامل كلٍّ من سفر اللاويّين وسفر العدد وسفر التثنية قبل أن يموت موسى وهارون عليهما السلام.

---

(١) انظر فراس السواح: آرام دمشق وإسرائيل المقدمة.

(٢) سفر يشوع: ١.

ثم تُسهب الرواية التوراتيّة في وصف ما دعته بدخول الشعب الأرض التي كتبها الله له، في نفَس ملحميّ صاخب، فالقوم كانوا أربعين ألف محارب بقيادة يوشع بن نون[1]، انحسر لهم ماء نهر الأردنّ كما انحسر ماء البحر لموسى، واحتلّوا أريحا، وخرّبوها، وقضوا على جميع سكّانها وبهائمها. كما تسهب في وصف تدميرهم لمدينة عاي وإحراقها، وقتل جميع سكّانها[2]، وما كان بينهم وبين الأموريّين وغيرهم من سكّان تلك الأرض من معارك طاحنة، انتهت باستيلائهم على المنطقة كلّها بالقوّة والقهر عسكريًّا بزعم التوراة، وقاموا بعدها بتقسيم أراضي هؤلاء في بني إسرائيل، فكان لكلّ سبط منهم حصّة.

وهذا، كما أثبتت نتائج البحوث والدراسات في آثار المنطقة وتاريخها، خرافة ممّا يعزّي به المسحوقون على أرض الواقع أنفسهم، فالمنطقة كانت تعجّ بكيانات سياسية قويّة، ولم يزد ما كان يقوم به هؤلاء على بعض المناوشات والغزوات، التي يشنّها البدو عادةً على مَن حولهم. وأوّل لقاء يمكن أن يسمى حربًا كان لقاء طالوت بالفلسطينيّينُ وهو الذي سطع فيه نجم داود عليه السلام.

وتمّ وعد الله الحقّ الذي أغرق فرعونَ العالي في الأرض، وأورثها المستضعفين ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ ١٣٧: الأعراف[3]. ولبث قوم موسى قرابة أربعة قرون، على ذمّة توراتهم، في رغد من العيش، في الأرض الموروثة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ ١٣٧: الأعراف.

وفي التوراة أن قرون الرخاء والدعة تلك، قد شهدت مبعث عدد من الأنبياء تباعًا في بني إسرائيل، كلّما مات نبيّ قام نبيّ، وكانوا على شريعة موسى. ولم يكن الأنبياء يتولّون الحكم مباشرة، ولكنّ أزمّة الأمور كلّها كانت بأيديهم، فكانوا يعيّنون

---

(١) سفر يشوع: ٤. وقد تقدّم بيان مبلغ التزوير والادّعاء، والدوافع إليه، في الأسفار التي تغطّي هذه الفترة بالذات. [انظر قصة موسى عليه السلام].

(٢) سفر يشوع: ٨.

(٣) انظر قصة موسى عليه السلام.

القضاة، وينصِّبون الملوك. وكأنّما كان يعذّب هؤلاء الأنبياء ما كان من عصيان قومهم لموسى، وتفريطهم فيما جاء به وهو بينهم، فراحوا يتحرَّون آثاره وآثار هارون وآلهما[١]، وجعلوها في تابوت خشبيّ ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ ٢٤٨: البقرة، دعته التوراة بتابوت العهد، اتّخذوه رمزًا لالتزامهم بما جاء به موسى، واتّباعهم نهجه. فكان مثابة لهم، وعنوانًا لمجدهم وانتصارهم، يستلهمونه، و يتبرّكون به.

البركة في هذا الدين باب عظيم. وتحفل السيرة النبويّة بأخبار عن بركات كانت على يدي رسول الله ﷺ، ومن ذلك خبر عن تمرات أعطاها لأبي هريرة بقيت عنده سنوات وسنوات يأكل منها.

والتبرّك بالصالحين حقّ، وهو من قبيل الاقتداء والائتمام والذكرى التي تنفع المؤمنين[٢]، ولا يلتبس التبرّك بالشرك، فالشرك أن ترجو من صالح لا من الله ربّه، وقد جاء في حديث رسول الله ﷺ: «لأنا لفتنة بعضكم أخوف عندي من فتنة الدجّال، ولن ينجو أحد ممّا قبلها إلاّ نجا منها. وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلاّ لفتنة الدجال»[٣]، وهو ذلك الذي يَلبس على الناس أمورهم، فيُحيي ويُميت، ويجيء بالمطر، وينبت الزرع... فيُفتنون به.

وليس صحيحًا أن الاهتمام بآثار النبيّ ﷺ، والحرص عليها شركٌ، فقد ثبت، أن من الصحابة من كان يتبرّك بها. ولا يمكن لأمّة تثقف التوحيد وتعيشه أن تجنح إلى عبادة هذه الآثار، وكفى الآثار النبويّة من عناية الله، أن الملائكة جاءت إلى طالوت بالتابوت، وفيه بعض ممّا ترك آل موسى وآل هارون، وهي آثار ماديّة كانت لهم، لم يعبدها أحد من بني إسرائيل قطّ.

---

(١) قيل إن من تلك الآثار عصا موسى وعمامة هارون، ونظام التوراة، وكِسَر من الألواح التي ألقاها موسى.

(٢) وقد كان خالد بن الوليد يضع في قلنسوته شُعيرات للنبيّ ﷺ.

(٣) مسند أحمد ٢٣٣٥٢.

لم تلبث المعاصي أن دبّت في بني إسرائيل بعد هذه القرون الطيّبة، وظهرت تماثيل الآلهة الغريبة فيهم، وانحرف أحبارهم ورهبانهم عن تعاليم موسى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ ٣٤: التوبة، واستشرى فيهم الفساد. وفي حديث رسول الله ﷺ: «... وإذا كثر الزنى كثر السباء، وإذا كثر اللوطية رفع الله عزّ وجلّ يده عن الخلق، فلا يبالي في أي وادٍ هلكوا»[1].

وداول الحكيم العليم الأيّام بين الناس كما يداولها أبدًا ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ ١٤٠: آل عمران. وفي التوراة أن الله سلّط على بني إسرائيل الفلسطينيّين، وهم، كما تصوّرهم التوراة، قوم خُرافيّون أشدّاء طُغاة، وكان لهم مَلك جبّار يُدعى جالوت، وأن هذا الملك اكتشف أن سرّ قوّة بني إسرائيل وغلَبتهم في التفافهم حول التابوت، فسرقه، فتخاذلوا، وذلّوا. ثم تواترت هزائمهم، حتى استيأسوا، وفقدوا الثقة بأنفسهم، وباتوا يشكّون في سلامة ما هم عليه... وكم ذا يتسرّب اليأس والقنوط إلى هؤلاء بأدنى سبب!

إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا

طال ذلّ بني إسرائيل على يد الفلسطينيّين الجبّارين، ولجؤوا أخيرًا إلى نبيّ لهم تقول التوراة إنّه كان يحكمهم، وتدعوه بصموئيل، وكان قد شاخ. وكما قالوا لموسى من قبل: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٌۚ﴾ ١٣٨: الأعراف، قالوا لنبيّهم: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ ٢٤٦: البقرة.

وقال النبيّ: ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾ ٢٤٦: البقرة؟

وسارع الملأ من بني إسرائيل إلى الادّعاء على عادتهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ ٢٤٦: البقرة[2].

---

(١) الترغيب والترهيب ٣٦٥١.

(٢) ويدل تمام الآية على أنهم لم يلتزموا ما وعدوا نبيهم "فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً" ٢٤٦: البقرة.

وفي الروايات أن سقّاء يُدعى طالوت كان قد خرج في طلب حمير له[1]، فضلّ الطريق، ومرّ بصومعة النبيّ الصالح صموئيل وهي على تلّ معروف، وكان الناس يزورونه يتبرّكون به، فدخل صومعته يستهديه السبيل. ولم نلبث أن وجدنا النبيّ صموئيل يقول لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ ٢٤٧: البقرة.

ولم يكن بدّ من أن يعترض هؤلاء: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ ٢٤٧: البقرة؟!

وقال لهم نبيّهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ ٢٤٧: البقرة.

ولا يصطفي ربُ العالمين لمال، ولكن يصطفي أصحاب القلوب ..﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ ٨٩: الشعراء. ولم يبعث طالوت ملكًا للاعتبارات التي يقرّها هؤلاء، ولكن لتلك التي ينبغي أن تكون في ملك يتولّى أمرهم، وأوّل ذلك أن يعرف من أمر شعبه ما يمكّنه من رعاية مصالحه. وكان طالوت سقّاءً يدخل كلّ بيت، وقد آتاه الله من ثاقب النظرة، وصائب الفكرة ما أعانه على معرفة قبائل شعبه ونقبائهم وأسباطهم وأسمائهم وعوائلهم، وخفايا طبائعهم، ودخائل نفوسهم، والمتواري من أحقادهم ومكايدهم، فساسهم بحكمة، وكان معهم حاكمًا فاضلاً رحيمًا.

لقد أعزّ الله طالوت، وآتاه الملك على بني إسرائيل ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ ٢٤٧: البقرة. وعلى ضوء هذا نستطيع أن نتمثّل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ٢٦: آل عمران.

وقد علم الله أنّه لا ينفع في كسب ولاء بني إسرائيل لطالوت إلاّ أن تكون آية ماديّة يرونها رأي العين، فأوحى إلى النبيّ صموئيل أن يخبرهم، أن عودة التابوت المسروق آية ودليل على أن الله هو الذي اختار طالوت ليكون ملكًا: ﴿إِنَّ ءَايَةَ

---

(١) وتذكره التوراة باسم شاؤول، ولا تذكر أنه سقاء، بل من بسطاء الناس.

مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ٢٤٨: البقرة. فمجيء التابوت الذي يجدون فيه السكينة، والذي فيه بقيّة من آثار أنبيائهم، والذي تحمله الملائكة(١)، آية على صدق ما جاء به النبيّ من أمر الله بتنصيب طالوت ملكًا.

وفي الروايات أن الله جعل التابوت وبالاً على سارقيه، فحيثما كان كانت تحلّ المصائب، حتى زهدوا فيه، ثم ضاقوا به ذرعًا، وأرادوا إبعاده إلى حيث لا يرونه بعدها أبدًا، فوضعوه على عربةٍ يجرّها ثوران، وأطلقوهما... وهكذا عاد التابوت إلى بني إسرائيل بتدبير من الله. فلمّا وجدوا التابوت أمام طالوت آمنوا أن الله بعثه لهم ملكًا، فبايعوه.

طالوت يقاتل بجند الله

صار الأمر إلى طالوت، فجمع كلمة بني إسرائيل(٢)، وحملهم على تحقيق قولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ﴾ ٢٤٦: البقرة! وراح يُعدّ لقتال جالوت، الذي أجلاهم عن فلسطين بعدما أسر عددًا كبيرًا من أشرافهم. ومن أسباب الحرب المشروعة أن يُضطهد الناس في أموالهم وديارهم وأبنائهم.

وكان طالوت الملك الحكيم، وهو من تلاميذ نبيّ الله صموئيل يعلم أن بني إسرائيل لا يملكون العدد ولا العدّة للقاء العدو، وأنّهم أورثتهم الجبنَ والخوَر سلسلة الهزائم التي مُنوا بها، وأنّه سائر بهم إلى عدوّ قاهر قادر جبّار اعتاد الانتصار عليهم، وأن معركة كهذه لا يتمّ النصر فيها بكثرة العدد والعُدة، وإنّما يقصد وجه الله، واستمطار مغفرته، فحرص على أن يختار من جيشه أولئك الذين يغلب قليل منهم الكثرةَ الكاثرة.

---

(١) ولا يُلزم النص بالقول إنهم يرون عيانًا الملائكة تحمل التابوت، بل يفيد أنه يعود إليهم من غير أن يبذلوا جهدًا في ذلك.

(٢) وكذلك فعل صلاح الدين فيما بعد، حيث كان العرب متفرقين دولاً صغيرة، فوَحَّدَهم، فمنّ الله عليه بفتح بيت المقدس، وجعل على يديه دحر الصليبيين.

وفي الروايات ذات النَّفَس التوراتيّ، التي دأبها التكثير والمبالغة في أعداد اليهود، أن طالوت جمع ثمانين ألف جنديّ لحرب جالوت وجنوده، ثم استثنى منهم أوّلاً من كان عنده بيت يبنيه، لأن قلبه سيبقى مُتعلّقًا بالبيت الذي يبني، واستثنى ثانيًا من عقد على امرأة ولم يتزوّجها، لأن قلبه سوف يبقى متعلّقًا بالمرأة التي عقد عليها، واستثنى ثالثًا من عنده تجارة، إلاّ أن تكون تجارة يوميّة، لأن قلبه سيبقى متعلّقًا بتجارته التي تركها. وهكذا بقي مع طالوت من الثمانين ألف رجل حوالي خمسمائة رجل، رأى أنّهم جند الله الذين يُستمطَر بهم نصره.

وأوغل طالوت بالجنود في الصحراء باتّجاه بيت المقدس، وكان صيفًا قائظًا، فاستبدّ بهم العطش والإعياء، ووراحوا يَعدّون، بفارغ الصبر، الخطا الباقية بينهم وبين نهر في طريقهم. وهنا فاجأهم أمر طالوت بالتوقّف، ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾ ٢٤٩: البقرة.

لقد كان طالوت يبحث عن جند الله بين جيشه الصغير الذي يقوده... والغُرفة الواحدة تكفي جنديًا خرج في سبيل الله... فقد كان جند الله من المسلمين مع محمّد ﷺ طعامهم التمرة والتمرتان. ويقول الله تعالى: ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ ٢٤٩: البقرة، فجاوز النهر بهؤلاء القليل، فلمّا رأوا ما جمع لهم جالوت من عدد وعتاد ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ ٢٤٩: البقرة.

فقال طالوت: من أراد منكم فلينكص.

فنكص منهم من نكص، وبقي نيّف وثلاثمائة رجل ممّن ظنّوا أنّهم ملاقو الله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ٢٤٩: البقرة[1].

كان طالوت، الذي اصطفاه الله ملكًا وليس له مال ولا نسب، يعرفُ أن من اختارهم هذا الاختيار العسير هم الفئة القليلة التي تغلب بإذن الله، ذلك أنّهم جند الله

(١) يلاحَظ أنه لم يقل بمشيئة الله أو بمعونة الله أو بقدرة الله. بل قال بإذن الله.

obeikandl.com

الذين تكفيهم الغُرْفَة القليلة من الماء، والتمرة الواحدة، كما رأينا في جيش العُسرة.

ووصل طالوت بجُند ربّ العالمين إلى الميدان، وإذا بجيش جالوت يسدّ الأفق، فلم يقولوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، ولكن قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ٢٥٠: البقرة... ويضيف الفرقان: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ ٢٥١: البقرة.

وإذنُ الله قانون كليّ ثابت ودائم، فقد أذن ربّ العالمين للشمس أنّها تضيء، فقانونٌ أنّها تُضيء. وأذن أن الفئة القليلة الصابرة تغلب الفئة الكثيرة، فقانونٌ أنّها تغلبها. وفي كلّ أدوار التاريخ كان يحدث أن تقاتل قلّة مؤمنة كثرةً غير مؤمنة فتنتصر عليها، وهذا باقٍ إلى يوم القيامة. فالأمر منوط بمدى كونك ربّانيًا أو رِبّيًا، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ١٤٦: آل عمران.

ويطّرد في المعارك الإسلاميّة أنّه كلّما كان الجيش المسلم قليل العدد والعدّة كان النصر حليفه، ذلك لأن المجاهدين حينئذٍ يكونون في أقصى حالات الإخلاص لله الحقّ، والثقة به، والاعتماد عليه، فيلجؤون إليه حقّ اللجوء، ويمحّصون الإخلاص له حقّ التمحيص، ويمتثلون قوله جلّ وعلا: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ ٢٠٠: النساء.

إن الهزيمة تبدأ بالوهن[1]، ويؤدّي الوهن إلى الضعف والانهيار فالاستكانة، فالذُّلّ، فالخضوع. فعندما انهزم المسلمون في أُحد، وشاع بين الناس أن محمّدًا قد قُتِل.. ثبت جند الله الربّانيّون، وخاف قوم، وضعفوا، فراحوا يفكّرون في اللجوء إلى أمثال أبي سُفيان ليأمنوا أذى قريش. وكان ذلك تصديقًا لقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ ٥٢: المائدة. **وقد نعى الله عليهم ذلك:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ ١٤٩ و١٥٠: آل عمران، **وقال:** ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ ١٥١: آل عمران، **فإذا أبو**

---

(١) وهو الخوف.

سفيان المنتصر، عندما جاءه أن محمّدًا يُعدّ ليلحق به، يولّي بجيشه المنتصر هاربًا... لقد هرب أبو سفيان بالفئة الكثيرة وهو منتصر، أمام الفئة القليلة التي ظهر عليها ونال منها. ذلك أن إذن الله أن يكون النصر الحاسم للفئة القليلة الصابرة.

قد تؤذى القلّة القليلة صاحبة الحقّ، وقد تُضطهَد، ولكنّ النصر يكون لها في نهاية الأمر، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ ١٧٣: الصافات. فحيثما وجدت لله جندًا، فاعلم أنّهم هم الغالبون. وقد عرف أعداء الأمّة الموحّدة شأن جند الله هؤلاء، وأدركوا قدرهم، وتأثيرهم، فحشدوا كلّ قواهم ليحولوا دون وجودهم في الجيوش الإسلاميّة، وفي ظلّ الاختراق الكامل الذي ترزح تحته الأمّة اليوم، جنّدوا عملاءهم من ساسة ورجال فكر وإعلاميّين ورجال أدب وفنّ في الأمّة، من أولئك الذين قضى الله أنّهم يدخلون النار بالكلمة تخرج من أفواههم، لكي يحملوا الجيوش العربيّة على الفسق تحاشيًا لأن يكون منها جند الله الغالبون.

ويتابع الذكر الحكيم: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ٢٥١: البقرة، وقد كان داود، عليه السلام من جند الله الذين اختارهم طالوت، ولمّا لم يجرؤ على مبارزة جالوتَ أحد، قال طالوت لجنده: من يقتل هذا فله بنتي وملكي.
فبرز له داود، فرماه بحجر في جبهته، فقتله، وانهزم الفلستيون أو الفلسطينيون.

***

الفصل الرابع عشر

داود عليه السلام

السلام عليك يا من آتاه الله الحكم والنبوّة، والحكمة وفصل الخطاب.

السلام عليك يامن نظر بعقله المهتدي في أمر الله في الصوت، فأوّبت معه أحوال الجبال والطير، ونظر به في ركاز الأرض، فألان الله له الحديد، فعمل سابغات تحمي صدور الرجال، وكان صاحب يد على كلّ مقاتل إلى هذه الساعة.

السلام على بصماتك الجليلة في تاريخ الإنسان، مبدعًا وقاضيًا وقائدًا لا نظير له.

* * *

نجد في الروايات المعتمِدة على توراة اليهود أن بني إسرائيل مكثوا في الأرض التي كتب الله لهم بعد يوشع أكثر من ثلاثة قرون، بلا نظام حكم ممّا كان معروفًا[1]، فقد حكمهم أنبياؤهم وقضاتهم، ولبثوا في مناوشات متواصلة مع من حولهم، وكانوا مجرّد تجمّع قبليّ فيه بقايا من التوحيد ميّزته في المحيط الوثنيّ الذي كان فيه. وكانوا يرجعون في شؤونهم إلى قادة روحيّين جلّهم من الأنبياء، ومن قادتهم الكاهن عالي. وفي زمانه غلبهم الفلسطينيّون واستولوا على تابوت العهد الذي يعتبرونه رمز عزّهم، وأيقونة انتصارهم. وقد خلف صموئيلُ الكاهن عالي، وصموئيل في القرآن الكريم نبيّ قالوا له: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ ٢٤٦: البقرة، فجعل لهم طالوتَ

(١) وهذا يضعف مصداقيّة ما زعموه، من دخولهم بلاد الشام كقوّة عسكريّة، فرضت نفسها على شعوب المنطقة. انظر قصة لوط عليه السلام.

ملكًا. وكان هذا أوّل كيان سياسيّ رسميّ إسرائيليّ، وسوف يليه أوّل قتال حقيقيّ لهم، أمّا ما زخرت به توراتهم من المعارك الملحميّة السابقة عليه، فهي نصوص إنشائيّة ليس لها ما يصدّقها كما أسلفنا.

وتورد الروايات الإسرائيليّة الكثير من تفاصيل حياة داود عليه السلام وحكمه، ولاسيّما ما يتعلّق بصلته بطالوت الملك، وهي في جملتها حكايات في فضاءات ذمّة توراة اليهود، لا يعضدها شيء من الوقائع التاريخيّة المستنبطة من آثار المنطقة، ولا نجد لها ظلاً في صورة داود التي رسمها الذكر الحكيم، وفي صورة سليمان من بعده، وهو ما سوف نفصّل القول فيه في موضعه.

وداود في توراة يهود ملك مسحه الله، ولكنها لا تُبرز صفة النبوّة فيه كما يبرزها القرآن الكريم، وفيها أنّه ملَك أربعين سنة، كان في سبع منها ملكًا على مملكة يهوذا، وفي الباقي على «كلّ إسرائيل» كما تزعم التوراة. و«كلّ إسرائيل» مملكة خياليّة عظيمة، تزعم توراة اليهود أنّها تشكّلت من اتّحاد مملكتي إسرائيل ويهوذا. ولم تُثبت البحوث العلميّة أنّها كانت في يوم من الأيّام.

نجم داود يتألّق

وفي الروايات أن طالوت كان ملكًا صالحًا، امتاز عهده بالرفاهة والاستقرار، ولكنّه لمّا وقف على الصدى الهائل الذي تركته بطولات داود، وعلى رأسها قضاؤه على جالوت، في بني إسرائيل، بدأ يخاف على ملكه منه. وحسب هذه الروايات فقد همّش احتفاء الناس بداود، الملكَ الحاكم طالوت، وأحرجه، ولم يجد إلاّ أن يقف في موضع الدفاع عن كيانه كملك[1]. وهذا شأن الملوك، بل هو أمر إنسانيّ منذ أن كُلّف آدم إلى أن تقوم الساعة، فلا يقدح في طالوت، الملك الكريم الذي اصطفاه الله، أن يجد في نفسه من داود ما وجد.

وفي الروايات أن طالوت كان قد أعلن أنّه سوف يزوّج قاتلَ جالوت ابنتَه، ويشركه في ملكه. فلمّا كان ما كان من موقف الناس وميلهم إليه، ندم طالوت على إعلانه أشدّ

(١) ولعل هذا الموقف استدعى موقف القوم منه يوم بعثه الله عليهم ملكًا، حيث قبلوا حكمه على مضض، فلما ظهر البديل من البيت الذي منه الملوك، تنكروا لطالوت، والتفوا حوله.

الندم، وجعل يُماطل في إنجاز ما وعد. وتذكر الروايات عراقيل وشروطًا أسطوريّة وضعها طالوت في طريق هذا الزواج، مخافة أن تزيد المصاهرة نجم داود علوًّا وتألُّقًا. وهكذا تردّد طالوت كثيرًا قبل أن يرضخ إلى ضرورة الوفاء بوعده.

كانت بنت طالوت على حسن وعقل وخلق، وكانت حكيمة طيّبة تليق بداود، فكان زواجهما من أسباب قيام صداقة حميمة بين داود وبين يوناثان بن طالوت، وكان شابًّا كيّسًا دمثًا واسع العقل. وزادت هذه الصداقة من شعور طالوت بخطورة صهره، فقد كان يرى ذلك الشابّ القدير يتقدّم نحو العرش بخُطًى كالقدر، ولم تلبث الكراهيّة أن تسلّلت إلى قلبه، وسيطرت عليه الرغبة في التخلّص منه، ممّا حدا به إلى تعيينه قائدًا للجند.

وراح طالوت الملك يزجّ بقائد جيشه الفذّ في أشدّ المعارك ضراوة وخطرًا، أملاً في أن يُقْتَل، فيتخلّص منه[1]... ولكنّ داود كان في كلّ مرّة يعود من تلك المهالك منتصرًا، فيُسقط في يد طالوت.

ولم تعد نوايا طالوت خافية، بل ذاع أمر كراهيّته لصهره، وقائد جيشه في الناس، وحاول يوناثان مرارًا أن يوفّق بين أبيه وبين زوج أخته وصديقه داود، الأمر الذي أحفظ طالوت، فسحب موقفه من داود على ابنه، وبلغ به الأمر أن حاول قتله.

وهنا توغل التوراة وما يعتاش عليها من الروايات في سرد أحداث أقرب إلى الملاحم والقصص الخياليّ البدائيّ، فتزعم أن طالوت قد أعيته الحيل، ولم تُجدِ وسائله في التخلّص من داود، فقرّر أن يقتله غيلةً، وقام بعدّة محاولات لذلك باءت كلّها بالفشل، فقد كان هنالك دائمًا من يُحذّر داود. وكانت آخر خطّة لطالوت أن يدخل مخدع داود فيذبحه في فراشه، وقد عرفت زوجة داود بما يدبّر أبوها عن طريق عيونها في القصر، فحذّرت زوجها ممّا ينتظره، فنجا. ولعلّها كانت وراء إخفاق محاولات أخرى قام بها أبوها للتخلّص من داود.

وفي تلك الرواية أن داود وضع في فراشه زقّ خمر، وكمنَ بحيث يرى ما سوف يكون، فتسلّل طالوت إلى المخدع، وأعمل سيفه في الزقّ، فبرز له داود، ووقف منه

---

(١) والغدر في التاريخ التوراتي ظاهرة متوارثة، بدأها أبناء يعقوب في موقفهم من يوسف ﷺ، ولم يخل منها تاريخهم قط.

موقف القادر المُدين، ولكنّه كظم غيظه، وعفا عنه. وقد هزّ الموقف طالوت ساعتئذ، فأثنى على داود، وقال له: أنت خير منّي... ظفرت بي فعفوت عني، ولو ظفرت بك لكنت قاتلك.

إن كظم الغيظ فضيلة أجزل الله تعالى ثوابها، فجعله مغفرة منه وجنّة عرضها السماوات والأرض: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ ١٣٣ و١٣٤: آل عمران. **وجاء في حديث رسول الله ﷺ: «من كظم غيظه لو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضًا»**[(١)].

ولا يقتصر ثواب كاظم الغيظ على الآخرة، ذلك أن من نواميس هذا الكون أنّه ما من رجلٍ يكظم غيظه لوجه الله، من معتدٍ أو ظالم أو سفيه أو متطاول، مع قدرته على صدّه، إلاّ نصره الله. وفي سنن أبي داود: «بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه، وقع رجل بأبي بكر فآذاه، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة، فانتصر منه أبو بكر، فقام رسول الله ﷺ حين انتصر أبو بكر، فقال أبو بكر: أوجدت عليَّ يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: نزل ملك من السماء يكذّبه بما قال لك، فلمّا انتصرت وقع الشيطان. فلم أكن لأجلس إذا وقع الشيطان»[(٢)].

وكظم الغيظ مروءة، ذلك أنّه ينطوي على جملة من الأخلاق الفاضلة، من نبل وترفّع وصون للنفس عن التدنّي وتزكية لها، ودرس للخصم، بل فرصة لإطفاء ثورته، واستلال العداوة من صدره، وكسب ودّه وولائه، وقبل ذلك كلّه الحرص على مرضاة الله. ولا يؤتى القدرة على ما يستجلب هذه الخيرات إلاّ ذو حظّ عظيم: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ٣٤ و٣٥: فصلت.

(١) الترغيب والترهيب: ٣٩٨٥.

(٢) سنن أبي داود: ٤٨٩٦ .

وتزعم الرواية التوراتيّة أن داود يئس بعد هذه الواقعة من طالوت، وآلمه ما نزل به من الظلم، فلجأ إلى الفلسطينيّين الذين كان قد قاتلهم من قبل، ودخل على ملكهم مسالمًا أعزل، ولكنّ الملك همّ بقتله، فلم يجد داود إلاّ أن يتظاهر بالجنون لإنقاذ نفسه[1]، فاكتفى الملك بإخراجه من أرضه.

وتصوّر التوراة، والروايات التي تقصّ آثارها داود مطرّدًا لا يجد مكانًا آمنًا يؤويه، فيلوذ بالصحراء، كمن يريد أن يبقى هائمًا على وجهه، ويمكث على ذلك حينًا، حتى يغدو مألوفًا لبدو المنطقة. ولا يلبث أن يلتفّ حوله الناقمون، وأصحاب الهمم المتمرّدون على الظلم، ويصبح في جيش كبير منهم.

ويستفحل أمر داود ومن معه، فيشكّل قلقًا لطالوت، فيخرج لمطاردته. وكانت الصحراء صديقة لداود ورهطه، فلم يستطع الملك وجيشه أن ينالوا منهم وطرًا. وتشاء الصدفة والاستدراج الذكيّ أن يقع طالوت مرّة أخرى تحت رحمة غريمه، ويمنّ عليه داود مرّة أخرى، فيعفو عنه ويرسله. ومن جديد يُظهر طالوت الندم ويكرّر اعترافه بأن داود خير منه لعفوه عنه. ولكنّه ما إن نجا بنفسه حتى عاد إلى قتاله. وكانت سبع سنين من نوبات القتال، فالتمكّن، فإعلان الندم، فالعودة إلى القتال من جديد.

وعندما جمع الفلسطينيّون قواهم، وهاجموا مملكة إسرائيل التي أقامها طالوت، كما تزعم التوراة، على أنقاض مملكتهم في الأرض المقدّسة، هُزم جيش طالوت العظيم، وقتل طالوت مع ثلاثة من أبنائه.

لم ينتصر الإسرائيليّون بالتابوت هذه المرّة كما ينتصرون في كلّ مرّة، على ذمّة توراة يهود. فلا ينفع التبرّك إلاّ إذا كنتَ في نطاق الحقّ المشروع، وقد أعددت لأمرك عدّته[2]. أمّا إذا ساء

---

(١) وداود، كما رأيناه حتى الآن في النصوص التوراتية، قائد عسكري، أما في القرآن الكريم فهو نبيّ لا يستقيم أن ننسب إليه التظاهر بالجنون، لأنه مما لا يجوز لنبي حتى قبل أن ينبأ. فمن النبوّة أن يعرف النبيّ قدر عقله فلا ينكره.

(٢) انظر قصة طالوت عليه السلام.

الحكم، وساءت الأمّة، واختلّ النظام السياسيّ، واختلّت الأهداف، فلم يعد القتال في سبيل الله، وصار الملِك ظالمًا أو متجبّرًا أو حاقدًا، فحينئذٍ لا يُجدي التبرّك فتيلاً. فإنّما يُنصَر القوم بعدل الإمام، وبه يُمطَرون، وبه يُخصب الزرع، وبه يتحقّق الأمن، وبه تسود الرّفاهة. فإذا ظلم الإمام ذهب كلّ ذلك، ثم توالت النكبات والهزائم.

وقد فشل المسلمون في أُحُد والنبيّ ﷺ فيهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ ١٥٢: آل عمران. **وأعرب الذكر الحكيم عن السبب:** ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ ١٥٢: آل عمران... **لقد شغلتهم الغنائم عن الهدف الأسمى، فكانت الهزيمة. ولكن كان لتلك الهزيمة ثمارها المباركة، فقد وضعت المعادن المؤمنة على النار حتى بلغت درجة الشهادة ...**﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾١٤٠: آل عمران، **وكانت السبيل إلى التمحيص** ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ١٤١: آل عمران، **وماز الله بها الخبيث من الطيّب** ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ ١٧٩: آل عمران.

هكذا انقلبت الحال في مملكة طالوت، بعد أن امتلأ قلبُهُ بالكراهيّة، وتعلّق بالدنيا، وطغى على حكمته خوفه على ملكه، فرفع الله يده عنه وعن مملكته. وعندما يفسد الناس، ولا يَنصرون الله لا ينصرهم، بل يرفع يده عنهم، ولا يُبالي في أي وادٍ هلكوا.

* * *

قُتل طالوت وأولاده الثلاثة، ومات النبيّ صموئيل، ووُجد أنّه أوصى أن ينصّب داود بعد طالوت ملكًا على بني إسرائيل. وكان داود قد لجأ إلى الفلسطينيّين، فقبلوا لجوءه هذه المرّة لأكثر من غرض، منها أن يأمنوا شرّه وشرّ مَن يتجحفلون وراءه، ومنها رجاؤهم أن يسهّل لهم هدنة مع طالوت الذي طال القتال بينه وبينهم.

وقيل إن داود أقام لطالوت وأبنائه مأتمًا عظيمًا، ورثاهم رثاءً لا نظير له فيما رثي به الملوك. وبعد انتهاء مراسم التأبين نصّب زعماء بني إسرائيل داود ملكًا. وشغب فريق منهم، فنصَّبوا أشود بن طالوت ملكًا عليهم، وقامت معارك بين الفريقين، فكانت الغلبة لداود ومن معه. وسرعان ما تطالعنا التوراة بأن مملكة داود امتدّت من النيل إلى الفرات، وأنّه استولى على الشام وفلسطين وشرقيّ الأردن، ووصل إلى نهر الفرات، واستقرّ له الملك في بني إسرائيل.

وهذا النص من الأعمدة التي كتبت التوراة من أجل تثبيتها وتكريسها. ومنذ ذلك اليوم واليهود يعتبرون أن وطنهم هو تلك المملكة التي صنعها خيال كتبة التوراة، وأنكرتها حتى الآن الوقائع الآثارية للمنطقة. ويرمز الخطّان الأزرقان في عَلَم الكيان الصهيونيّ إلى النهرين المذكورين.

داود في الذكر الحكيم

أمّا في القرآن الكريم فنحن أمام وجه آخر لداود، إنّه داود النبيّ الذي أوتي كتابًا ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ ٥٥: الإسراء. والملك الذي جعله الله خليفة في الأرض، وشدّ ملكه، والقاضي الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب، والعالم الربّانيّ، الذي أوتي قدرات نبيّة في مجال الصوت، فأوّبت معه الطير والجبال، وقدرات نبيّة في مجال الصناعة، فطوّع الحديد بإذن ربّه، ودخلت البشريّة على يديه ما عُرف بعصر الحديد، واشتُهر صنّاعه بالمهارة والابتكار، وبلغ ذلك أوجه في عصر ابنه سليمان عليه السلام.

يا جبال أوِّبي معه والطير

سخّر الله مع داود النبيّ الجبال والطير يسبّحن ويؤوّبن ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ١٨ و١٩: ص... وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ ١٠: سبأ.

لقد فتح الله بين داود وبين الطير، فكان يدرك مدلولات أصواتها.وهذا إعجاز في القدرة العقليّة، وفرادة في رهافة السمع[١]. وقد جعل الله لداود عليه السلام أذنًا معجزة،

(١) والطير لا منطق لها، وإنما هي بضعة تعبيرات، لكل منها لوين تتواضع الطير على مدلوله بالعادة، أو تقوم به كرد فعل غريزيّ على ما يتناب جهازها العصبيّ من الانبساط أو الشدة.

وعقلاً معجزًا بحيث أنّه لاحظ ذلك، واستخدم التعبيرات نفسها فكان كمن يتفاهم والطير، وفتح بينه وبين الجبال، فكان صوته أشبه بالمزمار لشدّته، وكانت الجبال تردّد صداه وترجّعه. وكان داود يتحسّس نبضَ الجبال، ويفقهه، أي ينفذ إلى ما وراء صدى صوته الذي يُرجعه الجبل، فيعرف من طبيعة الصدى أحوال الجبل، كحرارته، ووجود الكهوف فيه، ووجود النبات والإنسان على سفحه المتواري أو البعيد، ووجود الماء سائلاً أو مخزونًا فيه... قمّة لا تُدانى في القدرة على استقراء نبرة الصوت، وقراءة الصدى... ذلك ممّا آتى الله داود النبيّ عليه السلام.

إنّ لكلّ عنصر في الكون لغته، وهي تردّده الخاصّ به. وتردّدات الكون تلك أصبحت حقيقة علميّة، فما من جماد في هذا الكون، بل لكلّ شيء حياته الخاصّة به: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ٤٤: الإسراء. ويكاد يطغى على الدراسات الفيزيائيّة الحديثة الاتّجاه إلى اعتبار الكون برمّته أمواجًا من الطاقة، وهو تعبير يردّ كلّ العناصر بكافّة أنواعها وأشكالها إلى تردُّدات أصلها الحركة.

والموسيقا فنّ من فنون التصويت، فهي تطريب مصنوع بواسطة آلة، ولغة الطير والموسيقا كلاهما في أصله محاكاة لأصوات الطبيعة، وتوليف لتلك الأصوات لكي تلبّي حاجة شعوريّة لدى مبدعها طيرًا كان أو بشرًا. ولكنّ الموسيقا قابلة للتوظيف، بحيث يمكن جعلها تؤدّي حاجة شعوريّة للسامع.

ومبرّرات التحريم في الموسيقا آتية ممّا يضاف إليها، كأن يرافقها نصّ فيه ما هو محرَّم، أو يُشتطّ في اتّخاذها فتكون لهوًا ومشغلة عمّا هو نافع ومُجدٍ[1]، أو تُستخدم لهدف غير مشروع، ومن ذلك أن تُعزَف موسيقا حماسيّة في جمع يُراد تنفيره للقيام بشغَب، أو موسيقا مرقّصة تنشّط السامع وتبعثه للّهو والمجون.

ويسري على الغناء ما يسري على الموسيقا، فهو إخراج لكلام ذي معنًى بصوت فيه تطريب،

(١) والاشتطاط في اللهو مكروه ومنهيّ عنه في بعض أشكاله.

obeikandl.com

لتلبية حاجة شعوريّة لدى المبدع بالدرجة الأولى، وهو قابل للتوظيف بحيث يؤدّي حاجة شعوريّة للسامع كذلك. فإذا كانت المعاني التي يتناولها النصّ المغنّى من المحرَّمات فهو محرَّم على المبدع وعلى السامع كنصّ أصلاً، والعكس صحيح، أي إذا لم يكن في النصّ ما هو محرَّم، ووُظِّف بالغناء لما هو محرَّم كالرقص المختلط، أو لإمتاع السكارى، أو للدفع إلى أذًى معيَّن، فهو حرام، حتى لو كان النصّ: «طلع البدر علينا».

وليست إباحة الغناء في الأعراس إباحة لمحرَّم. ولعلّ ممّا يؤنس في ذلك استحباب الصوت الجميل في قراءة القرآن، واتّخاذ الحداء لتنشيط الإبل، والاستعانة بالإيقاع لدى القيام بالشاقّ من الأعمال، ولاسيّما الجماعيّ منها كالمتح والحرث والحفر. وهي ممارسات كانت حيّة في صدر الإسلام.

ويغلب أن تلازم الموسيقا الغناء، ويبقى تحريمهما مرتبطًا بما ذكرت، شأنهما في ذلك شأن أيّة أداة يُكسبها التوظيف توجُّهًا. ولكنّ توظيفهما يتطلّب حذرًا واحتياطًا وتقوى، لخطورة الجهة التي يخاطبانها، وهي عمق الشعور الإنسانيّ.

وليس في وسعنا، ولا ينبغي لنا، أن نُغفل ما أثبتته الدراسات العلميّة من استخدام الموسيقا في علاج كثير من الأمراض النفسيّة والعضويّة، وتحسين الأداء في كثير من ميادين العمل والتربية والتعليم، والأبحاث العلميّة على الحيوان والنبات. وقد قطعت الدول المتقدّمة أشواطًا أصبحت معروفة في توظيف الصوت لهذه الأغراض.

وفي الروايات أن داود قد أوتي صوتًا جميلاً، كان له أثرٌ عظيم في كلّ من يسمعه، ويصوّره كثير من الرّسامين والمثّالين ينفخ في مزمار، ويتبعه الناس والوحش والطير، كما لو كان ساحرًا. وعبارة «مزامير داود» من مفرزات هذه الفكرة التوراتيّة.

أمّا قول رسول الله ﷺ لأبي موسى الأشعريّ: «يا أبا موسى، لقد أُوتيت مزماراً من مزامير آل داود»[1]. فكناية عن حسن صوته. وقد جاء الحديث في صحيح

(١) صحيح البخاري: ٤٧٦١.

البخاريّ، وعقّب عليه ابن حجر بقوله: «المراد بالمزمار الصوت الحسن، وأصله الآلة، أطلق اسمه على الصوت للمشابهة»[1].

وألَنّا له الحديد

وممّا آتاه الله داود إلى ذلك ما جاء في الذكر الحكيم من إلانة الحديد، فكان يصنع منه الدروع ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ ١٠ و ١١: سبأ، وتعليمه تلك الصنعة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ ٨٠: الأنبياء. ويستفاد من الآيتين أنّه كان يُلين الحديد، ثم يشكّله لصنع دروع للمقاتلين.

ولكي تكون هنالك خارقة من النوع الفجّ البدائيّ، وفي سياق هاجس المَعجَزة الذي يعتاش منه أصحاب القصص والروايات، قيل إن إلانة الحديد تعني أن داود عليه السلام كان يمسك بالحديد فيغدو كالعجين بين أصابعه، فيشكّله كما يشاء دون عناء.

وإذا نحن التزمنا حدود النصّ في آيتي " سبأ " وجب أن نتوقّف عند النقطتين التاليتين:

أ: أن «له» في الآية الأولى تعني إلانةً خاصّة بداود عليه السلام. وبما أن دون القول: إنّه أوّل من فطن إلى إمكانيّة إلانة الحديد أكثر من عقبة، في النصّ أوّلاً، وفي ما هو معروف عن مادّة الحديد ثانيًا، فالإلانة الخاصّة تعني التوصّل إلى تقنيّة غير مسبوقة، تُعطي نتائج أفضل في هذا المجال.

ب: أن «أن» المفسّرة في الآية ربطت بين إلانة الحديد وعمل السابغات، فجعلت العمليّة الأولى تابعة للثانية، ووجّهت إلى أن ثقل الأمر إنّما هو في عمل السابغات، يدلّ على ذلك قوله عزّ جلّ في آية أخرى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ ٨٠: الأنبياء.

وعلى هذا يكون المعنى المستفاد من الآيات الثلاث: هديناه إلى تقنيّة تجعل الحديد أكثر طواعية، وقابليّة للتشكيل، لكي يستخدمه في صنع دروع تغطّي كامل جسد المحارب، وفي

---

(١) فتح الباري: ٥٠٤٨.

نفس الوقت تضمن له الحركة اللازمة، فلا تعوقه، ولا تتلف لدى تحرّكه. فسبقُ داود عليه السلام كان في التوصّل، بما علّمه الله، إلى تلك التقنيّة التي لم يُسبَق إليها في إلانة الحديد، وقد مكّنته تلك التقنيّة من التحكّم في ذلك المعدن، وتشكيله بالدقّة المطلوبة، لعمل دروع بالمواصفات المذكورة.

ولا تبطل المعجزة بما تقدّم، بل تكون فكريّة راقية، عندما يُفهم من الآية أن الله تعالى قد هدى داود إلى التقنيّة التي ذكرنا، ومكّنه من توظيفها في صنع الدروع وفق مواصفات عالية مقدّرة بدقّة ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ ١١: سبأ، فأتقن تلك الصنعة، حتى غدا الحديد طوع يديه، يشكّله كما يشاء، وفق ما جعل الله فيه من خصائص، وما جعل له من قوانين، أي وفق أمر الله فيه، ليصل إلى أعلى درجات الإتقان والإجادة. فهو أمر يعتمد على الصنعة أي المهارة اليدويّة، وعلى التقدير أي المهارة الذهنيّة، وليس علىإلانة الحديد فحسب.

❋

يقول الرازي عن آل داود وسليمان عليهما السلام: «استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار، واستعمال الآلات منهما»[(١)]. وفي قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجّار: ولو كان يعمل الدروع بواسطة النار لم يكن في ذلك امتنان من الله عليه، إذ كلّ الناس يعملون كذلك. اللّهمَّ إلاّ أن يدّعي مدّع أن إلانة الحديد لم تكن معروفة قبل داود، وأن الله هداه إلى هذا الأمر، الذي لم يكن معروفًا قبله. وهذا ما لا سبيل إلى تحقيقه»[(٢)].

وقول الأستاذ النجّار هذا في صلب مفهوم النبوّة الذي فصّلنا القول فيه في الباب الأوّل من الأنباء. وأمّا أنّه لا سبيل إلى تحقيقه، فينال منه توجيه الأمر بالشكل التالي: إن من نبوّة داود عليه السلام تذليله الحديد للاستعمالات البشريّة، وذلك باهتدائه إلى تليينه بطريقة الإحماء وتشكيله. ولعلّ هذا كان فاتحة للعصر الموسوم بعصر الحديد، أي أن داود عليه السلام صاحب ما يُعرف بعصر الحديد، بمعنى أنّه أوّل من ذلّل ذلك المعدن للاستعمال الحقيقيّ في الأدوات، ممّا جعله ينتشر فيشكل ظهوره سمة تطبع العصر كلّه، وتشكّل قمّة مميّزة في الخط البيانيّ لإنجازات العقل الإنساني الحضاريّة، وتلك من معجزات النبوّة التي يدعوها صاحب القصص بالبطولات.

---

(١) تفسير الآيتين ١٠ و ١٢ من سورة سبأ.

(٢) ص ٢٩٧.

obeikandi.com

ولذلك العصر أهمّيّته المعروفة في تاريخ الإنسان على هذه الأرض. ويرى العلماء أنّه فيما بين ١٢٠٠ و٧٠٠ ق. م. وهذا معقول بالنسبة إلى مجمل تحديدات عصر داود وسليمان ﷺ. كما ترجّح المصادر المؤيَّدة بنتائج البحوث الآثاريّة في منطقة فلسطين. والوحيد الذي ذكر عصر الحديد في هذا السياق، فيما اطّلعت عليه، كان الباحث فراس السواح، ولكنّه لم يفطن إلى ربطه بداود على وجه الخصوص، ولا إلى ربطه بما جاء في الذكر الحكيم عن إلانة الحديد له.

وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب

وكان تاجَ نِعم الله على داود عليه السلام ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ ٢٠: ص.[١]... عجائب وطّدت ملك داود، وأرست دعائم سلطانه في الأرض. والسلطان قمّة الملك[٢]، وهو في قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ ٣٣: الرحمن، القوّة في العلم وسائر القدرات.

القاضي المفتون

كان داود على موعد مع درس قاس من ربّ العالمين، والله الحقّ يؤدِّب أنبياءه، وقد سبق أن رأينا مثالاً على ذلك في بعض توجيهات قصّة موسى عليه السلام مع العبد الصالح. وفي رواية من الواضح أنّها صنعت لتفسير الآية، أن داود عليه السلام عندما ألقى في بني إسرائيل ما يُدعى اليوم بخطاب العرش قال فيه: والله لأعدِلنّ بينكم. ولم يستثنِ، والله الحق يقول: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ٢٣ و٢٤: الكهف... فأراد الله سبحانه وتعالى أن يُلقّنه درسًا.

وقصّ علينا الذكر الحكيم قصّة ذلك الدرس: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ

---

(١) ومن فصل الخطاب القول المحكم، الذي يقطع قول كل خطيب. فهو حكمة وبلاغة، وهو ما توصل به داود إلى أن يكون قاضيًا عادلاً وحاكمًا عظيمًا.

(٢) هناك سلطة وهناك سلطان. والسلطة للوزراء والمحافظين وضباط الجيش وضباط الشرطة. أمّا السلطان فهو للرأس الذي لا سلطة بعده، أي الذي بلغ القمّة في السلطة. وهو الملك أو الرئيس أو الأمير.

وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ ٢١ - ٢٤: ص.

وتتابع الرواية: وكان لداود عليه السلام يوم خلوة في محرابه، فلا يرى أحدًا، ولا يراه أحد. وفي ذات خلوة تسوّر عليه المحراب رجلان، أفزعه ظهورهما الغريب المفاجئ، وما كان لداود أن يُفزعه أحد، فسرعان ما تمالك وتجلّد. وبادره الرجلان: ﴿لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ ٢٢: ص.

وعرض الذي يبدو أنّه مستضعَف ظلامته: ﴿إِنَّ هَـٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ ٢٣: ص.

ولكي يكون درسًا من الحقّ جلّ وعلا أسرع داود عليه السلام يقول: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ ٢٤: ص.

وكان جوابًا لم يمحّصه داود، وكان حريًّا به أن يفعل التزامًا بما ألزم به نفسه في خطاب العرش من العدل، وصدورًا عمّا آتاه الله من الحكمة، ولكن تقدّم القلب فتنحّى العدل والحكمة... وسرعان ما تنبّه القلب النبيّ ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ٢٤: ص. وكبيرة جدًّا عند نبيّ يُحكّم أن يكتشف أنّه قد استسلم إلى قلبه حيثما وجب أن يسترشد عقله... والله غفّار لمن استغفر، توّاب على من أناب ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ٢٥: ص.

إن لكلّ فعل من العبد ردّ فعل من الله جلّ وعلا، وردّ الفعل الإلهيّ، وإن جاء في سياق خاصّ فهو قاعدة عامّة. فكلّ مسلم تُثقله ذنوبه، وكلّنا تُثقلنا ذنوبنا، فإذا قام المسلم فصلّى ركعتين سُنة التوبة، واستغفر ربّه، وأناب إليه، كما فعل داود عليه السلام، غفر الله له بإذنه.

وفي كتاب الله الكثير من المواقف والأفعال التي أعقبتها ردود فعل إلهيّة، وهي ممّا لا يفوت المؤمن الحريص على أن يكون ما بينه وبين ربّه عامرًا. ومن ذلك أن يدعو المؤمن الذي يراد به السوء بمقولة مؤمن آل فرعون ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ٤٤: غافر، **التي**

وقاه الله بها سيّئات ما مكروا ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ ٤٥ : غافر.

ومنه أيضًا أن تقول عندما تصاب بمحنة : ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ١٧٣ : آل عمران **واثقًا أنّك ستنقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسسك سوء، وذلك لما جاء في كتاب الله :** ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ ١٧٣ و ١٧٤ : آل عمران.

ومنه أن تقول إذا ما أصابك مرضٌ : ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ٨٣ : الأنبياء، **واثقًا أن الله سوف يكشف عنك الضرّ، لما جاء في كتاب الله :** ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ ٨٣ و ٨٤ : الأنبياء.

ومنه كذلك أن تقول إذا أصابتك كآبة : ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٨٧ : الأنبياء؛ **لأن الله جلّ وعلا قال وراءها :** ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٨٨ : الأنبياء.

وقال جلّ وعلا بعد هذا الدرس القاسي : ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ ٢٦ : ص.

كان ذلك نبأ الخصم الذي أتانا به كتاب الله بالحقّ، لكنّ في توراة يهود رواية أخرى... رواية من واقع دأب اليهود على تشويه سمعة أنبيائهم... تقول الرواية الإسرائيليّة : إن قصّة الخصم الذين تسوّروا المحراب على داود قصّة رمزيّة، تمثّل حاله مع أوريا أحد قادة جيشه، الذي كانت له زوجة واحدة، رآها داود تستحمّ، فأُعجب بها، ورغب فيها، رغم أن له تسعًا وتسعين زوجة. وتذهب بعض الروايات إلى أن داود زجّ بأوريا في حملة عسكريّة ميئوس من نجاحها، دون أن يقدّم التابوت بين يديه. وكان العرف في بني إسرائيل أن من يتقدّم التابوتَ ينبغي عليه الاستمرار في القتال حتى ينتصر أو يموت. وقد ثبت أُوريا في المعركة حتى قُتل، فتزوّج داود زوجته، فأرسل الله له الملكين بقصّة النعاج المذكورة ليقفه على خطئه، فيتوب ويستغفر لذنبه.

obeikandl.com

هذا ما تنسبه الرواية الإسرائيليّة إلى نبيّ قال فيه الكتاب العزيز: ...﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ٣٠: ص. وقد كان من نتائج هذه الفِرية على داود عليه السلام أن لُعن من تولّوا كِبرها منهم ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ ٧٨: المائدة.

يصوّر كتبة التوراة الأنبياء، كما يصوِّر الإغريق آلهتهم، على شاكلة أولئك المدعوّين ببني إسرائيل يأتمر بعضهم ببعض، ويتنازعون، ويمارسون الخيانة، ولا يترفّعون عن الغدر بحلفائهم وعملائهم، والإساءة إلى من يحسن إليهم. وقد قال أبو حيّان في تعليقه على قصّة القائد أوريا: ... فما حكى الله تعالى في كتابه يمر على ما أراده تعالى، وما حكى القُصّاص ممّا فيه غضّ عن منصب النبوّة طرحناه. ونحن كما قال الشاعر:

ونـؤثـرُ حكـمَ الـعقـلِ فـي كـلّ شُـبـهـةٍ   إذا آثـر الأخـبـارَ جُـلاّسُ قُـصّـاصِ[1]

وليس هذا بشيء إذا ما وقفنا على بعض ما تلصقه توراتهم بربّ العالمين، جلّ وعلا، من صفات، فهو «ربّ ندمان يفعل الفعل ثم ما يلبث أن يدرك أنّه أخطأ، ويندم عليه ويرجع عنه. وهو إله ماديّ يفرح برائحة الشواءعلى المذابح، ويدركه التعب إذا اشتغل بعض الوقت فيحتاج إلى الراحة. وهو إله عنصريّ متحيّز لا يعرف من مخلوقاته إلاّ بني إسرائيل، ويشرّع الفضائل للتداول الداخليّ بين أفراد هذه العشيرة الإسرائيليّة»[2]، ومن ذلك التحيّز ما جاء في سفر التثنية: «لا تأكلوا حيوانًا فاطسًا، تعطونه للغريب الذي في مدنكم فيأكله، أو تبيعونه لأنكم شعب مقدّس»[3].

وهذا لا ينفي وجود عبارات تصرخ بالانتماء إلى السماء، وهي من البقايا التي ظنّ كتبة التوراة ألاّ خطر من بقائها، أو أنّها ممّا تصلح لمحاجّة مكتشفي تزويرهم وبهتانهم. ولكن أنّى لشعاع مهما ضؤل أن تضيع الهوّة بينه وبين الظلام! «لذلك يقول القدوس: بمن تشبهونني وتعادلونني؟ ارفعوا عيونكم وانظروا. من خلق السماوات هذه؟ من يعد نجومها واحدة

(١) انظر البحر المحيط: تفسير الآيات ٢١ - ٢٤ من سورة ص.

(٢) مصطفى محمود: التوراة ص ٤٥.

(٣) سفر التثنية: ١٤.

obeikandl.com

واحدة؟»[1].

لهذا وأمثاله ممّا افتراه هؤلاء قال ربّ العالمين: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ١٦٧: الأعراف... قدَر لائق بقوم على هذه الشاكلة. ولهذا وأمثاله وجبت الحيطة والعلم في هذا الباب لمن يأخذ عن أهل الكتاب. وقد قال عليّ بن أبي طالب: لا أُوْتَى بأحدٍ يفسّر الآية عن داود كما قال اليهود إلاّ جلدته مائة وستين جلدة[2].

*

وإذا كان لقصّة القائد أوريا ظلّ في الواقع، فلعلّ الأمور كانت كما يلي: كان أوريا أحد كبار قادة الجيش، ومعروف أن كبار القادة وأركان الحكم لهم حضور في القصور الملكيّة، قد يصل إلى حدّ الإقامة، في حال وجود آصرة قربى، أو صداقة متميّزة. ويبدو أن أسرة القائد أوريا كانت من الأسر المقرّبة التي تختلط بالعائلة المالكة، فلمّا قُتل أوريا ـ ولعلّه كان حديث عهد بزواج، إذ لم يُذكر له ولد ـ ضمّ الملك داود عليه السلام أرملته الشابّة إلى نسائه، وهو تعويض كريم، وشرف عظيم[3].

وقد كان تقليدًا معروفًا، ولاسيّما بين عِلية القوم، أن يتزوّج الشرفاء بمن يموت أزواجهنّ أو يُستشهَدون من عِلية القوم. وقد ظلّ لهذا التقليد وجود واضح حتى أواخر الدولة الأمويّة. وكان يُعتبر إكرامًا للزوج الراحل، وحفظًا لأرملته، وتعويضًا لها، وحفاظًا على وضعها الاجتماعيّ[4].

ويعرض الذكر الحكيم حكومة داود تلك كنموذج مثاليّ لعمليتَي التقاضي والقضاء، فيتقدّم الخصمان بقضيّتهما دون الإشارة في نصّ الدعوى إلى المعتدي أو

(١) سفر إشعيا: ٤٠.

(٢) وتلك عقوبة قذف الأنبياء. وفي هذا تنبيه إلى خطأ الأخذ بالقصص التوراتي دون إعمال النظر فيه.

(٣) وفي الروايات أنه كان لداود عليه السلام مائة زوجة. ولم يكن عدد الزوجات محدّدًا عند اليهود، فلما جاء عيسى عليه السلام حدّده بواحدة، لما اقتضاه الوضع في بيئته وعصره. ثم كان الإسلام وسطًا بين الوضعين. فوضع تحديدًا يستوعب الاحتمالات كلها، ويعتمد الحكمة في اعتبار طبيعة كلا الطرفين ومصلحته، ومصلحة الأسرة كخليّة أساسيّة في المجتمع، وبالتالي مصلحة المجتمع ككل.

(٤) وقد تزوج النبي ﷺ بصفية لدى مقتل أبيها حيي بن أخطب سيّد اليهود، من قبيل ردّ الاعتبار. وتزوج سعد بن أبي وقاص بأرملة المثنى بن حارثة الشيباني بعد أن استشهد، وهو من أعظم قادة المسلمين.

المعتدى عليه، ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ٢٢: ص، وتوضع القضيّة بكامل الموضوعيّة بين يدَي القاضي.

ويلاحَظ أن المتخاصمين قد طلبا أن يُحكم بينهما بالحقّ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ ٢٢: ص... بلا ممالأة، ولا اتّباع لميل النفس. فالأصل في اللجوء إلى القضاء طلب الحقّ، لا الحصول على إذن شرعيّ بممارسة الباطل. كما هو واقع في الكثير من القضايا التي تغصّ بها المحاكم اليوم. ففي هذه القضيّة كان أحد الخصمين له تسع وتسعون نعجة، فهو صاحب الوجاهة، وترشّحه صفاته الظاهرة تلك ليكون المعتدي، أمّا الآخر، فالفقير ذو النعجة الواحدة، البادي المَسكَنة، ممّا يرشّحه لدور المعتدَى عليه. وعلى القاضي أن يحيّد ميل النفس الفطريّ إلى نُصرة الضعيف، وأن يتجرّد ليستطيع رؤية الحقّ دون تضليل الهوى.

ويقول المدّعِي المسكين لداود: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ ٢٣: ص، ولا يقول خصمي. فهذا نموذج مثاليّ للتخاصم، يشير إلى أن على طرفي النزاع أو الخصومة ألاّ يفرضا على القاضي توجُّهًا معيّنًا قد يؤثّر في حكمه، بل يعرضان من القضية ما يعرّفه بها فحسب. وعليهما بعد ذلك قبول ما يقضي به الحكَم ذو الخبرة النزيه، دون نقاش ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ٣٦: الأحزاب.

ويتابع المدّعي: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ ٢٣: ص، أي طمع فيها، وغلبني على أمري فيما ذكر من حجج، أو تهديدات، وظلّ يلاحقني بكلامه حتى انتزعها منّي..

وأمام هذا الموقف غلبت رقّةُ داود النبيّ ورأفتُه تجرُّدَ داود القاضي وموضوعيّته، وحضر القلب يحفّ به الهوى، وما كان له من مكان في مجلس القضاء، فاندفع داود ينتصر للضعيف من القويّ: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ٢٤: ص[(١)].

---

(١) يؤكد ذكرُ الخلطاء أن النعاج هنا نعاج حقيقية، وليست كناية عن النساء، ذلك أنه لا يليق ذكر الخلطاء في هذا المعرض، بل لا خلطاء فيه. وهذا لا تُسأل عنه الإسرائيليات، ولا الرواة والقصّاص، ولكن المفسرون الذين يسوقون هذه الحكايات.

وفي الروايات أن الخصمين ضحكا لدى سماعهما حكم داود، وغادرا المحراب كما دخلاه، وعندئذ أدرك داود أن هذا تدبير ربّ العالمين. وأنّه اختبار لم يكن فيه من الناجحين، ونال منه الأسف والحزن، فخرَّ راكعًا، وأناب إلى ربّه الحقّ، ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ٢٤: ص.

إن على رأس ما ينبغي للقاضي العادل أن يكون بلا قلب[1]، فيسيطر سيطرةً كاملة على أحاسيسه، وعندئذ يستطيع أن يحكم بين الناس بنزاهة فيعدل. وقلب القاضي هو ذلك الميزان الذي يُرمَز به إلى القضاء، من حيث هو أداة صمّاء، لا تتأثّر بنوع الموزون ولا تكترث لصاحبه... لهذا كانت البيِّنَة على المُدَّعِي، واليمين على من أنكر.. ولابدّ أن يسمع القاضي من الطرفين، ولا يجوز أن يجرمه شَنَآن أحد الخصمين على ألاّ يعدل .

ومن الأمثلة المضيئة على فصل الحكم عن الهوى ما يُروى من أن قومًا من الأعراب وفدوا على عمر بن الخطّاب، وفيهم قاتل أخيه زيد، وكان قد أسلم، فكان عمر يُشيح بوجهه عنه، ولمّا سأله عن ذلك قال: إنّي لا أحبّك.

قال: أمانعي هذا من حقّي؟

قال عمر: لا والله لا يمنعك.

قال: إنّما يأسى على الحب النساء.

ومنها أن عليًّا ورجلاً من المسلمين احتكما إلى عمرَ بن الخطّاب، فنادى عمر عليًّا بأبي الحسن، فظهرت الكراهة في وجه عليّ، ولمّا استوضحه عمر قال: لقد كنيتني، وخاطبت الرجل باسمه، وفي هذا محاباة لي.

---

(١) وهذا لا يلغي دور الحدس، ففراسة المؤمن مصدر من مصادر الحقيقة ينبغي ألا نستهين به، ولكن على القاضي كما على الباحث أن يحسن استخدام الحدس، وألاّ يبني عليه شيئًا قبل أن يجمع الأدلّة المصدِّقة له، والمعترف بها من قبل المنطق والعلم أولاً، والتي يستطيع حمل أصحاب الشأن عليها ثانيًا، ويستوثق لما وصل إليه بعرضه على جهة محايدة.

هذا هو الإسلام العظيم الذي أقام العدل في الأرض خمسة عشر قرنًا، ولم تعرف الدنيا أعدل من حكمه حكمًا.

وربّ العالمين الحكَم العدل ينصر الكافر العادل على المسلم الظالم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ١١٧: هود، **فلا يهلك مجتمع أهله مصلحون، يقيمون العدل فيما بينهم، ولو كان مجتمعًا مشركًا. واليوم وقد انتفى العدل بين المسلمين كان لابدّ أن يصلوا إلى ما نسمع ونرى.**

وجاء التعليق الختاميّ على نتيجة الامتحان السلبيّة، وكان لفتًا رحيمًا لداود إلى مسؤوليّته تجاه الأمانة التي حُمّلها، فقد جعله الله خليفة في الأرض بحكم كونه إنسانًا، وجعله خليفة على الناس بحكم كونه ملِكًا، فهو مطالَب مطالبة مضاعفة أن يحكم بالحقّ وينبذ الهوى ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ٢٦: ص... وهو أمر الله إلى كلّ حاكم: أن احكم بين الناس بالثابت من البيّنات، ولا تستسلم لهواك، فإنّك إن تتّبع هواك يضلّك عن الحقّ، وعاقبة ذلك العذاب الشديد يوم الحساب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ ٢٦: ص، وأمره إلى المؤمنين كافّة: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ ١٣٥: النساء.

جاء في حديث سيّد الخلق: «ليأتينّ على القاضي العدل يومَ القيامة ساعة يتمنّى أن لم يقض بين اثنين في تمرة قطّ»[(١)]، و«القضاة ثلاثة: قاضٍ في الجنّة وقاضيان في النار»[(٢)]. ولا يشفع للقاضي جهلُه، فلابدّ أن يكون عالمًا، بل مجتهدًا.

---

(١) مجمع الزوائد ٤: ١٩٢.

(٢) مجمع الزوائد ٤: ١٩٦.

ويحذّر رسول الله ﷺ المسلم مخاطر القضاء: «من قضى بالجور أو بالهوى هلك»[1]، فالهلاك هو ما يجنيه القاضي من منصبه إذا كان منحازًا، أو مرتشيًا، أو منقادًا إلى السلطة الحاكمة، يحكم بما يوافقها لا بما يقتضيه العدل. وليس سهلاً أن يستطيع قاض تجنّب ذلك، ولا سيّما عندما تكون الأمّة في حالة من البعد عن دينها كما هو حاصل اليوم، ويفقد القضاء استقلاله تمامًا، ولا يملك القضاة أن يحكموا بخلاف ما تمليه السلطات.

وهؤلاء قضاة أشقياء باعوا دينهم بدنيا غيرهم، فإذا لم يكن القاضي من القوّة بحيث يستطيع أن يحكم بما أنزل الله، بمعزل عن إملاءات السلطات أو المتنفّذين، فإن عليه أن يفرّ من القضاء، ولا يلقي بيده إلى التهلكة، ذلك أنّه لا يُقبل منه اعتذار بضعف أو بجهل.

ومن أقوال رسول الله ﷺ في القاضي والقضاء: «إن الله مع القاضي ما لم يجُر»[2]، و«يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة»[3]... ساعة عدل موجِعة، قد يقضي فيها لعدوّه على ابنه، أو على أخيه، أو على ذي قربى أثير، يعدل أجرها أجر عبادة ستّين عامًا، قام ليلها وصام نهارها... فأيّ ربح هذا!

وكلّ أجهزة الدولة مسؤولة عن عدالة القضاء، فعلى رئيس الدولة أن يُحسن اختيار وزير العدل. ومعايير ذلك معروفة، وعلى وزير العدل أن يُحسن اختيار القضاة، ومعايير ذلك معروفة كذلك. وعندما يحسن المسؤول اختيار موظّفيه، ويكون في ذلك نزيهًا وموضوعيًّا، ومراعيًا لمصلحة أمّته، فكلّ تبعات تصرّفات رجال الدولة في أثناء ممارستهم وظائفهم تكون عليهم، ولا يكون عليه من وزرها شيء، إلاّ إذا علم بظلمهم.

مضى داود عليه السلام إلى محرابه ذات سبت...

كان يريد أن يقضي يومًا في خلوة بربّه كعادته. ولكن الله كان يريد من داود أكثر من يوم...

---

(١) مجمع الزوائد ٤: ١٩٣.

(٢) صحيح ابن حبان: ٥٠٦٢.

(٣) مجمع الزوائد ٥: ١٩٧.

كان يريده أن يبقى جارًا له إلى الأبد.

وتوقّف داود في منتصف الطريق... حيث ناداه الوعد الحقّ.

وترك عليه في الآخرين: سلام على داود في المرسلين.

* * *

obeikandl.com

الفصل الخامس عشر

سُلَيمان

عليه السلام

السلام عليك يا صاحب الحياة العريضة الغنيّة الملأى بالمدهشات...

السلام عليك عبدًا أوّابًا منيبًا، وفارسًا لا يعترف بالأبعاد حتى قيل: إن لخيله أجنحة، وإن الريح تحمله وجيشه، وإنّه أُتي بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتدّ إليه طرفه.

السلام عليك وأنت تقول: وهب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي، وربّك يقول: هذا عطاؤنا، فامنن أو أمسك، بغير حساب.

السلام عليك وقد علّمك ربّك منطق الطير، وسخّر لك الريح والجنّ، وأسال لك عين القطر.

* * *

تلِحق الروايات الإسلاميّة المعوّلة على الأسفار التوراتية التاريخيّة، وما في ركابها من الروايات، قصّة سليمان بقصّة أبيه داود عليه السلام. وقد جاء في هذه المصادر أنّه كان لداود تسعة عشر ولدًا، أصغرهم سُلَيمان، وكانت تبدو عليه علامات الذكاء والنجابة والحكمة. وهناك من عباد الله مَنْ يُرزق الحكمة منذ الصغر، كيَحيى عليه السلام ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ١٢: مريم، ولذلك اختار داود سليمان للمُلك من بعده.

وقيل إن سُلَيمان كان يحضر مجالس القضاء مع أبيه وهو في الثالثة عشرة من عمره، فتعلّم أصول الحكم ممّن آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وكان له رأي سديد، وكلمة صائبة في مجالس والده. وفي الذكر الحكيم أكثر من إشارة إلى فهم

obeikandl.com

سليمان وحكمته قبل أن يؤتيه الله النبوّة ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ ٧٨ و٧٩: الأنبياء...

*

لم يكن قياد بني إسرائيل سَلِسًا، فما كانوا ينصاعون إلى ملك إلاّ إذا بهرهم بما يملك من ذهب، ومعروف موقفهم من نبوّة طالوت، حيث كان اعتراضهم الأوّل أنّه لم يؤتَ سعة من المال. فالمال والذهب عندهم أساس الملك.

سعى اليهود عبر التاريخ إلى احتكار ذهب العالم، وإعطاء أصحابه ورقًا يمثله، كالدينار والليرة والجنيه، وسيطروا بالذهب على العالم كلّه، وأصبحت الأمم أتباعًا للغربّ، ومن ورائه يهود الأرض.

وما لم يكن الغطاء الذهبيّ للعملة في خزائن الدولة تتحكّم فيه بملء إرادتها، فلا سيطرة لها على اقتصادها، ولا استقلال لقرارها، ولا اعتبار لمواقفها، ولا حريّة لها، ولسوف تبقى في أَسر القوّة الخفيّة التي تدير العالم وتتحكّم فيه. والغلبة في عالم اليوم ليست لمن يملك الجيوش والأسلحة، وإنّما الغلبة لمن يملك المال ويتحكّم في الاقتصاد.

وقد قال ربّ العالمين: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ ٤١: التوبة، **ومن الجهاد أن تجمع الدولة المال، وأن تحافظ عليه، وأن تنمّيه لأنّه على رأس أسباب القوّة للدولة والأمّة. والتفريط في أموال الدولة، وتبذيرها، ينزع البَيعة من الشعب للحاكم الذي بايعه.**

وفي الروايات، أن داود عليه السلام سأل الله أن يهديه إلى من يرث النبوّة والمُلك من أولاده، فأوحى إليه أن يختبر سُلَيمان في ملأ من الأحبار والرهبان ووجهاء الناس. وكان سُلَيمان قد اشتُهر في بني إسرائيل بأنّه مُلهَم، فكان لهذا الاختبار العلنيّ أثره في انقياد بني إسرائيل له، وطاعتهم إيّاه، وخضوعهم إليه رهَبًا، وهم الذين شقّوا عصا

الطاعة على موسى عليه السلام وهو رأس أنبيّائهم.

وتُقدّم لنا الروايات أكثر من نموذج لأسئلة الاختبار الذي خضع له سليمان عليه السلام، ومن الواضح أنّها ضرب من الإنشاء الروائيّ الساذج، الذي اختُرِع ليغطّي المناسبة المختَرَعة بدورها(١). كما تُقدّم لنا نماذج من وصايا داود له(٢).

نعم العبد إنّه أوّاب

مات داود، وورث سُلَيمان المُلك والنبوّة من بعده ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ٣٠: ص. والأوّاب المعروف بالعودة إلى الله بعد كلّ ذنب، ولدى كلّ هفوة. ذلك أن الأوبة تعني العودة من مكان بعيد. وما أبعد ما بين الذنب والاستقامة على الحقّ في المرتبة والمقام! والأوبة إلى الله تعبير عن حالة وجدانيّة تطبع المؤمن الصالح، وقد عرض الذكر الحكيم موقفين من مواقف سُلَيمان عليه السلام تجلّت فيهما هذه الصفة.

أمّا الموقف الأوّل ففي قوله جلّ وعلا: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ ٣١: ص... لقد كان سُلَيمان إلى شمائله كلّها فارسًا، ومن تمام مروءة الرجل أن يكون فارسًا. ولا شكَّ في أن داود، كنبيّ أوّلاً، وكملِك ثانيًا، قد علّم سُلَيمان الفروسيّة. وما من هواية تعقد بين الرجل وموضوع هوايته صداقة ووفاقًا كالفروسيّة. وقيل في تفسير الآية: إنّه كان لسُلَيمان مجلس وقت العصر، يستعرض فيه الجياد، ويتمتّع بالحديث في شؤونها، أمّا النصّ فيُستَفاد منه أن الجياد عُرِضت عليه، ولعلّها كانت وقوفًا صافنة ساعتئذ، وأنه أعرب عن حبّه لتلك الجياد لما في كتاب الله من تزكية لها ولمن يحبّها ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ ٣٢: ص.

---

(١) يروى أن مما سأله داود سليمانَ: يا بنيّ ما أقرب الأشياء و ما أبعدها؟

قال: أقرب الأشياء الآخرة. وأبعدها ما فاتك من الدنيا.

قال: ما آنس الأشياء، وما أوحشها؟

قال: أكثر الأشياء أُنسًا جسد فيه روح، وأكثر الأشياء إيحاشًا ووحشة جسد لا روح فيه. قال: يا بني ما أحسن الأشياء و ما أقبحها؟

قال: أحسن شيء الإيمان بعد الكفر، و أقبح شيء الكفر بعد الإيمان.

(٢) من وصايا داود لابنه سليمان: يا بني إياك والهزل فإن نفعه قليل، ويهيج العداوة بين الإخوان. وإياك والغضب، فإن الغضب يستخفّ بصاحبه، وعليك بتقوى الله وطاعته فإنهما يغلبان كل شيء، وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شيء فإن ذلك يورثك سوء الظن بالناس.

يستعمل العرب كلمة الخير للتعبير عن الخيل، وهو من عظمة تلك اللغة، واختزان كلماتها للتراث الإنسانيّ الحضاريّ والمعرفيّ[1]، والحبّ هنا ليس كذلك الذي يُبديه بعضهم للقطط والكلاب، بل هو الاهتمام والعناية، والتواصل العاطفيّ، الذي تتطلّبه تلك المخلوقات الكريمة، للقيام بوظيفتها على الوجه الأفضل، فهو في النهاية حبّ لما تعنيه من الخير، باعتبارها مراكب للمجاهدين في سبيل الله، ولما تربّيه في من يجيد ركوبها واستخدامها، من شجاعة ورجولة ونجدة واستعداد للملمّات.

وقد زكّت الكتب السماويّة الخيل، وإذا كان اليهود لم يجدوا فيها ما يستحقّ الذكر في توراتهم، ففي تلك الآية ما يدلّ على أن توراة موسى قد ذكرتها وزكّتها، وقد وجدنا في كتاب الله قسمًا بها في أنبل وأرفع حالة لها، وهي كونها مطايا للمجاهدين في سبيل الله ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ ١ - ٥: العاديات. ووجدنا في حديث رسول الله وسيرته وأثره أكثر من ذكر لها، وعلى رأس ذلك «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[2]، وفي الحديث إشارة واضحة إلى تقارض تلك المخلوقات النبيلة الاسمين الخيل والخير. ومن هنا نقف على ما أولاه هذا الدين المتكامل العظيم، من عناية بالعتاد الذي يُستعان به على إعلاء كلمة الحقّ[3].

ولو لم يكن للجياد فضل إلاّ كونها من أنجع وأسرع وسائل المواصلات لكفاها أهمّيّة، وقد بات معروفًا دور وسائل الاتّصال في تطوّر الحضارة الإنسانيّة.

ويبدو أن سليمان استسلم إلى متعته بتلك الجياد فترة استنفدت ما بقي من العشيّة ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ ٣٢: ص، أي أن الشمس غربت وهو مستغرق في تدليل جياده.

---

(١) من بحث «الكلمة واخواتها في القرآن الكريم» لصاحب القصص.

(٢) صحيح مسلم: ٩٨٧.

(٣) تأخذ المركبات الحربيّة والمدنيّة التي يمكن أن تقوم بدور الخيل في الحروب الأهمّيّة نفسها.

وفي الرواية الأشهر أنّه فاتته بذلك صلاة اعتاد أن يصلّيها قبل الغروب[١]، فأخذ منه الوجل والندم، وأسرع إلى ربّه مستغفرًا. وقيل إنّه عقر جياده التي يحبّ كفّارة عن فعلته، فما بقى أحد من بني إسرائيل إلاّ تعشّى من لحومها تلك الليلة، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ ٣٣: ص، ولعلّ في ذلك زيادة على ما ينبغي. ثم إنّه ليس من الورع أن يحمّل النبيّ الملك الحكيم مملكته وشعبه تلك الخسارة الفادحة في العتاد الحربيّ ليكفّر عن خطئه.

وقد وُجّه أكثر من نقد إلى هذه الرواية[٢]، ولعلّ الأولى أن نعتبر الحادثة شاهدًا على أوبة آبها سليمان، فقد انتبه، فألفى نفسه قد تلهّى بالجياد أكثر ممّا ينبغي لنبيّ ملك، ومثل ذلك ما أنفق في الكرسيّ من الوقت والجهد والمال، كما سوف يأتي. ولكنّه كان يؤوب إلى ربّه، ويثوب إلى رشده لدى كلّ خطأ من هذا النوع... خيط يمكن تلمّسه ودراسته في شخصيّة سليمان النبيّ الملك عليه السلام.

وأمّا الموقف الثاني الذي تجلّت فيه أوبة سليمان إلى ربّه، فقد رصده الذكر الحكيم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ ٣٤: ص[٣]. وأكثر الآراء على أن المقصود بالجسد الشيطان، وذلك استنادًا إلى حديث مرفوع بسند ضعيف[٤]. ولعلّ الجسد سليمان نفسه عندما فُتن بما لم يصرّح به النصّ، فأفقدته الفتنة، أو كادت، روح النبيّ، وأذهلته عن كثير من مهامّه، فآض جسَدًا ملقًى على كرسيّ الحكم بلا إرادة ولا تأثير.

---

(١) والحقّ أن المدة التي حدّدها النصّ هي في الأصل أقصر من أن تتسع لاستعراض الجياد والصلاة، فلعلّ ما ذهبت إليه أولى. وصلاة العصر أشد الصلاة مشقة، لأنها تكون عقيب الشوط الأكثر إرهاقًا من سبح النهار وكده، وربّما كان هذا شافعًا لمن رأى أنها الصلاة الوسطى.

(٢) انظر البحر المحيط في تفسير الآية.

(٣) وقد خاض المفسرون في هذا على غرار ما خاض بنو إسرائيل في زواج داود بزوجة القائد أوريا. وفي هذا يقول أبو حيان: " نقل المفسرون في هذه الفتنة، وإلقاء الجسد أقوالاً، يجب براءة الأنبيّاء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها " [البحر المحيط تفسير الآية ٣٤ من سورة ص].

(٤) مجمع الزوائد ٧: ٩٩. وفي رجاله متروك وضعيف.

وقد اختار صاحب القصص ما يلي: إن هذا القرآن يفسّر بعضه بعضًا، ولنا أن نستأنس بقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ ١٤٨: الأعراف، والجسَد في اللغة الذهب الخالص. فقد كان سُلَيمان، عليه السلام، يعرف سلطان الذهب على قومه، فأراد أن يَبهَرهم، ويتعاظم عليهم بما لديه منه لتخضع له أعناقهم، فيحملهم على أمر الله، وكان الملوك يتعاظمون ويتباهون بضخامة العروش، كما سوف نرى في قصّة ملكة سبأ ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ٢٣: النمل، فصنع لنفسه عرشًا جسَدًا، أي عرشًا ذهبيًّا(١).

أمّا الفتنة، فقد رأى بعض المفسّرين أنّها في مبالغة سُلَيمان في تحسين العرش حتى استغرقه ذلك، وطغى على اهتمامه، فسَها عن التوكّل، ورأى آخرون أنّها في صرف هذا القدر الهائل من الاهتمام والوقت والجهد فيما لا ينبغي لنبيّ وملك، أن يصرفه فيه، حتى لو كانت الغاية فرض هيبة الدولة، حيث يمكن أن تتحصّل تلك الغاية بما هو أقلّ كلفة من ذلك. ويقوّي هذا المذهب أنّه يشاكل فتنته بالجياد كما سبق القول.

وأيًّا ما كانت الفتنة التي فُتنها سُليمان بسبب الجياد، وبسبب الكرسيّ الذهبيّ، فقد أناب عليه السلام إلى ربّه الحقّ في المرّتين. أمّا التوّاب الرحيم، الغفّار لمن آب إليه، فقد قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ٢٥: ص. والذكر، بكلّ أنواعه من استغفار وتسبيح واسترجاع، أوبة، ذلك أنّه تعبير عن رجوعك إلى الله.

مُلك سليمان

ودعا سُلَيمان عليه السلام ربّه ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ ٣٥: ص، فاستجاب له ربّه، فغفر له، وأعطاه ملكًا فريدًا في طبيعته وعظمته لم يعطه أحدًا من بعده. وسوف نرى أن مَن فهم هذه الآية بالفكر المتشبّع بالروايات التوراتيّة جعل تفرّد مُلك سليمان في سعة مملكته، فمدّ حدود تلك المملكة ما شاء له الخيال، حتى زاد في ذلك على ما في توراة اليهود أضعافًا مضاعفة، وغفل عن أن

---

(١) وصف بعض المفسرين نقلاً عن الإسرائيليات هذا الكرسيّ وصفًا يخرجه عن حدود الواقع، ويدخله ممالك الخيال.

ملك سليمان، الذي لم يكن لأحد من بعده، هو تلك الأمور المعجزات، التي خصّه الله بها، ومكّنه منها، ويسّرها للبشريّة على يديه. وكما هو معتاد وُضع ما وهبه الله سليمان من ذلك الملك الفريد في خانة المعجزات، ممّا أطلق الخيالات فيما لا طائل تحته من الإغراب.

ولسليمان الريح عاصفة

وقد فُهم من تسخير الريح لسليمان عليه السلام أنّه كانت له خيل ذات أجنحة، وبساط يحمله وجيشه(١). وما لا ينبغي له أن يعزب عن أذهاننا، ونحن نتكلّم عن مُلك سليمان، أنّه مُلك آل داود، الذين قال فيهم الكتاب المبين: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ ١٣: سبأ، فهي دولة اتّسمت بالعلم والصناعة القائمين على عقيدة سليمة.

ونحن لا نخالف النصّ، ولا نخرج عن نطاق المعجزة، إذا رأينا أن القصد من تسخير الريح لسليمان تفطينه إلى الاستفادة من حركتها، واتّجاهها في المنطقة في مجالات مختلفة، لعلّ منها استخدام سفن ذات أشرعة في نهر الأردن، أو شواطئ البحر الميت أوالمتوسّط، يستعينون بها في الغوص على كنوز الأعماق بطريقة يحتفظون بأسرارها، فتبدو كأنّها ممّا لا يقدر عليه إلاّ الجنّ، ولعلّ منها الاستعانة بالريح في تسريع حركة المركبات ذات العجلات، عن طريق تزويدها بما يعمل عمل أشرعة السفن، ولعلّ منها استخدامها في الصناعة، فتؤجّج بواسطتها النار لإسالة النحاس المستخدم في صنع الأدوات، ولإلانة الحديد لصنع الدروع، وهي صنعة بدأها داود عليه السلام.

وهذا ليس مستبعدًا بالنسبة إلى آل داود الذين عُرفوا بالبراعة في عدد من الصناعات، وكتموا أسرارها، كما تكتم الدول اليوم أسرار اختراعاتها لدواع سياسيّة أو اقتصاديّة، فكانت تلك القوى التي سخّرها الله لسليمان خفيّة عبّر عنها الذكر الحكيم بالجنّ.

---

(١) روي أن رسول الله ﷺ رأى نموذجًا لحصان ذي جناحين من رقاع عند عائشة رضي الله عنها، فلما أبدى استغرابه قالت: «أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ قالت: فضحك رسول الله حتى رأيت نواجذه». [سنن أبي داود: ٤٩٣٢].

وتستوي في التسخير على هذا النحو الريح العاصفة ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ ٨١: الأنبياء، وتلك التي ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ ١٢: سبأ. وقد اضطربت الأقوال في تلك الأخيرة، وكلّها تحاول تحديد المجال الذي سخّرها سليمان فيه، وذلك بناء على كون غدوّها شهر ورواحها شهر، وهو ممّا لا يمكن تحديده بهذا المُعطى إلاّ بالتكلّف، ولعلّ الأولى الاكتفاء بالقول إنّها وصف لريح ممّا سخّر الله لسليمان، فهناك الريح الرُخاء، وهناك الريح العاصفة التي تهبّ باتّجاه الأرض المباركة، وهناك هذه الريح، ولكلّ ممّا ذكر مجال يستغلّه سليمان فيه، فسائرها، كما تقدّم، تجري رُخاء مواتية تيسّر أمر سليمان.

والشياطين كلّ بنّاء وغوّاص

وصف الذكر الحكيم كثيرًا من إنجازات سليمان الفائقة بمقاييس عصرها، ممّا يستقيم معه القول إنّه قام بها بمساعدة قوًى خارقة خفيّة غامضة أعطاه الله أسرار استخدامها، ومكّنه من ضبطها، والسيطرة عليها، بحيث تتمّ الاستفادة منها بشكل آمن، فكان يقَرّن الجنّ بالأصفاد، ويسخّرهم لما يريد عندما يريد، وهذا أشبه بالاستفادة من الطاقة النوويّة اليوم، فهي قوّة غير محسوسة، ولا يدلّ عليها سوى أثرها، تُقيّد بمفاعلات خاصّة، وتُضبط باتفاقيّات دوليّة، ويُحاط استخدامها بالسريّة التامّة.

وتسخير الريح وهذه القوى لسليمان بعض من الملك الذي لم يكن لأحد من بعده، وواحدة من بطولاته النبويّة، وهي تطوير وسائل الاتّصال. وقد أشار أبو حيّان عن بعد إلى هذا عندما رأى أن الجامع بين تسخير الريح والجن سرعة الانتقال(١).

عُلّمنا منطق الطير

أوتي سليمان من العلم ما مكّنه من الاستفادة من خصائص غريزيّة في بعض أنواع الطيور، وتسخيرها لشأنه، وقد عرض لنا الكتاب المبين قصّة الهُدهُد الذي يلعب دور الحمام الزاجل بين سليمان وعيون له بين ظهراني سبأ التي كانت وقتذاك إلى الجنوب من مملكة سليمان. وقيل إنّه كان يعتمد على بعض الطير في الكشف عن أماكن المياه.

---

(١) البحر المحيط: تفسير الآية ٨١ من سورة الأنبياء.

ولعلّ سليمان أوّل من هداه الله إلى استخدام الطير في هذه الشؤون، وسخّرها له، ولعلّه أوّل من طبّق ذلك عمليًا، وعلى نطاق واسع لأغراض الاتّصال، ووضعه في حيّز الاستخدام الواسع المجدي. ولا نزال نقع على طيور تلعب دور هدهد سليمان، فتكون عيونًا للملك أو الحاكم أو الساحر، على مداخل منطقة نفوذه، تطير إليه بأخبار الغرباء المتسلّلين، والمتآمرين، وذلك في الأساطير الغربيّة التي تحوّلت في مطلع القرن العشرين إلى قصص للأطفال. وهذا يعبّر عن الفهم المتوارَث لفكرة تسخير الطيور في أعمال الاستخبارات. والتي نزعم أن سليمان عليه السلام صاحبها.

وليس حجّة أن ذلك لم يَرد في توراة اليهود، فهذه التوراة بديل مصنوع لأصل يصدّقه القرآن الكريم. ومثل هذه الأوّليّات تحتفظ بأماكنها في الذاكرة الإنسانيّة، ولا سبيل إلى انتزاعها منها، لما فيها من مواءمة لفطرة العقل المبنيّة على القصد والإحكام.

وأسلنا له عين القِطر

وكما ألان الله الحديد لداود أذاب النحاس لسليمان عليه السلام: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ ١٢: سبأ، فذلك معدن عملت فيه صنعة سليمان المعجزة في ريادتها وتفوّقها، وفتحها للإنسانيّة أبواب التقدّم والرخاء. فكان يصهره، ويجعله في قوالب كما يريد، كلّ ذلك ببراعة فائقة هو رائدها. فقد أساله الله له بإذنه فيه، أي بقانونه الذي يسيل بموجبه(١). فلعلّ سليمان قد أرهص في عصر النحاس، كما أرهص أبوه في عصر الحديد، حيث ترك للناس آثارًا تدلّ على بدايات الاستفادة من هذا المعدن عن طريق الإذابة والقولبة.

وأمّا العطاء الأعظم، ممّا لا ينبغي لأحد من بعد سليمان، فهو تلك المنّة الإلهيّة ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ٣٩: ص، أي افعل بعطائنا هذا ما شئت، لا تخاف زواله أو نفاده(٢)... هكذا ذهب سُلَيمان عليه السلام بهذه الدعوة، فلا يستقيم أن

(١) انظر محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٣: ١٠٤، وسيد قطب: في ظلال القرآن تفسير الآية ٣٩ من سورة ص.

(٢) ولعل هذا أليق بالمقام مما ذهب إليه ابن كثير في قوله: "وهذا شأن النبيّ الملك، بخلاف العبد الرسول، فإن من شأنه ألا يعطي أحدًا إلاّ بإذن الله له في ذلك. وقد خيّر نبينا محمد ﷺ بين هذين المقامين، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً" [قصص الأنبياء ٣: ٤٠٠].

يدعو بها أحد بعد. وقد قال ﷺ: «إن الشيطان عرض لي، فجعل يلقي عليّ شرّ النار، فلولا دعوة أخي سليمان لأخذته»[1]. فاعترف أنّه ليس لأحد أن يُجاري سُلَيمان في هذا، لأنّه من الملك الذي سأل ربّه ألا يكون لأحد من بعده.

وكان من مُلك سليمان أن الله قد جنّد له طوائف من الجنّ والإنس والطير ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ ١٧: النمل، مسخّرين لأمره، ومنه كذلك التواصل المعجز وبعض المخلوقات كالنمل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ ١٨ و١٩: النمل.

ويستوقفنا هنا سؤال: كيف سمع سُلَيمان مقولة النملة؟

وأوّل ما يتبادر إلى الذهن أنّه ليس للنمل صوت، ولعلّ هذا يزيد الأمر بعدًا عن كون التعبير حقيقيًا... لقد سمع سُلَيمان سمْعًا ما، بطريقة ما، وكما أن لبعضهم آذانًا لا يسمعون بها[2]، فإن هنالك سمعًا لا يتمّ عن طريق الآذان، وفيه تصل الفكرة إلى رُوع المخاطب عن طرق أخرى، فهو سمْعٌ مجازيّ، كما تقول إن الملَك الموكّل بك يسمع ما تلفظ من قول. فسُلَيمان عليه السلام لم يسمع صوت النملة بالطريقة المعهودة للسمع، ولا هي تكلّمت بالطريقة المعهودة للكلام، ولكنّه علّمه الله منطقها، أي أتاح له أن يكتشف طريقة تعبيرها أيًا كانت تلك الطريقة. والدليل الأقوى على ذلك أنّه قد قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ ١٦: النمل[3]، أي هدانا الله إلى معرفة أسرار تعبيره، وأساليبه فيه، فهو تعلُّم وليس مجرّد سمع تلقائيّ. وفي كتاب الفتاوى لابن تيميّه نقرأ أن بعض الصحابة كان يسمع حديث نفس جليسه، وهو من هذا القبيل كذلك. وممّا يُذكر في هذا المجال أن العلم استطاع حلّ بعض شيفرات التخاطُب عند بعض الحيوانات كالدلافين والحيتان.

---

(١) مجمع الزوائد ٨: ٢٢٩.

(٢) إشارة إلى قوله عز وجلّ: "ولهم آذان لا يسمعون بها" ١٧٩: الأعراف.

(٣) ومنطق الطير لا يعني كلامها، بل القواعد الناظمة لتصرفاتها، التي تعتبر أساليب للتفاهم. انظر قصة داود.

فلماذا تبسّم سُلَيمان ضاحكًا ممّا قالته النملة؟

الأرجح أنّه فعل غبطة بما ينطوي عليه قولها من شهادة لجيشه بأنّه رحيم لا يبطش بأحد، ولا يؤذي أحدًا، وهو وضع نادر في الجيوش العظيمة. ولعله تبسّم غبطة بما آتاه الله من العلم بمنطقها، ومن هنا كانت تلك الشهادة قرّة عين لسليمان، ونعمة من أعظم نعم الله استشعرها النبيّ ذو القلب الشفّاف، فتبسّم لها ضاحكًا، شاكرًا للمنعم شكرًا يكاد يبلغ السجود، أو هو بالغه.

وهفا القلب النبيّ إلى الدعاء في محراب المعجزة، حيث تتجلّى قدرة القدير على كلّ شيء، ولا يريد القلبُ ساعتئذ إلاّ أن تُبلّغه رحمةُ ربّه مرتبة الشكر والاستقامة: ... ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ١٩: النمل.

الشكر من أعظم أشواق النفس الطيّبة التي أنعم الله عليها بالإخلاص لما فطرها عليه من الحقّ، فهي تتلهّف عليه، وتجد فيه من الطمأنينة والرضى ما يفوق ما تجده في النعمة نفسها، ويصبح ديدنًا بل يصبح سَمتًا. ومَهر النفس الشاكرة أن يفهم المؤمن المسلم أن الشكر توكيد للاستقامة على الحقّ، وترسيخ لهذه الاستقامة، وهو مهما بلغ من ذلك الفهم بلغ من الشكر. فأنت متى فهمت معنى الشكر أردته، ومتى أردته يسّره لك من إذا تقرّبت إليه شبرًا تقرّب إليك ذراعًا، وكنت عنده من الشاكرين.

مملكة سليمان

أبرزت نتائج الدراسات التي تمّت على الآثار في منطقة فلسطين أن التاريخ التوراتيّ، ولاسيّما ذلك الذي يتناول أمجاد المدعوّين ببني إسرائيل، ليس له صلة بما جرى على الأرض من وقائع، وأنّه لا يعدو كونه ملحمة مبتدَعة أشبه ما تكون بإلياذة هوميروس، بيد أنّه يملك من الحقيقة أسماء لرجال ومدن ومعارك، صفَّت على الصفحات كأحجار اللعب، وتمّ تحريكها وفق خطّة رسمت لتحقيق أهداف معلومة(١).

(١) انظر الباب الأول: في الإسرائيليات.

obeikandi.com

وقد كان لأخبار داود وسليمان ﷺ نصيب الأسد من ذلك التحريف والتزوير، ولاسيّما فيما يتعلّق بالمملكة العظيمة التي ورثها سليمان عن أبيه داود ﷺ، من مساحة وعظمة وبذخ وقدرة[1]، حيث «رجال إسرائيل ثمانمائة ألف رجل قادر على حمل السلاح، ورجال يهوذا خمسمائة ألف رجل»[2]، وفيما وصلت إليه جيوش سليمان من تخوم الأرض. ويجد المرء نفسه غاية في الدهشة عندما تفيد نتائج البحوث الآثاريّة أنّه لا وجود لهذه المملكة، وأن مملكة أورشليم التي ارتبط بها ذكر هيكل سليمان لم تكن قطّ أكثر من بلدة بائسة جدًّا، وأنّها بكاملها أصغر مساحة من هيكل سليمان الذي تصفه التوراة، وتزعم أنّه بناه، وأن بختنصّر خرّبه في اجتياحه المنطقة، بينما تَرجع أقدم الآثار المكتشفة لما يمكن أن يكون الهيكل إلى ما بعد العودة من السبي البابليّ، وهو تاريخ متأخّر أكثر من أربعة قرون عن التاريخ التوراتيّ الذي يحدّد زمان سليمان[3].

وكلّ ذلك أغاليط تعصف بمصداقيّة تلك التوراة، ولاسيّما عندما يتعلّق الأمر بأمجاد شعب الله المختار وعظمة إنجازاته وأثره فيما حوله. وهو ما لا يزال هؤلاء يتمسّكون به إلى اليوم، ويفرضونه على الفكر العالميّ، رغم كلّ ما انطوى عليه من الكذب والتضليل وقلب الحقائق. والصدق الوحيد فيما يدّعون أنّهم كانوا حاملي لواء الفكر، وأصحاب الأقلام، عندما كان مَن حولهم يجرّدون السيوف ويتقارضون الأرضين، ولكنّهم لم يحسنوا حمل الأمانة.

ولئن وصف الذكر الحكيم مملكة سليمان بما وصفها به من القوّة والقدرات فهو لا يعني بحال تلك المملكة التي نصّبته توراة اليهود عليها ملكًا، والتي طفقت تنفخ في أمجادها حتى بلغت بها مبلغ الخوارق. فالقرآن الكريم يستعمل كلمة "الجند والجنود"، وفعلي "حشر" و"يوزعون" وهذا يعطي انطباعًا لا يتواءم وما تدّعيه توراة يهود وأصحاب الإسرائيليّات من ضخامة عدد جيش سليمان، حيث يكون ذلك أدنى إلى الاستحالة، إلاّ إذا دُعِّمت الأسطورة بالأسطورة، وجيء ببساط الريح الذي ما أنزل الله به من سلطان.

كما أن سليمان في النصّ القرآنيّ لم يذكر ضخامة عدد جنده عندما كان يعرض قدراته في خطاب العرش، حيث قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ ١٦: النمل، ومن الطبيعيّ والمعتاد أن يُبدأ في مثل هذا المقام بأبرز الأمور، وأكثرها

---

(١) تزعم توراة اليهود أن داود وحّد مملكتي إسرائيل ويهوذا فيما دعي في بعض المصادر بـ "كلّ إسرائيل".

(٢) سفر صموئيل الثاني: ٢٤.

(٣) انظر فراس السواح: آرام دمشق وإسرائيل ص ١٤٨ - ١٥٧.

قيمة وأهميّة، وهذا ما فعله سليمان ﷺ. فذكر أوّل ما ذكر أنّه قد عُلِّم منطق الطير، وآتاه الله من فضله من كلّ شيء، وهي عبارةٌ مركز الثقل فيها الشكر، وليس ما يمكن تمحُّله من النظر في قوله «كلّ شيء»، بل إن الإجمال هذا يشي بأن تعلُّم منطق الطير عنده يفوق مدلول «كلّ شيء» الذي أشار إليه.

أمّا قوله في آية أخرى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ ٣٧: النمل، فهو أمر نسبيّ، ذلك أن سبأ لم تكن أكثر من قبيلة عربيّة تتجوّل في الجزيرة. وكانت في تلك القصّة تقيم في شماليّها، ولعلّها كانت على الحدود الجنوبيّة لمملكة سليمان. ثم إنّه لا يعني بالضرورة أنّهم لا قِبَل لهم بها لكثرتها، وهو ما تمسّك به دون سواه المتأثّرون بالفكر التوراتيّ، بل من حيث نوعيّتها وطبيعتها، في إشارة إلى جنده غير العاديّين من الجنّ والإنس والطير والريح، كما سبق القول.

وقد يقول قائل: إن إقرار القرآن الكريم بتسخير الجنّ والطير والريح لسليمان جدير بأن يجعله ملك الأرض كلّها، ومن هنا امتدّت مملكة سليمان في الروايات الإسلاميّة حتى القارّة الهنديّة، في حين أن أقصى اتّساع زعمته التوراة لها كان «من دان إلى بئر سبع»[1]، كما ورثها عن أبيه داود، وإن كان نفوذه قد تجاوز ذلك «ومدّ سليمان سلطانه على جميع الممالك من الفرات إلى أرض الفلسطيين، وحدود مصر»[2]. لم يثبت علميًّا، أي في غير التوراة، وجود تلك المملكة، كما سبق أن بيّنّا.

والأعجب من هذا كلّه أن ما جاء في الذكر الحكيم من قصّة سليمان ﷺ، بمعزل عن تأثير الفكر التوراتيّ في التفاسير، لا يصطدم بالمقطوع بصحّته من نتائج دراسات الآثار، المناقضة في جمهورها لما جاء في توراة اليهود. وإذا كان الإنصاف يقتضي ألاّ نُسلّم لنتائج البحوث والدراسات تلك تسليمًا، إلاّ أنّها عندما يعضدها ما هو معروف من فقدان مصداقيّة النصّ التوراتيّ من جهة، وعدم التعارض والنصّ القرآنيّ من جهة أخرى، تكتسب قوّة جديرة بالاعتبار، ولا يجوز تجاهلها.

(١) سفر صموئيل الثاني: ٢٤.

(٢) سفر الملوك الأول: ٥.

يبدأ الذكر الحكيم قصّة الملك الشابّ الذي ورث الحكم عن أبيه، بإلقائه خطاب العرش، وما يُعرف اليوم بخطاب العرش تقليد أقرّه الإسلام من خلال هذه القصّة، لما له من أهميّة في تحديد معالم شخصيّة الحاكم، وأسلوب سياسته للناس. فماذا قال سُلَيمان عليه السلام في خطاب العرش:

قال سليمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ ١٦: النمل... فهو أوّلاً خطاب للناس، أي لجميع فئات الشعب، ممّا يعني أن كلّ المواطنين أمام الحاكم والدستور سواء، وهو أصل في الحكم الإسلاميّ، إذ أنّه لا فرق بين مواطن ومواطن بلون أو بلغة أو بدين.

ثم جعل النبيّ الملك يعرض قدراته، وفي هذا ما يُبرز هيبة الحاكم، ويُقرّها بين الناس. وإثبات هيبة الحكم عبادة، لأن الهيبة عامل على جانب كبير من الأهميّة، في ضمان انضباط الناس، واحترامهم لإرادة الحاكم، وتقيّدهم بسياسة الدولة[1].

وتلا خطابَ العرش استعراض الجيش الذي أُمر بالاجتماع، وسيق إلى حيث يستعرضه الملك الجديد ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ ١٧: النمل. وقد تفرّد القرآن الكريم بعرض هذا الحدَث، بل مجموعة الأحداث التي تتناول إرهاصات لقاء سليمان بملكة سبأ بالتفصيل، في حين أغفلته توراة اليهود.

لقد سخّر سليمان بإذن الله فعاليّات هذه المخلوقات: الجنّ والإنس والطير، لمصالح الدولة، وقد أعطانا الذكر الحكيم أمثلة عن ذلك، فمن الطير ما جعله يضطلع بمهامّ أجهزة الاتّصالات، ومنها ما ناط به مهمّة أجهزة الاستخبارات، ومنها ما اصطنع منه قوّة جويّة تناسب الظرف. أمّا قوى الجنّ السرّيّة والفائقة فسخّرها لمهامّ قوّات الطوارئ ذات الأساليب الخاصّة، وغير المألوفة، وأمّا الرجال فاتّخذ منهم قوّة المُشاة. وقد حُشر هؤلاء من سائر أنحاء المملكة، وسيقوا إلى حيث الاحتفال بتسلّم الملك الشابّ مهامّ الحكم.

ويعرض لنا الكتاب المبين واحدًا من مشاهد هذا الاستعراض الفريد الذي يقوم به

---

(١) مما يشير إلى أهمية هيبة الحكم والحاكم نظام الحسبة في الإسلام، أو ما يسمى بديوان المظالم، وهو أن يحكم الحاكم بهيبته لإحقاق الحق في حال فقدان الدليل.

سُلَيمان عليه السلام لقوّاته، فنراه يتفقّد الطير تفقُّد المحصي الحريص، والطير تمثّل فرقة الاستخبارات، وهي عصب الجيش، وعماد العقل المُدبّر فيه، ولا جدوى من عدد الجيش وعدّته بدون الاستخبارات.

وما من شيء أخطر من أن تُخترق الجهة الاستخباراتيّة في الجيش، فهذا يجعل بأسه في بلده، ويكشف عوراته لعدوّه. والاستخبارات مصدر المعلومات الأهمّ للجيش وللدولة بشكل عامّ، فهي تكشف ما غاب من شأن العدوّ وخططه، وبذلك تتيح للبلد أن يعلم من أسرار عدوّه الغيبيّة ما يقيه بأسه، وهذا يعود على البلد بالخير والنصر ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ ١٨٨: الأعراف.

فليس الغيب صفة ذاتيّة في الأشياء والأمور، والمشاهدة كذلك، فالغيب ما غاب عن عينيك، والمشاهدة ما تشاهده وتشهده. فما هو غيب بالنسبة إليك قد يكون مشاهدة بالنسبة إليّ، وما هو غيب اليوم قد يكون مشاهدة غدًا. فعندما قال النبيّ ﷺ لأصحابه: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده. والذي نفسي بيده لَتُنْفَقَنّ كنوزُهما في سبيل الله»[1] كان قوله بالنسبة إلى الصحابة غيبًا، أمّا بالنسبة لمن عاصر تلك الأحداث فكان مشاهدة.

والآية الكريمة تقول: إذا أنت وقفت على ما غيِّب عنك استطعت الاستعداد له بما يجلب لك الخير، ويدفع عنك المباغتة بما تكره. فأن تكون على بيّنة من خفايا أوضاع عدوّك، و ما يبيّته لك من الكيد يعني أن تعرف مكامن قوّته، ومواطن ضعفه، وتكتشف مَقاتله. وهذا سلاح إضافيّ تضعه الاستخبارات في يد الحاكم.

وتعرض الآيات لمواصفات رجل الاستخبارات النموذجيّ في الهدهد، من حيث كونه ذا مظهر عاديّ لا يلفت النظر، وكونه ذكيًّا، وفي طبعه ميل إلى التنقيب

(١) صحيح البخاري: ٢٩٥٢.

والتحرّي[1]، ويتميّز بحس فطريّ بالمسؤوليّة عمّا في محيطه، ولاسيّما في ميدان عمله، ويملك معرفة واسعة ببواطن الأمور.

ولدى استعراضه قوّاته يكتشف سُلَيمان أن الهدهد ليس في موقعه الذي يُفترض أن يكون فيه بحكم وظيفته. وهنا يبرز لنا وجه الراعي المَهيب في سموّ خلق، وحُسن خطاب. فهو يسأل، أو يتساءل: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ ٢٠: النمل؟ ولا يصبّ جام غضبه عليه دون تروٍّ، بل يفسح المجال لحسن الظنّ على حسابه هو أوّلاً: تُراني لم أرَه؟

ثم يعقّب تعقيب الكيّس الأريب: أم هو غائب حقًّا؟

فلما تبيّن له أنّه غائب حقًّا عن هذا الاستعراض ذي الأهميّة البالغة، كان لا بدّ من الحزم الحكيم في معالجة الأمر، فسُلَيمان الآن في موقف المثبِّت لهيبة الحكم، وحزمُه، على ملأ من الناس، وفي الاستعراض الأوّل لقوّاته بعد تولّيه الحكم، أمرٌ لا بدّ من أن يَقرّ في النفوس. وهكذا نجد لانقلاب اللهجة من اللين والتساؤل إلى الحزم والجزم مبرِّرًا، ذلك أنّه درس عمليّ لسائر الجند: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ٢١: النمل[2].

وجئتك من سبأ بنبأ يقين

واستجاب الهدهد لاستدعاء القائد العامّ، وأسرع في الالتحاق بموقعه، ووضع نفسه تحت تصرف القيادة ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ٢٢: النمل. ثم هاهو يبرّر غيابه أمام وعيد قائده وتهديده: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ ٢٢:

---

(١) وبسبب هذا الطبع لا يأكل الهدهد من سطح الأرض، بل يمد منقاره في التراب يبحث فيما يلي السطح الظاهر. وفي هذا الطائر ولاء هائل لعائلته، حيث يُعرف بتعلقه الشديد بأنثاه، وقد رأى بعضهم أن العذاب الذي توعّده به سُلَيمان ﷺ هو التفريق بينه وبين أنثاه.

(٢) ويعني بالسلطان المبين الدليل الثابت إذا كان بيّنة لا تقبل النقاش، وإذا كان علمًا فهو نهايته، وإذا كان قوّة فهو القوّة العليا. وعندما تطلق كلمة السلطان على الحاكم فهو السلطة العليا. ومبين ليس به لبسٌ إطلاقًا، والسلطان من الكلمات المشتركة في القرآن الكريم. [من بحث «الكلمة وأخواتها في القرآن الكريم» لصاحب القصص]. وأمثال هذا الحكم في المخالفات العسكرية وارد وعادي، ولا سيّما في قطّاع المخابرات العسكرية، وفي أثناء الحروب حيث تطبّق أحكام الطوارئ.

النمل[1]... لقد كنت في مهمّة رسميّة، حصلت فيها على معلومات جديدة موثّقة تمامًا عن قبيلة سبأ[2].

سبق القول أن سبأ، التي قصّ علينا الذكر الحكيم من أنباء سليمان مع ملكتها، قبيلة عربيّة كانت تتنقّل في شمال جزيرة العرب، أي قريبًا من مملكة سليمان الحقيقيّة القديمة، لا التوراتيّة المزعومة. «وقد كان لبعض القبائل العربيّة، التي ذكرت في السجلّات الآشوريّة ملكات شهيرات محاربات»[3]، وانتهى المطاف بسبأ إلى اليمن حيث استقرت، وأسّست مملكة، بعد هذه الأحداث بما يقرب من القرن ونصف القرن[4]، أي في حوالي ٨٠٠ ق م.

وبأخذنا بهذا تكتسب الأحداث صدقيّة وواقعيّة، وتستغني عن الخارقة والمعجزة لتبرير كثير من التجاوزات، كتنقّل الهدهد عبر هذه المسافات الشاسعة، وإحضار العرش، وهذه الرحلات المتواليات، من إرسال الملكة هديّتها، إلى عودة المرسَلين إليها، إلى رحلتها بعد ذلك إلى فلسطين.

ويعرض لنا النصّ القرآنيّ التقرير الذي رفعه الضابط إلى قيادته: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ٢٣: النمل. فهؤلاء القوم تحكمهم

(١) والنبأ: هو إخبارك بما لا تستطيع معرفته إلا أن تُؤتَى به، وغالبًا ما تؤتى به من مكان بعيد. أما الخبر فإخبارك بما تستطيع معرفته بنفسك.

(٢) ويلاحظ أنه قال: أحطت، ولم يقل: علمت أو عرفتُ. فأنباء ضابط المخابرات لا بد أن تكون في هذا المستوى من الشمول واليقين والاستيفاء. وقد يقتضي الحصول على معلومات بهذا المستوى من الدقة والصحة أن يُزَجّ بضابط المخابرات في محيط العدو، وقد تنقطع صلته بقيادته فيتولى قيادة نفسه. ولذلك يكون ضباط المخابرات من الموثوق بكفاءاتهم وولائهم لحيوية دورهم في الدولة.

(٣) منهنّ الملكة شمسة والملكة زبيبة والملكة طاربو. فراس السواح: آرام دمشق وإسرائيل ١٤٥.

(٤) وهي التي عنتها الآية الكريمة "لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان..." ١٥: سبأ، وإن كان مجيء تلك الآية بعد الكلام عن موت سليمان عليه السلام قد يوهم ذلك.

امرأة ذات قدرة وقوّة ومال... ولها عرش عظيم.

ويضيف: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ٢٤: النمل[١]، فتقرير ضابط المخابرات هذا يتعلّق بعقيدة القوم، أي بأساس سياسة الدولة، وبالموضوع الأهمّ الذي تتمحور عليه مهامّ أجهزتها، بما في ذلك أجهزة الاستخبارات، وهو الدعوة إلى التوحيد. ومن هنا فالنبأ الذي جاء به ضابط المخابرات على رأس اهتمامات سُلَيمان النبيّ الملك.

ويُلاحظ أن التقرير يحمل سَمت الهدهد كرجل مخابرات، فالله هو ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ٢٥: النمل، وإخراج ما خُبّئ، والعلم بما أُسرّ على رأس اهتمامات رجل المخابرات بحكم عمله، وهو أوّل ما يتبادر إلى ذهنه من دلائل على إطلاق قدرة ربّ العالمين، وموجبات الإيمان به وإفراده بالعبادة. وفي هذا ما فيه من دلالات تنطق ببلاغة التعبير القرآنيّ وإعجازه[٢].

وقال الملك: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ٢٧: النمل، وهذا تمحيص تقتضيه الحصافة، فكلّ خبر، مهما كان مصدره، يحتمل الصدق والكذب، وعلى من بيده الأمر أن يُمحّص هذا الخبر، وهذا أمانة في عنق القيادة لضمان السلامة لها وللأمّة معًا.

ثم تمّ النظر في الأمر بالطرق المعتمدة، فلمّا اطمأنّ سُلَيمان إلى المعلومات التي جاء بها الهدهد كلّفه بالمهمّة التي كانت الغرض من الاستخبار: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ٢٨: النمل، عليك أن توصل هذه الرسالة إلى الملكة وملئها من دون أن يرَوك، وترصد خِفية كيفيّة تلقّيهم الأمر. ولعلّ بمُكنتنا أن نرى في الهدهد رسولاً، كالحمام الزاجل، بين سليمان وعيون له في قبيلة سبأ، وعلى هذا يكون كلامه عن الملكة وقومها، ممّا حمّله إيّاه أولئك الجواسيسُ من أخبار.

---

(١) وسوف نرى أن محور قصة سليمان ﷺ مع ملكة سبأ هو الدعوة إلى الإيمان. أما توراة اليهود فتجعلها مجرد زيارة ديبلوماسية ودية.

(٢) من بحث «الكلمة وأخواتها في القرآن الكريم» لصاحب القصص.

وألقى الهدهد كتاب سليمان إلى السبئيّين، وتسمَّع إلى الملكة، وقد جمعت الملأ من حولها، تقول لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ٢٩ و٣٠: النمل[1]. ولا يخفى ذلك اللين، وتلك الموافقة والإقرار التي تتوهّج في عمق كلام الملكة. لقد أدركت ملكة سبأ الحصيفة أن صاحب الكتاب الكريم كريم، ومن هنا لم يُثرها قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ ٣١: النمل. فهو لا يمكن أن يكون معتديًا ولا طامعًا في مُلك أو مال، ذلك أنه يحيّيهم برحمة رحمانٍ رحيم ملأتها تساؤلاتٍ مبهَمة.

يزوّدنا القَصص القرآنيّ بلقطات مفصليّة منتقاة، ويترك الجزئيّات يفهمها كلّ جيل وفق ما لديه من معطَيات. ولا شكّ في أن ما فهمه المسلمون عند التنزيل من هذه الآيات مرتبط بمفاهيمهم عن التجسّس وأساليبه، وأسلوب التعامل بين الحاكم ورعيّته، وطبيعة العلاقات المتبادلة بين القبائل أو الممالك المعروفة لهم. أمّا نحن فينبغي أن نفهم من النصّ أمورًا أخرى، ولو كنّا قوّة عظمى لفهمنا منه ما يتناسب وهذا الوضع.

وفي سبيل ذلك يقدّم النصّ القرآنيّ المعجز المعلومات على صورة كلّيّات ومجملات، ممّا يعطي التفاصيل مرونة لا متناهية، ويجعلها حيّة وقابلة للتوالد أبدًا، فيتّخذ الأمر شكل القاعدة، أو المفهوم الكليّ، بسبب تحرّره من قيدي الزمان والظرف.

واستقبلت ملكة سبأ، التي أوتيت من كلّ شيء، ولها عرش عظيم، الكتاب الاستفزازيّ الذي أُلقي إليها من سُلَيمان، وعرضته على ملئها، ووصفته بالكتاب الكريم، وبأنّه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ٣٠: النمل، وقرأته: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ ٣١: النمل.

---

(١) والملأ هم الطبقة الراقية المحيطة بالحاكم، تُقدم له النصح والإرشاد وتعينه. ويشكل الحاكم وملؤه فريقًا واحدًا للعمل، وكذلك كان النبيّ ﷺ مع أصحابه.

ورغم تلك الكياسة والبراعة في التِقنيّة الإداريّة والسياسيّة، فإن الأمر لم يكن بتلك البساطة، فهذا ملك يدعو القوم باسم الله إلى ترك دينهم، والخضوع إلى سلطته. وكانت الملكة غاية في الاتّزان والحكمة، وقالت لمستشاريها وقادة جيشها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ ٣٢: النمل.

ومن جديد، وكما في كلّ آية، وطيّ كلّ حدث يطالعنا درس ربّانيّ عظيم: لا يستغني ملك مهما عظُم عن استشارة ذوي الرأي من بطانته، فالمشورة حضارة. وقد أُمر بها رسول الله، وهو الموحَى إليه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ ١٥٩: آل عمران. **وهذا في واقع الأمر درس في الشورى لمن حول رسول الله، فلا حاجة فيمن يأتيه خبر السماء إلى استشارة الناس... ولكنّه قانون حقّ أراد الله أن يَقرّ في الأرض... ومحمّد الأسوة الحسنة التي تعلّم المؤمنين كيف يترقّون أنفُسًا وعقولاً** ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ١٥٩: آل عمران.

لقد استشارت ملكة السبئيّين ملأها، فما كان منهم إلاّ أن قالوا: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ٣٣: النمل؟[1]... أمّا نحن فقد أخذنا أُهبتنا للقاء العدوّ، وأمّا قرار الحرب فهو شأن سياسيّ، وتلك مهمّتك، فما أَمرت به نفّذناه.

والفصل بين السلطات، درس آخر يقدّمه لنا موقف الملكة الحصيفة من كتاب سليمان. فالحكومة الناجحة تستقلّ فيها السلطات بعضها عن بعض، ولاسيّما سلطة العسكر. ولا تزال التجارب تُثبت على امتداد التاريخ، واختلاف الأمم أن تدخُّل الجيش في سياسة الدولة يُفسد الجيش، ويدمّر البلد.

(١) القوّة: العتاد والعُدة بكل أنواعها. والبأس: الشجاعة والشدة وحسن البلاء. فالبأس قوّة المُحارب، والقوّة قوّة الأداة والآلة الحربيّة.

جعل الحكيم الخبير الناس أنماطًا، والنمط العسكريّ لا يصلح لسياسة الأمور، لأنّه نمط منفّذ، وليس نمطًا مفكّرًا، فالعسكريّ الجيّد ينفّذ ولا يفكّر، والسياسيّ الجيد يفكّر ولا ينفّذ. فإذا انقلب الأمر، فصار الساسة عسكريّين والعسكريّون ساسةً، وكلّ من عنده دبّابة ركب دبّابته ليغيّر النظام في الدولة، فالنتائج كما نراها في واقعنا اليوم كعرب ومسلمين.

إن أكبر أسباب ضعف الأمّة اليوم أن الجيوش لا تقاتل، بل تشتغل بالسياسة، فتصرف قوّتها في تكريس أنظمة الحكم وحمايتها... وقد انطلق العالم الغربيّ انطلاقته المعاصرة عندما استقلّت جيوشه عن أجهزة الحكم، ولزمت ثكناتها، وقطعت علاقتها بسياسة دولها. ومن هنا لم نسمع في يوم من الأيّام عن انقلاب في أوروبا، وتكاد الانقلابات تنحصر في الدول التي لم تبلغ من التطوّر الإداريّ أن يستقلّ القرار السياسي فيها عن سلطة العسكر، ومنها الدول الإسلاميّة التي نكبت بجيوشها، فضاعت ضياعًا لا تُحسد عليه.

وقد أبلى الفقه السياسيّ الإسلاميّ بلاءً منقطع النظير في ذلك، حيث جاء بما توصّلت إلى بعضه أحدث النظريّات في أساليب الحكم والإدارة. ولكنّ ما يؤسَف له، ونأثم به، أن الفقه السياسيّ الإسلاميّ قد مورِس عليه حجر، مباشِر أو غير مباشِر، وذلك منذ ظهور المُلك العضوض. ومع ذلك فإنّنا لا نغالي إذا قلنا إن جيوش المسلمين ظلّت ضمن الإطار الذي رأينا مثالاً عنه في قصّة سُلَيمان حتى أواسط العصر العبّاسيّ الأوّل، حيث كانت منضبطة بقياداتها، متقيّدة بمبدأ الجهاد في سبيل الله، لا يهمّها من ولي الحكم.

وقالت الملكة: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ٣٤: النمل[١]، وهذا الملك يدّعي النبوّة، ويدعو إلى عبادة إله واحد، ويطلب منّا أن نتّبعه، وننبذ آلهتنا. ولعلّه جاء طامعًا، فعليّ اختباره لكي أكون على بيّنة

(١) والقرية تعني المجتمع.

obeikandi.com

من أمره، ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ٣٥: النمل، فإذا قبل هديّتنا فهو كاذب فيما ادّعاه، وغايته المال، ولابدّ من حربه، وإذا عفّ عنها فهو صادق، ولهذا تدبير آخر.

وجاء مرسَلو الملكة بهديّتها إلى سليمان، فكان جوابه: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ ٣٧: النمل، وكان على ثقة بتأييد الله ونصره، وبأنّهم آتوه مسلمين. ويردّ التوجّه التوراتيّ ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ ٣٧: النمل، إلى ضخامة عدد الجنود، ولكن ليس إذا تذكّرنا أن جنود سليمان لا قبَل لأحد بهم، لأنّهم جنود غير عاديّين، من الجنّ والإنس والطير والريح، لا لكثرة أعدادهم، وأن كثرة العدد هنا لا ضرورة لها، فالذين سوف يسيّر إليهم سليمان جنوده ليسوا سوى قبيلة، تتجوّل جنوبيّ مملكته، كما سبق القول.

ورجع مرسَلو الملكة من عند سُلَيمان، ونقلوا إليها ما قاله الملك النبيّ: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ٣٦: النمل. وقالت الملكة المثقّفة العادلة الذكيّة: هذا دليل صدق مبين. وضمّت ذلك إلى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ٣٠: النمل، في كتاب سيّدنا سُلَيمان، وقد صارت هاجسها منذ أن سمعتها[1].

وكانت الملكة تعني ما قالته لمستشاريها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ ٣٤: النمل... وانتهى المطاف بملكة سبأ إلى أن قرّرت الشخوص إلى سُلَيمان... ورغم أن مبرّر ذلك القرار غير مصرّح به، فإنّه يمكن اعتباره حقنًا للدماء، أو استسلامًا مع الاحتفاظ بماء الوجه، ولعلّه ما أفسح الله لدعوة سليمان في قلب الملكة الحصيفة.

أيّكم يأتيني بعرشها؟

نمت إلى سُلَيمان الأخبار بسير ملكة سبأ إليه، وكان يطمع أن يأتوه مسلمين لله الذي لا إله إلاّ هو، لا مسلمين له كعدوّ منتصر. فقرّر أن يَبهَر الملكة ووفدها، بما

---

(١) والكلام في "بسم الله الرحمن الرحيم" عجب.. إنها آية الآيات.. وهذا الكون بجانبه الإيجابي في الدنيا والآخرة يسير بهذين الاسمين: الرحمن والرحيم. فكل عطاء الله في الدنيا من كونه الرحيم، وكل ما سوف يكون من عطائه في الآخرة من كونه الرحمان.

يُظهره من دلائل نبوّته، وأن يهيّئها نفسيًّا وفكريًّا لقبول دعوته دون إراقة دماء، فلجأ إلى قوّاته الخاصّة للقيام بمهمّة غير عاديّة[1]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ ٣٨: النمل؟

وتلقّى سُلَيمان عرضين لإحضار عرش الملكة: الأوّل من عِفريت من الجنّ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ ٣٩: النمل، والثاني من حكيم عنده علم من الكتاب، أي معرفة حقيقيّة، لا علاقة لها بالدجل والألاعيب الخفيّة التي تُنسب إلى الجنّ[2]: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ ٤٠: النمل. ورغم أن النصّ لم يحدّد العرض الفائز، إلاّ أن الاحتفال بالعلم، في أكثر من موضع من الحدَث، يوحي بأن الذي عنده علم من الكتاب هو الذي كُلّف بالمهمّة.

وتتداخل الأحداث في الكتاب المبين عند هذه النقطة، ويفقد الزمن وظيفته، فينقلنا النصّ المعجز البلاغة من نقطة معيّنة في المشروع إلى مقابلتها في التنفيذ، لنرى العرش وقد أُحضر إلى مجلس سليمان عليه السلام، واستقرّ حيث أراد له. ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ ٤٠: النمل... لقد أدرك سليمان أن هذا ابتلاء له: أشاكر هو لفضل الله أم كافر؟ ذلك أنّه وجد نفسه أمام خارقة خاف على نفسه أن يُفتن بها، فقد منحه الله نصرًا هائلاً بدون قتال، وهو ملك شابّ أوتي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وقد رأينا كيف فتن توسيعُ الله قارونَ من قبل، فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ ٧٨: القصص.

---

(١) في كل حربٍ معارك تتمّ خلف الستار، تنفذها قوّات غير عادية تدعى بالقوات الخاصة، أو ما يعرف بالكوماندوز، من أصحاب الكفاءات العالية، والقابليّات الخاصة، وهؤلاء يقومون بعمليات خلف خطوط القتال لإضعاف العدو، وإرباكه، وإفشال خططه، ويكون لهذه العمليات في الغالب أثرها الحاسم في إحراز النصر. ومعروفة عملية صاحب النقب المشهورة التي أدت إلى فتح القسطنطينية بعد حصار سنة كاملة.

(٢) وقيل: الذي كان على علم بكتاب سُلَيمان إلى ملكة سبأ، ولكن لفظ الآية لا يؤدي هذا المعنى، ولو كان الأمر كذلك لوجب أن يقول: عنده علم بالكتاب.

وإذا ما شكر الملوك، الذين يوفّقهم الله إلى تحقيق مكاسب ذات شأن لشعوبهم، أو يهبهم هبات ونعمًا عظيمة، زادهم الله بشكرهم إلى هباته ونعمه ما هو أهل له، ولذلك قال سُلَيمان النبيّ ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ ٤٠: النمل. وكلّ نعمة تشكرها فقد أدمتها، وأتممتها، وزدتها، ذلك أنّه بالشكر تدوم النعم. ولهذا قال النبيّ ﷺ: «من قال حين يصبح: اللّهمّ ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر فقد أدّى شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدّى شكر ليلته»[1]. والشكر من لبّ العقيدة، فأن تشكر الله على عمل قمت به يعني أنّك مؤمن حقًّا أن الله هو الخالق والمدبّر والمولى، وأنّك لا حول لك ولا قوّة إلاّ به.

وآل داود مشهورون بالشكر، مشهود لهم به في الكتاب المجيد: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ ١٣: سبأ، ولسُلَيمان شكر خالد، من أعظم وأشمل ما يتوجّه به المؤمن إلى ربّه عندما يجد نفسه أمام أمر منّ الله به عليه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ١٩: النمل.

ملكة سبأ في بلاط سليمان

ويواصل الذكر الحكيم القصّة. فنرى أن الاستعدادات قد بدأت لاستقبال الملكة العظيمة، وأن سُلَيمان قرّر أن يكون عرشها الذي حدّثه عنه الهدهد في استقبالها، ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾ ٤١ و٤٢: النمل.

(١) سنن أبي داود: ٥٠٧٣.

اضطرب المفسّرون في تنكير عرش ملكة سبأ، ممّا أتاح للقصّاصين وأصحاب الروايات حريّة الخوض في ذلك بلا ضابط، إلاّ الإغراب بقصد الجذب، وقد حملهم الروح التوراتيّ في القصّ على التمسّك بالظاهر المباشر من الكلمات، فقرّروا أن العرش نُقل من اليمن إلى مملكة سليمان قبل أن يرتدّ إليه طرفه. أمّا الذي عنده علم من الكتاب، فقد تمّ التعتيم على صفة العلم لديه، رغم الأخذ بظاهر النصّ، فبدا لنا كمن يملك عصا سحريّة تعمل بطريقة لا تُفهَم، وفي بعض الروايات وُصف بأنّه رجل صالح، وأنّه دعا الله فجاءه العرش من فوره.

وهناك، على الأقل، أمران يثيران الشكّ في التأويل الأكثر اعتمادًا، والقائل إن العرش نُقل من مقرّ الملِكة إلى بلاط سليمان:

١ ـ لا مبرّر، وفق هذا التأويل، للتّنافس بين العفريت والذي عنده علم من الكتاب، في سرعة إحضار العرش، ذلك أن رحلة الملِكة إلى سليمان تستغرق ما يفوق الوقت المحدَّد في العرضين، سواء أكانت في اليمن، أو في شمال الجزيرة العربيّة، وسليمان لم يطلب سوى أن يكون العرش عنده لدى وصولها لتُفاجأ به؟!

٢ ـ لا مبرّر لعمليّة تغيير بعض تفاصيل العرش، ولا معنى لمحاولة تضليل صاحبته، فالمعجزة في وجوده عند سليمان. بل من الأدلّ على عظمة المعجزة أن يكون غير منكّر فتقول: إنّه هو، لا كأنّه هو. والقصص الموضوعة لتبرير عمليّة التنكير مفتعلة وساذجة، ويكفي أنّها اضطرت واضعيها إلى تزويج سليمان بالملِكة، لإكساب دعاواهم مصداقيّة.

٣ ـ إن عدم وجود ذكر لنقل العرش في حديث صحيح، وفي توراة اليهود، ممّا يصرف الذهن عن وجود ما هو لافت في الموضوع. ومَنذا الذي يمسك توراة يهود عن إبراز ذلك الحدث، وهم يقولون عن سليمان إنّه ساحر؟[1] ولو فهم من تلا رسول الله القرآن بين ظهرانيهم أن العرش قد حُمل من سبأ إلى فلسطين لسألوا، ولكان في ذلك كلام. فكلّ ما في الأمر أن نسخة عن العرش مطابقة له كانت في مجلس النبيّ الملك، الذي أوتي العلم من لدن عليم حكيم، ويريد أن يكون فعله هذا آية على ما آتاه الله من فضله.

---

(١) أخرج ابن جرير عن شهر بن حوشب قال: قال اليهود: انظروا إلى محمد يخلط الحقّ بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، إنما كان ساحرًا يركب الريح. [ذكره السيوطي والرازي وغيرهما في تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة]. ويأتي تفصيل ذلك تحت عنوان سليمان والسحر.

obeikandl.com

وليس ثمّة ما يمنع من أن نلتزم الواقعيّة ما أمكنتنا معطيات النصّ من ذلك، لنتأوّل الأمر كما يلي: الأرجح أن الهدهد يلعب في القصّة دور وسائل الاتّصال السريّة في جهاز التجسّس التابع لسليمان، لما في ذلك من الملاءمة لوضعه ككلّ، وأن تفقُّد سليمان له، وسؤاله عنه، إنّما هو تفقّد لفعاليّات هذا الجهاز. وأن ما أجاب به الهدهد حكايةٌ عمّا يحمل إلى سليمان من معلومات بعثت بها عيونه في الخارج. وكانت معلومات عن سبأ وحاكمتها، وسلطان تلك المرأة في قومها. ولكي لا نبتعد عن تسلسل النصّ يمكن القول إن الهدهد كان قد حمل إلى سليمان من قبل، خبر عرش الملكة، باعتباره مَعلَمًا مميَّزًا من معالم سلطانها.

ويقرّر سليمان دعوة تلك المرأة وقومها إلى الإسلام، فلا تقابل عرضه بالرفض، بل وتحاول اختباره، فترسل إليه بهديّة فيردّها، ويبدو كمن اعتبرها مقابلاً للكفّ عن عرضه، حيث نراه يتوعّد القوم بإخضاعهم بالقوّة، ثم ينتهي الأمر بأن تتلافى الملكة الحصيفة المواجهة فتشخص بنفسها إلى سليمان، ويرى أن يُعدَّ لها مفاجأة تضمن أن تدين له دون جدال أو مراء، ويعرض خطّته على مستشاريه، وهم مختارون لمثل هذه الأمور، ويطلب منهم أن يقفوا على صفة عرش الملكة، ويصنعوا عرشًا مطابقًا له بحيث تتوهّم أنه هو، ممّا يَبهَرها، ويقلّلها في عين ذاتها أمام قدراته وقدرات مملكته.

ويقدّم اثنان من المختصّين عرضين لتوفير المعلومات المطلوبة، واحد من الجنّ يعتمد على ألاعيب وقوًى خفيّة، وآخر من ذوي العلم، يأخذ العلم من مصادره الأوّليّة الحقيقيّة. ويفوز عرض العالِم، ولا يذكر النصّ كيفيّة تنفيذ ذلك العرض، ولعلّ صاحبه اعتمد على عيون المملكة في سبأ لتُمدّه بالمعلومات، ومثّلهم في النصّ الهدهد الرسول، ثم استنبط منها بفراسته المتميّزة الفائقة صفة العرش بالتفصيل.

حشر سليمان صنّاعه الذين أوتوا وإيّاه العلم من قبل، وكانوا مسلمين[1] ليستمعوا إلى ذلك الذي عنده علم من الكتاب، يصف لهم العرش كما لا بدّ أن يكون، بناء على ما لديه من المعلومات اليقينيّة، فكانوا كمن يُبصرونه بأعينهم. ثم يأمر سليمان فيصنعوا عرشًا وفق الوصف المذكور، فيكون من الدقّة بحيث تقول صاحبته: كأنّه هو[2].

---

(١) وصنّاع آل داود معروفون بما كانوا يصنعون لداود، ولهم تحت قيادة سُلَيمان تجربة مجيدة في صنع العروش، فقد سبق أن صنعوا له الكرسيّ الذهبيّ العظيم الذي تناقلت الأجيال صفته.

(٢) وهذا مدلول قوله: "نكروا لها عرشها" ٤١: النمل، أي ائتوا به من المطابقة للأصل بحيث يبدو كأنه الأصل منكّرًا، وهذا أقصى وجه للشبه. انظر الباب الأول: المعجزة.

وعلى هذا تكون العمليّة أشبه بما يقوم به الفنّيون، في مجال التحقيق في الجرائم المجهولة الفاعل، حيث يعتمدون على المعلومات المجموعة من مصادر شتّى، لرسم صورة للمجرم الهارب، أو لوضع تصوّر لكيفيّة وقوع الجريمة.

ويمتاز هذا التأويل بأنّه يُبقي على الحدَث في سياق الاستخبارات الذي هو أصله، ولا يخرجه، بالجنوح إلى الخوارق، عن نطاق العلم، وهو الصِبغ الذي يفرضه على مجمل الصورة وَصفُ صاحب العرض الفائز بالذي عنده علم من الكتاب، وقول سليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ ٤٢: النمل.

لقد كانت للذي عنده علم من الكتاب وسيلته إلى الاطّلاع على عرش ملكة سبأ. ونحن نرى اليوم أن تقدُّم الرياضيّات في مجال علم الاحتمالات يمكّن من الوصول إلى تفاصيل غاية في الدقّة في مطابقة الواقع. وليس ببعيد أن هذا الذي عنده علم من الكتاب قد توصّل إلى معرفة صفة العرش باستخدام علم الاحتمالات، معتمدًا على معلومات من عيون سليمان في سبأ، ويذكرنا هذا استخدام بُناة الأهرام نظريّة فيثاغوروث، التي كانت معروفة عندهم آنذاك.

ولعلّ علم الفيزياء يكشف لنا يومًا عن طريقة اعتمدها الذي عنده علم من الكتاب في نقل الأجسام نقلاً يقارب سرعة الضوء، أو يستطيع العقل البشريّ أن يقود الحواسّ بالرياضة مثلاً إلى الرؤية التلسكوبيّة التي يمكن أن يكون قد مارسها للاطّلاع على عرش ملكة سبأ، وذلك عندما نترك الجري وراء ألاعيب طفولة العقل في فضاء الخرافة، ونعمد إلى الكتاب الذي أخذ عنه ذلك العالِمُ علمَه.

ولا يقدح هذا، كما ذكرت مرارًا، بالمعجزة والإعجاز، فالمعجزة في كون هذا الأمر يحدث أوّل مرّة في تاريخ البشريّة، فيكون اكتشافه، والتفوّق فيه، والسرعة التي تمّ بها ممّا عجزت العقول تصوّره بل إدراكه.

أُخذت ملكة سبأ بما بدا واضحًا من حضارة القوم، وتقدّمهم التقنيّ، ولا سيّما بعد رؤيتها الصرح الممرّد من القوارير، وأُعجبت بدين سُلَيمان الذي يدينون به، ولكن ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ٤٣: النمل، عن الإسلام معه، حتى إذا ما ﴿قِيلَ

﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾ ٤٤: النمل[1]، ويبدو أنّه بناء ما من البلّور النقيّ جدًّا، وربّما كان يشفّ عن ماء جار ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةً وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾ ٤٤: النمل.

فلمّا بيّن لها سُلَيمان حقيقة الصرح، أدركت ما أراد لها أن تدركه، من ضرورة التخلّي عن الاغترار بما عندها، إذ ألفت نفسها مُبلِسة أمام ما آتاه الله من فضله، فقد سبق أن التبست عليها حقيقة عرشها، وها هي ذي الآن لا تفطن إلى وجود طبقة الزجاج دون الماء، ولعلّها لم تكن تعرف الزجاج، أو لم تكن تعرف أنّه يمكن استخدامه بهذه الطريقة، وهذا يقوّي القول بأنّها ملكة قبيلة سبأ، وليست ملكة ممكلة سبأ اليمنيّة، حيث كان القوم من الحضارة بحيث لا يجوز أن يلتبس على ملكتهم أمر كهذا.

وأكبرت الملكة سلطان سُلَيمان وسلطته، ورأت في الصرح واحدًا من الأدلّة على فذاذته وعظمة ما آتاه ربّه من فضله، وعلمت أن هذا، إلى ما سبق أن رأت، لا يتأتّى إلاّ لنبيّ، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ٤٤: النمل.

ورغم عدم وجود سند من النصّ القرآنيّ أو الحديث الشريف، أو توراة اليهود، نجد الروايات لا ترضى بأقلّ من النهايات السعيدة المعتادة، فتزوّج سُلَيمان عليه السلام بملكة سبأ، وتضمّ ملكها إلى ملكه، لينتهي المجلس بابتسامة وارتياح.

سُلَيمان والسحر

يستهوي هذا الموضوع القصّاصين والرواة، ونرى فيه روح الإسرائيليّات رغم عدم ذكر توراة يهود له، فقد سيطر طابع الإسرائيليّات على الناظرين في القصص القرآنيّ، فعالجوه بالروح نفسه.

سخّر الله لسليمان من العلم ما جعله يُخضع بعض قوى الطبيعة كالريح، وبعض القوى الغامضة الخافية على وسائل المعرفة، والتي تُدعى بالشياطين ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ ٣٦ - ٣٨: ص. وهذا ما أطلق الألسنة بالقول: إنّه كان ساحرًا، وإنّه كان يستخدم الجنّ في

---

(١) والصرح بناء قال الكتاب المبين إنه ممرد من قوارير، وقال الرواة، ونقل عنهم المفسرون: إنه من صنعة الجنّ لسُليمان.

أعماله المعجزة[١]. وقد سيطر سليمان على هذه القوى، وسخّرها لأعماله، حتى أرهقها، ولبثت منه في عذاب مهين.

وقد قوّى هذا في الأذهان أن مُلك سليمان، أي ما أوتيه ممّا لم يؤته أحد من بعده، إنّما هو سحر. وحمل اليهود كِبر هذه الدعوى، وتوارثوها، حتى قال يهود المدينة عنه إنه ليس إلاّ ساحرًا يركب الريح[٢]. وقد أغرت هذه الدعوى الناس فقاموا يتحرّون عن السحر، ويتعلّمونه لتحقيق مآربهم وأغراضهم. ونشأت طبقة من السحرة حاربها سليمان بضراوة، وأحرق كتبها وأدواتها، وطهّر المجتمع، وحرّر الناس من عبثها وإفسادها.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ ١٤: سبأ، لقد مات سليمان وحيدًا، في واحدة من خَلواته، ولعلّه لبث في مجلس له متكئًا على عصًا جعلها تحت إبطه، أو انحنى عليها بصدره. وظلّ كلّ شيء من حوله يجري كالمعتاد، ولا بدّ أن بعضهم كان يتفقّده كلّما أطال الخلوة، ولعلّه رابه طول مكثه على وضع واحد لا يغيّره، ولكنّه لم يجرؤ على اقتحام خلوته عليه، وظلّ يراقبه من بعيد، يتوقّع أن ينهض في كلّ لحظة من مجلسه، وظلّ كذلك حتى بدا له أن عصا النبيّ الملك التي يتكئ عليها تضطرب، وأدهشه قارض عند أصل العصا يُعمل أسنانه فيها[٣].

وفي دقائق بين تصديق وتكذيب اختلّ توازن الملك، وخرّ على الأرض، واتّضح أنّه كان جثّة هامدة منذ حين، ولولا أن المنسأة اضطربت لما هوى، ولظلّ يبدو للناظر من بعيد كما لو كان حيًّا. وفي تلك القصّة توجيه إلى عدم الرهبة من تلك القوى الخفيّة: الجنّ والشياطين، وتصحيح لفكرة الناس عبر العصور عنها، فلو كانت ذات إرادة وقدرة وتدبير فاعلة، كما يتصوّر البسطاء، لعلمت ما لم يعلم به أحد من موت سليمان الذي مكّنه الله الحقّ منها، فغلّها في الأصفاد، وسيطر عليها سيطرة كاملة،

---

(١) وهذا مشاهَد حتى اليوم في البسطاء وذوي التفكير المحدود، حيث يرون في الاختراعات سحرًا.

(٢) انظر التفسير الكبير وتفسير الجلالين والدر المنثور: تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة.

(٣) هذا التصور يخالف التصور الأكثر حظوة، والقائل إن الأرضة هي التي كانت تأكل منسأة سليمان، وما أحسبهم افترضوا ذلك إلا ليقولوا إن الأمر استغرق سنة، وهو كلام توراتي الوجه، وإن لم يكن توراتي الهوية، حيث لم يذكر في التوراة شيء من ذلك.

وسخّرها لما أراد من أعمال، ولتحرّرت ممّا يُلزمها من العمل الشاقّ المجهد.

وبعد موت سُلَيمان أعاد الكهنة إلى السحر صولته، فتفشّى من جديد في الناس، واستمرّ ذلك فيهم، إلى أن وقعوا في قبضة ملك بابل، فدكّ بلادهم، ونقلهم إلى عاصمة مملكته أسرى. وفي بابل طوّر هؤلاء أساليب السحر، وطفقوا يمارسونه، فانتشر سُمّه في المجتمع، وتجرّعه الناس فانتشر فيهم الفساد والضلال. ولا تزال بابل حتى هذه الساعة مصدرًا من مصادر هذا الفنّ القبيح الذي يعرقل مسيرة الحياة.

وقد تدخّل ربّ العالمين في هذا تدخُّلاً مباشرًا على سننه في الكون، ذلك أن كلّ شيء عنده بميزان.

لكي يستقرّ الميزان يدفع الله الناس بعضهم ببعض ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ﴾ ٤٠: الحج. **فالناس متروكون لجهودهم ما دامت الأمور في أنصبتها الطبيعيّة، فإذا تجاوزوا فإن الله الحقّ يتدخّل مباشرة.**

لقد تَدَخَّلَ الله جلّ وعلا مباشرة، وبدون أسباب ممّا يعرفه الناس، في بدر، لأن قوّة ضئيلة تقابل جيشًا كبيرًا يقاتل قتال الذئاب، فنَزَّلَ من الملائكة ما يعدّل كفتَي الميزان، فهو لم ينزّل منهم مليونًا، بل ألفًا وألفين، ذلك أن الغاية أن يحقّقوا التوازن، ويبقى حسم المعركة منوطًا بصدق المؤمنين وحسن بلائهم.

هاروت وماروت!

سيطر السحرة من مسبيّي أورشليم على المجتمع في بابل، وفتنوا الناس، وابتزّوهم، وسخّروهم لأغراضهم الانتقاميّة، ولم يكن للناس أمام هذا العسف حول ولا قوّة. ويقصّ علينا الذكر الحكيم من أنباء أهل بابل في هذا الظرف قصّة هاروت وماروت، اللذين كانا يُبصّران الناس بما يمارِس المفسدون في الأرض من السحر، ويبيّنان لهم أساليبهم فيه، ويعلّمانهم كيفيّة إبطالها

وكان هاروت وماروت حذرَين في مهمّتهما تلك، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ ١٠٢: البقرة. ذلك أن تعلّم السحر شديد الحساسيّة إلى حدّ الخطورة، فقد يدفع بالمتعلّم إلى الكفر فيما إذا استخدمه للأذى. ومع هذا كان الناس لا يتورّعون عن هذا الاستخدام الذي يضرّهم ولا ينفعهم.

قيل في هاروت وماروت إنهما الرسولان اللّذان جاءا إبراهيم بالبشرى، وقيل إنّهما الخصمان اللذان تسوّرا على داود المحراب، وقيل إنّهما كاهنان طيّبان إلى حدّ الملائكيّة، وقيل إنّهما ملِكين، وجاء ذلك في بعض القراءات، وقيل إنّهما ملَكان أُهبطا الأرض، واختُبرا فيما يواجه بني البشر من المغريات، فلم يصمدا. وليس هناك رواية محققة فيما ورد عنهما.

ولعلّ هاروت وماروت بطلا حكاية وعظيّة، أقرب إلى المَثَل، في الذاكرة الشعبيّة، الهدف منها القول: على المرء أن يعوّل على إرادته في الابتعاد عن مظانّ الفتنة، ولا يمنعه منها إلاّ هذا. ولأن السحر كان سائدًا كان الموضوع عن السحر، فهاروت وماروت في تلك الحكاية ملَكان، ليمكن القول إنّهما قادران على ممارسة السحر، وإنّهما لا يمارسانه إلاّ للخير، ومن ذلك تعليم الناس كيفيّة محاربته. ولمّا كان السحر، بما يمكن أن يجلب لمتعلّمه من منافع، فتنة للناس، فقد كان الملَكان يحذّران من يعلّمانهما: نحن فتنة بما تتعلّم منّا من السحر، فإيّاك أن تستعمله للشرّ فتكفر. ولكنّ أكثر الناس لم يكونوا يلتفتون إلى هذا، بل يسقطون في امتحان الإرادة، ويستخدمون ما يتعلّمونه منهما في الشرّ والأذى، كالتفريق بين المرء وزوجه.

قضى أهل بابل على طبقة السحَرة والمرَدة بما علّمهم الملَكان، ولكنّهم لم يصمدوا أمام الفتنة، ولم يلبثوا أن حلّوا محلّ هؤلاء في سوء استخدام هذه القدرة التي أنعم الله بها عليهم، فكان ذلك كفرانًا للنعمة أدّى إلى انتزاعها منهم.

وهكذا انقلبت الآية، ولو أن أهل بابل عدلوا، رغم شركهم، لاستمرّ فيهم المُلك، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ١١٧: هود. وهذا

قانون الربّوبية، أي إن الله ربّ للناس جميعًا، وهو إلهٌ للمؤمنين به. ومن عطاء الربّوبية أن العبد، كافرًا كان أو ظالمًا أو مسلمًا، ما دام عادلاً فإن الله يفسح له في الدنيا، وينمّيه، ويقوّيه، ولا يُهلكه.

القصص القرآنيّ إمّا إحقاق حقّ، وإمّا عبرة، وإمّا عظة، وإمّا تثبيت لفؤاد رسول الله ومن يأتسي به إلى يوم الدين. وهنا يخاطب النصّ العظيم المؤمن، من وراء السطور: لتكن قصّة الذين تعلّموا من الملكين ما يفرّقون به بين المرء وزوجه عبرة لك، وإيّاك أن تتعلّم السحر تحت أيّة ذريعة كانت، لأنّه لا يُنتج إلاّ ضررًا. فما هو السحر؟ وكيف يكون على وفق ما جاء به أصحاب المعرفة؟

نشأ السحر أوّل ما نشأ عن الخوف، ونشأ الخوف عن الجهل، ومن هنا فقد بدأ السحر مع بدء الخليقة. كان الإنسان عاجزًا عن تفسير الكثير ممّا يحيط به، ولذلك كان يخافه، ولتبرير خوفه، راح يعزو ما يجهله إلى قوّى خارقة، خارجة عن سيطرته، فكان الرعد والبرق والعواصف والبحار والأعاصير من السحر، ولذلك ابتدعوا لكلّ منها أُقنومًا خارقًا، افترضوا أنّه قادر على التحكّم فيها، فكان هنالك ما دُعي بالآلهة، كإله الشمس، وإله العاصفة، وإله الريح. وقد قال تعالى فيها: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ ٢٣: النجم، وراحوا يتقرّبون إليها لتحميهم. وقد كانت مهمّة الأنبيّاء الأولى أن يُعيدوا الناس من الوثنيّة، التي جرّهم إليها خوف المجهول، إلى التوحيد، الذي يضع عنهم إصرهم والأغلال التي في أعناقهم.

ولهذا أبلس العرب، على بلاغتهم وفصاحتهم، أمام القرآن الكريم لمّا جاءهم... فما هذا الذي يأخذ بالألباب وليس بالشعر ولا بالكهانة؟! ومن أين لمحمّد الأُمّيّ هذا؟! وهكذا قالوا: سحر، وقالوا: ساحر.

لقد جعل الله لكلّ شيء قانونًا، وطالما ظلّت قوانين الأشياء غائبة عن عقولنا، فإنّنا نخبط في فهمها، ومعالجتها خبط عشواء، وكثيرًا ما نصطدم بها، ونكون في كلّ ذلك خاسرين. لأنّها قوانين قاهرة راسخة، تفعل فعلها جبرًا، فإذا عرفنا تلك القوانين استطعنا تسخير الأشياء المحكومة بها لمصالحنا. وهذا هو مفهوم المعجزة، حيث هي تطبيق لقانون حقّ لمّا يهتدي إليه البشر.

ومعروف أن الجراثيم والميكروبات كانت تعبث بالناس، وكانت بعض الشعوب تعزو آثارها إلى الجنّ، وذلك عندما كانت قوانينها غيبًا بالنسبة إلى العقل. فلمّا استطاع الإنسان أن يصل إلى تلك القوانين بالعلم، سيطر على الأمراض التي تسبّبها الميكروبات، وقضى على معظمها. وكذلك الأمر بالنسبة إلى البحار والفضاء والمادّة والنفس، حيث كانت عوالم مخوفة مجهولة محيّرة، فاكتشف الإنسان الكثير من أسرارها وقوانينها، واستطاع التحكّم فيها وتسخيرها لأغراضه.

لقد أُنيط بالإنسان بحكم عقله أن يَعمر الدنيا، ولكي يعمرها لا بدّ أن يكشف أسرارها المبثوثة فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ﴾ ١٩٠: آل عمران. وكان هذا دأب الإنسان عبر تاريخه الطويل على هذه الأرض. وقد كان لهذه الأمّة سبق في ذلك لا ينكره باحث متجرّد، ولكنّها تولّت، فطالتها سنّة الله في الأمم ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ٣٨: محمد، وآلت الريادة في زماننا هذا إلى الغرب، فبحثوا، وكشفوا، وما زالوا يفعلون. ومن هنا كانت لهم السيادة في الأرض.

ونحن مأمورون، في سياق ما أُمرنا به من طلب العلم، أن نعرف من أمر السحر والجنّ ما يَخرج عن نطاق التهاويل والخرافات، ويقينا الوقوعَ في براثن المشتغلين بأعمال الشعوذة... لقد بدأت ممارسة السحر للدفاع عن النفس أمام ما يخافه الإنسان، وكل مُروَّع خطّاء. ولهذا شنّع النبيّ ﷺ على كلّ من أفزع مسلمًا. ولكنّ من الخوف ما يدفع إلى الصواب، وعلى رأسه الخوف من الله، ويُترجَم عمليًا بالتزام المرء جادّة الحقّ التي أُمر بالاستقامة عليها ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ١٤: إبراهيم، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ ٤٦: الرحمان، وهو خوف محمود. والخوف واحد من أهمّ ضوابط حركة الإنسان على الأرض، وإن لم يكن أرقاها، فإنْ كان المرء حاكمًا لا يظلم، وإن كان عالمًا لا ينافق، وإن كان غنيًّا لا يبخل ولا يغشّ ولا يُرابي.

أمّا الخوف المذموم، وهو في أوسع أطره "الخوف من غير الله" كائنًا من كان، وكائنًا ما كان. وهذا الخوف جعل للسحر سوقًا رائجة، ذلك أنّه يدفع صاحبه إلى البحث عن الأمن عند الكهنة و السحرة و أصحاب الإيحاء والشعوذة.

ويعلّمنا الله جلّ وعلا أن نقاوم ما نخاف بالبحث عن أسباب خوفنا وبواعثه، أي بالمعرفة، وأن نحكّم العقل في مواجهته، وأن نتّخذ لذلك عدّته من المنطق والعلم. فعندما خافت أمّ موسى على وليدها أوحى الله الحقّ إليها: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ ٧: القصص، وفعلت أمّ موسى، ولم تذهب إلى ساحر تستشيره... لقد كان خوفها رشيدًا مرشِدًا، فلم ينحرف بها عن الطريق السويّة إلى طرق السحر.

فالخوف على رأس العوامل التي تعطي الفرصة لذلك المؤثّر الخفيّ الذي ندعوه بالجنّ، ليغزو الإنسان غزو الفايروس، وليمارس تأثيره فيه. وقد اكتشف الإنسان الفايروس، وعليه أن يكتشف عالم الخوف الخفيّ، عالم الجنّ.

*

وما ندعوه بالسحر أنواع، فمنه ما هو قائم على خفّة اليد والحركة البارعة: كالسحر الذي مارسه سحرة فرعون، وفيه يلعب خيال المتلقّي الدور الأساسيّ في عمليّة التأثير التي يتغيّاها الساحر، بحيث يُدرك المشاهد من الصورة التي أمامه ما يريد له الساحر أن يدرك ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ ٦٦: طه، ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ ١١٦: الأعراف، فالسحر وقَع على الأعين لا على الحبال والعصيّ، فهو خداع بصر، وشعوذة أمدّها الخيال بما جعلها تبدو خارقة، حتى إن موسى قد أوجس في نفسه خيفة منها، رغم أن ربّ العالمين كان قد طمأنه إلى عدم خطورة الأمر: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ٢١: طه.

ومن قوانين الله السارية في خلقه أن المسلم ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ١١: الرعد، ومن تلك القوانين أن ما يتّخذه السحرة من السحر لا تأثير له من حيث الضرّ والنفع ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ١٠٢: البقرة، والإذن هو ما نعرفه بلغة هذا الوجود المادّي بالقانون(١)، وإنّما يحصل الضرر بما ضبط الله به قوانين الضرر، وعلى رأسها، في السحر، الخوف. وبالخوف، وبعدم معرفة قوانين الأشياء أو إذن الله فيها، وبعدم تدبُّر ما أمر به الله حيال ذلك، يترك الإنسان نفسه فريسة سهلة للساحر فيلعب به، ويسحر عينيه.

ومن أنواع السحر، ولعلّه على رأسها، ما هو قائم على الإيحاء، ويتمّ بتأثير نفس قويّة في نفس ضعيفة. وأبرز صفات ممارسي هذا الضرب من السحر أنّهم من النمط القياديّ المؤثّر.

وقد قطع العقل البشريّ شوطًا متواضعًا في طريق كشف بعض الممارسات التي يعتمدها السحرة والمشعوذون، وعلى رأسها ما يُدعى بالتنويم المغناطيسيّ(٢)، وهو واحد من أشكال الإيحاء، يقوم على السيطرة على المنوَّم بحيث يخضع لأوامر المنوِّم. وقد قال النبيّ ﷺ: «إنّ

---

(١) انظر قصة موسى عليه السلام.

(٢) هذا العلم أو الفن يثبت بما لا يدع مجالاً للشك ازدواجية الكيان الإنساني، وبالتالي وجود ذلك الجانب الخفي الذي هو عماد الفكرة الدينية.

من البيان لسحرًا»[1]، أي عاملاً غير ملموس، دقيقًا ولطيفًا، تؤخذ به بحيث تصبح منقادًا له. ومن هنا زعم الجاهليّون أن القرآن سحر، وامتنعوا عن الاستماع إليه، ومنعوا، عندما كان الأمر إليهم، المسلمين من قراءته في البيت الحرام على مسمع من الناس.

وممّا يُعتبر من السحر الطلاسم: وهي نقوش على موادّ خاصّة، وبطريقه معيّنة، بغرض تأدية تأثير معيّن. ومنه الشعوذة: وهي خفة في اليد ومَخاريق، وأُخَذٌ كالسحر يُري الشيءَ بغير ما هو عليه في رأي العين ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ ٦٦: طه.

ومن سبل تفادي تأثير هذه الأُخيولات المدعوّة بالسحر، أن تُلتزَم السنّة في طهارة البيت ممّا دعاه الكتاب العزيز بالرجس كالخمر والتماثيل.

وممّا يؤكّده المنطق، وتطمسه السياسة، في عالم اليوم، أن الإيحاء السيكولوجيّ يُستخدم لأغراض التجسّس على كلّ الصعد التي تسمح باستخدامه، بشكل متداخل بالتكنولوجيا. ولئن لم يمارس الغرب، وأميركا بالذات، ذلك، كما يدّعي، فهو مقصّر، ولا يستقيم اعتباره مقصّرًا فيما يخصّ مصالحه.

هذا إضافة إلى ما أصبح مكشوفًا من قيام الإعلام برمّته على الإيحاء السيكولوجيّ، ولاسيّما الإعلام السياسيّ، الذي تُنفَق عليه المليارات، ويُعتبر في مقدّمة أدوات صنع السياسة عالميًّا. ومن هنا فإن تصنيف الإيحاء السيكولوجيّ اليوم كسلاح، من قبيل وضع النقاط على الحروف، ولكنّه سلاح مكتوم، لا يعترف مالكوه باستخدامه.

* * *

(١) صحيح البخاري: ٤٨٥١.

الفصل السادس عشر

قصّة العُزَيـر

سلام عليك وقد حفظت توراة موسى في صدرك، فافتروا عليك فقالوا: ابن الله، وافتروا على الله فغيّروها.

سلام عليك وأنت تعبر هذا العالم إلى حيث لم يعبر بشر، وتعود لتقول: أعلم أن الله على كلّ شيء قدير.

***

ليبعثنّ عليهم من يسومهم سوء العذاب

يُستخلَص، اعتمادًا على المصادر التوراتيّة الوجهِ أو الظهر، أن الفساد قد عاد إلى الظهور في بني إسرائيل بعد وفاة سيّدنا سليمان عليه السلام، وشاعت فيهم المعاصي، وتتالت الحروب بينهم وبين جيرانهم. ولمّا غلب الزيغ اجتمعت عليهم الهزائم في العقيدة والسلوك، وفي ساحات القتال.

وبعث الله فيهم أنبياء يهدونهم سواء السبيل، فكانوا كلّما جاءهم رسول من الله بالحقّ الذي يجحدون كذّبوه، ونبذوه، وزهدوا فيما جاء به، أو قتلوه. فكانوا كما قال الله الحقّ فيهم: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ٨٧: البقرة.

وتذكر توراة اليهود من أنبيائهم أشعياء الذي وعظهم وأنذرهم فكذّبوه، وتوعّدوه بالقتل، وفي رواية عن ابن إسحاق أنّه لجأ إلى تجويف في جذع شجرة ضخمة، فلمّا يئسوا أن يصلوا إليه، أو يخرج إليهم مستسلمًا قطعوه والشجرة نصفين.

obeikandl.com

وتذكر كذلك إرمياء، وكان نذيرًا لهم بين يدي عذاب قريب، لما آلت إليه حالهم من ترك التوحيد، والفساد، ونقل إليهم وعيد الله: "فلذلك أقذفكم من هذه الأرض إلى أرض لا تعرفونها أنتم ولا عرفها آباؤكم..."[1].

وإنّها لسنّة الكون، وناموس ربّاني سارٍ في خلق الله، أن الذين يتوارثون غِلظة القلب، وجَفوة الطبع، وانعدام العهد، لابدّ أن يَحيق بهم سوء عملهم. لقد فسد بنو إسرائيل فسادًا وصل إلى العقيدة، فاتّخذوا آلهة ممّا كان في الجوار، وابتعدوا عن الله ابتعادًا لا يليق بالمؤمنين، شأنهم كلّما بعُد عهدهم بنبيّ لهم، والله قاهر فوقهم، وقادر عليهم ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ٦٥: الأنعام.

وهكذا سلّط الله الحقّ على بني إسرائيل من لا يخافه ولا يرحمهم ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ١٦٧: الأعراف. ونقرأ في توراتهم أن بختنصر ملك بابل العربيّ، وكان جبّارًا قاسيًا، دمّر هيكلهم[2]، وهدم بيت المقدس مرّتين خلال عشر سنوات، وقتل العلماء، وأحرق الكتب، وعلى رأسها التوارة، وقتل الرجال، وسبى النساء والأطفال، وساقهم رقيقًا إلى مملكته. وفيها أن الربّ أمر بني إسرائيل بالانتقام من بابل: «انقضّوا عليها من كل جانب، وافتحوا أهراءها، وكوّموا قمحها، وأبيدوها، ولا تكن لها بقية. أفنوا جميع ثيرانها وأنزلوها للذبح... السيف على البابليين، وكل من يسكن بابل، وعلى رؤسائها وحكمائها، السيف على عرافيها فيصيرون حمقى، وعلى أبطالها فيهلكون، السيف على خيلها ومركباتها... تسكنها وحوش القفر، وتأوي إليها بنات النعام، لا يسكنها إنسان بعد اليوم إلى الأبد، ولا تعمر مدى الأجيال يخربها الله كما خرب سدوم وعمورة وجوارهما...»[3].

---

(١) سفر إرمياء: ١٦.

(٢) انظر قصة سليمان عليه السلام.

(٣) سفر إرمياء: ٥٠.

نتوقّف هنا قليلاً لكي نتحدّث عن قوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ٤ ـ ٦: الإسراء.

أكثر المفسّرين على أن الكتاب هو اللوح المحفوظ، والأرض أرض الشام، والإفساد الأوّل قتلهم زكريّا، والثاني قتلهم يحيى ﷺ، وعلوهم في الأرض طغيانهم في الأرض المقدّسة، وقد جزاهم بالإفساد الأوّل تسليط الفلسطينيين، وقيل الفرس، عليهم، وبالثاني تسليط بختنصّر. قد ذهب صاحب القصص إلى ما يلي: إن الأصل في القرآن الكريم أنّه خطاب للمسلمين[1]. ومن هنا فالآيات تقرير لما كان، وما سوف يكون بينهم وبين بني إسرائيل في القادم من التاريخ.

وعلى هذا فإن إفساد بني إسرائيل في الأرض، وعلوّهم علوًّا كبيرًا في المرّة الأولى، هو ما كانوا عليه في جزيرة العرب قبل أن يفعلوا ما فعلوا فيُخرجهم المسلمون منها[2]، والعباد أولو البأس الشديد، الذين بعثهم الله عليهم، فجاسوا خلال الديار هم المسلمون الذين قضوا على نفوذ اليهود في جزيرة العرب، وأبطلوا إفسادهم وكيدهم، وأخرجوهم من ديارهم. وذلك حيث يقول الكتاب: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ ٥: الإسراء. ويعضد هذا التوجيه أن كلمة «عباد» في القرآن الكريم قد اطّرد استعمالها للتعبير عن المسلمين والمؤمنين.

ويتابع الكتاب المبين مخاطبًا اليهود: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ٦: الإسراء. و«ثم»، كما هو معروف، للتراخي. ممّا يفيد وجود فاصل زمنيّ بين عاقبة العلوّ والفساد، وبين ردّ الكرّة لبني إسرائيل على عباد الله أولي البأس الشديد. وهذا الفاصل الزمنيّ هو ما بين هزيمة بني إسرائيل وطردهم من جزيرة العرب في صدر الإسلام، وزماننا هذا. حيث ردّ الله لهم الكرّة على المسلمين، وأمدّهم بأموال، وبنين، وجعلهم أكثر نفيرًا.

---

(١) "ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتقين" ٢: البقرة.

(٢) كل من يقرأ التاريخ يعرف ماذا فعل اليهود في المدينة قبل الإسلام، وما فعلوه بالمسلمين، وما فعلوا بالنبي ﷺ. وكيف تآمروا وماذا أرادوا؟

obeikandi.com

أمّا الأموال فمعروفة سيطرة اليهود اليوم على أموال العالم. وأمّا البنون، فهل تعلم أن اليهود الآن يستقطبون كلّ ما هو مُتاح لهم من أطفال الأرض بواسطة مؤسسات تحمل أسماء شتّى، تحت شعار إنساني هو رعاية الأطفال، ثم يدفعون بهم إلى هذا العالم موالين لهم، معادين لأعدائهم، وكثير من هؤلاء الأطفال من آباء مسلمين. والمسلمون لاهون عن ذلك.

وأمّا النفير فهو الإعلام، وإعلام العالم اليوم في أيدي اليهود، لأن ذهب العالم بأيديهم. وبالإعلام، وبالذهب من ورائه، يتحكّم اليهود بالعالم اليوم، فيُقرّون في الأرض من يُقرّون، ويعزلون من يعزلون، ذلك أنّهم أكثر الناس أموالاً، وأكثر الناس نفيرًا.

وهكذا يكون العلوّ الأوّل لبني إسرائيل قد انقضى، ونحن الآن في زمن العلوّ الثاني. ويستمرّ الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل هذه المرّة: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ ٧: الإسراء. فماذا عن عاقبة هذا العلوّ الذي بلغ من الفساد ما لم يبلغه علوّ المرّة الأولى؟

ويجيب الذكر الحكيم عن السؤال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ ٧: الإسراء[1].. هكذا يتمّ أمر الله، فتُدمَّر كلّ أسباب علوّ بني إسرائيل تدميرًا.

إن الوعد قائمٌ، وها قد ظهر اليهود الآن وعلوا وأفسدوا، وتجمّعوا من كلّ مكان في الأرض، هذا التجمّع الذي ذكره الحقّ بقوله: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ ١٠٤: الإسراء. وهذا طور دَوريّ في تاريخ بني إسرائيل، فهم كلّما قويت شوكتهم وسيطروا، ساموا الناس خسفًا وهوانًا، فلا يلبث الناس أن يبطشوا بهم. وهم اليوم في الأمتار الأخيرة من طريقهم القدَريّة، وما يمسكهم إلاّ ضعف هذه الأمّة، وما نُصروا إلاّ به.

لقد كان الضعف والفساد يعتريان الحكومات الإسلامية، على مدار التاريخ، أمّا الأمّة فتبقى متماسكة. واليوم، وللمرّة الأولى في التاريخ الإسلاميّ، يصيب الوهنُ الأمّة نفسها، ذلك أنّها وضعت مقاليدها في يد القلّة الفاسدة منها، حتى صار هؤلاء عنوان الأمّة، وأصبح لزامًا أن تستحضر قول الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ: «...فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا»[2].

---

(١) و"المسجد" هو المسجد الأقصى، و"كما دخلوه أول مرة" ٧: الإسراء، أي من غير عناء.

(٢) صحيح البخاري: ٢٣٦١.

إن الذين يسخّرهم الله سبحانه وتعالى، لإعادة مجد دينه، وإقراره في الأرض، لابدَّ أن يكونوا صالحين. فلا غرابة في أن الذين عبروا خطّ بارليف كانوا صائمين. ومن حسنات المصريّين في تلك المعركة أنّهم اختاروا لها ضبّاطًا وجنودًا أهل تُقًى وصلاح، يطلبون الشهادة في سبيل الله. وكانت تجربة ما زال المرء يعجب كلّ العجب كيف كانت، رغم اتّجاه كلّ الإرادات الفاعلة في ذلك الوقت إلى إجهاضها. لقد أرادها الله شاهدًا ومذكّرًا لهذه الأمّة، وحجّة عليها... ولكنّ أكثر الناس لا يعقلون.

وإذا أنعمنا النظر في أولئك الذين يُوجعون إسرائيل في الأرض المحتلّة، وجدنا أنّهم أصحاب الإيمان والعقيدة، وليس روّاد الحانات، وتجّار الحروب.

ولكننا إذا عدنا إلى ما سبقت الإشارة إليه من أن عبارة «بني إسرائيل» بدأت تفقد دلالتها بعد يوسف عليه السلام، وأن كتبة التوراة ألحفوها اليهودَ ليجعلوا لهم إلى إبراهيم نسبًا، فسارت في المصادر، وغدت علمًا على هؤلاء، وبهذا الاعتبار استعملها الكتاب المبين(١). وأنّ تلك التسمية لم تُطلق على يهود المدينة في القرآن، ولا في حديث رسول الله ﷺ، ولا في المصادر العربيّة، وجدنا أنه لا وجه لاعتبارها تخصّهم في الآية، بله أن تخصّ يهود اليوم.

وبهذا نجد أنفسنا بين أمرين أحلاهما مرّ: التفريط في الأمل الذي يبعثه هذا التأويل، والتنكّر لقناعة نكاد نقطع بها لولا وجوب انتظار كلمة البحث العلميّ الكامل في الأمر.

أنّى يُحيي هذه الله بعد موتها!

وقصّة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها في القرآن الكريم معطوفة على قصّة الذي حاجّ إبراهيم في ربّه، وأكثر الآراء على أن القصّتين سيقتا لتعجيب المخاطَب من عدم التصديق بالبعث. وفي الروايات أن الرجل خرج على حمار له يحمل شيئًا من زاد وبعضًا من شراب. والصحراء متَّسَع حميم، يُفسح صدره للخطا

(١) الباب الأول في الإسرائيليات. انظر اليهود وتوراة اليهود وملابسات حديث الأخذ.

كما يفسحه للخيال، وينطلق فيه الروح الحبيس يمارس فعاليّات فطرة الله الحقّ فيه... يفكّر في الآفاق وفي ذاته، ويبحث عن الحقيقة... حقيقة ما جرى ويجري من حوله.

ولم يلبث الرجل أن مرّ على قرية ممّا خرّبت الحروب أو خرّب الزمان[1]، وصفها الذكر الحكيم بأنّها خاوية على عروشها. وافتقد الرجل ما كانت تضجّ به القرية من الحياة. وأثار تأمّلاتِه الموتُ الذي يُهيمن على كلّ شيء من حوله، وتساءل: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ٢٥٩: البقرة؟!

ولا يصرّح النصّ بما وراء تلك العبارة، أهو استعظام الرجل قدرة الله الذي يؤمن أنّه محييها؟ أم هو عجز عقله عن تصديق الأمر، أو تمثّله؟ أم استنكاره ما يقال من أن الله يعيد الحياة بعد هذا الموت الذي يحيط به من كلّ جانب؟ ونحن إذا ما استطعنا التخلّص من فكرة كون هذا الرجل نبيًّا، أو عُزيرًا الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، وهو ما ليس فيه قول فصل، أمكننا القول إنّه قد لا يكون مؤمنًا. يوحي بذلك أن مثَلَه قد عطف على موقف النمرود الكافر، وليس قوله في النهاية: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٢٥٩: البقرة، دليلاً على كونه مؤمنًا، ولو كان مؤمنًا لخرّ ساجدًا، أو لسبّح.

ويعطينا النصّ القرآنيّ مساحة لاستعراض كلّ ما يمكن أن يطرحه العقل البشريّ في مثل ذلك الموقف من تساؤلات، ويحقّق دخولَ المتلقّي إلى الجو النفسيّ المنشود لتقبّل النتيجة التي سوف تفضي إليها هذه القصّة.

فأماته الله مائة عام ثم بعثه

نحن الآن أمام مشهد يفصله عن سابقه مائة من الأعوام، حيث نرى الرجل وقد انتبه، وبدا له أنّه أخذه نوم طويل ثقيل. وهتف به هاتف: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ ٢٥٩: البقرة؟

﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ٢٥٩: البقرة.

﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ ٢٥٩: البقرة.

واستبدّ بالرجل الذهول... مائة عام!؟ أكان نائمًا، أم أنّه مات ثم بعث؟

وعاد الهاتف: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ ٢٥٩: البقرة ...

---

(١) قيل إنها سدوم وعمورة.

ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه، وتفكّر، وتعجّب... كيف انقضت مائة عام وطعامه وشرابه على حالهما؟!

﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ ٢٥٩: البقرة..

ونظر الرجل إلى حماره، وتفكّر، وتعجّب... كيف لم يجر عليه ما جرى على القرية بفعل الزمن؟!

وما من فرصة للروايات كتلك التي تسنح هنا، وهاهي ذي تجد المولَج، وذلك بربط ذكر الحمار بقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ ٢٥٩: البقرة، وفي ذلك يقول ابن كثير: «فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة. فنادى الملَك عظام الحمار فأجابت، وأقبلت من كلّ ناحية، حتى ركّبه الملَك وعزير ينظر إليه[1]، ثم ألبسها العروق والعصب، ثم كساها اللحم ثم أنبت عليها الجلد والشعر، ثم نفخ فيه الملَك، فقام الحمار رافعًا رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقًا يظن القيامة قد قامت»[2].

وعلى رأس ما يقال في ذلك أنّه لو كان الحمار فانيًا فإن بلاغة النصّ القرآنيّ تقتضي ذكره قبل ذكر الطعام والشراب الباقيين، وذلك لأنّه يدلّ على انقضاء مائة عام، والمقام مقام إثبات ذلك. يضاف إلى هذا أن النصّ القرآنيّ لا يُلزمنا بهذا القول، بل هو زيادة على ما جاء فيه، وقد كانت الحاجة المتوهَّمة، إلى ذكر ما يدلّ على مرور الزمن في مقابل ما يدلّ على العكس، وراء ربط الحمار بذكر العظام، فإن الرجل لن يلبث أن يرجع إلى قريته، ويتثبّت من أن مائة عام قد مرّت على مغادرته إيّاها، أمّا الآن فهو يرى كلّ شيء كما كان قبل مائة عام.

وقيل للرجل تعقيبًا على ذلك: ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾ ٢٥٩: البقرة. ولا يقتضي هذا أن يكون في أحواله ما هو معجز[3]، فالنصّ يسمح باعتبار قصّة هذا الرجل برهانًا أو دليلاً على أن الله يحيي الموتى، وقد كان، إذ ذكرها الله في كتابه العزيز،

---

(١) يبني على قول من قال إنه العزير.

(٢) قصص الأنبياء ٢: ٤١٩ .

(٣) انظر الكلام في مدلول كلمة آية في الباب الأول: المعجزة.

فهي آية للناس على ذلك إلى يوم القيامة.

ثم دعاه الهاتف إلى أن يستحضر في عقله ما يعضد ما يراه ببصره: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ ٢٥٩: البقرة...

إنّها دعوة إلى التأمّل في إنشاء الكائن الحيّ ابتداءً، وهو أصعب من بعثه بعد موته، فهي دعوة إلى القياس لضمّه إلى الراهن من الوقائع...[1] وينظر الرجل في الأمر، ويستعرض الصورة في خياله، ويتفكّر...

*

كلّ هذا يجري في ذات الرجل، وفيما حوله... منه ما يراه بعيني رأسه، ومنه ما يراه بعيني عقله. ويتذكّر الرجل أنّه تساءل: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ٢٥٩: البقرة؟ ويتبيّن له الحقّ، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٢٥٩: البقرة... إن الذي بعثه بعد موت مائة عام لَمُحيي هذه القرية بعد موتها، وها هو يطالع دلائل قدرة ربّه، فطعامه وشرابه لم يتسنّه، وحماره أمامه... ويهتف به هاتف: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ ٢٥٩: البقرة... والإنشاء أصعب من الإعادة.

كلّ هذا رآه الرجل ولم ير القرية... فأين القرية؟ ومن المنطقي أن تكون هي الدليل، ذلك أن التساؤل كان عن إحيائها هي؟ ولم يفُت هذا الأمر الرواة فسارعوا يرمّمون النسيج القَصصي بالأسطورة التي لا تكلّفهم عناء البحث عن المنطقيّ والممكن والحقّ، بل تعطيهم فرصة لتنويع الأحداث وتمديدها في كلّ الاتّجاهات. أمّا الواقف عند حدود النصّ القرآنيّ فالمخرَج بالنسبة إليه واضح، وهو أن القصّة مجرّد مثل، وأن مائة العام التي مكثها الرجل كانت في برزخ الفكر، وليست على أرض الواقع، بما في ذلك قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ ٢٥٩: البقرة، فهو قد تفكّر في ذلك، ومضى يحقّقه، فيقصّ على الناس ما عاشه في واقعه الفكريّ، وخلص منه إلى اليقين، ليكون لهم آية، كما قال له هاتفه.

---

(١) كما تقول لمن تخاف عليه الفتنة بالنعمة بعد أن تُبين له أنه في مواجهتها: وانظر إلى قوله تعالى: "ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة" ٣٥: الأنبياء.

ولكن أنّى لمتسقطي الخوارق وراء كل آية أن يقنعهم تفسير كهذا، وهم قد دأبوا على تحويل آيات الله لَي معجزات طوعًا أو كرهًا[1]!

وممّا يؤنس في اعتبار القصّة مجرّد مثل، التقديم لها بتلك العبارة التي اختُلف في توجيهها «أو كالذي»، وهي معطوفة على حوار إبراهيم والنمرود المقدّم له بـ: «ألم تر إلى الذي»، ولعلّه يصحّ أن نقدّر «ألم تر إلى قصّة الذي حاجّ إبراهيم»، أو «مثَلِ الذي مرّ على قرية. فالمطلوب أن تتفكّر في تلك القصّة، وفي ذلك المثَل. فهي قصّة ضربها الله مثلاً.

*

أثار بعث الرجل كثيرًا من التساؤلات من حيث كونه من اللا معقول. وقد تقدّم أكثر من مرّة القول: إن اللامعقول لا يعني المستحيل كما يعتبره الكثيرون. وعلينا أن ننظر إلى اللامعقول انطلاقًا من أن هناك الكثير الكثير ممّا لا نعقله، وأن كثيرًا ممّا لا نعقله اليوم سيكون في المستقبل من المعقولات بإذن الله[1]. لقد أمات الله الرجل الذي قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ٢٥٩: البقرة؟! ثم بعثه، فرأى ما رأى، وأحسّ بما أحس، وكلّ ذلك في عالم غير هذا العالم. والعوالم كثيرة ومتباينة، وهي على كثرتها متعايشة، ولكنّ لكلّ منها برزخًا فلا يبغي عالمٌ وراء برزخه شيئًا.

أمّا أن تكون هذه الحادثة بكلّ تفاصيلها قد جرت في الواقع الملموس المدرَك، فهو ما لم يكن لخليل الرحمن الذي سأل ربّه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ٢٦٠: البقرة؟ وقد كان ابن عبّاس يقرأ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ اِعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٢٥٩: البقرة، وكان يقول: لم يكن بأفضل من إبراهيم، قال الله له: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ٢٦٠: البقرة[2].

وقالت اليهود: عزير ابن الله

نقرأ في الذكر الحكيم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ ٣٠: التوبة. وقيل في تفسيرها إن التوراة كادت تُفقد لإهمالها من جهة، ولأمر بختنصر في أثناء احتلاله

---

(١) انظر الباب الأول: المعجزة.

(٢) يريد في مثل الطيور.

فلسطين بإحراق نسخها من جهة أخرى، ولكن ظهر العزير فجأة[1]، فجدّدها لهم من ذاكرته. فقالت يهود: ما جمع الله له التوراة في صدره وهو غلام إلاّ لأنّه ابنه.

وقد افتعلت الروايات الصلات بين العزير والرجل الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فزعمت أنّهما واحد، ثم زعم بعضها أنّه نبيّ، واستدلّ على نبوّته بأمور منها:

أن الله قد خاطبه. ولكن هذا الخطاب قد يكون هاتفًا موحيًا، وليس من الحتم أنّه وحي. ومنها أنّه جعله آية للناس. وليس في هذا من دليل على النبوّة، فالله تعالى جعل فرعون آية لمن خلفه عندما نجّاه ببدنه ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ ٩٢: يونس. ومنها أنّه صاحب معجزة هي العودة إلى الحياة بعد موت مائة عام. ولكنّ مَثله في ذلك مثل الموتى الذين أحياهم الله على يد عيسى ﷺ بإذنه، وما كان ذلك معجزة لأيّ منهم. فليس في أيّ ممّا استدلّوا به ما يقطع بأنّه نبيّ. وقد قال ابن كثير: «ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: إنّا أَولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علّات، ليس بيني وبينه نبيّ»[2].

وفي الروايات التي تنسب القصّة إلى عزير، وكلّها تلتزم النمط التوراتيّ في العرض، أن عزيرًا كان قد غادر أهله في مدينته المدمّرة وزوجته حامل، فلمّا بعثه الله، بعد مائة عام، عاد إلى دياره، وأتى بيته، فرأى ابنه وقد بلغ المائة، وله أولاد وأحفاد بين كهول وشبّان. ولما عرّفهم عزير نفسَه، وقصّ عليهم حكايته، سخروا منه، وارتابوا في أمره، ولكنّ سمته المهيب، ونور النبوّة الذي كُسيه جعلهم يميلون إلى تصديقه.

وتمضي تلك الروايات في القول إن الدليل القاطع الذي قدّمه عزير لإثبات شخصيّته أنّه يحفظ التوراة عن ظهر قلب. وكان بختنصر قد أمر بجمع نسخ التوراة

---

(١) في هذه النقطة تتداخل قصة العزير بقصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، فيزعم القصاصون أنه مر على قرية مما هدم بختنصر، وأن الله أماته مائة عام ثم بعثه، وأنه عاد إلى قومه وكان يحفظ التوراة في صدره فأملاها عليهم.

(٢) صحيح البخاري: ٣٢٥٨، وانظر قصص الأنبياء ٢: ٤٢١.

وإحراقها، ولم ينج إلاّ نسخ قليلة أُخفيت بحرص، فأتوا بواحدة منها، وجعل عزير يقرأ عليهم، وهم يعارضون المكتوب بقراءته، حتى أتمّها كلّها[١]. وقيل إن اليهود أكبروه إذ ذاك، وقالوا: إن موسى لم يكن يحفظ التوراة، بل أتاهم بها مكتوبة، ومن هنا زعموا أنّه ابن الله. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ ٣٠: التوبة، وما في الذكر الحكيم ذكر لعزير غير هذا.

واليهود، كما هو بيّن في تاريخهم الفكريّ والعمليّ، لا يفهمون الصلة بالله إلاّ قياسًا على الصلات البشريّة، ومن هنا قالوا: إن عزيرًا ابن الله. ومن المفارقات العجيبة ما سوف نراه في قصّة عيسى عليه السلام من أنّهم قد أوصلوا المسيح إلى خشبة الصلب بتهمة لفّقوها له، وهي الادّعاء أنّه ابن الله[٢].

وقد منّ الله على المسلمين بأن وضع لهم ضوابط تقيهم الوقوع في الشرك، فهم قد تجاوزوا المعجزات المرحليّة التي رافقت النبوّات السابقة، والتي تعتمد على خرق المعقولات، وأُعطوا معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين، كتاب الله... المعجزة العظمى، التي تعتمد كليًّا على العقل الفطريّ النقيّ الذي يقرأ، فتصل بذلك ما بين ميثاق الله لبني آدم وبين آخر نسمة من البشر تعمر الأرض. ومن هنا فالمسلمون لا يوغلون في رفع بشر، من نبيّ أو وليّ أو صاحب كرامة، إلى منزلة تؤدّي بهم إلى الشرك بالله.

* * *

(١) وقيل إن عجوزًا عمياء كانت تعرفه قبل اختفائه قالت: إن عزيرًا كان مجاب الدعوة، وسألته أن يدعو الله كي يرد عليها بصرها، ففعل، فعادت مبصرة. فكان ذلك دليلاً ثانيًا على صدق دعواه.

(٢) انظر إنجيل يوحنا: ١٩.

obeikandl.com

الفصل السابع عشر
قصّة
ذي القرنين

سيّدي الملك الصالح، أيها الفاتح العظيم الرحيم، الذي أتى عليه حين من الدهر يستقبل الشمس القادمة، وحين من الدهر يقف في وداعها، فلم يحمله المجد على الجبروت، ولم يدفعه النصر إلى الظلم، فترك حيثما وصلت خيله أثرًا خالدا...

سيدي صاحب السدّ... لم تزل الشمس تطلع على بقايا بنائك، وسلام عليك ما فعلتْ.

* * *

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ ٨٣: الكهف، وذو القرنين مختلَف في كونه نبيًّا أو رجلاً صالحًا. ويلاحَظ أن شخصيّته لدى معظم المفسِّرين قد تداخلت وشخصيّة الإسكندر المقدونيّ. وهذا خطأ فاحش، ذلك أن الإسكندر المقدونيّ هو الذي قضى على مملكة ذي القرنين بعد حوالي ثلاثة قرون من إنشائها، وكان ذلك في عهد ملكها العظيم دارا أو داريوس. فمن هو الإسكندر المقدونيّ، وكيف تداخلت الشخصيّتان؟

للإجابة عن هذا السؤال علينا أوّلاً أن نتبيّن موقع الأحداث التي سوف نتناولها بالكلام على خريطتي الزمان والمكان. فنحن الآن في محيط القرن الخامس قبل مولد المسيح عليه السلام، حيث الإمبراطوريّة الفارسيّة التي أسّسها ذو القرنين قبل ثلاثة قرون قد وصلت إلى حدود الهند والباكستان، وكانت تضمّ العراق وأفغانستان وتركيّة وأرمينية وأذْرَبِيجان... تحت قيادة الملك دارا الثالث. المتحدّر من سلالة ذي القرنين.

في ذلك الوقت قُتل ملك مقدونية، واستطاع الإسكندر المقدونيّ أن يسيطر على الأوضاع، ويتولّى الحكم في البلاد، ولم يلبث أن شكّل جيشًا عظيمًا، وزحف به شرقًا إلى الإمبراطوريّة الفارسيّة. فراحت تسقط أمامه موقعًا تلو موقع، وسرق ذهبها الهائل، وكنوزها الفكريّة والفنيّة العظيمة. ثم احتلّ مصر، وبنى مدينة الإسكندريّة، المنسوبة إليه. وعُرف عنه إعجابه بتعاليم آمون. ثم رجع إلى العراق، وكانت بَلْخ على الحدود الهنديّة آخر ما وصلت إليه جيوشه.

وبَلْخ من المراكز العلميّة العظيمة التي أنارت المنطقة قرونًا، وقد شهدت ازدهارًا واسعًا إبّان سيطرة ذي القرنين الموحِّد، ولمّا بلغها الإسكندر المقدونيّ، في اقتحامه الدولة الفارسيّة، دمّرها ونهب كنوزها، شأنها في ذلك شأن كلّ ما دخله من مدن. وفي الفتح الإسلاميّ عادت بلخ إلى دائرة النور، فكانت منارة علميّة عالميّة، ونبغ فيها عدد من كبار العلماء في شتى المعارف.

وكان هذا دأب الفاتحين المسلمين حيثما حلّوا، يفتحون المدارس، ويؤسّسون الجامعات، ويعلّمون الناس، ويُشيعون العدل، وينشرون التوحيد. ولئن تقهقر المسلمون اليوم أو تفكّكوا سياسيًّا وإداريًّا واقتصاديًّا، فإن حضارة الإسلام حيّة محفوظة حِفظَ الذكر الذي قال تعالى فيه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ٩: الحجر، حتى إذا ما ثابت البشريّة إلى رشدها وجدت أمامها، وعلى مدّ البصر والبصيرة، المحجّة البيضاء التي لا يضلّ سالكها.

حمل المسلمون الفاتحون إلى العالم حلولاً لأكبر مشكلاته وأكثرها تعقيدًا، بالتوحيد أوّلاً، وبصوًى فكريّة وتشريعيّة من روح الحقّ الذي أقام الله عليه الوجود... كاستفتاء القلب، وإحياء الفكر الفعّال، الذي يفقه دور الفرد ودور الجماعة ومعنى المصلحة العامّة، ويعي مفهومَي التطوّر والتجديد، وما ينبغي أن يُفتح لهما من السبل، تحت مظلّة الصهر الرشيد في بوتقة الإسلام، وضمن إطار التوحيد، وما يُفرزه ذلك من إضافات في الفتوى.

لقد طبعت الإسلامَ روح الودّ، لأنّه يأخذ الناس بالكلّيّات، ويتسامح وإيّاهم في الجزئيّات، وهو ما أسّس له النبيّ ﷺ بما شاع من قوله عمّا يُسأل عنه، ما لم يكن إثمًا: «قد أجزأك»،

وعندما كان يختار أيسر الأمرين إذا خُيّر .

ففي الأزمات الملجئة، حيث يغدو بحث العقول البشريّة عن المخرج حقيقيًّا ومصيريًّا، يتقدّم الإسلام في نسخته الأصليّة الخالدة بكلّ الحلول الحقيقيّة المُجدية، التي تتقبّلها الفطرة الإنسانيّة، وتزدهر وترقى في ظلّها.

استبدّ بالإسكندر المقدونيّ الشعور بالعظمة إلى درجة فقدان التوازن، حتى إنّه ادّعى الألوهيّة، ممّا جعل الخلاف يدبّ بينه وبين صديقه الأثير، وذراعه الأيمن كليتوس الحكيم الموحِّد. ثم انتهى به الأمر إلى قتله، ممّا كان له، إضافة إلى جنون العظمة الذي ابتُلي به، أثره البالغ في التياث عقله، وانحداره نحو النهاية.

الملك الصالح

ذو القرنين في القرآن العظيم مؤمن موحِّد رحيم ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ٩٨ : الكهف، وبطل حكيم صالح، له سياسة رشيدة فيما فتح من ممالك الأرض، فقد عُرف عنه العدل والموضوعيّة في معاملته لرعاياها، والقيام على شؤونهم بما يصلحها.

ولم يكن ذو القرنين نهّابًا، كما كان الإسكندر المقدونيّ، الذي أنهك المملكة الفارسيّة بالاستيلاء على عيون منجزاتها الحضاريّة، ونقلِها إلى بلاده، في حين أن لذي القرنين موقفًا غاية في النبل حين بلغ بين السدّين، فقد كان الناس عاجزين عن دفع أذى يأجوج ومأجوج المفسدِين، فطلبوا مساعدة ذي القرنين عارضين عليه المقابل: ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ ٩٤ و٩٥: الكهف، وكان يستطيع أن يتقاضاهم ما شاء.

وممّا يشير إلى كون ذي القرنين والإسكندر المقدونيّ شخصيّتين متخالفتين أن اليهود، وهم المقصودون بالآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ ٨٣: الكهف، ما كانوا ليسألوا النبيّ عنه لولا أن عندهم منه خبرًا. وخبر اليهود تجده في الإصحاح الثامن من

«رؤيا دانيال»، إذ رأى كبشًا ذا قرنين، تنفتح أمامه السبل، ولا يستطيع أحد التصدّي له، فيأتيه تيس من الغرب بقرن واحد فوق أنفه فيقتله. وأوّله اليهود بأن الكبش ذا القرنين هو ملك مادي وفارس، أمّا التيس، فهو ملك اليونان الذي سيقضي على مُلك فارس.

وصدّقت الأحداث رؤيا دانيال تلك[1]، فقد أسقط كورُش الفارسيّ الممالك من حوله واحدة تلو الأخرى، ولم يستطع أن يقف في وجهه أحد، وأقام إمبراطوريّة هائلة، ظلّت تتحكّم في العالم حوالي ثلاثة قرون، ثم انتهت على يد الإسكندر المقدونيّ، وبالطريقة التي انتهى بها الكبش ذو القرنين في رؤيا دانيال التوراتيّة.

وبهذه الأدلّة وغيرها أثبت كثير من الباحثين أن ذا القرنين والإسكندر المقدونيّ شخصيّتان متباينتان. والأرجح أن ذا القرنين هو كورُش العظيم الفارسيّ. وهو أوّل ملوك فارس القديمة. وقد كتب هيرودتس المؤرّخ اليونانيّ كثيرًا عنه، وأشاد بخلقه وشجاعته وعدله. وروي كذلك عن بعض علماء المسلمين أنّه قديكون نبيًّا، كما تجدر الإشارة إلى أن بعض صحابة رسول الله كانوا يظنّون أنّه من الملائكة.

وللمفسّرين كلام طويل في سبب تسميته بذي القرنين، منه أنّه كان طيّب الأصل من جهتي أمّه وأبيه، ومنه أنّه قد جُمِعَ له الليل والنهار، أو أُعطي الظلمة والسحاب... وقد قيل: ملوك الدنيا أربعه: اثنان مؤمنان، واثنان كافران، المؤمنان سليمان بن داود وذو القرنين، والكافران النمرود وبختنصر.

* * *

توسّع ذو القرنين غربًا في القرن السادس قبل الميلاد، فأخضع ليديا، وقهر مملكة بابل التي لا تُهزم، وتوسّع شرقًا ففرض سيطرته على الإمبراطوريّة الميديّة المنافسة لمملكته. وقد عرض لنا الذكر الحكيم ثلاثًا من رحلات ذي القرنين، حيث كان في كلّ رحلة يضمّ إلى إمبراطوريّته ما يجتازه من ممالك وإمبراطوريّات:

(١) ولعلّ الرؤيا هي التي وافقتها، وذلك في غياب التاريخ الحقيقي لتدوين الأناجيل.

obeikandl.com

إلى مغرب الشمس

بدأ كورُش التوسُّع غربًا بالاستيلاء على مملكة ليدية، التي نعرفها باسم الأناضول، وأسرِ ملكها. وكان التقليد أنّ من ينتصر عسكريًّا يقتل الرجال والقادة والملوك، وينهب الأموال والنفائس، ويسترقّ الناس. ولكنّ ذا القرنين عامل الناس بالحسنى، والرحمة والرأفة ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ ٨٨: الكهف. وكان ذلك تصرّفًا حضاريًّا راقيًا، كرّس قواعد أخلاقيّة قيّمة بشهادة القرآن الكريم.

وممّا يُروى عن سيرته في ليديا ما ذكره المؤرّخ هيردوتس من أن ملك ليديا لم يكن فاسدًا، ولكن كانت حوله حاشية سيّئة أرهقت الناس، فجمع كورُش له حطبًا كثيرًا، ووضعه عليه، وتظاهر بأنّه سيضرم النار فيه. فلما رأى فيه صمودًا ورباطة جأش، أُعجب به وأكرمه، وجعله في كنفه إلى أن مات معزّزًا مكرّمًا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ ٨٦: الكهف... توغّل ذو القرنين غربًا، حتى إذا ما أوقفه البحر عند سواحل بحر إيجة، حيث يلتصق الماء بالسماء لدى منتهى مرمى البصر، وتغوص الشمس في المياه المنكدرة الممتدّة وراء الخلجان الكثيفة، أيقن ألاّ يابسة دون مغرب الشمس فيمضي إليها بجيشه[1]. ولعلّ المقصود بكونه وجد الشمس تغرب في عين حمئة أنّه من موقعه على ساحل بحر إيجة بدت له الشمس تغوص في نقطة قصيّة من الأفق وراء المياه القاتمة، وقد اصطبغ المشهد بألوان الغروب المحمرّة الحارّة.

إلى مطلِع الشمس

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ ٩٠: الكهف. ورحلة ذي القرنين إلى مطلع الشمس، أي باتّجاه الشرق، أدنى إلى أن تكون رحلة

---

(١) يقول ياقوت الحموي: "لما بلغ إلى موضع لا ينفذه أحد صور فرسًا من نحاس، وعليه فارس من نحاس ممسك يسرى يديه على عنان الفرس، وقد مد يمناه وفيها مكتوب: ليس ورائي مذهب". [معجم البلدان: الإسكندرية].

استكشافيّة، حيث قصد أصقاعًا فيها قبائل همجيّة، مجهولة التاريخ، غريبة عن الحضارة السائدة عصرئذ، لم تتّصل بالمعمورة المتمدّنة إلاّ عبر غارات وحشيّة تشنّها بغرض السلب والنّهب.

هذه القبائل الهمجيّة هي التي دعاها القرآن العظيم بيأجوج ومأجوج، وذكرها كتّاب التوراة والمؤرّخ هيردوتس ومؤرِّخو المسلمين، ووصفوا كثرة أعدادها، وما كانت عليه من الفوضى والجلافة والجفاء، وانعدام الروابط فيما بينها، ممّا جعلها تفتقر إلى الأعراف والتقاليد. وكانت لهؤلاء لغةٌ محلّيّة خاصّة بهم، فهم ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ٩٣: الكهف، وقد تأوّل بعضهم قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ ٩٩: الكهف، أنّهم يأكلون لحوم البشر.

ممّا جاء في الذكر الحكيم عن يأجوج ومأجوج يمكننا أن نستنتج أن الكلمتين تطلقان على مجموعات من الفوضويّين والهمجيّين. وربّما كان ذلك يعني الذين يؤجّجون الفتن، ويسعون في سيادة الفوضى. ولهم ذكر في التوراة، وفي أدبيّات اليونان، حيث يُسمَّون غاغ وماغاغ، وهي تسمية غير ذات مدلول محدّد، وتطلق على من يتّصفون بما سبق ذكره. ولعلّها كانت في أصلها عبارة ذات مدلول، ثم انتهت إلى هذا الشكل القريب من المنحوتات، حيث صارت محض إشارة صوتيّة إلى مسمًّى معهود.

وفي آخر زيارة له إلى البقيع قال النبيّ ﷺ: «فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها»[1]. وصدقتْ نبوءة رسول الله، فقد زحف التتار على الإمبراطوريّة الإسلاميّة من تلك الفجوات التي كان قد أحدثها الإسكندر المقدونيّ، ودمّروها. ثم استوعب الإسلام العظيم هؤلاء المخرّبين، ووجّه بأسهم في سبيل الله الحقّ.

(١) صحيح البخاري: ٣١٦٨.

وكانت تلك الجموع الفاسدة، المفسدة في الأرض، تهدّد الممالك من حولها، ومن ضمنها مملكة ذي القرنين نفسها ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ٩٤: الكهف، أي سوف يفسدون فيها.

إلى ما بين السدّين

اتّجه ذو القرنين شمالاً، فوصل إلى الأرض المأهولة بالمتمدّنين في جبال القوقاز، بين بحر قزوين والبحر الأسود. ومن المعروف أنّه، في الألف السابع قبل الميلاد، كان بدو منغوليا الرُحَّل من المغول يجتازون مضيق القوقاز، ويشنّون الغارات على شعوب السهول، حتى وصلوا إلى نينوى في شمال العراق، ممّا جعل ملك الصين يبني ذلك السدّ، الذي عرف، وما يزال، بسدّ الصين العظيم، لدرء خطر القبائل المغوليّة.

وقد استعان السكّان في الأقاليم بذي القرنين، ليقيم لهم سدًّا مشابهًا، يحميهم من هجمات هؤلاء .﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ٩٤: الكهف؟. ولكنّ ذا القرنين أبى أن يجعلوا له خرجًا، أي أن يدفعوا له أجر ذلك العمل، وقال: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ٩٥: الكهف(١).

لم يكن المال يُعوِز ذا القرنين للقيام بذلك، ولكنّه طلب أن يُعِينوه بالقوّة المدنيّة، أي بآلة الإنشاء، من مصمّمين وحرفيّين وفنيّين. والقوّة المدنيّة لا تكون ناجعة إلاّ إذا توفّر الانسجام والتعاون بين الحاكم وشعبه. فإن لم يكن الشعب مؤمنًا بحاكمه إيمانًا كاملاً فلن يستطيع ذلك الحاكم أن يقدّم مدنيّة، لأنّه لن يلقى التعاون المطلوب من القوى التي تصنعها. فاستِعانة ذي القرنين بالقوّة المدنيّة، في الأقاليم التي فتحها، تعني أنّه كان وشعوبها على وفاق وانسجام أدّيا إلى تحقيق الإنجاز الذي يريده الطرفان.

وقد تبيّن أن تلك المنطقة تتمتّع بقوّة مدنيّة ذات سويّة متميّزة. وما يزال صنّاع تلك الأقاليم، حتى يومنا هذا، يُعرفون بالبراعة والكفاءة في الأشغال اليدويّة.

---

(١) والفرق بين السد والردم: أن للسد بوابة تُفتَح وتُغلَق، أما الردم: فهو غلق كامل ليس فيه فتحة. فكأن ذا القرنين أدرك خطورة هذه القبائل، فجعل دونها ردمًا.

القوّة أنواع، فهناك القوّة المدنيّة وهي الآلة والمهندسون والعلماء وأصحابُ الحرف والصناعات، وهناك القوّة العسكريّة، وهي كذلك أنواع، وعلى رأسها الرمي. وقد قرأ ﷺ في خطبة له: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ٦٠: الأنفال، وقال: «ألا إن القوّة الرمي، ألا إن القوّة الرمي»[1]. والرمي مهمّة سلاح الجوّ في جيوش اليوم، ومعروف دور السلاح الجويّ في الحروب الحديثة، حيث يستطيع أن يُسقِط الدولة المعادية من غير أن يخسر جنديًّا واحدًا.

وهنالك نوع آخر من القوّة هو قوّة الإنسان، وهي قيم وأخلاق وفلسفة وعدل ودين. وتلك هي قوّة الحضارة، الروح الخاصّ المميّز للأمّة. وذلك أرقى أنواع القوّة، وأكثرها فاعليّة. وفي وسعنا أن نلمس مصداق هذا في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة، حيث لم تستطع التكنولوجيا العسكريّة المتفوّقة أن تحقّق الأمن لإسرائيل، ولا أن تحسم المعركة الحيّة المتواصلة بينها وبين بقايا الشعب الأعزل المقموع، المحاصر بأكثر آلات الحصار بطشًا وجبروتًا. ممّا أسقط نظريّة تفوّق العتاد والآلة، وكرّس الغلَبة لقوّة الإنسان.

اختار ذو القرنين لردمه مضيقًا جبليًّا استراتيجيًّا، كانت تتسلّل منه القبائل الهمجيّة، فتهاجم المدن والتجمّعات السكانيّة في المناطق المجاورة. وفي نصّ الكتاب العزيز تفاصيل حيويّة لعمليّة إقامة ذلك الردم: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ ٩٦: الكهف. فقد كلّف ذو القرنين السكّان بجمع المادّة التي استخدمها، وهي قطع الحديد، ولعلّه قد جعل فيه معادن أخرى، وجلاميد من الحجر الصلد، وقد استخدمت كلمة الحديد على التغليب.

وأمر ذو القرنين العمّال بركم الزُبَر بعضها فوق بعض، في معبر مختار من المضيق السالف الذكر، حتى أغلقته تمامًا. ويبدو أن القوم كانت لديهم وسائلهم وأدواتهم،

---

(١) صحيح مسلم: ١٩١٧.

القادرة على إحماء تلك المعادن، كالمنافيخ الضخمة التي تُشغَّل من بعيد، والمراجل الهائلة التي تستوعب كميّات كبيرة من المعادن لصهرها، والمنجنيقات التي تحمل تلك المواد لتُسكَب فوق الركام. فأحموا الركام بالمنافيخ، وأذابوا كميّات هائلة من النحاس، أفرغوها عليها، فتشكّلت من ذلك كتلة صلدة متماسكة، جعلت المعبر كأن لم يكن.

وكان ذلك السدّ عصيًّا، ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ ٩٧: الكهف، وقد يكون ذلك لملاسة جانبيه وحدّة البروزات في سطحه، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ ٩٧: الكهف، أو لمتانته وصلابته. ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ ٩٨: الكهف، يقول الطبريّ في تفسيره: "فإذا جاء وعد ربّي، الذي جعله ميقاتًا لظهور هذه الأمّة، وخروجها من وراء هذا الردم، سوّاه بالأرض، لتتمّ إرادته". وهكذا بدا كورُش موحِّدًا يؤمن بالله واليوم الآخر، كما بدا ملِكًا عادلاً عاقلاً بارعًا. وقد حظيت الممالك في شمال آسيا بالأمن الذي كانت قد تفقدته قبل أن يقيم ذو القرنين ذلك الردم الذي خلّده الذكر الحكيم.

*

ووصل جيش ذي القرنين إلى مصر، ولكن لم يتمّ ضمّها إلى الإمبراطوريّة الفارسيّة إلاّ في عهد ابنه قمبيز بن كورُش. وظلّت الإمبراطوريّة حوالي ٢٥٠ سنة، وهي على ما هي عليه من العدل والحكمة والقيم العالية. ثم قضى عليها الإسكندر المقدونيّ.

ذو القرنين وردمه

وفي بعض كتب التفسير أن ردم ذي القرنين ما يزال منه ما هو قائم، والقومَ الذين بُني فيهم ما يزالون يسكنون المنطقة. وهذا ممّا يُعتمَد في التأويل في زمانه، أمّا فيما يلي من الزمان، فإن توفُّر الثقة بمثل هذا النصّ تقوم مقامه. فإذا استطعنا اليوم أن نطمئنّ إلى صدق مثل هذا النصّ[١]، فهو وثيقة تقوم مقام المشاهَدة التي نتج عنها في حينه، ويمكننا اعتماده في تأويلنا.

(١) وللتثبت من صدق النصوص على اختلاف أنواعها طرق معروفة.

وقد نجد من يحشد الأرقام المبالغ فيها عن طول هذا الردم، وعرضه، وارتفاعه، وليس في النصّ القرآنيّ، ولا فيما يقال إنّه بقايا الردم، ولا في بدائيّة وتخلّف من أُقيم الردم لصدّهم، ما يشير إلى ضخامة العمل من حيث حجمه. فقد لا يعدو ردمُ ذي القرنين حجمَ مبنًى سكنيّ عاديّ من مباني اليوم. ولكنّنا نقرأ وراء الواجهة المتصدِّرة للكلمات القرآنيّة لفتًا إلى كونه فكرة ذكيّة من عقل مبدع، قادر على البحث الحرّ عن حلول مبتكَرة للمشاكل، وعَضْلٍ فعّال للمعضلات. وهذا ما أضافه ذو القرنين إلى القوّة المدنيّة المحليّة، فاستخرج أقصى فعاليّتها، في حين لم يهتد أصحابها إلى ذلك.

ولم يَسلم ذو القرنين من أحابيل الفكر الخرافيّ، شأنه في ذلك شأن ردمه، فقد أورد كثير من المفسّرين روايات منقولة عن الإسرائيليّات تزعم أن الملائكة كانت تمشي معه، وأنّه قد سُخّر له الظلمة والنور. ولكن لدينا في المقابل ما هو موضوعيّ ومعقول، ومنه ما ذكره ابن عبّاس من أن السدَّين جبلان شمال أرمينيا وأذربيخان، وما جاء في صحيح البخاريّ من أن رجلاً قال للنبيّ ﷺ: «رأيت السدّ مثل البرد المحبّر. قال: رأيته»[1].

وممّا قيل عن ذي القرنين إنّه كان من أتباع زردشت، والأرجح أن زردشت من الأنبياء الذين افتُريَ عليهم، حتى إنّه اتُّهم بالقول بتعدُّد الآلهة، في حين أنّه كان موحِّدًا، كما وصفه الشهرستانيّ «وكان دينه: عبادة الله، والكفر بالشيطان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الخبائث»[2]. وقد اختفت حقيقة زردشت مع اختفاء مدوَّناته الأصليّة، ودُسّ عليه ما شَوّه معالم فكره، تمامًا كما أُخفيت التوراة منذ أيام بختنصر، وراح الأحبار يكتبونها من ذواكرهم، ويدسّون فيها دسًّا مقصودًا وغير مقصود، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

* * *

(١) صحيح البخاري باب قصة يأجوج ومأجوج.

(٢) الملل والنحل ١: ٢٣٧ .

١٨
يُونــس
عليه السلام

السلام عليك أيها المكرَّم بقول سيّد خلق الله: لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متّى.

السلام عليك وأنت تغادر مغاضبًا، فيُعيدك تدبير الحكيم العليم منيبًا، في لحظة انصدعت فيها كلّ الحجب عن فطرة الحقّ فيك، وانطلق نداؤك الخالد: لا إله إلاّ أنت، سبحانك. إنّي كنت من الظالمين.

❋ ❋ ❋

رفض أهل الطائف دعوة رسول الله ﷺ، وطارده صبيتهم بالحجارة حتى أدمَوا عُرقوبيه، فالتجأ إلى بستان في منقطَع من بيوتهم، «فلمّا رآه ابنا ربيعة عُتبة وشَيبة، وما لقي، تحرّكت له رحمهما[١]، فدعَوا غلامًا لهما نصرانيًّا، يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قِطفًا من العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له أن يأكل منه.

ففعل عدّاس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كُل. فلمّا وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: باسم الله.

ثم أكل. فنظر عدّاس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.

---

(١) الرحم: الصلة والقرابة.

فقال رسول الله ﷺ: ومن أيّ البلاد أنت ياعدّاس، وما دينك؟

قال: نصرانيّ، وأنا رجل من أهل نينوى.

فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى؟

فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ والله لقد خرجت منها ـ يعني نينوى ـ وما فيها عشرة يعرفون ما متّى؟

فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبيًّا، وأنا نبيّ.

فأكبّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه»[(١)].

وفي الحديث الصحيح: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متّى»[(٢)].

❋

وفي الذكر الحكيم: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ٩٨: يونس. وقوم يونس هم أهل نينوى. ونينوى في الأخبار أوّل مدينة على وجه الأرض، ويرتبط باسمها ذكر عدد من أوائل الأنبياء كآدم وإدريس وشيث وجرجيس ويونس[(٣)]، ففي تلك المنطقة من أرض الرافدين كانت مواطن إبراهيم ويعقوب ويوسف وإسحاق، وجنة آدم التي أُهبط منها إلى الأرض، وأوّل حضارةٍ معروفة مارس فيها الإنسان دوره في الأرض عندما استعمره الله فيها.

وقوم يونس الذين ذكرتهم الآية هم أهل نينوى، وهم مجتمع كبير منظّم مزدهر: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ١٤٧: الصافات. ومائة ألف في تلك الأيّام تعني مدينة مزدهرة عظيمة. وقد متّع الله أهل نينوى بوفرة الخيرات والنعم الظاهرة منها والباطنة. ولكنّهم لم يلبثوا أن جرت عليهم سنّة الله في الناس، إذ طال عليهم الأمد،

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ٤٢١.

(٢) صحيح البخاري: ٣٢٣٤.

(٣) لا تزال قبور هؤلاء الأنبياء في الموصل وقد أقيمت عليها مساجد. ولا يزال أهل المنطقة يكثرون من تسمية أبنائهم بأسماء هؤلاء الأنبياء، ويطلقونها على الشوارع والمحلات والمنشآت العامة.

فتحوّلوا عن التوحيد، الذي عرفته المنطقة منذ أيام إبراهيم، إلى عبادة التماثيل التي نحتوها لصالحيهم وأنبيائهم. وهو أمر اطّرد في تاريخ الأمم، ولذلك حرَّمَ الإسلام التماثيل. ومن هنا قال النبيّ ﷺ: «ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي»[١].

وبعث الله إلى أهل نينوى سيّدنا يونس عليه السلام، فقام فيهم يدعوهم إلى الإسلام، فلم يؤمن له إلاّ اثنان، عالمٌ زاهدٌ، وفيلسوف حكيم، فيما لبث الآخرون في طغيانهم يعمهون.

وقد عانى يونس من لا مبالاة قومه، وإخلادهم إلى الأرض، وفقدانهم الرغبة في إعادة التفكير فيما لديهم، فكان يضيق صدره حينًا[٢]، وينال منه الحزن والهمّ والغضب حينًا آخر، لما يجبهونه به من الاعوجاج والضلال. وذلك بعض من معاناة الدعاة إلى الله، وعلى رأسهم الأنبياء، ويلاحَظ، في أكثر من موضع في الذكر الحكيم، أن الله الحقّ يصرف النبيّ عن التألُّم والتحسُّر في مثل هذه المواقف ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ ٨: فاطر، و﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ٦: الكهف.

وذا النون إذ ذهب مغاضبًا

قال تعالى فيما يقصّ علينا من أحسن القصص: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ ٨٧: الأنبياء...[٣] لقد انصرف يونس عن قومه مغاضبًا برمًا بما هم عليه، وبمعاناته في دعوتهم[٤]. واختُلف في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ ٨٧: الأنبياء. فذهب أكثرهم إلى أنّه هجرهم ظانًّا أن ربّه لن يضيّق عليه في الحساب، وذهب سيّد قطب إلى أنّه ظنّ أن الله لن يحصر دعوته في هؤلاء العصاة، بل يوجّهه إلى قوم آخرين[٥]. وذلك من قبيل الطمع برحمة الله وإكرامه.

---

(١) صحيح البخاري: ١٢٧٩ .

(٢) قال الطبري: وكان رجلاً في خلقه ضيق.

(٣) والنون الحوت، وذا النون، أي صاحب النون، لقصّته معه.

(٤) وقيل غير ذلك. انظر تفسير الآية في البحر المحيط لأبي حيان وفي التفسير الكبير للرازي.

(٥) في ظلال القرآن تفسير الآية.

وأخطر ما يصيب الأنبياء والأولياء والصالحين أنّهم يكونون عرضة لشيء من التمادي والتجاوز، لما يرون من إكرام الله لهم، ولما يشعرون من كونه معهم، ولما قد يخصّهم به من كرامات. وقد يصل حُسن الظنّ بالله ببعضهم إلى ما لا ينبغي لبشر في مقام العبوديّة.

ولهذا نرى أنّه كلّما أكرم ربّ العالمين عبدًا أو نبيًّا أو رسولاً إكرامًا خاصًّا نبّهه إلى أنّه في مقام العبوديّة، وأنّه بشر، محكوم بمحدوديّة القدرة، وقصورها عن الكمال، وليس له أن يطاول المطلَق أبدًا. ففي كلامه عزّ وجلّ عن الإسراء والمعراج، ذلك الفتح الهائل، الذي أوصل سيّدنا محمّدًا إلى سِدْرة المنتهى، قال الله الحقّ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ١: الإسراء... توكيداً لكونه، مع هذا المقام الرفيع، في موقع العبد من سيّده، وأن عليه أن يزداد تواضعًا وذلّة وخشوعًا أمام الكبير المتعالي..

ولم يكن يونس عليه السلام الوحيد الذي خاض هذه التجربة الهاصرة، تجربة التدلُّل على الله. فقد أكل آدم عليه السلام من الشجرة بعد أن نُهي عن مجرّد الاقتراب منها ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ ٣٥: البقرة، فأهبطه الله من الجنّة، وسئل موسى عليه السلام: من أعلم أهل الأرض؟

فقال: أنا.

وكان أحرى به، وهو في مقام العبوديّة، أن يقول: الله أعلم. فردّه الله إلى العبد الصالح، وكان ما كان. وقال داود عليه السلام: لأعدلنّ بينكم، ولم يقل: إن شاء الله، فتسوّر عليه الخصمان، فحكم بينهما، فجانَب الصواب، وتبيّن له عجزه عن أخذ نفسه بما وعد به.

سلسلة من الخروقات لحدود موقع العبوديّة، نبّه الله أنبياءه إليها بدروس بليغة، لهم وللناس جميعًا، بإطلاق الزمان والمكان والظرف والجنس.

وفي صحيح مسلم أن رسول الله حدّث أن رجلاً قال: «والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: من يتألّى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ فإنّي قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك»[1]، وفي فتاوى ابن تيميّة، رحمه الله، أن الوليّ قد يكون منه شطحات من باب الدلال على الله، فيهوِي... وإذا هوى الوليّ فلا يقوم بعد ذلك.

---

(١) صحيح مسلم: ٢٦٢١.

هذه الثقة بالعلم والجرأة في الحكم والاعتداد بالمعرفة والمنزلة، التي تصل بصاحبها إلى حدّ القسَم عليها، ينبغي الحكمة في معالجتها، والتحذير من التماديّ فيها، ذلك أنّها تُضرّ بأصل العقيدة القائم على أن الكمال والإطلاق في كلّ أمر، وفي كلّ شيء لله، وأن الإنسان كائنًا ما كان، وبالغًا ما بلغ، فهو في دائرة العبوديّة الحتميّة لله الحقّ حكمًا.

ونقرأ في أخبار يونس عليه السلام: ما إن غادر يونس نينوى حتى سدّت الأفق غمامة سوداء مريبة، فقال عقلاؤها: أيّها القوم ما من نبيّ ترك قومه إلاّ حلّ بهم العذاب.وهذا يونس ما سمعنا عنه كذبًا قطّ، ولم نكلّف أنفسنا عناء التفكير فيما كان يدعونا إليه، حتى غادر المدينة يائسًا مخذولاً. وهذه بوادر ما أنذَرنا إيّاه تلوح في الأفق... فلعلّه نبيّ حقًّا، فنهلك بتكذيبه.

تشاور أهل نينوى بعقلٍ وحكمة، وأعلنوا توبتهم عن مواقفهم من يونس، وإيمانهم بما جاء به. بل أتبعوا ذلك بخطوات عمليّة، فردّوا المظالم فيما بينهم. وذلك ممّا كرّسه الإسلام، حيث الله سبحانه وتعالى قد يعفو عمّا بينه وبين العبد، إلاّ حقوق الناس فإنّه يكِلها إليهم، ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ ٣٩: المائدة. والإصلاح ردّ المظالم والحقوق إلى أهلها.

وكان عملاً جماعيًّا خارقًا، تجلّت فيه فضيلة تحكيم العقل، وسرعة البديهة، وشُفع ذلك بالتحرّك السريع، فتمّ التغيير في سباق مع الزمن، وفي استباق لما قد تقذف به تلك الغمامة القائمة فوق الرؤوس كالقدَر. وهكذا كشف الله عن قوم يونس عذاب الخزي.

قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها

وجعل الله نينوى نموذجًا ومثالاً للمجتمع الذي يعود إلى الله معتبِرًا قبل وقوع البلاء ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ٩٨: يونس. وقيل في قوله «إلى حين»: إلى يوم القيامة. وهو قول ابن عبّاس، ولعلّ المراد ما كُشف عن قوم يونس إنّما هو العذاب

الذي يجرّه عليهم عدم التصديق بالأنبياء والرسل، وهو كذلك الذي نزل بقوم لوط وقوم صالح وقوم هود، ولكنّهم سوف يحاسَبون في الآخرة على ما تسبّبوا فيه من العذاب النفسيّ والجسديّ ليونس، لأنّه من حقوق العباد، فهم قد آمنوا، ولكن لبَسوا إيمانهم بظلم. فتقييد العذاب بقوله: «إلى حين» يعني إلى أن يموت هؤلاء، أمّا ذراريهم، الذين لم يَلبِسوا إيمانهم بهذا الظلم، فلا يزالون، إلى ما شاء الله، يتمتّعون.

ويؤيّد هذا أنّه لا تزال في أهل الموصل بركة من ذلك حتى اليوم، حيث اجتمعت لهم نعم الدنيا إلى نعم الآخرة. فمن إقامة واضحة لشعائر الإسلام، وبروز لسَمته، إلى كثرة المدارس والعلماء والدعاة، إلى منَعة ظاهرة من الانحرافات الفكريّة، فلا يستقرّ في الموصل انحراف إلاّ ريث يقوم من أهلها من ينسفه مؤيَّدًا بالرأي العامّ فيها، وذلك مصداق قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ٨٢: الأنعام.

وبينما راحت نينوى تمطَر برحمة الله وغفرانه، كان يونس يمعن هاربًا بمأساته إلى الشام ففلسطين في الفلك المشحون.

*

غادر يونس ﷺ نينوى مغاضبًا قومه، وانتهت به الطريق إلى الساحل، فزجّ بنفسه في أوّل سفينة تتحرّك دون أن يسأل عن وجهتها، فقد كان كلّ ما يهمّه أن يبتعد أكثر فأكثر. ولم يكن يعرف ما الذي يريد أن يبتعد عنه، ولا إلى أين يريد الذهاب، ولا الغرض من ابتعاده وهربه ذاك... ولعلّه كان يريد الهرب من السؤال الذي يحاصره، ويعصف بكيانه: لماذا فعلت ذلك؟

وراح يونس يتنقّل بين الموانئ والشواطئ على غير اختيار أو هدًى، وهو يجاهد ليتخلّص من صورة قومه يسخرون منه ومن دعوته، ومن وعيده وإنذاره، وقد ازدادوا جحودًا وتكذيبًا.

كان البحر رهوًا، وكانت السفينة التي استقلّها يونس ﷺ تجري بها ريح طيّبة هادئة. وعلى حين غرّة جاءهم الموج من كلّ مكان، وظنّوا أنّهم أُحيط بهم. وتصايح أهل السفينة: بيننا عبد آبق.

وكان اعتقادًا أن البحر يبتلع كلّ سفينة تُقلّ عبدًا آبقًا، فإن استطاع ركّابها اكتشاف ذلك العبد ألقوا به إلى البحر، ليهدأ وينجو الناس، وإن عُمّي عليهم ذلك ألقوا بأقلامهم يقترعون، فمن وقع عليه القلم فهو القُربان بلا نقاش[١]. ووقع القلم على سيّدنا يونس.

فالتقمه الحوت وهو مليم

وألقي يونس في البحر... وما إن تلقّفه الموج الغاضب، والتهمته لججه، حتى تجلّت الحقيقة للقلب النبيّ الرازح تحت وطأة خطيئته. وفي مثل لمح البصر، وحيث ينعدم أثر الزمن، قلَّب يونس الأمر، فأدرك أنّه حقًّا ذلك العبد الآبق، فقد انهزم أمام طغيان الباطل، وفرّ إلى الفلك المشحون. وهنا ملأه يقين عجيب بأن رحمة الله أكبر من ذنبه، ونفحه الإيمان الراسخ إحساسًا عجيبًا بالأمن والطمأنينة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ٨٢: الأنعام.

وفي لجج الموج التقمه الحوت... ظلمة تضاف إلى الظلمات، ويجبر كلَّ ذلك تعلُّق القلب النبيّ بالله خالصًا مخلصًا لا يريد إلاّ وجهه، ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ٨٧: الأنبياء. وكانت لحظاته تلك إماطة لكلّ أنواع اللثم، وهتكًا لكلّ أصناف الحُجب دون النقاء الكامل اللائق بنبيّ... لحظات خارج الزمان والمكان والحلم، حيث يعود الإنسان روحًا من أمر الله، كما كان عندما قضى الله الحقّ أن يكون.

لقد كان سيّدنا يونس في هذه الظلمات قريبًا من الله كما كان رسول الله ﷺ عند سدرة المنتهى، وكما كان موسى عليه السلام في الوادي المقدس، فالقرب من الله واحد لا شرط له إلاّ أن يسأل العبد عن ربّه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ ١٨٦: البقرة... أن يبحث عنه... فهنا يتّحد البحث والوجدان[٢]، كما تتّحد «كن» و«يكون» في أمر الله الحقِّ المطلقِ.

---

(١) وهو طقس معروف في أكثر الحضارات القديمة. وكان المصريون يتقون غضب النيل بإلقاء فتاة فيه، وقد ظلّ هذا الطقس قائمًا في بعض المناطق في مصر حتى الفتح الإسلامي، حيث ألغاه عمر بن الخطاب.

(٢) مصدر وجدَ يجدُ.

obeikandl.com

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٨٧: الأنبياء. . وجاءه التسبيح بالفرج ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ١٤٣و١٤٤: الصافات[1]. فمنذا الذي يتمالك، ويتذكّر مولاه الذي أبق منه في مثل هذا الموقف إلاّ أن يكون ممّن اصطفاهم الله؟!

يوسف عليه السلام في ظلمة الجبّ، حيث أوحي إليه «لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون»، ويونس في بطن الحوت، حيث صفا قلبه حتى صدر عنه النداء الخالد ما آب إلى الحقّ قلب شطّت به عنه خطاه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٨٧: الأنبياء، **وسيّد خلق الله في طريق العودة من الطائف، وقد أطبقت عليه الأحداث حتى كلّ ظهره، وكاد يُسحق القلب النبيّ، فكانت السماوات الملجأ، والأقصى المَراح.**

إنها لحظات من انعتاق الكيان من محبسه خلف قضبان الوجود المادّيّ، نادرة الوقوع، لكنّها لم تكن أبدًا بالغائبة عن تطلّعات وأشواق ذوي البصائر، وقد سجّلها الفكر الإنسانيّ في أوائل ما وصلنا من إبداعاته، وعلى رأسها دون منازع ملحمة الرافدين العظيمة «جلجامش» حيث تتوقّف الأنفاس، وتشتعل وثبات المنى ونحن نقف مع البطل في أعمق نقطة من مياه باطن الأرض، وقد ألغى كيانه كلّه في سبر فريد لقواعد هذا الوجود، وأدرك فيما ليس له انتماء إلى الزمان ما ظلّ يسعى إليه على امتداد أحداث الملحمة...

لحظات من الشدّة الهاصرة التي تحوّل الفحم في ومضة ماسًا خالصًا... لحظات من الفعاليّة غير العاديّة للكيان الإنسانيّ، تنفذ بصاحبها من أقطار الراهن إلى رحابة الممكن، وقد تضع بين يديه مفتاحًا من فضل الله ومَنّه لكلّ الأبواب التي يراها أو يتصوّر وجودها...

---

(١) والتسبيح نصف الميزان. فإذا كنت من المسبحين، فاعلم أن نصف حسناتك من هذا التسبيح.

وقذف الحوت بيونس إلى الشاطئ. وهناك إجماع على أن الحوت قد ابتلع يونس عليه السلام، وذلك لقوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ١٤٤: الصافات. واستنادًا إلى أحاديث تذكر أنّه كان في بطن الحوت. وتتعدّد تقديرات المدّة التي لبثها يونس في جوف الحوت، وليس وراء ذلك طائل، فليس للزمن حساب في دنيا الروح ومَدَيات الذات الخالصة، فقد يتمّ هنا في ثانية ما لا يتمّ في دنيا الواقع في سنين. كما أن مدّة لبثه عليه السلام في جوف الحوت لا علاقة لها بما أصابه من قروح وجراح، ويكفي أن نتذكّر تخبُّطه بين فكي هذا المخلوق الهائل في لجج الموج المعربد، لنتخيّل ما أصابه من ذلك.

يرسل النصّ إشارات لم أستطع تجسيدها تمامًا بالكلمات، وأوّلها الإشارة الواضحة في أوّل الخبر عبر كلمة «فالتقمه»، التي تعني أن يونس كان من الحوت في موضع اللقمة، أي دون البلعوم، لأنّه إذا بلغه فقد ابتُلع[1]، وعلى هذا يكون تقدير قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ١٤٤: الصافات، لابتلعه الحوت فمات، أي أن قوله: «لبث في بطنه» كناية عن الابتلاع، وليس تعبيرًا عن الالتقام، وقوله: «إلى يوم يبعثون» كناية عن الموت الذي لا قيامة منه إلاّ بالبعث.

فإذا أضفنا إلى هذا عدم تصديق العلم لتحمّل الجسد البشري الانتهاء من فم الحوت إلى معدته، بله ما زعموا من المكث في أمعائه. وإذا كان هناك من راحوا يعبثون بتحديد مدّة لبث يونس النبيّ في بطن الحوت، فإن هناك من تنبّه إلى دور العلم بل المنطق في الأمر، فقد نقل الرازي عن الحسن قوله: «لم يلبث إلاّ قليلاً، وأخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه»[2].

---

(١) واللقمة تطلَق على كمية من الطعام تُجعَل في الفم، بقصد أن تُمضغ ثم يُدفَع بها إلى الجوف، فالالتقام يخصّ هذه المرحلة من الأكل، وتأتي بعدها مرحلة البلع، وتبدأ بأن يصير الطعام إلى البلعوم وهو مختصّ بالبلع، أي دفع اللقمة إلى المريء، ومنه تصير إلى المعدة. ولا يعبّر بالالتقام عن البلع لأن البلع لا يفهم منه بالضرورة، ولكن يعبّر بالبلع عن الالتقام لأنّه يُفهَم منه، أي أن الالتقام لازم للبلع، لكن البلع ليس لازمًا للالتقام.

(٢) التفسير الكبير تفسير الآية ١٤٤ من سورة الصافّات.

وإذا أضفنا إليه أيضاً تصوّر الآليّة المتوقّعة للعمليّة، وما نتج عنها، والتي تتلخّص فيما يلي: لقد قيّض الله ليونس الذي يشرف على الغرق ذلك المخلوق الجبّار، والأرجح أنه من الدلافين[1]، فدخل فمه مع الماء، ولعلّه شارف بلعومه، ثم لفظه بردّة فعل طبيعيّة. ذلك أن هذه الحيوانات تلتقم ما يحمل الماء من أوشال البحر ورخويّاته، فتبتلع ما يصلح لها كغذاء، وتلفظ ما عدا ذلك، وأن يونس كان كتلة فلفظه، وأنّه ﷺ قد فَقَدَ الوعي نتيجة تلك الأمور مضافًا إليها الرعب، فاسترخى جسده، وطفا على سطح الماء، فقذف به الموج إلى الشاطئ.

وإذا أضفنا إلى ما سبق أن الأحاديث التي تذكر أن يونس ﷺ كان في بطن الحوت لم يذكرها البخاريّ ولا مسلم، قوِيت تلك الإشارات وصارت جديرة بالاعتبار.

ومن مجمل هذه الإشارات يمكن القول: إن الأمر لم يعدُ دخول يونس فم الحوت، واقترابه من بلعومه، ولفظ الحوت إيّاه مباشرة، وهي لحظة في حساب الزمن، ولكنّها في برزخ الفكر والقلب كافية لقدح شرارة التوبة والإنابة.

ألفى يونس نفسه على رمل شاطئ لا أنيس فيه، وكان كتلة من الآلام والقروح والرضوض وحيدًا سقيمًا، ولعلّه لم يكن يسمع أو يرى. وكانت تحتضن جسده المكدَّم المحرّق نبتة رخصة لطيفة، ذات أوراق واسعة، كأنّها الضمادات الواقية، أو الراحة الحنون تمسح على الجسد المثخن بالجراح، فتنزع الألم وتثبت الاطمئنان والسكينة.

هكذا دخلت دعوة سيّدنا يونس ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٨٧: الأنبياء، منظومة علاقة العبد بربّه في هذا الدين، فقد قال ﷺ: «لم يدعُ بها رجل مسلم في شيء قطّ إلاّ استجاب الله له»[2]. وفي رواية: أنّه للمؤمنين

---

(١) وهي من الحيتان، ولها أسنان صغيرة غير حادّة، لأنها ليست من آكلات اللحوم. وتتميز بأنها غير عدوانية، وتسبح بقرب السفن، وتستجيب لمداعبات البحّارة.

(٢) سنن الترمذي: ٣٥٠٥.

عامّة، فقد قال رسول الله ﷺ: «ألا تسمع قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٣: يونس». فالأمر عامّ لكلّ من يقولها مصدّقًا بها قلبه، وهي شفاء من الغمّ والكآبة.

* * *

أيقن الناس في نينوى أن يونس نبيّ، وأنّه كان يدعوهم إلى ما فيه خيرهم وصلاح حالهم، فتفرّقوا في البلاد المجاورة يتحرّون عنه. وفي الروايات أن خبر السفينة قد نمى إليهم، فلبثوا في أسف وحزن شديدين لغرقه. ولكنّ تجّارًا منهم مرّوا بذلك الشاطئ البعيد، فإذاهم يعثرون عليه وحيدًا، وقد عوفي تمامًا، فعادوا به إلى نينوى. وأدركوا أن نجاته معجزة، فتمكّن الإيمان من قلوبهم. وبدأ سيّدنا يونس بين قومه حياةً جديدة، مثمرة، ظلّت المدينة تنعم بخيراتها حتى يومنا هذا.

ولا يزال قبر يونس من أعظم معالم الموصل، حيث يراه القادم إليها من كلّ مكان لأنّه في مسجد يتربع على قمّة عالية، تُقام فيه الجمعة والجماعة، ويشكّل معلَمًا من معالم الحضارة القديمة، والتاريخ الإسلاميّ للمدينة.

* * *

الفصل التاسع عشر
زكريّا

عليه السلام

سيّدي صاحب النداء الخفيّ ... أيّة ثقة بالله كانت وراء ندائك ! وأيّ إخلاص للأمانة التي توشك أن تتركها للموالي من ورائك، كان!

سلام عليك يا أيها النبيّ الشيخ الشهيد، يا من درجَت في حضن قلبك العظيم العذراء الخالدة، فأثابك الله يحيى السيّد الحصور، الذي أخذ الكتاب بقوّة وأوتي الحكم صبيًّا.

* * *

الأنبياء أعظم الناس بلاءً، وأصبر خلق الله على البلاء، بل إن لهم من بلائهم لذّة ومتعة، ذلك أنّهم يحقّقون به العبوديّة الكاملة لله سبحانه وتعالى. وهذا الخُلق ممّا يؤهّلهم للاصطفاء، لأن الله أعلم حيث يجعل رسالته. وممّا ابتُلي به زكريّا عليه السلام أنّه بلغ من الكبر عتيًّا دون أن يرزقه الله الذريّة.

ورغم صبر النبيّين فقد بقي الأمر حسرة في قلب زكريّا، فكان دائم التضرّع إلى ربّه يسأله من يحمل إرثه، وإرث آل يعقوب من النبوّة: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ ٥ و٦: مريم. وكذلك كانت حنّة زوج عمران بن ماثان تتضرّع إلى الله في سرّها وجهرها أن يرزقها الولد.

ومنّ الله على حنّة، فحملت، فنذرت لله ما في بطنها محرَّرًا ينقطع لخدمة بيت المقدس، ومات زوجها قبل أن تضع حملها، وراحت تحلم بأن يكون الجنين ذكرًا، ليأخذ مكان أبيه على رأس السدنة والرهبان والأحبار في بيت المقدس. ولكنّ امرأة

عمران رزقت بأنثى، ولا تصلح الأنثى للسدانة ولا لملازمة بيت المقدس، ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ ٣٦: آل عمران... هذا ما رأته امرأة عِمران، ولكن كان الله شأنًا آخر، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ ٣٦: آل عمران، فقد تقبّل الوليدة بقبول حسن، وسوف ينبتها نباتًا حسنًا في كنفٍ حسن.

*

وكفّلها زكريّا

بلغ أمر اليتيمة المنذورة سدنةَ بيت المقدس، وكانوا تسعة عشر راهبًا، فتنافسوا في كفالة مريم ورعايتها، كلّ منهم حريص على شرف العناية ببنت كبير الرهبان الذي مات قبل أن ترى ابنته النور. ثم رأوا أن يُحسم الأمر بالاقتراع ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ٤٤: آل عمران. وكان الفوز لزكريّا عليه السلام.

وفي الروايات أن زكريّا كان متزوّجًا بإشاع خالة مريم، وقيل أختها، ولم يرزقه الله الولد فرأى في العناية بالوليدة المنذورة لله عوضًا، وعزم على تهيئتها لتكون راهبة في بيت المقدس. فلما تجاوزت الطفولة الأولى في بيته جعلها في بيت المقدس وفاء بنذر والدتها.

وفي الذكر الحكيم جانب من الدور التربويّ الذي لعبه زكريّا في حياة مريم عليها السلام، وقد كان رفيقًا، لا يضيّع من يعول، بل يحرص على دقائق شؤون ربيبته الفريدة ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ ٣٧: آل عمران؟

إن ممارسة هذه المساءلة أصل تربويّ إسلاميّ يُقصد به أن ينشأ الطفل على مراعاة حدود الله فيما يكسب. وقد غدت كلمة زكريّا هذه دستورًا أخلاقيًا، وبندًا رادعًا في الإدارة، وسيفًا مصلتًا على أعناق من يُثرون بالطريق غير المشروعة، وتجلّى ذلك في القاعدة الإسلاميّة المشهورة «من أين لك هذا؟». وقول زكريا عليه السلام: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ ٣٧: آل عمران، أبلغ في الإحاطة بالأمر، ذلك أن التساؤل في عبارته لا يقتصر على مصدر الرزق، بل يشمل كيفيّة الحصول

عليه، أهي بالطرق المشروعة أم لا؟ وما الثمن الذي دُفِع فيه؟ وكيف وصل إليها حيث هي؟

ولو أن هذه العبارة احتلّت المساحة التي ينبغي لها أن تحتلّها في حياتنا لتغيّرت أمور كثيرة، فهي تنفع الغافلين من قبيل الذكرى والتذكرة، وتردع الطامعين والعابثين من قبيل الترهيب والتهديد. وتستطيع هذه العبارة أن تجعل النزاهة في الكسب هاجسًا، فيما لو وضعت في الاستخدام ابتداءً من دائرة الأسرة، فقالتها الزوجة لزوجها عندما يأتيها بمال غير متوقّع، وقالها الأبوان لأولادهما عندما يحصلون على ما لا ينبغي لهم الحصول عليه، كدرجة لا يستحقّونها، أو لعبة أو أداة مدرسيّة أو حلوى أو ما أشبه ذلك، وانتهاء بإدارات الدولة وموظّفيها. إذًا لكانت تلك العبارة سدًّا في وجه الانحراف والفساد.

أمّا مَريَم، فقد كانت تجيب زكريّا عليه السلام: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ٣٧: آل عمران. وكانت الربيبة الأريبة الصدّيقة تؤجّج شوق النبيّ العجوز إلى ولد يرثه، ويرث من آل يعقوب العلم والنبوّة. فقد كان همًّا مقيمًا أنّه لا يجد فيمن حوله من هو جدير بأن يعهد إليه بالدعوة إلى الله، التي أمضى عمره في خدمتها وتكريسها، والاضطلاع بأعبائها، بل إنّه يخاف هؤلاء الذين سيخلفونه في القيام على الدعوة، ولطالما أوى قلبه برجاء خالص إلى سميع الدعاء: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ﴾ ٥ و٦: مريم، ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ ٣٨: آل عمران.

وكانت كلمات مَريَم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ٣٧: آل عمران، تُحيي في قلب النبيّ الشيخ أملاً رافق سنيّ العمر كلّها... إن الربّ الذي يأتي بالطعام بغير أسباب نعرفها لقادرٌ على أن يهب الذريّة لشيخ عاتٍ وامرأة عاقر.

وكان زكريّا، كما كان دائمًا، وعبر عمر طويل من الحرمان يدعو ربّه لحاجة قلبه تضرُّعًا وخُفية، ولا ييأس من الإجابة: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ ٤: مريم. والدعاء قمّة الذكر وثمرته، ومخّ العبادة، ذلك أنّه توكيدٌ للإيمان، وبعثٌ للهمّة، وتذكيرٌ باتّخاذ الأسباب، واتباعٌ لنهج الحقّ في

اتّخاذها. فإذا ما كان ذلك، وأحاطه السميع العليم المجيب بتوفيقه ورحمته، تمّ أمره الحقّ ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ ٦٠: غافر.

ولعلّ دعاء زكريّا كان نداءً خفيًّا لأكثر من سبب، فهو يسأل ربّه ما لو سمعه الناس لسخروا منه ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ ١٩: مريم، إنّه يسأله الولد وامرأته عاقر، وقد بلغ من الكبر عتيًّا، ثم إنّه يخاف أن يسمعه الموالي من ورائه[1]، فيروا في دعائه ما يُحفظهم عليه. وهناك سبب آخر لكون النداء خفيًّا، وهو أن زكريا كان قد ترك نُشدان الولد منذ أن بدأ يوغل في الشيخوخة، لا يأسًا من إجابة ربّه، ولكن إحساسًا بأنّه لم يعد في العمر ما يتّسع لتنشئة الولد، ثم عاد ينشده على استحياء عندما أحيت ربيبته الصالحة في قلبه ذلك الشوق، فهو يسأل الله سؤالاً متهيّبًا خجولاً، لا يجرؤ أن يُطلع عليه إلاّ الذي يعلم ما تُخفيه الصدور. من أجل كلّ هذا كان نداء زكريّا خفيًّا خافتًا رغم ثقته بقدرة مولاه، وبأنّه لم يكن بدعائه يومًا شقيًّا.

والدعاء الخفيّ لا يكون لحاجة آنيّة، حيث يتّخذ الدعاء صورة صرخة أو جأرة أو تضرُّع علنيّ، بل هو أمنيات في أعماق الشعور، طال الافتقار إليها دون أن ينقطع الرجاء منها، أو يموت الأمل في تحقيقها[2]، تستيقظ كلّما رُزق المرء خلوة بربّه[3]. ومثل هذا الدعاء ينطق بالإيمان الراسخ بقدرة الله ورحمته وبرّه. وفي حديث رسول الله ﷺ: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنّه معكم، إنّه سميع قريب»[4]. وقيل إن "المعتدين"، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ ٥٥: الأعراف، الذين يصرخون في الدعاء.

إنَّ الله يُبشّرك بيحيىٰ

﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾ ٣٩: آل عمران، فملأته المفاجأة بالدهشة والتساؤل، وقال متعجّبًا: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ

(١) أي من سوف يخلفونه على إرشاد الناس، وهو يعلم أنهم ليسوا بالكفاءة التي تؤهلهم لذلك.

(٢) كتلك التي كانت في نفس يعقوب.

(٣) انظر قصة يوسف عليه السلام.

(٤) صحيح البخاري: ٢٨٣٠.

﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ ٨: مريم؟... كلام ينضح دهشةً وتساؤلاً عن كيفيّة حصول الأمر، لا عن حصوله أو عدمه، والإجابة التي تلقّاها زكريّا دليل على ذلك ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ ٩: مريم، وفي آل عمران: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ ٤٠: آل عمران.

يُلاحَظ أن البشارة بكلٍّ من يحيى والمسيح ﷺ جاءت في عبارتين يختلف فيهما فعل الإيجاد، ففي البشارة بيحيى يقول جلّ وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ ٤٠: آل عمران. وفي البشارة بالمسيح يقول: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ ٤٧: آل عمران، ذلك أن عيسى ﷺ ولد من غير أب، وهي عملية خلق كخلق الإنسان ابتداءً، ولذلك قال: «يخلق». أما يحيى ﷺ فقد ولد من أبوين، ولكنّ أمّه لم تكن قادرة على الإنجاب فأصلحها الله، والإصلاح فعل، ولذلك قال: «يفعل». وهو من دقة التعبير المعجزة في الكتاب المبين[1].

إن الذي خلق الخلق الأوّل من لا شيء، ويخلق خلقًا جديدًا لدى البعث، لا يُقال له: «أنّى»؟ إذا أراد أن يخلق من امرأة عاقر وشيخ كبير... أمر الله الذي لا رادّ له، و«كن» التي لا بدّ أن يعقبها الكون.

وكأنّ زكريّا قد استعجل الفرحة بما أنعم الله به عليه، ولم يُطق صبرًا حتى تظهر أعراض الحمل على زوجته، فسأل ربّه أن يمنّ عليه بدليل مبكّر، لعلّه ما يُشعر بالعلوق. ويصف الذكر الحكيم حاله تلك ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ ١٠: مريم، أي: امتنع عن الكلام، واعكف على الدعاء تنل بغيتك.

(١) من بحث «الكلمة وأخواتها في القرآن الكريم» لصاحب القصص.

obeikandl.com

وقيل إن هذه الليالي الصامتة كانت صومًا عن الكلام، والصوم عن الكلام عبادة معروفة في قوم زكريّا[1]. وعلى هذا يكون هذا الصوم من زكريّا إيذانًا بحصول الحمل.

والصوم على رأس مفاتيح الفرج، ويلاحظ أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ ١٨٦ : البقرة، قد أعقب الآيات التي تأمر بصوم رمضان. وتيمّنًا بزكريّا عليه السلام يسنّ لمن له حاجة عند الله أن يصوم ثلاثة أيّام صوم المسلمين، ثم يسأل الله حاجته.

وقيل أيضًا في الليالي الثلاث الصامتات: إن الله جعل لزكريّا علامة أن يفقد القدرة على النطق ثلاثة أيّام متواليات. ولعلّنا نستطيع القول: قال: آيتك أن أصرف قلبك عن الدنيا وما فيها، فتصمت عن الكلام في أيّ من شأنها، فإذا انتبهت، فألفيت نفسك قد لبثت على هذا ثلاثة أيام كاملة فقد حملت زوجتك. وهذا المذهب يماسّ شيئًا ما قول أبي مسلم الأصفهانيّ: «قال: آيتك ألاّ تتكلّم ثلاثة أيّام بلياليها مع الخلق، أي تكون مشتغلاً بالذكر والتسبيح والتهليل، معرضًا عن الخلق والدنيا... فإذا أُمرت بهذه الطاعة، فاعلم أنّه قد حصل المطلوب»[2].

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ ٩٠: الأنبياء. وقيل إنّه إصلاحها للإنجاب، وقيل إصلاح لسانها[3]. ولعلّه إشارة إلى تزكيتها، وترقيتها إلى أن تكون أمّ نبيّ، وهي مرتبة خاصّة تحتاج إلى إصلاح من نوع خاصّ. والإصلاح لا يعني بالضرورة إزالة فساد، بل تهيئة لمرتبة أعلى، يدلّ على ذلك أن كلّ نبيّ يلقى إصلاحًا ربانيًّا من نوع ما، ومن ذلك ما لقيه النبيّ محمّد ﷺ قبل الإسراء والمعراج، حيث أُصلح من الداخل.

---

(١) ومن ذلك صوم مريم عندما أتت قومها بعيسى تحمله.

(٢) الفخر الرازي: التفسير الكبير الآية ٤١ من سورة آل عمران.

(٣) قال ابن كثير: "وقيل كان في لسانها شيء من بذاءة" [قصص الأنبياء ٢: ٤٢٥]. ويجد المرء صعوبة في قول ذلك عن زوج زكريا وأم يحيى عليه السلام، ولا سيما في ضوء تتمة الآية " إنهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعوننا رغبًا ورهبًا، وكانوا لنا خاشعين " ٩٠: الأنبياء.

وفي بعض الروايات أنّها وزوجها قد أكلا من طعام السماء، وأن فيه إصلاحًا لمن يأكله. وقيل إن من طعام السماء الرُطب الجنيّ الذي اسّاقط على مريم بعد ولادة عيسى عليه السلام، فكان من أسباب إعدادها جسديًا لكي تكون أمًّا وأبًا، ومنه كذلك مائدة السماء التي قال عنها الحقّ جلّ وعلى لعيسى والحواريّين: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ١١٥: المائدة[١].

وهناك خلاف حول المرأة التي ولدت لزكريّا ابنه يَحيى، فهي مرّة إليصابات، وأخرى إشاع بنت عمران أخت مريم لأبيها، وثالثة خالتها. وهذا الاختلاف يعطي فرصة لاحتمال كون زكريّا متزوّجًا بأكثر من امرأة دون أن يرزق بالولد، وأن امرأته التي وصفها بالعاقر، والتي ولدت له يَحيى فيما بعد، هي آخر نسائه، وهي إشاع بنت عمران، على الأرجح، وليس ثمّة ما يشير إلى كونها عجوزًا في النصّ القرآنيّ. ولعلّها لم تكن قد ولدت له لهرمه هو، أو لعلّة كانت فيها، ثم أصلحها له الله فولدت يحيى.

هكذا أُجيب الدعاء الخفيّ، لأنّه كان دعاء حقّ، وقُصد به وجه الحقّ، فكان يحيى رضيّ الخَلق والخُلُق، كما سأل أبوه ربّه أن يكون. وفي هذا إشارة إلى واحدة من الخصائص التي حُبيَت بها هذه الأمّة، والتي لم نلتفت إليها كثيرًا، وهي أن الدعاء من أسباب الذريّة الصالحة، التي اتّخذها الأنبياء. ومن عيون الدعاء بهذا: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ ٤٠: إبراهيم، ومنه: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ ١٥: الأحقاف، ومنه: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ ٧٤: الفرقان، ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ﴾ ٨٤: الشعراء، وقيل هو الذرّيّة الصالحة.

* * *

(١) انظر الكلام في طعام مريم، ومائدة السماء في قصة عيسى عليه السلام.

الفصل العشرون

يَحيى

عليه السلام

سلام عليك يا يحيى... أيها الحيّ أبدًا بما كنت وهبًا لدنيًّا، لا سميّ له من قبل... سلام عليك وأنت تفرّ إلى الله من كلّ متاع الدنيا وزخرفها، ويؤتيك الحكم صبيًّا.

سلام عليك أيها النبيّ الشهيد وأنت تأخذ الكتاب بقوّة، وتصرخ في الآذان الصمّ والقلوب العمي: مهّدوا الطريق للآتي...

سلام عليك وقد أُنزل على من بَشّرت به أنّك كلمة من الله وسيّد وحصور.

* * *

كان زكريّا يرى بعين النبيّ ربيبته البتول المطهَّرة المصطفاة العابدة، القانتة لربّها، الساجدة الراكعة مع الراكعين، ويقرأ ببصيرة النبيّ مظاهر اصطفاء ربّها لها، وآياته في حفظها ورزقها، ويدرك بحكمة النبيّ ما يُرهص به كلّ هذا من شأن عظيم. ولم يكن لزكريّا ولد يرثه ويرث من آل يعقوب، وقد وهن العظم منه واشتعل رأسه شيبًا، وكانت امرأته عاقرًا، ومع كلّ هذه العوائق أيقظت مريم في أعماقه أمنية لم يُعَفّ عليها الزمان ولا فقدان الوسيلة، وذلك لما كان يراه ويلمسه في شأنها من القبول الحسن. وكانت وسيلته إلى الله الدعاء، ولم يكن بدعاء ربّه شقيًّا.

وكان زكريّا النبيّ يعرف أن القلب يكون أقرب إلى ربّه ساعة وقوفه على بعض آياته المعجزات، فكان كلّما وقف من مريم على آية من آيات الحقّ هفا إلى ولد يتقبّله ربّه

obeikandl.com

بمثل ما تحظى به من القبول الحسن: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ ٣٨: آل عمران ...

والبشر جميعًا هبات من الله ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ ٤٩: الشورى... بعض من مُلكه... شيء من قدرته... كانوا بما أقام عليه خلقه من قانون الأسباب. أمّا ذاك الذي من لدنه فليس لبشر إلى أسبابه من سبيل، ويَحيى هبة من لدن سميع الدعاء، لزكريّا الذي بلغ به الإيمان والتصديق أن سأل ربّه ذُرّية طيّبة وامرأته عاقر، وقد بلغ من الكبر عتيًّا، وبلغ من الإخلاص لله الحقّ أن كلّ غاياته من ذلك الوليّ أن يحمل أمانة الدعوة إلى الله إرثًا منه ومن آل يعقوب، وأن يرضى الله عنه.

والذُرّية الطيّبة هي الحسَنة الخَلق والخُلق. ويلاحظ أنّه ﷺ قال: إنّك سميع الدعاء، ولم يقل إنّك مجيب الدعاء، ذلك أنّه يعرف أن ما يدعو به ممّا لا يحدث إلاّ بمعجزة، وهو، وإن كان، في إيمان النبيّ، موقنًا أن الله أهل للإجابة، فهو، في تواضع النبيّ، لا يرى نفسه أهلاً لذلك.

ولقد سمع الله دعاء زكريّا، وإذا سمع الله فقد أجاب، ولا فاصل ولا حدّ بين سمعه وإجابته، حتى إن السمع ليُجزئ. وهكذا استجاب الله الحقّ لنداء نبيّه ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ٣٩: آل عمران.

في هذا الموقف بين يدي ربّه حيث تتحوّل كلّ فعاليّات الذات إلى أمنية... أمنية قلب مؤمن موقن متجرّد لله الحقّ، لا يريد إلاّ ما يريده، ولا يرضيه إلاّ ما يُرضيه، بُلّغ زكريا استجابة ربّه، وتنزّلت على قلبه الملائكة بالبشرى بأن الله سوف يرزقه بيَحيى.

كان يحيى حسَن الخَلق والخُلق، وسيّدًا، يفوق الناس شرفًا، وعفّةً وحكمةً وعلمًا... وكان إلى ذلك حصورًا، فلم يقربْ النساء مع قدرته. والحصور هو الذي بلغ من العفّة أنّ نفسه لا تحدّثه بسوء تجاه امرأة[1]. وقد قال رسول الله ﷺ في يَحيى ﷺ:

(١) وهذا خلاف ما قال به بعض مفسرينا، وهو من الإسرائيليات، من كونه عاجزًا، ذلك أن الوصف بالعجز ذمّ، والمقام مقام مدح. ولو كان عاجزًا لما مدح بذلك، لأنه ليس له في العفة فضل.

«ما من أحدٍ من ولد آدم إلّأ قد أخطأ، أو همّ بخطيئة، ليس يَحيى بن زكريّا»[1].

ومن أوصاف يَحيى التي أثبتها له الذكر الحكيم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۞ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ ١٢ - ١٤: مريم، فقد آتاه الله الحكم في سنّ مبكّرة، كما أوتي الفتى إبراهيم رشده من قبل، ووهبه حنانًا وزكاة يكفي في عظمتهما وتفرُّدهما أنّهما من لدن الله، فهما أرقى وأسمى من كلّ ما يمكن أن يحصل عليه بشر بسعيه في هذا الباب. وقد يبدو من البديهيّ أن يكون يحيى تقيًّا بعد ما وصفه الله به من صفات، وهذا صحيح، ووصفه بالتقوى هنا يعني أنّها التقوى غير العاديّة، التي لا يمكن تحصيلها بالاجتهاد، كما هو شأن الحنان والزكاة.

ومن أوصافه كذلك أنّه برّ بوالديه. وقد يثير هذا تساؤلاً، ذلك أنّه عليه السلام فقد والديه قبل أن يبلغ مرحلة التكليف بالبرّ، فما البرّ الذي تُثبته الآية ليحيى عليه السلام؟

إنّه البرّ الذي لا بدّ أن يكون في قلب وهبه الله ذلك الحنان وتلك الزكاة وتلك التقوى... البرّ للذكرى، بأن يكون امتدادًا طيّبًا كريمًا، يُذكَر به والداه، ويُحمدان به. وهذا ما كان لزكريّا من طِلبته من ربّه... لقد أخلص زكريّا الدعاء فيما سأل ربّه من الذرّيّة، وهاهو الله يعطيه ما لم يفكّر فيه السائلون، لقد طلب أن يكون ولده من لدن الله ليقوم بأمر الله، وأن يرضى عنه الله، فكان له كلّ ذلك، وآتاه الله إلى ذلك ما لم يطلبه... آتاه برَّ هذا الولد العظيمَ والفريدَ كعظمته وفرادته، برًّا يتجاوز كينونته في هذا الوجود الماديّ، ليبلغ به المرتبة التي كتبها الله لخيرة عباده. وفي هذا دليل على أن برّ الوالدين ممكن بعد وفاتهما.

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ٧: مريم... لم نسمِّ باسمه أحدًا قبله. فلم يكن اسم يَحيى معروفًا قبل أن يطلقه الله سبحانه وتعالى على سيّدنا يَحيى. وقيل: تلك المرّة الأولى التي يخلق فيها ربّ العالمين معجزة ويضع لها اسمًا.

وآتيناه الحكم صبيًّا

وفي الروايات أنّه بعد سنتين من ولادة سيّدنا يَحيى جاء وفدٌ من المجوس فيهم منجّمون، والتقوا زكريّا عليه السلام، وأخبروه أن طفله مبارك، وأنّه مُقدّمة لنبيّ ذي شأن

---

(١) مسند أحمد: ٢٦٥٤.

عظيم من أقاربه، سيكون السبب في القضاء على مُلك الظلَمة في الشام. وكان ذاك السيّد المسيح، وهو ابن خالة يَحيى ﷺ.

وتواصل الروايات أن النبوءة نمت إلى الملك هيرودُس المعيّن من قبل قيصر الروم، وبدا لوفد المجوس أنّه قد يقتل الطفل بسبب نبوءتهم، وكان ذلك محرجًا لهم في بني إسرائيل، ففرّوا عائدين إلى ديارهم. وكانت عيون الملك وجنده واستخباراته قد شرعت تبحث عن الوليد الذي يهدّد مستقبل مُلكهم. وأدرك زكريّا الخطر الذي يترصّد ابنه، وقبل أن تبلغ خطوات جند الملك بيته، أخرج يَحيى وأمّه من بيت المقدس، ورافقهما إلى مشارف الصحراء، وأوصى زوجته أن تعنى بالطفل وتحافظ عليه.

وفي بعض الروايات أن الطاغية المذعور اعتقل زكريّا، النبيّ الذي وهن العظم منه، واشتعل رأسه شيبًا، وطالبه بتسليم ولده، وراح يعذّبه مسابقًا المنيّة التي كانت تدنو منه بخطّى حثيثة. وأخيرًا لفظ زكريّا ﷺ أنفاسه بين أيدي جلاديه. وفي الروايات أن جثّته اختفت تحت أسماع جلّاديه وأبصارهم.

ونحن، المسلمين، لنا تفسير خاصّ لأمثال هذه الحادثة. فهنالك إلى جانب أبعاد الكون الملموسة بعد لا يخضع إلى قوانين الزمان والمكان، ندعوه بالبرزخ، وهو عالم يفصل بين الحياة الدنيا ودار القرار، وقد سمّاه صاحب القصص «البعد الثالث». وفي هذا البعد يكون للأمور وللأشياء وجود ما بكيفيّة ما، ويمكننا بالتقريب أن ندعوه وجودًا مفهوميًّا، أو معنويًّا، أو عقليًّا.

إن الإنسان السويّ يعرف أن له كيانًا معنويًّا هو عالمه الخاصّ، أو ذاته الخاصّة، وأن هذا العالم قائم فيه بشكل ما، ومتحرّر من قيدي الزمان والمكان، وأنّه أرحب وأغنى وأقوى من العالم الذي يواقعه بجسده. وذلك هو " البعد الثالث" له.

فالبعد الثالث برزخ حقيقيّ حيّ ودائم الفعّاليّة، قائم برأسه، يوازي عالمنا المادّيّ الذي ندركه بحواسّ الجسد، وتخلُص الذات الإنسانيّة إليه وحده بعد انتهاء وجودها المادي المجسّد.

و[قد يتداخل الكيانان الوجوديّ الماديّ والمعنويّ أو العقليّ، ويتحقّق ذلك بصورة أوضح في النماذج الإنسانيّة الرفيعة، وعلى رأسها الأنبياء. وبهذا نفسّر رحلتي الإسراء والمعراج اللتين قام

بهما رسول الله ﷺ، ولقاء موسى بالعبد الصالح، وما جرى بينهما، واختفاء جسد زكريّا الذي أدركه الموت بين أيدي جلّاديه، وغير ذلك ممّا يُعتبر خوارق وفق قوانين هذا الوجود الماديّ][1].

لبث يَحيى في الصحراء متخفّيًا مع أمّه إلى أن أيفع، وكان قد نشأ على الخشونة وشظف العيش، وامتاز بفصاحة اللسان، وحسن البيان، والاتّزان والفطنة إلى درجة الحكمة منذ أن كان صبيًّا، وعُرف عنه في هذه السنّ الغضّة الاستغراق في العبادة، وشدّة الورع والتقوى ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ١٢: مريم.

ويشاء الله سبحانه وتعالى أن تستمرّ المأساة عنوانًا للنبوّة، وأن يكرِّس البلاء في الأنبيّاء، فيفقد يَحيى أمّه، ويبقى وحيدًا في عين الله مباشرة تكلؤه وترعاه. ويقف اليتيم الشريد الوحيد أمام كتاب الكون أعزل بلا معلّم ولا أداة، يتلقّى العلم إلهامًا من لدن ربّ العالمين. وكان شأن يحيى كلّه كذلك، بدءًا بولادته، وانتهاءً باستشهاده، ذلك أن أباه سأل ربّه أن يهبه من لدنه وليًّا، وأن يجعله رضيًّا، وأن الله جلّ وعلا قد بشّره بيَحيى هبة خالصة من لدنه، غنيّة عن سعيه، وعن اتّخاذه الأسباب، ثم تولّى الله أمره كلّه بما تعجز عن الإحاطة به العقول.

مصدّقًا بكلمة من الله

راح ذكر يَحيى ينتشر في بالناس، حتى صار حديث كلّ بيت، وكان له في كلّ سبت موعظة مؤثّرة، وكان الناس يتسلّلون إليه في برّيّته يُباركهم، ويجيب أسئلتهم، ويعمّد مواليدهم، ويحثّهم على التوبة، والتندّم على ما يرتكبونه من المعاصي والذنوب.

وكان عليه السلام بارعًا في ضرب الأمثال، وممّا يؤثر عنه ما ضرب من مثل للّاهي في صلاته: فقال إن مثَله كمثَل رجلٍ له حاجة عند الملك، فاستأذن في الدخول عليه، فأذن له. فلمّا دخل شغل بالنظر إلى الجدران والمتاع، وأعرض عن الملك، فأعرض الملك عنه، فقام ولم تُقضَ حاجته. والدعوة بعد الصلاة الخاشعة التي يحضر فيها

---

(١) من بحث "الحق المطلق" للكاتبة.

القلب مقبولة، ففي الذكر الحكيم: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ ٧: الشرح، أي إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء، فإذا كان حضورك في الصلاة مقبولاً قضى الله حاجتك.

وفي قصص الأنبياء لابن كثير أن يحيى وعظ الناس بقوله: «وآمركم بذكر الله عزّ وجلّ كثيراً، فإن مثَل ذلك كمثل رجل طلبه العدوّ سراعاً في إثره فأتى حصناً فتحصّن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عزّ وجلّ»(١).

وقد بلغ من تعظيم اليهود ليَحيى أنّهم فُتنوا بعلمه وحكمته وصلاحه وجماله، وكانوا يرون فيه المسيح المنتظر، ويَعجبون ويحارون عندما ينفي ذلك، فيقولون: فمن تكون إذًا؟

فيقول: «أنا صوتُ صارخٍ في البرّيّة»(٢).

وفي الأناجيل نرى يحيى عليه السلام، يحرص على أن يذكّر الناس دائمًا، بأنّه ليس إلاّ بشارة بالمسيح الذي سوف يأتي، وأنّه لا يستحقّ أن يحمل حذاءه: «أنا أعمدكم بالماء من أجل التوبة، وأمّا الذي يجيء بعدي فهو أقوى منّي، وما أنا أهل لأن أحمل حذاءه»(٢).

ونقرأ في الذكر الحكيم عن يحيى عليه السلام: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ٣٩: آل عمران، وأكثر المفسرين على أن هذا يعني البشارة بعيسى عليه السلام، وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ ٤٥: آل عمران. ويوهّن هذا البناء أن عيسى وحده من قيل فيه «كلمة من الله»، وعلى هذا فالأولى في الدلالة عليه التعريف، أي القول «كلمة الله». فلعلّ المقصود التبشير بنبيّ خاتم، أو بمسيح، وليس حتمًا أنّه عيسى عليه السلام. وممّا يطّرد في الكتابات الإسلاميّة أن إنجيل عيسى ما كان إلاّ البشارة بمحمّد.

ولكنّ هذا لم يُعط حقّه من البحث، ولم تُدرس الأدلّة التي جيء بها عليه دراسة وافية،

---

(١) ٢: ٤٢٨.

(٢) إنجيل متى: ٣. هكذا ضُبطت العبارة في الأناجيل. وقد ذكرها عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء على الصورة التالية "أنا صوتٌ صارخٌ في البرّيّة"، ولعله الأفضل.

وأغلب ما كان من ذلك اقتصر على الأدلّة الإسلاميّة، في حين ينطوي الكتاب المقدّس بعهديه على الكثير ممّا يمكن أن يكشفه البحث منها.

لقد كان يَحيى النبيّ يدرك معنى أن يسمّيه الله يَحيى، ويقرأ في تلك التسمية الإشارة إلى أنّه سوف يقضي شهيدًا، ذلك أنّه ما من حيّ مستمرّ الحياة إلاّ الشهيد ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ ١٦٩ : آل عمران. وهكذا لبث يَحيى عليه السلام، بعد أن عرف ابنَ خالته عيسى، يستعدّ للرحيل، ويمهّد له في بني إسرائيل.

النبيّ الشهيد

مات هِيرودُس الملك الذي كان يطلب يحيى عليه السلام، فعَيّن قيصر الروم ولديه هِيرودُس الصغير وفيلبُّس ملكين على الشام، يتقاسمان حكم المنطقة. وعاد يَحيى من برّيّته إلى بيت المَقدس، وانضمّ إلى الرهبان والأحبار، وأصبح سيّد الموقف من الناحية الدينيّة.

وتتناقل كتب الأخبار أن هِيرودُس الصغير عُرف ببطشه وفسقه وفجوره، وقد كان على علاقة غير مشروعة بزوجة شقيقه فيلبُّس، ولما سمع فيلبُّس بالأمر أعلن الحربَ على أخيه. ولكنّه كان ضعيفًا، فهزمه هِيرودُس، وسجنه، وضمّ إليه زوجته.

شاع أمر العلاقة الشائنة بين الملك وزوجة أخيه السجين في الناس، حتى خشي على مركزه، وراح يتلمّس السبُل إلى التخفيف من وقع الفضيحة. ولمّا كانت ليَحيى عليه السلام كلمة مسموعة في أوساطهم، قرّر الملك حمله على إصدار فتوى بصحّة زواجه من امرأة أخيه السجين.

واستدعى الملكُ يَحيى من بيت المَقدس، وتألّفه لعلّه يحصل منه على الفتوى التي يريد، لكن يَحيى عليه السلام أبى ذلك لأن زوج المرأة حيّ. فاقترحت هِيروديتا على عشيقها الملك أن يقتل أخاه السجين لديه، فأمر بقتله فقُتِلَ، وأشيع أنّه مات في السجن.

وأرسل الملك إلى يَحيى مرّةً أخرى، ولكنّ المؤامرة كانت مفضوحة، ومن جديد رفض يَحيى عليه السلام الفتوى بصحّة الزواج، وقال: إن الذنب لا يُمحى بالذنب، والإثم

لا يزول بالإثم، والخطيئة لا تعالَج بالخطيئة.

وسُجن يَحيى لأنّه رفض أن يُفتي بشرعيّة زواج الأميرة الخائنة بالملك الفاجر القاتل. وراحت هيروديتا تحاول انتزاع الفتوى المنشودة منه بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى، ولكنّ الأمر انتهى بها إلى اليأس. وفي الوقت نفسه كانت ابنتها سالُومي الغانية اللعوب قد سمعت بيَحيى السجين الفاتن الخَلق والخُلق، والذي يقدّسه الناس تقديسًا منقطع النظير، فساقها غرورها إليه في سجنه، تريد إثبات سطوة سحرها، وفتنتها التي كانت مضربَ المثل، ولكنّها أمام السيّد الحصور والنبيّ الصالح سقطت مولّهة عاشقة. وأسلم اليأس سالُومي إلى الحقد على يَحيى، والكيد له. والتقى يأس المرأتين من يَحيى ﷺ بيأس الملك المجرم الظالم، وامتلأ الثلاثة بالحقد عليه، وأسرتهم الرغبة في الانتقام.

وتتابع الروايات: وتفتّق ذهن هِيروديتا عن محاولة جهنميّة لحمل الملك على قتل يَحيى في سجنه، ولم يكن يمسكه عن قتله سوى مكانة يَحيى عند بني إسرائيل، وأنّهم قد ينقلبون عليه إن فعل. وراحت الأمّ الفاجرة تدفع ابنتها اللعوب إلى أحضان الملك الماجن، ليقع في أحابيلهاوتفرض عليه من خلالها قتل غريمها السجين.

وفي حفل ضخم أقيم في القصر برزت سالُومي الفاتنة للملك الذي تعصف به الخمرة، فأجهزت على ما تبقّى من رشده، ولمّا أمكنته من نفسها أو كادت أعرضت عنه، وطلبت أن يكون رأس يَحيى السجين الثمن.

وبعد دقائق محمومة كان رأس يَحيى النبيّ السيّد في طبق من نحاس أمام هيرودُس وسالُومي وأمّها هِيروديتا. وفي الروايات أن سالُومي أرادت العبث بالرأس فاختفى بشكل مثير، وعلى مشهد من الجميع.

فشا خبر قتل يَحيى ﷺ في بني إسرائيل، ممّا أربَك الملك، وملأه رعبًا من عاقبة فعلته، وقد زاد في حرج موقفه، وأحكم الحبل حول رقبته، أن هِيروديتا قد انقلبت عليه، لِما رأته من ميله إلى ابنتها، فراحت تحاصره وتهدّده بالجريمة التي ارتكبها. وهكذا ضربَ الله الفسَقة الظلَمة بعضهم ببعض، ليقضي أمرًا كان مفعولا.

obeikandl.com

إن الدعوة إلى الله محفوفة أبدًا بالمخاطر، وكلّ داعية يدعو إلى الله سبحانه وتعالى مشمول بهذا الخطاب الربّاني: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ ١٧: لقمان. وإن طريق الدعاة معمّدة بالدم، مكتوب أن يفترشها الشهداء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

* * *

obeikandl.com

الفصل الحادي والعشرون

عيسى

عليه السلام

سلام عليك يا عيسى بن مريم... سلام على كلمة الحق التي امتروا فيها وما زالوا يمترون.

سلام عليك روحًا من روح الله، مرّت بدنيا البشر فملأتها طهرًا ونقاءً، وما كان لها منها إلاّ ما أتاح الكلامَ والخُطا.

سلام عليك وأنت تشفي القلوب والأجساد، وتحيي مواتها، فيُحدق بك أعداء الحياة، ويهمّوا بقتلك، فيضرب الله على قلوبهم وعيونهم، ويرفعك إليه.

* * *

يا مريم، إن الله اصطفاك وطهّرك

حملت حَنّة زوج عِمران[1]، والمرجّح أنّه المقصود بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ٣٣: آل عمران، فنذرت ما في بطنها لله ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾ ٣٥: آل عمران. والنذر عبادة، يوجبها العبد على نفسه زيادةً على ما أوجبه الله عليه، وهو دليل على حبّ العبد لربّه سبحانه وتعالى.

ووضعت حَنّة حملها، وأُسقط في يدها، فقد كان المولود أنثى، ولا تصلح الأنثى

---

(١) هو عمران بن ماثان، ويتصل نسبه بيَهوذا بن يَعقوب بن إبراهيم عليه السلام.

للانقطاع لخدمة الهيكل. ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ ٣٦: آل عمران... ولكنّ الله تقبّل نذر امرأة عِمران، حين أراد لما في بطنها أن يكون أمًّا لكلمته التي تحمل الهدى إلى البشر، ولا يصلح لهذا ذكَر. وهذا يفسّر كون الأنثى هي المشبّه به في قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ ٣٦: آل عمران، حيث وجه الشّبه في المشبَّه به أقوى منه في المشبَّه.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ ٣٦: آل عمران... فكأن حَنّة، إذ فاتها أن يكون وليدها ذكرًا تحرّره لخدمة بيت المقدس، شأن الرهبان، أرادت أن تكون هذه الأنثى بدعًا في العبادة والطاعة، لا تشبهها في ذلك امرأة، ولهذا سمّتها مريم، أي العابدة أو الطائعة، وسألت الله أن يحفظها من ألاعيب الشيطان الرجيم.

والعابدون أهداف للشيطان، حيث تراه يتربّص بمن يقصدون المساجد، ويندسّ بين العلماء والصالحين. أمّا دُور اللهو، وبؤَر الرذيلة، حيث الكفرة وغُلاة الغافلين والمستهترين، فقد تجاوز معهم مرحلة الكدح، وفرغ من المحاوطة والاحتناك، وضمّهم إلى حزبه.

وفي حديث رسول الله ﷺ: «يأتي أحدكم الشيطانُ في صلاته، فليلبس عليه حتى لا يدري كم صلّى»[1].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ ٣٧: آل عمران، فتقبّل الله هذا الدعاء، كما تقبّل الوليدة المنذورة بقبول حسَن، وأنبتها نباتًا حسنًا في كنف نبيّ كريم، وجنّبها الشيطان، فما

---

(١) مسند أحمد: ٧٦٨٠.

عبث بها منذ وُلِدَتْ إلى أن ماتت. وفي الحديث أنّه: «ما من بني آدم مولود يُولد إلاّ يمسّه الشيطان حين يولد، فيستهلّ صارخًا من مسّ الشيطان غير مريم وابنها»[1]. ولهذا كان من هدي النبوّة: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهمّ جنّبنا الشيطان، وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فقُضي بينهما ولد لم يضرّه»[2]. وما من شيء يستطيع أن يفتك بإبليس فتك الاستعاذة بالله منه ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ ٢٠٠: الأعراف.

والقبول الحسن أوّل مقدّمات الاصطفاء، فالتقبّل هو التسلّم برضا ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ٢٧: المائدة، فإذا ضاعف إلى ذلك الأجر فهو التقبّل الحسن. لقد قبل الله النذر، وأثاب ثوابًا إضافيًّا ليس من ضمن عمليّة التقبّل، فكان قبولاً حسنًا، وذلك زيادة في الرضا. وزيادة أخرى أنّه لم يقل: فتقبّلها الله. بل قال: فتقبّلها ربُّها. أي مربّيها وكالئها ومُعينها، والذي اختصّها واصطفاها.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ٣٧: آل عمران، ووجّهها إليه، وهيّأ لها كفيلاً كريمًا عظيمًا، ممّا جعلها كما أرادت لها أمّها محرَّرة لله، وهذا إرهاص بالاصطفاء، وتهيئة له. وقد عُرفت مريم بمواظبتها على العبادة منذ نعومة أظفارها، ذلك أنّه جلّ وعلا كان يُعدّها لكي تكون أمًّا وأبًا لكلمة الله عيسى عليه السلام.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ٣٧: آل عمران... وكانت كفالة زكريّا من اصطفاء الله لها. لقد مات أبو الوليدة المنذورة، فمن ذا الذي يتولّى تربيتها التربية التي ينبغي أن تتلقّاها ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً، ذلك الأمر الذي جعل الحقّ جلّ وعلا نذر الأمّ أحد إرهاصات تحقيقه؟ لقد تنافس أحبار بيت المقدس في كفالة مريم، واقترعوا لحسم الخلاف، وكانت نتيجة القرعة كما شاء الله لمريم، فكفّلها زكريّا، وراح يشرف على تربيتها، والعناية بها، حتى إذا بلغت سنّ التمييز جعلها في بيت المقدس في عداد الرهبان المنذورين، وجعل لها محرابًا خاصًّا باعتبارها أنثى[3].

---

(١) صحيح البخاري: ٣٢٤٨.

(٢) صحيح البخاري: ١٤١.

(٣) انظر قصة زكريا عليه السلام.

وكان زكريّا يتعهّد وديعته، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ٣٧: آل عمران... لقد كان رزق مريم عليها السلام يأتيها، كما شاء الله، بغير حساب تحسبه، أو سعي تسعاه. وقيل إن زكريّا كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء.

وقد اعتبر كثير من المفسّرين قوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ٣٧: آل عمران، على الحقيقة، أي أن جبريل كان يأتيها بذلك الطعام، وترتّب على ذلك أقوال منها أن هذا عوّد مريم لقاء جبريل، الذي سوف ينفخ فيها من روح الله ليهب لها غلامًا زكيًا، وأن هذا الرزق هو الذي غيّر طبيعتها، فكانت لها في جسدها قوانين لا تشبهها فيها امرأة[١]، وأنّه من أسباب الطبيعة الفريدة لعيسى عليه السلام من حيث أنّه وُلد بدون أب، وكلّم الناس في المهد، وأن المائدة التي تنزّلت عليه، كانت من ذلك القبيل. فإن للطعام أثره في تهيئة الجسد للدور الذي أُعدّ له، وأن الخصوصيّة في طعام مريم لم تكن إلاّ من أجل تهيئتها لاحتضان النفخة الإلهيّة[٢].

وممّا قيل في طعام مريم إنّه لم يكن كالمعروف من الطعام من حيث شكله وطعمه ورائحته، ولم يرد في ذلك أثر صحيح، وما في النصّ القرآنيّ إلاّ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ ٣٧: آل عمران، وأن مريم قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ٣٧: آل عمران، وما في ذلك ما يستدعي ما قيل في هذا الطعام. ولكنّه هاجس المعجزة.

ونحن لا نخرج عن النصّ القرآنيّ، ولا نخلّ بقدسيّة مريم، أو نخالف مقالتها إذا قلنا: إن

(١) وسوف يأتي الكلام عن طبيعة مريم في حملها بعيسى عليه السلام، وعن كلام المهد، وعن مائدة السماء إن شاء الله.

(٢) لعل تلك الخصوصية هي كون الطعام حلالاً طيبًا ليس إلاّ. ومعروف دور الطعام الحلال في استجابة الدعاء.

رزقها كان يأتيها عن طريق الرهبان والمؤمنين الذين يؤمّون بيت المقدس، فيضعون سرًّا في محرابها ما يضعون قربة خالصة لوجه الله تعالى، أو أنّها لا تراهم أصلاً لأن زكريّا قد فرض عليها العزلة، فهي تحتجب متى لاح زائر، فلا ترى ولا تُرى. ولعلّ معظم هؤلاء كانوا يخصّون مريم الطفلة اليتيمة ذات الوضع الغريب بقرباتهم وعطاياهم، حتى لفت زكريّا كثرة ما يجده عندها، فكان يتساءل دهشة واستعظامًا، وليس على الحقيقة، ذلك أن زكريّا كان يعرف مصدر هذا الرزق. وصيغة سؤاله تنطق بهذا. ولو كان يسألها لِما تُسأله الفتيات لما أحاط النصّ القرآنيّ سؤاله بجوّ الودّ والمحبّة والإعجاب الذي لا يخفى في النصّ العظيم.

لقد كانت مريم من البشر، وكان عيسى نفخة من روح الله في امرأة أُحصنت كلّ الإحصان ليَخلص جوفُها لهذه المهمّة، وما كان احتضان مريم تلك النفخةَ إلاّ لتمنحها قدرًا من البشريّة تؤدّي من خلاله الرسالة... بشريّة هي من بشريّة مريم الراقية الفريدة الخاصّة، التي لم يشركها فيها أحد من قبل، ولن يشركها من بعد.

وكانت ولادة عيسى آية وأعجوبة قامت على عنصرين متلازمين هما مريم الأمّ وعيسى الوليد عليه السلام، ومن هنا كانا آية واحدة ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ٩١: الأنبياء،. ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ ٥٠: المؤمنون، لا آيتين اثنتين كالليل والنهار ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ ١٢: الإسراء.

لقد اصطفى الله مريم مرّتين: اصطفاها لتلد عيسى، وأنهت إليها الملائكة أمره: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ٤٢: آل عمران، ومن هذا الاصطفاء أنّه طهّرها وجعلها وابنها آية للعالمين. وهذا اصطفاء خاصّ بمريم، لا تشاركها إيّاه امرأة من البشر.

واصطفى الله مريم مرّة أخرى لتقواها وصلاحها، وهو اصطفاء شاركتها فيه امرأة فرعون، فذُكرتا في مقام واحد ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ... * وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾١١ و١٢: التحريم، كما شاركتها

فيه السيّدة فاطمة بنت محمّد ﷺ، لقول سيّد المصطفَين: «خير نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون»[1].

عندما يصطفي الله الحقُّ على إطلاق الاصطفاء، فإنّه يصطفي لنفسه، ويكون المصطفى فريدًا لا مثيل له. فالاصطفاء تكريم عظيم، ومكانة رفيعة، وبالتالي فهو تكليف عظيم. والرسل مُصطفَون ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ ٧٥: الحج، **وهواصطفاء يخصّ صلة الرسول بربّه. فإذا ذُكر الاختيار ففيما يخصّ صلة الرسول بالناس، كأن يكون الله قد اختاره لتبليغهم أو إنذارهم أو تبشيرهم.**

وإضافة إلى هذين الاصطفاءين فقد شاركت مريم الراكعين فكانت في زمرتهم ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ٤٣: آل عمران، وجعلها الله وفاطمة بنت رسول الله من أسباب اتّصال النسب، ذلك أن عِيسى من نسل إبراهيم عن طريق أمّه ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ٨٥: الأنعام، وآل البيت من نسل محمّد ﷺ عن طريق فاطمة رضي الله عنها[2].

* * *

وفي الروايات أنّه كانت لمريم ربوتان، واحدة شرقيّ بيت المقدس، وواحدة غربيّه، وكانت تُمضي صباحها في إحداهما، ومساءها في الأخرى، حيث كانتا

(١) صحيح ابن حبان: ٦٩٥١.

(٢) سئل محمد الباقر أبو جعفر: كيف تقول إنك من أهل البيت ومحمد ليس عنده ولد؟ فقال: كأنكم لم تقرؤوا قوله تعالى: "وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين" ٨٥: الأنعام. حيث جعل عيسى من ذرية إبراهيم، عن طريق مريم عليها السلام.

تحجبانها عن العيون. ولم يكن يزورها غير زكريّا وخطيبها يوسف النجّار.

سوف يتكرّر ذكر يوسف النجّار في قصّة عيسى ﷺ، وليس في القرآن الكريم ما يشير إليه، أمّا الروايات التي تغذّي التفاسير فكلّها تعوّل على الأناجيل في هذه القصّة، وفي الأناجيل أن مريم كانت قد سُمِّيت ليوسف. وكان الرجل ممّن يدعون بني إسرائيل إذا خطب امرأة أقام في بيت أهلها زمنًا قبل أن يتزوّج بها، ويدعى في تلك الحال بالعشير. وتُبرز الروايات الإسلاميّة شخصيّة يوسف النجّار تارة، وتطمسها أخرى، بحيث يتعذّر تكوين فكرة واضحة عنه.

وفي الأناجيل نرى يوسف النجّار ملازمًا لمريم، حاضرًا في كلّ تداعيات حملها بعيسى وولادتها إيّاه، متفهّمًا أنّه أمر إلهيّ. ففي إنجيل متّى " لمّا كانت مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجِدت حُبلى من الروح القدس. فيوسف رجلها، إذ كان بارًّا، ولم يشأ أن يُشْهرها، أراد تخليتها سرًّا. ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً: يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك، لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس... فعل يوسف كما أمره ملاك الرب وأخذ امرأته، ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر. ودعا اسمه يسوع "[(١)].

ثم نرى يوسف في بعض الأناجيل مهاجرًا بمريم وعيسى إلى مصر، مقيمًا معهما هناك، ثم عائدًا بهما إلى فلسطين، وكلّ ذلك بإلهام من الله، تذكره الأناجيل كما لو كان وحيًا. ثم نكتشف أن يوسف قد ضمّ عيسى إلى أولاده من مريم «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة، وهو على ما كان يُظَنّ ابن يوسف بن هالي بن متثات»[(٢)]، وفيه أيضًا: «ويقولون: أليس هذا ابن يوسف؟»[(٣)]. ومن الواضح أن في هذا الكثير

(١) إنجيل متى: ١.

(٢) إنجيل لوقا: ٣.

(٣) إنجيل لوقا: ٤.

ممّا لا ينسجم والفكرة التي نخرج بها من الكتابات الإسلاميّة، بما فيها التفاسير عن مريم عليها السلام.

وخلوة مريم وانقطاعها وتأمّلها، وما كانت عليه من الطهر والنقاء والإحصان درجة رفيعة فريدة في هذا الباب، وليس لامرأة أن تقول: سوف أفعل مثل ما فعلت مريم. كما أنّه ليس لشابّ أن يقول: سوف أفعل مثلما فعل يوسف عليه السلام. فهذان نموذجان نبيّان من خلق الله لم يخلقهما ليكونا قدوة للناس، بل تجلّيًا فريدًا وبديعًا لإطلاق قدرته. ولو شاء الله لخلق الناس جميعًا مثل يوسف بن يعقوب ومريم بنة عمران، ولكنّه شاء أن يختاروا، وهذا يعني أن يكون هناك أصحاب الصراط السويّ، والضالّون. وفي الحديث: «لو لم تُذنِبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون، فيغفر لهم»[1]. شرط ألاّ يكون الذنبُ متعمّدًا ومبيّتًا، وألاّ يغدو عادة وديدنًا.

ذُكر خبر مريم وابنها في أربع سور من القرآن الكريم، وجاء مفصّلاً في سورتي مريم وآل عمران، ومقتصرًا على جزئيّة معيّنة في الأنبياء والتحريم. وتبدأ أحداث قصّة مريم وابنها في سورة مريم بقوله جلّ وعلا: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ ١٦: مريم. فما ذلك الذكر، ومريم في كلّ يوم تنتبذ من أهلها مكانًا شرقيًّا أو مكانًا غربيًّا، حيث تعتزل الناس وتفرغ للتأمّل والصلاة؟

إن للانتباذ اليوم لشأنًا، فبينما كانت مريم تحتجب عن أهلها في هذا المكان الشرقيّ المنقطع الآمن أرسل الله إليها روحه، فتمثّل لها رجلاً. وانتفضت العذراء المحتجبة، والتجأت إلى ربّها، تعوذ به ممّا قد يلحقه بها وجود غريب في معتَزَلها

---

(١) صحيح مسلم: ٢٧٤٩.

obeikandl.com

النائي ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ ١٨: مريم[١].

البشرى

وقال الرسول: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ١٩: مريم.

لقد بشّرها رسول ربّها بغلام زكيّ... زكيّ بأخلاقه وطيبته ورسالته، بشوش، يحبّ الناس، ويسَع الخطّائين. والزكاء صفة لكلّ رفيع وعظيم وطيّب من الأشياء والأمور. وقد دعا إبراهيم عليه السلام بالزكاء للعرب ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ١٢٩: البقرة. فبعث فيهم محمّدًا بالإسلام، وقد سئل رسول الله ﷺ: يارسول الله، ما كان بدء أوّل أمرك؟ قال: «دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى»[٢].

وببركة دعوة إبراهيم تلك لا نرى أمّة زاكية اليوم إلاّ هذه الأمّة، فقد حفظ الله فيها من الخير، على مدى أربعة عشر قرنًا، ما لا تستطيع أمّة أن تدّعيه من حيث توحيدها، وشريعتها الثابتة العصيّة على التحريف والتزوير، ونظامها الأسريّ، الأبرز بين الأنظمة الأسريّة لدى أمم الأرض، وسائر شمائلها، التي لا تزال سمة لها، رغم تكالب العالم على طمس شخصيّتها والعبث بكيانها.

ورغم غرابة ما قال الرسول، ورغم ما ملأ العذراء التقيّة خوفًا وذعرًا، ورغم ما أبدت من العجب ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ٢٠: مريم؟![٣] فقد أنست مريم برسول ربّها الذي اقتحم عليها عزلتها. والملائكة قد يأتون في صور البشر، ولكن سرعان ما تتعرّفهم القلوب التي هداها الله السبيل إلى ما وراء الجسوم والشخوص.

ولعلّنا في غنًى عن القول: إن مريم كانت تعرف أن الله على كلّ شيء قدير، وأن تساؤلها هذا إنّما هو كتساؤل زكريّا إذ قال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي

---

(١) ذلك أن التقي يحترم الاستعاذة بالله، ويخشى الله، فيتراجع إن كان قد هم بسوء، فالاستعاذة بالله تذكرة للتقي.

(٢) مجمع الزوائد: ٨: ٢٢٢.

(٣) أنى تفيد التعجب والاستبعاد.

عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ ٨: مريم؟! ورجاء موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ١٤٣: الأعراف، وكتطلّع إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ٢٦٠: البقرة. فمن ذا الذي يعرف أكثر من هؤلاء عليهم السلام، أن الله على كلّ شيء قدير، وأنّه إذا أراد شيئًا فإنّما يقول له: كن فيكون؟! ولكنّها الدهشة، وخوف الفضيحة، فأنّى يكون لها غلام، وهي التي حفظت جسدها غاية الحفظ، فلم يمسسها بشر قطّ!

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ ٢١: مريم، إن ما تعجبين منه هو على الله أيسر الفعل وأخفّه، وفي قوله «ربّك»، للتعبير عن ذات الله الحقّ، إعجاز بلاغيّ من حيث تعبيره عن نأي الرسول عن مضمون الرسالة... إنّه ربّك، وقد قضى فيك ما قضى، ولا أعرف أكثر من ذلك.

وفي سورة آل عمران نرى الملائكة تقول لمريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ٤٥: آل عمران. هذا هو الغلام الزكيّ إذًا... كلمة من الله. وما هي بالنسبة إلى مطلق القدرة إلاّ «كن»... [كلمة الله الحقّ التي كان بها هذا الوجود، والتي تلغي المسافة بين الإرادة والفعل، حيث تتماهى الإرادة في «كن» في الفعل المتحقِّق في «يكون»، فإذا هما فعل واحد هو «الخلق المستمرّ»، وهذا معنى قولهم: إن كلمات الله هي مخلوقاته][1]. ومن هنا كانت بشارة الله مريمَ بعيسى بشارة بكلمة منه ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ ٤٥: آل عمران... يبشّرك بكلمة خُلق معها مدلولها، والله جلّ وعلا مستمرّ الخلق، مستمرّ الكلمات، فلا تنفد مخلوقاته، ولا تنفد كلماته. ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ٤٧: آل عمران[2].

ويتابع البشير: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ٤٥: آل عمران... المسيح... عيسى... ابن مريم!!! وأدركت مريم أنّها معجزة، وأن هذا الغلام الزكيّ لن يكون كالغلمان، بل سوف يأتي من غير أب فينسب إليها، فأيّ غلام هذا؟

ومنذ تلك اللحظة بدأت محن مريم تترى، إلى أن انتهت بصلب غلامها الزكيّ عيسى المسيح عليه السلام، كما تقول كتب النصارى، وبرفعه إلى السماء كما في كتاب الله

---

(١) من بحث "الحق المطلق" للكاتبة.

(٢) انظر التعليق على الآية في قصة زكريا عليه السلام.

obeikandi.com

الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

وعرّف الله بهذا الغلام في مُحكَم تنزيله بأنّه ﴿ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ٤٥: آل عمران... فسمّاه عيسى، ونسبه إلى أمّه البتول تشريفًا لها وتنزيهًا وتعظيمًا، فكان ابن مريم، وزاد على ذلك فلقّبه بالمسيح لقبًا لازمًا له، بل غالبًا عليه[1]. وراحت الملائكة تصف المسيح لأمّه: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ٤٥ و٤٦: آل عمران.

وتتابع الملائكة الوصف: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ ٤٥: آل عمران، فهو وجيه في الدنيا لكثرة ما أعطاه الله من المعجزات، فلم يُعْطَ نبيّ، من آدم إلى محمّد ﷺ، من المعجزات المادّيّة الملموسة كما أُعطي المسيح وأمّه، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ ٥٠: المؤمنون. وهو وجيه في الآخرة، ذلك أنّه ضَمِن الشفاعة لكلّ مؤمن موحّد ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ١١٨: المائدة. وفي صحيح مسلم أن النبيّ ﷺ قرأها، وعجب من حُسن دعاء عيسى لأمّته حتى بكى، فبعث الله إليه جبريل يقول: «إنّا سنُرضيك في أمّتك، ولا نسوؤك فيها»[2].

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ٤٥: آل عمران. والمقرّبون صفة للملائكة، وصفهم جلّ وعلا بها، فهي تضيء الآتي كلّه، ولكنّها بالنسبة إلى ما في الإنسان من بشريّة، ظلّ من ذلك الآتي المغيّب، وإرهاص بأن ذلك الوجيه في الدنيا والآخرة سوف يرفعه الله إليه ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ١٥٧: النساء.

وما من أحد يعرف قدر المسيح وحقيقته كالمسلمين، فقد قصّ القرآن العظيم نبأه بالحقّ، وبرّأه وأمّه ممّا رُميا به من البهتان العظيم، وقرنه بالكفر، ولعن الذين تولّوا كِبره من بني إسرائيل ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ ١٥٦: النساء.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ ٤٦: آل عمران. قال أبو مُسلم: «معناه أنّه يكلّم حال كونه في المهد، وحال كونه كهلاً، على حدّ واحد، وصفة واحدة. وذلك لا

(١) هو المسيح لأنه يمسح على الأكمه والأبرص فيبرأ، وعلى القبور فيقوم من فيها بإذن الله.
(٢) صحيح مسلم: ٢٠٢.

شكّ أنّه غاية في المعجز»[1]. ومن الواضح أن تكليم الناس في المهد معجزة، ولكن ما المعجز في تكليمه إيّاهم في الكهولة؟

إن أكثر كلام عيسى إعجازًا هو ما قاله في آخر أيّامه، وقبل أن يرفعه الله إليه، في تلك الأيّام العصيبة الهاصرة، التي أحكم فيها ناموسيّو الهيكل حوله الخناق، وصوّبوا حرابهم إلى صدره، وأحدقت به أيديهم الآثمة تبتغي تسميره على خشبة الصليب...

في تلك الساعات الرهيبة التي سبقت رفعه عليه السلام إلى السماء أخبر عيسى المؤمنين بما سوف يكون من بعده، ونبّههم إلى الخونة المنافقين في صفوفهم، وأخبر عن الحواريّين، وبشّر بنبيّ يأتي من بعده اسمه أحمد[2]. ولعلّ المراد: يكلّمهم في المهد، ويدعوهم إلى الله كهلاً.

وتستمرّ الملائكة في وصف عيسى عليه السلام: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ٤٦: آل عمران، ويلفتنا ذكر كونه من الصالحين بعد كلّ ما ذُكر من صفات النبوّة والإعجاز، ذلك أن هناك صنفين من الناس من حيث صلتهم بالصلاح، فهناك الذين يعملون الصالحات، وهناك الصالحون. وليس كلّ من آمن وعمل صالحا دخل في الصالحين. وفي دعاء سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ١٩: النمل، وفي هذا دليل على أن العمل الصالح الذي يُرضي الله شيء، والدخول في الصالحين شيء آخر، فهو مقام أسنى، ولا يُنال إلاّ برحمة من الله.

ومن الأنبياء من وصفهم الله جلّ وعلا بالصالحين، فقد شهد ربّ العالمين بهذا لإبراهيم ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ١٣٠: البقرة، وشهد به لزكريّا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم السلام ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ٨٥: الأنعام، وكذلك لإسحاق ويعقوب ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ ٧٢: الأنبياء،

---

(١) عن تفسير الرازي للآية ٤٦ من آل عمران، وانظر مزيدًا من التفاصيل في كلام المهد في مكانه من السياق.

(٢) لا تصرّح الأناجيل المعتمدة اليوم بهذا، ولكن الحقائق كثيرًا ما تسطع من وراء السطور.

كما شهد به للوط وإسماعيل وإدريس وذي الكِفل ويونس عليهم السلام. وقد فضّل الأنبياء الصالحين على غيرهم من الأنبياء، وجعلهم أئمّتهم يوم القيامة ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ٥٥: الإسراء. فإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد ﷺ ونوح هم أئمّة الأنبياء، وإمامهم الأعظم هو المصطفى عليه الصلاة والسلام، الذي رفع الله له ذكره في الدنيا والآخرة، وهو صاحب المقام المحمود.

لقد جعل ربّ العالمين الفِردوس الأعلى لطبقة متميّزة أنعم عليها ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ ٦٩: النساء. ومن الذين أنعم الله عليهم عيسى بن مريم عليه السلام.

*

وأمّا الجانب الذي تناولته سورتا الأنبياء والتحريم من قصّة مريم فهو خاصّ بعفّتها وتوكيد براءتها ممّا يُنسَب إليها. وقد عبّر الذكر الحكيم عن الإطلاق في عفّة مريم ونقائها تعبيرًا مباشِرًا إذ كنى عنها بعبارة ﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ ٩١: الأنبياء و١٢: التحريم[1]. ذلك أن مريم، التي لم يمسسها بشر، قد حفظت غاية الحفظ كلّ ما يقابل عورات النساء من جسدها. ومن هنا غدا هذا التعبير علَمًا على مريم من باب العهد الذهنيّ، فما إن تُسمع عبارة «التي أحصنت فرجها» حتى يُعرف أن المقصود بها مريم عليها السلام.

لقد حصّن الله مريم تحصينًا كاملاً، فإضافة إلى الحصانة الروحيّة بالطهرالموروث والموهوب كانت هناك الحصانة الماديّة التي شملت كلّ فرج يُنفَذ منه إلى جوفها، ليكون خالصًا لنفخة الله فيه، فأحاطه بحصن من ورائه حصن من ورائه حصن، فأمّا الحصن الأوّل، فمحيطها الذي كان مقتصرًا على أفناء بيت المقدس، حيث يُفترض أن يكون بيتُ زكريّا، وأمّا الحصن الثاني، فالطهر الروحيّ الموروث والموهوب، وأمّا الحصن الثالث، فذلك الطعام المبارك الطيّب الذي أثار اهتمام زكريّا وأثار عَجبه.

---

(١) والفرج اسم لجميع سوءات الرجال والنساء وما حواليها، كله فرج. وكذلك في الدواب ونحوها. فإذا لم يعيّن السياق المدلول فالفرج القُبل من الجنسين. والمقام في هذه الآية يقتضي التعميم، فمريم لم تحصن قُبلها فقط، بل أحصنت جسدها كله، يدلنا على ذلك قولها: لم يمسسني بشر.

ويلاحظ أن الإحصان لم يُذكر إلاّ لمريم، أمّا لغيرها فقد ذُكر الحفظ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ ٥: المؤمنون و٢٩: المعارج. والحفظ درجات، وكلّها لِما دون الزنى، ويُعتبر التفريط فيما دون الزنى من اللمم ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ ٣٢: النجم، فإذا وقع الزنى فقد انتفى الحفظ. وفي الحديث: «والفرجُ يصدّق ذلك كلّه أو يكذّبه»[1]. ولئن كان الحِفظ نسبيًّا فإن الإحصان مطلق، والإحصان هذا لم يثبت إلاّ لمريم ، فمريم لم يمسسها بشر، بأيّة صورة من صور المسّ.

ولأبي حنيفة رضي الله عنه في مدلول كلمة المسّ في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ ٢٣٧: البقرة، إشراقة هائلة تشبّ ما ذهبنا إليه في قول مريم: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ ٢٠: مريم. فقد رأى كثير من الفقهاء أن المسّ المقصود في الآية هو الدخول، وبه يجب المهر كاملاً، وأيّ مسّ كان دونه يوجب نصف المهر. أمّا أبو حنيفة فقد اعتبر أن مطلق المسّ، أي كلّ ما هو من العلاقة الخاصّة بين الرجل والمرأة، موجبًا لكامل المهر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ ٢١: النساء، تأييد لمذهب أبي حنيفة، فالإفضاء يُلزم بالعدّة حتى لو ادُّعي عدم الدخول، وقياسًا عليه فينبغي أن يُلزَم الرجل بكامل المهر لكلّ ما هو من العلاقة الخاصّة بين الرجل والمرأة ممّا يكون عادة في الخلوة .

يبيّن الله تعالى في آيتي الأنبياء والتحريم المذكورتين أن عيسى كان بنفخة من روح الله الحقّ، تمامًا كما كان آدم عليه السلام إنسانًا بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ ٧٢: ص... لقد نفخ الله في آدم الجسدِ من روحه، أمّا بالنسبة إلى عيسى فكانت النفخة أوّلاً،

(١) صحيح البخاري: ٥٨٨٩.

ولكي يكون للنفخة كيان وجوديّ أرسل الله بها روحه إلى جوف مريم.

لقد أحصنت مريم فرجها، فليس جنينها من نطفة أتت عن طريق الفرج، بل من نفخة من روح الله الحقّ لا تحتاج إلى طريق، وقد أدّت دور النطفة في تكون هذا الجنين. فالنفخة إذًا كانت في جوف مريم الجسد ، ولا يخصّ هذا مكان دخولها بل مستقرّها، فهي في مريم على الأعمّ، وفي مكان وجود الجنين على الأخصّ. أمّا كيفيّة النفخ فليس إلى معرفتها من سبيل، ذلك أنّه ليس كالمعروف من النفخ، بل كذلك الذي صار به الطين إنسانًا.

والمشهور أن المرسل إلى مريم قد نفخ في جيب درعها، وليس في النصّ ما يُثبِت لما عُبّر عنه بروح الله كيانًا مستقلاً عن الذات الإلهيّة. ولعلّ قوله: «لأهب لك» وَجّه إلى إسناد النفخ إلى هذا الكيان أو الشخصيّة. ولكنّ الهبة من الله مباشرة، وما قوله «لأهَب» إلاّ من قبيل إثبات حتميّة وفوريّة تحقُّق البشارة بتحقيق التلازم بينها وبين الوهْب، فالهبة متحقّقة بمجرّد التبشير بها، حتى كأن المبشِّر قد وهب مريم ما بشّرها به. وفي قراءة «ليَهَب»، ولا حاجة معها إلى تفنيد.

ثم إنّه ما وَجه أن ينفخ الله من روحه في مريم بواسطةٍ لخلق عيسى، وقد نفخ مباشرة في آدم، وهو القائل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ٥٩: آل عمران**؟ وما المثليّة أو الالتقاء بين الحالتين إن لم تكن مؤدّى «كن فيكون»؟ وهذا لا يحتاج إلى واسطة، بل ينافي الواسطة. وعلى هذا فما كان لروح الله أو الملائكة من دور إلاّ البشرى.**

لقد كانت تلك النفخة وراء كلّ ما هو متميّز في المسيح عليه السلام، حيث كان فيه دليل ملموس، معجز في سطوعه وفرادته[1]، على وجود الكيان الروحيّ جنبًا إلى جنب مع

(١) أي كان نموذجًا لم يتكرر في هذا الباب.

obeikandl.com

الكيان المادّيّ للإنسان، بل غلبته عليه. أمّا المعجزة في خلقه ﷺ من أنثى دون ذكر، وهي معجزة قرنَها الكتاب المبين بمعجزة الخلق الأوّل، فقد أعطى الله البشر بعد ألفي عام من حدوثها سلطانًا للنفوذ إلى جانب منها[1]، فقطع العلم خطوات، تعتبر هائلة قياسًا على معارفه وإنجازاته، في استخدام خليّة واحدة لإنشاء كيان بشريّ، ودعا ذلك بالاستنساخ.

كان المسيح ﷺ رحمة للناس، جاء بما يطوّع أقسى القلوب، ويكفل إرساء السلام في الأرض. ولكن لسوء حظّ المسيحيّة أن الغربيّين هم الذين يتبنّونها اليوم. وأنت لو قارنت بين مسيحيّ شرقيّ وآخر غربيّ لاتّضح لك ما يتميّز به الأوّل من وداعة وتسامح وطيبة.

[ولا عجب أن كان الشرق مهدَ الديانات السماويّة والوضعيّة. إذ قضى الله أن للشرق حضورًا ساطعًا يصعب طمسه، لما في مجمل طبيعته من شفافيّة أصيلة عن الفطرة الأولى الصافية، ممّا جعله شاهدًا على نقاء الخلق الأوّل، واستقامته على الطريقة، كما شاء له الخالق الحقّ. ومن هنا فإن ما ران على فطرة إنسان الشرق، أقلّ بكثير ممّا ران عليها في سائر الأرض][2].

لقد فرضت الظروف الطبيعيّة المحيطة بالعرب عليهم أن يكونوا قُساة جفاة، وجاء الإسلام، فأطلق فطرتهم النقيّة من أسر القرون، فإذا هم أكثر الأمم رحمةً بأعدائهم، ناهيك عن أحبابهم، وإذا الكلمة الطيّبة سبيل إليهم لا يضلّ سالكه. وليس هذا في طبع الغرب عمومًا. وما آل إليه عالم اليوم، في ظلّ تفوّق وسيادة العقليّة الغربيّة من عنف وعنصريّة وخوف وإرهاب، شاهد على ذلك لا يدحض.

---

(١) في الاستنساخ من الخليّة. وهو جانب جزئيّ لمّا يزل في نطاق التجارب. انظر الباب الأول: المعجزة

(٢) من بحث "الحق المطلق" للكاتبة.

obeikandl.com

وتقدّم الروايات وصفًا لتفاصيل ما جرى بعد بشارة الملائكة، وتقول الرواية الأكثر حظوة لدى المفسّرين: إن الحمل والوضع كانا في ساعة أو ساعات، وإن جبريل انصرف عن مريم بعد البشارة وقد بدت عليها مظاهر الحمل، فألفت نفسها في محنة عظيمة. وفي بعض الروايات ذات المصدر التوراتيّ أن عشيرها يوسف النجّار أقبل عليها كما لو كان نجدة من السماء. ولم تشأ مريم أن تكتم ما كان اغتباطًا به، وحاولت أن تخبر يوسف بالأمر، فلم تسعفها الكلمات. وإذا هو يقول لها: أعرف... أخبرني الذي كان عندك.

فحملته فانتبذت به مكانًا قصيًّا

وفي الرواية الأكثر تداولاً أن مريم قد انتبذت من أهلها مكانًا قصيًّا هاربة بمخاوفها وآلامها من العيون أن ترى آثار الحمل، والألسن أن تتحرّك بالسوء. وما أسرع ألسنة المدعوّين ببني إسرائيل إلى ذلك! ولا أدري ما الداعي إلى الخوف والألم وانتباذ المكان القصيّ والحمل بهذه الطريقة معجزة بيّنة تُخرس الألسن، بل تضمن نسبة هائلة من المؤمنين بنبوّة عيسى فيما بعد. ثم إن انتباذ مريم مكانًا قصيًّا، رغم ما توحي به الفاء من تتابع الفعلين، يُضيّق فرص القول: إن الحمل والولادة قد تمّا في ساعات، لأن بلوغها مكانًا قصيًّا يقتضي مدّة معقولة، وما كانت المفاجأة والحالة الجسديّة والخاطر المثقل بالهمّ والخوف لتسمح للصبيّة الصغيرة بأكثر من التواري في مخدعها، فيما إذا ظهرت عليها علائم الحمل بهذا الشكل المفاجئ.

إن النقلة المباشرة من بداية الحمل إلى وضعيّة المخاض في النصّ القرآنيّ، ووفرة الروايات المشرَبة بروح الإسرائيليّات وتزيّداتها أطلق العنان لطائفة من المفسّرين، فلم تُجزئهم معجزة الحمل التي اكتفى بها الذكر الحكيم، بل راحوا يُفيضون المعجزات على مدّته، وعلى كيفيّة الولادة، بل على طبيعة مريم الأنثى التي أثبتها لها النصّ القرآنيّ ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ ٣٦: آل عمران، **واعتسفوا الكلام عن مدّة الحمل، وكيفيّة الوضع حتى استنفدوا الاحتمالات. ولكن كان إلى جانب هؤلاء من عرضوا الروايات على المنطق، ولم يتمحّلوا الأدلّة.**

ولعدم ذكر شيء من ذلك في الأناجيل دلالته، ذلك أنّها تتصيّد المعجزات لعيسى حتى بلغ الأمر ببعضها أن زعم أنّه ابن الله. ومع ذلك نجد مريم في الأناجيل الأربعة، وفي إنجيل برنابا كذلك، امرأة كسائر النساء، وزوجًا ليوسف النجّار، وأمًّا لعدد من أولاده الذين عُرفوا بإخوة المسيح. بل إنّنا نقف في الأناجيل على تفاصيل تؤكّد كون الحمل طبيعيًّا، من حيث مدّته، ومن ذلك أن يوسف النجّار سافر إلى بيت لحم «ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى. وبينما هما هناك تمّت أيّامها لتلد، فولدت ابنها البكر»[1]. ولإغفال الأناجيل معجزات من هذا النوع دلالة تستحقّ الاعتبار.

وكثير من الأقوال، وتوافقها الأناجيل، على أن مريم قد حملت كلمة الله جنينًا في أحشائها، ثم سارت الأمور بها كما تسير أمور كلّ أنثى، ولمّا ظهرت عليها أعراض الحمل، ورأت أن إخفاء الأمر عن أهلها بات صعبًا، وأنّهم لن يصدّقوا الحقيقة العجيبة التي كانت تخفيها إلاّ عن يوسف النجّار خطيبها، كما تقدّم، لجأت إلى مكان بعيد هاربة من الموقف المرعب ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ ٢٢: مريم.

والانتباذ من مريم بالذات لا يثير التساؤل، إذ أن قومها تعوّدوا منها العزلة الطويلة، ولعلّ الذي يدبّر الأمر في السماوات والأرض عوّدهم منها ذلك، لكي لا يرتابوا في طول اختفائها في ذلك الوقت العصيب.

وقد ذهب بعضهم إلى أكثر من ذلك في توكيد كون الحمل طبيعيًّا، فقالوا إن الأمر قد افتُضح، ونال أهلها ما نالهم في قومهم، وأنّها من أجل ذلك اعتزلتهم، ومضت إلى مكان بعيد هربًا من الألسن، ففي قصص ابن كثير: «قال محمد بن إسحاق: شاع واشتُهر في بني إسرائيل أنّها حامل، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل بيت زكريّا... واتّهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبّد معها في المسجد، وتوارت

---

(١) إنجيل لوقا: ٢.

عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكانًا قصيًّا»[1]. ولعلّ ذلك الانتباذ ما ذكرته الأناجيل من سفرها إلى زوج زكريّا عليه السلام، وهي أختها أو خالتها، ففي الأناجيل أن مريم بعد أن ظهر حملها ذهبت إلى مدينة يهوذا في جبال اليهوديّة، حيث مكثت ثلاثة أشهر عند زوج زكريّا عليه السلام، وكانت حاملاً بيحيى[2]، وبعدها سافر بها يوسف إلى بيت لحم للاكتتاب، وفيها ولدت عيسى عليه السلام.

فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة

وفي الرواية المذكورة أن مريم وضعت حملها بسهولة ويسر، وأن المولود جاء نظيفًا ممّا يعلق بالمواليد من الدم وغيره، وقد استفادوا ذلك من قوله عزّ وجلّ ﴿وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ ٤٢: آل عمران، وقوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ ١٩: مريم. وليست تلك الفائدة باللازمة عن هذين الأمرين، وقد قيل غير ذلك، ومنه ما نقله الرازي في تفسيره عن ابن عبّاس: «أن يوسف انتهى بمريم إلى غار، فأدخلها فيه أربعين يومًا حتى طهرت من النفاس»[3]. ولعلّ يسر الوضع من السلام في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ ٣٣: مريم، فهو تيسير من الله، كما في ولادة محمّد ﷺ، وليس معجزة.

لم يشغل مريم الوليد الذي تستعدّ لاستقباله عمّا ينتظرها عندما تأتي به قومها تحمله وهي التقيّة النقيّة، وكان الموت أيسر وقعًا على نفسها من الفضيحة التي تنتظرها ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ ٢٣: مريم[4].

وبدا الموقف مُرهصًا بمعجزة... فهاهي ذي مريم بعد أن استقبلت وليدها وحيدة خائفة حزينة، تشعر بحضور ذلك الروح الأمين الذي تألفه ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي﴾ ٢٤: مريم، إنّه هو... صاحب البُشرى، يناديها هنا تحت تلك النخلة، في هذا

(١) قصص الأنبياء ٢: ٤٤٦.

(٢) إنجيل لوقا: ١.

(٣) التفسير الكبير الآية ٢٧ من سورة مريم.

(٤) وهو تعبير لا شأن له بتمني الموت المنهي عنه، ولا يعدو كونه كناية عن استقباح الفضيحة وخشيتها، والإشفاق من وقعها، إلى حدّ اعتبار الموت أخف منها وقعًا على النفس.

المكان القصيّ المنعزل حيث لا أنيس ولا مُعين[١].

هكذا وجدت مريم الوحيدة المستوحشة الخائفة رسول ربّها معها يهدّئ من رَوعها، ويطمئنها، ويرشدها إلى ما يُصلح من شأنها، وتستعين به على ما ينوء به روحها وجسدها: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ ٢٤ و٢٥: مريم[٢]. وفي تلك الرواية أن السريّ قد نبع وجرى تحت مريم كما نبعت زمزم تحت قدمَي إسماعيل عليه السلام، وأن النخلة كانت يابسة، أوجذعًا مقطوعًا قد طرح أرضًا[٣].

وتنفّست مريم الصعَداء... إنّه فعلاً ما تحتاج إليه في لحظتها تلك، بعد أن وضعت وليدها، وأنست برسول ربّها... جرعة ماء وبعض الرطَب، وروح أمين يُعنى بها بودّ: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ ٢٦: مريم. وكان كلّ من النخلة والسريّ في متناولها، فهزّت إليها بجذع النخلة ما استطاعت، ولعلّها لم تزد على جذبه إليها جذبًا يسيرًا، فقد فهمت من قول رسول ربّها أن هذا كاف. وساقط الهزّ أو الجذع على مريم رطبًا جنيًّا فأكلت منه، وشربت من السريّ، فذهب حزنها، وقرّت عينًا.

ولم تسلم نخلة مريم ولا سريّها في التفاسير من الصبغة الخرافيّة للروايات. ففي بعض الروايات أن النخلة كانت معروفة، أو أنّها النخلة الوحيدة في المنطقة، وقد استدلّوا على ذلك بأن "أل" عهديّة ذهنيّة. ولكنّ الأولى أن تكون "أل" لتعريف الجنس[٤]، ويكون المقصود: هزّي إليك بجذع النخلة التي التجأت إليها. ثم إن تساقُط الرطب يعني أن النخلة قائمة، وليست

(١) وفي بعض الأقوال أن المتكلم هو عيسى الوليد، وعلى هذا يكون كل ما هو آت من كلامه، فهو الذي بين لها كيفيةالحصول على الرطب، وأرشدها إلى الجدول، وعلمها كيف تواجه قومها عندما تعود به إليهم...

(٢) والسريّ نهير صغير.

(٣) وقيل إنها النخلة الوحيدة في المنطقة.

(٤) يقول الزمخشريّ: "وإما أن يكون تعريف الجنس أي: جذع هذه الشجرة خاصة". [الكشاف: تفسير الآية ٢٣ من سورة مريم].

جذعًا مطروحًا كما في كثير من الروايات.

ويذهب القائلون بأن النخلة شجرة يابسة أوجذع ملقًى، إلى أن تساقُط الرطَب منها في هذه الحالة دليل لمريم على قدرة الله على خلق الحياة بغير الأسباب المعروفة. وكأنّ مريم، وهي فيما هي فيه، بحاجة إلى دليل على ذلك بعدُ. وربّما كان لهذا الاستنتاج بعض الوجاهة لو ثبتت المقدّمة، أي لوثبت أن جذع النخلة جافّ أو مقطوع، ولكنّ المقدّمة هنا مفترَضة بدون دليل معتبر، بل بدون مبرّر لافتراضها أصلاً.

ثم إن كون النخلة حيّة مثمرة أسهل لهزّها من كونها جذعًا جافًّا مرميًّا أو قائمًا. والرطَب معروف عنه سهولة تساقُطه، ولا سيّما إذا أجنى[1]، وهو في النصّ العظيم رطَب جنيّ، ومعروف أن أدنى الريح تطرح ما أجنى من الرطَب. وإذا صحّ ما روي، من أن الوقت كان شتاءً، فهو أدعى لنخلة، في منقطَع من العمران، أن يكون فيها بقايا من رطَب شبه جافّ، يتساقط من عراجينه لدى أدنى هزّة، كتلك التي تقدر عليه نفَساء صغيرة السنّ، وضعت بكرها لتوّها، فهي في وهْن على وهن على وهن.

مرّة ثانية لا يسعنا تجاهل كون الأناجيل خلوًا من الإشارة إلى معجزة للمسيح أطنب في ذكرها أصحاب الروايات، فلو كان في الأمر ما هو معجز لنفخت فيه الأناجيل وضاعفت إعجازه، ولَما فاتها ذكره. وهكذا «مَعجَزَت» الروايات نخلة مريم بدون سند معتبَر من نصّ أو أثر أو رواية إسرائيليّة.

ويجدر أن نذكر هنا ما قاله بعض أصحاب التفسير الإشاريّ في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ ٢٥: مريم، من أنّه إشارة إلى مريم أن عليها منذ اليوم أن تسعى في طلب الرزق، فقد كان رزقها يأتيها من دون أن تتّخذ لذلك الأسباب، وذلك لخلوصها الكامل لله، وأمّا الآن فقد أخذ حبّ وليدها طريقه إلى قلبها، فلم يعد خالصًا لله[2]. وتسند الروايات موقفًا مماثلاً إلى أبي الأنبياء إبراهيم، عندما رُزق ببكره إسماعيل ﷺ. واستدلّوا على ذلك بحديث رسول الله ﷺ: «لو

(١) أي نضج وحان جنيه.

(٢) وقد اختُلف في تلك الأسباب، فقيل إن الرزق كان من طعام أهل الجنة، يتنزل على مريم من السماء. وقيل بل كان طعامًا مباركًا، يسوقه الله إليها دون سعي منها. وفي كلتا الحالتين كان الرزق يأتي مريم دون حساب، أي دون سعي منها، أي "هو من عند الله". وقد سبق تفصيل القول في طعام مريم.

توكّلون على الله حقّ توكّله لرزقكم الله كما يرزق الطير: تغدو خماصًا، وتعود بطانًا»[1].

ونحن قد رأينا كيف كان الرزق يأتي مريم بلا حساب منها، ورغم الاختلاف في كيفيّة ذلك، فإنّه لا خلاف على أن مريم لم تكن في موضع من ينبغي له السعي في طلب الرزق، وعلى هذا فلا يصحّ أن نرتّب على الموقف أن خلوص القلب الكامل لله يأتي بالرزق إلى صاحبه إلاّ على الوجه التالي: إن خلوص القلب الكامل يعني السير في ركاب الحقّ دون عِوَج ولا أَمْت، ومن الحقّ أن يسعى المرء في سبيل الرزق، وذلك هو اتّخاذ الأسباب. وعلى هذا الأساس يصحّ الاستشهاد بالحديث المذكور. فإن حقّ التوكّل الذي ذكره ﷺ هو حُسن السعي في طلب الرزق، وهل فوق الغدوّ والرواح للطير من سعي؟

ويلاحَظ ممّا تقدّم أن مريم كانت شبه محجوبة عن محيطها الاجتماعيّ إلى أن وضعت عيسى عليه السلام، فغادرت عالم الصفاء والتحرّر من أسر هذا الوجود، فقد ربطها بدنيا الناس ولدُها المرسل آية لهم، ورحمة من الله...

*

أمّا السريّ، فأكثرهم على أنّه نُهير أقرب إلى الساقية، أجراه الله لمريم للحظته، واستدلّوا على ذلك بما في "جَعَل" من معنى الإحداث. ولكنّ الجعل هنا للدلالة على أنّه من تدبير الله الحقّ وتوفيقاته، وليس لإفادة الإحداث، ولو أنّه جلّ وعلا قد جعل ذلك السريّ في هذا المكان منذ خمسين سنة لصحّ التعبير.

ثم إنه ليس في النصّ ما يُلزم باعتبار السريّ المذكور تحت مريم مباشرة، أي في متناولها، حيث هي تحت النخلة. ولعلّ اعتباره كذلك هو ما حمل المفسّرين على القول بمعجزة إحداثه في تلك الساعة. بل وجدتُ أن النصّ يسمح باعتبار السريّ المُشار إليه نُهيرًا قريبًا من مكان مريم. وقد قال بعضهم بذلك على استحياء، ولم ينل هذا القول إعجاب القُصّاص، فلم يُشتهَر. ولفتُ مريم إلى السريّ لا يُلزمنا باعتباره قد أُحدِث في اللحظة نفسها، فلعلّه لم يكن ظاهرًا لها، إمّا لدقّته، أو لأنّها لم تكن قد فطنت إليه لشدّة معاناتها، فهو ينسرب بهدوء تحت عشب أو هشيم أو حصًى، فلمّا احتاجت إليه دلّها عليه هاتف ربّها الحقّ.

---

(١) صحيح ابن حبّان ٧٣٠.

ولئن تابعت الروايات التوراتيّة من فصول حياة مريم ما تابعت، فقد أنهى الذكر الحكيم أمرها تمامًا وهي صائمة للرحمن لا تكلّم إنسيًّا، وكان آخر ذكر لها: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ ٢٨: مريم، فمن أجل تلك اللحظة، بل من أجل تلك الإشارة وُجدت مريم. وبها انتهى دورها في تلك الدفقة من الهدى على الأرض.

فأتت به قومها تحمله

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ ٢٧: مريم، ولم يقل جاءت به قومها تحمله، ذلك أنّها كانت في مكان بعيد لا يعرفه أحد منهم، وفي شأن أبعد من أن يهتدوا إليه[1]، فهما بُعدان ماديّ ومعنويّ. وما أبعد امرأة مثل مريم عن قومها، وما يفكّرون به، وما يتصوّرونه!

ويجدر بنا أن نلاحظ أن مريم، رغم حرج الموقف، قد أتت به قومها تحمله، وقومها، بما فيهم من طبائع بني إسرائيل، مولعون بالخوض في الأعراض، وتشويه سمعة الأنبياء والصالحين. لقد أعدّها ربّها لهذا الموقف، وعلّمها رسوله كيف تتصرّف: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ ٢٦: مريم...

إنّها القوّة التي يُفيضها الإيمان على القلب، فعندما يعرف المؤمن أن ما بينه وبين ربّه عامر تسقط من قلبه رهبة البشر... ولا يتكلّمنّ أحد هنا عن أمن مكر الله، ولا عن وجوب حقر المؤمن لعمله، فالمؤمن الحقّ يعرف أن ما بينه وبين ربّه عامر، بما يجد في نفسه من خير ورضا واطمئنان، وبحسن ظنّه بربّه، وبرجائه الموصول أن يتقبّل منه، ويتجاوز عنه، ويرحمه.

---

(١) وفي هذا تصديق لما سبقت الإشارة إليه من أن مدة الحمل كانت طبيعية، وأن التواري كان في الفترة الأخيرة من الحمل، والأيام التالية للوضع. وفي بعض الروايات أن مريم مكثت أربعين يومًا بعد الولادة، ثم أتت قومها. ولعلّ ذويها كانوا قد اعتادوا غيابها فترات تطول وتقصر لانقطاعها للتعبد، وطول اختلائها، وهو ما أبطأ بهم عن افتقادها.

ويستدعي المقام هنا الموقفَ العظيم لأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما برّأها الله ممّا اتّهمها به المنافقون في حديث الإفك المعروف، فقال لها أبو بكر: قومي إلى رسول الله فاشكريه.

قالت: إنّما أشكر الله الذي برّأني.

وإذا اتُّهِم الصالح فعلى المؤمنين أن يظنّوا بأنفسهم خيرًا، فيتروّوا، ويذكروا ما يعرفون عن أخيهم من خُلق وصلاح مادامت التهمة لم تثبت عليه ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ ١٢: النور.

﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ ٢٧: مريم. لقد فوجئ ذووها عندما أتتهم مريم بعد غيبة طويلة تحتضن وليدًا، فكان فيهم من سارع في ظنّ السوء[1]، ومن تروّى، وقال في عتاب واستغراب: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ ٢٨: مريم. وفعلت مريم ما أمرها رسول ربّها بفعله، فأشارت إليهم: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ ٢٦: مريم[2].

وتُسعف الذاكرة مريم، فقد سبق أن قالت لها الملائكة في سياق البُشرى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ ٤٦: آل عمران، فتشير إليه: أن اسألوه.

وهنا تصاعدت حدّة المفاجأة، فعجب فريق، وأنكر آخر، وسخر ثالث ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ٢٩: مريم؟

قال: إنّي عبد الله

ولكنّ الصبيّ تكلّم، وكانت مفاجأة صفعت الوجوه، وألجمت الأفواه ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ٣٠ - ٣٣: مريم...

---

(١) وفي الروايات أن امرأة قالت: ما أراها إلا زنت. فأخرس لسانها، وأخرى جاءت تريد أن تصفعها فشلت يدها.

(٢) والكلام لا يكون إلا مسموعًا، أمّا القول فيكون مسموعًا وغير مسموع. والصوم عن الكلام عبادة معروفة عند بني إسرائيل.

وقد اختُلف في كلام المهد، متى كان، ومن سمعه؟[1] والأرجح أن قوم مريم الذين أتتهم تحمل عيسى، والذين تكلّم فيهم، هم قومها الأدنَون الذين تُقيم فيهم، ومنهم أسرة زكريّا، وهؤلاء مهما تشدّدوا ولَوُموا يهمّهم كتم الأمر لئلاّ يشيع عنهم. وهذا لا يتّفق وما ذكرته بعض التفاسير من الضجّة التي أحدثتها معجزتا ولادة عيسى وكلامه في المهد على نطاق المدعوّين بني إسرائيل، وما أدّى إليه ذلك من تهديدها بالرجم.

وفي بعض التفاسير ما يشير إلى ذلك، ومنه ما أورده الرازي: «ربّما كان الحاضرون عند كلامه قليلين... ولعلّ اليهود ما حضروا هناك وما سمعوا كلامه»[2]. ومنه ما أورد أبو حيّان: «روي أنّها لمّا دخلت به على قومها، وهم أهل بيت صالحون، تباكوا، وقالوا: »[3]. ومنه ما جاء في بعض الأناجيل من أن يوسف النجّار خطيب مريم، قبل أن يطمئنّ إلى الحقيقة قلبه، أراد أن يُخلّيها بصمت لئلاّ يسيء إليها، فلمّا عرف تمّم زواجه بها، ولم يَقربها حتى وضعت عيسى عليه السلام. ومن هنا فالأمر لم ينتشر، ولم يصل إلى حدّ تهديدها بالرجم.

وقال ابن مريم الكلمة التي لم تزل الفرقان بين الحقّ والباطلِ: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ٣٠: مريم. فهو ليس الله ولا ابن الله ولا ثالث ثلاثة كما يقولون، بل هو عبدُ الله. ولكن متى آتاه الله الكتاب؟ ومتى جعله نبيًّا، وقد ولد لتوّه؟!

(١) ومما يلفت الانتباه أنه ليس في الأناجيل أن عيسى تكلم في المهد، بل فيها أن الذي تكلّم في المهد هو يحيى عليه السلام، ففي إنجيل لوقا: "وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله" [إنجيل لوقا: ١].

(٢) التفسير الكبير الآية ٣٣ من سورة مريم.

(٣) البحر المحيط، تفسير الآيتين ٢٧ و٢٨ من سورة مريم.

obeikandi.com

الإنسان هذا خلق وأمر، وكلّ الكون خلق وأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ٥٤: الأعراف. والخلقُ من الإنسان جسمه المخلوق، وذلك لوجوده الماديّ في الحياة الدنيا، والأمرُ منه كيانه الاعتباري، وهو ما يعرف بالروح، والروح خالدة لأنّها نفخة من ربّ العالمين. وقد أخذ الله ميثاقها على الاستقامة على الحقّ، وشهدت على نفسها أنه ربّها ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ ١٧٢: الأعراف. كلّ ذلك كان قبل أن ينفخها الله في آدم المخلوق الطينيّ، ومن بعده ذرّيّته.

وإلاّ فأين التقى النبيّ ﷺ بموسى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ ٢٣: السجدة؟ ومتى أخذ الله ميثاق النبيّين، وكيف أخذه؟ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ٨١: آل عمران، كلّ ذلك كان في عالم الأمر أمرًا من قبل أن تُخلق الأجساد.

وقول عيسى الوليد عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ ٣٠: مريم، يشير إلى أنّه في بعض كينونته لم يكن نبيًّا. أي أن النبوّة قد أُحدثت فيه[1]. فالأنبياء والمرسلون اصطفاهم الله في كينونتهم الأولى في عالم الأمر، أي قبل أن يوجدوا في هذا العالم الماديّ، وأخذ منهم ميثاقًا أن يؤمنوا بمحمّد ﷺ، وهذا ما فعلوه.

﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ ٣١: مريم...[2] نشر سيّدنا عيسى عليه السلام علمًا، وبلّغ رسالةً، وما من شيءٍ ينمو بركةً وأجرًا ومكانةً ورِفعةً كالعلم... ومعروف الحديث: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاثة: إلاّ من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[3]. وعلى رأس العلم الذي يُنتفَع به ما تنزّل على الأنبياء

(١) والجَعل تغيير الصورة "جعل الشمس ضياءً" ٥: يونس، أي لم تكن فكانت.

(٢) والبركة الزيادة، أي الخير الذي كثر، أو الخير النامي باطراد.

(٣) صحيح مسلم: ١٦٣١.

والرسل من الكتب المباركة، فالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن كُتب أنزلها الله مباركة[1]، وكون الكتاب مباركًا يعني أن في قراءته أجرًا، وفي حفظه أجرًا، وفي حبّه أجرًا، وفي تعلُّمه وتعليمه أجرًا، وكلّ ذلك من بركته. وفي الحديث: «إنّ لله أهلين من الناس. قالوا: يا رسول الله، من هُم؟ قال: هم أهلُ القرآن وخاصّته»[2].

وإذا كان رسول الله ﷺ قد قال: «فوالله لأن يُهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم»...[3] فماذا عن خيريّة وبركة من اهتدوا ويهتدون وسوف يظلّون، بإذن الله، يهتدون بدعوات الرسل عليهم السلام؟!

وقد جعل الله لعيسى عليه السلام بركات أخرى، فكان يمسح بيده الشريفة على المريض فيُبرئه الله، وعلى الأكمه فيهبه الله البصر، وعلى الميت فيردّ الله إليه الحياة، كلّ ذلك بإذنه عزّ وجلّ.

ويلاحظ أن الآيات الأولى من كلام المهد قد تناولت الإيمان بالله ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ٣٠: مريم، والإيمان بكتبه ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ٣٠: مريم، والإيمان بملائكته، ذلك أنّه آتاه الكتاب عن طريق جبريل عليه السلام، والإيمان برسله ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ٣٠: مريم. ثم تلاها ما يخصّ العبادات.

﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ٣١: مريم، وصيّة ألتزمها ما حييت، ذلك أن هاتين الفريضتين لا تسقُطان عن المؤمن بأيّة حال من الأحوال ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ ٩٩: الحجر[4]، وأنّ الصلاة رأس العبادات، والصلة بين العبد وربّه.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ ٣٢: مريم. ونرى برّ الوالدين في الكتاب العظيم مقرونًا بالعبادة ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ ١٤: لقمان، وتحفل الأحاديث النبويّة بالحضّ عليه كما لو كان من

---

(١) كل ذكر للكتب السماوية في الكتاب والسنة إنما يعني النصوص الأصلية المبرّأة من العبث والتحريف والتزييف.

(٢) سنن ابن ماجة: ٢١٥.

(٣) صحيح البخاري: ٢٧٨٣.

(٤) حيث أكثر المفسرين على أن اليقين في الآية الموت.

obeikandi.com

العقيدة: «ثلاثة لا ينفع معهنّ عملٌ: الشرك وعقوق الوالدين والفرار من الزحف»[1]. فأقرب طريق إلى الجنّة أُمّك، وأقرب طريق إلى الجحيم أُمّك.

إن من ميّزات هذه الأمّة برّ الوالدين، فلا ينفع أبناءها أن يبنوا كلّ مساجد الأرض، أو يفتحوا كلّ أقطارها لكلمة الحقّ ما لم ترضَ عنهم أمّهاتهم... وقد قيل: كما أنّه لا يُرفع مع العقوق عمل فإنّه لا يضرّ مع البرّ ذنب.

وما ذلك المقام للأمّ إلاّ لأن القلب الذي لا يكون من السلامة بحيث يحفظ تلك اليد الباذلة، ويكرّس دورها في بناء الإنسان، وبالتالي صنع الحياة، لهو قلب ناقص الإيمان بحاكميّة الحقّ، عاجز عن موالاته والدينونة له. ومن هنا فإنّه يطّرد أن العتاة والمفسدين والأشرار ممّن يعقّون والديهم .

والمجتمعات المادّيّة المتحلّلة التي لا رصيد لها من القيم تنبذ شيوخها، وتعاملهم بالرفق نفسه الذي تُعامِل به الحيوانات المتقاعدة، فتدفع إليهم بمستلزمات بقاء الجسد، وتحرمهم مستلزمات الوجدان المعنويّ، التي تقوم عليها إنسانيّتهم، في أرذل العمر، حيث يتعاظم دور هذه المستلزمات مع قرب نهاية الجسد.

إن برّ الوالدين مقياس لسائر الخُلق، فإذا أردت أن تعرف أخلاق الرجل فانظر كيف يُعامل أبويه. وعلى من ابتلاه الله بعقوق والديه أن يعلم أن لديه ذنبًا خطيرًا ينبغي أن يتوب منه لكي يرفع الله عنه هذا البلاء.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ٣٢: مريم، إن كلّ خشن فظّ غليظ القلب يخافه الناس ويتجنّبونه جبّار، فإذا بلغ به جبروته أن يقتل على الغضب فقد صار، إلى جبروته،

(١) الترغيب والترهيب ٢: ١٩٧.

obeikandl.com

شقيًّا. والجبّار قد يتوب، لكنّ الشقيّ لا يرزقه الله التوبة. وفي الحديث: «لا يدخل النار إلاّ شقيّ»[1].

ويلاحَظ أن كلّ مَن ديدنه الطعن في المسلمين، والتشكيك فيهم، وتكفير أهل القبلة، واتّهامهم بالشرك يكون ممّن يعقّون والديهم. وإنّه لحكمة وقانون حقّ أن مثل هذا وذاك يعقّ والديه ممّا يستدعي أن يهلك هلاكًا تامًّا، وهذا من مكر الله سبحانه وتعالى بهؤلاء. وذلك هو سرّ التلازم بين كون عيسى عليه السلام برًّا بوالدته وعدم جعله جبّارًا شقيًّا في الآية.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ٣٣: مريم[2]. لقد أراد الله السلام كلّ السلام للمسيح وعليه، في كلّ أطوار كينونته، ولاسيّما في تلك المراحل الهاصرة التي تكون بين الطور والآخر. كما أراد السلام ليحيى إذ قال عنه: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ١٥: مريم. والله الحقّ أراد السلام لكلّ أنبيائه ورسله، إرادة ثابتة نافذة وحتميّة، عندما ترك عليهم في الآخرين سلامًا يُذكر كلّما ذُكروا... والله ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ١٠٧: هود.

ومن السلام الذي أراده الله لعيسى يوم موته أنّهم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ١٥٧: النساء، فهو لم يمت بأيديهم كما أرادوا، بل أنقذه الله منهم، وتوفّاه ورفعه إليه ﴿ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ٥٥: آل عمران.[3] وهكذا جعل ربّ العالمين السلام لسيّدنا عيسى حُكمًا مُبرمًا لا رادّ له.

* * *

(١) سنن ابن ماجه: ٤٢٩٨.

(٢) والسلام الأمن والسلامة من السوء.

(٣) والوفاة تعني الدخول في برزخ مغاير للعالم الماديّ، وذلك في حالة الاحتضار السابقة للموت، أو في حالة النوم.

قول الحقّ الذي فيه يمترون

وأوّل ما امترى اليهود في قوله ﷺ: إنّي عبد الله. فقلبوا الحقيقة وزوّروها، وأشاعوا أنّه ادّعى الألوهيّة، وتلاعبوا بأقواله حتى استصدروا السلطاتِ حكمًا بصلبه. ثم تابعوا حبك حلقات المؤامرة فشوّهوا ما ترك، وعبثوا بوصاياه وتعاليمه لخدمة أغراضهم وتحقيق مآربهم. وقد أدّى هذا إلى اضطراب النصوص، وتناقضها، وبالتالي الاختلاف في المسيح ﷺ، فهو عند بعضهم عبدُ الله، وعند آخرين ابن الله، وعند غيرهما ثالث ثلاثة، بل هو الربّ عند فريق رابع. ومن عبث الأيدي الآثمة إخفاء بشارة المسيح ﷺ بمحمّد ﷺ، تلك البشارة التي جاءت في الذكر الحكيم، حيث سمّاهُ أحمد، وتعني المحمود في السماء.

عندما بعث المسيح ﷺ كان أحبار اليهود ومنظّروهم قد ثبّتوا ضلالاتهم التوراتيّة، وتوغّل سمّها في الناس، وكان كبار مجرميهم يسيطرون على مقاليد الأمور في بيت المقدس، التي كانت ولاية رومانيّة آنذاك، ويديرونها بناء على توجيه منظّريهم عبر ما ادّعوا أنّه التوراة. وراحوا يُرهبون أهلها بما في أيديهم من سلطة كهنوتيّة، ويتعسّفون في تجريمهم ومعاقبتهم، حتى ضجّ الناس، وتطلّبت الأوضاع قلبًا.

وكان المسيح ﷺ يلازم بيت المقدس فوقف على هذا الفساد، فكانت له مواقف احتفظت الأناجيل ببقايا منها، فلمّا أكرمه الله بالرسالة حمل لواءين معًا، فكان يعارض الجهاز الكهنوتيّ الفاسد تحت إحدهما، ويرمّم النفوس الممزقّة ظالمة ومظلومة تحت اللواء الآخر، ممّا زلزل الأرض تحت أقدام الطغاة، أو كاد. ولمّا نما أثره، والتفّ الناس حوله ناصبه أحبار اليهود وناموسيّوهم العداء، وتآمروا عليه، وضغطوا على الحاكم الرومانيّ حتى استصدروا حكمًا بقتله صلبًا.

ويلاحظ أن الأناجيل تُبرز حجّة اليهود في صلب المسيح أمام بيلاطس بأنصع بيان "لنا ناموس، وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله، بينما تختزل دفاعه عن نفسه وتعميه، حتى يبدو مثيرًا للشكّ، فبيلاطس «قال ليسوع: من أنت؟. وأمّا يسوع فلم يعطه

جوابًا»[1]. بل إن ما في الأناجيل يبدو كما لو كان موجّهًا لتكريس تلك التهمة، فهي تدعو المسيح بابن الله، وتعبث بكلمتي الآب والربّ، بحيث توحي الأولى بأنّها تحمل نفس مدلول الأب الوالد، وتدلّ الثانية على الله جلّ وعلا حينًا، وعلى المسيح حينًا آخر، في حين نجدها في أكثر من موضع متبوعة بعبارة «الذي تفسيره يا معلّم»[2].

لقد قام اليهود بخدعتهم الكبرى بجمع العهدين القديم والجديد في كتاب واحد، فتصهين ملايين النصارى. وعلى مدار التاريخ سُعي إلى مواضع القرار بالرؤوس المتصهينة، فوالى الغرب المسيحيّ الصهيونيّة، وعادى أمّةً تقول في المسيح وأمّه ما نقرأه في القرآن الكريم، وكان الأمر سخريّة سافرة من كلّ قواعد المنطق التي عرفها البشر.

إن كتاب الله الذي نزل على محمّد بالحقيقة كان، ولم يزل، الشاهد الوحيد الذي يهدّد المفسدين في الأرض إلى اليوم، وهم يعرفون أنّه شاهد لا يمكنهم إسكاته، ولذلك ركبوا الصعب، وقرّروا طمس بصر وبصيرة العالم كلّه وسدّ آذانه. وتلك من معجزات ذلك الكتاب الذي يحمل نور الله... لم يجدوا ولن يجدوا إليه سبيلاً، ويكلّفهم الالتفاف عليه أن يضعوا العالم كلّه في جيوبهم، ولكنّهم رغم ذلك لن يصلوا إليه، وسيُصعقون قبل أن ينالوا منه، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ٨: الصف، وسوف يبقى كتاب الله يصدع بالحقيقة مُعرضًا عن المتآمرين والجاهلين معًا، ولسوف يولد الجيل المنتظر الذي يسمع ويعي... فقد علّمنا التاريخ أنّها خطوات تقلّ أو تكثر، ولكن الله الحقّ غالب على أمره.

كانت كلمات المهد، وما أنزل الحقّ بالذين رمَوا مريم بالفاحشة من عقاب عاجل، معجزاتٍ كفّت ألسنة الناس عن مريم. وقانون ربانيّ ألاّ يَسلم الموغلون في الأعراض من عقاب الله في الدنيا قبل الآخرة. فعندما كرّس اليهود اتّهام مريم بالفاحشة، بعد ظهور عيسى، ليكيدوا له ولمن آمن معه، ابتلاهم الله بأن جعلهم قادةَ زُناة العالم، وتُجّار الدعارة في كلّ أرجاء المعمورة. وهذا الصَّغار والدناءة انتقام من

(١) إنجيل يوحنا: ١٩.

(٢) المصدر السابق: ١ و٢٠.

الله لطعنهم في عِرْض السيّدة مريم. ومعروف حديث الإفك، وما أصيب به من طعنوا في عائشة رضي الله عنها، ولاسيّما الذين تولّوا كبره، ومنهم حسّان بن ثابت، وقد ابتلاه الله بالعمى، وغفر له بهذا العذاب ما اجترح.

إن نور الله لا يُطفأ ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ ٨: الصف، ومن هنا فإن المتحرّي يستطيع أن يرى في الأناجيل نفسها، الكثير الكثير من الشواهد على بشريّة عيسى وإنسانيّته وعبوديّته لله ربّه، وعلى أنّه كسائر الأنبياء الذين كان هاجسهم عليهم السلام: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ٩٨: طه.

والتوحيد ليس أن تقول لا إله إلاّ الله فحسب، ولكن أن تقولها مُصدّقًا بها قلبك. وبرهان تصديق القلب حسن العمل، وقصد وجه الله الحقّ فيه، ولا يكون موحّدًا من يدرس علم التوحيد ولا يملك التصديق القلبيّ، الذي يتجلّي في العمل البريء من النفاق، الخالص لوجه الله. ومن الدقّة في تمحيص التوحيد قول رسول الله ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة استهان بها ربّه تبارك وتعالى»[(١)].

والامتراء والمِراء نقاش وجدال بالباطل، وفي الذكر الحكيم ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ ٢٢: الكهف، وقد ضمن النبيّ ﷺ بيتًا في ربَض الجنّة لمن ترك المِراء وهو مُخطئ، وضمن بيتًا في وسطها لمن تركه وهو مُصيب. ففيم يمتري هؤلاء؟

واليهود هنا يمترون في حقيقة تقول: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ قَوْمَهَا﴾ ٣٥: مريم. فلا يجوز في حقّ الله أن ننسب إليه الولد، ذلك أن اتّخاذ الولد شأن المخلوق، وهو وسيلته إلى استمرار وجوده المتضمّنِ تحقيقَ إرادته أو غاياته. أمّا بالنسبة إلى الله جلّ وعلا، فالأمر يتلخّص في كلمة واحدة، وهي «كن».

---

(١) رواه الطبري.

[ولكي نستوعب الخلق بـ "كن" علينا أن نتذكّر أن للفعل عند الإنسان آليّة معروفة، فهويريد الأمر أو الشيء، ثم يُعدّ له عدّته، ويتّخذ له أسبابه، ثم يقوم به. وتلك خطوات متتاليات، تتمّ في وعاء الزمن، محكومة بالقَبل والبَعد. والفاصل الزمنيّ بين الخطوة والأخرى مرتبط بقدرة الإنسان وإمكاناته سلبًا وإيجابًا[1]. علمًا أن القدرة الإنسانيّة تبقى حُكمًا دون الكمال، أي دون الإطلاق.

فإذا عرفنا أن لله قدرة مطلقة بكلّ الاعتبارات أدركنا أن ما يريده يتحقّق كما يريده وفور إرادته إيّاه[2]، حتى إنّه جلّ وعلا ليخلق بمجرّد الإرادة، فإذا أراد شيئًا كان ما أراده، وبدون الفاصل الزمنيّ الذي تتطلّبه عمليّة التنفيذ عند البشر][3].

ولئن عجب هؤلاء من أمر عيسى، وامتروا في خلقه المعجز، فها هو ذا آدم خلقه من التراب، ثم سوّاه إنسانًا كاملاً بتلك القدرة المعجزة المطلقة، التي ليس أبلغ في التعبير عنها من "كن فيكون"، وما شأن عيسى إلاّ كشأن آدم "تراب" و"كن".

وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومَعين

تعوّل معظم الروايات على ما جاء في الأناجيل لتغطية أحداث مولد المسيح وطفولته الأولى، فتتداول حكاية إنجيليّة، ممّا يطّرد مثله في قصص الأنبياء في التوراة، عن وفد من المجوس، جاؤوا يتحرّون وليدًا، تقول كتبهم إنّه يُحيي الموتى ويشفي المرضى، وإنّه سوف يكون ملكًا لليهود. وأوصلهم التحرّي إلى مريم ووليدها

---

(١) ومما تعنيه العبارة المعاصرة "صنّاع القرار" التي يوصف بها المتنفّذون المتحكّمون في شؤون العالم اليوم، أنّهم قادرون على أن يفعلوا ما يريدون، وذلك لحيازتهم أسباب القوّة التي تمكّنهم من ذلك

(٢) وهذا معنى قوله جل وعلا: "فعال لما يريد" ١٠٧: هود و١٦: البروج، حيث تعبر صيغة المبالغة عن معنى الإطلاق في الفعل بما يناسب الفهم البشريّ للإطلاق.

(٣) من بحث "الحق المطلق" للكاتبة.

في بيت لحم، فحملوا إليهما الهدايا، وبشّروا مريم بأن لوليدها شأنًا عظيمًا. وكانت مريم تعرف ذلك من المعجزات التي خبِرتها، ومن بشرى رسول ربّها بأن ابنها سيكون ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ ٤٥: آل عمران.

وتضيف الأناجيل أن الحاكم هيرودتس سمع بوفد المجوس ونبوءتهم، فأرسل إليهم يستوضحهم الأمر، وسألهم أن يدلّوه على هذا الغلام، زاعمًا أنّه سوف يكرمه. لكنّ المجوس فطنوا إلى نواياه، وخافوا بطشه بهم إن هم لم يرشدوه إلى الملك الطفل، فتسلّلوا هاربين من بيت لحم.

ولمّا فقد هيرودوتس الخيط الموصل إلى غريمه، أمر بقتل الذكور من أطفال بني إسرائيل[١]، فثقل الأمر على مريم، ودفعها إلى المزيد من العزلة والخوف. وباتت تتوقّع أن يدخل عليها جند الملك الذين يجوسون خلال البيوت في أيّة لحظة. وفي إنجيل متّى أن يوسف النجّار أنقذها ممّا هي فيه عندما هتف به هاتف من الله أن يخرج بها وبوليدها إلى مصر "فقام يوسف، وأخذ الطفل وأمّه ليلاً ورحل بهما إلى مصر. فأقاموا فيها إلى أن مات هيرودوتس"[٢].

وتتلقّف الروايات هذا الخبر، وتجعل منه قصّة بل قصصًا[٣]، فالركب الصغير وصل إلى مصر، وآوى الله مريم وابنها إلى مكان طيّب، ذي زرع وماء جار، في منطقة صارت تعرف ببئر بَلَسان[٤]، لأن مريم غسلت ملابس المسيح بماء تلك البئر،

---

(١) تتكرر هذه القصة مع بعض التحريف في كثير من قصص الأنبياء. [انظر قصص إبراهيم وموسى ويحيى ﷺ.]. واليهود عبر التاريخ يصورون أنفسهم مقتّلين منكلاً بهم ليستدروا عطف الأمم، ويستجدوها العوض، وذلك بعض مما ضُرب عليهم من الذلة والمسكنة، وبعض من سعيهم الأبديّ إلى الاستحواذ على ذهب الأرض كتعويضات عمّا نالهم.

(٢) إنجيل متّى: ٢.

(٣) قد يكون أن لهذه الأحداث أصلاً في كتابات النصارى، ولكنها لا تخرج عن كونها روايات، حكمها حكم الروايات الإسلاميّة للقصّة، ذلك أنّها غير مؤيّدة بنص من أي من الأناجيل المعتمدة.

(٤) وبئر بلسان معروفة إلى اليوم، ويعمد النصارى أولادهم بمائها. وتقول الروايات إن الله فجّرها لمريم، رغم ما هو واضح في الآية من أنها صفة للربوة التي آواهما إليها، ورغم أن كتب النصارى لم تذكر ذلك. والبَلَسان: شجر له زيت لم يزل المسيحيون إلى اليوم يمزجون شيئًا منه بماء البئر نفسها ليعمّدوا به أولادهم.

ولمّا أراقت الماء نبت البَلَسان.

وجدير بالذكر أن الرحلة إلى مصر لا أثر لها في النصوص القرآنيّة، ولا في الأناجيل باستثناء إنجيل متّى، كما سبق القول، ولكنّ كثيرًا من المفسّرين تمسّكوا بالخبر، ودرجوا على استعارته لتفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ٥٠: المؤمنون، وأكثرهم يتابعون إنجيل متّى على أن تلك الربوة هي مصر، أو منطقة فيها، وأن الله جعل لمريم وابنها فيها قرارًا ودعةً[١]. وما من شيء يُلزم بذلك.

وتزوّدنا الروايات بطائفة أخرى من المعلومات، منها أن العائلة المقدّسة أقامت في مصر سبع سنوات، وقيل أربعًا، حيث قضى عيسى طفولته الأولى، وبدا متميّزًا بين لِداته، حتى شاع عنه أنّه ولد مبارك، ونُسجت قصّة وُظّفت لتفسير قوله جلّ وعلا على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ ٤٩: آل عمران، وفيها أن الطفل عيسى كان يكشف لأترابه ما يدّخره أهلهم من المآكل، فيسطون عليها، حتى شاع عنه ذلك، وظنّ بعضهم أنّه ساحر. ولعلّ القصّة اختُرعت لتفسير الآية.

ومن استطالات هذه القصّة أن مريم في مصر كانت تعمل بيدها كأيّة امرأة من عامّة الناس، فتدير بيتها، وتغسل، وتغزل. وكانت ترفض الصدقة أو العطاء[٢]، فحظيت باحترام الناس وحبّهم لسَمتها ووقارها، ونعمت وولدها بالأمن والاستقرار بينهم، بعد أن عانت ما عانت من قومها في بيت لَحم.

«ولما مات هيرودوتس ظهر ملاك الرب ليوسف في الحلم، وهو في مصر وقال له: قم خذ الطفل وأمه وارجع إلى أرض إسرائيل، لأن الذين أرادوا أن يقتلوه ماتوا. فقام وأخذ الطفل وأمه ورجع إلى أرض إسرائيل»[٣].

---

(١) ما من بلدٍ لا يشعر المرءُ فيه بوطأة الغربة إلاّ مصر، فهي تفتح ذراعيها لكل لاجئ. ومن هنا اطّرد في تاريخ الدعوات والرسالات أنها تنشأ في العراق، ثم تتبلور وتسطع من مصر، وتلك شهادة من رب العالمين لمصر أنها واسعة الصدر، مضياف، تمنح كل من على أرضها الطمأنينة والقرار.

(٢) وفي بعض الحكايات أن مالاً سُرق، فكشف الطفل عيسى السارق، فأراد أصحاب المال أن يجعلوا له ولأمه شيئًا منه، فأبت مريم ذلك.

(٣) إنجيل متى: ٢.

كان بنو إسرائيل قد انقسموا وتفرّقوا، وجمد رجال الدين عند حدود الطقوس والمَراسم، وارتكبوا الجرائم التي أشار القرآن الكريم والأناجيل إلى بعضها، وعلى رأس ما ذكره القرآن منها الانحراف عن التوحيد تأثّرًا بمعتقدات من غزاهم، ومن جاورهم من الأمم ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ ١٤: الشورى، وراحوا يتخبّطون في عقابيل تحريفهم الكلم عن مواضعه، ومن بعد مواضعه، حتى فشا فيهم الفساد، وصاروا فِرقًا كلّها تطلب الدنيا بعمل الآخرة. فكان منهم الفريسيّون، وهم المنقطعون للعبادة، وقد بدؤوا كذلك، فلمّا بعد العهد بموسى انشغلوا بالتجارة وجمع المال. وكان منهم كتبة التوراة والشريعة، وقد انغمسوا بدورهم في ملاذّ الدنيا، واستغلّوا ما لهم من مكانة بين الناس لإحكام سيطرتهم عليهم وابتزازهم.

وكان هناك الكهنة الذين استغلّوا نفوذهم أسوأ استغلال[1]، وراحوا يتصرّفون وكأنّهم آلهة، ولم يتورّعوا عن ممارسة التجسّس والتلصّص[2]، وشراء الضمائر لفرض هيمنتهم والحفاظ على سيادتهم، وكانوا يتربّصون بالناس، ويُحصون عليهم أنفاسهم، ويرصدون كلّ زلّة وكلّ هفوة، ليحكموا على صاحبها بالزندقة أو الانحراف أو الكفر حكمًا مبرمًا، ومن ثم يُصار إلى إعدامه حرقًا أو صلبًا، ممّا جعل الناس في رعب وضيق.

وكانت هنالك فِرَق لا تؤمن باليوم الآخر ﴿وَقَالُوٓاْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ ٧٣: المؤمنون، وهؤلاء يقولون إن الجزاء ثوابًا وعقابًا يقع في الدنيا، فما حصّله الإنسان من المال والجاه والسلطان هو ثوابه، وما وقع عليه من ظلم وحيف وضعف ومصائب هو عقابه. ويبدو أن نفوذ هؤلاء قد أحرز النصر لفكرتهم، وفرضها على الفكر اليهوديّ، فنحن لا نكاد نقع على ذكر للحياة الأخرى، ولا للبعث والجزاء في توراة اليهود، وذلك رغم كونهم موحّدين.

---

(١) ومن هؤلاء نشأت الفرق اليهودية السرية، وهي التي توجه السياسة العالمية اليوم من وراء ستار، حيث بدأ روح التلمود، الذي يطلق يد شعب الله المختار في الأمم، يطبع توجهات الدول صاحبة القرار في العالم، ولاسيما في مواقفها من العالم العربي والإسلامي.

(٢) والتجسس فن عرف به بنو إسرائيل، لما هو طبع فيهم من الجبن والحرص الشديد على الحياة. وقد طوروه عبر تاريخهم لخدمة أطماعهم.

إلى هذا الخصمّ الخانق، الغريب عن تعاليم السماء التي أتى بها موسى، عاد المسيح وأمّه بعد إقامة اثني عشر عامًا في الربوة ذات القرار والمَعين، وأقاما في الناصرة. ومع كلّ يوم يشبّ فيه فتاها كانت مريم تزداد يقينًا أن عمرًا من الجهاد والنصَب والقلق والألم ينتظرها وإيّاه، وأن الأيّام تقرّبهما منه مع كلّ غروب شمس.

تتّسم أخبار المرحلة الأولى من حياة عيسى عليه السلام بالغموض، فلا نكاد نعرف عنها إلاّ القليل، ومن ذلك ما تذكره الأناجيل من أنّه رافق أمّه وزوجها يوسف إلى أورشليم ليشهدوا احتفالات الفصح، ولمّا حان وقت العودة طلباه، فلم يجداه، وكان في الثانية عشرة من عمره، فراحا يبحثان عنه قلقَين حتى ظنّا الظنون. «وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالسًا في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم»[(١)]، وهم بين مصدّق ومكذّب لما يرون من قدرة الغلام وذكائه.

ومن ذلك القليل الذي ذكرته الأناجيل ذهابه إلى يحيى عليه السلام، وهو معروف في كتبهم بيوحنّا المعمدان، ليعمِّده، ولا شكّ في أنّهما عليهما السلام قد تبادلا الكلام فيما في دخيلتيهما من الإيمان والدعوة إلى الله. وتُقابل تلك الفترة الغامضة المهمَلة من حياة عيسى الفترةَ الواقعة فيما بين الولادة والبعثة من حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، حيث لم تنل هي الأخرى حظّها من الاهتمام والحفظ والتوثيق.

وقد زعم بعض الباحثين الغربيّين، على عادتهم في ادّعاء معرفة كلّ شيء، أنّ المسيح ذهب إلى الهند في هذه الفترة، ودرس البوذيّة. وقد قال اليهود المقالة نفسها عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وفي ذلك نقرأ في الذكر الحكم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ١٠٣: النحل، ولا يخرج هذا عن نطاق التشكيك في كون عيسى عليه السلام قد جاء برسالة سماويّة[(٢)].

---

(١) إنجيل لوقا: ٢.

(٢) إن المطلع على تعاليم بوذا يجد الفرق هائلاً بينها وبين ما جاء به المسيح، فتعاليم بوذا باطنية في جمهورها، وإن كان لمحبة الآخرين ذكر في جذورها الأولى، وتكاد تقتصر على الثقافة الروحية الداخلية، القائمة على السعي إلى التحرر من الرغبات المرتبطة ببشريّة الإنسان، لبلوغ ما يدعى بالكمال الإنساني، وهو حالة النرفانا وقد تمت ترجمتها إسلاميًا بما دعي، في وقت متأخر، بالاندماج في الله والفناء فيه [وهي ترجمة فيها تجوّز على الأصل]. بينما دعوة المسيح تقوم على العلاقة بالآخرين ومخالطتهم، ولاسيما المذنبون منهم.

ورغم الغموض، الذي يكتنف تلك المرحلة من حياة عيسى عليه السلام، نستطيع أن نرصد بعض صفاتها، لنسلكها في خيط ينظم مراحل حياته القصيرة الحافلة. فقد أجمع الكثيرون على أنّه شبّ جريئًا، متديّنًا، غيورًا على تعاليم موسى، حريصًا عليها، لا يخشى في الله لومة لائم. وكان صبوح الوجه، لطيف السمت، قد ألقى الله عليه محبّة منه.

وكان عليه السلام زاهدًا في الدنيا، فلم يكن لبشريّته منه إلاّ ما يمسك الرمق، ويساعد على الاستمرار في الدعوة. فقد استكثر علي نفسه الحجر يتوسّده، ومشى حافيًا، ولم يتّخذ له بيتًا ولا حليةً ولا متاعًا، ولم يكن له غير الثوب الذي عليه. وكان طعامه خشنًا بسيطًا، ولم يكن له مال قطّ، ولم يَحدث أن ادّخر شيئًا من يومه إلى غده.

لقد كان المسيح مثالاً غير قابل للاحتذاء في تجرّده، وانقطاعه لدعوة الناس إلى عبادة الله ومحبّته. وكان يبقى مع الناس طيلة يومه يعلّمهم ويواسيهم، ويجيب توسّلاتهم ورجاءاتهم، ويمسح يده المباركة على مرضاهم ليُشفَوا بإذن الله. فإذا حلّ الظلام مضى إلى جبل فاختلى بربّه، شأن معظم الأنبياء. لقد كانت تلك فترة التهيئة والتأمّل والتحنّث على طريقة الشريعة الموسويّة في حياة عيسى عليه السلام.

يقول الشهرستانيّ عن نبوّة عيسى عليه السلام: «وجميع الأنبياء بلاغ وحيهم أربعون سنة. وقد أوحى الله تعالى إليه إنطاقًا في المهد، وأوحى إليه إبلاغًا عند الثلاثين. وكانت مدّة دعوته ثلاث سنين، وثلاثة أشهر، وثلاثة أيام»[١]. وفي القرآن الكريم كانت أولى كلمات المسيح الرسول للمدعوّين ببني إسرائيل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ ٦: الصف[٢]، وفيها أُسس دعوته عليه السلام، وهي أنّه رسول من الله الواحد، وأنّه سائر على ما جاء به سلفه موسى عليه السلام، ومبشّر بالرسالة الكاملة التي سوف يأتي بها من بعده محمّد صلى الله عليه وسلم، والتي يُتمّ بها الله لعباده دينهم الذي ارتضى.

---

(١) الملل والنحل ١: ٢٢٠.

(٢) وفي الأناجيل أن نبوته بدأت بعد أن عمده يوحنا، وهو يحيى عليه السلام.

إن الدين واحد، وهو الخضوع للحقّ القويم، وإسلام الأمر كلّه إليه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ ١٩: آل عمران. **أمّا الشرائع فمختلفة ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾** ٤٨: المائدة، **ولم يقلْ: دينًا. والإسلام هو أن تقرّ لله الحقّ وحده بالربوبيّة، وتُسلم إليه قيادك وأنت مؤمن بذلك، ومن هنا كان الإسلام هو التوحيد، أي «لا إله إلّا الله» مصدّقًا بها قلبك.**

فالذين آمنوا، والذين هادوا، والصابئون، والنصارى... كلّ من يقول منهم: لا إله إلاّ الله، فهو مسلم، وإن لم يكن من أمّة محمّد، ذلك أن كلّ موحّد مسلم حُكمًا، والدين عند الله الإسلام إليه وحده لا شريك له، أي التوحيد. وهكذا فالنصارى الموحّدون، واليهود، والصابئون، كلّهم مسلمون لله. وأمّة محمّد من المسلمين لله، واقد اختار لها الله الإسلام علَمًا عليها لتمام إسلامها إليه، فهي الأمّة الأمّ في هذا الباب ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ ٧٨: الحج.

وإلى جانب ما أسلفنا من صفات المسيح كان ﷺ جذّاب الحديث، بارع العرض، حسن التأتّي، قويّ الحجّة. اتّخذ ضرب الأمثال وسيلة إلى إقناع مستمعيه، ومن أمثاله «يشبه ملكوت السماوات إنسانًا زرع زرعًا جيدًا في حقله. وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زوانًا في وسط الحنطة ومضى. فلما طلع النبات وصنع ثمرًا حينئذ ظهر الزوان أيضًا فجاء عبيد رب البيت وقالوا: يا سيد أليس زرعًا جيدًا زرعت في حقلك، فمن أين له زوان؟ فقال لهم: إنسان عدو فعل هذا...»[(١)]. وقد فسّر لتلاميذه المثل، فقال: إن ذلك الزارع هو الإنسان، والحقل هو هذا العالم، والزرع الجيّد العمل الصالح، والزُّوان العمل السيّئ، والعدوّ الذي زرع الزُّوان هو إبليس...

وكان يشقّ على عيسى ﷺ أن بيت المقدس قد بدأ يتحوّل، على أيدي الطغمة المنحرفة من رجال الدين، إلى سوق للتجارة لصالح المشتغلين بالزعامة الدينيّة،

---

(١) إنجيل متّى: ١٣.

يطلبون الدنيا بعمل الآخرة ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ٣٤: التوبة. ومعروف تشنيع الإسلام على من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، سواء أكان ذلك في الكتاب أو السنّة أو العلم. حيث الكسب من هذا الباب باطل في الإسلام، وفي حديث رسول الله ﷺ : «فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب»(١).

وممّا يُروى عن تصدّي السيد المسيح لفساد هؤلاء ما جاء في إنجيل متّى «ودخل يسوع الهيكل، وطرد جميع الذين يبيعون ويشترون فيه، فقلب مناضد الصيارفة ومقاعد باعة الحمام، وقال لهم: جاء في الكتاب: بيتي بيت الصلاة، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص»(٢). وأصابهم الله بالعجز والخوف والذلّ، فما استطاعوا أن ينطقوا بكلمة.

وبقدر ما كان عيسى عليه السلام رحيمًا بالمؤمنين والبسطاء، كان حادًّا وعنيفًا مع الظلَمة، من الفريسيّين والكتبة، الذين يسومون الناس العنَت، فكان يصفهم بالمرائين والأغبياء، وممّا كان يقوله لهم: «ويل لكم أيّها الكتبة والفريسيّون المراؤون... ويل لكم أيها الناموسيّون لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة. ما دخلتم أنتم، والداخلون منعتموهم»(٣). وكان موقفه هذا ممّا زادهم عليه حقدًا ونقمة.

وفي خطّ موازٍ لاطّراد معجزات عيسى عليه السلام، وذيوع صيته، وتكاثر أتباعه ومريديه، ظهر، وكما يحدث دائمًا بين أصحاب الفكر، تيار مُعادٍ له، وراح ينمو ويستغلظ. فقد امتلأت قلوب متنفّذي الناموسيّين في بيت المقدس غيرة وغيظًا وحسدًا، وأخذوا يحاربون عيسى عليه السلام بكلّ الوسائل، ولكنّ الله أعطاه قوّةً هائلة على المقاومة والظهور على خصومه، ذلك أنّه كان في جانب الحقّ، وكانوا حزب الباطل.

ولم يتورّع هؤلاء عن اتّهام عيسى عليه السلام بالسحر، بل ظلّوا يُشنّعون عليه وعلى أُمِّهِ، ويسعون إلى إحياء مقولة الإفك القديمة وتكريسها، فكانوا يتساءلون وهم يخادعون أنفسهم كلّما ظهرت له معجزة: أليس هذا ابن الزنى؟!

---

(١) مسند أحمد: ٢١٢٥٨.

(٢) إنجيل متى: ١١ .

(٣) إنجيل لوقا: ١١ .

وقد كان ظلمهم وبهتهم لعيسى وأمّه من أسباب لعن الله لهم كما يرى كثير من المفسّرين، وكما يوحي السياق في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ ١٥٥ و١٥٦: النساء، وبهذا ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بأن جعلهم زعماء الدعارة، وحاملي كِبرها في الدنيا.

وبقي المسيح عُرضةً لكيد أكابر مجرمي اليهود، يسعون جاهدين ليُثبتوا له خطأ، أو يستنطقوه ما يخالف نصوص التوراة، ليصدروا فتوى بقتله. وكانوا يمارسون هذا النوع من الإرهاب على المؤمنين، حتى لم يعد أحد يجرؤ على معارضتهم، أو كشف ما وراء تصرّفاتهم، أو الخوض في مسألة من مسائل الشريعة إلاّ تحت مظلّتهم.

أنّي قد جئتكم بآية من ربّكم

أكثر الأنبياء إعجازًا ومعجزات موسى والمسيح ﷺ، ذلك أنّهما بُعثا في المدعوّين ببني إسرائيل، وقد كان هؤلاء، ولا يزالون، أهل شكّ وتشكيك وارتياب وتشنيع على الأنبياء والمرسلين. ولهذا كانت الدعوات التي قامت فيهم تتّخذ لها براهين ماديّةً حسيّة، لا تحتمل الإنكار.

ويُروى عن ابن عبّاس أن قريشًا أتت اليهود فقالوا: ما جاءكم موسى من الآيات؟ قالوا: عصاه، ويده بيضاء للناظرين، وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ قالوا: كان يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، فأتوا النبيّ ﷺ فقالوا: ادع لنا ربّك يجعل لنا الصفا ذهبًا. فدعا ربّه، فنزلت ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ١٩٠و١٩١: آل عمران، **فليتفكّروا فيها**[1].

إن الذين رأوا معجزات موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ماتوا في زمانهم، أمّا كتاب الله

---

(١) أخرجه الطبراني.

obeikandl.com

فهو المعجزات الباقيات ما بقي في ملكوت الله إنسان يعقل، ينكشف الجانب منها تلو الجانب، جيلاً بعد جيل، بحيث تشهد الأجيال من الحوادث والأحداث ما يصدّق هذا الكتاب على مدار الزمان، حتى كأنّ القرآن يتنزّل على الناس أبدًا، وكأن محمّدًا ﷺ بيننا أبدًا. ذلك أن الإسلام خاتم رسالات الله إلى الإنسان، وقد هيّأ الله له في كلّ جيل إعجازًا يؤكّد أنّه كذلك.

إن في هاتين الآيتين دعوة إلى بعث العقل ليكون الأصل في الإيمان، والمطبّق للمنهج الإسلاميّ في الحياة، وهو ما تنزّلت كلمات الله على الإنسان المستخلَف في الأرض من أجله. فملاك الأمر أن تكون مؤمنًا ذا لبّ يفقه ويطبّق، فإن ما جاء به محمّد ليس معجزةً آنيّة يراها الذين عايشوها، وتُنقل إلى مَن بعدهم خبرًا، بل هو معجزة حيّة متجدّدة، تخاطب الجانب الباقي من الإنسان، وتحفّزه على تفعيل الكلمة الأولى التي خاطبه بها ربّه الحقّ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ١: القلم، أي تعرّف وتبصّر. ويُفضي التبصّر بصاحبه إلى البحث عن الأصول، تلك طريق تنتهي بسالكها إلى الإيمان(١).

وتتضمّن القراءة باسم الله عمليّتي التعرّف والتبصّر مقترنتين، تعبّر «اقرأ» عن التعرّف، وتعبّر «باسم ربك» عن التبصّر، وهما مهمّة الإنسان على هذه الأرض.

*

ومن إعجاز كتاب الله الذي كان في زمن التنزيل غيبًا ثم تكشّف لوقته قوله جلّ وعلا: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ ١ - ٤: الروم، فإن هذه الآية نزلت قبل الحرب بين الروم والفرس بسبع سنوات، وقد رأى الناس تلك الحرب وعايشوا أحداثها(٢).

ومن الإعجاز القرآنيّ أن مصداق قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ ٤: القيامة، قد ظهر للناس بعد خمسة عشر قرنًا من نزول الآية، حين اكتُشف أنّ لا نهائيّةَ أشكال البنان تجعل البصمة علامة فارقة، يمكن أن تُستخدم لإثبات الشخصيّة. وقد ظهر ذلك عند الحاجة إليه.

ومن الإعجاز الذي يراه اليوم من كان له قلب أو ألقى السمع قوله تعالى: ...﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ

---

(١) قدم الدكتور محمد بهجت قبيسي لكتابه "ملامح في فقه اللهجات العربيات" بعبارة أغبط قائلها، وهي "إن نفوس الفضلاء لتشرئبّ إلى معرفة بدايات الأشياء".

(٢) والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما يخصّ هزيمة المشركين في بدر، وما يخصّ موقعة الجمل.

ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ١٨٦ : آل عمران، **فإنّها المرّة الأولى التي يجتمع فيها أهل الكتاب والمشركون على النيل من الإسلام على كافّة الصعد، في هجمتهم العالمية الشرسة على الإسلام اليوم.**

وها هو الغرب الذي يدين بالمسيحيّة[١]، ورغم أنف كلّ ما في أناجيله نفسها من عداء اليهود لعيسى والذين آمنوا معه، يتبنّى أصوليّة تهدف إلى إحياء تعاليم التوراة والتلمود وتبنّيها. وهذا يعني التقاء الغرب بيهود العالم، وبالتالي موالاتهم في قضاياهم التي تُمسك بأزِمّتها الصهيونيّة. وفي هذا مصداق قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ٥١ : المائدة.

ومن إعجاز هذا الكتاب، الذي لا تنقضي عجائبه، تعاظم ظهور تلك الفئة من الذين في قلوبهم مرض، الذين يسارعون إلى عدوّهم يأتون به إلى بلادهم، ويقاتلون معه أبناء أمتهم، مصداقًا لقوله عزّ وجلّ: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ ٥٢ : المائدة. **لقد رصد القرآن الكريم أشكالاً وألوانًا من الخونة في المجتمع الإسلاميّ، منهم من ظهر في زمن التنزيل، ومنهم من كشفت عنه الأيام تباعًا، كالمرجفين[٢]، والمنافقين، وما يقابل في القاموس السياسيّ المعاصر التنظيمات السريّة[٣]، والجواسيس[٤]، والمعوّقين، وهم أهل التمرّد[٥]، كما أن التاريخ الإسلاميّ لم يعدم أفرادًا من مرضى القلوب، الذين يسارعون في العدوّ يخشون أن تصيبهم دائرة[٦].**

---

(١) وإن كان يزعم أنه علماني.

(٢) ويسمون بلغة العصر الطابور الخامس، وهم فريق من الخونة يمارس الحرب النفسية، فيحاول أن يفت من عضد الناس عن طريق نشر الإشاعات.

(٣) ومن أشكالهم في عهد النبوّة الذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين الناس.

(٤) وهم الذين قال فيهم الله تعالى: "لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعون لهم" ٤٧ : التوبة.

(٥) وكل كيان إسلامي اليوم يعاني من واحدة أو أكثر من حركات التمرّد، وكأنه قدر أن ينتهي كل متسيّب مفرِّط إلى التمرّد على ما أوكت يداه ونفخ فوه.

(٦) من هؤلاء أبو رُغال الذي كان في الحملة الحبشية التي جاءت لهدم الكعبة، وابن العلقمي الذي جاء مع الحملة المغولية على بغداد. ولا يزال يُضرب بهما المثل في الخِسة والنذالة والخيانة. ومثلهما في العصر الحديث نوري السعيد الذي ظهر مع دخول الحملة البريطانية العسكرية إلى العراق، وعين رئيسًا للوزراء، وكانت له إصلاحات في أكثر من ميدان، ولكن الأمر انتهى بالعراقيين إلى سحله في شوارع بغداد.

وكلّ هذا من قبيل دفع الله الناس بعضهم ببعض، وقد كان في تاريخ هذا الدين وهذه الأمّة على أضيق نطاق، كما في كلّ أمّة حيّة لا بدّ أن يتربّص بها أعداء الحياة، ولم يحدث قطّ أن كتلة من المسلمين انضمّت علنًا وجهارًا إلى عدوّ غير مسلم، وقاتلت معه شعبًا مسلمًا، كما حصل ويحصل اليوم. ومن هنا كان ذكر أولئك في الآية بصيغة الجمع من الإعجاز القرآنيّ .

ولم تكتف الآية آنفة الذكر بوصف هذا الوضع الشاذّ، بل ذكرت ما يترتّب عليه ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ ٥٢ : المائدة... **فإنّما هو أحد أمرين... أن يأتي الله بالنصر والفتح، إن كنتم من أهله صلاحًا وتقوى، وقمتم بالذي عليكم من الأمر، أو يأتي بأمر من عنده.**

فكيف يأتي الله بالنصر والفتح؟

إن النصر الموعود حاصل بمجرّد بَذْلك كلّ ما في وسعك من السعي، فإذا فعلت، ولم يبلغ ما فعلته الأسبابَ الكافية للنصر، تدخّل الله لصالحك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ ١١٠ : يوسف. **فعندما اتّخذ موسى ﷺ كلّ ما في وسعه من الأسباب، نجّاه الله بأن جعل له طريقًا في البحر يَبَسًا، وعندما قام عيسى ﷺ بكلّ ما في مُكنته في جهاد الضالّين المضلّين نجّاه الله بأن رفعه إليه.. وبقي معجزة خالدة هو وأمّه إلى يوم القيامة..**

وما معنى أن يأتي الله بأمر من عنده؟

إن كلّ ما عليك من الأمر أن تعدّ العدّة، لا تدّخر في ذلك وسعًا، وتتّخذ من الأسباب ما استطعت إليه سبيلاً، فإذا فعلت فأنت منتصر، حتى إذا ما كان ظاهر الأمر أنّك خسرت المعركة... فكم من نصر اليوم تبيّن أنّه، في حساب مجمل الأمر، هزيمة، وكم من هزيمة اليوم تبيّن أنّها في الحساب نفسه نصرٌ مبين. فإذا أنت قمت بما عليك مخلصًا مجتهدًا، أتى الله من عنده بما لا تتوقّع، كأن يصرف عدوّك عنك بما يشغله، أو يهيئ ظرفًا لصالحك.

كثرت كرامات عيسى، وأصبحت معروفة للناس كلّهم، فاجتمع أهل الناصرة حول كلمته، وصار له تلاميذ يحرصون على مجالسه ويأخذون عنه. وقد حباه الله بقوّة نفس وقوّة روح، وأيّده بروح القدس، وبجملة من المعجزات منها كلام المهد، ومنعُ قومه من أذاه لدى رؤية المعجزات ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ

﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ١١٠: المائدة[1]، فدأب على إبراز معجزاته في التجمّعات والمحافل والأعياد لتكون دعوة إلى الله، وقد أعطاه الله قدرة على الاستجابة إلى ما يطالبه الناس به من معجزات. فكان منها:

وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ ١١٠: المائدة، وفي آية أخرى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ٤٩: آل عمران. ويلاحظ أنه قال في الآية الأولى: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾، أي في الطينة المشبّهة بهيئة الطير. أمّا في الآية الثانية، فالمقصود طير معيّن في تجربة معيّنة، فهو مفرد، فقال: «فأنفخ فيه».

وأمّا قول من قال: فتصبح طيرًا حقيقيًّا، ففيه زيادة على العبارة القرآنيّة، ذلك أن الخلق في الآيتين لم يزد على قطع الطين وتشكيل الهيئة منه[2]، وهذا يحوّل اتّجاه المعجزة من خلق الحياة إلى النفخ في الطير الطينيّ ليطير، وهذا أكثر التزامًا بحدود النصّ القرآنيّ، وينسجم وما ذكره أبو حيّان من تواطئ المفسّرين على أن الطير المذكور «كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتًا»[3]. ويشجّع على الأخذ بهذا ما توحي به تتمّة الخبر كما أورده أبو حيّان: «وكان بنو إسرائيل، مع معاينتهم لذلك الطائر يطير، يقولون في عيسى: هذا ساحر».

ـ وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني

كان عيسى عليه السلام يمسح يده على الأكْمَه والأبرص فيبرأا، سواء في ذلك أقال: «بإذن الله» بلسانه أم لم يقل، فهو يفعل ما يفعل موقنًا كلّ اليقين أنّه لا يفعله إلاّ بإذن

---

(١) كان قولهم: "إن هذا إلاّ سحر مبين" ١١٠: المائدة، كفيلاً بالحكم على عيسى بالموت لولا أن كف الله القوم عنه.

(٢) وهو المعنى المعجمي للفعل.

(٣) البحر المحيط، تفسير الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

الله فيه[1]. وقد أصبح معروفًا أن هناك أشخاصًا، وإن كانوا نُدرة، يتمتّعون بقوًى خاصّة عجز العلم عن تفسيرها، كأن يُبرؤا بعض الأمراض باللمس.

ـ وإذ تُخرج الموتى بإذني

لا يسعُ صاحب عقل أن يأخذ بما جاء عن إحياء الموتى في الأناجيل لكثرة ما ذكر من حالات الإحياء، ومعروف أن العودة إلى الحياة في الدنيا ممّا يعتقده معظم اليهود، في حين تنبهم معالم البعث لليوم الآخر، وتُجهد متحرّي ذكرها في توراتهم، بل إن في فرقهم من ينكرها.

وأمام هذا الواقع علينا أن نُخرج الروايات الإنجيليّة من حسباننا في بحث هذا الموضوع، ونكافح النصّ القرآنيّ مستهدين بما جاء في السنّة، وبالمقطوع بصحّته من العلم فيه. وقد تأثّر الرواة ومن ورائهم المفسّرون بالروايات المذكورة، فدخلت كتب التفسير بكثافة لا تتناسب وذكرها في النصوص القرآنيّة. ويصوّر هذا الواقع نصّ من البحر المحيط يقول: «وروي أنّه في إحيائه الموتى كان يضرب بعصاه الميت أو القبر أو الجمجمة فيُحيي الإنسان ويكلّمه ويعيش. وقيل يموت سريعًا... ووردت قصص في إحياء خلق كثير على يد عيسى، وذكروا أشياء ممّا يدعو بها إذا أحيا، الله أعلم بصحّتها»[2].

وإلى جانب الآخذين بالروايات الإنجيليّة عن إحياء الموتى، وهم أكثر المفسّرين، ذهب بعضهم إلى أن إحياء الموتى جاء على لسان عيسى على سبيل العرْض، ولم يُنَصّ على قيامه به فعلاً[3]. وقد تناول الذكر الحكيم هذا الأمر في آيتين: الأولى على لسان عيسى عليه السلام ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ٤٩: آل عمران، والثانية في معرض تذكير الله له بنعمه عليه ﴿تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ ١١٠: المائدة.

---

(١) انظر الباب الأول: المعجزة.

(٢) البحر المحيط، تفسير الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

(٣) قال بهذا من القدماء أبو مسلم الأصفهاني، ونقله عنه الرازي في تفسيره، ومن المحدثين الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه "قصص الأنبياء".

ومن البديهيّ أن العبارة الثانية هي الأصل والأوكد، ذلك أنّها عبارة صاحب الإذن بالإحياء، وقد جاءت في معرض المنّ على عيسى ﷺ، وهو موضع يقتضي أضخم صيغة وأعظمها، فلمّا أعرض فيها عن لفظ الإحياء، وقال: ﴿تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ١١٠: المائدة، دلّ ذلك على أن عمليّة الإخراج من الأجداث هي المأذون له بها[1]، وهي، في الحالة، أو الحالات، التي أُذن فيها لعيسى ﷺ مرتبطة بالإحياء. أمّا العبارة الثانية فكانت خطابًا من عيسى للذين رأوا إخراج الميت، أو سوف يرونه، فهم قد رأوا أو سوف يرون عملية إحياء حقيقيّة، إذ لولا إخراج الميت من جدَثه لمات حتمًا، فإخراجه إحياء له.

وعلى كلّ حال فهي معجزات لا يمنع النصّ القرآنيّ من القول إنّها تمّت مرّات محدودة وفي هذا النطاق. ونحن لا يجوز أن نرفض حكم العقل في التأويل إذا تماشى والنص العربيّ في الكتاب المبين، وما جاء في صحيح الحديث، بل لا يجوز أن نتجاهله ونأخذ بغيره ما دمنا قد أُمرنا بالتدبّر.

ـ ربنا أنزل علينا مائدة من السماء

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ١١٢ - ١١٥: المائدة.

وجد بعض المفسّرين في الآية الأولى مجالاً للتساؤل: كيف يقول الحواريّون الصدّيقون، المخلصون، أنصار عيسى وأحبابه، وأقرب الناس إليه: «هل يستطيع ربّك»؟!

---

(١) ولكنّها في أصلها لا تتضمّنه. ولا عبرة بما ذكرته الأناجيل من ذلك، لما هو واضح فيه من التزيد والمبالغات.

واعتبروا ذلك شكًّا في قدرة الله جلّ وعلا. ولكنّنا عندما نعرف أن الحواريّين ليسوا إلاّ رجالاً طيّبين، ذوي قلوب ليّنة، أحبّوا عيسى، وأشفقوا عليه لما يلقى من متنفّذي الناموسيّين من أذًى، فكانوا يدافعون عنه في كلّ مناسبة، كما كان يدافع العبّاس وحمزة عمّا رسول الله ﷺ عنه قبل إسلامهما مروءةً وشهامةً، وانتصارًا للمظلوم ممّن ظلمه، وكما أجاره ﷺ مطعم بن عديّ من قومه وكانوا قد عزموا قتله.

وكان عيسى عليه السلام يُلاقي ممّن حوله عنتًا كبيرًا، فالسلطة الرسميّة تضيّق عليه الخناق، والكهنة يَحيكون له المكائد، ويحاصرونه بالمساجلات والمحاورات، بهدف دفعه إلى زلّة لسان[1]، ينفُذون منها إلى رميه بالكفر أو الزندقة، وتكون لهم حجّة للمطالبة بإعدامه.

وعندما جرى حوار المائدة لم يكن الحواريّون قد آمنوا بعد، وكانوا يتطلّعون إلى حدث أو أمر يخرجهم من مرحلة التأرجح، ويثبّت أقدامهم بقوّة على الطريق التي تنازعهم قلوبهم إليها. ويقودنا سياق الآيات إلى أن الله تعالى قد ألقى في قلوبهم: أن آمنوا بي وبرسولي، فجاؤوا إلى عيسى وجِلين، ينشدون الدفعة الحاسمة من اليقين، لتجوز بهم قنطرة التردّد إلى عالم الاطمئنان والتسليم ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ١١٢: المائدة؟ ويصوّر هذا الخطاب بما فيه من التلجلج، وعدم مباشرة النقطة الجوهريّة، ما كان الحواريّون يعانونه من التردّد والتأرجح[2].

﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ١١٢: المائدة[3].

---

(١) وهذا دأب اليهود عبر العصور، لا ينالون من أعدائهم إلاّ بالتآمر والمكر السيّئ، وقد رأيناهم يفعلون هذا مع رسول الله ﷺ في المدينة.

(٢) يُستشف التلجلج من الحشو المتمثل في قولهم: "ابن مريم"، ومن التساؤل، وليس السؤال، الذي ينمّ في عمقه على رغبة في التخلّص من البقية الباقية من الحيرة والتردّد: "هل يستطيع ربك أن"، ومن وصفهم المائدة المنشودة وصفًا يتضمّن وعدًا باطنيًا بالإيمان.

(٣) قيل إن المعنى: إن كنتم ستؤمنون بي فاتقوا الله فيما تسألونني. ولكن عيسى يعلم أنهم، لمجرد طلبهم هذا، مؤمنون، فهو يخاطبهم بناء على ما يعلم، ويطالبهم بالتقوى في السؤال، ويربط التقوى بالإيمان تعليمًا لهؤلاء على عتبات إعلان إيمانهم.

ولكن كان للحواريّين تبريرهم ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ ١١٣ : المائدة.

فهم يريدون آية أخيرة توصلهم إلى الاطمئنان القلبيّ الكامل، واليقين الحقّ أنّه فعلاً رسول الله إليهم، وأنّه قد صدقهم الحديث عن مولده العجيب، وعن أمّه التي كان يأتيها رزقها من عند الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

وحَقّ طلب الدليل الموصل إلى اليقين من أبرز ما كرّم الله به الإنسان، وما كانت معجزات الأنبياء إلاّ توكيدًا لهذا الحقّ. ويصل العقل البشريّ إلى اليقين بثلاث خطوات هي علمُ اليقين، وعينُ اليقين، وحقّ اليقين. فعلم اليقين أن يخبرني ثقة أصدّقه بأمر ما، وقد كان عيسى عند الحواريّين ثقة، فما أخبرهم به عن الله، وعن كونه رسوله، هو من علم اليقين. لكن أن تكون على يقين لما سمعته من ثقة أمين ليس كأن ترى بعينك، ومن هنا كانت الشهادة للرؤية على مثل الشمس. فالحواريّون علموا يقينًا أن الله قادر على إنزال مائدة من السماء، لكنّهم يريدون اليقين الإبراهيميّ الذي يطمئنّ به القلب، أي الذي يؤهّلهم للشهادة على مثل الشمس ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ١١٣ : المائدة. فإذا اطمأنّت قلوبهم وصلوا إلى حقّ اليقين.

واتجه عيسى إلى ربّه، فهو لم يقم بشيء ممّا قام به إلاّ بإذنه: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ١١٤ : المائدة.

ويجدر بنا أن نتلمّس آداب الدعاء في دعاء عيسى عليه السلام هذا، وفي كلّ أدعية الأنبياء، بل في كلّ دعاء مستجاب. وأوّل تلك الآداب في دعاء عيسى عليه السلام ذلك اليقين الراسخ بالإجابة. واليقين بالإجابة دليل على الإيمان الراسخ بالله، والثقة العميقة به، وفي حديث رسول الله: «فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة»[1]. ومن كان على هذا فإنّه ممّن خاطبهم الله جلّ وعلا بقوله:

(١) مسند أحمد: ٦٦٥٥.

﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ ٦٠: غافر.

ومن الآداب، في دعاء عيسى ﷺ، التوسّل إلى الله بأسمائه الحسنى وَفقَ ما ندعو به، فنتوسّل بالرزّاق والكريم والمغني لدى سؤالنا الرزق، وبالقادر المقتدر القهّار الجبّار لدى الاستعانة على العدوّ، وبالرحمن الرحيم الغفور التوّاب لدى التوبة والإنابة.

ونحن، إذا اعتبرنا أن رزق مريم الذي من عند الله ممّا أهّلها لأن تكون أمًّا وأبًا في آن واحد، فليس ثمّة ما يمنع اعتبار المائدة المنزلة من السماء ممّا هيّأ عيسى ﷺ للرفع إلى الله، من بين أولئك الذين تأبى عزّة الحقّ أن ينفُذ فيه مكرهم الأسوأ.

وهناك خلاف حول حصول معجزة المائدة. وقد يُخرج من هذا الخلاف القولُ إن الحواريّين عندما طلبوا المائدة أرادوا أن يروا مائدة تهبط عليهم من فوق رؤوسهم[1]، وأنّهم قد تجاوزوا في طلبهم ما ينبغي للمؤمن، يدلّ على ذلك أن عيسى زجرهم، وأمرهم بتقوى الله. وأمره إيّاهم بتقوى الله يعني أمرهم بالكفّ عن هذا الكلام، وقد فهم الحواريّون ذلك، فراحوا يبرّرون طلبهم. وهذا اعتراف ضمنيّ بالتجاوز الذي حصل منهم، وبأنّهم ما فعلوه إلاّ بقصد طمأنينة القلب، ورسوخ العلم بصدق عيسى، فهو وعد ضمنيّ بالإيمان، بل بالشهادة على شهود المعجزة أمام اليهود المكذّبين.

دعا عيسى ربّه أن ينزّل عليهم المائدة التي طلبوا، وقال الله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ١١٥: المائدة.

---

(١) كما تصوّر أكثرهم في طعام مريم لقولها: " هو من عند الله " ٣٧: آل عمران. وكأنّ ما يأتي من عند الله إنّما يأتي من هذه الجهة، وما جاء من غيرها فهو من عند غير الله. أمّا بالنسبة إليه جلّ وعلا فمن حيثما جاء عطاؤه فهو منزّل لعلوّه عمّن يعطيهم، ومن هنا قال: إنّي منزّلها عليكم " ١١٥: المائدة، وتوكيدًا لإجابة طلبهم.

من سنن الله الحقّ في خلقه أنّك إذا سألته شيئًا ووعدته على الاستجابة وعدًا، فأعطاك وأخلفت، فقد استجلبت النقمة، لأن في ذلك عبثًا لا ترجى معه نجاة، وعدم تقدير لمن عاهدت، وهذا لا يليق بمقام الله، ولا يتّفق والإيمانَ الصحيح، بل ينمّ على نفاق متمكّن، لا بدّ أن يذرّ قرنه كلّما هاجه هائج. وفي الذكر الحكيم: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ ٧٥ - ٧٧: التوبة.

ولا يحدّد النصّ الزمان، فقد يكون الأمر فوريًّا، وقد يكون بعد زمن لا نملك تحديده، كما أنّه ليس فيه ما يسمح بالقول: إن خوانًا مثقلاً بالأطعمة قد تراءى لعيسى ومن معه فوق رؤوسهم، ثم استقرّ بينهم، وراحوا يأكلون منه. ومن كلّ احتمالات الزمان، وكلّ الاحتمالات الكائنة بين القول بحقيقية عبارة: «مائدة من السماء»، وكونها تعني مائدة سماويّة، أي ممّا هو أرفع وأغنى وأضخم من الموائد المعروفة، يمكننا أن نصل إلى ما يعطينا فكرة عن مائدة السماء ونزولها.

* * *

قال الحواريّون: نحن أنصار الله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ ١٤: الصف.

والأنصار هم الطبقة الأولى بعد الأنبياء. وقد رضي الله جلّ وعلا عنهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ

جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ١٠٠: التوبة، ومدحهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ ٩: الحشر. وكان ﷺ شديد الحبّ للأنصار، والتقدير لهم، وروي عنه قوله: «لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو يندفع الناس في شعبة أو في وادٍ، والأنصار في شعبة، لاندفعت في شعبهم»[1]، ونقرأ مثل هذا في إنجيل لوقا عن المسيح عليه السلام: «أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله، ويعملون بها»[2].

لقد أراد عيسى عليه السلام من يُعينه على أداء رسالته، ونشرها في بني إسرائيل. فقال: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ ١٤: الصف؟ فكانت الاستجابة الحاسمة القاطعة: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ ١٤: الصف. وتتجلّى في السؤال والجواب عظمة الإيمان الكامل المخلِص، فعيسى النبيّ يطلب أنصارًا لا لنفسه، بل لدعوته إلى الله جلّ وعلا، والحواريّون يُعلنون بكلمة واحدة أنّهم أنصار الله، ومن ثَم فهم أنصار عيسى في دعوته إلى الله.

بدأ الأمر بأن أحبّ هؤلاء الطيّبون، ذوو القلوب الحيّة عيسى لشمائله، ولِما رأوا فيه من الخير[3]، ونصروه على من كانوا يظلمونه ويتحاملون عليه، ثم بدؤوا التحوّل نحو الإيمان برسالته شيئًا فشيئًا، مع كلّ موقف يقفه، وكلّ كلمة يقولها، وكلّ معجزة يَسّرها الله على يديه، حتى انتهى بهم الأمر إلى طلب حاسم تطمئنّ به قلوبهم، فكانت المائدة. وبعد هذه الإرهاصات أطلقها الحواريّون: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ ١٤: الصف، وكان ذلك إعلانًا كاملاً وجازمًا للإيمان بما يدعو إليه عيسى، إيمانًا مطمئنًّا راسخًا من قلوب مطمئنّة.

هكذا دخل الحواريّون في صلب مسيرة عيسى المسيح، روحِ الله ورسولِه وكلمتِه، وقاسموه معاناته الرهيبة في شراك أصحاب النفوذ من رجال الهيكل، الذين كانوا يطؤون الناس في سبيل الحفاظ على امتيازاتهم ومصالحهم.

---

(١) مسند أحمد: ٨١٥٤.

(٢) إنجيل لوقا: ٨.

(٣) وهذا معنى الحبّ في الله.

obeikandl.com

كيد اليهود

التفّ الناس حول عيسى المسيح ﷺ، وكان يخاطب المذنبين والخاطئين كما يخاطب الأب الرحيم أولاده، فوجد فيه الناس سمتًا لم يألفوه في رجال الكهنوت، فتقاطروا عليه ينشدون العزاء والدواء والشفاء.

ومن رحمة الله الحقّ بعباده، وجبره لضعفهم وعجزهم، أنّه أمرَ أنبياءه ومرسليه بأن يَلينوا للمؤمنين، ويخفضوا لهم جناحهم، ويستغفروا لهم ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ١٥٩: آل عمران، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ ٦٤: النساء، ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ٤٤: طه. ولا يكفهرّ وجه داعية يخاطب الناس إلاّ وهو يعتقد أنّه خير منهم، وهذا هو العُجب، وهو الهلاك بعينه، وفي الموطّأ «أن عيسى بن مريم كان يقول: لا تنظروا في ذنوب الناس كأنّكم أرباب»[١].

لقد أرسل الله الأنبياء أطباء للقلوب التي أسقمها البعد عن الحقّ، والضلال عن سبيله، ولم يرسلهم قضاة يحاكمون ويحكمون، ولا جلاّدين ينهالون على عباد الله بسياطهم. وعلاقة المرسلين بأتباعهم، مذنِبين وصالحين، كافرين ومؤمنين، تقتصر على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يدعوا الله لهم بالهداية.

كان كَتَبة التوراة والفريسيّون والكهنة، كما سبق القول، طغمة من المتنفّذين، المنتفعين بمراكزهم الدينيّة في شؤون دنياهم، يتّخذونها وسائل إليها، وكان الأمر قد وصل بهم إلى التلاعب المقصود بنصوص التوراة[٢]. فلمّا جاء عيسى ﷺ، وكان

(١) ٢ : ٩٨٦ .

(٢) لم ينقطع عبث أكابر مجرمي اليهود بالتوراة، فقد كانت التوراة الرسميّة، التي ابتدعها الآباء الروحيّون=

يكلّم المذنبين كما يكلّم الأب الرحيم أولاده، فضح هؤلاء، وجرّأ الناس عليهم، ولفتهم إلى ما حرّفوا في التوراة وما غيّروا في نصوصها.

وقد كان المسيح عليه السلام يلجأ إليه الساقطون المطَرَّدون، وتلوذ به البغايا المنبوذات، ويقصده القتلة واللصوص، الذين أسرفوا على أنفسهم، فيجد كلٌّ منهم في قلبه متّسعًا له، ومفتاحًا لأبواب التوبة والاستقامة، فينقلب الكثيرون إلى الصلاح، ويغدو آخرون من الدعاة إلى دين الله، يَلزمون عيسى ما استطاعوا، ويتبعونه حيثما ذهب، ممّا أثار الغيظ والحسد، وأجّج الحقد في صفوف محتكري السلطة والنفوذ من الناموسيّين اليهود، فأجمعوا على الكيد له ولمن تبعه.

وبدأت سلسلة من المُعاناة القاسية، كان المحرّك الأساسيّ لها الحسد[1]، وأسوأ الحسد ما كان بين أهل العلم، وقيل: إن إبليس كان يبيع الغشّ للتجّار، والظلم للأمراء، والحسد للعلماء، وقيل: إذا ذاع صيت العالِم نسج له أقرانه كفنًا. وفي التاريخ الإسلاميّ كثير من كبار العلماء والأئمّة سُجنوا أو قُتلوا بوشاية بعض أقرانهم، لذلك لا تُقبَل شهادة القرّاء بعضهم على بعض.

استغلظ الحسد في بني إسرائيل، وآزره المكر السيّئ، وأفرز حسدُ الفئة المتنفّذة من أحبار بيت المقدس وكهّانه مؤامراتٍ وخُدعًا عبثت بالحقائق، وزوّرت الوقائع، حتى وصل بهم المكر إلى اتّهام عيسى النبيّ المرسَل بالتجديف على الله، لكي يتّخذوا ذلك ذريعة لقتله والتخلّص منه.

كان المكر من السوء، والكيد من الإحكام، والحرص على إنفاذ المؤامرة من المضاء، بحيث احتنكت هذه الدعوى الباطلة، مع مرور الزمن، طائفةً من أتباع

= لهؤلاء، مهدّدة بما يُكتشف بين الحين والحين من صحائف الحق المسطور في توراة موسى، فكان لا بدّ من متابعة كلّ ذلك، وطمسه أوّلاً بأوّل بكلّ وسيلة للحفاظ على التوراة الرسميّة التي تكمن فيها مصالح هؤلاء. ومن هنا كان تعسفهم في حمل الناس على الالتزام بما فيها، وبطشهم بمن يتزحزح عن ذلك. ولكن هؤلاء أنفسهم لم يتورّعوا يومًا عن الالتفاف على نصوص التوراة الرسميّة، والعبث بها بطرق أخرى لمصالحهم الشخصيّة في معظم الأحيان.

(١) والحسد ظاهرة إنسانية كانت أولى تجلياتها المعروفة بين قابيل وهابيل. ولا تنجو من الحسد أمة أو ملة أو تجمع إنساني.

المسيح ﷺ، ممّا أدّى، فيما بعد، إلى ما هو معروف من الخلاف حول طبيعته، فكان هناك من زعم أنّه الله، ومن زعم أنّه ابن الله، ومن زعم أنّه ثالث ثلاثة[1]. وهي دعاوى فنّدها معظم المفسّرين لدى تفسيرهم لقوله جلّ وعلا على لسان عيسى ﷺ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ٣٠: مريم.

ونحن إذا ما تتبّعنا الأمر في أناجيل النصارى وجدنا أن هذه الدعاوى قائمة على إشكاليّات، صُنعت وكُرّست بقصد، بحكم غايات صانعيها، وبغير قصد، بحكم طبائع الأمور، وأن في كثير من أقوال عيسى ﷺ في الأناجيل ما يدحض تلك الفِرى، ويوكّد أنّه إنسان في مقام العبوديّة لله الحقّ وحده الذي يسجد له ويعبده، وذلك مصداق قول الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ ١٧٢: النساء، فهو عبد الله، وليس إلهًا، ولا ابنًا لله، ولا ثالث ثلاثة... تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. وسوف نتناول من هذه المزاعم قولهم: المسيح ابن الله، وقولهم: المسيح هو الله .

قولهم: المسيح ابن الله

يصف عيسى نفسه في الأناجيل بابن الإنسان، ولا يتورّع عن ذكر ضعفه الإنسانيّ الذي يرزح تحت وطأته: «هو ذا ابن الإنسان يسلّم إلى أيدي الخطاة»[2]. أو يوكّد أنّه إنسان نبيّ: «وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله»[3]. وأنّه رسول أرسله الله الحقّ الذي لا إله غيره: «والحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحقّ وحدك، ويعرفوا يسوع المسيح الذي أرسلته»[4]، ومن ذلك قوله لتلاميذه: «من يَقبلكم يَقبلني، ومن يَقبلني يقبل الذي أرسلني»[5].

---

(١) وقد اشتغل رجال الدين النصارى بهذا فعقدت عدة مجامع لوضع حد لهذا الخلاف أولها مجمع نيقية في عام ٣٢٥، وتلاه مجمع أفسوس في عام ٤٣١، ثم مجمع خلقدونية في عام ٤٥١.

(٢) إنجيل مرقس: ١٤.

(٣) إنجيل يوحنّا: ٨.

(٤) إنجيل يوحنّا: ١٧.

(٥) إنجيل متى: ١٠.

ويذكر يوحنّا في رؤياه أن المسيح يقول له: «من يَغلب فسأجعله عمودًا في هيكل إلهي... وأكتب عليه اسم إلهي، واسم مدينة إلهي أورشليم الجديدة النازلة من السماء من عند إلهي»(١).

وفي السفر الخامس من الرؤيا يتكلّم يوحنّا عن «الجالس على العرش» ويصفه بعبارة «الحيّ إلى أبد الآبدين». ويُصوِّر المسيحَ دون ذلك المقام بشكل لا يدع مجالاً للشكّ في أنّه مقام الله الواحد(٢). وأن معجزات المسيح قد أجراها الله عزّ وجلّ على يديه(٣).

وفي إنجيل لوقا يسأل الشيطان المسيح أن يسجد له، فيرفض المسيح، ويعلن تمسّكه بالسجود لله، وعبادته وحده: «اذهب يا شيطان، إنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإيّاه وحده تعبد»(٤).

ونقرأ في إنجيل يوحنّا: «أنا الطريق والحق والحياة، وليس أحد يأتي إلى الآب إلاّ بي»(٥). فهو وسيلة البشر إلى معرفة ربّهم.

ونقرأ في إنجيل متّى على لسان الذين سمعوا من المسيح في بدايات دعوته: «من أين لهذا هذه الحكمة؟... أليس هذا ابن النجّار؟(٦) أليست أمّه تُدعى مريم، وإخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا، وأخواته جميعهنّ عندنا؟»(٧). فعيسى عليه السلام، رغم الكثير الذي ذُكر عن إرهاصات نبوّته، كان في مجمل أمره، وكما بدا للناس من حوله رجلاً عاديًّا، يعيش حياة عاديّة، كأيّ رجل صالح مخلص لناموس موسى عليه السلام.

من كلّ ما تقدّم نرى أن الأناجيل رغم ما أفرزته بعض الانحرافات، وما نفثه فيها أصحاب الأغراض من السمّ، تُثبت لله مقام الواحد ذي العرش، الحيّ إلى أبد

---

(١) رؤيا يوحنّا: ٣.

(٢) رؤيا يوحنّا: ٥.

(٣) أعمال الرسل: ٢ .

(٤) إنجيل لوقا: ٤.

(٥) إنجيل يوحنا: ١٤.

(٦) ظل عيسى عليه السلام في كنف يوسف النجار، وعرف بابنه حتى كلّف بالدعوة، وكان في الثلاثين من عمره.

(٧) إنجيل متى: ١٣.

الآبدين، الذي يُسجد له. وتثبت لعيسى أنّه إنسان يعبد الله وحده، وأنّه رسول أرسله الله يكلّم الناس بالحقّ الذي سمعه منه، وأنّه الطريق إلى الله، أي أنّه يهدي إليه. كما يلاحَظ أن عبارة «ابن الله» في الأناجيل تستعمل مجازًا للتعبير عن انتماء المسيح إلى الله جلّ وعلا، فنحن نقرأ في إنجيل يوحنّا: «والكلمة صار جسدًا، وحلّ بيننا، كما لوحيد من الآب مملوءًا نعمة وحقًّا»(١) فهو التشبيه إذًا.

ونقرأ في إنجيل لوقا: «لأنه حُبِل به بقوة الروح القدس في أحشاء مريم لذلك دُعي ابن الله»(٢). فابن الله على هذا تعني: المخلوق مباشرة بأمر الله. ومن هنا دُعي المسيح بكلمة الله «والكلمة صار جسدًا، وحلّ بيننا»(٣)، ولعلّ كلمة الله المعنيّة هي «كن». وكلّ مخلوق وُجد بـ «كن»، ولكن بسبب أمّه وأبيه، أمّا عيسى عليه السلام فوجد بـ «كن» وحدها وبواسطة أمّه، وذلك لما تحتاجه الدعوة بين الناس من بشريّة النبيّ.

فالقول: إن المسيح ابن الله، يمكن حمله على أنّه توكيد لولادته المعجزة من غير أب. أمّا كلمة الآب التي يطلقونها على الله جلّ وعلا، فهي أدنى إلى أن تكون بمعنى الأصل أو المبدأ، أو الأوّل، أو الذي يُرَدّ إليه كلّ شيء، ومعروف تقديس الآباء في الحضارات القديمة، وقد أقرّت الشرائع والقوانين والأعراف روح ذلك، فجعلت للوالدين مقامًا رفيعًا بلغ الذروة في الإسلام. وممّا يؤيّد هذا ما جاء في إنجيل لوقا في الكلام عن نسب يوسف زوج مريم، حيث تنتهي سلسلة نسبه كما يلي: "... ابن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم ابن الله"(٤).

وإذا أضفنا إلى هذا ما تعنيه عبارة أبناء الله، في بعض المواضع من الأناجيل مثل: «طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون»(٥)، و"أمّا كل الذين قَبلوه(٦)، فأعطاهم

---

(١) إنجيل يوحنا: ١.

(٢) إنجيل لوقا: ١.

(٣) إنجيل يوحنا: ١.

(٤) إنجيل لوقا: ٣.

(٥) إنجيل متى: ٥.

(٦) يعني المسيح.

سلطانًا أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه"[١]. وما تعنيه كلمة الأب أو الآب، مثل: «أباكم الذي في السماوات»، ولصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء»، و«صلّوا هكذا: يا أبانا الذي في السماوات»[٢]. لم يعد للشكّ من مجال في أن مفهوم الأب والابن، رغم بعض التفسيرات المتطرّفة، يمكن ألاّ يعنيا الوالد ومَن وَلَد.

قولهم: المسيح إله

وتُطلق كلمة الربّ في الأناجيل على الله كما تُطلق على المسيح... ونقرأ في إنجيل لوقا: «فلمّا رأى سمعان بطرس ذلك خر عند ركبتي يسوع قائلاً: اخرج من سفينتي يارب لأني رجل خاطئ»[٣].

ولكنّنا نقرأ في عدّة مواضع تفسيرًا أو تعليلاً يأتي على شكل معترضة لدى إطلاق تلك الكلمة على المسيح عليه السلام. مثل: «فقالا: ربّي ـ الذي تفسيره يا معلّم ـ أين تمكث؟»[٤]، أو: «وقالت: ربُّوني ـ الذي تفسيره يا معلم ـ »[٥]. وفي إيراد تلك العبارات المفسِّرة كمعترضات في السياق ما فيه من التنبيه على عدم جواز الالتباس. فالمقصود بكلمة الربّ إذًا المعلّم.

وممّا يؤكّد ذلك ما جاء في أعمال الرسل من أن بطرس قد قال: «كان يسوع الناصريّ رجلاً أيّده الله بينكم بما أجرى على يده من العجائب والمعجزات والآيات كما أنتم تعرفون»[٦]. أي أن معجزات يَسوع، التي هي في الحقيقة براهين على نبوّته وصدق دعوته، من صنع الله.

وبناء على ما تقدّم نفهم هذا القول المنسوب إلى داود عليه السلام «...قال الرب لربي اجلس عن يميني... فليعلم يقينًا جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي

---

(١) إنجيل يوحنا: ١.

(٢) إنجيل متى: ٦.

(٣) إنجيل لوقا: ٥.

(٤) إنجيل يوحنا: ١.

(٥) إنجيل يوحنا: ٢٠.

(٦) أعمال الرسل: ٢.

صلبتموه أنتم ربًا ومسيحًا»[1]. أي أن كلمة «ربّ» تعني مرتبة منحها الله لعيسى عليه السلام عندما أجلسه على يمينه.

ويمكننا أن نلمس بوضوح من خلال النصوص السابقة أن كلمة ربّ التي يلقّب بها المسيح لو لم يُرَد لها أن تعني ادّعاء الربوبيّة لَما عنته، ذلك أنّها أدنى إلى أن تكون بمعنى السيّد الأعلى، وهي مرتبة خَصّ بها الله المسيح عليه السلام.

ولكنّ عبارة مثل «ربّ الأرباب» قد تعصف بكلّ ما سبق قوله عن ألوهيّة المسيح المزعومة، واستغلال كلمة ربّ. فإذا وقفنا على تلك العبارة في وصف من دعته رؤيا يوحنّا بالأمين الصادق بالقول: "وبالعدل يحكم ويحارب... والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض... وله على ثوبه، وعلى فخذه اسمٌ مكتوبٌ ملك الملوك ورب الأرباب»[2]، أدركنا أنّها عبارة ليست خاصة بالمسيح عليه السلام، وبالتالي فلا يصحّ اعتبار كلمة الربّ فيها دالّة على المعبود، والأقرب أن تكون بمعنى سيّد السادة أو عظيم العظماء أو شيء من هذا القبيل.

ومن الواضح أنّه قد تمّ العبث بالنصوص لتعمية هذين المفهومين وتشويههما، وذلك لاستغلال تلك النصوص لصالح الجريمة العظمى، وهي اتّهام المسيح بادّعاء الألوهيّة[3]، وبالتالي تبرير قتل اليهود له. وقد قدّمت تلك الجريمة للأجيال التابعة من المؤمنين بالمسيح عقيدة من صنع أعدائه، تقوم على هذه الفِرية، فتخالف بذلك ما جاء قبلها وما جاء بعدها من رسالات.

وهكذا نرى أن جمهور رجال الدين اليهود قد لعبوا على وتر فكرة كون المسيح خارجًا على دين موسى حتى كرّسوها بقوّة نفوذهم وإرهابهم الناس[4]. أمّا عيسى عليه السلام

(١) أعمال الرسل: ٢.

(٢) رؤيا يوحنّا: ١٩.

(٣) وهو ما نراه مكرسًا في معتقدات اليهود ومعظم النصارى.

(٤) يعيد هذا إلى الأذهان ما فعله الملك عندما استعدى الناس على إبراهيم، حتى صار بسطاؤهم ينذرون أن يجمعوا الحطب لحرقه.

فقد قال: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل»[1].

*

جهد متنفِّذو الناموسيّين في صرف الناس عن عيسى عليه السلام، ونقرأ في إنجيل يوحنّا قولهم: «إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به»[2]، ودأبوا على محاصرته بأسئلتهم ومماحكاتهم[3]. وكانوا لدى كلّ جدال يُفحمهم فيه يهمّون بقتله، فينجّيه الله منهم. وراحوا يضيّقون على المؤمنين به، ويحاسبون من يذكره بخير، بل كانوا يُخرجون من يعترف بأنّه المسيح من المجمع الكهنوتيّ. وفي إنجيل يوحنّا أنّهم أحضروا زوجين ردّ المسيح لولدهما الأعمى بصره، وسألوهما: كيف أبصر ولدكما؟ قالا: «اسألوه، وهو يجيبكم عن نفسه لأنّه بلغ سنّ الرشد. وقال والداه هذا لخوفهما من اليهود، لأن هؤلاء اتفقوا على أن يطردوا من المجمع كل من يعترف بأن يسوع هو المسيح»[4]. ومن دعاواهم «قالوا: إنه مختلّ، وأمّا الكتبة... فقالوا: إن معه بَعْلزَبول[5]، وأنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين»[6].

ومن جهة أخرى عمل هؤلاء على زعزعة ثقة الناس بمشروعيّة دعوة عيسى عليه السلام. وفي إنجيل مرقس «وفيما هو يمشي في الهيكل أقبل إليه رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ، وقالوا له: بأي سلطان تفعل هذا؟ ومن أعطاك هذا السلطان حتى تفعل هذا؟»[7].

ومكثوا يتحيّنون الفرص، ويتسقّطون ما يمكن اعتباره زلّة أو خطأ في مسألة يُفتي بها المسيح، أو حكم يذكره، لكي يوقعوا عليه حكمًا يخلّصهم منه. ونقرأ في إنجيل

---

(١) إنجيل متى: ٥.

(٢) إنجيل يوحنا: ١١.

(٣) معروفة مماحكات يهود المدينة لرسول الله.

(٤) إنجيل يوحنا: ٩.

(٥) كبير الشياطين.

(٦) إنجيل مرقس: ٣. وقد سبق لهم اتّهام سليمان بممارسة السحر.

(٧) إنجيل مرقس: ١١. أي من أعطاك الحق أن تتكلم بما هو من اختصاص الكهنة والفريسيين وكتبة التوراة؟

يوحنّا: «وقدّم إليه الكتبة والفريسيّون امرأة أُمسكت في زنى. ولمّا أقاموها في الوسط قالوا له: يا معلم هذه المرأة أمسكت وهي تزني. وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم. فماذا تقول أنت؟ قالوا هذا ليجربوه، لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه. وأمّا يسوع فانحنى إلى أسفل، وكان يكتب بإصبعه على الأرض، ولمّا استمروا يسألونه انتصب وقال لهم: من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر»[١]. وقد تابت المرأة، ولازمت السيّدة العذراء، فكانت عونًا لها على نشر دعوة المسيح بين النساء.

ومن هذه الحادثة ومثيلاتها يئس الأحبار أن يؤتى عيسى عليه السلام بتصيّدهم للمواقف، وذلك لما خصّه الله به من ذكاء وفطنة، وحسن تخلّص، وإحكام تصرّف، ولأنّه عرف أنّهم يكيدون له فكان حريصًا على ألاّ يؤتى من قِبلهم. ولمّا أعيتهم الحيل فيما بينهم وبينه راحوا يكيدون له ليوقعوه بين براثن الحاكم، وفي إنجيل مرقس: «ثم أرسلوا إليه قومًا من الفريسيّين والهيرودتسيّين ليصطادوه بكلمة، فلما جاؤوا قالوا له: يا معلم... أيجوز أن تُعطى جزية لقيصر أم لا؟... فعلم رياءهم، وقال لهم:... أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»[٢]. وفوّت عليهم بذلك ما دبّروا وما كادوا.

لقد أرهق عيسى عليه السلام ما كان يخوضه من المعارك التي يثيرها مفسدو بني إسرائيل من أصحاب النفوذ الدينيّ، وقد واجههم بجنايتهم على شريعة موسى: «الويل لكم يا علماء الشريعة، استوليتم على مفتاح المعرفة، فلا أنتم دخلتم، ولا تركتم الداخلين يدخلون"[٣]. كما ذكر رياء الفريسيّين في مخاطبته المؤمنين: "إياكم وخمير الفريسيين الذي هو الرياء"[٤]، وكان يسمّيهم المنافقين. وقد خاطبهم بقوله: «أنتم أيها الفريسيون تطهّرون ظاهر الكأس والصحن، وباطنكم كله طمع وخبث»[٥]. إنّهم عين المنافقين الذين كانوا حول رسول الله ﷺ... الذين قال فيهم الذكر الحكيم بعد أكثر من ألف عام: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ

---

(١) إنجيل يوحنا: ٨. المراد فليكن البادئ بالرجم.

(٢) إنجيل مرقس: ١٢.

(٣) إنجيل لوقا: ١١.

(٤) إنجيل لوقا: ١٢.

(٥) إنجيل لوقا: ١١.

obeikandl.com

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ١٤٢ : النساء، وفي نصّ آخر من الإصحاح نفسه: «الويل لكم أيّها الفريسيّون. تحبّون مكان الصدارة في المجامع والتحيّات في الساحات... أنتم مثل القبور المجهولة، يمشي الناس عليها وهم لا يعرفون»(١).

وهكذا كان سيّدنا عيسى ﷺ ينفق وقته في حِجاج هؤلاء. فشغلوه وأرهقوه، ودأبوا على ذلك حتى توصّلوا في النهاية إلى الضغط على الحاكم الرومانيّ، فنزل بعد طويل تمنّع وتنصّل وتردّد عند رغبتهم، فقتلوه على زعمهم، ورفعه الله إليه كما في الكتاب العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ٤٢ : فصلت.

وقد حذّر ربّ العالمين المصطفى ﷺ أن يستجيب للمُمارين والمماحكين، وخاصّة يهود المدينة ومن يسعَون بين أيديهم من المنافقين، ذلك أن جدالهم ليس نُشدانًا للحقيقة بل محاولات للتخطيء والتسفيه، ومن هنا فقد أرشد الله رسوله إلى وضعهم في مقاماتهم، وعدم الاكتراث لهم، فقال جلّ وعلا: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ ٢٢ : الكهف، **وقال للمؤمنين:** ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ ٤٦ : العنكبوت.

وعلّم رسوله ما يقول لهؤلاء إن هم أصرّوا على الجدال: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ٦٨ : الحج، **وأمره أن يُعرض عنهم، وألاّ يأسى عليهم إن هم أصرّوا على التنكُّر للحقّ الذي جاء به:** ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ ٨ : فاطر، **وألّايهلك نفسه غيظًا وهمًّا إن هم أصرّوا على التنكّر لما جاء به من الحقّ** ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ ٦ : الكهف، **وأن يمضي في الدعوة معرضًا عنهم** ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ٩٤ : الحجر... **ذلك أن الدخول في الجدال القائم على الكيد، والمحسوم النتيجة مسبقًا تعويق للعمل، ورفع للخصم إلى مكانة لا يستحقّها، فالإعراض عن الجدال إلاّ بالتي هي أحسن أولى.**

وبعض المسلمين اليوم يمتهنون الجدال بحجّة الدعوة إلى الله، والجدال من علامات

---

(١) إنجيل لوقا: ١٣. ولعله يقصد: أنتم كالقبور المغلقة على جثث لا حياة فيها، ولكنكم تخفون حقيقتكم تلك، فلا يعرفها أحد.

الساعة، وما أوتي قومٌ الجدال إلّا ضلّوا. وقد أُحييت بفضل هؤلاء المجادلين قضايا أكل الدهر عليها وشرب، كالكلام في الذات والصفات، وفي خلق القرآن، وهي قضايا تحتمل الجدال وفق أسلوبهم مليون سنة دون حسم. وقد سالت دماءُ المسلمين يوم أثيرت أنهارًا بتهمة الزندقة، وقتل من العلماء من قُتل، وعُذّب وسُجن الكثيرون، وكانت أصابع المفسدين وراء ذلك كلّه. وما زالت تلك الأصابع السود تنقّب عن عورات الأمّة عبر تاريخها، وتنفخ في رمادها، لتكون عونًا لمُداها على الرقاب.

لقد استفاد أعداء اليوم ممّا اجترح الخوارج والفرق الضالّة، وما أثاروه من فتن وقلاقل بدأت بالجدل، ثم غدا الجدلُ شغلَهم الشاغل حتى مزّقوا الأمّة، وعرقلوا تقدّمها، وتوقّفت أو كادت فتوحاتها. ولا يقع في هذا إلاّ من أصابه مكرُ الله.

وما تشهده الأمّة الإسلامية اليوم من مظاهر الطائفيّة، ليس إلّا امتدادًا مَقيتًا لما عاثه أعداء الحقّ والمفسدون في الأرض من فساد قديم. إنّها زوبعة سوف تختفي كما اختفت الشيوعيّة التي ملأت الأرض فسادًا، ثم انطفأت ذات يوم، بعد أن كنس الله بها آلاف الناس لأمر شاءه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ٣٥ : الأنعام.

وما يعزّينا أمام أمثال تلك الظاهرة أنّه ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ ١٧٩ : آل عمران، **فلا بدّ لجسد الأمّة من نفض الخبث بين الحين والحين، كالشجرة لا تستقيم إلاّ أن تُشذَّب كلّ عام... إنّها قوانين هذا الوجود** ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ٢ : العنكبوت.

استغرقت الدعوة إلى الله، وحِجاج رجال الهيكل وجهادهم السيدَ المسيح، فكان يقضي كلّ أوقاته مُحاطًا بحواريّيه وتلاميذه وعامّة المؤمنين. وكان الحواريّون أنصار الله حقًّا، وبقوا مع سيّدنا المسيح إلى النهاية، وأوصلوا دينه وشرعه وفقهه إلى الناس بعده.

ولكنّ الذين يُريدون أن يطفئوا نور الله دأبوا على التشنيع على المسيح وعلى أمّه، وحكم التلمود عليه بالارتداد عن اليهوديّة إلى الوثنيّة، هو وكلّ من تبعه ما لم يتهوّدوا. كما اتّهموه بالسحر، ورمَوا أمّه بالزنى بعسكريّ رومانيّ معروف بفسقه. هكذا فرض

أكابر المفسدين في الأرض رسميًّا تحريفهم وتخريفهم على جهود حواريّي عيسى وتلاميذه المخلصين، وقسروا ما جاء به المسيح ليكون تابعًا لمايخدم أغراضهم، وذلك، عندما ربطوه بتوراتهم. ولكنّ الله متمّ نوره ولو كره الكافرون. وقد جاء محمّد بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه، ولذلك كان الإسلام المستهدَف الأوّل من المفسدين في الأرض إلى أن يرثها الله ومن عليها.

وما قتلوه وما صلبوه

تصاعد كيد متنفّذي اليهود للمسيح ﷺ عند الملوك والإداريّين والولاة، ولكنّه في كلّ مرّة كان ينجو منهم بأعجوبة وذكاء نادر... لقد حُبي عيسى ﷺ خطابًا آسرًا، وكان الناس متعطّشين إلى ما لديه، فكانوا يلتفّون حوله حينما يتكلّم، ويسيرون خلفه حيثما سار. وقد كان هذا سببًا مباشرًا لثورة الرموز اليهوديّة الدينيّة المتنفّذة من الكتبة والكهنة والفريسيّين، المدعوّين بالناموسيّين، لما فيه من تهميش لهم، وتهديد لنفوذهم ومصالحهم. فلم يكتفوا بتشريد يسوع المسيح وأمّه وأتباعه وتلاميذه، بل انتهى بهم الأمر إلى أن أوقعوا به لدى بيلاطس الذي يتولّى حكم المنطقة من قِبل قيصر الروم، فألقى القبض عليه.

واختير من الرموز المتنفِّذة الحاقدة وفد على أعلى مستوًى في فنّ الكذب والتزوير والخداع وقلب الحقائق، ولبث الوفد أيّامًا ثلاثة يحاول إقناع بيلاطس، بأن هذا الرجل، الذي يُدعى يسوع المسيح مفسد في الأرض، وأنّه ساحر ودجّال، ملأ عقول الناس بالخرافات، وادّعى أنّه ملك اليهود، وهذا تحَدٍّ لقيصر، وأنّه ابن الله، وهذا تحَدٍّ لشريعة اليهود، وأنّ هذا يوجب صلبه. وبعث الوفد أراجيف بني إسرائيل الأولى، وافتراءاتهم على عيسى وأمّه، وعن السحر الذي يستخدمانه.

ولم يكن الأمر من حيث العقيدة يعني لبيلاطس شيئًا، فهو رومانيّ وثنيّ، وكلّ ما كان يعنيه ما زعموه من ادّعاء عيسى أنّه ملك اليهود، وتشير نصوص الأناجيل بوضوح إلى أن بيلاطس لم يستسلم إلى دعاوى اليهود بسهولة، بل تحرّج ممّا يطالبونه به، «لأنّه كان يعرف أن رؤساء الكهنة من حسدهم أسلموا يسوع»[1]. واستجوب بيلاطس

---

(١) إنجيل مرقس: ١٥.

يسوعَ، وخرج على المدَّعين ومن تجحفل وراءهم من الغوغاء يقول: «خذوه أنتم واصلبوه، فأنا لا أجد سببًا للحكم عليه»[1]. ومن الطبيعيّ ألّا يحفل حاكم مستعمِر بقضيّة عقديّة خاصّة بالقوم، وأن ينأى بنفسه عن صراعاتهم، ولكنّهم هدّدوه بلؤم وخسّة. ونقرأ في إنجيل يوحنّا: «فحاول بيلاطس بعد هذا أن يخلّي سبيله، ولكنّ اليهود صاحوا: إن أخليت سبيله، فما أنت من أصدقاء القيصر، لأن من يدّعي المُلك يكون عدوًّا لقيصر»[1].

وفي إنجيل يوحنّا: «فلما رأى بيلاطس أنه ما استفاد شيئًا، بل اشتدّ الاضطراب، أخذ ماءً وغسل يديه أمام الجموع، وقال: أنا بريء من دم هذا الرجل. دبروا أنتم أمره. فأجاب الشعب كله: دمه علينا وعلى أولادنا»[2]. وفي إنجيل مرقُس: «فهيّج رؤساءُ الكهنة الجمع ليختاروا إطلاق باراباس»[3]. وهذا شأن أكابر مجرمي اليهود منذ الأزل، وإلى الأبد، ومعروف اليوم كيف يكيدون للعرب والمسلمين عند أصحاب القرار في العالم، حتى أصبح العالم يرمي المسلمين عن قوس واحدة.

هكذا اضطرّ بيلاطس إلى إطلاق أيدي هذه الطغمة في الأمر، نائيًا بنفسه عنه ما استطاع، لتبدأ أحداث المعجزة ما قبل الأخيرة في حياة سيّدنا المسيح عليه السلام.

ولا يُعفي الذين باؤوا بهذا الإثم أنّنا، كمسلمين، موقنون أنّهم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ١٥٧: النساء، سواء في ذلك أشُبّه لهم ما قاموا به بالقتل والصلب[4]، أم شُبّه لهم عيسى برجل آخر[5]، فإن مجرمي الناموسيّين حاكوا أدنأ مؤامرة في تاريخ

---

(١) إنجيل يوحنا: ١٩.

(٢) إنجيل متى: ٢٧.

(٣) إنجيل مرقس: ١٥.

(٤) أي شبه لهم ما فعلوه بالصلب، ولكنه لم يكن صلبًا، بل مجرد محاولة فاشلة لذلك، فقد اكتنفت العملية جملة ملابسات أفضت إلى نجاته عليه السلام من بين براثنهم ليرفعه الله إليه. وهذا التفسير يوفّق بين ما جاء في الذكر الحكيم من نفي القتل والصلب، وبين قول اليهود والنصارى بوقوعهما.

(٥) وللمفسرين كلام كثير في هذا.

الإنسانيّة ليقتلوا عيسى عليه السلام، ويُجهضوا دعوته ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ٥٤: آل عمران.

ورغم الجزم الواضح بنفي القتل والصلب في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ١٥٧: النساء، فإن تصوير البلبلةَ التي أعقب الله القتلةَ في قلوبهم، والشكّ المربك الذي أعماهم بخمسة أساليب متتابعة: ولكن شُبّه لهم، واختلفوا فيه، وهم في شكّ منه، وما لهم به من علم إلاّ اتّباع الظنّ، وما قتلوه يقينًا، يعني أنّهم على الأقلّ، تساوى لديهم الاعتقاد بإنفاذ القتل، وعدم إنفاذه. ومن ذلك أيضًا عدم تحديد المقصود بواو الجماعة في «اختلفوا»، ممّا أدّى إلى الشكّ في كونهم الناموسيّين الصالبين، أو المسيحيّين، أو كلّ أولئك مجتمعين. يضاف إلى ذلك عدم تحديد ما اختُلف فيه، أهو القتل أو الصلب أو الشبهة؟

كلّ ما تقدّم يشي باضطراب ظروف الواقعة وكثرة ملابساتها، ممّا يجعل القول: إن من قُتل هو شخص غير المسيح عليه السلام، تفسيرًا غير كاف لقوله تعالى: «وما صلبوه»، ولا سيّما إذا علمنا أنّ هذا القول يفتقر إلى السند الملزم. ومن هنا ظهرت على استحياء رؤية تقول: إن القصد من نفي الصلب نفي القتل صلبًا، وليس نفي العمليّة برمّتها.

أمّا الأناجيل فتُجمع على أنّه عليه السلام صلب ومات على خشبة الصلب، وتُفيض في تفاصيل الحادثة المروِّعة، وما كشفته من حقد ودناءة المتضرّرين من كلمة الله الحقّ.يقول محمّد بيّومي مهران نقلاً عن تفسير المنار: «وأمّا النصارى، فقد جعلوا خاتمة المسيح عليه السلام، كما يقول الأستاذ رشيد رضا، خاتمة شنيعة، ومأساة مروّعة، وجعلوا الاعتقاد بحصولها على الوجه الذي صوّروه أصلاً من أصول دينهم، ودعامة من دعائم عقيدتهم، لا يُقبَل من مؤمن إيمانه إلاّ بها، وهي الاعتقاد بصلب المسيح»[1].

ومن عجب أن أناجيل النصارى، التي حشدت الأعاجيب من المعجزات لعيسى عليه السلام، قد صوّرته يموت على أيدي حثالة البشر أشنع ميتة في التاريخ، ثم جلست

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٣: ٣٥٤ .

تفلسف الأمر، فتزعم أن الله قد أرسله ليفتدي البشر كلّهم من العقاب الذي استوجبه عصيان آدم ربّه. ونقرأ في قصص الأنبياء نقلاً عن تفسير المنار»... كلّ ذلك ليفتدي البشر من جريمة لم يقترفها هو ولا هم(١).

وعندما حصر مجمع نيقية ما دعاه بالعهد الجديد في الأناجيل الأربعة المعروفة(٢)، أخذ النصارى بهذه الرواية، فقالوا: إن المسيح قد صُلب حتى الموت، ثم قام من الأموات، وظهر بضع مرّات لبعض تلاميذه ببضع معجزات، ثم رفعه الله إليه.

وما قتلوه يقينًا

ولكنّنا نستطيع أن نتبيّن في الأناجيل أكثر من مؤشّر يؤيّد ما جاء في الذكر الحكيم من أن قَتَلة الأنبياء من ناموسيّي بيت المقدس، لم يقتلوا عيسى ﷺ، وأن واقعة الصلب، إن كانت، فهي لا تعدو وضع جسد المسيح على خشبة الصليب ساعات لم تسفر عن موته، بل عن وفاة رفعه الله بعدها إليه. وصدق الله العظيم. كما أن هناك طوائف من النصارى أنفسهم تنفي موت المسيح مصلوبًا، ويقول منظّروهم: إن قصة الصلب من ابتداع بولس وأمثاله(٣).

لقد رُفع عيسى ﷺ في نصّ القرآن الكريم بعد محاولة اليهود قتله، وليس ثمّةتفاصيل يمكن الخلوص منها إلى أنّه حيّ، أو أنّه قد رُفع جسدًا، أوروحًا، أو جسدًا وروحًا. ولكنّ جمهور المفسّرين على أنّه قد رُفع جسدًا وروحًا، وأنّه حيّ في صفته البشريّة تلك(٤). وقد أسفر الرفع، كيفما كان، عن اختفاء عيسى ﷺ جسديًّا. بينما نقرأ في الأناجيل أنّه صُلب، ومات على الصليب، ثم نُقل إلى حيث دُفن، وبعد ثلاثة أيّام اختفى من قبره، ثم ظهر لعدد من تلاميذه، وفي أكثر من مكان، ثم اختفى ثانية.

---

(١) عبد الوهاب النجار ص ٤١٦.

(٢) وهي الحلقة الأهم في المؤامرة على ما جاء به عيسى من الدين الذي شرعه الله.

(٣) انظر عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء ص٤٢٤ - ٤٣٦.

(٤) يقول الإمام المراغي فيما ذهب إليه جمهور العلماء: « وفسروا الآية بهذا بناء على أحاديث وردت، كان لها عندهم المقام الذي يسوّغ تفسير القرآن بها، ولكن هذه الأحاديث لم تبلغ درجة الأحاديث المتواترة التي توجب على المسلم عقيدة »عن كتاب دراسات إسلامية من القرآن الكريم ٣: ٣٥٣.

ويروي إنجيل يوحنّا واقعة الصلب على الوجه التالي: «وكان ذلك يوم التهيئة للسبت، فطلب اليهود من بيلاطس أن يأمر بكسر سيقان المصلوبين، وإنزال جثثهم عن الصليب لئلاّ تبقى يوم السبت. وخصوصًا أن ذلك السبت يوم عظيم[1]. فجاء الجنود، وكسروا ساقي الأول والآخر المصلوبين مع يسوع. ولما وصلوا إلى يسوع وجدوه ميتًا، فما كسروا ساقيه. ولكنّ أحد الجنود طعنه بحربة في جنبه، فخرج دم وماء»[2].

ولو أنعمنا النظر في هذا للفتتنا أمور على رأسها أن عمليّة الصلب تمّت على عجل، وشابها شيء من الفوضى، فقد حُشرت في فترة قصيرة، ليتمّ الفراغ منها قبل بدء الاحتفال بعيد الفصح[3]. وفي جميع الأناجيل أن عمليّة الصلب تمّت خارج المدينة «لأن المكان الذي صلبوا فيه يسوع كان قريبًا من المدينة»[2]، وأنّه ﷺ شُدّ إلى الصليب في الساعة الثالثة، أو السادسة بعد ظهر يوم الجمعة[4]، وأسلم الروح في الساعة التاسعة، أي بعد سويعات قليلة، ولم يكن المصلوبان الآخران قد ماتا[2]، بدليل أن الجند قد كسروا سيقانهما ليعجلوا بموتهما، ولم يكسروا ساقي عيسى لأنّهم وجدوه قد مات. وأنّه أُنزل عن الخشبة في المساء، أي بعد ذلك بسويعات قليلة.

وواضح من نصوص الأناجيل أن موت عيسى ﷺ بهذه السرعة لم يكن عاديًّا، حتى إن أحد الجنود ارتاب في الأمر "فطعنه بحربة في جنبه" ليتثبّت من موته[2]، كما أن الحاكم بيلاطس قد تعجّب لهذا الأمر: «وكان المساء قد اقترب... فجاء يوسف الراميّ، فتجاسر ودخل على بيلاطس، وطلب جسد يسوع، فتعجّب بيلاطس أن يكون مات سريعًا هكذا، فدعا قائد المئة، وسأله: أمن زمن مات؟»[5].

---

(١) جرى الصلب في فترة الاستعداد لعيد الفصح.

(٢) إنجيل يوحنا: ١٩.

(٣) إنجيل مرقس: ١٥ . ومن مظاهر العجلة كسرهم سيقان المصلوبين للتعجيل بموتهم، لكي يتم نزع جثثهم عن الصلبان ودفنها قبل بدء الاحتفالات بالفصح، وهو إجراء وحشيّ يبدو أنه كان معتادًا، ومن تلك المظاهر أيضًا وَضع جسد المسيح بعد إنزاله عن الصليب في قبر في مكان الصلب نفسه اختصارًا للوقت كما سوف يجيء بعد قليل.

(٤) إنجيل لوقا: ٢٣ وإنجيل متى: ٢٧.

(٥) ومساء الجمعة عند اليهود هو وقت التهيئة للسبت، حيث ينهمكون في إعداد ما يلزمهم يوم السبت =

ومن الأمور اللافتة في عمليّة الصلب ما نقرؤه في إنجيل يوحنّا: «وكان في الموضع الذي صلبوا فيه يسوع بستان، وفي البستان قبر جديد ما دُفن فيه أحد. فوضعا يسوع فيه لأنّه كان قريبًا»[1]. وهذا مؤشّر آخر على ضآلة الوقت الذي لبثه في حالة الوفاة بزعمهم.

ويمكننا القول بدون مانع الآن: إن احتمالات عودة عيسى إلى الحياة قد بدأت منذ إنزاله عن الخشبة، أي إن الفترة التي من المؤكّد أنّه قضاها في الغيبوبة أو الوفاة لا تزيد على ثلاث ساعات، وإن مدّة بقائه على خشبة الصلب، إن صحّ أنّه قد رُفع عليها، لا تتعدّى ستّ ساعات، صمد في نصفها الأوّل، وأغمي عليه في الثاني.

وهذا يعني أنه ﷺ لم يُقتل مصلوبًا كما أرادوا، بل لم يقتل مطلَقًا، وقد انتهت محاولة قتله تلك بالإخفاق، وهو ما جاء به الذكر الحكيم، ثم توفّاه الله، ورفعه إليه. وممّا يدعم هذا أيضًا الإشارات في القرآن والأناجيل، إلى الشكّ الذي ساور قتَلته والمؤمنين به، على السواء، في نتيجة ما حدث. ففي القرآن الكريم ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ ١٥٧: النساء.

وهناك أمر آخر جدير بالملاحظة، وهو أنّه كان ليسوع تلاميذ سرّيّون حضروا عمليّة الصلب، دون أن يفطن إلى ذلك أحد. وقد رأينا كيف سعى يوسف الراميّ على جناح السرعة لدى الحاكم، وحصل على إذن رسميّ بنزع جسد يسوع عن الصليب وأخذه. وقد يبدو غريبًا أن مصلوبًا بمثل هذه الأهميّة يمكن لواحد من تلاميذه الحصول على جثّته بهذه البساطة، وبهذه السرعة ولكن ليس إذا تذكّرنا أن الرامي كان من أعضاء مجلس اليهود، ويبدو أنّه استخدم نفوذه ليفعل ما فعل. وفي النصّ الإنجيليّ الذي ذكر ذلك إشارة واضحة إلى التجاوز والمجازفة في العمليّة «وجاء يوسف الراميّ فتجاسر... وطلب جسد يسوع»[2].

أمّا طعنه بالحربة فيصفه إنجيل يوحنّا كما يلي: «لكنّ واحدًا من العسكر طعن جنبه بحربة

= لأنهم في السبت لا يعملون. وكان هذا السبت هو السابق لعيد الفصح، فهو يتطلب إعدادًا أكثر وأكبر. والرامي: نسبة إلى الرامة. وهو من تلاميذ يسوع الذين يكتمون إيمانهم، وكان من أعضاء مجلس اليهود البارزين. والمائة: تشكيلة من الجند أو الحرس.

(١) إنجيل يوحنا: ١٩. والقبر عندهم غرفة واسعة تحت مستوى سطح الأرض، يدخلها النور والهواء، ويسد مدخلها بحجر.

(٢) إنجيل مرقس: ١٥.

وللوقت خرج دم وماء»[1]، ولا يصلح هذا دليلاً على موته، ولا على الإجهاز عليه. والأرجح أن تلك الطعنة اختبار معروفٌ للتأكّد من موت المصلوب، إذ أن غمز الخاصرة بحربة ينتج عنه ردّة فعل في الجسد المنتشر بسبب عمليّة الصلب، إذا كان المصلوب على قيد الحياة. واحتمال فشل ذلك الاختبار وارد لأكثر من سبب. ثم إنّه لا دليل على أن الطعنة كانت واسعة، أو ممّا يمكن أن يَقتل، رغم ذكر الدم والماء اللذين ذكرا بصورة عارضة ممّا لا يدلّ، على الأقلّ، على غزارة أو كثرة، وهو أمر طبيعيّ، ولا يرجّح كفّة كون المسيح ميتًا، ولا يسمح بالقول إن الطعنة قد أجهزت عليه.

يضاف إلى هذا احتمال أن يكون المتشدّدون الذين وراء عمليّة الصلب، إن كانوا قد حضروها، قد غادروا المكان لدى أوّل إشارة إلى موت يسوع، وذلك لينصرفوا إلى الاحتفالات بالفصح باعتبارهم القائمين عليها، والمستفيدين منها، وليفرضوا هيمنتهم التي طال شوقهم إلى فرضها بسبب تهديد المسيح لنفوذهم. حتى إنّهم لم يتذكّروا أو يذكروا أنّه كان قد قال: «سأقوم بعد ثلاثة أيام»[2] إلاّ بعد انقضاء العيد، فطلبوا من الوالي أو الحاكم وضع حراسة على القبر لئلاّ يَسرق تلاميذ يسوع جثّته، ويزعموا أنّه قد قام من الموت، كما كان قد قال، وهذا يعطي حظًّا أوفر للقول بنجاح تلاميذه أو تلميذه في إنقاذه.

ونقرأ في إنجيل يوحنّا: «وفي أوّل الأسبوع جاءت مريم المجدليّة إلى القبر باكرًا، والظلام باقٍ، فنظرت الحجرَ مرفوعًا عن القبر»[3]. فمنذ متى خرج المسيح من القبر؟ وهل أتاحت الظروف ليوسف الراميّ الحيلولة دون موته صلبًا كما أراد أعداؤه؟

تساؤل يفتح المجال لأكثر من إجابة، إحداها أن ذلك التلميذ قد عرف أن يسوع المصلوب لم يمت، بل هو في حالة وفاة أو غيبوبة[4]، فأسرع يشيع أنّه مات، ليتسنّى له أخذه وإسعافه، أو أنّه قد اكتشف أنّه لم يزل حيًّا عندما كان يُنزله عن الخشبة، أو يحمله إلى المدفن الكائن في مكان الصلب نفسه، فوضعه في المدفن، وأسعفه بما استطاع، ثم عاد تحت جنح الظلام، وحمله إلى مأمن.

---

(١) إنجيل يوحنا: ١٩.

(٢) إنجيل متى: ٢٧.

(٣) إنجيل يوحنا: ٢٠.

(٤) أو على الأقلّ أمّل أن يكون ذلك.

والإجابة الأخرى أن ذلك التلميذ قد أنزل ما ظنّه جثّة المسيح عن الصليب، وحملها إلى هذا القبر احترامًا وحبًّا وولاءً[1]، ثم تركها في القبر وانصرف. ولم يكن المسيح ميتًا، فاستفاق من غشيته قبل انقضاء الليل، واسترجع ما كان، وغادر المدفن إلى مأمن، ثم ظهر لبعض تلاميذه قبل أن يرفعه الله إليه.

وممّا يقوي هاتين الإجابتين أن النصّ القرآنيّ لا يقيّد الرفع بزمن معيّن، ولا بوضع معيّن، بل يعطينا فكرة عن أنّه قد تمّ بعد محاولة القتل، وذلك لما ذكره من أنّهم ما قتلوه يقينًا، وأنّه تعالى رافعه إليه ومُطهّره من الذين كفروا[2].

*

ثاب المجرمون إلى أنفسهم بعد هدوء تلك الزوبعة الخاطفة عشيّة السبت السابق للفصح، وما اكتنفها من ملابسات ليس أهونها شأنًا فوضى العيد، واسترجعوا الأحداث، فكان لكلّ فريق قناعة ووجهة نظر، وتداخل ذلك، وتشعّب لتشعُّب جزئيّات الموضوع وتضارُب ما يحتمله من وجوه، ولكنّهم جميعًا وجدوا أن الأمر لم يكن بالإحكام الذي أرادوا، وأنّه كان ثمّة احتمال، بل أكثر لنجاة يسوع، وإن لم يجدوا إلى الحقيقة سبيلاً. فما كان منهم، وقد اختفى عليه السلام، إلاّ أن كرّسوا فكرة موته صلبًا انتصارًا لحقدهم، وإنقاذًا لماء وجوههم.

وقد رأينا كيف أخذ مجمع نيقية بالرواية القائلة: إن المسيح قد صُلب حتى الموت، ثم قام من الأموات، وظهر بضع مرّات لبعض تلاميذه وجرت على يديه عدّة معجزات[3]، ثم رفعه الله

---

(١) وهو إجراء يقوم به عادة ذوو المصلوب بعد موته.

(٢) يقول عبد الوهاب النجار إن فريقًا من المسلمين يزعمون أن المسيح أنزل عن خشبة الصلب حيًّا، وذلك بتسهيل من الوالي بيلاطس الذي لم يكن مقتنعًا بقتله، فاتفق وبعض تلاميذه على أن يتظاهر المسيح بالموت على الصليب، فيسمح لهم بإنزاله، ثم يخفونه فترة حتى يبرأ، ويخرجونه من البلاد سرًّا. ومن دون أن يناقش الأمر يقول إن هذا ليس بشيء.

وواضح أن ما وصلت إليه يوافق أصل الفكرة، ولكنه يخالف في أن الأمر تمّ بتسهيل من بيلاطس، وبالاتّفاق بينه وبين تلاميذ المسيح والمسيح نفسه.ويعلّق الأستاذ النجّارأما قوله: ولعل بعض الباحثين الغربيين قاله فنقلوه عنه [قصص الأنبياء ص ٤١٣]، فالرد عليه أنني حصدت نتائجي من مكافحة النص القرآني بذهن لا تكبله التوجيهات المسبقة، وأنني لست بغربية. ولعله رحمه الله كان يرضيه تدبّر توفيقي بين تلك النتائج وبين النص القرآنيّ، فيخفف حكمه القاسي على هذه الاستنتاجات.

(٣) إنجيل يوحنا: ٢١.

إليه. بينما جاء في النصّ القرآنيّ أن عيسى المسيح عليه السلام لم يمت، بل توفّاه الله ورفعه إليه، ﴿قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ٥٥: آل عمران.

إن ما سبق يقدّم أدلّة، من نصوص الأناجيل نفسها، على تفوّق الطرح القرآنيّ لقصّة عيسى عليه السلام ومنطقيّته: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ١٥٧ و١٥٨: النساء، **ويتلمّس الخيوط إلى أصول القصّة المموّهة، بقصد أو بغير قصد، ليكشف عن دلائل وحدة المصدر في التوراة والإنجيل والقرآن.**

إنّي متوفّيك ورافعك إليّ

يقصّ علينا القرآن العظيم من نبأ عيسى بعد ذلك ما يلي: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ٥٥: آل عمران، وتبدأ الآية بذكر الوفاة، والوفاة تكون في النوم والموت، حيث يَتوفّى الله الأنفس في الحالتين، أي يستعيدها استعادة كاملة. أمّا في حالة النوم، فيرسلها بعد فترة معيّنة لتعود إلى الحياة، وأمّا في حالة الموت فيمسكها ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ٤٢: الزمر. فأيّهما كانت وفاة عيسى عليه السلام؟

وبعد ذكر الوفاة ذَكرت الآية الرفعَ، وللرفع في القرآن الكريم أكثر من معنى، فهو يأتي بمعنى التطهير والإعلاء والتكريم، وهو الرفع المعنويّ. وهناك الرفع الحقيقيّ بالجسد[١]. ويمكن تفسير ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ١٥٨: النساء، بكليهما. فقد كانت نتيجة الرفع نجاة المسيح من الموت على أيدي هؤلاء، وفي تنجية الله له، عليه السلام، إكرام ورفع. وبهذا يكون قد نجا بجسده، ورُفع ذكرُه، وأُعليَ مقامه نتيجة لذلك.

وقد ذهبت بعض فرق النصارى هذا المذهب، وقال الرازيّ في تفسير الآية: «أمّا النسطوريّة[٢]، فقد زعموا أن المسيح صُلب من جهة ناسوته، لا من جهة لاهوته،

(١) وقيل إن من الرفع بالجسد رفع النبي ﷺ عندما خرج من بيته مهاجرًا وعيون قريش مبثوثة حوله ترصد المنافذ والدروب، ومنه الإسراء والمعراج، ومنه كذلك ما روي عن رفع سيدنا إدريس، ورفع جثمان سيدنا هارون بعد موته، ورأس سيدنا يحيى لما قُطع. وكل ذلك يمكن أن يقال فيه إنه من قبيل الرفع المعنويّ كما يصورونه، بمعنى أنه قد تمّ في برزخ اعتباري، أي في غير هذا الوجود الماديّ.

(٢) فرقة من فرق النصارى.

وأكثر الحكماء يرون ما يقرب من هذا القول»[1]. ولا مكان للجزم باحتمال دون آخر، وإنّما هو رأي تُحشد له الأدلّة بالطرق المنطقيّة العلميّة. ونحن، كمسلمين، نعتقد أن سيّدنا المسيح قد رفعه الله إليه، وأنّه لا يزال حيًّا[2].

لقد كان الجانب البشريّ في عيسى المسيح ضامرًا ضمورًا عجيبًا إلى درجة المعجزة بدءًا بحمله، ومرورًا بولادته، ونشأته المختلفة، وما جرى على يديه من معجزات، وبوفاته ورفعه المحيِّرين. فالذين زعموا أنّهم قتلوه وصلبوه جسدًا، ما قتلوا عيسى كلمةً، ولا صلبوه، بل رفعه الله إليه، فهو عنده حيّ أبدًا كسائر كلمات الله.أمّا على الأرض فقد أجهض المفسدون دعوته، واحتنكوا تلاميذه وحواريّيه، وشوّهوا ما احتفظ به المؤمنون من تعاليمه، ولكنّ الكلمة باقية، وسوف يسمعها بنو الإنسان من مكّة هذه المرّة، وبصوت محمّد ﷺ. ولن يُفلحوا في طمسها أبدًا.

وبعد، فإن في النصوص القرآنيّة تكريمًا لعيسى ﵇، وإثباتًا لمعجزة أكبر وأجلّ من أن يطعن فيها طاعن. ولئن كانت الأناجيل تقول: إن عيسى ﵇ قد قتل صلبًا، ثم قام، ثم رُفع إلى الله، فالذكر الحكيم يقول إنّه أعطي حياة لم يعطَها أحد من العالمين، ذلك أنّه النفس الوحيدة المستثناة من الناموس الكونيّ الحقّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾٥٧: العنكبوت.

والسلام عليه يوم ولد زكيًّا نقيًّا كما لا يولد البشر، والسلام عليه يوم يموت كما لا يموت البشر، والسلام عليه يوم يبعث إلى الحياة الأبديّة الخالدة.

ومبشّرًا برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ٦: الصف. والبشارة بمحمّد ﷺ وعلى رأس ما طُمس وعُمّي في الأناجيل من جرّاء مؤامرة صانعي التوراة من جهة، ومخرجي الكتاب المقدّس من جهة أخرى، تلك المؤامرة التي طالت ما نزل على

---

(١) وهو تفسير آخر يوفق بين القول بنفي الصلب، والقول بوقوعه.

(٢) وهذا القول مقابل للقول بالرفع المعنوي.

موسى وعيسى من الحقّ لمصلحة كبراء المفسدين في الأرض ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ ٧٩: البقرة. وهكذا بدت كلمات البشارة على لسان عيسى مبهمة، بل غير مصدَّقة حيث لم يأت ذلك المبشَّر به المجهول في زعمهم. ولكنّ مجرد ورود تلك البشارة المموّهة الوجه على لسان عيسى يعني أنّها تخصّ محمّدًا ﷺ، فلا نبيّ بينهما، ولا نبيّ بعد محمّد، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ما جاء في الأناجيل من أن عيسى عليه السلام هو المسيح المنتظر الذي بَشّر به يحيى، فهذا يُفضي إلى النتيجة نفسها، وهي أن بشارات عيسى المتكرّرة تخصّ محمّدًا ﷺ.

ولا بدّ أن نقدّم، للكلام عن بشارة عيسى بأحمد صلوات الله وسلامه عليهما بالكلام عن لقاء الأنبياء في عالم الأمر(١).

الروح هو مُجمل الكيان الاعتباريّ للإنسان، وللروح وجود مستقلّ قائم من قبل أن يكون في الجسد الطينيّ، ومستمرّ بعد أن ينتهي ذلك الجسد. وعندما يحلّ الروح في الجسد الطينيّ يكون قد انتقل من عالم الأمر إلى عالم الخلق، أي العالم الحسيّ. فإذا انتهى أمر الجسد، وفقد خاصيّة الحياة، عاد الروح إلى عالم الأمر مرّةً أخرى.

ورسول الله ﷺ في عالم الأمر «أحمد»، وعندما وُجد، ﷺ، كجسد، أي في العالم المادّيّ، سمّاه الله محمّدًا ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ١٤٤: آل عمران. وفي الحديث أن رسول الله أخبر أُبيّ بن كعب أنّه ذُكر باسمه ونسبه في الملأ الأعلى(٢). ولمّا كان عيسى متقدّمًا على رسول الله في الوجود، ذكره باسمه الذي عرفه به في عالم الأمر.

وفي عالم الأمر كان الإنسان بخَلقه المعجز شاهدًا على أن الله الحقَّ ربّه، أي أنّنا قبل خلقِنا المادّيّ هذا، كنّا خلقًا آخر معجزًا، يوجب أن يُعبَد خالقه، وأخَذ الله على هذا موثقنا. وهذا يعني أن العقل البشريّ في أصل تركيبه يرى وجوب العبوديّة للخالق، لما في خلق الإنسان نفسه

(١) انظر قصة موسى عليه السلام.

(٢) مجمع الزوائد ٩: ٣١٢.

من دلائل على ربوبيّة الخالق ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ ١٧٢: الأعراف، فالخلائق كلّها قالت: بلى، أي كانت شواهد بلسان الحال على ربوبيّته.

ومن النصوص التي تشير إلى عالم الأمر المغيَّب في المصادر غير الإسلاميّة ما نقرؤه على لسان المسيح «لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم»(١). و«قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»(٢)، و«أنا أصل وذرية داود»(٣). وفي تلك الأقوال، وفي كثير غيرها، يتحدّث المسيح عن كينونتين مختلفتين في عالمَين مختلفَين: فهو يقصد كينونته هو في عالم الأمر، وكينونتَي إبراهيم وداود في عالم الشهادة، فهو كان في عالم الأمر قبل أن يكون كلّ منهما في هذا الوجود الماديّ. وفي إنجيل برنابا قال الكاهن لعيسى عليه السلام: «مكتوب في كتاب موسى إن إلهنا سيرسل لنا مسيّا ليخبرنا بما يريد الله... هل أنت مسيّا الذي ننتظره؟»، ويجيب عيسى المسيح: «حقًّا إن الله وعد هكذا، ولكنني لست هو لأنه خُلق قبلي وسيأتي بعدي»(٤).

*

جمع الله الأنبياء في عالم الأمر قبل أن يُخلَقوا طينًا(٥)، وأخذ منهم جميعًا ميثاقًا على الإيمان برسول يُبعث في عالم الخلق بعدهم كلّهم مصدّقًا لما جاؤوا به، وعهدًا على نصرته ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ ٨١: آل عمران.

ونحن نقرأ في الكتب المقدّسة عن لقاء الأنبياء الثلاثة موسى وعيسى ومحمّد، وما يدعى اليوم بالكتاب المقدّس، بعهديه القديم والجديد، يعترف بأن الأنبياء يلتقون أحياءً وأمواتًا، وإن كان قد ذهب بلقائهم مذهبًا آخر، لما ناله من التحريف والتزييف. وليس ثمّة ما يمنع إمكان وقوع التقاءات في نقاط ما بين عالم الأمر وعالم الخلق أو الشهادة.

---

(١) إنجيل يوحنّا: ١٧.

(٢) إنجيل يوحنّا: ٨.

(٣) رؤيا يوحنّا: ٢٢.

(٤) إنجيل برنابا: ٩٦.

(٥) أي قبل أن يدخلوا مرحلة الوجود الماديّ.

وفي الأناجيل أن السيّد المسيح قد التقى بموسى وإيليّا في ظروف من اللاّمعقول، ولم يره معهما إلاّ ثلاثة من تلاميذه المقرّبين، وقد أوصاهم ﷺ ألاّ يُخبروا أحدًا بما رأوا[(١)]، وفي هذااستشراف بيّن لما في عالم الأمر. وليس ثمّة ما يمنع اعتبار لقاء موسى ﷺ بالعبد الصالح من هذا القبيل[(٢)]، وكذلك الأمر بالنسبة إلى واقعتي الإسراء والمعراج اللتين كانتا اختراقًا معجزًا لعالم الأمر، حيث الحقائق التي لا يحسّها إلاّ من أراد الله له أن يحسّها[(٣)]. والذين يتولّون الله الحقّ وحده تتكشّف لذواتهم الصافية جوانب من سنن الحقّ لا تتكشّف لسواهم. فهم بذلك ينفذون من أقطار العالم المادّيّ المعروف عبر نقاط معيّنة إلى عالم الأمر.

والكلام في هذا ينبغي أن يكون على جانب كبير من الدقّة، إذ لا يُهتدى بسهولة إلى التعبير عنه تعبيرًا يحول دون استغلاله من قبل أصحاب الفكر العجائبيّ المثير، الذين يجنحون إلى الأسطورة والخرافة.

قال عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ ١٥٧: الأعراف، ورغم أن ما بين أيدينا اليوم من التوراة والإناجيل قد طاله ما طاله من عبث مقصود وغير مقصود عبر الأجيال، فلم تزل هنالك بقايا لما كان فيها عن النبيّ الأميّ، ممّا يرتّب علينا أن ننطلق منه في البحث، وفي هذا هدًى، إن شاء الله، أيّ هدًى. وقد تحرّى العلماء في الكتابين هذه الإشارات، وكتبوا في ذلك ما نسأله أن يجزيهم عليه الجزاء الأوفى عن كلّ باحث عن الحقّ، في أيّ مظنّة للحقّ في هذه الدنيا.

* * *

---

(١) إنجيل لوقا: ٩.

(٢) انظر قصة موسى ﷺ.

(٣) وإرادة الله إرادة حق لها سننها الحقّ، ولكنه سنن لَمّا يكتشفه العقل الإنساني، وقد لا يكتشفه أبدًا. فما أوتي الإنسان من العلم، أي جنس العلم، أو العلم المطلق، ولن يؤتى إلاّ قليلاً، ذلك أن هذا العقل حكمًا دون المطلق، وأن المطلق المحيط هو الله الحق وحده.

الرسول النبيّ الأميّ في أناجيل النصارى

يقول العلاّمة محمّد رشيد رضا في تفسيره: «وأمّا الإنجيل في عرف القرآن فهو ما أوحاه الله إلى رسوله عيسى بن مريم عليه السلام من البشارة بالنبيّ الذي يقيم الشريعة والحكم والأحكام»[1]. ومن المعروف أن بني إسرائيل كانوا ينتظرون رسولاً من الله يخبرهم بما يريده الله من الناموس الذي نزل على موسى، فلما كان يحيى النبيّ عليه السلام ظنّوه ذلك المرسل، وكانوا في محاورتهم إيّاه يكادون يحملونه على القول بذلك حملاً، لشدّة شوقهم إلى ذلك المنتظَر، ولكنّه كان يُنكر ذلك بشدّة، فقد كان مثلَهم ينتظره.

وفي اللقاء اليتيم الذي تمّ بين يحيى وعيسى عليهما السلام، حين أقبل عيسى في المؤمنين من قومه ليعمّده ابن خالته يحيى في مياه الأردنّ، رأى فيه يحيى ما رأى من مخايل النبوّة التي لا تخفى على نبيّ، فسأله بدوره: هل أنت المنتظر؟

ولا تورد الأناجيل الردّ القاطع المقنع، ولا تذكر من الظرف ما يؤيّده، وفي حين يتوقّع القارئ إجابة من عيسى عليه السلام، يفاجأ بقول يحيى، أي السائل نفسه، إن عيسى هو المنتظر. ولكنّنا نعثر في إنجيل برنابا على ما وراء ذلك من قصد إلى طمس الحقيقة، فقد ذَكر أن كاهنًا قال لعيسى عليه السلام: «مكتوب في كتاب موسى إن إلهنا سيرسل لنا مسيّا ليخبرنا بما يريد الله... هل أنت مسيّا الذي ننتظره؟»، ويجيب عيسى المسيح: «حقًّا إن الله وعد هكذا، ولكنّني لست هو، لأنّه خلق قبلي، وسيأتي بعدي»[2]. وهي إشارة لا تحتمل التأويل إلى أنّه رسول الله محمّد صلى الله عليه وسلم.

وإلى هنا ينتهي دور يحيى في حياة المسيح عليهما السلام، وفي الأحداث، ثم نراه يُسجن، ثم يُقتل في سجنه، ويترك فراغًا يكون المناخ المثاليّ لتوهّج فكرة المسيح المنتظر. وتشِبّ الفكرة لمواتاة المناخ، ويُلبَسها عيسى عليه السلام ـ كرهًا كما يلوح لعقل وقلب القارئ المستبطن لنصوص الأناجيل المعتمَدة اليوم، وكما هو مقرَّر ومكرَّر ومؤكَّد في الإنجيل المدعو بإنجيل برنابا[3].

---

(١) نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية: إنجيل.

(٢) إنجيل برنابا: ٩٦.

(٣) ولا سبيل للباحث الموضوعيّ إلى منح هذا الإنجيل من الثقة أكثر مما يمنح الأناجيل الأخرى، فلئن=

ومن الإشارات إلى محمّد ﷺ قول المسيح عليه السلام: «لا تظنوا أني جئت لأبطل الشريعة وتعاليم الأنبياء، ما جئت لأبطل، بل لأكمل. الحقّ أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الشريعة حتى يتمّ كلّ شيء»[1]. ولا معنى لذلك إلاّ أن الشريعة الموسويّة التي يتكلّم عنها المسيح سوف يُنقَض شيء منها بما هو تامّ أو كلّي، وأن هذا لن يكون على يد المسيح عليه السلام، فقد حدّد مهمّته بأنّه جاء ليكمل، أمّا النقض فسوف يكون حين يتمّ كلّ شيء، أو حين يكون الكلّ، أي الشريعة الكاملة التي تشمل شريعة موسى.

وأمّا ما قد يدّعيه بعضهم من أن عبارة «إلى أن تزول السماء والأرض» تفيد أن نقض الشريعة سيكون بعد زوالهما فهو معنى محال ذلك أن الشريعة لهذا العالم، وأن نقضها في العالم الآخر لا معنى له، ومعنى هذه العبارة أدّته العبارة القرآنيّة ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ١٠٧: هود. وليس لهذا إلاّ تفسير واحد، وهو أن الشريعة التامّة، أو الكليّة التي كمّلت الناموس الذي نزل على موسى، وتمّ بها الدين، إنّما هي ما جاء به نبيّ بعد يحيى، وماجاء إلاّ عيسى، وقد نفى ذلك. فهو حصرًا محمّد ﷺ. ومعروف أن بني إسرائيل كانوا ينتظرون مسيًّا، أي رسولاً من الله يُخبرهم بما يريده الله من الناموس، أي يأتيهم من الشريعة بما يكمل ما جاء به موسى.

ويخلص المرء من متابعة كلمة «إيليّا» في الأناجيل الأربعة إلى أن مدلولها قد خضع إلى عدّة محاولات للتعمية عليه، فنراها في بعض النصوص تخصّ يوحنّا المعمدان، وفي بعضها تخصّ المسيح نفسه، وقد تُطلق على شخصيّة يتعذّر تحديدها، بسبب رداءة الترجمة من جهة، ولما وراء ذلك من قصد التعمية من جهة أخرى. وجملة هذه المعاظلات والتعميات تجعل الوصول إلى الاحتمال الأقوى

= كان استبعاده من قِبل مخرجي "الكتاب المقدس"، وقد عرفنا دوافعهم، نقطة في صالحه، فليس ثمة ما يضمن أن ما فيه من التبشير بمحمد ﷺ لم يكن إرضاءً للمسلمين، وذلك لما هو واضح، في نمطه الفكري، وقوالبه التعبيريّة، من البصمات العربيّة والإسلاميّة رغم ما قد يُحتجّ به من أنّها كانت ثقافة العصر أو البيئة لمن كتبوه أو لمن ترجموه. [انظر مقدمة إنجيل برنابا لمحمد رشيد رضا].

(١) وفي ترجمة أخرى "حتى يكون الكلّ" إنجيل متى: ٥.

أصعب، لكنّها لا تفلح في طمسه. وهذا الاحتمال هو أن إيليّا في إنجيل المسيح الذي ضيّعوه تعني رسول الله محمّدًا ﷺ.

ومن الكلمات الهاربة من السِفر الحقّ الذي كان، قولُ المسيح عليه السلام في موضع آخر: «ومتى جاء المعزّي الذي أُرسله إليكم من الآب، روحُ الحق المنبثقُ من الآب، فهو يشهد لي. وأنتم أيضًا ستشهدون، لأنكم من البدء معي»[1]، وقوله: «من الخير لكم أن أذهب، فإن كنت لا أذهب لا يجيئكم المعزّي»[2].

أمّا كلمة المعزّي، والتي تبدو ذات مدلول عبثيّ، فإن وراءها إشكاليّة يحلّها ما ذكره الشيخ عبد الوهاب النجّار في كتابه «قصص الأنبياء» تعليقًا على قول المسيح السابق ذِكره، والذي جاءت فيه كلمة الفارقليط بدلاً من كلمة المعزّي، من أنّه سأل المستشرق الإيطاليّ كارلو نلينو عن معنى «بيريكليتوس»، وهو الأصل اليونانيّ المعرّب لكلمة «فارقليط»، فأجابه: إن القسس يقولون: إن هذه الكلمة معناها المعزّي. وهي الكلمة التي اعتمدتها كلّ الترجمات المتأخّرة للأناجيل[3]. ثم اعترف بأن معناها الأصليّ هو «الذي له حمد كثير»، وهو يوافق أفعل التفضيل من الفعل «حَمِد»[4]. ويعلّق الشيخ عبد الوهاب النجار على الموقف بقوله: "وقد ازددت بذلك تثبُّتًا في معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ ٦: الصف»[5]. أمّا أنا فقد ازددت إيمانًا بأن أكابر المفسدين في الأرض ما زالوا، ولن يبرحوا يحرّفون الكلم من بعد مواضعه في كلّ عصر بلغته.

ولدينا في رؤيا يوحنا نصّ غنيّ بتلك الإشارات «ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرسٌ أبيض والجالس عليه يُدعى أمينًا صادقًا وبالعدل يحكم ويُحارب... والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزًا أبيض ونقيًا... ومن فمه

---

(١) إنجيل برنابا: ٩٦.

(٢) إنجيل يوحنا: ١٦.

(٣) يستعمل الرازي الكلمة نفسها، مما يدلّ على أن الترجمات الحديثة قد استبعدت تلك الكلمة لطمس دلالتها الواضحة على رسول الله ﷺ.

(٤) وهو كلام لا يدع مجالاً للشكّ في أن المعزي الموعود هو محمد ﷺ.

(٥) قصص الأنبياء ص ٣٨١.

يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم، ... وهو يدوس معصرة خمر»[1].

وفي هذا المقطع من الرؤيا إشارات واضحة الصلة برسول الله كالفرس الأبيض، الذي يقابل البُراق، ولقب الصادق الأمين، الذي عُرف به رسول الله ﷺ قبل بعثته، وجند السماء الذين يشاركون في المعارك على الخيول ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ٤ و٧: الفتح، ومشاركة الملائكة في بَدر. وأمّا الحُكم، فهو إشارة واضحة إلى النظام السياسيّ الذي تفرّد به الإسلام بين الأديان الثلاثة، ورسول الله هو صاحب السيف الذي فتح به البلاد، ليوصل نور الحقّ إلى الأمم. وهو وحده الذي أراق الخمر، وتنزّل عليه أمر الله بتحريمه.

يضاف إلى ما تقدّم انطباق ما جاء في أكثر من قول لعيسى على ما جاء في القرآن الكريم من صفة رسول الله وأفعاله ومواقفه، ففي إنجيل يوحنّا يقول عيسى عليه السلام عمّن تُرجم اسمه بالمعزّي: «ومتى جاء وبّخ العالم على الخطيئة والبرّ والدينونة...[2] فمتى جاء روح الحقّ أرشدكم إلى الحق كله[3]، لأنه لا يتكلّم بشيء من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بما سيحدث[4]. سيمجدني لأنه يأخذ كلامي ويقوله لكم[5]. وكل ما للآب هو لي، لذلك قلت لكم: يأخذ كلامي ويقوله لكم»[6].

ثم إنّه إذا كان عيسى عليه السلام المسيحَ المنتظر الذي بشّر به يحيى، فمن المنطقيّ أن بشارات عيسى المتكرّرة بمن دُعي بالمعزّي، وروحِ الحقّ ومستوجبِ الحمد، أي الفارقليط، تخصّ محمّدًا ﷺ، ذلك أنّه لا نبيّ بينهما، ولا نبيّ بعد محمّد ﷺ، وفي الحديث: «أنا أولى الناس بعيسى، الأنبياء أبناء علاّت، وليس بيني وبين عيسى نبيّ»[7].

---

(١) رؤيا يوحنّا: ١٩.

(٢) ويقابل توبيخ بني إسرائيل لمواقفهم، وهو كثير في القرآن الكريم.

(٣) إذ أن رسول الله ﷺ جاء بكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، وأرشد الناس إلى الحق كله. ويلتقي هذا بقوله: "حتى يكون الكل" في الإصحاح الخامس من إنجيل متى.

(٤) وفي القرآن العظيم: "وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى" ٣ و٤: النجم.

(٥) وتمجيد القرآن الكريم لعيسى والدعوة إلى الإيمان به معروف في سياق تمجيده للأنبياء جميعًا، ودعوته إلى الإيمان بهم، والأخذ بما جاؤوا به.

(٦) إنجيل يوحنا: ١٦.

(٧) صحيح مسلم: ٢٣٦٥.

الرسول النبيّ الأميّ في توراة اليهود

لا يريد اليهود نبيًّا بعد موسى، وقد حاربوا كلّ أنبيائهم الذين جاؤوا بعده، أو أجهضوا دعواتهم، وحوّروها، فجعلوا منهم ملوكًا وسحرة وقادة حربيّين، وحاربوا عيسى وشوّهوا ما جاء به، وجعلوا من دعوته والمؤمنين بها أتباعًا لهم، وجنّدوهم للنيل من دعوة محمّد، وكلّ ذلك ليبقى لهم ما أرادوا من كونهم شعب الله المختار الذي خُصَّ بما أنزل الله على البشر.

ولكنّنا، ورغم ما حاق بالتوراة من التشويه، نرى أن البشارات بالنبيّ الخاتم محمّد ﷺ فيها ليست أقل وضوحًا منها في الأناجيل، ففي سفر التثنية «أقبل الرب من سيناء وأشرق لهم من جبل سعير، وتجلّى من جبل فاران»(١). وهي إشارات إلى مواطن الرسالات السماويّة الثلاث: رسالة موسى في سيناء، ورسالة عيسى في فلسطين، ورسالة محمّد في فاران(٢).

ونقرأ في سفر أشعياء خطابًا موجّهًا إلى أورشليم: "رنّمي يا أورشليم، أيتها العاقر التي لا ولد لها... وطوّلي حبال خيامك، وثبتي أوتادها في الأرض... نسلك يرث الأمم ويعمر المدن الخراب"(٣)، والعاقر لقب لمكّة معروف في ذاكرة أدبيّات العصر، أمّا الترنّم، فللبشرى بمحمّد ﷺ. ويحفل هذا السفر بالإشارات التي تصل إلى حدّ التصريح، ومنها تلك البشارة على لسان يحيى المعرَّف بأنّه صوتٌ صارخٌ في البرّيّة:

«لأن الرب تكلمَ.
صوتُ قائلٍ: «إقرأ».
فقلت: «ماذا أقرأُ»(٤).

وتقول أيضًا:

---

(١) سفر التثنية: ٣٣.

(٢) انظر المحاولات لتجريد كلمة "فاران" من دلالتها تلك في قصتي إبراهيم وموسى عليهما السلام.

(٣) سفر أشعياء: ٤٥.

(٤) سفر أشعياء: ٤٠.

«من أنهض الوفيَّ من المشرقِ.
فلاقاه النصر في كل خطوةٍ؟
من هزم الشعوب أمامهُ
وأخضع الملوكَ لهُ»؟[١]
وتقول:
ها عبدي الذي أساندهُ،
والذي اخترته ورضيت بهِ!
جعلت روحي عليهِ،
فيأتي للأمم بالعدلِ.
لا يصيح ولا يرفع صوتهُ،
ولا يُسمَع في الشارع صراخهُ،
...
بأمانة يقضي بالعدلِ.
لا يَلوي[٢] ولا ينكسِرُ
حتى يقيم العدل في الأرضِ،
فشريعته رجاء الشعوبِ.
...
جعلتك عهدًا للشعوبِ
ونورًا لهداية الأمم[٣].

وفي الأناجيل أنها بشارة بالمسيح ﷺ، أمّا نحن فعلينا التبصّر فيها، وسوف نرى أنّها تعني، بما لا يدع مجالاً للشكِّ، محمّدًا ورسالته، وإن فنّدوا.

---

(١) سفر أشعياء: ٤١.
(٢) لعلّها لا يُلوى.
(٣) سفر أشعياء: ٤٢.

obeikandl.com

وهكذا نجد العديد من الإشارات التي نجت، لأسباب لا يتّسع المقام لذكرها، من الطمس المقصود، وهي إشارات إلى محمّد ﷺ ورسالته. ولو استطاع النصارى التخلّص من التأثير اليهوديّ لأدركوا أن موسى وعيسى عليهما السلام، ومحمّدًا ﷺ في طريق واحدة، وأن السلام الذي دعا المسيح به للأرض ما هو إلاّ فكر المسلمين وشريعتهم.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

الخــــاتمة

ما معنى أن يكون إنسان ما نبيًا يوحى إليه ؟

كيف تكون هنالك معجزات ؟ وماذا تعني المعجزة ؟

ما هذا الذي قيل عن خلق آدم ؟ وكيف سلِمت سفينة نوح ؟ وكيف يلقي إبراهيم النبيّ بزوجته وطفله في الفلاة وحيدين ؟ وكيف انفلق البحر لموسى ؟ وكيف يكون لله الحق شعبًا مختارًا ، وكيف يكون قوم موسى هذا الشعب رغم مثالبهم التي يحفل بها الذكر الحكيم وكتبُهم نفسها ؟ وكيف يرث هؤلاء الأرض المقدّسة ، بنصّ القرآن الكريم ، ثم نقول : إنها لنا ، وإنهم غاصبون ؟! وماذا عن السحر الذي ارتبط باسم سليمان ، وعن ناقة صالح ، وحوت يونس ، وحمار العزير ، وحمل مريم ، ومعجزات عيسى ؟

تساؤلات ما من صاحب عقل حيّ لم يحاول البحث عن إجابات لها فيما وراء قوله عزّ وجلّ : ﴿... إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، وقوله: ﴿... وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

كنت أعرف أن لهذه الكلمات بعدًا آخر ، وأن دونها برزخًا لم يحاول الكثيرون اقتحامه. ولم ينل يقيني أن هنالك الكثير مما يعجز العقل عن الإحاطة به ، من يقيني أن للتسليم قاعدة ينبغي أن نتوصّل إليها ، حتى لا نجد في أنفسنا حرجًا مما تقضي ، ونسلّم تسليمًا .

إن فهمنا لكون الدين منهجًا للحياة ينطلق من يقيننا أن الأنبياء والمرسلين بشر ، وأن سيّدهم ، وصاحب الرسالة الجامعة لرسالاتهم ، هو ابن امرأة من قُريش تأكل القديد ، وأن الأصل في رسالاتهم إيقاظ فطرة الإنسان القائمة على الحقّ ، وتفعيل عقله ليقوم

(١) البقرة: ٢٠.

(٢) البقرة: ٢١٦.

بدوره الاستعماريّ في الأرض . أما المعجزات والخوارق التي يقف العقل أمامها أصمّ أبكم ، فأمر جانبيّ ، مرتبط بمن يدعون ، لا بصلب مهمّتهم كرسل لله الحقّ إلى الناس .

ويبدو واضحًا لكل من يحاول الخوض في بحث يتعلّق بالأنبياء أنه، متى تجاوز دفّتي كتاب الله وصحيح سنّة رسوله، فقد أسلم سفينته إلى خضمّ هائل من التخريب والتزوير، صَنع للعالم ذاكرة يطمس فيها الزيف الحقيقة ، إلا ما رحم ربّي ، وسرعان ما يكتشف ما وراء هذ التخريب والتزوير من حاجات نفوس المفسدين في الأرض ، وأعداء الحق والحقيقة . وقد أخذت إنجازات العقل البشريّ من علوم واكتشافات ، تسلّط الضوء على تلك الأكاذيب العتيدة . ووعى المفسدون في الأرض الخطرَ الذي تشكّله عليهم تلك الإنجازات ، فقاموا يحتنكون أصحابها ، وينفثون سمومهم في نتائج أبحاثهم . ونحن ـ المسلمين ـ ينبغي أن يكون لنا دورنا ، كقائمين على الحقّ ، في تطهير العقول من هذا العبث ، ولعلّ الأجدر أن تكون البداية بأخبار واضعي أسس الحضارة الإنسانيّة : الأنبياء والمرسلين ، التي كان تزويرها مبدأ التزوير ومنطلقه .

لقد وجدتُ في حلقات «أحسن القصص» أن ثمة موالج أوسع بكثير مما كنت أتوقّع ، إلى العوالم الرفيعة لهؤلاء المصطفَين . ولم تعوزني الهمّة ، فقد كان البحث عن الحقيقة هاجسًا عنيف العسف ضاريه . وسرت على آثار صاحب القصص قصصًا ، فكانت الخطى تتطابق تارة ، وتتوازى أخرى ، وتتشعب بها الطريق ثالثة ، ولكن كان المنطلق واحدًا ، هو كتاب الله وسنّة رسوله ، والأداة واحدة هي نتاج العقول ، كل العقول الجادّة ، وكان كل أمر موضع بحث ونظر .

أما الهدف فتقديم القصص القرآنيّ في صورة أكثر نقاء ، وأكثر إخلاصًا لأصوله في القرآن وصحيح السنّة ، بطرح منطقيّ علميّ ، يتأدّى ، من العلوم المساعدة ، ما يمكّنه من العودة بهذا القصص من دائرة الخرافة والخارقة إلى دائرة الواقع ، بحيث لا تتقطّع دون ولوج عالمه الهمم ، ويتمّ تفعيل أهدافه في شؤون الحياة .

وقد كان «أحسن القصص» خطابًا لكل الناس، ولكنني، في إعدادي للبحث، ومعالجتي له، لم أستطع الحفاظ على هذه الميزة، ولم ألبث أن وجدته يقتصر على الشريحة الأكثر ثقافة، أو يكاد. وكانت إضافاتي وتعليقاتي روافد برّة بهذا العمل الطيب، وإضاءات لجوانب ذات صلة به، وبلورة لمسائل ممّا ألمح إليه، أو أثار حوله التساؤلات. فكان الباب الأوّل مصباحًا كاشفًا، يصل شعاعه إلى كل فكرة في الكتاب، وقد جمعت فيه معظم الأفكار والنتائج التي تمخّضت عنها معالجة موضوعاته، كالنبوّة والغيب والوحي والكتاب والمعجزة.

ومن النتائج التي يخلص إليها المطلع على هذا الباب أن النبوّة استعداد في النبيّ ووحي من الله، وأن الغيب أمر يتعلّق بالعقل، لا بحقيقة وجود الأشياء وحدوث الأمور، وأن للوحي أنواعًا، أرقاها ما تلقّاه الأنبياء، وأن المعجزة هي ما يُعجِز العقل واليد، لا ما يخرق أمر الله في الخلق، وكلمته التي سبقت فيه.

وفي هذا الباب أيضًا جمعتُ المتناثر من كلام صاحب القصص عن الإسرائيليّات، وأضفت ما وجدت ضرورة لإضافته، مما ينبغي للقارئ أن يقف عليه قبل توغله في أحداث القصص، وعلى رأس ذلك أن توراة اليهود كتاب مصنوع لهدفين رئيسين: إضفاء صبغة الأمّة على اليهود، وتمليكهم وطنًا، وأنه يجرف إلى البحر كل الوقائع والحقائق التي تعترض مصداقية هذين الهدفين، ويخلق من العدم، بإذن مفتوح، كل ما يكرسها ويصدّقها من أحداث. وأن هذا كان وراء ما نفثه اليهود في الكتابات الإسلاميّة، وفي ذاكرة العالم كلّه من أضاليل.

وفي هذا الباب أيضًا رصد في عجالات لأهمّ الأسباب المباشرة للتلوّث بالإسرائيليّات في الفكر الإسلاميّ، كتزوير النصوص، وكيد يهود المدينة، والملابسات التي اكتنفت حديث الأخذ، واختراعات الوعّاظ والقصّاصين والرواة، وإشارات إلى أهمّ مظاهره، كحركة الوضع والتحريف في الحديث الشريف، وغزو الإسرائيليّات لكتب التفسير، وظهور النمط الخرافيّ العجائبيّ في الفكر الإسلاميّ السائر.

أما الباب الثاني فقد خُصّت به القصّة القرآنيّة، من حيث طبيعتها القائمة على غائيّة العرض، وحقيقيّة الأحداث، وعدم الاحتفال بالتأريخ التوثيقيّ، وتضمّن عرضًا لأبرز أشكالها، وهي القصّة والرمز والمثل، وبيانًا لأهدافها التي حدّدها الذكر الحكيم، ولطبيعة التوظيف القرآنيّ لها.

وكان الباب الثالث عرضًا لمعظم القصص القرآنيّ، بحسب التسلسل الزمنيّ التقريبيّ، كما أقرّته معظم المصادر، ولم تخلُ واحدة من تلك القصص من التصدّي لإسرائيليّة أو أكثر، ومناقشتها، ومعارضتها بما يدحضها من الكتاب والسنّة، ومن توراة اليهود وأناجيل النصارى نفسها، ومن آخر ما توصّل إليه العقل الإنسانيّ، من العلم النظريّ والتطبيقيّ في كافّة الميادين، بدءًا بعلم اللغة، ومرورًا بعلم الآثار، وانتهاءًا بفيزياء الدقائق.

كما حفلت تلك القصص بمناقشات للكثير من القضايا والموضوعات موضع الجدل، ولا سيّما في قصص آدم ونوح وصالح وإبراهيم ويوسف وموسى وسليمان وعيسى عليهم السلام، ممّا لا يتّسع المجال لاستعراضه في هذه العجالة.

وإني لأسأل الله أن يعين هذا العملُ العقول الباحثة عن رؤية واضحة، وأن يكون زادًا لها في الطريق الطويلة إلى الله الحقّ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

فاطمة محمد شنون

الفهارس الفنية

١ ـ فهرس الآيات

٢ ـ فهرس الحديث

٣ ـ فهرس نصوص الكتاب المقدس

٤ ـ فهرس الأعلام

٥ ـ فهرس الفوائد والمسائل

٦ ـ فهرس المصادر والمراجع

٧ ـ فهرس المحتوى

obeikandl.com

obeikandl.com

١

فهرس الآيات

البقرة

٢/٥٥٥، ٣/٣١ و٢٨٦، ٥/٢٨٦، ١٧/٥٩، ٢٠/٢٢٧، ٣٠/٧٢ و٧٣ و ٨٠، ٣١/٧٨ ـ ٨٠، ٣٢/٧٨، ٣٣/٨٠، ٣٥/٨٥ و ٥٧٧، ٣٧/٨٨ و١٧٢، ٣٨/٨٧ ـ ٨٩، ٤٩/٣٨٨، ٥٤/٩٣ و ٤٥٥، ٥٥/٤٤٣ و ٤٤٤، ٥٧/٤٤٦ و ٤٤٧، ٦٠/٤٤٥، ٦١/٤٤٣، ٦٧/٤١١ و ٤٦٠ و ٤٦٣، ٦٨ و٦٩/٤٦٠، ٧٠/٤٦١ و ٤٦٢، ٧١/٤٦١ و ٤٦٢ و ٤٦٣، ٧٢ و ٧٣/٤٦٢ و ٤٦٣، ٧٤/ ٤٦٥، ٧٥/٦٣، ٧٦ و٧٧/٤٦٨، ٧٨/٤٦٨، ٨٥ /١٨٥، ٨٧/٤٨٥ و ٥٥٣، ٩٣/٤٥٣، ١٠٠/ ٤٤٨ و٤٨٦، ١٠١/٣٥٨، ١٠٢/٥٤٨ و ٥٥١، ١١٧/٢٣٥، ١٢٤/٢٠٥ و ٢٣١ و ٢٧٩ و ٢٨٢ و ٢٨٤، ٢٨٥ و٢٨٨، ١٢٥/٢٦٧ و٢٨٥، ١٢٦ /١٢٧، ٢٠٥/٢٥٧، ١٢٨/٢٧٩، ١٢٩/٢٧٩ و ٦٠٩، ١٣٠/٢٠٦ و ٦١٢، ١٣٢/٢٩٦، ١٣٣/ ٤١ و٢٩٦ و٣٥٨، ١٣٤/٤١، ١٣٦/٤١، ١٤٠ و ١٤١/٤١ و ٤٨٤، ١٤٣/٢٧٣، ١٥٣/٣٧٢، ١٥٥/٣٦٥ و٣٧٢، ١٥٦/٣٦٥ و ٣٤٦، ١٥٧ /٢٦٧ و٣٤٦، ١٨٦/٥٨٠ و ٥٩٠، ١٨٧/٢٠٨ ، ٢٠١/٣٢٧، ٢٠٥/١٨٤، ٢١٣/٢٥، ٢٢٨/ ٣٦٩، ٢٢٩/٢٠٨، ٢٣٧/٦١٤، ٢٤٣/١١٩، ٢٤٦/٤٩١ و٤٩٣ و٤٩٧، ٢٤٧/٤٩٢، ٢٤٨/ ٤٩٠ و ٤٩٣، ٢٤٩/٢٧٢ و ٤٩٤، ٢٥٠/٤٩٥، ٢٥١/٤٩٥ و ٤٩٦، ٢٥٣/٣٠٢، ٢٥٥/٤٦٢، ٢٥٨/٢٢٣ و ٢٢٤، ٢٥٩/٤١٦ و ٥٥٨، ٢٦٠/ ١٠٩ و ٢٠٧ و ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٤٣ و ٥٦ و٦١٠، ٢٦٦/١٧٣، ٢٧٢/ ١٣٨، ٢٨٥/٩ و ٢٨٢ و ٤٦٨، ٢٨٦/٣٧٢.

آل عمران

١٩/٦٣٩، ٢٦/٤٩٢، ٣٣/٧٧ و ٦٠١، ٣٥/ ٦٠١، ٣٦/٥٨٦ و ٦٠٢، ٣٦/٦١٧، ٣٧/٥٨٦ و ٥٨٧ و ٦٠٢ ـ ٦٠٤ و ٦٥٠، ٣٨/٥٨٧ و ٥٩٣ ، ٣٩/٥٨٨ و ٥٩٣ و ٥٩٧، ٤٠/٥٨٩، ٤٢/ ٤٧٦ و ٦٠٥ و ٦١٩، ٤٣/٦٠٦، ٤٥/٥٩٧ و ٦١٠ و ٦١١ و ٦٣٤، ٤٦/٦١١ و ٦١٢ و ٦٢٤، ٤٧/٥٨٩ و ٦١٠، ٤٩/٦٣٥ و ٦٤٥ و ٦٤٦، ٥٤/١٧٣ و ٦٦٦، ٥٥/٦٢٩ و ٦٧٢، ٥٩/٧٥ و ٦١٥، ٦٧/٢٧٩، ٦٨/٢٧٩ و ٢٨١، ٧١/٤٤، ٧٨/٤٤، ٧٩/٤٦٩، ٨١/٦٢٦ و ٦٧٥، ٩٥/ ٢٨٢، ٩٦/٢٦٦، ١٣٣/٥٠٠، ١٣٤/٥٠٠، ١٣٥/١٧٢ و ٤٠٧، ١٤٠/٥٠٢، ١٤١/٤٩١ و ٥٠٢، ١٤٤/٦٧٤، ١٤٦/٣٧٢ و ٤٩٥، ١٤٩ ـ ١٥١/٤٩٥، ١٥٢/٥٠٢، ١٥٥/٩٣، ١٥٩/ ٧٤ و ٤١١ و ٥٣٧ و ٦٥٣، ١٦١/٣٤٠، ١٦٤/٢٨٠، ١٦٩/٥٩٨، ١٧٣/٢٣٤ و ٢٣٥ و ٥١٠، ١٧٤/ ٢٣٥ و ٥١٠، ١٧٧/١٧٣، ١٧٨/٣٧٥، ١٧٩/ ٩٠ و ٥٠٢ و ٦٦٣، ١٨٦/١١٨ و ٦٤٣، ١٩٠/ ٥٥٠ و ٦٤١، ١٩١/٢١٤ و ٤٠٧ و ٦٤١.

النساء

١/ ٧٧، ١٩/ ٣٢٨، ٢٤/ ٣٨٧ و٤٢٣، ٣١/ ٨٦
٤٦،/ ٦٣، ٥٤/ ٢٨٢، ٦٤/ ٦٥٣، ٦٦/ ٢٧٣، ٦٩/
٩٦ و٦١٣، ٧٦/ ٩١، ٧٨/ ٤٢٨، ٧٩/ ٢٧٣، ٨٥/
٣٤٤، ٩٩/ ٩٣، ١١٠/ ٩٢، ١١٣/ ٤٧٩، ١٢٥/
٢٨٢، ١٣٥/ ٥١٥، ١٤٢/ ٦٦٢، ١٥٥/ ٦٤١،
١٥٦/ ٦٤ و ٦١١ و ٦٤١، ١٥٧/ ٦٤ و ٦١١ و
٦٢٩ و ٦٦٥ و ٦٦٦ و ٦٦٩ و ٦٧٢، ١٥٨/ ٤٣٨،
١٥٨/ ٦٧٢، ١٦٣/ ٣٣ و١٢٠ و٣٦٤، ١٦٤/ ١١٦
و٤٠٦، ١٦٥/ ٢٣، ١٧٢/ ٦٥٥، ٢٠٠/ ٤٩٥.

المائدة

٣/ ٤٥٣، ٢١/ ٤٤٠، ٢١ و ٢٢/ ٤٥٧ و ٤٨٨
، ٢٣/ ٤٥٨، ٢٤/ ٤٤٣ و٤٥٨، ٢٦/ ٤٥٩، ٢٧/
٦٠٣، ٣٠/ ٩٠، ٣١/ ٩٧، ٣٨/ ٤٣٤، ٣٩/
٥٧٨، ٤١/ ٦٣، ٤٨/ ٦٣٩، ٥١ و ٥٢/ ٦٤٣،
٥٢/ ٤٩٥ و٦٤٤، ٦٤/ ٤٥٨، ٦٧/ ٢٣، ٧٨/
٥١١، ١١١/ ٣٣، ١١٦/ ٥٩، ١١٢/ ٦٤٨، ١١٣
و١١٤/ ٦٤٩، ١١٥/ ٥٩١ و٦٥٠.

الأنعام

٢/ ٧٥، ٣٥/ ١٣٨ و٦٦٣، ٤٢/ ٣٥٢ و ٣٧٠،
٤٤/ ١٦٨ و ٣٨٢، ٤٥/ ١٩٨، ٥٢ و ٥٣/ ١٢٢،
٥٩/ ٣١، ٦٥/ ٥٥٤، ٧٤ ـ ٧٧/ ٢١٦، ٧٨/ ٢١٦
و ٤٧٦، ٧٩/ ٢١٧، ٨٠/ ٢٢٠، ٨١/ ٢٢١، ٨٢/
٥٧٩ و٥٨٠، ٨٣/ ٢٢٠ و ٢٢٤ و ٣١٧، ٨٤/
٢٠٩ و٣٦٤ و٣٦٦، ٨٥/ ٦٠٦ و٦١٢، ٨٩/ ٤٧٦،
١١٢/ ٩١، ١٢٥/ ٤١٠ و٤٢٦، ١٤١/ ١٤٩، ١٥١
ـ ١٥٣/ ٤٥٢، ١٥٩/ ٣٨٧، ١٦١ ـ ١٦٣/ ٢٨١،
١٦٤/ ١٨٠ و٣٤٤.

الأعراف

٣/ ١٨٠ و ١٨١، ١٢/ ٨٤ و ٧٥ و ٨٧، ١٣/
٨٧، ١٦/ ٩٤ و ١٢٩، ١٧/ ٩٤، ١٨/ ٩٥، ٢٢/
٨٧، ٢٣/ ٨٧ و ٨٨ و ١٥٤، ٢٧/ ٩١، ٢٩/ ٤٢٢
، ٣٢/ ٢٠٠، ٣٨/ ٦٤، ٥٤/ ٦٢٦، ٥٥/ ٥٨٨،
٥٨/ ١٢٦، ٥٩/ ١٢٦ و ١٣٦ و ١٧٦، ٦٠/ ١٢٦
و ١٧٦، ٦١/ ١٢٦، ٦٢/ ١٢٦ و ١٧٦، ٦٣/
١٢٦ و ١٢٩، ٦٤/ ١٥١، ٦٥/ ١٦٨ و ١٧٦، ٦٦
/ ١٦٥ و١٦٩ و١٧٦، ٦٨/ ١٧٦، ٦٩/ ١٦٨، ٧٠
/ ١٦٥ و ١٦٩، ٧١/ ١٦٦ و ١٦٩ و ١٧٦، ٧٣/
١٨١ و ١٩١ و ١٩٣، ٧٤/ ١٧٩، ٧٥ و ٧٦/
١٨٥ و ١٩٥، ٧٧/ ١٨٨ و ١٩٠، ٧٨/ ١٩٩، ٧٩
/ ٢٠١، ٨٢/ ٤٢٣، ٨٥/ ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٧٦ و
٣٨٠، ٨٦/ ٣٧٤، ٨٧/ ٣٧٦، ٨٨/ ٣٧٦، ٨٩/
٣٧٧، ٩١/ ٣٧٧، ٩٢/ ١٧٩، ٩٣/ ٣٧٩، ٩٧ و
٩٨/ ٣٨٢، ٩٩/ ٣٨٢، ١٠٠/ ٣٨٢، ١١١ و ١١٢
/ ٤٢٤، ١١٦/ ٤٢٥ و ٥٥١، ١٢٩/ ٤٢٨، ١٣٠
و ١٣١/ ٤٢٨، ١٣٢ و ١٣٣/ ٤٢٩، ١٣٧/ ٤٤٠،
١٣٨/ ٤٤٣ و ٤٤٤ و ٤٥٣ و ٤٦٠ و ٤٩١، ١٤٢
/ ٤٤٩، ١٤٣/ ٢٢٩ و ٤٠٨ و ٤٤٩ و ٤٥٠ و
٦١٠، ١٤٤/ ٤٠٢ و ٤٠٩ و ٤٥٠ و ٤٧١ و ٤٧٦
، ١٤٥/ ٤٤٠ و ٤٥٠، ١٤٦/ ١٢٩، ١٥٠/ ٤١٤،
١٥٢/ ٤٥٢، ١٥٥/ ٤٤٩، ١٥٦/ ٤٠، ١٥٧/ ٦١
و ٦٧٦، ١٦٠/ ٤٤٥، ١٦٧/ ٤٤ و ٤٦٦ و ٥١٢
و ٥٥٤، ١٧٦/ ٥٧، ١٧٥/ ٦٤، ١٧١/ ٤٥٧،

١٧٢/٤٧٩ و ٦٢٦ و ٦٧٥، ١٧٩/١٥١ و ١٨٧
و ٥٢٧، ١٨٥/٢١٤، ١٨٨/٣٩٢ و ٥٣١، ١٨٩
/ ٧٧ و ١١٩، ١٩٠/١١٩، ١٩٩/١٨٩، ٢٠٠/
٩٥ و ٣٢٧ و ٦٠٣، ٢٠١/٣٢٣، ٢٤٨/٥٢٣.

الأنفال

١٢/٣٣، ١٧/٢٢٠، ٢٦/٣٧٤، ٤٦/٣٧٢،
٦٠/٥٧١، ٦٦/٣٧٢، ٩٦/٥٧١.

التوبة

٢٨/٣٦٧، ٣٠/٥٦١ و ٥٦٣، ٣١/١٩١ و
٢٢٣، ٣٤/١٩١، ٣٤/١٩١ و ٤٩١ و ٦٤٠، ٤٠
/٦٢، ٤١/٥١٩، ٤٧/٦٤٣، ٧٥ ـ ٧٧/٦٥١،
١٠٠/٦٥٢، ١٠٢/١٨٣ و ٤٢٨، ١١٣/٢٠٤،
١١٤/٢١٣.

يونس

٥/٦٢٦، ٢٤/٣٧، ٥٨/٣٨٢، ٦٤/٣٠٢،
٧٤/١٥٩، ٨٣/١٨٣ و ٣٨٧، ٨٧/٤١٥، ٩٠/
٤٣٧ و ٤٣٨، ٩١/١٨٣ و ٤٣٨، ٩٢/٥٦٢، ٩٨
/٦٥ و ٥٧٥ و ٥٧٨، ١٠٣/٥٨٤، ١٠٧/٣٧٠.

هــود

٦/١٧٠، ١٢٠/٦١ و ٦٢ و ٦٤، ٢٦/١٣٣،
٢٧/١١٧ و ١٣٠ و ١٣٣، ٢٨/١٣٦، ٢٩/١٢٢
و ١٢٧ و ١٣٦، ٣٠/١٣٠، ٣١/١٢٢ و ١٣٠،
٣٢/١٢٨، ٣٣/١٢٢، ٣٤/١٢٩، ٣٦/١٣٧ و
١٣٨، ٣٧/١٢٧ و ١٣٣ و ١٤٢ و ٢٣٥، ٣٨/
١٣٣ و ١٤٢، ٣٩/١٣٣، ٤٠/١٢٧ و ١٣٩ و
١٤٤ و ١٤٥ و ٣٦٣، ٤٢/١٣٩ و ١٤٨، ٤٣/
١٤٨ و ١٤٩، ٤٥/١٣٦، ٤٦/١٤٨ و ١٤٩ و
٣٨٠، ٤٧/١٥٤، ٤٨/١٥٤ و ١٦٦، ٤٩/٦١ و
٣٨٣، ٥٠/١٦٠، ٥٢/١٧١ و ١٧٢، ٥٣/١٦٥
و ١٧٠، ٥٤/١٤٨ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٦٩، ٥٥/
١٦٦ و ١٦٩، ٥٦/١٦٥ و ١٦٩، ٥٧/١٦٦ و
١٦٩ و ١٧٠، ٥٨/١٧٥، ٥٩/١٦٧، ٦١/١٨١،
٦٢/١٨٠ و ١٨٥ و ١٨٨، ٦٣/١٨٩، ٦٤/١٩١
و ١٩٤، ٧٠/٢٥٠، ٧١/٢٥١ و ٢٩١، ٧٢/
٢٥١، ٧٣/٢٥١، ٧٥/٢٨٢، ٧٦/٢٥١، ٨٠/
٢٥٢، ٨١/٢٥٢، ٨٢/٢٥٣، ٨٣/٢٥٣، ٨٧/
٣٧٦، ٨٨/٣٧٥ و ٣٧٦، ٩١/٣٧٦، ٩٤ و ٩٥/
٣٧٩، ١٠٧/٦٢٩ و ٦٣٣ و ٦٧٨، ١١٧/١٨٣ و
٣٨٢ و ٥١٥ و ٥٤٨.

يوسف

٣/٢٩٧ و ٢٩٨، ٤/٢٩٩، ٥/٣٠٣، ٦/٣٠٧
و ٣٠٨ و ٤٧٧، ٧/٣٠٤، ٨/٣٤٣ و ٣٤٩، ٩/
٣٠٦ و ٣٠٧، ١٠/٣٠٥ و ٣٠٦، ١١/٣٠٤، ١٢
/٣٠٤ و ٣٠٥ و ٣٤٩، ١٣/٣٠٥، ١٥/٣٠٨ و
٣٠٩ و ٣٥٧، ١٨/٣٠٦ و ٣٤٦ و ٣٤٧، ١٩/
٣٠٤، ٢٠/٣٠٩، ٢١/٤٤ و ٣٠٣ و ٣١٠ و
٣٢٥ و ٤٢٧، ٢٣/٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٧، ٢٤/
١٥٨ و ٢٩٩ و ٣٠٢ و ٣١٥ و ٣١٧ و ٣١٨ و
٣٢٧، ٢٥/٣١٥ و ٣١٩، ٢٦/٣١٥ و ٣٢٠ و
٣٣٢، ٢٧/٣٢٠ و ٣٣٢، ٢٨/٣١١ و ٣٢٠، ٢٩
/٣٢٠ و ٣٢١ و ٣٢٢ و ٣٢٥، ٣٠/٣٢١، ٣١/
٣٢٢ و ٣٢٣، ٣٢/٣١٥ و ٣٢٣ و ٣٢٤، ٣٣/

obeikandl.com

٣٠٤ و ٣٢٥ و ٣٩١، ٣٢٧/٣٤، ٣٢١/٣٥ و
٣٢٨، ٣١٤/٣٦ و ٣٢٩، ٣٥٩/٤٠، ٣٠٢/٤١،
٣٣٠/٤٢، ٣٣٠/٤٣، ٣٣١/٤٤، ٣٣١/٤٥،
٣٣١/٤٦، ٤٧ ـ ٣٣١/٤٩، ٣٣١/٥٠، /٥١
٣١٥ و ٣١٧ و ٣٢٤ و ٣٣٢ و ٣٣٥، ٣٢٤/٥٢ و
٣٣٢، ١٢٣/٥٣ و ٣٢٤ و ٣٣٣، ٣٣٣/٥٤، ٥٥
٢١/ و ٣١٠ و ٣٣٠ و ٣٣٤، ٣٠٢/٥٦ و ٣١٤
و ٣٣٧ و ٣٥٥، ٣٣٧/٥٧، ٣٣٩/٥٩، ٣٣٩/٦٠،
٣٣٩/٦١ و ٣٤٩، ٣٤٠/٦٢، ٢٤٠/٦٣ و ٣٤٥،
٣٤٠/٦٤، ٣٤١/٦٥، ٣٤١/٦٦، ٣٤١/٦٧، ٦٨
٣٤١/، ٣٤٢/٦٩، ٣٤٢/٧٠، ٣٤٢/٧٣، /٧٦
٣٠٢ و ٣٤٢ و ٣٤٣، ٣٤٣/٧٧ و ٣٤٤، ٣١٤/٧٨
و ٣٤٤، ٣٤٤/٧٩، ٣٤٥/٨٠، ٣٤٥/٨١ و ٣٤٩،
٣٤٥/٨٢، ٣٤٦/٨٣ و ٣٤٨، ٣٤٦/٨٤ و ٣٤٨،
٣١١/٨٥ و ٣٤٩، ٣٤٨/٨٦، ٣٤٨/٨٧ و ٣٥٠،
٣٤٠/٨٨ و ٣٥١ و ٣٥٨، ٣٥١/٨٩، ٣١٤/٩٠ و
٣٥١ و ٣٥٥، ٣٥٢/٩١، ٣١٥/٩٢ و ٣٥٢، /٩٣
٣٥٣، ٣٤٩/٩٤ و ٣٥٥، ٣٤٩/٩٥، ٣٥٥/٩٦،
٣٥٦/٩٧، ٣٥٢/٩٨ و ٣٥٦، ٣٥٥/٩٩ و ٣٥٦،
٣٥٦/١٠٠ و ٣٥٧، ٢١٤/١٠٥، ٦٤٤/١١٠،
٦٣/١١١ و ٦٥ و ٣٦٨.

الرعد

٤١٨/٦، ٧٣/١٠، ٥٥١/١١، ٢٩٧/١٧.

إبراهيم

٤١٢/٤، ٣٧٢/٥، ١١٩/٧، ١٦١/٩، /١٤
٥٥٠، ٩١/٢٢، ٣٥٠/٣٤، ٢٥٦/٣٧ و ٢٥٧ و
٢٧٢، ٢٦٤/٣٩، ٥٩١/٤٠، ٢٠٤/٤١، /٩٠
٥٩٠.

الحجر

١٥٨/٩ و ٥٦٥، ٨٣/٢١، ١٧٣/٢٢، /٢٣
١٥٨، ٨٠/٢٩ و ٨٤، ٣٤ و ٨٧/٣٥، ٩٥/٤٢،
٩٣/٤٩، ٢٩٢/٥٣، ٢٩١/٥٤، ٦٨ و ٢٥٢/٦٩
، ٢٥٢/٧١، ٣٧٧/٧٣، ١٨٤/٨٠، ١٩٣/٨١،
١٩٩/٨٣، ٦٦٢/٩٤، ٦٢٧/٩٩.

النحل

٢٣٨/٤١، ٢٩٩/٤٨، ٣٣/٦٨، ٢٣١/٧٧،
٦٣٧/١٠٣، ٢٨١/١٢٠ و ٢٨٢، ٢٨١/١٢١ و
٢٨٢، ٢٨١/١٢٢ و ٢٨٢، ٢٦٢/١٢٣ و ٢٨١،
٣٧٩/١٢٧.

الإسراء

٢٩٩/١ و ٥٧٧، ١١٨/٣، ٤ ـ ٥٥٥/٦، /٧
٥٥٦، ٦٠٥/١٢، ١٧٠/١٥، ١٢٣/١٦، /٢٣
٤٥١، ٩١/٢٧، ٨٦/٣٢، ٥٠٤/٤٤، ٥٠٣/٥٥ و
٦١٣، ١٩١/٥٩ و ١٩٣، ٧٥/٦١ و ٨٩، ٨٩/٦٢
، ١١٩/٦٣، ٩٥/٦٤ و ١١٩، ١١٩/٦٧، /٧٠
١٨٦، ٦٢/٧٤، ٣٧/٨٥، ٣١/٩٠ و ٤٤٥، ٩١ و
٤٤٥/٩٢، ٢١/٩٣ و ٢٨ و ٣١ و ٤٤٥، /١٠١
٤٢٣، ٤١١/١٠٢، ٥٥٦/١٠٤، ٩١/١٢١.

الكهف

١٣٨/٦، ٢٢١/٦، ٣٧٩/٦ و ٥٧٦ و ٦٦٢،
٦٣٢/٢٢ و ٦٦٢، ٢٣ و ٥٠٨/٢٤، ٢٧/٢٩، /٦٠

٤٧٠، ٦٣ و ٦٤/ ٤٧٠، ٦٥/ ٤٧١ و ٤٧٢ و ٤٧٤ و ٤٧٨ و ٤٧٩، ٦٧/ ٤٧٣، ٧١/ ٤٧٢ و ٤٨٣، ٧٢ ـ ٧٥/ ٤٧٢، ٧٦ ـ ٧٨/ ٤٧٣، ٧٩/ ٤٧٤، ٨١ و ٨٢ / ٤٧٤، ٨٣/ ١١٩ و ٥٦٤ و ٥٦٦، ٨٦/ ٥٦٨، ٨٨ / ٥٦٨، ٩٠/ ٥٦٨، ٩٤/ ٥٦٦ و ٥٧٠، ٩٥/ ٥٦٦ و ٥٧٠، ٩٧/ ٥٧٢، ٩٨/ ٥٦٦ و ٥٧٢.

مريم

٤/ ٥٨٧، ٥ و ٦/ ٥٨٥ و ٥٨٧، ٧/ ٥٩٤، ٨/ ٥٨٩ و ٦١٠، ٩ و ١٠/ ٥٨٩، ١٢/ ٥١٨ و ٥٩٤ و ٥٩٦، ١٣ و ١٤/ ٥٩٤، ١٥/ ٦٢٩، ١٦/ ٦٠٨، ١٨/ ٦٠٩، ١٩/ ٥٨٨ و ٦٠٩ و ٦١٩، ٢٠/ ٦٠٩ و ٦١٤، ٢١/ ٦١٠، ٢٢/ ٦١٨، ٢٣/ ٢٥٢ و ٣٥٩ و ٦١٩، ٢٤/ ٦١٩ و ٦٢٠، ٢٥/ ١٨٠ و ٦٢٠ و ٦٢١، ٢٦/ ٦٢٠ و ٦٢١ و ٦٢٣ و ٦٢٤، ٢٧ و ٢٨/ ٦٢٣ و ٦٢٤، ٢٩/ ٦٢٤، ٣٠/ ٦٢٤ و ٦٢٥ و ٦٢٦ و ٦٢٧ و ٦٥٥، ٣١/ ٦٢٤ و ٦٢٦ و ٦٢٧، ٣٢/ ٦٢٤ و ٦٢٧ و ٦٢٨، ٣٣/ ٦١٩ و ٦٢٤ و ٦٢٩، ٣٥/ ٦٣٢، ٤١/ ٢٨٢، ٤٢/ ٢١٣ و ٢١٨، ٤٣/ ٢١٢ و ٢١٣، ٤٤ و ٤٨/ ٢١٣، ٤٥/ ٢١٣ و ٦١٠، ٤٦/ ٢١٣ و ٢٤٨، ٤٧/ ٢٠٤ و ٢١٢ و ٢١٣ ، ٥٢/ ٤٠٦، ٥٣/ ٤١١، ٥٤/ ٢٨٤، ٥٥/ ٢٨٥، ٥٦/ ١٠٠، ٥٧/ ١٠٠ و ١١٠ و ١١٢، ٥٩/ ١٢٩، ٩٧/ ٤٠٩.

طـه

١/ ١٦٦، ١٠/ ٤٠٤، ١١ و ١٣/ ٤٠٥، ١٢/ ٤٠٥ و ٤٠٦، ١٤/ ١٥٨ و ٤٠٦، ١٥ و ١٦/ ٤٠٨، ١٧ ـ ٢٠/ ٤٠٩، ١٩/ ٤٥٣، ٢١/ ٥٥١، ٢٢/ ٤١٠، ٢٥/ ٤١٠، ٢٦/ ٤١١، ٢٧ و ٢٨/ ٤١١، ٢٩ و ٣٢/ ٤١٥، ٩٩/ ٦١، ١١٣/ ٤١٣، ١١٨ و ١١٩/ ٨٥، ١٢٠/ ٧٦، ١٢١/ ١٢٩، ١٢٣ / ٨٩، ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦/ ١٥١، ٣٦/ ٤١٥، ٣٧ و ٣٨/ ٤١٦، ٣٩/ ٣٩٠ و ٣٩٣، ٤٠/ ٣٩٣ و ٤٠٣ و ٤١٦، ٤١/ ٢٠٧ و ٤١٦، ٤٣/ ٣٨٧ و ٤١٥ و ٤١٧، ٤٤/ ٣٨٥ و ٤١٧ و ٦٥٣، ٤٥ و ٤٦/ ٤١٨، ٤٧/ ٣٨٥ و ٤١٨، ٤٩/ ٤٢٠، ٥٠/ ٤٢٠، ٥١ و ٥٣ و ٥٤/ ٤٢١، ٥٢/ ١٩٠ و ٤٢١، ٥٥/ ٤٢١ و ٤٢٢، ٥٨/ ١٨٨ و ٣٨٦ و ٤٢٤، ٥٩/ ٤٢٤، ٦١/ ١٦٦ و ٤٢٥، ٦٢ ـ ٦٧/ ٤٢٥، ٦٩/ ٤٢٥ و ٤٢٦، ٦٦/ ٥٥١ و ٥٥٢، ٧٠/ ٤٢٦ ، ٧١ و ٧٢/ ٦٦، ٧٢ و ٧٣/ ٤٢٦، ٧٨/ ٤٣٨، ٨٣ و ٨٤/ ٤١٤ و ٤٥٤، ٨٥ و ٨٦/ ٤٥٤، ٩٠/ ٤٥٣، ٩٢ ـ ٩٤/ ٤٥٤، ٩٥ و ٩٦/ ٤٥٤، ٩٧/ ٤١٧ و ٤٥٥، ٩٨/ ٤٥٥ و ٦٣٢.

الأنبياء

٢٥/ ٢٣ و ٢٤ و ٩٧، ٣٠/ ٧٢ و ١٤٩، ٣٥/ ٥٦٠، ٥١/ ٢١٧ و ٢١٥ و ٢٨٢، ٥٥/ ٢١١، ٥٦ / ٢١١، ٥٧/ ٢١١، ٥٨/ ٢٣٢، ٥٩/ ٢١٨، ٦٠/ ٢١٨، ٦١/ ٢١٩ و ٢٣٢، ٦٢/ ٢١٩ و ٢٣٢، ٦٣ / ٢٩ و ٢٣٣، ٦٤/ ٢١٩ و ٢٣٣، ٦٥/ ٢١٩ و ٢٣٤، ٦٦/ ٢٣٤، ٦٧/ ٢٣٤، ٦٨/ ١٦٦ و ٢٠٧ و ٢٣٤، ٦٩/ ٣٥ و ٢٣٤ و ٢٣٥ و ٢٣٦، ٧١/ ١٥٨ و ٢٣٦ و ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٤١ و ٢٥٨ و ٢٦٠، ٧٢/ ٢٩٣ و ٦١٢، ٧٥/ ٢١٦، ٧٦ و ٧٧/ ١٣٤، ٧٧/ ١٣٥، ٧٨ و ٧٩/ ٥١٩، ٧٩/ ٢٩٩، ٨٠/ ٥٠٦، ٨١/ ٥٢٥، ٨٣/ ٣٦٤ و ٣٦٥ و ٣٦٦

و ٣٦٩ و ٥١٠، ٨٤/ ٣٦٤ و ٣٧٠ و ٥١٠، ٨٥/
١٠٠ و ٢٨٥، ٨٧/ ٣٠٨ و ٥١٠ و ٥٧٦ و ٥٨٠
و ٥٨١ و ٥٨٣، ٨٨/ ٥١٠، ٩١/ ٦٤ و ٦٠٥ و
٦١٣، ١٠٤/ ٤٢٢، ١٠٥/ ٤٤٠ و ٤٤٤، ١٠٧/
٢٧٣ و ٤٥٦ و ٤٧٩، ١٥٨/ ٢٧٢.

الحج

٢٦/ ٢٦٧، ٤٠/ ٥٤٧، ٤٦/ ١٥١، ٦٨/ ٦٦٢
، ٧٥/ ٤٧٦ و ٦٠٦، ٧٨/ ٢٧٣ و ٤٧٦ و ٦٣٩.

المؤمنون

٥/ ٦١٤، ١٠ و ١١/ ٤٠٨، ١٢/ ٧٥، ٢٤ و
٢٥/ ١٣٠، ٢٦/ ١٣٥، ٢٧/ ١٣٥ و ١٣٩، ٤١/
١٧٤، ٥٠/ ٦٠٥ و ٦١١ و ٦٣٥، ٧٣/ ٦٣٦،
١٠٠/ ٤٨١.

النور

١٢/ ٦٢٤، ١٧/ ٦٤، ٢٢/ ٣٥٦.

الفرقان

١٢/ ١٧٥، ٢٩/ ٩١، ٣٢/ ٦٢، ٣٥/ ٤١١،
٤٥/ ٣١٧، ٥٣/ ٤٨٢، ٦٨/ ٤٥١، ٧٣/ ١٥١،
٧٤/ ٥٩١.

الشعراء

١٢/ ٤١٤ و ٤١٥، ١٣/ ٤١١ و ٤١٤ و ٤١٥،
١٦/ ٤١٨ و ٤١٩ و ٤٢٠، ١٧/ ٤١٩، ١٨/ ١٢٧
و ٣٨٦ و ٤١١ و ٤١٩، ١٩/ ٣٨٦ و ٤١١ و ٤١٩،
٢٠ ـ ٢٨/ ٤٢٠، ٢٧/ ١٢٤، ٢٩/ ٣٨٦ و ٤٢٢
و ٤٢٧، ٣٠ و ٣١/ ٣٨٦ و ٤٢٢، ٣٢/ ٤٢٢، ٣٣
/ ٤٢٣، ٣٥/ ٣٨٦، ٣٦ ـ ٣٩/ ٣٨٩، ٣٨/ ٤٢٥،
٤٠/ ٤٢٥، ٥٢/ ٤٣٠، ٥٣/ ٤٣٤، ٥٤/ ٤٣٢ و
٤٣٣ و ٤٣٥، ٥٥ و ٥٦/ ٤٣٣ و ٤٣٥، ٥٩/
٤٤٠، ٦١/ ٤١ و ٤٣٦، ٦٢/ ٤٣٦، ٦٣/ ٣٧٨ و
٤٣٧، ٧٠/ ٢١٠، ٧١/ ٢١١، ٧٢ و ٧٣/ ٢١١،
٧٥ ـ ٧٧/ ٢١١، ٨٤/ ٥٩١، ٨٩/ ٤٩٢، ٩٤/
٣٨١، ٩٥/ ٩١، ١٠١/ ١٨٨، ١٠٥/ ٣٣ و ١٥٢،
١٠٦/ ١١٦، ١٠٩/ ١٢٧، ١١١ ـ ١١٣/ ١٢٤ و
١٣٠، ١١٦/ ١٢٥ و ١٣٤ و ١٥٤ و ١٦٥، ١١٧
و ١١٨ و ١٣٤/ ١٣١، ١١٩/ ١٣١ و ١٣٤ و
١٥٨، ١٢٠/ ١٣٤، ١٢٣/ ١٦٨، ١٢٨/ ١٦١ و
١٦٤ و ١٦٨، ١٢٩/ ١٦٤ و ١٦٨، ١٣٠/ ١٦٤
و ١٦٧ و ١٦٨، ١٣٢/ ١٦٥ و ١٦٨ و ١٧١،
١٣٣ و ١٣٤/ ١٦٤ و ١٦٨ و ١٧١، ١٣٧/ ١٦٥
و ١٦٩، ١٣٨/ ١٦٩، ١٤١/ ١٨٥، ١٤٧ و ١٤٨
/ ١٧٩، ١٤٩/ ١٧٩، ١٥١ و ١٥٢/ ١٨١، ١٥٣/
١٨٨ و ١٩٠، ١٥٤/ ١٩٠ و ١٩١ و ١٩٣، ١٥٥
/ ١٩١ و ١٩٣، ١٥٧/ ١٩٥، ١٦٧/ ١٦٦، ١٦٨
و ١٦٩/ ٢٥٢، ١٧٦ و ١٧٧/ ٣٨٠، ١٨٧/ ٣٨١،
١٨٩/ ٣٨١.

النمل

٩٣/ ٣٤، ٦٦/ ١٥١، ٤٩/ ١٦٦ و ١٨٨ و ١٩٧،
٤٨/ ١٨١ و ١٩٧، ٤٧/ ١٨٥ و ١٨٨ و ١٩٠، ٤٥/
١٨٥، ٧/ ١٩٠، ١٠/ ٤٠٩، ١٢/ ٤١٠، ١٣ و ١٤/
١٨٧، ١٦/ ٥٢٧ و ٥٢٩، ١٦ و ١٧/ ٥٣١، ١٧ و
١٨/ ٥٢٧، ١٩/ ٥٢٧ و ٥٢٨ و ٦١٢، ٢٠ ـ ٢٢/
٥٣٣، ٢٣/ ٥٢٣ و ٥٣٤، ٢٤ و ٢٥/ ٥٣٥، ٢٧

و٢٨/ ٥٣٥، ٢٩ و ٣١/ ٥٣٦، ٣٠/ ٥٣٦ و ٥٣٩، ٣٢ و ٣٣/ ٥٣٧، ٣٤/ ٥٣٨ و ٥٣٩، ٣٥ ـ ٣٧/ ٥٣٩، ٣٨ ـ ٤٠/ ٥٤٠ و ٥٤١، ٤٠/ ٢١٣ و ٤٤٧، ٤١/ ٥٤١ و ٥٤٣، ٤٢/ ٥٤١ و ٥٤٣ و ٥٤٤، ٤٣/ ٥٤٤، ٤٤/ ٥٤٥، ٥٠/ ١٩٨، ٥٦/ ٢٤٨، ٦٢/ ٣٠٨ و ٣٧٠ و ٤٢٩.

القصص

١ - ٣/ ٣٨٣، ٤/ ١٨٣ و ٣٨٦ و ٣٨٧، ٥/ ٤٤٠، ٧/ ٣٣ و ٣٨٩ و ٣٩٠ و ٣٩٤ و ٤١٣ و ٥٥٠، ٨/ ٣٩٠ و ٤٢٣، ٩/ ٣٩٠ و ٣٩١.

العنكبوت

٢/ ٦٦٣، ١٤/ ١١٧، ١٥/ ١٣٩، ١٨/ ١٣٨، ٢٤/ ٢٣٧، ٢٦/ ٢٣٩، ٢٥/ ٢٣٩، ٢٩/ ٢٤٨، ٣٢/ ٢٥١، ٣٨/ ١٦٩ و ١٧٨ و ١٨٨، ٣٩/ ٤٦٧، ٤٥/ ٤٠٧، ٤٦/ ٦٦٢، ٥٧/ ٦٧٣.

الروم

١ و ٢ و ٤/ ٦٤٢، ٣/ ٣٠٠ و ٦٤٢، ٤١/ ١٨٤، ٤٢/ ١٦٣.

لقمان

١٢/ ١١٩، ١٤/ ٦٢٧، ١٧/ ١١٨ و ٦٠٠، ٢٣/ ١٣٨، ٣١/ ٣٧٢.

السجدة

٧/ ٧٥، ٢١/ ١٧٠ و ٣١٣، ٢٣/ ٤٧٩ و ٤٨٠ و ٦٢٦.

الأحزاب

٧/ ١٢٠، ٣١/ ٣٢٢، ٣٥/ ٤٠٦، ٣٦/ ٥١٣، ٤٣/ ٣٦٤، ١٤٥/ ٤٥٦، ١٥٠/ ٤٥٤، ٧٢/ ٤٥٢.

سبأ

٣/ ١١٩ و ١٩١، ٧/ ١٤٨، ١٠/ ٥٠٣ و ٥٠٦، ١١/ ٥٠٦ و ٥٠٧، ١٢/ ٥٢٥ و ٥٢٦، ١٣/ ٣٦٥ و ٣٧٢ و ٥٢٤ و ٥٤١، ١٤/ ٥٤٦، ١٥/ ٥٣٤، ١٩/ ٥٤١، ٢٠/ ٩٥، ٢٤/ ٢٢١، ٢٨/ ٦١ و ٢٧٣.

فاطر

٢٤/ ١٢١، ٨/ ١٣٨ و ٢٢١ و ٣٧٩ و ٥٧٦ و ٦٦٢.

الصافات

٢٤/ ٥١٤، ٤٤/ ٣٦٦ ـ ٣٦٨، ٧٥ ـ ٨١/ ١٣٤، ٨٢/ ١٣٤، ٨٣/ ٢٨٤، ٨٤/ ٢١٧ و ٢٨٢، ٨٥/ ٢١٠، ٩٧/ ٢٣٣ و ٢٣٧، ٩٩/ ٢٠٧ و ٢٣٧ و ٢٣٩ و ٢٤٠، ١٠٠/ ٢٤٧ و ٢٧٦، ١٠١/ ٢٧٦، ١٠٢/ ٢٠٨ و ٢٧٣ و ٢٧٤ و ٢٧٦، ١٠٤ و ١٠٥/ ٢٧٤ و ٢٧٧، ١٠٦/ ٢٧٧، ١١٢/ ١٩١ و ٢٧٦، ١١٣/ ٢٧٦ و ٢٩٢، ١١٧ ـ ١٢٠/ ٤١٥، ١٢٣/ ١٠٠ و ١٠٥، ١٢٤/ ١٠٠، ١٢٥/ ١٠٠، ١٣٤ ـ ١٣٦/ ٢٥٣، ١٤٣/ ٥٨١، ١٤٤/ ٥٨١ و ٥٨٢، ١٤٧/ ٥٧٥، ١٧٣/ ٤٩٦.

ص

١٨/ ٥١ و ٥٠٣، ١٩/ ٥٠٣، ٢٠/ ٥٠٨، ٢١/ ٢٥، ٢٢/ ٥٠٩ و ٥١٣، ٢٣/ ٥٠٩ و ٥١٣، ٢٤/

obeikandi.com

٣٩٦ و ٥٠٩ و ٥١٣، ٢٥/٥٠٩، ٢٥/٥٢٣، ٢٦/٥١٠ و ٥١٥، ٣٠/٥١١ و ٥٢٠، ٣١/٥٢٠، ٣٢/٥٢٠ و ٥٢١، ٣٣ و ٣٤/٥٢٢، ٣٥/٣٣٦ و ٥٢٣، ٣٦ ـ ٣٨/٥٤٥، ٣٩/٥٢٦، ٤١/٣٦٤ و ٣٦٧ و ٣٦٩، ٤٢/٣٦٤ و ٣٦٧، ٤٣/٣٦٤، ٤٤/٣٦٢ و ٣٦٤ و ٣٦٥، ٤٥/١٥٢ و ٢٨٢ و ٢٩٣، ٤٧/٢٨٢، ٧١/٧٥ و ٨٠، ٧٢/٧٦ و ٨٠ و ٦١٤، ٧٣ و ٧٤/٨٣، ٨٢/٨٩ و ٣١٥، ٨٣/٣١٨.

الزمر

٣/١١٤، ٤٢/٦٧٢، ٥٣/٨٨ و ٩٣.

غافر

٧/٣٦٤، ٩/٣٦٤، ١٦/٥٨٨، ٢٤/٤٦٧، ٢٦/٢٤٨ و ٣٨٦ و ٤٢٣، ٢٨/٤٣٥، ٢٩/٣٨٧، ٣٤/٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٨٤، ٤٤/٥٠٩، ٤٥/٥١٠، ٦٠/٦٥٠، ٧٨/٢٧، ٨٣/٣٨١.

فصلت

١٢/٣٣ و ٣٥ و ١٣٧ و ٤٧٦، ١٣/١٧٤ و ١٩٩، ١٤/٨٨، ١٥/١٧٤ و ٣٨١ و ٤٦٦ و ٤٦٨، ١٦/١٧٣، ١٧/١٨٥، ٣٤ و ٣٥/٥٠٠، ٤٢/٦٦٢.

الشورى

٥/٧٩، ١٣/١٢٠، ١٤/٦٣٦، ٣٣/٣٧٢، ٣٨/٧٤، ٤٣/١١٨، ٤٩/١٢٨ و ٥٩٣.

الزخرف

٢٣/٣٨١، ٣١/١٢٦، ٣٦/٩١، ٥٢/٤١١.

الدخان

٢٣/٤١ و ٤٣٠، ٢٤/٤٣٨.

الأحقاف

١٥/٥٩١، ٢٠/١٢٢، ٢١/١٦١، ٢٤ و ٢٥/١٧٣، ٢٦/١٥٢ و ١٦٣ و ١٦٧ و ١٦٨، ٣٥/١١٨.

محمد

١١٠/٦٤٥ و ٦٤٦ و ٦٤٧، ١١٢ ـ ١١٥/٦٤٧، ١١٨/٦١١، ٣٨/٥٥٠.

الفتح

٤ و ٧/٦٨٠.

الحجرات

٦/٥٩، ١٧/١٣٨.

ق

١٨/٧٣ و ٣٩١ و ٤٥٢، ١٠/٣٩١، ١١/٥٧ و ٤٠٣، ١٢/٣٩٢، ١٣/٣٩٣، ١٤/٣٩٣، ١٥/٣٩٦ و ٣٩٧، ١٦/٣٩٦، ١٧/٣٩٦ و ٣٩٧، ١٩/٣٩٧، ٢٠/٣٩٨، ٢٢/٣٩٨، ٢٣/٣٩٨ و ٣٩٩، ٢٤/٤٠٠، ٢٥/٤٠٠، ٢٦/٤٠٢، ٢٧/٤٠٢ و ٤٠٣، ٢٩/٤٠٤، ٣٢/٣١٧ و ٤١٠ و ٤١٤ و ٤١٧، ٣٤/٤١٥، ٣٨/٣٨٧ و ٤١٧ و ٤٢٣ و ٤٦٦، ٦٣/٩١، ٦٨/٤٧٦، ٧٦/٣٨٢ و ٤٦٧ و ٤٦٩، ٧٧/٤٦٧ و ٤٦٩، ٧٨/٤٦٧ و ٤٦٩ و ٥٤٠، ٧٩ ـ ٨٢/٤٦٧ ـ ٤٦٩.

obeikandl.com

الذاريات

٢٤/٢٤٩ و ٢٥٠، ٢٥ ـ ٢٧/٢٥٠، ٢٩/٢٩٢، ٤١ و ٤٢/١٧٣، ٥٠/١٢١، ٥٨/١٢٥.

النجم

٣ و ٤/٦٨٠، ٨ و ٩ و ١٨/٩٦، ١١ و ١٧/٢٩٩، ٢٣/٥٤٩، ٣٢/٦١٤، ٣٧/٢٨٢، ٤٠ و ٤١/٣٧٢، ٥٠/١٦٣.

القمر

٩ ـ ١١/١٣٤، ١٢/١٣٤ و ١٤٤، ١٣/١٣٤ و١٣٩ و١٤٤، ١٧/٤٠٩، ١٩/١٧٣، ٢٠/١٧٤، ٢٥/١٨٨، ٢٧/١٩١ و ١٩٢ و ١٩٤، ٢٨/١٩٢، ٢٩/١٩٥ و ١٩٦، ٤٩/٢٠٦، ٥٠/٢٣١.

الرحمن

٢٠/٤٨١، ٢٣/٥٠٨، ٣٣/٢٣٦، ٤٦/٥٥٠.

الواقعة

١٠ـ١٢/٢٩٣، ٦١ و ٦٢/٤٢٢، ٧٣/٤٠٤.

المجادلة

١١/١١٠، ١٩/٩١.

الحشر

٩/٦٥٢، ١٤/٤٥٨، ١٦/٩١، ٢١/٤٠٨.

الصف

٦/٤٥٣ و ٦٣٨ و ٦٧٣ و ٦٧٩، ٨/٦٣١ و ٦٣٢، ١٤/٦٥١ و ٦٥٢.

الطلاق

٢/٤٦١.

التحريم

٦/٧٢ و ٨٧ و ١٨٣، ١١/٣٨٨ و ٦٠٥، ١٢/٦٠٥ و ٦١٣.

الملك

١٣/٧٣، ٥/٣٢٢.

القلم

١/٦٤٢.

الحاقة

٥/١٩٨، ٦/١٧٣ و ١٩٨، ٧/١٧٣ و ١٧٥، ٨ و ٩/٣٦٥، ٢٤/١٢٢.

المعارج

٢٩/٦١٤.

نـوح

١/١١٦ و ١٥٦، ٢/١٢١، ٣/١٢١، ٥ و ٦ و ٨ و ٩ و ١٤ ـ ٢٠/١٣٢، ٧/١٣٢ و ١٧١، ١١ و ١٢/١٣٢ و ١٧٢ و ٩٢، ١٣/٩٢ و ١٢١ و ١٣٢، ١٠/١٣٢ و ٩٢، ٢١ و ٢٢/١٣٢ و ١٣٥، ٢٣/١١٥ و ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٥، ٢٤/١٣٢ و ١٣٣ و ١٣٥ و ١٣٦، ٢٥/١٣٥ و ١٤٣ و ١٥٢ و ١٥٣، ٢٦ و ٢٧/١٣٥ و ١٥٣، ٢٨/١٣٦ و ١٥٤.

الجن

٨ و ٩/٣٦٥، ٢٦ و ٢٧/٢١٩.

obeikandi.com

المدثر
٣٨/ ١٢٩ .

القيامة
٤/ ٦٤٢ .

النبأ
٤٠/ ١٥٣ .

النازعات
١٣/ ٤٢٢، ٢٤/ ٨٤ و ٤١٧، ٧٩/ ٤٢٣ .

التكوير
٢٧ و ٢٨/ ١٣٨ .

البروج
١٦/ ٦٣٣، ٧٩/ ٦٧٤ .

الأعلى
٢ و ٣/ ٤٢٠ .

الغاشية
٧/ ٣٦٤، ٩/ ٣٦٤، ١٧/ ١٩٤، ١٨/ ١٩٤ و ٢٠٦، ١٩/ ١٩٤ و ٢٠٦، ٢٠/ ١٩٤، ٢١/ ٢٤ .

الشمس
١٤/ ١٩٣ و ١٩٥ و ١٩٦ .

الليل
١٢ و ١٣/ ١٣٩ .

الشرح
٤/ ١٠٥، ٧/ ٥٩٧ .

العاديات
١ ـ ٥/ ٥٢١ .

الفلق
٥/ ٣٤٣ .

٢
فهرس الحديث

طرف الحديث	صفحة
أُتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل ...	١١١
أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة .	٢٦٢
أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس ...	٤٠٨
ادع لنا ربك يجعل الصفا ذهبًا ...	٦٤١
إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل ...	٣٦٣
إذا أحب الله قومًا ابتلاهم .	٣٧٣
إذا بنى الرجل المسلم سبعة أو تسعة أذرع ...	١٩٩
إذا مات الإنسان انقطع عمله ...	٦٢٦
إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ...	٤٠٧
إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ...	٥٣٢
إذا وقعتم في الهم العظيم ...	٢٣٥
استوصوا بالنساء ...	٧٧.
أشقى الناس ثلاثة ...	٣٥٩
ألا أدلكم على دائكم ودوائكم ؟	١٣٣ و ٤١٨
ألا إن القوة الرمي ...	٥٧١
اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب .	١٨٦
اللهم رب السماوات السبع ...	٤١٨
... إلى من تكلني ...	٣٢٦
أما إنهم لا يعبدون شمسًا ولا حجرًا ...	٢٨٣
... أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة ؟	٥٢٤
أنا أولى الناس بابن مريم ...	٥٦٢
أنا أولى الناس بعيسى ...	٦٨٠

obeikandl.com

أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ... ٣١٩

أنا عند ظن عبدي بي ... ٤٠٧

إن الرجل لتكون له عند الله المنزلة ... ٣٤٨

إن الشيطان عرض لي ... ٥٢٧

إن العين تدمع ... ٣٤٧

إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ... ١٧٧

إن الله مع القاضي ما لم يجُر . ٥١٧

إن الله يبعث لهذه الأمة ... ٣٢٧

... أن تزني بحليلة جارك . ٣١٧

... أن رجلاً قال : والله لا يغفرن الله لفلان ... ٥٧٧

... أن رسول الله أخبر أبي بن كعب ... ٦٧٤

أن رسول الله مر بسعد وهو يتوضأ ... ١٥٠

أنزل على شيث خمسون صحيفة ... ٩٩

إن عبدًا أذنب ذنبًا فقال : رب أذنبت فاغفر لي ... ٩٣

... إنك ضعيف وإنها أمانة ... ٣٣٦

إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ... ٥٨٨

إن لله أهلين من الناس ... ٦٢٧

إن من البيان لسحرًا . ٥٥٢

إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها إلا الهم ... ٣٤٨

إن هذا القرآن نزل بحزن . ٣٤٧

أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ... ١٨٧

أيها الملك المسلط ... ٢٠٦ و٢١٩

البر ما اطمأنت إليه النفس ... ٢٣٠

بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان ... ٦٠٣

بلغوا عني ولو آية ... ٤٨

obeikandl.com

بينما رسول الله جالس ومعه أصحابه ...	٥٠٠
تخيروا لنطفكم ...	٣٣٥
ثلاثة لا ينفع معهن عمل ...	٦٢٨
جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا .	٤٤٤
... جم غفير .	٢٧
خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه .	٣٦٣
خيركم خيركم لأهله ...	٣٦٨
خير نساء العالمين مريم بنت عمران ...	٦٠٦
الخيل معقود بنواصيها الخير ...	٥٢١
دعوة أبي إبراهيم ...	٢٨٠
رآه بفؤاده مرتين .	٢٩٩
الرؤيا ثلاث ...	٣٠٢
الزبانية أسرع إلى فسقة القراء منهم إلى عبدة الأوثان .	١٧٨
سألت ربي عز وجل ألا يهلك أمتي ...	٣٧٨
سبحان الله، لا تطيقه ...	٣٢٧
سبعة يظلهم الله تعالى في ظله ...	٣١٦
سبقك بها عكاشة .	٢٩٣
سل الله العافية ...	٣٢٧
سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ...	٤٢٩
شجرة لا يسقط ورقها .	١٨٠
العاجز من أتبع نفسه هواها ...	٣٠٧
عجبت من أمر المؤمن ...	٤٤٧
العلماء هم ورثة الأنبياء .	٤٠٧
غير أن عافيتك أوسع لي ...	٣٩١
... فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة .	٦٤٩
... فاضربوهن ضربًا غير مبرح .	٣٦٨

obeikandl.com

فإن أكثرهم شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة . ١٢٢
... فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ... ٥٥٦
... فبطن الأرض خير من ظهرها . ٣٥٩
فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج ... ٥٦٩
... فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ... ٦٤٠
فوالله لأن يهدى بك رجل واحد ... ٦٢٧
... فيقال : إن في بني فلان رجلاً أمينًا . ٤٠٢
... قال : دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى . ٦٠٩
... قال للنبي : رأيت السد مثل البرد المحبر ... ٥٧٣
قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم ... ٤٣٨
القضاة ثلاثة ... ٥١٥
كان فيما أعطى الله موسى من الألواح ... ٤٥١
الكمأة من المن ... ٤٤٧
كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ... ١٢٢
كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء ... ٣٤٢
لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله ... ٤٠٧
لأنا لفتنة بعضكم أخوف عندي من فتنة الدجال ... ٤٩٠
لا تتمنوا لقاء العدو ... ٣٢٧
لا نبي بعدى . ٢٥
لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ... ٣٦٨
لا يدخل النار إلا شقي . ٩٣ و ٦٢٩
لا يزال البلاء بالمؤمن ... ٣٧٣
لا يسأل الرجل فيما ضرب امرأته . ٣٦٩
لا يصيب المرء المؤمن من نصب ... ٣٤٧
لا يفتح إنسان على نفسه باب مسألة ... ٣٥١

obeikandl.com

لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس ...	٥٧٥
... لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود .	٥٠٥
لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة ...	٣٠١
لم يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة ...	٤٠٧
... لم يدع بها رجل مسلم في شيء ...	٥٨٣
لم ينه رسول الله عن البكاء ...	٣٤٧
... لو أقر فرعون كما أقرت امرأته ...	٣٩٠
... لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .	١٤٩ و٣٨٠
لولا أن بني إسرائيل قالوا ...	٤٦١
لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ...	٦٥٢
لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ...	٦٠٨
ليأتين على القاضي العدل يوم القيامة ساعة ...	٥١٥
ليس للمسلم أن يذل نفسه ...	٤٢٩
ليس منا من تطير ...	٤٢٨
ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي .	٥٧٦
ما أرى ربك إلا يسارع في هواك .	٤٧٧
ما استخلف خليفة إلا له بطانتان ...	٣٣٣
ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده .	٢٨٩
ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه .	٣٩٠
ما ضرب رسول الله خادمًا له قط ...	٣٦٨
ما من أحد من الناس إلا وقد أخطأ ...	٣١٨
ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ ...	٥٩٤
ما من بني آدم مولود يولد ...	٦٠٢
مروا صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعًا ...	٢٨٦
من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ...	٦٣٢

من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورًا له .	٢٨٩
من بنى فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة بحمله على عاتقه .	١٩٩
من سعادة المرء الجار الصالح ...	٢٠٠
... من طال عمره وحسن عمله .	٣٥٨
من كظم غيظه ...	٣٥٢ و٥٠٠
من عال ثلاث بنات ...	٤٠٤
من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بي من نعمة فمنك ...	٥٤١
من قال : سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة ...	١٠٩
من قضى بالجور أو بالهوى هلك .	٥١٦
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه .	٢٤٩
من لزم الاستغفار جعل له من كل هم فرجًا ...	٩٢ و١٣٣
من وعك ليلة فصبر ...	٣٧٣
الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام .	١٨٦
... هذه امرأة بذيئة ...	٤٨٢
... وأخدم هاجر .	٢٤٥
... وإذا كثر الزنى كثر السباء ...	٤٩١
وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثًا .	٣٠٢
... والفرج يصدق ذلك أو يكذبه .	٦١٤
... وأن رجلاً من أهل بيتي يقتل .	٣٠١
وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني .	٩٢
ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها .	٢١٤
... وعجب من حسن دعاء عيسى لأمته ...	٦١١
يأتي أحدكم الشيطان في صلاته ...	٦٠٢
يا آدم، أربع احفظهن ...	٩٦
يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض .	١٥٨

٣

فهرس نصوص الكتاب المقدس

بحسب ورودها في العهدين القديم والجديد وإنجيل برنابا

العهد القديم:

سفر التكوين

٦ و ٧/ ١٥٥، ١٠/ ٢٠٣، ١٢/ ٢٤٣ و ٢٤٤ و ٢٤٥ و ٢٥٩ و ٢٨٧، ١٣/ ٢٠٨، ١٥/ ٢٣١، ١٦/ ٢٥٦ و ٢٧٥ و ٢٧٨، ١٧/ ٢٥٦ و ٢٦١ و ٢٧٦ و ٢٨٧، ١٩/ ٢٧٥، ٢١/ ٢٥٦ و ٢٦١، ٢١/ ٢٧٥، ٢٢/ ٢٧٥، ٢٤/ ٢٩٠، ٢٥/ ٢٩٠، ٢٧/ ٢٩٢، ٣٦/ ٢٩٦، ٤٥/ ٣٣٥ و ٣٥٤،

سفر الخروج

١/ ٢، ٣٨٤/ ٣٩٦، ٣/ ٤٣٠ و ٤٣٤، ٤/ ٤١١، ٥/ ٣٨٥، ٧/ ٤١٥، ١٢/ ٤٣٠، ١٣/ ٤٣٠ و ٤٣٥، ١٤/ ٤٣٠ و ٤٣٦ و ٤٣٩، ١٦/ ٤٤٢، ٣٢/ ٤٥٣.

سفر العدد

١٦/ ٤٤٢، ١٧/ ٣٦٠، ٢٠/ ٤٤٥.

سفر التثنية

١٤/ ٥١١، ٢٠/ ٤٤١، ٢١/ ٢٦١، ٣٣/ ٦٨١.

سفر يشوع

١/ ٤٨٨، ٤/ ٤٨٩، ٨/ ٤٨٩.

سفر صموئيل الثاني

٢٤/ ٥٢٩ و ٥٣٠.

سفر الملوك الأول

٥/ ٢٧١ و ٥٣٠، ٦ و ٧/ ٢٧١.

سفر أخبار الأيام الأول

٢٩/ ٢٧١.

سفر أخبار الأيام الثاني

٢ ـ ٥/ ٢٧١.

سفر أيوب

١/ ٣٦٥، ٢/ ٣٦٦.

سفر أشعياء

٤٠/ ٥١٢ و ٦٨١، ٤١ و ٤٢/ ٦٨٢، ٤٥/ ٦٨١.

سفر إرمياء

١٦/ ٥٥٤، ٥٠/ ٥٥٤.

سفر دانيال

٨/ ٥٦٦.

العهد الجديد:

إنجيل متى

١/ ٦٠٧، ٢/ ٦٣٤ و ٦٣٥، ٣/ ٥٩٧، ٥/ ٦٥٧ و ٦٦٠ و ٦٧٨ و ٦٨٠، ١٠/ ٦٥٥، ١١/ ٦٤٠، ١٣/ ٦٣٩ و ٦٥٦، ٢٧/ ٦٦٥ و ٦٦٨ و ٦٧٠.

obeikandl.com

إنجيل مرقس

٣/ ٦٦٠، ١١/ ٦٦٠، ١٢/ ٦٦١، ١٤/ ٦٥٥، ١٥/ ٦٦٤ و ٦٦٥ و ٦٦٨ و ٦٦٩.

إنجيل لوقا

١/ ٦١٩ و ٦٢٥ و ٦٥٧، ٢/ ٦١٨ و ٦٣٧، ٣/ ٦٠٧ و ٦٥٧، ٤/ ٦٠٧ و ٦٥٦، ٥/ ٦٥٨، ٨/ ٦٥٢، ٩/ ٧٦، ١١/ ٦٤٠ و ٦٦١، ١٢/ ٦٦١، ١٣/ ٦٦٢، ٢٣/ ٦٦٨.

إنجيل يوحنا

١/ ٦٣١ و ٦٥٧ و ٦٥٨، ٨/ ٤٨٢ و ٦٥٥ و ٦٦١ و ٦٧٥، ٩/ ٦٦٠، ١١/ ٦٦٠، ١٤/ ٦٥٦، ١٦/ ٦٧٩ و ٦٨٠، ١٧/ ٦٥٥ و ٦٧٥، ١٩/ ٥٦٣ و ٦٣١ و ٦٦٥ و ٦٦٨ ـ ٦٧٠، ٢٠/ ٦٣١ و ٦٥٨ و ٦٧٠، ٢١/ ٦٧١.

أعمال الرسل

٢/ ٦٥٦ و ٦٥٨ و ٦٥٩.

رؤيا يوحنا

٣/ ٦٥٦، ٥/ ٦٥٦، ١٩/ ٦٥٩ و ٦٨٠، ٢٢/ ٤٨٢ و ٦٧٥.

إنجيل برنابا

٩٦/ ٦٧٥ و ٦٧٩.

obeikandl.com

٤
فهرس الأعلام

الهمزة

آدم عليه السلام ٢٣، ٣٩، ٦٢، قصته: ٧١ - ٩٨. ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٦، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٤٣، ١٧٢، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٨٦، ٢٩٧، ٣١٩، ٢٥٩، ٣٦٢، ٤٧٩، ٤٩٨، ٥٧٥، ٥٧٧، ٦١١، ٦١٤، ٦١٥، ٦٢٦، ٦٣٣، ٦٦٧.

آزر ١٢٧، ٢٠٤، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٤٨.

آزر بن مهلائيل ١٠١.

آسية بنت مزاحم ٣٨٨.

آسية / القارة ٥٧٢.

الآشوريون ٢٦٦.

الآلوسي ١٠١، ٤٤٢.

إبراهيم / الخليل عليه السلام ٢٩، ٣٣، ٣٥، ٣٨، ٤١، ٤٢، ٤٧، ٥٣، ٦٢، ٩٩، ١٠٣، ١٢٧، ١٦١، قصته: ٢٠٢ - ٢٨٣. ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٢٩، ٣٣٥، ٣٥٨، ٣٦٢، ٣٦٩، ٣٩٤، ٤٠٢، ٤٢١، ٤٣٠، ٤٨٢، ٤٨٤، ٥٤٨، ٥٥٧، ٥٦١، ٥٧٦، ٥٩٤، ٦٠٦، ٦٠٩، ٦١٢، ٦١٣، ٦٢١، ٦٧٥.

إبراهيم بن محمد ﷺ ٢٤٢، ٣٤٧.

إبليس ٧٥، ٧٦، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ٨٦، ٨٧، ٨٩ - ٩٥، ١٢٩، ٣٦٥، ٦٠٣، ٦٣٩، ٦٥٤.

ابن الأثير ١٧٤، ٢٥٩، ٤٤١.

ابن إسحاق ٢٣٧، ٥٥٣.

ابن تيمية ٣٤، ٥٥، ٨٤، ٣١٩، ٥٢٧، ٥٧٧.

ابن جرير ٥٤٢.

ابن حجر ٤٨، ٥٠٦.

ابن حبان ٩٩، ٢٠٦، ٢١٤، ٢١٩، ٢٨٥، ٣٠٢، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥١، ٥١٦، ٦٠٦، ٦٢٢.

ابن خلدون ٣٠٠.

ابن عباس ٣٦، ٥١، ٧٦، ١٢٣، ١٤٢، ١٧٢، ١٨٦، ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٩٩، ٢٥٨، ٢٦٦، ٤٢٤، ٤٢٨، ٤٤١، ٤٤٢، ٥٦١، ٥٧٣، ٥٧٨، ٦١٩، ٦٤١.

ابن عربي ١١٤.

ابن عساكر ٩٦.

ابن عطية ٤٤٢.

ابن العلقمي ٦٤٣.

ابن قتيبة ١١٠.

ابن كثير ٢٧، ٥١، ٧٤، ٧٩، ١١١، ١١٧، ١٦١، ١٧٢، ١٧٤، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٧ - ٢٧٩، ٣٢١، ٣٣٠، ٣٥٣، ٣٨٠، ٤٥٧، ٤٦١، ٥٢٦، ٥٥٩، ٥٦٢، ٥٩٠، ٥٩٧، ٦١٨.

ابن لهيعة ٢٤٦.

ابن ماجه ٢٤، ٧٧، ٩٢، ٩٣، ١٣٣، ١٧٢، ٣٠٤، ٣٠٧، ٣٣٥، ٣٤٧، ٣٦٣، ٣٦٨، ٤٠٧، ٦٢٧، ٦٢٩.

obeikandl.com

ابن مردويه ٢٣٥، ٤٥١ .
ابن مسعود ٢٧٥ .
ابن هشام ١٨٦، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥٩، ٣٠١ .
أبو بكر الصديق ٦٢، ٣٧٦، ٤٨٢، ٥٠٠، ٦٢٤ .
أبو الحكم بن هشام ١٨٦ .
أبو حنيفة ٤٦٩، ٦١٤ .
أبو حيان ٤٩، ١٤٣، ١٩٣، ٢٠٨، ٢٤٢، ٢٤٥، ٤٢٨، ٤٤٢، ٥١١، ٥٢٢، ٥٢٥، ٦٢٥، ٦٤٥ .
أبو داود ٣٦٩، ٤٠٤، ٥٠٠، ٥٢٤، ٥٤١ .
أبو ذر الغفاري ٣٨، ٨١، ٣٣٦، ٤٠٧ .
أبو رغال ٦٤٣ .
أبو سفيان بن حرب ١٢٢، ١٢٦، ٤٣٤، ٤٩٥، ٤٩٦ .
أبو طالب / عم النبي ٢٣٨ .
أبو عمرو بن العلاء ٢٧٦ .
أبو مسلم الأصفهاني ١٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٥، ٥٩٠، ٦١١، ٦٤٦ .
أبو موسى الأشعري ٥٠٥ .
أبو نعيم / الحافظ الأصفهاني ٤٥١ .
أبو هريرة ١٨٧، ٢٣٥، ٢٤٥، ٤٩٠ .
أبو اليمان المصري ٧٧ .
أبي بن كعب ٦٧٤ .
الأحباش ٢٧٢ .
أحد ٧٤، ٢٣٤، ٣٠١، ٤٩٥، ٥٠٢ .
الأحقاف ١٦١، ١٦٢ .
أحمد بن حنبل ٩٢، ١٥٠، ٢٠٠، ٢٣٠، ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٨٦، ٣٠١، ٣١٨، ٣٢٧، ٣٦٨، ٣٧٣، ٣٧٨، ٤٤٧، ٤٩٠، ٥٩٤، ٦٠٢، ٦٤٠، ٦٤٩، ٦٥٢ .
أحمد حسن الباقوري ٢٢٥ .
أحمد الكبيسي ١١ .
الأحناف ٣٨٧ .
إدريس / إلياس عليه السلام وهو أخنوخ ٢٩، ٣٨، ٨٥، ٩٨، قصته: ٩٩ - ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١٥٧، ٥٧٥، ٦١٢، ٦٧٢ .
أدوم ٢٩٠ .
أذربيجان ٥٦٤، ٥٧٣ .
إربل ٩٩، ١١٣ .
الأردن ٢٤٤، ٤٨٨، ٤٨٩، ٥٢٤، ٦٧٧ .
إرمياء ٥٥٤ .
أرمينية ٥٦٤، ٥٧٣ .
أريحا ٤٨٨، ٤٨٩ .
الأزهر ٤٦٤ .
الأسباط ٤١، ٢٦٥، ٢٩٥، ٤٨٤ .
إسحاق عليه السلام ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٣ - ٢٦٥، ٢٧١، ٢٧٥ - ٢٧٨، ٢٨٧، قصته: ٢٩١ - ٢٩٦، ٣٢٩، ٣٥٣، ٣٥٨، ٣٩٤، ٤٨٤، ٦١٢ .
إسرائيل / الكيان الصهيوني ٢٦٣، ٢٨٩، ٤٥٨، ٥٥٧، ٥٧١ .
إسرائيل / المملكة ٥٠١ .
الإسكندر المقدوني ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٩، ٥٧٢ .
الإسكندرية ٥٦٥ .
إسماعيل عليه السلام ٤١، ٥٣، ١٦١، ٢٤٢، ٢٤٥ - ٢٤٧، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦١ - ٢٦٨، ٢٧٠ -

obeikandl.com

٢٧٦، ٢٧٨، قصـــته : ٢٨٤ ـ ٢٩٠ . ٢٩٢، ٤٨٤،
٦١٣، ٦٢٠، ٦٢١ .
إشاع ٥٨٦، ٥٩١، ٦١٩ .
أشعياء ٥١٢، ٥٥٣، ٦٨١، ٦٨٢ .
أشود بن طالوت ٥٠٣ .
أصحاب الأيكة ٣٨٠، ٣٨١ .
الأصفهاني / الحسن بن عبد الله ٢٥٩ .
الأصمعي ٢٧٦، ٤٤٧ .
أغاثيمون ١١٠ .
الإغريق ١١٥، ٥١١ .
أفسوس ٦٥٥ .
أفغانستان، ٥٦٤ .
الألباني ١٩٩ .
الإلياذة ٥٢٨ .
إليصابات ٥٩١ .
أليفاز التيماني ٢٥٩ .
امـرأة العزيـز ٣١١، ٣١٤ ـ ٣١٧، ٣١٩ ـ ٣٢٤،
٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٣ .
امرأة فرعون / آسية ٣٣٣، ٦٠٦ .
أم جميل ٤٨٢ .
أم موسى / يوكابد ٣٣، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٤ .
الأموريون ٤٤١، ٤٨٩ .
آمون ٥٦٥ .
الأمويون / بنو أمية ١٢٣، ١٨٣ .
أمية بن خلف ١٢٦ .
أميركا ١٦٣، ١٨٠، ٥٥٢ .
أميركا الجنوبية ٢٧١ .
الأناضول ٥٦٨ .
أنس بن مالك ١١١، ١٣٣، ٤١٨ .
أنس الوجود ١٠٨ .
الأنصار ٦٥٢ .
أنوش بن شيث ١٠١ .
الأهرام ٥٤٤ .
أهل الصفة ٣٣٦ .
أور ١٠٣، ٢٠٣، ٢١٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٧، ٢٣٩،
٢٤٠، ٢٦٠ .
أورشليم ٥٢٩، ٦٣٧، ٦٥٦، ٦٨١ .
أوريا ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥٢٢ .
أوزوريس ١٠١، ١٠٥، ١٠٦ .
الأوس ١٢٠ .
إيران ١٥٥ .
إيليا ٦٧٦ ـ ٦٧٩ .
أيوب عليه السلام ١١٨، ٢٥٩، قصته : ٣٦٢ ـ ٣٧٣ .

الباء

بئر بلسان ٦٣٤ .
بئر سبع ٢٤٧، ٢٥٦، ٥٣٠ .
بابـل ٤٢، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٨، ١٥٦، ٢٠٣، ٢٣٠،
٢٥٨، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٦٧ .
بابليون ١٠٤ .
البابليون ٥٥٤ .
بادية الشام ٢٩٠ .
باراباس ٦٦٥ .
بارليف / خط ٥٥٧ .

بتعة ١٦١ .
البحر الأبيض المتوسط ١٥٦، ٢٣٠، ٢٧٢، ٢٩٢، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧١، ٥٢٤ .
البحر الأحمر ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٧، ٤٣٩ .
البحر الأسود ٥٧٠ .
بحر إيجة ٥٦٨ .
بحر قزوين ٥٧٠ .
البحر الميت ٢٥٣، ٥٢٤ .
بحيرة لوط ٢٥٣ .
البخاري ٢٥، ٤٨، ٧٧، ٩٣، ١٠٩، ١٥٨، ١٨٠، ١٨٦، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٨٩، ٢٩٣، ٣٠٢، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢٧، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٦٨، ٤٠٢، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٣٨، ٤٤٧، ٤٧٠، ٤٧٧، ٥٠٥، ٥٣٢، ٥٥٢، ٥٥٦، ٥٦٢، ٥٦٩، ٥٧٣، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٨٣، ٥٨٨، ٦٠٣، ٤١٤، ٦٢٧ .
بختنصر ٥٢٩، ٥٧٣ .
بدر ١٤٢، ١٤٧، ١٥٠، ٣٧٨، ٣٧٩، ٤٣٤، ٥٤٧، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٦٢، ٥٦٧، ٦٤٢، ٦٨٠ .
البراق ١١١ .
برانايتس / الأب ٤٣ .
البصرة ٢٠٢ .
بعلزبول ٦٦٠ .
بغداد ١٠٣، ٢٠٢، ٦٤٣ .
البقيع ٥٦٩ .
بكة ٢٥٨ .
بلفور ٣٩٣ .
بلخ ٥٦٥ .
البلخي ١١٨ .
بلعم بن باعوراء ٦٤ .
بلقيس / ملكة سبأ ٣٦، ٣٧، ٤٧٦ .
بنو النضير ١٩٧، ٢٨٩ .
بنيامين ٢٩٥، ٣١٤، ٣٨٨، ٣٤١، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥١ .
بوذا ٦٣٧ .
بولس ٦٦٧ .
البيت الحرام / بيت الله / الكعبة ١٨١، ٢٥٥ - ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٣ - ٢٧٢، ٢٨٥، ٢٧٦، ٥٥٢ .
بيت لحم ٦١٨، ٦٣٥، ٦١٩، ٦٣٦ .
بيت المقدس ٤٧، ٢٥٩، ٤٩٣، ٤٩٤، ٥٥٤، ٥٨٥، ٥٩٥، ٥٩٨، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦١٣، ٦٣٠، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٦٧ .
بيلاطس ٦٣٠، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٧، ٦٧١ .
البيهقي ١٣٣، ٤١٨ .

التاء

تارح ٢٠٤ .
تبعة ١٦١ .
التتار ٥٦٩ .
الترك ١٦٠ .
تركية ١٤١، ١٥٠، ٥٦٤ .
الترمذي ١٢٢، ١٨٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٣، ٣٩٠، ٤٧٣، ٥٨٣ .
تكسل ٤٣ .

توت عنخ آمون ٤٣٩ .
توشيهيكو إيزوتسو ٤٨٣ .
توفيق برو ٢٥٥ .
التيمن ٤٧، ٢٥٩ .

الثاء

ثمود ١١٦، ١٦١، ١٧٧ ـ ٢٠١، ٤٢٣.

الجيم

جابر بن عبد الله ٤٥٠ .
جارودي ٦٠٤، ٦١١، ٦١٦ .
جالوت، ٤٩١ ، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٨ .
جبريل ٣٣، ٢٠٧، ٢٣٢، ٢٤٤، ٢٥٦، ٣٦٣، ٣٦٩ ، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤٥٣ .
الجرجاني ٢٣ .
جرجيس ٥٧٥ .
جرهم ٢٧١، ٢٨٤ .
جزيرة العرب ٨٥، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١١٥، ١٢٦، ١٦١، ١٦٢، ٢٠٢، ٢٦٢، ٢٦٩، ٢٧٢، ٥٣٠، ٥٣٤، ٥٤٢، ٥٥٥ .
جعفر الصادق ٢٣٥ .
جلجامش ١٤٠، ١٤٦، ٥٨١ .
جواد علي ٢٥٩، ٢٩٠ .
الجودي ١٤٦، ١٥٠، ١٥٦ .

الحاء

حاجي خليفة ٨١، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨ .
حام بن نوح عليه السلام ١٠٤، ١٥٥، ١٦٠ .
الحبشة ١٠٦ .
الحثيون ٤٤١ .
الحجاز ٤١، ٤٧، ١٩٤، ٢٠٧، ٢٣٨، ٢٥٤ ـ ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٥ .
الحجر ١٧٨، ١٩٤، ١٩٧ .
الحديد / عصر ٥٠٣، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٢٦ .
حراء ٢١٤، ٤٤٩ .
حران / اران ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢١٤، ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٤ .
حسان بن ثابت ٦٣٢ .
الحسن بن علي ١٧٢ .
الحسن ٥٨٢ .
حضرموت ١٦٢ .
حمد الجاسر ١٦١ .
حمزة بن عبد المطلب ٤٢٩، ٣٠١، ٦٤٨ .
الحميريون ١٩٤ .
حنة / أم مريم ٥٨٥، ٦٠١، ٦٠٢ .
الحنابلة ٣٨٧ .
الحنيفية ٤١ .
حنين ١٢٣ .
الحواريون ٤١٥، ٥٩١، ٦١٢، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٥٠، ٦٥٢، ٦٦٢، ٦٦٤، ٦٧٣ .
حي بن يقظان ٣٢ .
حيي بن أخطب ٥١٢ .

الخاء

خالد بن الوليد ٤٩٠ .

obeikandl.com

خباب بن الأرت ١٨٦ .
خديجة بنت خويلد ٣٤٨، ٦٠٦ .
الخزرج ١٢٠ .
الخضر ٤٦٩ .
خلقدونية ٦٥٥ .
خليج السويس ٤٣٧ .
الخليج العربي ٢٥٠ .
الخليل / المدينة ٣٥٨، ٣٥٩ .
خيبر ٢٨٩ .

الدال

دارا / داريوس ٥٦٤ .
دالية أخت موسى ٣٨٨ .
دان ٥٣٠ .
دانيال ٥٦٦ .
داود عليه السلام ٤٢، ٤٩، ٢٦٣، ٣٧٧، ٣٩٦، ٤٨١، ٤٨٩، ٤٩٦، قصته : ٤٩٧ ـ ٥١٧. ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢٤، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٤٨، ٥٧٧، ٦٥٨، ٦٧٥ .
دبي ١١ .
الدجال ٤٩٠ .
دجلة ١٠٠، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٨ .
الدلتا ٣١٠، ٣٣٨، ٣٥٤، ٤٣٧ .
دمشق ٢٤١، ٢٥٨، ٣١٠ .
ديوسقوريدس ٢٩٠ .

الذال

ذو القرنين قصته : ٥٦٤ ـ ٥٧٣ .
ذو الكفل ٣٧٣، ٦١٣ .
ذو القعدة ٤٤٩ .

الراء

رابين ٣٤٩، ٣٥٠ .
راحيل ٢٩١، ٢٩٥، ٣٤٩، ٣٥١ .
الرازي ٧٥، ٧٦، ١٠٠، ١١٧، ١٦٣، ١٩٧، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٥، ٢٣٦، ٣٦٦، ٤٤٢، ٤٥٨، ٥٠٧، ٥٤٢، ٥٨٢، ٦١٩، ٦٢٥، ٦٤٦، ٦٧٢، ٦٧٩ .
الراشدون / الخلفاء ٣٣٦ .
الربع الخالي ١٦١، ١٦٢ .
رحمة ٣٦٨ .
رزائيل ١٤٣ .
رفقة ٢٩٠ ـ ٢٩٤ .
الروم ٢٧٢، ٢٩٢، ٢٩٦، ٣٦٢، ٥٩٥ .

الزاي

زبيبة ٥٣٤ .
الزجاج ٢٠٨ .
زردشت ٥٧٣ .
زكريا عليه السلام ٢٧٢، ٥٥٥، قصته : ٥٨٥ ـ ٥٩١ . ٦٠٣، ٦٠٥، ٦٠٧، ٦٠٩، ٦١٢، ٦١٣ .
الزمخشري ٣١٩، ٤٤٢، ٦٢٠ .
زمزم ٢٥٦، ٢٧١، ٦٢٠ .
زهير بن أبي سلمى ٨٥، ٢٧١ .
زياد بن أبيه ١٨٠ .
زيد بن الخطاب ٥١٤ .

السين

ساراي / سارة ٢٤٠، ٢٧٦ .

سارة ٥٣، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٨٧، ٢٩١ .

ساعير ٢٩٦، ٦٨١ .

سالومي ٥٩٩ .

سام بن نوح عليه السلام ١٥٥، ١٦٠ .

السامري ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥ .

السامريون ٤٨٧ .

الساميون ١٦٠ .

الساهرة ٤٢٢ .

سبأ ١٦٢، ٥٢٥، ٥٣٢، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥ .

السبئيون ٥٣٧ .

سد الصين العظيم ٥٧٠ .

سدوم ٢٤١، ٢٥١، ٥٥٤، ٥٥٨ .

السدي ٢٤٥ .

سعد بن أبي وقاص ١٢٢، ١٤٩، ٥١٢ .

سعيد بن المسيب ٤٧٤ .

سلام بن أبي الحقيق ١٩٧، ٢٨٩ .

سنان بن علوان ٢٤٤ .

سليمان عليه السلام ٣٦، ٢٦٣، ٢٧٠، ٣٣٦، ٣٧٧، ٤٧٦، ٤٩٨، ٥٠٣، ٥٠٨، قصته : ٥١٨ ـ ٥٥٢ . ٥٥٣، ٥٦٧، ٦١٢ .

سمعان بطرس ٦٥٨ .

سمعان بن يوسف النجار ٦٥٦ .

سورية ١٥٠ .

سيد قطب ٢٤، ٣٣، ١٠٥، ١٣٥، ٣٨٨، ٤١٩، ٤٤٢، ٤٥٥، ٤٦٦، ٤٨٠، ٥٢٦، ١٤٥، ١٥٢ .

سيناء ٢٤١، ٢٥٩، ٢٩٠، ٤٤٩، ٦٨.

السيوطي ١٠١، ٣٤٦، ٥٤٢ .

الشين

شاؤول ٤٩٢ .

الشافعي ٧٧، ٢٤٧ .

الشافعية ٣٨٧ .

الشام ٤١، ٤٣، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٨، ١٧٨، ١٨٢، ١٩٤، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٧، ٢٣٨، ٢٤٠ ـ ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٨ ـ ٢٦٥، ٢٧٢، ٢٧٩، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٢، ٣٣٨، ٣٦٠، ٣٧٣، ٣٧٤، ٤٣٦، ٤٤٢، ٤٥٦، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٩٧، ٥٠٣، ٥٥٥، ٥٩٥، ٥٩٨ .

الشرق الأوسط ٢٠٣ .

شرقي الأردن ٥٠٣ .

الشرقية ٣٣٧ .

شعيب عليه السلام ١٧٥، ٣٧٣، قصته : ٣٧٤ ـ ٣٨٢ . ٣٩٣، ٣٩٩، ٤٠٠ .

شكيم ٢٤١ .

شمسة ٥٣٤ .

شهر بن حوشب ٥٤٢ .

الشهرستاني ٤٦، ٢٦٢، ٢٦٥، ٤٦٣، ٥٧٣، ٦٣٨ .

شور ٢٨٧ .

شيبة بن ربيعة .

شيث ٣٨، ٨٥، ٩٧ ـ ١٠١، ٥٧٥ .

شيخ مدين ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤١٤ .

obeikandl.com

الصاد

الصابئة ١١٠ .
صادوق ٢٤٤ .
صالح عليه السلام ١١٦، ١٧٥، قصته : ١٧٧ - ٢٠١ . ٢٦٩، ٥٧٩ .
الصدوقيون ٤٠٨ .
صعيد مصر الأعلى ١٠٤، ١٠٨ .
صفية / أم المؤمنين ٥١٢ .
صلاح الدين الأيوبي ٤٩٣ .
الصليبيون ٤٩٣ .
صموئيل ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٧، ٥٠٢، ٥٢٩، ٥٣٠ .

الضاد

ضمياط ٣٣٧ .

الطاء

الطائف ١٦١، ٢١٤، ٣٢٦، ٥٧٤، ٥٨١ .
طاربو ٥٣٤ .
طالوت عليه السلام قصته : ٤٨٧ - ٤٩٦ . ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥١٩ .
الطبراني ١٧٨، ٣٥٩، ٦٤١ .
الطبري ٢٤٤، ٢٦٨، ٥٧٢، ٥٧٦، ٦٣٢ .
الطور / طور سيناء ٤١٧، ٤٤٨ .
طوى ٤٠٥ .

العين

عائشة / أم المؤمنين ٢٣٧، ٣٦٨، ٦٢٤، ٦٣٢ .
عاد ١١٦، ١٥٢، ١٦٠ - ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٩٢، ١٩٤، ٤٧٧، ٥٢٤ .
عاد ٤٢٣، ٤٦٦، ٤٦٨ .
عادل التل ١٥ .
عاشوراء ٤٣٨ .
عاصم بن عمر ٣٣٥ .
عالج ١٦٢ .
عالي ٤٩٧ .
عاي ٤٨٩ .
العباس بن عبد المطلب ٢٧٥، ٣٢٧، ٦٤٨ .
العباسيون ١٨٣ .
عباس محمود العقاد ٢٠٤، ٢٤٣ .
عبد السلام محمد بدوي ١٠٦ .
العبد الصالح ٢٩، ١١٨، ٤١٤، ٤٦٩ - ٤٧٥، ٤٧٧ - ٤٨١، ٤٨٣، ٥٠٨، ٥٧٧، ٥٩٦، ٦٧٦ .
عبد الوهاب النجار ١٤، ٢٨، ٣٤، ١٣٦، ١٤٤، ٢٣١، ٢٥٣، ٣٣٥، ٤٤٢، ٤٦٤، ٤٦٥، ٥٠٧، ٥٩٧، ٦٤٦، ٦٦٧، ٦٧١، ٦٧٩ .
العبرانيون ٤١٢ .
عتبة بن ربيعة ١٧٤، ٥٧٤ .
عثمان بن عفان ٢٩٩ .
العجم ٢٩٥ .
عداس ٥٧٤، ٥٧٥ .
العراق ٤١، ٨٥، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، ٥٧٠، ٦٣٥، ٦٤٣، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٦، ١٨٢، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٤، ٢٣٠، ٢٤١، ٢٤٨، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٧٢، ٢٧٩، ٢٩٢،

obeikandi.com

٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٤، ٣٤٩، ٣٥٤، ٤١٢، ٤٣٦،
٤٦٦، ٥٦٤ .
العرب العاربة ٢٠٢ .
عرفة ٢٧٤ .
العزيز ٧٥، ٤٦٣، قصته : ٥٥٣ ـ ٥٦٣ .
عكا ٢٩٦ .
عكاشة بن محصن ٢٩٣، ٢٩٤ .
علي بن أبي طالب ١٦٢، ٢٦٨، ٢٧٥، ٣٥٩، ٥١٢،
٥١٤ .
علي مبروك ٢٨ .
العماليق ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٤٤٢ .
عُمان ٣٧٧ .
عمران/ أبو موسى ع ٣٨٨، ٥٨٥، ٦٠١ .
عمر بن الخطاب ٨٩، ١٢٣، ١٧٢، ١٨٦، ٢٧٥،
٣٣٧، ٣٤٦، ٣٦٨، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٦٩، ٤٤٨،
٥١٤، ٥٨٠ .
عمر بن عبد العزيز ٣٣٣، ٣٥٨، ٣٥٩ .
عمرو بن امرئ القيس ٢٤٤ .
عمرو بن لحي الخزاعي ٢٥٥، ٢٦٢ .
عمورة ٢٤١، ٢٥١، ٥٥٤، ٥٥٨ .
عنترة ٣٥٢ .
عوج بن عنق ٥١ .
عوص ٢٥٩ .
عوف بن مالك ٣٠٢ .
عيسو بن إسحاق عليه السلام ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٢ ـ ٢٩٤،
٢٩٦، ٣٤٩، ٣٦٢ .
عيسى/ المسيح عليه السلام ٢٩، ٤٠، ٤٥، ٤٦، ٥٤، ٥٩،
٦٢، ٦٤، ٧٦، ١١٠ ـ ١١٢، ١١٧، ٢٠٣، ٢٤٤،
٢٦٣، ٢٦٧، ٣٧٧، ٢٨٠، ٣٩٠، ٤٥٣، ٤٧٦،
٤٨٢، ٥١٢، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٨٩ ـ ٥٩١،
٥٩٥، ٥٩٧، ٥٩٨، قصته : ٦٠١ ـ ٦٨٣ .
عين وردة ١٥٦ .

الغين

غار ثور ٦٢ .
غاغ وماغاغ ٥٦٩ .
غزة ٢٩٢ .

الفاء

الفارسي ٤٤٧ .
فارس / الإمبراطورية / المملكة / الفارسية ١٥٧،
٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٧٢،
فاطمة بنت محمد (صل) ١٤٩، ٣٨٠، ٦٠٦.
فخر الدين قباوة ٢٦٥ .
الفراء ٢٣ .
الفرات ١٠٠، ١٠٣، ١٥٦، ١٥٨، ٥٠٣، ٥٣٠ .
فراس السواح ١٤٠، ٤٣٢، ٤٨٨، ٤٨٩، ٥٠٨،
٥٢٩، ٥٣٤ .
الفرس ٥٥٥ .
فرعون ٢٩، ٦٦، ٨٤، ١٥٧، ١٨٣، ١٨٨، ٢٠٠،
٢٢٢، ٢٤٣ ـ ٢٤٥، ٢٦٤، ٣٢٨، ٣٥٤، ٣٥٥،
٣٨٣ ـ ٤٨٦، ٤٨٩، ٥٦٢ .
الفرما ٢٤٦ .
الفريسيون ٦٣٦، ٦٤٠، ٦٥٣، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢،
٦٦٤ .

الفضل بن العباس بن عبد المطلب ٣١٨ .
فلسطين ٢٩، ٤٢، ٤٣، ٦٤، ٩٩، ١٠٣، ١٥٧، ١٤٩، ١٩٨، ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٥ ـ ٢٤٧، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٧٢، ٢٧٥، ٢٨٧، ٢٩٥، ٣٠٤، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٥٥،٤٤٠، ٤٤٣، ٤٨٤، ٤٨٧، ٤٩٣، ٥٠٣، ٥٠٨، ٥٢٨، ٥٣٤، ٥٤٢، ٦٠٧، ٦٨١ .
الفلسطينيون ٤٥٨، ٤٨٩، ٤٩١، ٤٩٦، ٤٩٧، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٥٥ .
فيثاغوروث ٥٤٤ .

القاف

قابيل ٩٠، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ٣٠٧، ٦٥٤ .
قارون ٣٦٠، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٥٤٠ .
القاهرة ٣١٠ .
القبط ٤١، ٤١٢، ٤٣٠، ٤٣١ .
قتادة ٧٤ .
قدار ١٩٥ .
القدس ٩٨ .
القرطبي ١٠٠، ١١٠ .
قريش ١٢٢، ١٧٤، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٨٤، ٤٩٥، ٦٤١، ٦٧٢ .
القسطنطينية ٥٤٠ .
قمبيز بن كورش ٥٧٢ .
القوقاز ٥٧٠ .
قيصر ٥٣١ .
قينان بن أنوش ١٠١ .

الكاف

كارلو نالينو ٦٧٩ .
كورش ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٧٢ .
كسرى ٥٣١ .
كعب الأحبار ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٥٨ .
كعب بن الأشرف ١٩٧ .
الكعبة ٦٤٣ .
الكلبي ٢٣، ١٧٢ .
الكلدانيون ٢٧٠ .
كل إسرائيل / دولة ٤٩٨، ٥٢٩ .
كليتوس الحكيم ٥٦٦ .
الكنعانيون ٢٤١، ٢٤٢، ٢٦٦، ٤١٢، ٤٤١، ٤٨٧ .
كوثاء ٢٤٢، ٢٤٥ .
الكوفة ٢٠٢ .

اللام

لامك بن متوشالح ٥٧٩، ٦١٣ .
لاوي بن يعقوب عليه السلام ٣٨٤ .
لوط عليه السلام ١٧٥، ٢٠٨، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٦٠، ٣٦٢، ٤٢٣، ٥٧٩، ٦١٣ .
لوقا ٦٠٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٥، ٦٣٧، ٦٤٠، ٦٥٢، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٨، ٦٧٦ .
ليديا ٥٦٧ .

الميم

المؤتفكة ٢٤١، ٢٤٨، ٢٤٩ .
مؤمن آل فرعون ٢٩، ٣٩٨، ٤٣٥ .
ماء مدين ٣٩٨، ٣٩٩ .

ما بين النهرين ١١٥، ١٤٠، ١٥٧ .

ماروت ٥٤٧، ٥٤٨ .

مارية القبطية ٢٤٢ .

المالكية ٣٨٧ .

متوشالح ١١١، ١١٦ .

متّى ٥٩٧، ٦٠٧، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٦٠، ٦٦٥، ٦٦٨، ٦٧٨، ٦٨٠ .

المثنى بن حارثة الشيباني ٥١٢ .

المجوس ٥٩٤، ٦٣٤ .

محمد أحمد باشميل ٢٨٩ .

محمد الباقر ٦٠٦ .

محمد بن إسحاق ٦١٨ .

محمد بن عبد الله (صلى) ٢٨ ـ ٣١، ٣٣، ٣٨، ٤٣، ٤٥، ٤٧ ـ ٥٠، ٥١، ٥٥، ٦٠ ـ ٦٣، ٧٤، ٨١، ٩٢، ٩٦، ١١٠، ١١١، ١١٦، ١١٩، ١٢٠، ١٢٦، ١٤٢، ١٤٩، ١٦٣، ١٦٥، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٦، ١٩١، ٢٠٢ ٢٠٥، ٢٠٩، ٢٢١، ٢٤٩، ٢٦٠، ٢٥٧ ـ ٢٦٣، ٢٧٢، ٢٧٨، ٢٨٠ ـ ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠١ ـ ٣٠٤، ٣١٦ ـ ٣١٩، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧١، ٤٠٣، ٤٠٩، ٤٤٦، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٩٤ ـ ٤٩٦، ٥٢٦، ٥٣٧، ٥٤٢، ٥٤٩، ٥٧٧، ٥٩٠، ٥٩٧، ٦٠٩، ٦١١ ـ ٦١٣، ٦١٩، ٦٢٦، ٦٣٠، ٦٣٨، ٦٤٢ ـ ٦٤٤، ٦٧٣ ـ ٦٧٥، ٦٧٧ ـ ٦٧٩، ٦٨١ ـ ٦٨٣ .

محمد بهجت قبيسي ١٦٢، ٦٤٢ .

محمد بيومي مهران ١٤٣، ١٧٨، ١٩٤، ٢٠٣، ٢٤٣، ٢٥٨، ٢٧٧، ٢٨٤، ٤٣٠، ٤٤٠، ٤٤٦، ٤٦٣، ٥٢٦، ٦٦٦ .

محمد رشيد رضا ٢٢٥، ٦٦٦، ٦٧٧ .

محمد بن علي البار ٤٣ .

مدائن صالح عليه السلام ١٧٨ .

مدين / قبيلة ١١٦، ٣٧٤، ٣٧٩، ٣٨٠، ٤٠٣، ٤١٢، ٤١٤ .

مدين بن إبراهيم ٣٧٤ .

المدينة ٤١، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ١٧٨، ١٩٩، ٢٨٩، ٤٣٨، ٦٤٨ .

المراغي ٦٦٧ .

مرقس ٦٥٥، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٨، ٦٦٩ .

المريا ٢٧٥ .

مريم / أخت موسى ٣٨٨، ٣٩٣، ٤١٣ .

مريم بنت عمران / العذراء ٦٤، ٢٦٧، ٣٥٩، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٩٠ ـ ٥٩٢، ٦٠١ ـ ٦٨٣ .

مريم المجدلية ٦٧٠ .

المسجد الأقصى ٤٨١ .

المسجد الحرام ٤٨١ .

المسجد النبوي ٣٣٦ .

المسعودي ٢٥٥ .

مسلم بن الحجاج ١١١، ١٢٢، ١٢٣، ١٧٧، ٢٩٩، ٣٠١، ٣١٩، ٣٣٦، ٥٢١، ٥٧١، ٥٧٧، ٥٨٣، ٦٠٨، ٦١١، ٦٢٦، ٦٨٠ .

مصر ٢٩، ٤٠، ٩٩، ١٠٠، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٨، ٣٨٣ ـ ٥٣٠، ٤٨٦، ٥٦٥، ٥٧٢، ٦٠٧، ٦٣٤، ٦٣٥ .

obeikandi.com

مصرايم بن حام ١٠٤ .
المصريون ٤٢، ٢٤٣، ٣٤١، ٣٦٠، ٣٩٤، ٤١٢، ٤٢٣، ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٩، ٤٥٥، ٤٦٠، ٥٨٠ .
مصطفى البغا ٤٩ .
مصطفى محمود ٤٣، ٤٨٧، ٥١١ .
مطعم بن عدي ٣٢٦، ٦٤٨ .
معاوية بن أبي سفيان ١٢٣ .
المعتزلة ٢٣ .
المغرب العربي ٣٧٧ .
المغول ٥٧٠ .
مقدونية ٥٦٥ .
مكة ١٥٦، ١٧٣، ٢٠٣، ٢٣٣، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٩٢، ٣٢٦، ٣٥٢، ٤٨٢، ٦٧٣، ٦٨١ .
ممفيس ٣٣٧ .
مهلائيل بن قينان ١٠١ .
موسى ﷺ ٢٩، ٣٨، ٤٠ ـ ٤٢، ٤٥، ٦٢، ٦٥، ٨٤، ١١٢، ١١٨، ١٢٧، ١٤٢، ١٤٧، ١٦١، ١٦٧، ١٨٨، ٢٠٣، ٢٣٥، ٢٤١ ـ ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٨٧، ٣١٧، ٣٢٨، ٣٥٠، ٣٥٦، ٣٥٨ ـ ٣٦٠، ٣٧٧، قصته : ٣٨٣ ـ ٤٨٦ . ٤٨٧ ـ ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٥٠٨، ٥٢٠، ٥٥١، ٥٥٣، ٥٦٣، ٥٧٧، ٥٨٠، ٦١٠، ٦١٣، ٦٢٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٤١، ٦٤٤، ٦٦١، ٦٧٤ ـ ٦٧٨، ٦٨١، ٦٨٣ .
الموصل ٩٨، ١٠٠، ١١٣، ٥٧٥، ٥٧٩، ٥٨٤ .
ميدية / مادي ٥٦٧، ٥٦٨ .
ميكال ٣٦٣ .

النون

ناجازاكي ١٦٣ .
الناصرة ٢٩٦، ٦٣٧، ٦٤٤ .
نجد ١٦١، ٢٥٩ .
النسائي ١٤٩، ٣٨٠ .
نسيمة بنت إسماعيل ٢٩٢ .
نعيمة يوسف إبراهيم أسطة ١٣، ١٤ .
النقب ٢٥٩ .
نقولا الدمشقي ٢٥٨ .
النمرود ٢٠٣، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٣٦، ٣٧٨، ٤٢٩، ٤٦٦، ٤٦٨، ٥٥٨، ٥٦١، ٥٦٧ .
نوح ﷺ ٣٣، ٦٢، ٧٧، ٨٥، ٩٨، ١٠٦، قصته : ١١٣ ـ ١٥٩ . ١٦٠، ١٦٣، ١٦٨، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩، ٢٠٩، ٢١٨، ٢٢٥، ٣٦٤ .
نوذ / جبل ١٥٦ .
نوري السعيد ٦٤٣ .
نيقية ٤٠، ٤٥، ٤٦، ٢٦٣، ٢٨٨، ٦٥٥، ٦٦٧، ٦٧١ .
النيل ١٠٤، ٥٨٠، ٣١٠، ٣٣٧، ٣٥٤، ٣٥٩، ٤١٢، ٤٣٧، ٥٠٣ .
نينوى / قرية يونس ٦٥، ٨٥، ٩٨، ٩٩، ١٠٦، ١١٣، ٥٧٠، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٤ .

الهاء

هابيل ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ٦٥٤ .
هاجر ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧١ .

هاروت ٥٤٧، ٥٤٨ .
هــارون عليه السلام ٦٥، ٣٨٣، ٣٨٥، ٣٨٨، ٤١١، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٧، ٤١٩، ٤٢٦، ٤٣٥، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٦٣، ٤٨٨، ٤٩٠، ٦٧٢ .
هارون الرشيد ٢٤٩ .
هامان ٣٩٠، ٤٢٣، ٤٦٨ .
هرمس ١٠١، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠ .
الهكسوس ٢٤٤، ٣٥٦، ٣٦٠، ٣٨٤، ٤١٢، ٤٣٦ .
الهند ١٥٦، ١٥٧، ٥٣٠، ٥٦٤، ٦٣٧ .
هود عليه السلام ١١٦، قصته : ١٦٠ ـ ١٧٦ . ١٧٧، ١٩٢، ٢٠٢، ٢٦٩، ٥٧٩ .
هوليوود ٥٥ .
هوميروس ٥٢٨ .
هيرودس / هيرودوتس ٥٦٧ ـ ٥٦٩، ٥٩٥، ٦٣٤، ٦٣٥ .
هيرودس الصغير ٥٩٨، ٥٩٩ .
هيروديتا ٥٩٨، ٥٩٩ .
هيروشيما ١٦٣ .
هيكل سليمان عليه السلام ٢٧٠، ٢٧١، ٥٢٩، ٥٥٤، ٦٣٧، ٦٤٠، ٦٦٠ .

الواو

وادي القرى ١٧٨ .
الوادي المقدس ٣٨٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٥٨٠ .
وادي مكة ٥٣، ٢٣٨، ٢٥٥، ٢٦٤، ٢٨٤ .
وادي النيل ١٠٣، ١٠٧، ٢٠٢، ٢٠٦ .
الواقدي ١٦١ .
الوليد بن المغيرة ١٢٦ .
وهب بن منبه ٣٦٥، ٣٦٧ .
ويليام موير ٢٥٤، ٢٥٥ .

الياء

يأجوج ومأجوج ٥٦٦، ٥٦٩ .
يافث ١٥٥، ١٦٠ .
ياقوت الحموي ٥٦٨ .
يحيى / يوحنا المعمدان عليه السلام ٢٩، ٣١٨، ٥١٨، ٥٥٥، ٥٨٥، قصته : ٥٩٢ ـ ٦٠٠ . ٦١٢، ٦١٩، ٦٢٥، ٦٢٩، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٧٢، ٦٧٤، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٨١ .
يعقوب عليه السلام / إسرائيل ٤١، ٤٢، ٢٦٠، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٨٧، ٢٩٠، قصته : ٢٩١ ـ ٢٩٦ . ٣٠١، ٣٠٣ـ٣٠٦، ٣١٠، ٣٢٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٦ـ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٢، ٣٩٤، ٤٨٤، ٥٨٨، ٦٠١، ٦١٢ .
يعقوب بن يوسف النجار ٦٥٦ .
اليمن ١٥٧، ١٩٤، ٢٥٩، ٥٣٤، ٥٤٢ .
اليمانيون ٢٧٢ .
يهوذا / المملكة أو المدينة ٦١٩، ٣٥٦، ٤٩٨، ٥٢٩ .
يهوذا بن يعقوب عليه السلام ٦٠١ .
يهوذا بن يوسف النجار ٦٥٦ .
يوحنا ٤٢، ٤٨٢، ٥٦٣، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٨، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٥، ٦٦٨ ـ ٦٧١، ٦٧٥، ٦٧٩، ٦٨٠ .
يوسف عليه السلام ٢١، ٢٩، ٤٠، ٦٠، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٩١، ٢٩٥، قصته : ٢٩٧ ـ ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٦، ٣٨٣ .

٣٨٥، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٤، ٣٩٦، ٤٣١، ٤٧٠، ٤٩٩، ٥٨١، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩١، ٦٠٨ .
يوسف الرامي ٦٦٨ ـ ٦٧٠ .
يوسف النجار ٦٠٧، ٦١٧، ٦١٩، ٦٢٥، ٦٣٤، ٦٣٧، ٦٥٦، ٦٥٧ .
يوسي بن يوسف النجار ٦٥٦ .
يوشع بن نون / يشوع ٤٤١، ٤٧٠، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٧ .
يوغوسلافية ١٠٦ .
يوناثان بن طالوت ٤٩٩ .
يونس عليه السلام ٦٥، ٩٩، قصته : ٥٧٤ ـ ٥٨٤ . ٦١٣ .

obeikandl.com

5

فهرس المسائل والفوائد

الوثنية أم التوحيد ... بأيهما بدأ الإنسان ؟ ٢٤
الرؤية عن بعد بين القرآن والعلم التطبيقي ٣٦
ابن عباس المفترى عليه ٥١
العنف في توراة اليهود ٥٤
علم الآثار يخالف التاريخ التوراتي ولا يتعارض وروايات القرآن الكريم ٥٧
قصص الأنبياء ، وسيرة رسول الله ﷺ ٦٠
الشورى ومكانتها في الإسلام ٧٣ و ٥٣٧
سجود الملائكة لآدم عليه السلام ٧٩
التواصل باللغة المنطوقة ٨٢
الـ «أنا المهلكة» ٨٣
النهي بـ «لا تقربوا» في القرآن الكريم ٨٥
التوبة والمغفرة ٨٨
غواية الشيطان ... امتحان يفرضه كونك عاقلاً ٩٠
فضائل الاستغفار ٢٩ ـ ٩٤ و ١٧٢
لماذا تتكالب همزات الشياطين على القلوب المؤمنة ؟ ٩٤
طول الأعمار في الأولين ١٠١
تأصل الريادة في إنسان العراق ١٠٣ و ٢٠٢
عبادة التماثيل ١١٤
مغزى انقطاع الوحي ، وتمام الدين بالإسلام ١١٥
فلسفة الشكر ، وفضل الشاكرين ١١٩ و ٥٢٨ و ٥٤١
المسلمون شهداء على الناس ١٢٠
الطغاة والمستضعفون ١٢١ ـ ١٢٣ و ١٢٥ و ١٢٦
العجب آفة تتربص بالصالحين ١٢٨ و ١٣١ و ٣٢٧

هل يغوي الله الناس ؟	١٢٩
الاستغفار ... تجارب تطمئن بها القلوب	١٣٢و١٧٢
كيف يهلك الله الأطفال من قوم نوح بخطيئات آبائهم ؟	١٣٦
الحكمة في الدعوة إلى الله	١٣٨
سفينة نوح عليه السلام إعجاز تم بأعين الله ووحيه	١٤٠ ـ ١٤٣
فلسفة البسملة وفضائلها	١٤٥
الطوفان بين أدبيات ما بين النهرين وتوراة اليهود	١٤٧
الماء في الإسلام	١٤٩
عمى الأبصار وعمى القلوب التي في الصدور	١٥١
النار في قوله تعالى : «مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارًا ... »	١٥٢
هل عم الطوفان الأرض ؟	١٥٥
التعبير بصيغة المتكلم المفرد وبصيغة الجمع عن الذات الإلهية	١٥٨
النخلة ... حضور كريم في الكتاب والسنة وفي ذاكرة التاريخ	١٧٩
نسب الإمام في الإسلام	١٨١
المفسدون في الأرض	١٨٢
الفساد في الحكومات	١٨٣
التوصل إلى الهدى مشروط باستحبابه على العمى	١٨٦
الباحث عن الهدى مهتد حكمًا	١٨٩
مسؤولية المرء عن أفعاله	١٩٠
الاغتيال ومفهوم «الحرب خدعة»	١٩٧
ضابط التطاول في البناء في الإسلام	١٩٩
التأمل عتبة للتفكر في الآفاق وفي الأنفس	٢١٤
ثقل الدعوة ، والرعاية الربانية لرسول الله ﷺ	٢٢١
تداخل مفاهيم الألوهية والحكم والملك في فجر الحضارة الإنسانية	٢٢٣
وجه لمثال الطيور في قصة إبراهيم عليه السلام	٢٢٥ ـ ٢٣١
فضائل «حسبنا الله ونعم الوكيل»	٢٣٤

obeikandl.com

كيف تكون الفضائل رذائل عندما يشيع الباطل ؟	٢٤٨
الإسلام ودعوة إبراهيم	٢٤٩
المفسدون في الأرض يشيعون الشذوذ	٢٥٣
صلة إبراهيم بالحجاز بين الطمس والإثبات	٢٥٥ و ٢٥٨ـ٢٦٦
تاريخ الكعبة	٢٦٩ـ٢٧١
إبراهيم عليه السلام يقيم الدين في الحجاز	٢٧٩
ارتباط التعليم بالتزكية في الإسلام	٢٨٠
الصلاة والزكاة	٢٨٥
«عهد الله» بين توراة اليهود والكتاب المبين	٢٨٨
اليهود وذهب الأرض	٢٨٨
ظاهرة السبق في الفكر الإسلامي	٢٩٣
الرؤيا	٢٩٩ـ٣٠٣
يعقوب عليه السلام وجريمة أبنائه ... من المسؤول ؟	٣٠٦
الدعاء والفرج قرينان	٣٠٨
مفهوم اتخاذ الأسباب في الإسلام	٣١١ـ٣١٣
اسألوا الله العافية	٣٢٦
الناس أنماط	٣٣٥
هل يجوز طلب المنصب في الإسلام ؟	٣٣٦
الدنيا والآخرة ... لا تجتمعان في قلب المسلم ، لكنهما تجتمعان في حياته	٣٣٧
لا تجوز الشفاعة في الحدود	٣٤٤
لا يشهد غير المسلم على المسلم	٣٤٦
فضل الاسترجاع	٣٤٦
الحزن ومظاهره المحرمة	٣٤٧
خرافات وأساطير حول قميص يوسف عليه السلام	٣٥٣
المنصب الذي تقلده يوسف عليه السلام في مصر	٣٥٤
هل يجوز أن تدعو على نفسك بالموت ؟	٣٥٨

الذكر في الملأ الأعلى ٣٦٤
البر بالقسم ، وضرب الرجل زوجته ... درسان من قصة أيوب عليه السلام ٣٦٧ و ٣٦٨
ما بين الشكوى والتضرع ٣٧٠
الصبر والشكر ٣٧٢ و ٤٤٧
المعارضة في الإسلام ٣٧٧
سنة الله في الكون ... منطق وقواعد لا بد من الخضوع لها ٣٧٨
الشيع والأحزاب ٣٧٨
يذبحون أبناءكم ... ؟ ٣٨٩
دور الكلمة في الدارين ٣٩١
التجسس خلق في اليهود ٣٩٢
صورة من بلاغة القرآن العظيم : موسى عليه السلام وابنتا شيخ مدين ٤٠٣
الخلوة خلوص إلى فطرة الحق في الإنسان ٤٠٥
من أحكام الزواج في قصة موسى عليه السلام وشيخ مدين ٤٠٧
العربية الأم لغة مابين العراق والنيل في زمان موسى عليه السلام ٤١٢
عقدة لسان موسى عليه السلام ٤١٣
عالم الغيب ٤١٦
خطاب المؤمنين ٤١٨
توظيف القصة في القرآن لأغراض التنزيل ٤١٨
« ... كما بدأكم تعودون » ٤٢٢
ماذا وراء طلب موسى عليه السلام أن يحشر الناس ضحى ؟ ٤٢٤
السحر تخييل واسترهاب وكيد ٤٢٥
والله غالب على أمره ٤٢٧
كيف ينبغي للمسلم أن يواجه الحاكم الطاغية ؟ ٤٢٩
عدد الخارجين مع موسى عليه السلام : مبالغات وأوهام ٤٣١ ـ ٤٣٣
البحر الذي عبره موسى عليه السلام ومن معه ٤٣٧
يوم عاشوراء ٤٣٨

obeikandl.com

فرعون موسى عليه السلام ... أي الفراعنة كان ؟	٤٣٩
المدعوون ببني إسرائيل وإرث فرعون الغريق	٤٤١ ـ ٤٤٣
طلب الخوارق سبيل خاطئة إلى الإيمان	٤٤٤
كيف تكون التقوى مخرجًا ؟	٤٦١
سنة الله أن ينتصر للمظلوم الذي نفدت وسائله	٤٦٦
في عمق مدلولات الكلمات التالية : المختار ، المصطفى ، المجتبى ، الوكيل ، المأذون	٤٧٥ و ٦٠٦
العبد الصالح ... من يكون ؟ وكيف لقيه موسى عليه السلام	٤٧٨ ـ ٤٨٣
التاريخ التوراتي تسقطه الدراسات الحديثة للآثار	٤٨٧
البركة ومفهوم التبرك في الإسلام	٤٩٠ و ٥٠١
لماذا تغلب الفئة القليلة الصابرة ؟	٤٩٥
فضيلة كظم الغيظ	٥٠٠
الموسيقا والغناء بين الإباحة والتحريم	٥٠٤
« ... وألنا له الحديد »	٥٠٦ ـ ٥٠٨
دروس قرآنية في استمطار رحمة الله	٥٠٩
توراة اليهود ... أقباس من الحق في أطباق من الأباطيل	٥١١
داود عليه السلام ، والقائد أوريا	٥١٢
تجرد القاضي ، ومخاطر الاشتغال بالقضاء	٥١٥
وجوب محافظة الحاكم على ذهب الدولة	٥١٩
الخيل في القرآن والسنة	٥٢١
سليمان عليه السلام ومنطق الطير	٥٢٧
مملكة سليمان عليه السلام بين التوراة والعرض القرآني في معزل عن الإسرائيليات	٥٢٨ ـ ٥٣٠
الاستخبارات ، أداة مشروعة للاطلاع على ما يغيبه العدو	٥٣٢
سبأ في قصة سليمان عليه السلام ... المملكة أم القبيلة ؟	٥٣٤
يقدم القرآن العظيم المعلومات في صورة كليات ومجملات تصلح لكل زمان ولكل مكان	٥٣٦

الفصل بين العسكر وسياسة الدولة في الإسلام	٥٣٨
عرش بلقيس : المجيء به وتنكيره ... أمران مثيران للجدل	٥٤٢ ـ ٥٤٤
دفعُ الله الناس بعضهم ببعض من أمر الله في هذا الوجود	٥٤٧
أقوال في هاروت وماروت	٥٤٨
السحر ... معرفته وممارسته	٥٤٩ ـ ٥٥٢
ما «وعد الآخرة» في قوله تعالى : «... فإذا جاء وعد الآخرة ... »؟	٥٦٣
الإسلام حلول لمشاكل العالم	٥٦٥
يأجوج ومأجوج في الكتاب والسنة	٥٦٩
قوة الحضارة في المجتمعات الإنسانية	٥٧١
الأنبياء والتدلل على الله في القرآن العظيم	٥٧٧
خلوص القلب إلى الله في قمة الشدة الهاصرة	٥٨١
هل ابتلع الحوت يونس عليه السلام ، أم التقمه ؟	٥٨٢
«من أين لك هذا ؟» من الضوابط الأخلاقية الاجتماعية في الإسلام	٥٨٦
البشارة بيحيى والبشارة بالمسيح عليهما السلام ... من بلاغة الكتاب المبين	٥٨٩
البعد الثالث لهذا العالم المادي	٥٩٥
الكلمة التي بشر بها يحيى عليه السلام	٥٩٧
طريق الدعاة معمدة بالدم	٦٠٠
العابدون أهداف للشيطان	٦٠٢
طعام مريم عليها السلام	٦٠٤
من هو يوسف النجار ؟	٦٠٧
يوسف ومريم عليهما السلام مثالان غير قابلين للاحتذاء	٦٠٨
«... فنصف ما فرضتم ...» قول أبي حنيفة	٦١٤
النفخ في مريم عليها السلام	٦١٥
لماذا كان الشرق مهد الديانات السماوية والوضعية ؟	٦١٦
أقوال في حمل مريم بعيسى عليه السلام	٦١٧
أقوال في النخلة والسري حيث وضعت مريم عيسى عليه السلام	٦٢٠ ـ ٦٢٢

obeikandl.com

حسن الظن بالله	٦٢٣
كلام عيسى عليه السلام في المهد	٦٢٥
الإنسان بين عالمي الأمر والخلق	٦٢٦
بر الوالدين في الإسلام	٦٢٨
عداء ناموسيي اليهود لعيسى عليه السلام، وشهادة كتاب الله عليهم	٦٣٠
التوحيد يعني البراءة من النفاق	٦٣٢
ماذا يعني الخلق بـ «كن» ؟	٦٣٣
انحراف ناموسيي اليهود وعسفهم الناس	٦٣٦
كل موحد حقيقي مسلم	٦٣٩
معجزة النبي الخاتم ﷺ : نماذج من الإعجاز القرآني	٦٤١ ـ ٦٤٤
دعاء عيسى عليه السلام بإنزال المائدة	٦٤٩
الوفاء بعهد الله	٦٥١
لين الأنبياء للمؤمنين	٦٥٣
الإعراض عن الجدال	٦٦٢
« ... وما قتلوه يقينًا ... » أدلة وشواهد من الأناجيل والقرآن	٦٦٧ ـ ٦٧٢
عالم الأمر ... نصوص من القرآن والإناجيل	٦٧٤ ـ ٦٧٦

obeikandl.com

٦

أهم المصادر والمراجع
التــي ذكرت في الحواشي

آرام دمشق وإسرائيل / في التاريخ والتاريخ التوراتي	فراس السواح	دمشق ١٩٩٥	
أباطيل التوراة	محمد علي البار	دمشق ١٩٩٠	
الإسرائيليات في التفسير والحديث	محمد حسن الذهبي	القاهرة ١٩٨٦/ ط٣	
البحر المحيط	أبو حيان الأندلسي	بيروت ١٩٨٣/ ط٢	دار الفكر
بلاد العرب	الحسن الأصفهاني	الرياض ١٩٦٨	ت: حمد الجاسر
بين الله والإنسان في القرآن	توشيهيكو إيزوتسو	حلب ٢٠٠٧	
تاريخ الطبري	ابن جرير الطبري	القاهرة ١٩٦٧/ ط٢	ت : محمد أبو الفضل إبراهيم
تاريخ العرب القديم	توفيق برو	حلب ١٩٨٣	
* الترغيب والترهيب	عبد العظيم المنذري	بيروت ١٤١٧	ت: إبراهيم شمس الدين
* تفسير البيضاوي	عبد الله البيضاوي	القاهرة ١٩٢٥	
تفسير الجلالين الميسر	الجلالان المحلي والسيوطي	بيروت ٢٠٠٣	ت : فخر الدين قباوة
تفسير القرآن العظيم	إسماعيل بن كثير	القاهرة ١٩٨٨	دار الحديث
التفسير الكبير	الفخر الرازي	بيروت ١٩٩٥	دار إحياء التراث
التوراة	مصطفى محمود	القاهرة	
التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير ؟	ليو تاكسل	١٩٩٤	الجندي للطباعة والنشر
* الجامع الصحيح	محمد بن عيسى الترمذي	بيروت	ت : أحمد شاكر وآخرين
* الجامع الصحيح المختصر	محمد بن إسماعيل البخاري	بيروت ١٩٨٧/ ط ٣	ت : مصطفى ديب البغا
الجامع لأحكام القرآن	محمد بن أحمد القرطبي	دار الكتاب العربي ط ٢	دار الكتاب العربي

(*) المكتبة الشاملة / برامج . إصدار دار التراث .

obeikandl.com

الحق المطلق	فاطمة شنون	بحث قيد الإعداد	
دائرة المعارف الإسلامية		القاهرة ١٩٦٩/ ط٢	النسخة العربية
* درء تعارض العقل والنقل	أحمد بن تيمية	الرياض ١٣٩١	ت: محمد رشاد سالم
دراسات تاريخية من القرآن الكريم	محمد بيومي مهران	الإسكندرية ١٩٩٥	
الدر المنثور في التفسير بالمأثور	جلال الدين السيوطي	بيروت	دار المعرفة
روح المعاني	شهاب الدين الآلوسي	بيروت ١٩٩٤	محمد حسين العرب
سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة	تخريج الألباني	بيروت ١٩٨٥/ ط٥	
* سنن ابن ماجه	محمد بن يزيد القزويني	بيروت	ت: محمد فؤاد عبد الباقي
سنن ابن ماجه	محمد بن يزيد القزويني	مصر ١٩٥٢	ت: محمد فؤاد عبد الباقي
* سنن أبي داود	سليمان بن الأشعث	بيروت	ت: محمد عبد الحميد
سنن الترمذي	محمد بن عيسى الترمذي	حمص ١٩٦٥	مكتبة دار الدعوة
سنن النسائي بشرح السيوطي		بيروت	دار إحياء التراث
السيرة النبوية لابن هشام	عبد الملك بن هشام	مصر ١٩٥٥/ ط٢	ت: سقا وأبياري وشلبي
* صحيح ابن حبان		بيروت ١٩٩٣/ ط٢	ت: شعيب الأرنؤوط
صحيح البخاري	محمد بن إسماعيل البخاري	١٩٧٦	ت: مصطفى ديب البغا
صحيح مسلم	مسلم بن الحجاج النيسابوري	بيروت ١٩٥٤	ت: محمد فؤاد عبد الباقي
غزوة خيبر	محمد أحمد باشميل	بيروت ١٩٧٩/ ط٥	
فتح الباري شرح صحيح البخاري	أحمد بن حجر العسقلاني	بيروت ١٩٨٩/ ط٢	ت: ابن باز وعبد الباقي
فضح التلمود	الأب براناتيس	بيروت	
فكر جارودي بين المادية والإسلام	عادل التل	بيروت ١٩٩٧/ ط٢	
في ظلال القرآن	سيد قطب	بيروت ١٩٦٧/ ط٥	دار إحياء التراث
القرآن الكريم			
قصص الأنبياء	إسماعيل بن كثير	بيروت ١٩٩٦/ ط٢	دار إحياء التراث
قصص الأنبياء	عبد الوهاب النجار	بيروت/ ط٣	دار إحياء التراث
قصص الأنبياء	عبد الوهاب النجار	بيروت ١٩٩٥	دار الخير
القوة الخفية	محمد التكريتي	حلب ٢٠٠٤	

obeikandl.com

الكامل في التاريخ	ابن الأثير / عز الدين الشيباني	بيروت ١٩٦٥	دار صادر ودار بيروت
التعريفات	علي بن محمد الجرجاني	بيروت ١٩٦٩	مكتبة لبنان
الكتاب المقدس : الترجمة العربية المشتركة	ـ العهد القديم ـ العهد الجديد	بيروت ١٩٩٥ بيروت ١٩٩٣	جمعية الكتاب المقدس
الكتاب المقدس : مترجم عن اليونانية	العهد الجديد	بيروت ١٩٩٨	جمعية الكتاب المقدس
الكشاف	محمود بن عمر الزمخشري	بيروت ١٩٨٦	دار الكتاب العربي
كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم	محمد علي التهانوي	بيروت ١٩٩٦	مكتبة لبنان
كشف الظنون	حاجي خليفة	طهران ١٩٤٧	المطبعة الإسلامية
الكلمة وأخواتها في القرآن الكريم	أحمد الكبيسي	بحث قيد الإعداد	
❋ المجتبى من السنن	النسائي	حلب ١٩٨٦/ ط٢	ت : عبد الفتاح أبو غدة
❋ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	علي بن أبي بكر الهيثمي	القاهرة/ بيروت ١٤٠٧هـ	دار الريان ودار الكتاب العربي
مروج الذهب	المسعودي	بيروت ١٩٦٥	ضبط يوسف أحمد داغر
❋ مسند الإمام أحمد	أحمد بن حنبل الشيباني	مصر	مؤسسة قرطبة
مسند الإمام أحمد بن حنبل	أحمد بن حنبل	بيروت	دار صادر
معجم البلدان	شهاب الدين ياقوت الحموي	بيروت ١٩٧٧	دار صادر
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام	جواد علي	بيروت / بغداد ١٩٦٨	دار العلم ومكتبة النهضة
❋ مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون	مصر	
مقدمة في أصول التفسير	أحمد بن تيمية	مصر	
المكتبة الشاملة	برامج		دار التراث
مكتبة البيت المسلم الحديث النبوي وعلومه	برامج القمة	الأردن	التراث لأبحاث الحاسب الآلي
ملامح في فقه اللهجات العربيات	محمد بهجت قبيسي	دمشق ١٩٩٩/ ط٢	
الملل والنحل	محمد بن عبد الكريم الشهرستاني	مصر ١٩٦٧	ت : محمد سيد كيلاني
موطأ الإمام مالك	مالك بن أنس	بيروت ١٩٧١	ت : أحمد راتب عرموش
النبوة والأنبياء من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ	علي مبروك	بيروت ١٩٩٣	

obeikandl.com